

ظاهرة اللبس في العربية

جدل التواصل والتفاصل



الدكتور

مهدي أسعد عرار



ظاهرةُ اللَّبْسِ في العربيّةِ

جدلُ التّواصلِ والتّفاصلِ

الدّكتور

مهدي أسعد عرار

جامعة بيرزيت

دار وائــل للنشر

الطبعة الأولى

٢٠٠٣

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٢٠٠٣/٣/٥٥٤)
٤١٠
أسع أسعد ، مهدي
ظاهـرة اللـبس فـي العربية: جدل التواصل والتفاصل/ مهدي أسعد. عمان: دار وائل، ٢٠٠٣.
(٤٢٤) ص
ر.إ. : ٢٠٠٣/٣/٥٥٤
الواصفات: اللغة العربية / قواعد اللغة
* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 9957-11-379-8 (ردمك)

* ظاهرة اللَّبس في العربية – جدل التّواصلِ والتّفاصل
* الدكتور مهدي أسعد عرار
* الطبعـــة الأولى ٢٠٠٣
* جميع الحقوق محفوظة للناشر



دار وائــل للنشر والتوزيع

شارع الجمعية العلمية الملكية – هاتف : ٥٣٣٥٨٣٧-٦-٠٠٩٦٢
فاكس: ٥٣٣١٦٦١-٦-٠٠٩٦٢ – عمان – الأردن
ص.ب (١٧٤٦ – الجبيهة)
www.darwael.com
E-Mail: Wael@Darwael.Com

الإهداء

إلى من ربياني صغيراً وكبيراً أهدي ثمرة حصاد ما زرعاه برا ووفاً، وإذعاناً لقوله -عزّ- " أن أشكر لي ولوالديك"... إلى دمعة الحزن اليتيمة التي ذرفتها عينك اليمنى وأنت تجودين بالروح بين يديّ يا غالية الروح ، إليك يا أيتها الميمونة الصادقة الصدّيقة، معولا على اللقيا في جنات النعيم بعد هذا الرحيل المثقل، إليك يا ميمونة الذكريات ، ويا ذكريات الميمونة.



بيان المحتوى

" ربّ يسّرْ وأعِنْ "

في مَقاصد العُنوان:

بذل القدماءُ الوُسع كلّه في تقعيدِ الظّاهرة اللّغويّة، آخذين بعين العنايةِ وسائلَ العربيّة في الإبانةِ عن المعنى، كالإعرابِ، ونظامِ الجملة، ودلالات الصّيَغ الصّرفيّةِ، معرِّجين على تحديد مقاصدِ الكلم ورسومِ التّعبيرِ، مُحتكمين إلى السّياق في تفسيرِهم لكثيرٍ مِن الأحداثِ الكلاميّةِ، ومع هذا الذي تقدّم نجد أنّنا نقف وجاهَ أنماطٍ كلاميّة مُلْبِسة حتّى مع توافرِ سياقٍ جُمْليّ، ومِن هنا تأسّس هذه الدّرسُ مِن خاطرٍ قام في نفس صاحبِه مؤدّاه أنّ اللّغة تُؤْذِن بالتّفاصل بمقدار ما تُعين على التّواصلِ، بلْ قد يلجأ المتكلّم إلى اللّغةِ وسيلةِ الإبانة ليتّخذَها متّكأً للتّعميةِ والتّغطية على ما يجول في نفسِه، أو ليصلَ إلى نهايات مفتوحةٍ عائمة.

والكتابُ هذا يأتلف مِن ثلاثة مطالبَ عريضة أولها: مطلبُ الحديثِ عن الإبانة في النّظام اللّغويّ، وقد سكنني خاطرٌ مضمونُه أنّ عليّ أنْ آخذ البحثَ بقوابلِه، مستفتحَه ببيانٍ مُقتضَب عن إمكاناتِ العربيّة في الإبانة، لأصلَ مِن هذا المُستفتَح إلى النّقطةِ المُشخَّصة التي تتوارى خلفها إمكاناتُ الإبانةِ، ويتجلّى ما هو مُعتاصٌ مُتأبٍّ في الدّلالة عن معناه، وليس المَقْصِد مِن هذا أنْ يُعطّل القولُ بفضل اللّغةِ في إقامةِ التّواصلِ، ولكنّه يرمي إلى تقصّي المصادر التي يتخلّقُ فيها اللّبس، وقد عقّبت بعد تمثُّلِ المواضع المرشّحة بمحاولةٍ لرفعِ اللّبْس، والحقّ أنّها متنوِّعةٌ، ومِن ذلك استرفاد بعض الظّواهرِ الصّوتيّةِ كالتّنغيم والمفاصلِ الصّوتيّة، وبعضِ الظّواهرِ الكتابيّة، كالتّرقيم، والاستدراكِ الكلاميّ والأقواس، وتكاملِ السّياق البنيويّ، ومنطقِ الأشياء في العالم الخارجيّ، ولا يُنسى فضلُ مطلبٍ عزيز في رفع اللّبسِ عن كثيرٍ مِن مُثُل اللّبس، وهو سياق الحال والأنظارُ الخارجيّة غير اللّغويّة.

وثاني مطالبِ هذا البحثِ الحديثُ عن المواضع المرشّحة لتخلُقِ اللّبسِ، ومِنها اللّبس الصّوتيّ الآتي مِن تغييب التّنغيمِ أو المفاصل الصّوتيّة المُفْضية إلى تداخلِ حدودِ الكَلِمِ والجملِ. ومِنها اللّبسُ الواقع في المستوى الصّرفيّ، ومِن بواعثِه العوارضُ التّصريفيّةُ، واختلافُ الأصل الاشتقاقيّ، وتناوبُ الصّيَغ، واشتباهُ الصّفة بالعلم؛ والمصدر بالاسمِ، واشتباهٌ في تعيين بعضِ الفصائلِ النّحويّةِ؛ ومنها اللّبس الواقعُ في التّركيبِ، ومِن بواعثِه خفاءُ العلامة الإعرابيّة الكلّيّ والجزئيّ، ومرجعُ الضّمير والتّعلّق، والحذفُ، وطول الجملة، ومرونةُ الجملة العربيّة، والإضافة، و"حروف المعاني"، وتناوبُها، واشتباهٌ في تعيين الزّمن النّحويّ. ومِنها اللّبس الواقعُ في المستوى المعجميّ، ومِن بواعثِه المشترَك اللّفظيّ، والأضداد، والمجالات الدّلاليّة، والدّلالات العائمة المُحتمِلة، وتباين اللَّهَجاتِ، ولا يُنسى في باب الحديثِ عن هذا الباعثِ اللّبسُ الآتي مِن التّطوّر الدّلاليّ؛ ذلك أنّ كثيراً مِن ألفاظ العربيّة المتقادِمةِ مُعمَّرة، وقد تراخى كثيرٌ مِن تلكم الألفاظِ عن دلالاتِه إلى حدّ الإيهامِ، والمشكلة آتيةٌ مِن خطورة فهمِ كلام السّابق كما يفهمُه اللاّحق.

وينضاف إلى ما تقدّم حديثٌ عن اللّبسِ الآتي مِن الأسلوبِ، وأوّل ما يميّزه عمّا تقدّم أنّه غير واقعٍ في جبِلّة اللّغة؛ إذْ إنّه ليس ممّا تُفرزه النّواميسُ الفاعلةُ في تشكيل النّظامِ اللّغويّ، وإنّما هو واقع في الأسلوبِ وإخراجِ الكلام، ومِن بواعثِه أنْ يُفهَم الكلامُ فهماً لفظيّاً على ظاهرِه، وحقّه أنْ يُحمَل على مَحْمل التّجوّز والانزياحِ اللّغويّ، أو أنْ تكون الدّلالة الأسلوبيّةُ عائمة مُحتمِلة، أو أنْ يكون مقصدِ المرسِل الأوّل الإلباسَ والتّعمية. أمّا اللّبس الآتي مِن السّياق فباعثُه انسلاخُ الحدث الكلاميّ مِن سياقه، وانقطاع المتلقّي عن السّياق الثّقافيّ والاجتماعيّ، وتغييب المواجَهة والمشاهَدةِ، ودخول الطّارئِ في سياق حدث كلاميٍّ يجري بين اثنين.

أمّا المطلب الثّالث فهو قائم على تمثّل تجلّياتِ اللّبس في بعضِ مُصنّفات الأوائلِ، ومنها مشكلُ القرآن ومتشابهُه وغريبه، وكذلك مُشكلُ الحديث وغريبُه، وكتب الأحاجيّ والألغاز، وقد بدا لي في هذا البحث أنّ اللّغة تمتلك إمكاناتِ الإلباس والتّفاصل كما تمتلك إمكاناتِ الإبانة والتّواصل، ولعلّ كتب الأحاجيّ والألغاز مَعْلَمٌ مشرِقٌ في دِلالته على استفزازِ إمكانات اللّغةِ في هذا المقصدِ.

والحقّ أنّ طبيعةَ البحث تفضي به إلى أنْ يكونَ في إحدى وُجهاته محضَ تطبيقيّ ، قائماً على رصدِ أحداثٍ كلاميّة يقع فيها لَبس أو غموض ممّا يشيع في قاعةِ المحاضرات، أو زحمةِ الشّارعِ، أو لغةِ الإعلام، وقد تردّدتُ بين شواهدَ مقصودةٍ، وأخرى مرصودةٍ. ومِن وجهة أخرى، أفضتْ هذه الدّراسة إلى معاودةِ النّظر في مظانّ القدماءِ اللّغويّة، وإلى معاودةِ النّظر في بعضِ مظانّ اللّغويّين الغربيّين الذين أولَوا هذا المطلب عناية فائقةً، وسبيلي إلى التّأتّي في هذا الدّرس الاستئناسُ بمقولاتِ علم اللّسانِ الحديث عامّة، ومقولاتِ علم الدّلالة خاصّة، جانحاً إلى النّظر البِنيويّ التّحليليّ، آنَ دراسة اللّبس الواقعِ في جِبِلّة اللّغةِ، مُعرِّجاً على النّظر التّاريخيّ في دراسة اللّبسِ العارضِ مِن قِبَل التّطوّر الدّلاليّ، مُقيماً على النّظرِ الوظيفيّ الذي هو الخيطُ الجامع الذي ينتظم عقْد هذه الأطروحةِ.

ويبقى حقّاً عليّ أنْ أُزجيَ مِن الشّكر أطيبَه وأعذبه إلى الأخِ الكبير، والصّديق الحميم الدّكتور "وليد سيف" أستاذ الصّوتيّات واللّسانيات، فقد تولّى هذا العمل بالمتابعةِ والتّنقير والتّهذيب، وليس يفوتني شكرٌ آخرُ موصول بالمحبّة والإقرارِ بالفضل مِن التّلميذ إلى الشّيخ؛ إلى أستاذ العربيّةِ الدّكتور "نهاد الموسى" أستاذ العلوم اللّغويّة، فقدْ نظر في أصول هذا العمل، وتفضّل بمناقشته، وليس يفوتني ثالثةً أنْ أشكر الأساتذة الكرام الذين تفضّلوا بقراءته والتّعليقِ عليه، وهم الأستاذ الدّكتور "لويس مقطّش" أستاذ اللّسانيّات في قسم اللّغة الإنجليزيّة، والأستاذ الدّكتور "إبراهيم السّعافين" أستاذ الأدب والنّقد الحديثين، والأستاذ الدّكتور "مرتضى

باقر" أستاذ اللّسانيّات في قسم اللّغة الإنجليزيّة. **ولا يفوتني تقديمُ** الشّكر الجزيل إلى الأب الرّوحي أستاذي الدّكتور "إحسان عبّاس" **الذي أفدتُ** مِن ملاحظِه ومكتبتِه العامرة.

د. مهدي عرار

القدس الشريف – فلسطين

٢٠٠٣م

المطلبُ الأوّل

الإبانةُ في النّظامِ اللّغويّ

الفصل الأوّل

مساءَلات

الإبانة في المستوى الصّوتيّ

الإبانة في المستوى الصّرفيّ

الإبانة في المستوى المعجميّ

الإبانة في المستوى التّركيبيّ

الإبانة الآتية مِن السّياق

النّظام اللّغويّ

مُساءَلات:

مِن المقرَّر المُستحكِم أنّ اللّغة ظاهرةٌ صوتيّة، وأنّ وظيفتها الأولى التّواصلُ، والذي يخصّ هذه المباحثةَ الجزئيّة في هذا المَطْلَب مساءلةٌ تتبني على ذلكم "المُقرَّر المُستحكِم" مؤدّاها: كيف تصبحُ المادّة الرّمزيّةُ الصمّاء "الأصوات" قيمةً حاملة للمعنى، وكيف يقوم الدّالّ بتوصيل المدلولِ المرادِ قصدُه على وجه التّعيين؟ بل كيف تغدو اللّغة مَعِيناً لِما نريد نقلَه مِن أفكار وخواطرَ في زحمةِ الشّارع أو في البيتِ الأسَريّ، أو قاعة المحاضرات؟.

مِن وجهةٍ ثانية: لعلّ هذه المساءلةَ تستدعي ملحظاً لسانيّاً مضمونه أنّ اللّغةَ الأمّ لا تُتعلَّم بل تُكتسَب اكتساباً فطريّا، فليس المرء محتاجاً إلى معلِّمٍ يأخذ بيدِه إلى طرائقِ الإبانة عن المعنى، بل قد يكونُ المتكلِّم أمّيّاً ليس له حظٌّ مِن العلم باللّغةِ قراءتِها وكتابتِها، ولكنّه في مخاطباتِه صاحبُ بيانٍ مُعجِب، ولَدَدٍ مُفحِمٍ لا ينازعه في مماحكتِه ومنطقه اللّغويّ دارسٌ لفنّ القولِ في العربيّةِ، وهكذا يقفز إلى الخاطرِ ثانيةً مطلبُ الحديث عن وسائلِ الإبانةِ عن المعنى.

ومِن وجهةٍ ثالثة: إذا ما تجاذب الحديثَ اثنان ينتسبان إلى بيئةٍ لغويّة واحدة، كالعربيّةِ، وكان بينهما ثالثٌ ليس له عهدٌ بتلك اللّغة البتّة، فإنّه سيسمع أصواتاً جلّها مألوفةٌ في أسماعِه، ذائعة على لسانِه، ولكنّه لا يقف على المتعيِّنِ منها، فتغدو هذه الأصواتُ في انبهامِ مُراده واستعجامِه كخريرِ الماء أو كهديلِ الحمام، ومُنتَهى ما يقتنصه مِن معانٍ هو استشفافُ ما يومِئ به المقامُ اللّغويّ مِن حركاتِ الجوارح، وعلائمِ الوجهِ، ودرجةِ الصّوت، وهذا يفضي إلى رجيعٍ ثالثٍ مِن التّسآل عن وسائلِ الإبانة.

لعلّ الإجابة الأوّليّة الشّافيةَ تتمثّل في كلمة مُختزَلة، وهي "النّظام"، فأبناءُ اللّغة يتواصلون لأنّهم يحلّلون كلامَهم مسموعاً ومقروءاً بالنّظام نفسِه الذي يبثّه

المرسِل، أي أنّ كِلا المرسلِ والمستقبِل يفيئ إلى مرجعٍ نظاميٍّ مشترك، فينشأ التّواصل بينهما وفاءً لهذا الاشتراك، ومَن يخرج عن إطار هذا المرجعِ النّظاميّ الخلاّق لغربتِه عنه فإنّ حظّه التّفاصلُ بإطلاقه. ولكنْ، ما النّظامُ؟

ليس النّظامُ مقصوراً على العلم بمعاني المفرداتِ المعجميّة، فهذا لا يؤلّف نظاماً البتّةَ، ولا يشكّل لغة مبتغاها التّواصلُ، ولكنّه مجموعةٌ مِن المستوياتِ البِنيويّة المتداخِلةِ التي تعمل في تناغمٍ كلّيّ، الأوّلُ يفضي إلى الثّاني، والثّاني ينبني على الأوّلِ، ويبقى الفصلُ بين هذه المستوياتِ متعذّراً، إلاّ على مستوى نظريٍّ مجرَّد؛ ذلك أنّ ابنَ اللّغة لا يقوم باستجماعِ الأصواتِ اللّغويّة التي يبغي منها تأليفَ كلامه، حتّى يصوغَها في مقاطعَ مراعياً قيودَ التّتابع الصّوتيّ[1]، ثمّ يَستشرف بُعْداً ثانياً وهو تفريغُ تلكم الأصوات في مورفيمات، ثمّ يُنْزِلها منازلَها معتمداً على بعدٍ ثالث هو "التّركيب". إنّ إنتاجَ الكلام الفعليّ ما هو إلاّ تجلٍّ مِن تجلّياتِ اللّغةِ الجمعيّةِ الحاضرة في الذّهن "النّظام"، وهو بالوصفِ الذي تقدّم عمليّة إراديّةٌ، ولكنّها عفويّة تلقائيّةٌ، وتبقى وسيلة الإبانةِ عن المعنى النّظامَ اللّغويّ في مستوياته المتلاحمة: الصّوتيِّ والصّرفيِّ والمعجميِّ والتّركيبيّ[2]. ولكنّ هذا الذي تقدّم حديث عامّ يعوزُه بسطٌ للقولِ وتخصيص؛ تخصيصُ القولِ على العربيّة، وبسط القول في تمثُّل أنحاءِ هذا النّظام "العربيّة" تمثّلاً عَريضاً لاستشرافِ وسائلِها في الإبانةِ عن المعنى، وليس القصد أنْ أقفَ عند كلِّ تفصيلاتِ هذا النّظام؛ ذلك أنّه مطلبٌ يتعذّر تحقيقُه في هذا الكتابِ.

---

(١) لمزيد بسط القول في قيود التتابع الصوتي في العربية. انظر: محمد الخولي – الأصوات اللغويّة، ط١، دار الفلاح، عمان، ١٩٩٠م، ١٨٦-١٩٢.

(٢) يذهب تمام حسان إلى أن العربية تتألف من ثلاثة أنظمة، وهي الصوتي، والصرفي، والنحوي، وقائمة من الكلمات التي لا تنتظم في جهاز واحد. انظر: تمام حسان – اللغة العربية معناها ومبناها، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء، (د. ت)، ٤٠.

لمّا كانت اللّغةُ مؤتلفةً مِن مستوياتٍ متلاحمة، ولمّا كان كلّ مستوى يؤدّي دوراً وظيفيّاً يفضي إلى مزيدِ معنى- لمّا كان ذلك كذلك- وجب عليّ أنْ أمضيَ مع كلّ مستوىً تمثّلاً لثنائيّة عريضةٍ هي عماد البحث (التّواصل والتّفاصل):

أوّلاً: الإبانة في المستوى الصّوتيّ:

١- الملامحُ التّمييزيّة: "Distinctive Features"

معلومٌ أنّ الكلام يأتلف مِن وَحَداتٍ صوتيّة صُغرى تنتظم في مَسْلَكين هما: الصّوامتُ والصّوائت، ولكلّ وَحْدةٍ صوتيّة ملامحُ خاصّة تميّزها عن غيرِها، وهذا هو مَكمن الملامحِ التّمييزيّة، فصوت الصّاد ممتازٌ عن صوتِ السّين؛ مع أنّ بينهما جوامعَ عريضة، كالمخرجِ وصفةِ التّحكّم والهمس، ولكنّ الامتيازَ بين هذين الصّوتين آتٍ مِن ملمَحِ التّفخيم وضدّه التّرقيق، وبهذا أصبح في منظومةِ أصوات العربيّةِ فونيمان مستقلّان لا يقوم أحدهما مقامَ الآخر مِن وجهةٍ وظيفيّة، فكلمة "صَفَر" مباينة في دلالتِها لكلمة "سَفَر"، وكلمة "نَسر" تفارق كلمةَ "نصر"، وكلمة "مسّ" تفارق كلمةَ "مصّ"، وقد عُدَّت الفونيمات-كما سنتبيّن بَعْداً - أصغر الوَحَدات الفونولوجيّةِ في النّظم اللّغويّة، وثَمّ رأيٌ آخرُ أخذ به "تروتسكي"، أحدُ المؤسّسين لمدرسة "براغ"، وهو أنّ الفونيماتِ ليست أصغرَ الوحَدات، بل هي حُزَم مِن الملامح التّمييزيّة[1]، ومردّ إقامةِ هذه الفروق المعنويّةِ عائد إلى ملحظِ "الملامح التّمييزيّة" التي هي المدخَل العريضُ لتمايزِ أصوات اللّغة[2]، "ومِن الظّاهرِ - على مستوى تجريبيّ خاطفٍ - أنّ بعض الفونيماتِ متداخلة في خصائصِها الصّوتيّة أكثرَ مِن غيرِها، ومِن ذلك "P" و"b"، وإذا ما قوبلتْ فونيمات اللّغة بغية المقارنةِ، وحُلِّلت أيضاً تنوّعاتها الصّوتيّةُ فإنّ ذلك يُؤْذِن بامتيازِ كلّ صوتٍ عن الآخر بتعيّن

---

(١) ليونز ، جون – اللغة وعلم اللغة، ترجمة مصطفى التوني، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٧م، ١٢٤.

(٢) تمتد هذه النظرية المعاصرة في أصولها إلى ما وضعه ياكوبسون وتروبتسكي، ثم أدخل عليها إضافات وملاحظ؛ ذلك أن ثمة نقصاً في الملامح التي جاء بها ياكوبسون انظر:
Katamba, F., An Introduction to Phonology, New York, 1989,P. 38-42

التّباينِ في الملامحِ التّمييزيّة النّطقيّةِ، ثمّ إنّ هذه الملامحَ تؤدّي وظيفتَها في حالاتٍ متعدّدة لتميّز أزواجاً مِن الفونيمات"(١)، ولذلك عُني في دراسة الملامحِ التّمييزيّةِ بالقيمة الوظيفيّةِ التي يؤدّيها تبادل الفونيماتِ، فقد أشير إلى أنّ الفونيمات نماذجُ صوتيّة ذات قدرةٍ على إقامةِ بَون بين معاني الكلماتِ ودوالّها(٢)، ولا يعني هذا أنّ الصّوتَ في ذاته ذو دلالةٍ، بل يعني أنّ الصّوتَ له محمول دلاليّ، فعند "تحليل كلمةٍ ما مِن وجهةِ نظر جانبها الصّوتيّ، فنحن نحلّلها إلى سلسلةٍ مِن الوَحَدات أو الفونيماتِ المتميّزة، وعلى الرّغم مِن أنّ الفونيم عنصرٌ يساعد على إبرازِ المعنى، إلاّ أنّه هو ذاته خِلوٌ مِن المعنى– إنّ ما يميّزه مِن كلّ العناصرِ اللّغويّة الأخرى، وبصورةٍ أكثر عموميّة، مِن كلّ القيم السيميوطيقيّة – هو كونُه رمزاً سلبيّاً فقط"(٣)، وعند هذا تصبح مهمّةُ الباحث التّحليل، أعني "تعيين السّمات المميّزةِ التي تتشكّل منها الفونيمات، تعيين الكيفيّات المميّزةِ التي يمكن أنْ يُردّ إليها كلّ فونيم مِن الفونيمات"(٤). وتقومُ نظريّة الملامح التّمييزيّة على مقابلةٍ بين ملحَظ الظّهورِ والغيابِ، ويُمثّل ظهورُ الملمح بعلامة(+)، والغياب بعلامة(–)(٥)، وقد تمّ استجماع طائفةٍ مِن الملامح عِدّتُها في العربيّة اثنا عشرَ ملمَحاً، وهي:

---

(١)Robins, R. H., General Linguistics, 4th ed, Longman, New York , 1989,P. 139.

(٢) Kramsky, J., The phoneme: An Introduction to the History and Theories of A Concept. Willhelm, Fink Verlag, Munchan, 1974, P. 127.

(٣) يا كوبسون، رومان – ست محاضرات في الصوت والمعنى، ترجمة حسن ناظم وعلي صالح، ط١ المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤م، ١٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ١٢٢، وقد ذهب إلى هذا المعنى أندريه مارتنيه مشيراً إلى أن التحليل الصوتي يرمي إلى تعيين عناصر اللغة الصوتية وتصنيفها بالنظر إلى الوظيفية التي تؤديها في اللغة المعينة، وتكون هذه الوظيفة تمايزية أو تضادية في تعارضها مع العلاقات الأخرى. انظر مارتينيه، أندريه– مبادئ ألسنية عامة، ترجمة ريمون رزق الله، ط١، دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٠م، ٧١. وانظر:
Fant, G., Speech, Sound, and Features, MIT Press, Massauchusetts, 1973,P. 156.

(٥) انظر: Katamba- An Inroduction, P. 42.

١- **التّقدميّة "Anterior"** : وتضمّ الأصوات التي تُنطَق مِن مقدّمةِ الفم، ولذلك تجمع في بابها بين الأصواتِ الشّفويّة، والشّفوية الأسنانيّة، "وبين الأسنانيّة"، واللّثويّة.

٢- **الأماميّة "Coronal "** : وهي التي يُستعمل في نطقها الجزء الأماميّ مِن اللّسان، وتشتمل على الأصوات "بين الأسنانيّة"، واللّثويّة، والغاريّة.

٣- **المنخفضة "Low"** : وهي الأصوات التي يكون اللّسان في وضع انخفاض عند النّطق بها، وتضمّ الأصوات الحلقيّة.

٤- **المجهورة "Voiced "** : وهي الأصوات التي يهتزّ الوتران الصّوتيّان عند النّطق بها.

٥- **الأنفيّة "Nasal "** : وهي الأصوات التي يكون سبيلُ الأنفِ مفتوحةً لتيّار الهواء الخارجِ، وسبيل الفم منحبِسةً.

٦- **الجانبيّة "Lateral "** : وهي الأصوات التي يمرّ الهواء مِن جانبي الفم آنَ النّطق بها.

٧- **الإطباقيّة "Emphatic"** : والإطباق نطقٌ ثانويّ يصاحب مخرج النّطق الرّئيس، وتتمثّل هيئة النّطق بهذه الأصوات بأنْ ترتفع مؤخّرة اللّسان نحو الطّبق ارتفاعاً خفيفاً مع توتّر الحلق، وارتداد مؤخّرة اللّسان قليلاً نحو الحلق.

٨- **الصّفيريّة "Sibilant"** : وهي الأصوات النّاشئة عن تضييق مجرى الهواء في الفم، فيؤدّي هذا التّضييق إلى أنْ يكون الاحتكاك ذا سمة صفيريّة.

٩- **الرّنينيّة"Sonorous"** : وتشتمل على الأصوات التي يكون تردّد الصّوت فيها جليّا له بروز ، وهي: "م ، و، ر، ل، ن ، ي".

١٠- **المقطعيّة:"Syllabic "**: وهذا ملْمح خاصّ بالصّوت الذي يقع في مركز المقطع الصّوتيّ، أي في نواته، وهو موضع الحركةِ "الصّوائت".

١١- **الاحتجازيّة "Consonantal"** : وهي الأصواتُ النّاشئة عن اقتراب النّاطقِ النّشط مِن النّاطق السّلبيّ اقتراباً كبيراً بدرجات متفاوتاتٍ، ممّا يؤدّي إلى

احتجاز الهواءِ في مكان النّطق بدرجات متفاوتةٍ تتردّد بين الاحتباس التامّ والاحتكاك، وتشتمل على جميع صوامتِ العربيّةِ، ما خلا الواو والياء والهاء والهمزة.

١٢- الاستمراريّة"Continual": وهي الأصوات التي يخرج الهواء مِن مكان النّطق في هيئةٍ مستمرّة، وتشتمل على جميع الصّوامتِ، ما عدا "الهمزة ، م ، ل ، ن ، ر ،ج ، الأصوات الانفجاريّة"[١]:

أمّا الصّوائت فإنّها تُميَّز بالنّظر إلى ثلاثة ملامحَ، وهي الارتفاع، والأماميّة، والطّول، ولعلّ في الهيكلة الآتية بياناً يجلّي ما تقدّم:

الملامح	الكسرة "I"	الضمة "u"	الفتحة "a"	الياءii	الواو u u	الألف aa
مرتفع	+	+	–	+	+	–
أمامي	+	–	+	+	–	+
طويل	–	–	–	+	+	+

إذن تبيّن أنّ الملامح التّمييزيّةَ هي العنصر الفاعلُ في تمييز الفونيماتِ، بل إنّ الفونيمات في استقلالها وتمايزها مُنْتَج مِن مُنْتَجاتِ الملامح التّمييزيّةِ، وما تقدّم مِن بيان في تمثّل أنحائها هو بحثٌ في علّةِ العلّة؛ أي أنّ تباين المعاني مردّه إلى تباينِ الفونيمات، وتباينَ الفونيمات مردّه إلى الملامحِ التّمييزيّة، ولعلّ هذا يفضي إلى وقفةٍ مُقتضَبة مع هذا المُنتَج التّركيبيّ "الفونيم"؛ إذْ إنّه عُرّف بأنّه كيان معقَّدٌ يأتلف مِن حزمةٍ مِن تلك الملامح[٢]، وقيل إنّ الفونيمات وَحَدات صوتيّة صُغرى

---

(١) تحدث "Katamba" عن نظام "SPE" وهو عنوان كتاب اسمه "The Sound Pattern of English" ، وهو من صنع تشومسكي وهاليه ، وقد أحصى أربعة وعشرين ملمحاً تمييزياً، والذي يخص العربية هو ما تقدم انظر:

Katamba- An Introduction. P. 42-53.

(٢) انظر: ياكوبسون – ست محاضرات، ١٤٤، وانظر. Kramsky – The Phoneme, P. 116. وقد بين اللغويّ Daniel Jones **أن كل التعريفات التي وضعت للفونيم يمكن مهاجمتها** ، ذلك أن بمكنة المتأمل أن يقف على

يفضي تغيّرها إلى تغيّرِ المعنى[1]، وقيل إنّ الفونيم عائلةٌ مِن الأصواتِ المتشابهة[2]، وقيل هو جزءٌ غير قابلٍ للاختزال[3]، وقيل هو قيمةٌ تمييزيّة لا تنجز وظيفتَها بفضلِ تفردّها الصّوتيّ، وإنّما بفضلِ تقابلها التّبادليّ في مضمارِ نظامٍ معيَّن[4]، وقيل هو "مجموعةٌ أو تنوّع أو ضرب يضمّ أصواتاً ينظر إليها المتكلّمون على أنّها تمثّل وَحدةً واحدة"[5].

والملاحظُ أنّ تعريفاتِ الفونيم تجمع بين الصّوامتِ والصّوائت باعتبارِها مظاهرَ يَصدُق عليها وصفُ الفونيم أو تعريفه، فمعنى "عَرْض" و"عِرْض" و"عُرْض" متباين بتباينِ الفونيمات، وهي الصّوائت(الفتحة والضمّة والكسرة)، ويذهب ابن جنيّ إلى أنّ الحركة تابعةٌ للحرفِ، وهي في الرّتبة بعده، "لأنّ الحركةَ إذا كانت بعضاً للحرف، فالحرف كلٌّ لها، وحكمُ البعض في هذا تابع لحكمِ الكلّ"[6]. ويقول أيضاً: "ذلك أنّ الحرف كالمحلّ للحركةِ، وهي كالعَرَض فيه، فهي محتاجة إليه"[7]. وليس هذا بمرضيٍّ مِن وجهةٍ لغويّةٍ حديثة؛ ذلك أنّ نظريّة الفونيمِ المشارَ إليها آنفاً تنسخُ هذا الوهم.

مناقذ للشذوذ والاستثناء، انظر: Jones, E., The Phoneme, its Nature and Use, Cambridge, Heffer and Sons, 1962. P.1 وانظر: أحمد مختار عمر- دراسة الصوت اللغويّ، عالم الكتب، القاهرة ، ١٩٩١م. ١٧٤.

(١) Kramsky – Ibid, P. 127.

(٢) Tiffany, W., and Carrell, J., Phoneticts: Theory and Application, McCraw- Hill Boole Company, 1977, P. 31.

(٣) انظر: ياكوبسون – ست محاضرات ، ١٣٧.

(٤) انظر: شتراوس – مقدمة كتاب ياكوبسون (ست محاضرات)، ١٩.

(٥) باي، ماريو- أسس علم اللغة، ترجمة أحمد عمر، منشورات جامعة طرابلس، طرابلس، ١٩٧٣م، ٥٠.

(٦) ابن جني، أبو الفتح – سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي ، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٩٣م. ٣٠/١.

(٧) المصدر نفسه، ٢٨/١.

ولكنْ، ما دام الفونيمُ يؤدّي وظيفة فهو موجودٌ، والسّؤال الآن عن شكل هذا الوجود[1]. يحدث كثيراً في بيئاتٍ صوتيّة معيّنة أنْ تتغيّر صفة الصّوتِ، كقولنا "مسطوح"، فالسّين في سياقها الصّوتيّ صادٌ، وكذلك "طاب"، فالصّائت الطّويل(ألف المدّ) متأثّر بصوتِ الطّاءِ فجاءت مفخّمةً، وهي ليست كالألفِ في "ساب"، والملاحظ مِن هذين المَثَلين أنّ الفونيم واحدٌ(السّين، والألف)، ولكنّه متنوّعٌ بتنوّعِ البيئة الصّوتيّةِ التي يَرِد فيها، وليس هذا التنوّع ذا قيمةٍ تمييزيّة وظيفيّةٍ، ولهذا لا يَصْدُق عليه تعريف الفونيم، لأنّ تباينَ المعنى آتٍ مِن تباين الفونيمِ كما تقدّم قَبْلاً، وقد سُمّيت تلكم التنوّعات الصّوتيّة السّياقيّة بالألفونات[2]. وقد شُبّه الفونيم بأنّه عائلةٌ مِن التنوّعاتِ الصّوتيّة(Variants)التي لا تحمل قيمةً وظيفيّة[3]:

"لاحظْ أنّ الفونيم لا يُعرَّف باعتباره صوتاً، ولكنْ باعتباره فئةً أو عائلة مِن الأصوات، وكما يجب أنْ نتعلّم، فالأصوات المستقلّة في اللّغة تتباين مِن وجوهٍ كما يتباين أعضاء العائلةِ الإنسانيّة الواحدة، مع أنّ بينهم مَشابهَ عائليّةً وثيقة، إنّ الاختلافَ الآتي مِن هذا النّوع يوصفُ بأنّه غير مميّز؛ ذلك أنّ هذا العنصرَ مِن العائلة الصّوتيّة يمكن أنْ يحلّ محلّ صوتٍ آخرَ في كلمة أخرى دون أنْ يُؤْذِن هذا الإحلال بتغيّر المعنى، مع أنّ هيئة النّطقِ مختلفة"[4]. ولهذا عُرّف الألفون بأنّه مظهرٌ ماديّ مباين للفونيم[5]، وقد ذهب "ماريو باي" إلى أنّ موضوعَ علم الأصواتِ

---

(١) ياكوبسون- ست محاضرات، ١٠١.

(٢) لمزيد بسط القول انظر: مطلب "التمايز بين الفونيمات والألفونات": عند Katama, An Introduction, P. 18-22.

(٣) انظر Katamb, An Introduction, P. 18. ، وانظر: مالمبرج، برتيل – الصوتيات، ترجمة محمد حلمي هليل، عين للدراسات والبحوث، مصر، ١٩٩٤، ١٦٩.

(٤) Tiffany and Carrell- Phonetics,P . 31.

(٥) انظر: Bolinger, D., Aspects of Language, U.S.A. 1968,P. 43. ، نقلاً عن أحمد مختار عمر – دراسة الصوت اللغويّ ، ١٨٤.

هو أصوات اللّغةِ المُدركة "الألفونات"؛ ذلك أنّها حقائق يمكن قياسها بدقّة بالآلاتِ"[1].

والملاحَظ أنّ تمييزَ الألفون قائم على فكرةِ ملحظ التّوزيعِ التّكاملي Complementary Distribuition، والمُستخلَص مِن هذا المصطلح أنّ ألفونات الفونيمِ الواحد لا تتناوبُ في بيئةٍ صوتيّةٍ متماثلة[2]، أمّا الفونيم فهو يتّسم بالحريّة النّسبيّةِ في حركتِه، فقد يكون هناك تقابلٌ استهلاليّ: "تال، قال، مال"، أو تقابل وسطيّ: "رفض، رمض، ربض"، أو تقابل ختاميّ: "قاس، قام، قال"[3].

وقد وقف القدماءُ عند ملحظ المتغيِّراتِ السّياقيّة التي لا تحمل قيماً وظيفيّةً، ومِن ذلك حديث ابن جنيّ عن الأصواتِ التي تتفرّع عن أصواتِ الهجاء، كالنّون الخفيفة، والهمزةِ المُخفّفة، وألف التّفخيم، وألفِ الإمالة، والشّين التي كالجيمِ، والصّادِ التي كالزّاي[4]. أمّا الهمزة المُخفَّفةُ فهي التي تُسمَّى بين بين، ومعنى "بين بين" أنّها "ضعيفة ليس لها تَمَكُّنُ المحقّقة، ولا خلوص الحرف الذي منه حركتها"[5]. وأمّا ألفُ التّفخيم فهي التي تكون بين الألفِ والواو؛ نحو قولهم: سُلام. وأمّا الشّين التي كالجيمِ فهي الشّين التي قلّ تفشّيها واستطالتها. وأمّا الصّادُ التي كالزّاي فهي

(١) ماريو باي – أسس علم اللغة، ٥٠، وقد بين Katamba أن الفونيم يتمثل بالرموز الكتابية " الحروف".

وفي مقام الحديث عن الألفون يشار إلى أنه له ضروبياً، كالألفون السياقي، وقد تقدم ذكره، والألفون الفرديّ أو الإقليميّ، وتسمى بالتغيرات الحرة "Free Variants" والألفون العارض، كالخطأ النطقي، وقد أطلق مترجم كتاب " أندريه مارتنيه" على الألفونات مصطلح " بدائل" جانحاً إلى جعلها ضربين: بدائل فردية وسياقية.

انظر: مارتنيه – مبادئ ألسنية، ٨٨، لمزيد بسط القول انظر: مالمبرج –الصوتيات ، ١٧١، والخولي– الأصوات اللغويّة ، ٦١.

(٢) انظر: Katamba – An Introduction,P. 19.

(٣) لمزيد بسط القول انظر: الخولي – الأصوات اللغويّة، ٦٦.

(٤) انظر: ابن جنيّ – سر صناعة الإعراب، ٤٦/١.

(٥) المصدر نفسه، ٤٨/١.

التي قلّ همسُها، وحدث فيها ضربٌ مِن الجهر لمضارعتِها الزّاي؛ ومِن ذلك "قصد"[١].

٢- التّنغيم "Intonation"

ظاهرةٌ فونيميّة عامّة، تدلّ على تغيّر درجة الصّوتِ، ارتفاعاً أو انخفاضاً[٢] لمناسبة المعنى المراد تعيينُه، وتنتسبُ هذه الظّاهرة لا إلى الفونيماتِ المقطعيّة، بل إلى "الفونيمات الفوقطعيّة" مؤدِّية وظيفتين متداخلتَين: لغويّة وأخرى غير لغويّة. أمّا اللّغويّة فباستحضارِ التّنغيم يكون بمُكْنةِ السّامع أنْ يميِّز المعنى المرادَ؛ ذلك أنّه "يُستعمَل لرفعِ الغموض النّحويّ" [٣]. وأمّا الأخرى غيرُ اللّغويّة، فهي مَبنيّة على الأولى؛ ذلك أنّ التّنغيم يهيِّئ للمتكلِّم (على مستوى صوتيّ) أنْ يُبديَ ما يعتمل في نفسه مِن مشاعرَ، وبهذا يكون التّنغيم في سياقه الحيّ مُحمَّلاً بمعانٍ غير لغويّةٍ تتضافر مع قرينتِها اللّغويّة لتمثيلِ المعنى المُراد[٤].

وما دام التّنغيم قائماً على درجةِ الصّوت(Pitch) ، فهذا يعني أنّه ذو مستويات متباينة؛ كأنْ يكون تنغيماً عالياً أو هابطاً أو محايداً[٥]، وقد يقعُ في هذا كلّه على مستوى الجملةِ أو الكلمة[٦]، ومِن أمثلةِ وقوعه على مستوى الجملة :"**هو صادق**". فقد تكون جملة خبريّةً، وبهيئةِ تنغيم مفارِق للأوّلِ قد تكون استفهاميّةً، وقد

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ١/٥٠ ، وانظر حديث تمام حسان عن هذه المتغيرات في كتاب سيبويه: اللغة العربية ، ٥٣-٥٧.

(٢) انظر: Singh, S., Phonetics: Principles and Practice, University of Parke Press. 1982. P.187.

(٣) Katamba- An Introduction,P. 244

(٤) انظر هاتين الوظيفتين : Singh- Phonetics, P. 187,
Lehiste, I., Suprasegmental, , The M.I.T. Press, Massachusetts, 1977. P. 95.
Crystal, D., A Dictionary of Lingusitics and Phonetics, Blackwell, Massachusetts, 1991,P. 182.

(٥) انظر: Singh- Phonetics ,P. 188.

(٦) انظر: عصام نور الدين – علم وظائف الأصوات اللغويّة ، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت ، ١٩٩٢م. ١٧٥.

تكون تعجبيّةً، أو استهزائيّة، أو توبيخيّةً، والمُعوّل عليه في تعيينِ معنى دون آخرَ فيما تقدّم هو التّنغيمُ الذي لا يتجلّى إلاّ في هيئةِ حدث كلاميٍّ منطوقٍ.

ومِن أمثلةِ ما تقدّم بيانه قولُنا مستفهمين: "ماذا تقرأ ، شكسبير[1]"، وموضعُ النّظر ههنا "شكسبير"؛ ذلك أنّه قد يكونُ منادى حُذفت أداة ندائه، وقد يكون مُستفهَما عنه، وتعيُّن أحدِ هذين المعنيين حاصل بهيئةِ التّنغيم؛ النّداءِ أو الاستفهامِ.

وقد يقع التّنغيم على مستوى الكلمةِ، فيُسمّى "نبرَ السّياق" أو "نبر الجملة"، ومعناه أنّ المتكلّم يقصدُ إلى كلمة في جملتِه فيزيد مِن نبرها وتمييزِها مِن غيرِها مِن كلمات جملته بغيةَ تأكيدِها أو الإشارةِ إلى غرض خاصّ[2]، ومِن ذلك قولُنا:

هل أنتَ فعلتَ هذا؟

قد يميِّز المتكلّم كلمةَ "أنت" بإضافة جهدٍ عضليٍّ تنغيميٍّ عليها، فيكون المعنى أنّه يستنكرُ عليه وقوعَ الفعل منه، وقد يقع الجهد على "هذا"، فيكون المعنى استنكاراً مِن المتكلّمِ على الفعلِ لا على الفاعلِ، وثَمّ بونٌ بين المعنيين جليّ؛ معنى استنكارِ ما قد صدر مِن فعلٍ، أو استنكارٍ على مَن صدر منه الفعل[3].

والحقّ أنّ كثيراً مِن مطالبِ الدّرس النّحويِّ لا تنفصل عن درس التّنغيمِ، كالاختصاصِ والإغراءِ والتعجّب والاستفهام والنّداء، وعند القدماء إشاراتٌ تُبين عن وقوفِهم على التّنغيم باعتبارِه مؤدّياً دوراً وظيفيّاً في سياقِه، ومِن ذلك قولُ شارح "المفصّل" في نداء القريبِ والبعيد:

---

(١) ماريوباي – أسس علم اللغة ، ٩٤.

(٢) انظر: إبراهيم أنيس – الأصوات اللغويّة، ط ٣، دار النهضة العربية، مصر،١٢٢، وانظر: موضوع التنغيم: أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغويّ، ٣٦٦–٣٦٨ محمد الخولي – الأصوات اللغويّة ، ١٦٩–١٧٠، تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٦، ١٩٨–٢٠٤.

(٣) هذا المثال مأخوذ من:

Singh- Phonetics, P. 188.

"وقدْ تقدّم القولُ إنّ الغرض بالنّداء التّصويت بالمنادى ليُقبِل، والغرض مِن حروفِ النّداء امتداد الصّوتِ وتنبيهُ المدعوّ، فإذا كان المنادى مُتراخياً عن المنادي، أو معرِضاً عنه لا يُقبِل إلاّ بعد اجتهادٍ، أو نائماً قد استثقل في نومه، استعملوا فيه جميع حروفِ النّداء ما خلا الهمزة، وهي: "يا" و"أيا" و"هيا" و"أي"، ويمتدّ الصّوت بها ويرتفعُ، فإذا كان قريباً نادَوه بالهمزة،...، لأنّها تفيد تنبيه المدعوّ، ولم يُرَد منها امتداد الصّوت لقربِ المدعو"[1].

وفي بابِ "نقض الأوضاع إذا ضامّها طارئ" يعوّل ابن جنيّ على هيئةِ التّنغيمِ في إقامة بَونٍ بين أسلوبِ الاستفهامِ وأسلوبِ الخبر:

"ومِن ذلك لفظُ الاستفهام إذا ضامّه معنى التعجّب استحال خبراً؛ وذلك قولك: مررتُ برجل أيِّ رجلٍ، فأنت الآن مُخْبِر بتناهي الرّجل في الفضلِ، ولست مُستفهِماً، وكذلك: مررت برجل أيّما رجلٍ، لأنّ ما زائدة، وإنّما كان كذلك الاستفهام لأنّ أصلَ الاستفهام الخبر، والتعجّب ضربٌ مِن الخبر، فكأنّ التعجّب لمّا طرأ على الاستفهامِ إنّما أعاده إلى أصلِه مِن الخبريّة[2]". ويبدو أثر التّنغيم جليّاً في توجيهِ المعنى في قول ابنِ جنيّ:

"وقد حُذِفت الصّفة، ودلّت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب مِن قولِهم: "سير عليه ليل"، وهم يريدون: ليل طويل، وكأنّ هذا إنّما حُذِفت فيه الصّفة لِما دلّ مِن الحال على موضعِها؛ وذلك أنّك تُحسّ مِن كلامِ القائل لذلك مِن التّطويح والتّطريح والتّفخيم والتّعظيم ما يقوم مقامَ قولِه: طويل أو نحو ذلك، وأنت تحسّ هذا مِن نفسِك إذا تأمّلته؛ وذلك أنْ تكون في مدح إنسانٍ والثّناءِ عليه، فتقول: "كان واللهِ

---

(١) ابن يعيش، موفق الدين – شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، ١٥/٢.

(٢) ابن جنيّ – أبو الفتح عثمان – الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط٤ دار الشؤون الثقافية والهيئة المصرية العامة للكتاب، بغداد، ١٩٩٠، ٢٧٢/٣.

رجلاً"، فتزيد في قوة اللّفظ بــ "الله" هذه **الكلمة**، ولتمكّن في تمطيط اللاّمِ، وإطالة الصّوت بها وعليها، أي: رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك"[1].

٣- النّبر Stress:

"مصطلحٌ لغويّ عامّ يدلّ على جهدٍ صوتيٍّ مبذول على جزءٍ مِن الملفوظ"[2]، ويُستدَلّ مِن هذا التّعريف أنّ المقاطعَ المنبورة أظهرُ مِن المقاطع غيرِ المنبورة[3] ، وقد يكون ذا قيمةٍ فونيميّةٍ في بعض اللّغات كالإنجليزيّة؛ ذلك أنّ تغيّر مكْمن النّبر في بعض الكلماتِ باعثٌ على تغيّر معنى الكلمةِ ذاتها. أمّا في العربيّة فقد تباين وجهُ القولِ عليه، فذهب بعضُ الباحثين إلى تقرير فونيميّته[4]، مستدلّين بما يأتي: **"كريمُ الخلق- كريمو الخلق"**[5]، و"**كانَ - كانا**"[6]؛ إذْ إنّ التّمييزَ بينهما بوضعِ النّبر مع المفرَد في المثالِ الأوّل على المقطعِ الأوّل، ومع الجمعِ على المقطع الثّالثِ، وكذلك المثالُ الثّاني، فتغيّرُ موضع النّبر أفضى- في رأيِهم- إلى تغيّر المعنى.

وأحسبُ أنّ هذا ليس بحجّةٍ ولا بدليل على كونِ النّبر فونيميّاً ذا وظيفة تمييزيّةٍ بين المعاني؛ ذلك أنّ الشّرط في فونيميّته أنْ يكون واقعاً في الكلمة ذاتِها، وإذا ما تنقّل هذا النّبر مِن مقطعٍ إلى مقطع، وكان هذا التنقّل مُؤْذناً بتغيّر المعنى، فهو فونيميّ، وإذا ما تعذّر ذلك، فالأمرُ بالضّدّ، والأمثلةُ المسوقة للتدليل على صحّةِ المذهب لا تتّفق وشرائطَ النّبرِ؛ ذلك أنّ "كان" بنية مخالفة لــ "كانا"؛ إذْ إنّ الأخيرةَ

---

(١) ابن جني – الخصائص ، ٢/٣٧٢-٣٧٣.

(٢) Robins- General Linguistics, P. 10.

(٣) انظر : Lehiste- Suprasegmentals,P. 106

وقد وصفه Katamba بأنه بروز سمعيّ "Auditory Prominece" انظر: An Introduction to Phonology, P. 221.

(٤) انظر: احمد مختار عمر–دراسة الصوت اللغويّ، ٣٦١، وقد بين أن الفكرة محل مناقشة لا يدعى لها صفة القطع. ومحمد الخولي – الأصوات اللغويّة، ١٦٢.

(٥) أحمد مختار عمر – المرجع نفسه، ٣٦١.

(٦) محمد الخولي – الأصوات اللغويّة، ١٦٢.

مؤتلفة مِن كلمتين هما: "كان" مضافاً إليها صائتٌ طويلٌ هو ضمير متّصلٌ، ومثلها "كريمُ" و"كريمو"، فالأخيرة مشفوعةٌ بعلامةِ جمع المذكّر السالم، وليس تغيّر النّبر إذن واقعاً في البِنية ذاتها، وإنّما ثَمّ بنيتان. ولهذا لا يُعدّ النّبر فونيمياً في العربيّةِ، ولكنْ، قد يُتحدَّث عن نبر السّياقِ، وقد عرّجت عليه آنفاً، وإخال أنّه يسير بركبِ التّنغيم الواقعِ على مستوى الكلمةِ لا درسِ النّبر(١).

٤ - المَفْصِل" Juncture "

مِن الملاحظِ أنّ ابن اللّغة إذا تحدّث شِفاهاً أو قرأ نصّاً مكتوباً فإنّ كلامَه يظهر متواشجاً لا انفصامَ بين أجزائه إلاّ بما تقتضيه الحاجةُ، ولعلّ هذه الصّفة اللّغويّة العامّةَ مِن أصعبِ ما يواجه دراس اللّغة النّاطق بغيرِ لغته؛ ذلك أنّه يعسر عليه تفكيكُ الكلامِ إلى وَحَداته المعجميّةِ المتداخلة صوتيّاً، وهنا تظهرُ قيمة المفاصلِ الصّوتيّة؛ ذلك أنّها سكَتات كلاميّةٌ خفيفة بين الكلماتِ أو المقاطع يُبتغَى منها الدّلالةُ على مكان انتهاء لفظٍ وبدايةِ آخر(٢)، ولكنّ المشكلةَ واقعةٌ في الكلامِ المتواشج الموصول؛ ذلك أنّ "المفاصل ليست شائعةً باعتبارها ضرباً مِن المقيّدات المتنوّعة لبدايةِ الوحدات النّحويّة وانتهائها، ويمكن تعيين أجزاءِ الكلمةِ على سبيلِ التّمثيلِ بالاستعانة بمجموعةٍ مِن العوامل المتضافرة؛ وذلك نحو درجةِ الصّوت، والنّبر، والطّول، ومجموعة أخرى مِن المميِّزاتِ، كما في المغايَرة الواقعةِ بين:

" that's tough, "that Stuff" (٣).

والحاصلُ أنّ المرء قد يَرِد على أحداثٍ كلاميّة لا يقف على المتعيِّن منها إلاّ بإقامةِ المَفصِل الصّوتيّ؛ إذ إنّه وسيلةٌ مِن وسائل تعيينِ حدود الكلماتِ "Word Boundaries" وانفساخِ نسيج التّركيبِ بين جملتين بغيةَ الفصل بين معنييهما، فقد

---

(١) انظر هذا المطلب: تمام حسان - مناهج البحث في اللغة ، ١٩٧، محمد الخولي - الأصوات اللغويّة ، ١٦٧.

(٢) باي - أسس علم اللغة ، ٩٥، وانظر تعريفة أيضا:

Robins – General Linguistics, 145. Crystal – A Dictionary ,P. 188.

(٣) Crystal – A Dictionary P. 188.

يحدث على صعيدٍ صوتيّ أنْ تتمظهر كلمتان في هيئةِ كلمةٍ واحدةٍ، أو كلمتين أخريَين، فيعقب هذا اشتراكٌ وهميّ باعثُه تداخل حدودِ الكلِم:

إنّما - إنْ نَما

لنلاحظْ أنّ المتكلّم يستعين بمفصِل صوتيٍّ عارض في تلفّظه : إنْ Δ نَما لئلاّ تشتبهَ بكلمة "إنّما" ، ومثل ذلك نطقُنا كلمة "أوصالي":

أوْ صالٍ : (في حالة الوقف: حرف عطف يعقبه اسم فاعل)

أوصى لي: (فعل ماضٍ يعقبه ضمير مجرور)

أوصالي: (اسم يعقبه ضمير)

ولا بدّ مِن مَفْصِل صوتيّ عند: "أوصى Δ لي"، و "أو Δ صالٍ". ومِن مثِل ما تقدّم:

"أقوالَها" (في حال النّصب) ، و "أقوى Δ لها"

تجريبِك (في حال الجر) ، و" تجري Δ بِك"[1]

ومِن مثِل ما تقدّم:

أفدي الذي نادمني ليلةً	**راحاً وقد صُبّتْ أباريقُه**
سألت ورداً فأبى خــدُّه	**ورمتُ راحاً فأبى ريقُــه**[2]

يظهرُ أنّ القارئ يقف وجاهَ تماثلٍ صوتيّ واقع بين "**أباريقُه**"، و"**أبى ريقُه**"، والمستعان به على الإبانةِ وانتفاءِ تداخل هذين المعنيين لتماثلِ النّطقين هو مفصلٌ صوتيّ مقصود:

أبى Δ ريقُه.

---

(١) استعنت ببعض أمثلة كنت قد عرضت عليها في " جنى الجناس" للسيوطي، وقد عقد فصلاً سماه " جناس التركيب انظر: السيوطي، جلال الدين، جنىّ الجناس، تحقيق محمد الخفاجي، ط١". الدار الفنية، القاهرة، ١٩٨٦، ١٢١.

(٢)انظر: المصدر نفسه، ١٢٧.

وليس حدّ المفصلِ مقتصَراً على إقامةِ حدود الكلماتِ كما ورد في تعريفِ "ماريو باي"، ولكنّه يمتدّ حتّى لَيشملُ إقامةَ حدود بين الجمل لفصل بعضِها عن بعض، وفي ذلك إبانةٌ عن المعاني المراد توصيلها:

هيهات قدْ سفهت أميّةُ رأيَهـا   واستجهلتْ سفاؤُها حلماؤُها

حــربٌ تردّدُ بينهم بتشاجــرٍ   قد كفّرت آباؤها أبناؤهـــا[1]

موضع النّظرِ قوله: "واستجهلت سفاؤُها حلماؤُها"؛ ذلك أنّ المرء قد يداخلُه خاطر مؤدّاه أنّ الكلام متواشِج مؤتلفٌ مِن فعل وفاعل(سفهاؤها) ومفعولٍ به (حلماؤها)، ولكنّ هذا خاطر مدفوعٌ بيقينِ أنّ النّصّ لم يتجافَ عن قواعدِ السّلامة اللّغويّة، وليس ثَمّ بدٌّ مِن استحضارِ مفصِلٍ صوتيّ يؤذِن بانفساخِ نسيج التّركيبِ:

واستجهلت Δ سفهاؤها حلماؤها.

ويغدو الكلام عقبَه مستأنَفاً، وقبلَه تامّاً منقطعاً، وكذلك البيت الثّاني.

وممّا يتّصل ببابِ الحديث عن المفاصلِ الصّوتيّة مطلبُ الحديث على الوقفِ والابتداء في التّنزيل العزيزِ؛ ذلك أنّه مطلبٌ له خطرُه في إقامةِ المعاني، ويترتّب عليه فوائدُ كثيرة، "واستنباطات غزيرةٌ، وبه تتبيّن معاني الآيات، ويُؤمَن الاحترازعن الوقوعِ في المشكلات"[2]، وقد قال عنه القسطلانيّ(٩٢٣هـ): "ولا مِرية أنّ بمعرفتهما تظهرُ معاني التّنزيلِ، وتُعرَف مقاصده، وتستعدّ القوّة المفكِّرةُ للغوص في بحر معانيه، على درر فوائدِه، وقد قال الهذليّ: ممّا رأيته في كاملِه- الوقف حِلية التّلاوة، وزينةُ القارئ، وبلاغ التّالي، وفهمٌ للمستمع، وفخر للعالم، وبه

---

(١) انظر: البيتين: الفارقي أبو الحسن- الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب، تحقيق سعيد الأفغاني ، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م،٧٨، ابن عدلان، علي الموصلي - الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب، منشور مع مجموعة من نصوص في اللغة والنحو، بتحقيق حاتم الضامن، وزارة التعليم العالي، بغداد ١٩٩١، ٥٩٨، وابن هشام - ألغاز ابن هشام في النحو، تحقيق أسعد خضير، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٨م، ١٩-٢٠، والشعر للفرزدق، انظر ديوانه (بتحقيق الصاوي)،٨.

(٢) الزركشي، بدر الدين محمد- البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧، ٣٤٢/١.

يُعرَف الفرق بين المعنيين المختلفَين، والنّقيضين المتباينَين، والحُكْمَين المتغايرين.."[1]، وقد تعدّدتْ أقسام الوقفِ[2]، ولعلّ أشهرها التّامّ، والكافي، والحَسَن، والقبيح. والتّامّ هو الذي لا يتعلّق بشيءٍ ممّا بعده، فيحسن الوقفُ عليه، والابتداء بما بعدَه، والكافي منقطِع في اللّفظ متعلّق في المعنى، فيحسن الوقفُ عليه والابتداءُ أيضاً بما بعدَه، والحَسَن هو الذي يحسن الوقفُ عليه، ولا يحسن الابتداء بما بعدَه لتعلّقه به في اللّفظِ والمعنى، والقبيح هو الذي لا يُفهَم منه المراد[3]:

﴿ إنّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة Δ وكذلك يفعلون﴾[4]. التّمام في موضعِ الإشارة إلى المَفصِلِ؛ ذلك أنّ ما تقدّمه كلام بِلقيس، ثمّ قال ربّ العزّةِ: "وكذلك يفعلون"[5].

﴿إنّما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثُهم الله ثمّ إليه يرجعون﴾[6]

إنّ وجودَ المفصِلِ الصّوتيّ بعد قوله: "**يسمعونΔ والموتى**" يعمل على انفساخِ نسيجِ التّركيب، فيظهرُ عند هذا أنّ المعنى تامٌّ عند المفصِلِ، ثمّ اسْتُؤْنِف

---

(١)القسطلاني، شهاب الدين – لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٢م، ٢٤٩/١.

(٢) بعضهم جعلها ثمانية، وبعضهم أربعة أو ثلاثة أو اثنتين. انظر: الأنصاري، أبو يحيى – المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتدا، ط٢ دار المصحف، دمشق، ١٩٨٥م. ٥.

(٣) انظر أقسام الوقف: ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن قاسم– إيضاح الوقف الابتداء في كتاب الله عزّ وجل، تحقيق محيي الدين رمضان، ط١، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧١م، ١٤٩/١ ، الداني، أبو عمرو– المكتفى في الوقف والابتداء ، تحقيق جايد مخلف، ط١، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ١٩٨٣ م، ١٠٦–١١٥ الزركشي – البرهان، ٣٥٠/١–٣٥٢، السيوطي – الإتقان في علوم القرآن، تحقيق عبد المنعم إبراهيم، ط٢، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض ، ١٩٩٨، ٢٨٦–٢٩٢.

(٤) الآية (النمل، ٣٤).

(٥) انظر: الزركشي – المصدر نفسه، ٣٥١/١، وعدّه وقفا تاماً.

(٦) الآية (الأنعام، ٣٦).

بكلام جديدٍ مؤتلف مِن مبتدأ وخبر[1]، ولا يخفى أنّ تغييبَ المفصِل في ذلكم السّياق الشّريف يؤذن باشتباه.

٥- **الكثافة الصّوتيّةُ:**

تؤدّي الكثافة الصّوتيّةُ وظيفة دلاليّةً مِن وجهةٍ أسلوبيّة؛ ذلك أنّها ليستْ أصلاً مِن أصول النّظام اللّغويّ، وإنّما هي واقعةٌ في مضمارِ الأسلوبِ الفرديّ، فقد يحدث على صعيدٍ شعريّ أنْ تشيع أصنافٌ مِن الأصواتِ على وجه التّعيين شيوعاً يرتبط بدلالةِ النّصّ الكلّيّة، أو الفِقْرة الشّعريّة المتدفّقة، أي أنّ هذا الاختيارَ الصّوتيّ المكثّف في سياقِه يتناغمُ مع المعنى المتعيِّن، فينشأ دلالة صوتيّةٌ، وبمُكْنَة القارئ أنْ يقف على نماذجَ مشرقةٍ في دِلالتها في هذا الجانب، ومِن ذلك مُفتتَح قصيدة ابنِ الرّيب:

ألا ليتَ شعري هل أبيتنّ ليلةً	**بجنبِ الغضا أزجي القِلاص النّواجيا**
فليتَ الغضا لم يقطع الرّكب عرضَه	**وليت الغضا ماشى الرّكابَ لياليا**
لقد كان في أهلِ الغَضا لو دنا الغضا	**مزارٌ ولكنّ الغضا ليس دانيا**

يلحظ القارئُ المتفحِّص أنّ لشيوعِ الصّوائت الطّويلة حضوراً جليّاً، ولعلّ هذه الكثافةَ الصّوتيّة تتّفق مع المعنى الكلّيّ؛ ذلك أنّ القصيدةَ حكاية حالٍ لشاعرٍ أفضتْ به غوائل الزّمنِ إلى مفارقة الأهلِ والوطن، فبكى لفنائه، وتعلّق بالمكان "الغضا" في وقتٍ لا ينفع فيه البكاءُ، وغدتْ تلكم الصّوائت الطّويلة صورةً مِن صُوَر نشيجٍ معذّبٍ ملقى على صعيدٍ غريب، وليس يُستشَفّ مِن هذا كلّه أنّ الصّوائتَ في ذاتها لها معنى، ولكنّ لها إشارة، ففي "اللّغة الشّعريّة التي تكتسب منها الإشارة بحدّ ذاتها قيمة "autonomous"، فإنّ هذه الرّمزيّةَ الصّوتيّة تصبح عاملاً فعليّاً، وتبدع نوعاً مكمّلاً للمدلول. إنّ الكلمتين التّشيكيتين نهار"den" ، وليل "noc"

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ٣٥٣/١، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٦٣٢/٢، ابن النحاس–القطع والائتناف، ٣٠٤، الداني – المصدر نفسه، ١٧١، الأنصاري– المصدر نفسه، ٣٣.

اللتين تحتويان على تقابلٍ صائتيٍّ Vocalic بين الرّهافة والقتامةِ رُبطتا بسهولة في الشّعرِ بين إشراقِ الظّهيرة والظّلمة اللّيليّة، لكنّ الشّعر يقصي بصورةٍ ناجحةٍ هذا الخلافَ بأنْ يحيط الكلمة "نهار" بألفاظٍ مرهَفة صائتة، وأنْ يحيط الكلمة "ليل" بألفاظ قاتمةٍ صائتة، أو بدلاً مِن ذلك يُسلّط الضّوء على متقابلاتٍ بنائيّة تكون في انسجام صوائت قاتمة ومرهَفة كالذي بين ثِقَل النّهار ولطافة اللّيل"[١].

ثانياً: الإبانة في المستوى الصّرفيّ

إخال أنّ المبتدَأ في استشرافِ الإبانة في هذا المستوى واقعٌ في تعيينِ "التّصنيف التّشكيليّ"[٢] "Typological Classification" الذي تفيءُ إليه أبنية الكلم في العربيّة، فثَمّ لغات متصرِّفة "Inflectional"، وهي التي تتّخذُ السّوابق واللّواحق والتّغييراتِ الجوانيّة في بنيةِ الكلمة مَسْلكاً للدّلالة على العَلائقِ النّحويّة. وأخرى لاصقة "Agglutinative"، وهي التي تضيف لواحقَ منفصلةً يمكن أنْ يكون لها وجودٌ باعتبارها مورفيماتٍ حرّة[٣]، وأخرى مُفْرِدة "Isolating" تظهرُ فيها كلّ بنيةٍ قائمةً برأسها مستقلّة، وأخرى مُركِّبَة "Incorporating"، وهي التي تركّب مجموعةً مِن المورفيمات المتّصلةِ في هيئة عبارةٍ واحدة[٤].

وقد أضيف صنفٌ خامس، وهو اللّغات المُدْخِلة "Infixing"، وهي التي تعتمدُ على إدخالِ الصّوائت في جذورها المؤتلفة مِن الصّوامت[٥]، وقد رأى بعضُ

---

(١) ياكوبسون – ست محاضرات ، ١٤٨.

(٢) يتباين مطلب تصنيف اللغات بتباين وجهة المأخذ، فقد يعتمد على ملحظ القرابة اللغويّة، أو المعيار الجغرافي؛ أو الهيئة التشكيلية في بناء الكلمات وتوليدها. انظر: باي – أسس علم اللغة ، ٥٥.

(٣) سيأتي باب للقول على المورفيم وتعريفه بعداً.

(٤) انظر: هذه الأصناف التشكيلية: المرجع نفسه ، ٥٦-٥٧.

(٥) انظر: Katamba, F., Morphology, The Macmillan Press, London, 1993, P.56

وقد ذكر الأصناف التي تقدم ذكرها عند ماريوباي.

الباحثين أنّ العربيّةَ تسلك هذا المَسْلَك في تشكيلِ الكلم والتّفريقِ بين معانيه[1]، ومِنهم مَن عرّج على فكرةِ "المقابِلات الصائتيّة" في الصّيغ، فرأى أنّ التّمايزَ بين المبنيّ للمعلومِ والمبنيّ للمجهولِ محصّلةُ التّغيير في العناصرِ الصّوتيّة الصّائتةِ ليس غير: "ضَرَبَ، ضُرِب"، وكذلك الحال بين المُفْرَد وجمعِ التّكسير، "جَمَل: جِمال، قَبر: قبور"، وكذلك الحال في المقابَلة الواقعةِ بين اسم الفاعلِ واسم المفعولِ؛ إذ إنّها لا تتمّ إلاّ بتلكم الكيفيّةِ المتقدّم وصفُها: "مستخرِج: مُستَخرَج"، فالصّوائتُ إذاً -في زعم صاحبِ هذا الرّأي- مورفيمات[2]، وقد وصفها بعضهم بأنّها لغةُ التّحوّل الدّاخليّ[3]، وقيل إنّها لغةٌ متصرّفة[4]، ولعلّ أقربَ وصفٍ ممّا ذُكِر آنفاً يلابسُ نظامَها الصّرفيّ هو وَسْمُها بأنّها لغة متصرّفةٌ، ولكنّه عائم يتّسع لظواهرَ لغويّةٍ مِن غير العربيّةِ، كالإنجليزيّة واللاتينيّة[5]، ولهذا أحسب أنّ الوصفَ الذي يَصْدق على العربيّةِ، بغيةَ استشرافِ معالم الإبانةِ، يتعيّن مِن ملاحظةِ وصفَين متداخلَين؛ أولهما أنّها لغة قالَبيّة وزنيّة، وثانيهما أنّها اشتقاقيّة.

أمّا كونها قالبيّةً، فهذا يعني أنّ متن كلمِ العربيّة في جلّه يفيء إلى قوالبَ متمايزةٍ مجرَّدة، وهي حواملُ لمعانٍ مخصوصةٍ، ومؤدّية لأدوار وظيفيّة[6]،

---

(١) ويمثل لهذا بقوله: Ibid- P. 59, Kitab (book) Katab- (Wrote), Katib (Writer).

(٢) انظر: محمود السعران- علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية بيروت - (د. ت)، ٢٢٢-٢٢.

(٣) انظر: فليش، هنري- العربية الفصحى: نحو بناء لغوي جديد، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط٢،دار الشروق، بيروت، ١٩٨٦م.

(٤) انظر: Comrie, B.,- Language Universals and Linguistic Typology: Syntax and Morphology, Oxford, Basil Blackwell, 1981,p 37.

(٥) انظر: باي - أسس علم اللغة ، ٥٦.

(٦) يرى محمد المبارك أن الثبات غالب على قوالب العربية، فقالب اسم الفاعل والمفعول من مختلف الأفعال، وقوالب المكان والزمان والتفضيل لم تتبدل منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا الحاضر. وهي قوالب فكرية . انظر كتابه: فقه اللغة وخصائص العربية، دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية، وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد و التوليد، ط٢، دار الفكر، دمشق،٢٨٤.

وللأسماء، بالمعنى العريضِ، قوالبُ جاهزة، وللأفعال كذلك[١]، ومِن القوالب ما يصلح لأنْ يكون متردِّداً بين ذَيْنك المعنيين؛ الاسميّة والفعليّة[٢]، والتنقّل بين هذه القوالبِ ما هو إلاّ تنقّلٌ بين المعاني، وهو مطلبٌ مِن مطالب الدّرسِ الصّرفيِّ عريضٌ.

أمّا كونُها اشتقاقيّة؛ فذلك أنّ هذه القوالب لا تؤدّي وظيفتها وهي خِلوٌ مِن أصل ثلاثيّ "في الغالب" تُستودَع فيه، وهذا الأصل هو "الجذر"، وبهذا يصبحُ المعنى المتعيِّن مِن كلمةٍ ما في سياق ما قائماً على توجيه النّظرِ تلقاءَ مطلبين لا يُغني أحدُهما عن الآخر ولا يتقدّمه، أحدهما: معنى المادّة الخامّ، وثانيهما معنى القالَبِ الذي استُودِعت فيه تلكم المادّة، ولعلّه يستقيم أنْ يُشبَّه هذا الجدلُ بين القالَب والمُستودَع فيه بالكأس؛ ذلك أنّ الكؤوسَ متباينة في أحجامِها وأشكالِها ووظائفها، ويظهر أنّ شكل الكأسِ يومِئ إلى نوعِ الشّرابِ الذي تستوعبه، ولعلّها لا قيمةَ حقيقيّةً لها إلاّ والجوهر حالٌّ فيها. والحقّ أنّ هذا الحديثَ عن صفتي العربيّة: القالَبيّة والاشتقاقيّة حديث عامّ يَعوزُه بسطٌ في القولِ وتمثيل[٣]:

في الحديثِ عن المصادرِ يعرض سيبويهِ إلماحة مُعْجِبةً مؤدّاها أنّ "العرب ممّا يبنون الأشياء إذا تقاربتْ على بناءٍ واحد، ومِن كلامِهم أنْ يُدخلوا في تلك الأشياءِ غيرَ ذلك البناء"[٤]، وفي مقام آخرَ يقول: "وممّا تقاربتْ معانيه فجاؤوا به على مثالٍ واحد؛ نحو الفِرار والشِّراد والشِّماس والنِّفار والطِّماح، وهذا كلّه مباعدة"[٥].

---

(١) انظر على سبيل التمثيل أبنية الاسم في العربية: الأستراباذي - شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م، ١/٣٥-٦٠. ابن عصفور- الممتع الكبير في التصريف، تحقيق فخر الدين قباوة ط٨، مكتبة لبنان ، ١٩٩٦م، ٥١-١١٣. السيوطي - همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦، ٣/٢٥٥-٢٥٩.

(٢) انظر : صبحي الصالح - دراسات في فقه اللغة، ط١٢، دار العلم، بيروت، ١٩٨٩م، ٣٣٢.

(٣) ليس الغرض من هذا التفصيل أو استغراق ملامح المستوى الصرفيّ، بل هو تمثّل أنحاء الإبانة على وجه العرض الدال بالاقتضاب.

(٤) سيبويه- الكتاب، ٤/١٢.

(٥) المصدر نفسه - ٤/١٢

والظّاهر أنّ هذا التّوجيهَ الذي استنبطه سيبويهِ ليس قائماً على وجه إرسالِ القولِ على عواهنِه، بل هو قائمٌ على ملاحظةٍ حصيفةٍ تستجمع الكلمَ التي تدور في فَلَك معانٍ كلّيّة في قوالبَ جاهزةٍ متمايِزة، ولكنّها لا تُضبَط بقياس ينعقد عليه الإجماع[1]، ومُنتَهى التّحقيق أنْ يُقال إنّ هذا القالَب يرشّح لذلك المعنى، وقد عقد ابن فارسٍ باباً في "الأبنية الدّالّة في الأغلب الأكثر على معانٍ وقدْ تختلف"[2]، ولعلّ تحوّطه في عنوانِه ذاك يُلْمح بل يُصرِّح بأنّ الأمرَ ليس قطعيَّ الثّبوت والاستغراقِ، وربّما كان للتّباين اللَّهْجيّ يدٌ في وقوع هذا المتقدِّم.

ومِن المصادر التي جاءتْ على قالبٍ واحد "الفَعَلان"، كالنَّزَوان والنَّقَزان، وإنّما هذه الأشياء في زَعزعة البدن واهتزازِه في ارتفاع[3]، و"الفُعال" قالب يرشِّح لاستيعاب معاني العِللِ كالقُلاب والعُطاس والزُّكام والسُّكات والصُّداع[4]. وقد يدلّ هذا القالبُ التّصريفيّ على معنى آخرَ، وهو الصّوت، وبهذا نقتنص وجهاً مِن وجوه الاشتراكِ اللّغويّة، وهو اشتمالُ القالَب الواحد على معنيين أو أكثر؛ ومِن ذلك الدُّعاء والصُّراخ والرُّغاء والهُتاف والحُداء والبُكاء[5].

---

(١) هذا رأي نسبه سيبويه إلى الخليل بعد حديثه عن المصادر قائلاً: " وهذه الأشياء لا تضبط بقياس ولا بأمر أحكم من هذا، وهذا مأخذ الخليل" انظر : المصدر نفسه،١٥/٤.

(٢) ابن فارس- الصاحبيّ في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق عمر الطباع ، ط١، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٣م، ٢٢٧.

(٣) سيبويه- الكتاب، ١٤/٤، وانظر: ابن قتيبة - أدب الكاتب، تحقيق علي فاعور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ٣٨٥، وابن فارس - المصدر نفسه، ٢٢٨،السيوطي - الهمع، ٢٨٣/٣، الصبان - حاشية الصبان على شرح الأشموني، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية،بيروت ١٩٧٧م، ٤٦١/٢.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ١٠/٤، وعبارته " فهذه الأشياء لا تكون حتى تريد الداء" ، ابن قتيبة - المصدر نفسه، ٣٨٨، ابن فارس - المصدر نفسه، ٢٨٨، ابن السراج- الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م، ٨٩/٣، السيوطي - الهمع، ٢٨٣/٣، الصبان-المصدر نفسه، ٤٦١/٢.

(٥) انظر سيبويه، المصدر نفسه ، ١٤/٤، ابن قتيبة - المصدر نفسه ، ٣٨٩، ابن السراج- المصدر نفسه، ٨٩/٣، ابن فارس -المصدر نفسه ، ٢٢٨، السيوطي - المصدر نفسه، ٢٨٣/٣، الصبان - المصدر نفسه ، ٤٦١/٢.

و"الفِعالة" قالَب يرشِّح لاستيعابِ معنى الولاية والقيامِ بالشّيء؛ وذلك نحو التِّجارة والخِياطة والحِياكة والوِكالة والسِّياسة[1].

ومِن نحو ما تقدّم "الفُعالة" التي يكون معناها على نحو معنى الفُضالة؛ ومِن ذلك القُلامة والنُّشارة والبُرادة والكُناسة والقُمامة والقُراضة[2].

وللأفعال بمُتباينِ أزمانها قوالبُ جاهزة كما المصادر، والذي ينبغي التّنبيه عليه هو البونُ الحاصل بين الزّمن الصّرفيِّ والزّمنِ النّحويّ، فمعنى الزّمن في المستوى الصّرفيّ حاصل بدلالةِ شكل القالَب والإلف، أمّا في معناه النّحويّ فذلك مطلبٌ مردّه إلى السّياقِ كما سنتبيّن بَعْداً[3]. أمّا دلالةُ قوالب الأفعال فهي متعدِّدة، ومِن ذلك "استفعل"، فقد يأتي هذا القالبُ للإصابةِ، كتفريغ الجذرِ "جيد" في هذا القالب، فيصبح "استجاد"، والمعنى المتعيِّن هو وجدتُه أو أصبته جيّداً، ومثلها "استكرمته" و"استعظمته"، ومِن معانيه الطّلب؛ وذلك نحو "استكتب" و"استفهم"، والتّحولُ مِن حالٍ إلى حال؛ نحو "استنوق" و"استتيس"، وقد يكون مرادِفاً لـ "تفعّل"؛ ومِن ذلك "تعظّم واستعظم"، و"تكبّر واستكبر"[4].

---

(١) انظر: سيبويه- المصدر نفسه،، ١١/٤، ابن قتيبة- المصدر نفسه، ٣٩٠، ابن السراج - المصدر نفسه، ٩١/٣، ابن فارس - المصدر نفسه ، ، ٢٢٨ السيوطي - المصدر نفسه، ٢٨٣/٣، الصبان - المصدر نفسه، ٤٦١/٢.

(٢) انظر: سيبويه- المصدر نفسه، ١٣/٤، ابن قتيبة - المصدر نفسه، ٣٨٩، ابن السراج- المصدر نفسه، ٩١/٣، ابن فارس- المصدر نفسه، ٢٢٨، السيوطي - المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى وآخرين، دار الفكر ، بيروت، (د. ت)، ١١٩/٢.

(٣) انظر: تمام حسان -اللغة العربية، ١٠٤، وانظر في مطلب الحديث عن الزمن في اللغة: إبراهيم السامرائي - الفعل زمانه وأبنيته ، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م، ٢٣-٤٧. عصام نور الدين - الفعل والزمن، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ، ١٩٨٤م، ٣٧-٩٢ مالك المطلبي- الزمن واللغة ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م. فاضل الساقي -الزمن والزمن النحوي في اللغة العربية، الضاد، المجلد الثالث، كانون الثاني، بغداد، ١٩٨٥م.

(٤) انظر معاني " استفعل": سيبويه - الكتاب ، ٧٠/٤، ابن قتيبة - أدب الكاتب، ٣٠٥-٣٠٦، ابن السراج- الأصول، ١٢٧/٣-١٢٨، ابن فارس- الصاحبيّ، ٢٢٦ ابن جنيّ - المنصف، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، ط١، إدارة إحياء التراث القديم، القاهرة، ١٩٦٠، ٧٧/١، ابن يعيش - شرح المفصل،١٦١/٧،

ومِن القوالب "فعّل"، وله معانٍ متعدّدة، فقدْ يدلّ على النّقلِ والتّعدية، فيصير الفاعلُ مفعولاً؛ وذلك نحو "فَرِح وفرّح"، والتّكثيرِ؛ نحو: "غلّق وقطّع"، والتّسميةِ؛ نحو "كفّر وفسّق"، والدّعاءِ على الشّيء أو له؛ ومِن ذلك سقّاه إذا قال له: سقاك الله، والقيامِ على الشّيء؛ وذلك نحو "مرّض"، والسّلب والإزالة؛ ومِن ذلك "قذّيتُ عينَه" إذا أزلت عنها القذى، وقد يكون مرادِفاً لـِ "أفعل"، كقولنا "خبّر" و"أَخبر"[1].

والمتأمّل برويّةٍ ولطف نظرٍ في نواميس اللّغةِ ونظامها الدّاخليّ يجد أنّ مسالك الإبانةِ مُهيَّئة للتّعبير عمّا يريد، فإذا ما أراد المرء أنْ يَعقد مفاضلةً بين شيئين، أو أنْ يتعجّب، أو أنْ يشيرَ إلى مَن قام بالفعلِ، أو مَن وقع عليه الفعل، أو إلى اسمِ الزّمان أو المكان- إذا ما أراد ذلك - فإنّ اللّغة مِطْواعٌ في تفريغِ المعنى المراد في القالبِ المخصوصِ المُبين عن المعنى الكلّيّ الذي يبتغي المرسلُ توصيلَه. لننظرْ في المفاضلةِ، وهي معنى عريض له قالبٌ هيئته "أفعل"، وهو يدلّ على أنّ شيئين قد اشتركا في صفة واحدةٍ، وأنّ أحدهما زاد على الآخرِ، أو أنّ شيئين لم يشتركا في صفةٍ واحدةٍ، وزاد أحدُهما في صفتِه على الآخر في صفته: "العسل أحلى مِن الخلّ"، أو أنّ الوصفَ ثابت للموصوفِ مِن غير نظرٍ إلى تفضيل: "النّاقص والأشجّ أعدلا بني مروان"[2].

الأستراباذي - شرح الشافية، ١/١١٠، ابن عصفور- الممتع، ١٣٢، السيوطي - الهمع ، ٣/٢٢٩. الحملاوي - شذا العرف في فن الصرف، مكتبة النهضة العربية، بغداد، ١٩٥٣م.

(١) انظر معاني " فعّل": سيبويه - المصدر نفسه، ٤/٦٤، ابن قتيبة - المصدر نفسه، ٣٠٠، ابن السراج، المصدر نفسه، ٣/١١٦، ابن فارس - المصدر نفسه، ٢٢٥، ابن جنيّ - المصدر نفسه، ابن يعيش - المصدر نفسه،٧/ ١٥٩، الأستراباذي - المصدر نفسه، ١/٩٢، السيوطي - المصدر نفسه ، ٣/٢٦٦.

(٢) انظر: عبد الله أمين - الاشتقاق ، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م، ٢٧٠، وانظر في مطلب التفضيل: ابن يعيش - شرح المفصل، ٦/٩١، والأستراباذي- شرح كافية ابن الحاجب، تحقيق إميل يعقوب، ط١، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٨م، ٣/٥١٢، السيوطي - الهمع ، ٣/٢٧٤، الحملاوي - شذا العرف، ٧٨.

وقد يريدُ المرءُ التّكثيرَ والمبالغة في الاسم، فيُنْزِل المادّة الأوليّة المبتغي تكثيرَها في قوالبَ مخصوصة، ومنها "فَعّال"، و"فَعول"، و"مِفعال"، و"مِفْعيل"، و"فِعِّيل"، و"فُعَلَة"[1]، وقدْ يستعين بقوالبَ مخصوصة للدّلالة على اسم الآلةِ؛ ومِن ذلك "مِفْعال"، و"مِفْعلة"، و"مِفْعل"[2]، وقد يستعينُ بقوالبَ أخرى متمايزة مخصوصةٍ للدّلالة على اسم زمان الحدثِ أو مكانه[3].

والملاحَظ أنّ المرسِل قد يتغانى عن كثيرٍ مِن تلكم القوالبِ جانحاً إلى بسط القولِ وتطويلِه عِوَضاً عن تلكم المعاني المحمولةِ في القوالبِ، فقد يتعجّب، أو يُفاضل، أو يُعرّج على مَن أوقع الفعل، أو على مَن أوقع عليه الفعل، أو يذكر زمانَ حدوث الفعل أو مكانَه، أو ما عالج به – قد يفعل كلَّ هذا متجافياً عن القوالب، جانحاً إلى ما يقوم مقامَها مِن شرحٍ ووصفٍ، وهنا تظهر مزيّة مِن مزايا الاشتقاق؛ ذلك أنّه وسيلة إبانة مكثَّفة تستجمع كلماتٍ متعدّدة في لَبوس كلمة واحدةٍ، وقد تنبّه إلى هذا الملْمَح ابن يعيشَ في حديثه عن اسمي الزّمانِ والمكان مشيراً إلى أنّ "الغرض مِن الإتيان بهذه الأبنيةِ ضربٌ مِن الإيجاز والاختصارِ؛ وذلك أنّك تفيد منها مكانَ الفعل وزمانه، ولولاها لزمك أنْ تأتي بالفعل ولفظِ المكان والزّمان"[4].

وفي مَطْلَبِ استشراف معالمِ الإبانةِ في المستوى الصّرفيّ أجدني أميلُ إلى عرض دالٍّ بالاقتضابِ لنظريّة المورفيم؛ ذلك أنّها مدخلٌ عريضٌ لمناقشة آراء

---

(1) انظر في مطلب المبالغة: سيبويه –الكتاب ١١٠/١٢، المبرد – المقتضب، تحقيق محمد عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٦٣م، ١١٣/٢، ابن فارس – الصاحبيّ ، ٢٢٧، الأستراباذي – شرح الشافية، ٤٩٣/٣، السيوطي – المصدر نفسه، ٢٨٩/٣، المزهر ، ٢٤٣/٢.

(2) انظر في مطلب اسم الآلة: سيبويه– المصدر نفسه ٩٤/٤، ابن السراج – الأصول ١٥١/٣، ابن يعيش – شرح المفصل، ١١١/٦، الأستراباذي– المصدر نفسه، ١٨٦/١. السيوطي – المصدر نفسه، ٢٨٧/٣، الحملاوي – المصدر نفسه، ٨٣.

(3) انظر في مطلب اسم الزمان والمكان: سيبويه– المصدر نفسه، ٩٥/٤، ابن السراج – المصدر نفسه، ١٤٠/٣–١٤٤. ابن يعيش –المصدر نفسه، ١٠٧/٦، الأستراباذي – المصدر نفسه، ١٨١/١، ابن عصفور – المقرب، ٤٩٢–٤٩٣. الحملاوي – المصدر نفسه، ٨٢.

(4) ابن يعيش – المصدر نفسه، ١٠٧/٦.

القدماءِ والمحدَثين في ملحظِ زيادةِ الحروف على القوالبِ، وقد عُرِّف المورفيم بأنّه أصغرُ وَحْدة لغويّةٍ ذات معنى؛ إذْ إنّ تخلُّقَ المعنى لا يكون إلاّ من هذه الوَحدة المُشخَّصَة، وهو غيرُ قابل للقسمةِ إلى وَحَدات معنويّة أصغرَ منه[١]، ويرى أهل النّظرِ اللّغويّ مِن الغربيّين أنّه يُقسَم قسمَين: أولهما المورفيم الحرّ " Free Morpheme"، وهو المورفيم المستقلّ بنفسِه الذي قد يتعيّن منفرداً، ومن مُثُله الأفعال(نام، ينام، ننام)، والأسماء(محمّد، رجل، مجتهد)، وحروفُ المعاني. وصفوةُ القول فيه أنّه يستغرقُ شطراً كبيراً مِن متنِ اللّغة وكلماتها. أمّا المورفيم المُقيَّد "Bound Morpheme" فهو الذي لا يؤدّي دورَه الوظيفيّ قائماً برأسِه، بل متّصلاً بغيره مِن المورفيماتِ، ومِن أمثلته الزّوائد كاللّواحق "Suffixes"، والسّوابق "Prefixes" ، والدّواخل،"Infixes" [٢]، والتّمثيلُ على تجلّيات هذه المورفيماتِ المُقيَّدة موضع خلافٍ بين أهلِ النّظر اللّغويّ مِن العرب، فالقدماءُ يفسّرون مَظْهَر تنوّع المعاني في القوالبِ المتغيِّرة بملحظِ الزّيادة؛ كزيادة الهمزةِ في أكبر "أفعل" التي هي للتّفضيل، وزيادة "ميم" في "مَفْعل" للمصدرِ والزّمان والمكانِ. والميمُ المكسورة عندهم زيادةٌ للآلة[٣]، والهمزةُ في "أفعل" تفيد النّقل والتّعريض وصيرورة الشّي[٤]، ويتابعُ القدماءَ كثير مِن المُحْدثين في هذا النّظرِ التّفكيكيّ، فيرى بعضُهم أنّ الألف في "قاتَلَ" معناها المشاركة، والنّون في "انكسر" معناها المطاوعةُ، والسّين

---

(١) انظر في تعريفه: باي– أسس علم اللغة، ٥٣، كريستل ، دافيد – التعريف بعلم اللغة، ترجمة حلمي خليل، ط١، الهيئة المصرية للكتاب ــ القاهرة، ١٩٧٩م، ١٦١وانظر :

Katamba- Morphology 19, Robins- General Linguistics, P. 192. Nida, A., Morphology: The Descriptive Analysis of Words, The University of Michigan Press, America, 1965,6.

(٢) انظر:

Katamba- Ibid, 41-46. Robins – Ibid, 196- 202, Nida, Ibid , 81, Crystal – A Dictionary, P 223.

(٣) انظر: الأستراباذي – شرح الشافية ، ٥٣/١.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ٨٣/١.

والتّاء قبل فاء الكلمةِ في "استفعل" تدلّ على الطّلب[١]، والميم من السّوابق التي تؤدّي وظائفَ متنوّعة، كأنْ تكون دالّة على اسم الفاعل مِن غير الثّلاثيّ؛ مثل مُكرِم، واسم المفعول منه مُكرَم[٢]، ومنهم مَن يرى الياءَ في "يكتب"، والنّون في "نكتب"، والهمزة في "أكتب" سوابقَ مورفيميّة تؤدّي أدواراً وظيفيّة[٣].

إخالُ أنّ ما تقدّم يعوزه فضلُ بيان؛ ذلك أنّنا يجب أنْ نفرّق بين زيادتَين: زيادةٍ على الجذر، وزيادةٍ على القالَب. أمّا الجذر فأرى أنّه غير متحقِّق بذاته؛ ذلك أنّه يأتلفُ مِن صوامتَ فقط، والمادّةُ الخامّ "الجذر" ليست مأخوذةً مِن فعل ولا مِن اسم[٤]، بل هي مادّة ذهنيّةٌ تلفّها صبغة العموميّةِ، ولعلّ أصدق وصفٍ يُطلَق عليها هو إلماحة ابن فارسٍ في مقاييسه إلى أنّ الهمزة والفاء والكاف(مثلاً) أصل عامّ يدلّ على كذا، وما دام قد تقرّر أنّنا لا نشتقّ مِن اسمٍ ولا مِن فعلٍ، فهذا يعنى أنّ التّاء في "تفاعَلَ"، والألف في "فاعَلَ"، والياء في "يكتب"، ليست مورفيماتٍ مقيَّدة، وليس لها قِيَمٌ وظيفيّة، وليست بلواحقَ ولا بسوابقَ، بل هي مِن أصولِ القالب وتشكيله، والقالب بجملتِه مورفيمٌ حرّ حمّال لمعنيين: معناه التّشكيليّ أوّلاً، ومورفيم جذريّ يُستودَع فيه ثانياً، وليس القصدُ ممّا تقدّم آنفاً أنْ يُعطَّل القولُ بوجدان ظواهر إلصاقيّةٍ مورفيميّة في العربيّة؛ فثمّ تاء المبالغةِ، وهي مورفيم لاحقٌ، و"ال" التّعريف، وهي مورفيم سابق، وياء النّسْبة، وهي ممّا يلحق بركبِ اللّواحق، وهنا

---

(١) انظر: تمام حسان- اللغة العربية، ١٣٨-١٤٠. ويذهب هذا المذهب أحمد ياقوت - ظاهرة التحويل في الصيغ الصرفية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م.

(٢) محمود حجازي، مدخل الى علم اللغة ، ط٢، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٦م، ١٩، وبعضهم يقرر أن التمايز بين جميع التكسير ومفرده حاصل باللواحق والزوائد الداخلية ذلك أنها مورفيمات. انظر : عبد القادر عبد الجليل- علم الصرف الصوتي، ط١، دار أزمنة، عمان ، ١٩٩٨م، ٣٩١.

(٣) انظر: محمد الخولي - مدخل الى علم اللغة ط١، دار الفلاح، عمان، ١٩٩٣م، ٧٢.

(٤) يقول طنطاوي دراز: " يجب أن يتضح في أذهاننا إذن مسلمات بناءً على ما سلف مهمة، وهي أن الاشتقاق الأصغر ليس معناه الاشتقاق على الفعل، ولكن معناه أن الفعل مشتق على مادة أولية، وهذه المادة الأولية أقرب إلى باب الأسماء" ووجه الاعتراض أن المادة الأولية الذهنية ليست اسماً، وليست أقرب إلى باب الأسماء. انظر كتابه ظاهرة الاشتقاق في اللغة العربية، د. ن ١٩٨٦م، ٣٩١.

تتبدّى فكرةُ الزّيادة على القالبِ، فالقالب نفسُه- وهو مورفيم قائم برأسِه- ليس عليه زيادة في ذاتِه، ولكنْ، قد يعرضُ أنْ يشتمل على مورفيماتٍ أخرَ مقيَّدة.

وللقدماءِ إلماحات مُشرِقة في دِلالاتها على تبيُّن الأدوارِ الوظيفيّة التي تؤدّيها الزّوائد "المورفيمات المقيَّدة"، ومِن ذلك قولُ **المُبرّد**:

"فأمّا ما كان مِن هذه الحروفِ التي جاءت لمعانٍ فهي منفصلة بأنفسِها ممّا بعدها وقبلها، إلاّ أنّ الكلام بها منفردةً محال كما وصفت لك، فإنّ منها كاف التّشبيه التي في قولك: أنت كزيد"[1].

وقال **الأستراباذيّ** في مورفيم جمعِ السّلامة اللاّحقِ:

"فالأولى في حدّ جمع السّلامة أنْ يقال: هو الجمعُ الذي لم يُغيَّر مفردُه إلاّ بإلحاق آخرِه علامة الجمعِ، وجمع التّكسير ما تغيّر بغير ذلك"[2].

وقول **ابن يعيش** في مورفيم النّسبِ اللاّحق:

"وذلك مِن قِبَل أنّ الياء علامةٌ لمعنى النّسب، كما أنّ التّاء علامة لمعنى التّأنيثِ، وكلّ واحد منهما يمتزجُ بما يدخل عليه حتّى يصيرَ كجزء منه، وينتقل الإعرابُ إليه، فتقول هذا رجل بصريّ ،...، كما تقول هذه امرأةٌ قائمة،...، فكلّ واحدة مِن الزّيادتين-أعني الياءَ في النّسب، والتّاءَ في المؤنّث، حرفُ إعراب لِما دخل فيه، وإنّما صارا بمنزلةِ الجزءِ ممّا دخلا فيه مِن قِبَل أنّ العلامة أحدثتْ في كلٍّ واحد مِن المنسوبِ والمؤنَّث معنى لم يكنْ، فصار الاسمُ بالعلامةِ مركَّباً"[3].

وقول **المبرِّد**: "الألف والتّاء في "مسلمات" علم التّأنيث"[4].

وقول **ابن السّرّاج** في لاحقةِ النّسبة المورفيميّة:

---

(١) المبرد -المقتضب ، ٣٩/١.

(٢) الأستراباذي- شرح الكافية ٤٦٦/٣.

(٣) ابن يعيش- شرح المفصل ، ١٤٢/٥.

(٤) المبرد- المقتضب ، ٦/١.

"وهو أنْ يُضيف الاسم إلى رجلٍ أو بلد أو حيٍّ أو قبيلة، ويكونَ جميع ما يُنسَب إليه على لفظِ الواحد المذكَّر، فإنْ نسبتَ شيئاً مِن الأسماءِ إلى واحد مِن هذه زدت في آخره ياءَين"(١).

وحديث **ابن يعيشَ** عن ذكر مظانِّ المورفيمِ اللاّحق "التّاء"؛ ذلك أنّها تلحقُ الأسماءَ على أنواعٍ، ومنها أنْ تكون فرقاً بين المذكّرِ والمؤنّث في الصّفات؛ وذلك نحو ضارب وضاربة، أو للفرق بينهما في الجنسِ؛ نحو امرئ وامرأة، أو للفرقِ بين الجنس والواحد؛ ومِن ذلك "تمر وتمرة"، و"شعير وشعيرة"، أو للمبالغةِ في الصّفة؛ ذلك نحو "راوية" و"ذوّاقة" و"فَروقة"(٢)، والمتأمّلُ في هذه القوالبِ يجدها مشفوعةً بزيادةِ لا بأصلٍ، والحادثُ في هذا المتقدّم أنّ قالب اسمِ الفاعل داخَلَه مورفيم لاحقٌ يفيد المبالغةَ، فأصبح القالب كلُّه دالاًّ على المبالغة بشفاعةِ الدّاخلةِ، لا بهيئة تشكيلِه القالبيّ.

ولكنْ، قد يعرضُ في أحيانٍ أنْ تكون هناك معانٍ تفتقر إلى قوالبَ مخصوصةٍ في المقام الأوّل، فيجنح النّظام اللّغويّ إلى ملءِ الفراغ الوظيفيّ بالإضافةِ على القوالبِ كما ألمحتُ آنفاً، وقد يحدث على صعيدٍ صرفيٍّ آخرَ أنْ يتردّد النّظام اللّغويّ بين القوالبِ المخصوصة، والمورفيمات المضافة في المعنى الواحدِ؛ ومِن ذلك "الجمع"، فهومتردّد بين القالبيّةِ والإضافة، وهنا يحدث التّمايز بين جمع التّكسير بنوعيه، وجمعِ السّلامة بنوعَيه، فيغدو التّعبير عن المعنى الصّرفيّ "الجمع" قائماً على غيرِ ملمحٍ دلاليّ مُبِين عن هذا المعنى، وقد يحدثُ بإضافةِ الواو أو الياء الصّائتتين في حالةِ الرّفع أو في حالتي النّصبِ والجرّ، وقد يُستَعان بالقوالبِ

---

(١) ابن السراج – الأصول ٦٣/٣.

(٢) انظر: ابن يعيش – شرح المفصل، ٩٨/٥، ابن السراج– المصدر نفسه، ٤٠٧/٢-٤٠٨، الصبان – الحاشية، ٤ /١٣٦-١٣٧، والحملاوي – شذا العرف، ٨٦. ومن أمثلة الزوائد المورفيمية أل التعريف والضمائر المتصلة، والألف والتاء في جمع السلامة، ونون التوكيد الثقيلة والخفيفة ، والنون الدالة على الإضافة في التثنية والجمع.

الجاهزة الدّالّةِ على "الجمع"، وهي جموعُ التّكسير المؤتلفة مِن قوالب القلّةِ: "أفْعُل، أَفْعال، أَفْعِلة، فِعْلة"، وقوالب الكثرة[1].

ومِن المعاني التي ليس لها قوالبُ جاهزة في المقامِ الأول "النّسب"[2] ، فيُستَعاض عن هذا بلاحقةٍ مورفيميّة تأتلف مِن صامتين(يّ)، فتكون هذه اللاّحقة دليلاً على النّسبة، كما "أُلْحِقت التّاء علامةً للتّأنيث"[3]، وقد يُفاء إلى التّناوب؛ تناوبِ الصّيَغ، فيدلّ قالبُ "فاعِل" أو "فعّال" على معنى النّسبةِ؛ وذلك نحو "خبّاز" و"لابن" و"تامر"، أي ذو خبز ولبن وتمر، وقد عقدَ المبرّد في هذا المطلبِ باباً وسمه "بما يُبْنىعليه الاسمُ لمعنى الصّناعة لتدلّ مِن النّسب على ما تدلّ عليه الياء"[4].

ومِن المعاني التي تتردّد بين الوسيلتَين المصدر، فقد تقدّم حديثٌ يشتمل على بعضِ المصادر ومعانيها وقوالبِها، ولكنْ، قد يحدثُ أنْ يُصاغ مِن اللّفظ مصدرٌ بزيادةِ مورفيمٍ على القالبِ يأتلف مِن ثلاثةِ صوامت: "يّة"، كالحريّة والجاهليّة والإنسانيّة والمدنيّة والقالبيّة[5].

ومِن مِثْل ما تقدّم "اسم المرّة" مِن فعلٍ ثلاثيّ أو أزيد، ومطالبُ الدّرس الصّرفيّ تُؤْذِن بإلحاق مورفيم التّاء الدّالّ على المرّة؛ كقولنا ضَرْبة وطَعنة ونَومة، ولكنْ، يحدثُ أنْ يُعطّل فضلُ هذا المورفيم في تأدية دورِه الوظيفيّ؛ ذلك أنّ المصدر نفسَه قد يكون مشفوعاً بالتّاءِ؛ وذلك نحو رحمة، واستقالة، وإقامة، ولهذا ليس ثَمّ بدّ مِن ملءِ هذا الفراغِ الوظيفيّ بالعَود إلى المعنى المرادِ، وهو تعيين

---

(١) انظر: في مبحث الجمع: سيبويه – الكتاب، ٥٦٧/٣، المبرد – المقتضب، ١٩٥/٢، ابن السراج – المصدر نفسه، ٤٣٠/٢، الأستراباذي – شرح الشافية ، ٤٦٦/٣. السيوطي– الهمع، ٣٠٨/٣، الحملاوي– شذا العرف، ٩٩.

(٢) يسميها سيبويه الإضافة ، انظر: المصدر نفسه، ٣٣٥/٣.

(٣) ابن يعيش – شرح المفصل ، ١٤١/٥.

(٤) انظر: سيبويه– الكتاب، ٣٨١/٣، المبرد – المقتضب ، ١٦١/٣، ابن يعيش– المصدر نفسه، ١٣/٦، ابن السراج الأصول، ٨٣/٣، الأستراباذي– شرح الشافية، ٨٩/٢، السيوطي– الهمع، ٣٧٠/٣، المزهر، ٢٧٤/٢.

(٥) انظر: الحملاوي – شذا العرف، ٧٣.

المرّة، فيكون العدد "الواحد" عوضاً عن المورفيم المتعذّر إلحاقه بالمصدر: "رحمة واحدة"، و"استقالة واحدة". ومثلُه اسم الهيئةِ، فقدْ يكون مُشكَّلاً على هيئةِ قالب "فِعلة"، كالنِّشْدة، ولهذا يُجنَح إلى تقرير الهيئةِ بالوصفِ، فيقال: نِشْدة عظيمة(١).

ومِن وسائل الإبانةِ في المستوى الصّرفيّ تناوب القوالب؛ ذلك أنّ المتأمّل فيه يجد أنّ طائفةً منها تتناوب في تأدية أدوارِها الوظيفيّة، ويَنْزِل بعضها مَنْزل بعضٍ؛ ومِن ذلك ما تقدّم مِن تعريج على معاني قوالبِ الأفعال، وقيام قالب "مفعول" مقامَ المصدر(٢)، فنقول: ما له مَعقول ولا مَجلود، أي ليس له عقل ولا جَلَد، وقيام قالب "فاعلة" مَقام المصدر(٣)، ومِنه الفاضلةُ والعاقبة والعافية، أي الفضل والعُقبى والعفو، وقدْ يؤدّي القالبُ "أفعل" وظائفَ معنويّة متباينة، كأنْ يكون للمفاضلةِ، أو نعتاً قائماً في المنعوت، كقولنا: أحمر، وأصفر، وأحمق، وقدْ يقوم مقام "فَعِيل"؛ وذلك نحو "أصغركم وأكبركم"، والمعنى المتعيِّن: صغيركم وكبيركم(٤).

وقد يقومُ "فَعِيل" مَقام "فاعِل" و"مفعول" و"مُفْعل"(٥)؛ وذلك نحو كريم، وجَريح، وحكيم. وقوالبُ الجموع قد تتنازل، فقد يُستعمَل القالبُ الموضوع للقلّة موضعَ القالب الموضوع للكثرة(٦). وقالبا "فِعْل" و"فَعَل" قد يقومان مَقام المفعولِ؛

---

(١) انظر مبحث اسمي المرّة والهيئة: سيبويه –الكتاب ، ٤٤/٤، ابن السراج – الأصول ، ١١٠/٣، ١٤٠ ، الأستراباذي – شرح الشافية ، ١٧٨/١، السيوطي– الهمع، ٢٨٥/٣، الحملاوي– الشذا ، ٧٣.

(٢) انظر: ابن فارس – الصاحبيّ، ٢٣٦، ابن السراج– المصدر نفسه ، ١٤٩/٣، ابن يعيش – شرح المفصل، ٥٢/٦، الأستراباذي –المصدر نفسه، ١٦٨/١، السيوطي المزهر، ٢٤٦/٢، وقد عقد بابا وسمه بباب ذكر المصادر التي جاءت على مثال مفعول الصبان– الحاشية، ٤٦٧/٢، الحملاوي – المصدر نفسه،٧٥

(٣) انظر: ابن فارس – المصدر نفسه، ٢٣٦، ابن يعيش – المصدر نفسه ، ٥٠/٦ الأستراباذي – المصدر نفسه، ١٦٨/١، الصبان – المصدر نفسه، ٤٦٨/٢.

(٤) انظر: المبرد – المقتضب، ٢٤٦/٣، الأستراباذي– المصدر نفسه، ٥٢٤/٣. وقد أشار الرضي إلى أنه يؤول باسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة.

(٥) انظر: ابن فارس – الصاحبيّ ، ٢٣٦.

(٦) ابن يعيش –شرح المفصل ، ١١/٥.

وذلك نحو الذِّبْح والطِّحْن والخَبَط والنَّفَض[1]. والحقّ أنّ هذا يكثرُ إنْ تتبّعتَه، وقد أوردتُ أمثلةً تنبّه على الغرضِ الذي قصدته[2].

ولا يخفى ممّا تقدّم أنّ مطلب الحديثِ عن تناوبِ القوالبِ هو وجهٌ مِن وجوهِ الحديث عن ظاهرة الاشتراكِ؛ ذلك أنّ القالب التّصريفيّ الواحد قد يرشّح لأنْ يقعَ تحته معنيان أو أزيد، فيغدو ممّا يلحق بركبِ المشترَك اللّفظيّ كما العين والضّرب. وممّا يقربُ مِن هذا المخوضِ فيه تعالقُ قالبَين مفترقَين في المعنى في ثوبٍ ظاهريٍّ متماثل يتعاوره معنيان أو أكثر؛ ومِن ذلك اسمُ المكان، واسمُ الزّمان، واسمُ المفعول، والمصدر، كلّ هذه المعاني المتمايِزة تتبوّأ قالباً واحداً إذا كان الفعل الذي إليه تنتسبُ رباعيّاً أو أزيد، كالمُنْطَلَق والمُبْتَدَأ والمُنْتَهى.

وقد يحدثُ أنْ يكون القالبُ محتمِلاً لمعنيين لائتلافِه في صيغتِه العميقة مِن مبنيين، ولكنّ العَوارض التّصريفيّة تفضي إلى تماثلٍ قالبيّ؛ ومِن ذلك استواءُ قالب اسمِ الفاعل وقالبِ اسم المفعول في هيئةٍ واحدة فيما عينُه منقلبة عن ياءٍ أو واو مِن غير الثّلاثيّ، و"كلّ ما كان مِن هذا البابِ بمعنى "الفاعل" فوزنه مُفتعِل(بكسر العين)، وما كان بمعنى "المفعول" فوزنه "مُفتَعَل"، فالأصل في "مُقتاد" بمعنى "الفاعل" مُقتوِد، وبمعنى "المفعول" مُقتوَد، والأصلُ في "مُمْتاح" "مُمْتَيِح" في "الفاعل"، و"مُمْتَيَح" في "المفعول"، وكذلك أخواتهما، إلاّ أنّ الإعراب لا يتبيّن في الألفِ لأنّها لا تكون إلاّ ساكنةً أبداً"[3].

---

(1) انظر: الأستراباذي – شرح الشافية، ١/١٦٢، الصبان – الحاشية، ٢/٤٧٨.

(2) لمزيد بسط القول في " تناوب الصيغ" انظر: محمود ياقوت – ظاهرة التحويل في الصيغ الصرفية،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٥، وانظر: عبد الفتاح الحموز – ظاهره التعويض في العربية وما حمل عليها من مسائل، ط١، دار عمار، عمان، ١٩٨٧م، ١٢١-١٢٨.

(3) أبو الطيب اللغويّ – الأضداد في كلام العرب، تحقيق عزة حسن، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٩٨م، ٢/٧٠٣، والظاهر من هذا النص المقتبس أن فيه تجلية للتماثل القالبي الحادث، ولكن الذي لا يستقيم فيه هو قوله " إلا أن الإعراب لا يتبين في الألف، لأنها لا تكون إلا ساكنة"، وهي ليست كذلك البتة، ولكن الحادث هو قلب الواو والياء إلى الألف المصوتة، ولا يصح في الفهم أن تكون ساكنة.

ثالثاً: الإبانة في المستوى المعجميّ:

ثمّ تتآلف المورفيمات- وقد تقدّم فضل بيانٍ عنها في ثِنْي الحديثِ عن النّظام الصّرفيّ- في هيئة كلماتٍ مستقلاّت لكلّ واحدة منها معنى على التّعيين، ومردّ ذلك إلى أنّ الكلمة علامةٌ لغويّة ران عليها إلفُ الجماعةِ النّاطقة بها، فغدتْ تقدح في الخاطرِ الصّورة الذّهنيّة التي انعقد عليها إجماعُ أهلِ اللّغة القائمُ على العُرف والمواضعة، ثمّ إنّ هذه العلامةَ اللّغويّة ثنائيّة الكيان؛ ذلك أنّها تأتلف مِن قطبين، وهما الفكرة "Concept"، والصّورة الصّوتيّة "Sound Image"[1]، وهذان القطبان يشكّلان وَحْدةً متآلفة؛ إذ إنّ كلاًّ منهما يستدعي الآخَر، والرّابط بينهما رابطٌ نفسيّ متعلّق بتداعي المعاني "Associative"[2]، ومِن مجموعهما ينشأ المعنى الإشاريّ "Referential Meaning".

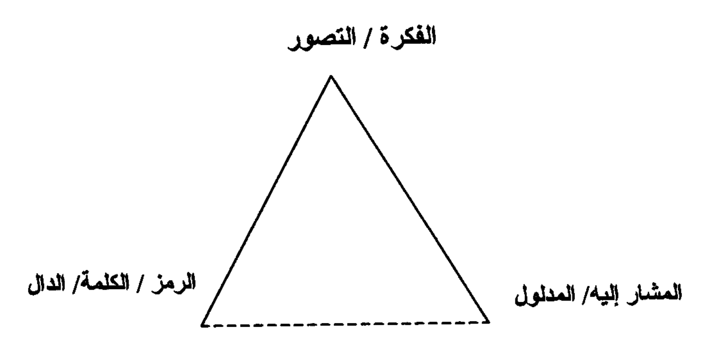
وقد وسم "دي سوسير" الصّورةَ الصّوتية بالدّالّ، والفكرة بالمدلول، مقرِّراً أنّ العَلاقةَ بينهما اعتباطيّة[3]، فليس بمُكْنة المرءِ أنْ يعيِّن معنى الكلمةِ معتمداً على إيحاء الأصواتِ المؤلِّفة لها، بل إنّ مردّ ذلك - كما تقدّم آنفاً - إلى العُرف الاجتماعيِّ، وما الصّوت إلاّ حاملٌ للمعنى. وثمّ تصوّر آخرُ في تعيين معاني الكلماتِ في علم الدّلالةِ، وقد عُرِف بمثلَّث المعنى؛ ذلك أنّ العلامة اللّغويّة تتردّد بين ثلاثةِ محاورَ:

---

(١) انظر: دي سوسير - فصول في علم اللغة العام، ترجمة أحمد الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ١٢١-١٢٢.

(٢) بالمر، ف، ر علم الدلالة، إطار جديد، ترجمة، ترجمة صبري السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢م، ٤٦.

(٣) انظر: دي سوسير -فصول، ١٢٤،



والرّمز هو العنصرُ اللّغويّ(الكلمة)، والمشارُ إليه هو الشّيء الموجودُ في العالم الخارجيّ، والفكرةُ هي التّصوّر المجتمَع عليه، والصّلة الرّئيسةُ بين هذه المحاور الثّلاثيّةِ إنّما هي حاصلة في الفكرة(التّصوّر)، فثمّ تعالقٌ بين الدّالّ(الرّمز) والفكرةِ، والمدلول والفكرة[1].

يتبيّن ممّا تقدّم أنّ للكلمات معانيَ إشاريّةً يستوعبها المعجم، فكلمة "طاولة" صورةٌ صوتيّة رمزيّة تدلّ على معنى معيَّن، وكلمة "النّوم" تدلّ على معنى مجرَّد كذلك، ومِن وجهةٍ أخرى، نجد أنّ اللّغات تتباينُ في التّعبير عن المفهوم الواحدِ، ومِن ذلك أنّ الدّالّ الرّمزيّ الذي يستدعي هذا المفهوم العالميّ هو"Slept" في الإنجليزيّة، وهو في الألمانية والفرنسية وغيرِهما مفارق لذَيْنك الدّالّين الرّمزيّين.

ويُضاف إلى المعنى الإشاريّ معانٍ أخرى ذات فضل في الإبانةِ عن مقاصدِ التّعبير، ومِن ذلك المعنى الهامشيّ والسّياقيّ والمجازيّ.

---

(١) لمزيد بسط القول انظر: بالمر- علم الدلالة، ٤٦-٤٧، أولمان، ستيفن - دور الكلمة في اللغة- ترجمة كمال بشر، ط١، مكتبة الشباب، القاهرة ، ١٩٦٢م، ٧٠-٧٢، ليونز ، جون - علم الدلالة (الفصلان التاسع والعاشر من كتاب (مقدمة في علم اللغة النظري، ترجمة مجيد الماشطة وآخرين ، ط١، جامعة البصرة، البصرة، ١٩٨٠م، ١٥ وانظر ما أخذ على هذه النظرية: أحمد عمر - علم الدلالة ، ط٣، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٢م، ٥٦.

أمّا المعنى الهامشيّ[1]فهو المعنى المتعلّق بخاصّ أمر صاحبِه، ودَخيلة نفسِه، وليس له مساسّ بالمعنى المركزيّ الإشاريّ المُثْبَت في المعجمات، بل هو ظلال سلبيّة أو إيجابيّة تحيط بذلكم المعنى المركزيّ، متباينةً بتباينِ الأفراد وتجاربِهم؛ ذلك أنّ "المدلول في نظرِ الفكرِ الحديثِ عبارة عن مجموعةٍ مِن الدّوائر والمناطقِ المتّحدة المركز، المختلفةِ الحدود، أي أنّ المعنى الأساسيّ للكلمات محدودٌ ومعيَّن بصفة عامّة، ولكنّ الجوانبَ الخارجيّة لهذا المعنى غامضة وغيرُ ثابتة"[2].

ومُثُلُ هذا كثيرة عن وَفْرة ما يقف عليه المرءُ في زَحمة الشّارع أو البيتِ الأُسْريّ، والذي يسترعي الانتباه أنّ المشترِكَين في الحدث الكلاميّ لا يختلفان في تعيين مفهومِ المعنى الإشاريّ(المركزيّ)، ولكنّهما يختلفان فيما يكتنف المعنى المركزيّ مِن مَعانٍ خاصّة، وظلالٍ هامشيّة.

أمّا المعنى المجازيّ فهو قائمٌ على ملحظِ الانزياح اللّغويّ، فثَمّ ألفاظٌ لا تتساوقُ مع أخرى في سياقِها البنيويّ التّركيبيّ؛ إذ إنّها خارجة عن مِضمار دِلالة العقل، أو مِضمار دلالة الأعرافِ، ولكنّها، في سياق إبداعيّ، أو سياق حالٍ يتسامح بتجاوز تساوق الألفاظِ على نحو منطقِ الأعرافِ أو العقل، مُتقبّلةٌ، بل قد يكون لها ألقٌ يستثير في النّفسِ شيئاً بل أشياء. فالحقيقةُ إذن ما أُقِرّ في الاستعمال على أصلِ وضعِه في اللّغة، والمجازُ ما كان انزياحاً عن المتعارَف عليه مِن أصلِ الوضع[3]، ومِن ذلك:

---

(١) يسميه بالمر بالمعنى العاطفي، وإبراهيم أنيس بالدلالة الهامشية، ومحمد الخولي بالمعنى الوجداني، وأحمد عمر بالمعنى العرضي، والإضافي. انظر بالمر علم الدلالة ، ٦٠، إبراهيم أنيس – دلالة الألفاظ، ط٦، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م، ١٠٨، محمد الخولي – مدخل إلى علم اللغة، ١٣٧، وأحمد عمر– علم الدلالة، ٣٧.

(٢) أولمان – دور الكلمة في اللغة ، ١٠١، وقد مثل لهذا بالمر بكلمة " ليبرالي"، فهي كلمة متقبلة في بريطانيا، ولكنها رديئة في جنوبيّ أفريقيا انظر: المرجع نفسه، ٦٠.

(٣) انظر: ابن جنيّ – الخصائص ، ٢/٤٤٤.

١- ﴿ واخفضْ لهما جناحَ الذّلّ مِن الرّحمة﴾ [١]

٢- " رقيق حواشي الحِلم"

٣-" زارنا أسدٌ في الجامعة"

٤- " في البيت قمر وهّاج"

أمّا المعنى السّياقيّ فهو المُحتكَم الأوّل في تعيين معاني الكلماتِ الواردة فيه، وقد ذهب أشياع النّظرِ السّياقيّ إلى تقرير قصورِ المعجمِ في فرضِ قيمة معنويّةٍ على معاني الكلماتِ؛ إذْ إنّ لهم قولةً مؤدّاها أنّ الكلمات ليس لها معنى وهي بمنأى عن السّياقِ، وهم يردّدون أيضاً: "لا تبحثْ عن معنى كلمةٍ، ابحث عن استعمالاتِها"[٢]. والحقّ أنّ هذا النّظر مُتقبّل لا يُدافَع، مع أنّه مُكتنَف بتهويلٍ وتعميم، ولكنّ المتأمّل في ناموسِ استعمالِ الألفاظ لدِلالاتِها يقف على نماذجَ مُشرقةٍ في تعضيد هذا النّظرِ المتقدّم، ومِن ذلك دِلالة الأخذ فيما يأتي:

١- أخذت القلم مِن سعيد

٢- أخذتُ عليه فعلته - (عبت)

٣- أخذت عليه موثقاً - طلب إليه الالتزام والوفاء

٤- أخذت بعين العناية - اهتممت

٥- أخذت بالأسباب - استعددت

٦- أخذت برأيه - قبلت مشورته

٧- أخذت في البحث - بدأت

٨- أخذت بيده - هديته

٩- أخذت عنه الحمل - ساعدته

١٠- أخذت عنه العلم - تتلمذت على يديه

---

(١) الآية (الإسراء، ٢٤).

(٢) انظر - أولمان - دور الكلمة في اللغة، ٦٢، فندريس - اللغة ، ٢٣١، بالمر - علم الدلالة ، ٥١، ليونز- علم الدلالة ، ٢٣، جرمان -علم الدلالة ، ٤٤.

العلاقات بين الكلمات:

"اعلم أنّ مِن كلامهم اختلافَ اللّفظين لاختلاف المعنيين، واختلافَ اللّفظين والمعنى واحد، واتّفاق اللّفظين واختلاف المعنيين"[١].

إذا ما جال الطّرفُ مجالَه في المعجم فإنّه سيهتدي إلى ضروبٍ مِن الوشائج بين الكلمات، ومِن أشهرها "الاقترانات اللّفظيّة"، و"اتّفاق المعاني وافتراق المباني"، وهو "التّرادف"، و"اتّفاق المباني وافتراق المعاني"، وهو "المُشترَك والأضداد"، والتّضادّ، والتّنافر، والاشتمال، وعلاقة الجزء بالكلّ.

أمّا الأخيرة فمن أمثلتِها العلاقةُ بين الكِتاب والغلاف، والصّفحة والكِتاب، والرّأس والجِسم، والباب والبيت[٢]. أمّا علاقةُ الاشتمال فهي مِن أهمّ العَلاقات المتّصلة بالحقولِ الدّلاليّةِ التي سيأتي عليها الحديث بَعْداً، ومِن ذلك أنّ الموجوداتِ تُقْسَم إلى الأحياءِ والجمادات، والأحياءُ تشتمل على الحيوانِ والنّبات، والحيوانُ يشتمل على السّمك والطّيرِ والحشرات، والسّمكُ يشتمل على أنواعٍ كثيرة، وهكذا دواليك، والملاحظُ أنّ بمُكْنة المرءِ أنْ يجمع ألفاظَ اللّغة في خيط جامعٍ ينتظم عِقْدَها، وهو خيطُ الاشتمال. والظّاهر أنّ هذه الظّاهرةَ تتضمّن علاقة الاستلزام المنطقيّة(Entailment)، فالقول بأنّ هذه خزامى يستلزم القولَ بأنّ هذه زهرة وفاءً لقواعد العقل والمنطق[٣].

أمّا التّضادّ فهو دالّ على تمايزِ كلمتين بالتّقابل والثّنائيّة، ومِن ذلك(صغير/ كبير)، و(حبّ/ كره)، و(دَخيل/ أصيل)، و(حِلّ/ ترحال)، و(قليل/ كثير)، و(متزوّج/عَزَب) [٤].

---

(١) سيبويه- الكتاب، ١/٢٤، وانظر في المضمون المشابه، ابن فارس – الصاحبيّ، ٢٠٦-٢٠٧

(٢) لمزيد بسط القول انظر: أحمد عمر–علم الدلالة،١٠١، محمد الخولي – مدخل إلى علم اللغة ، ١٢٩.

(٣) انظر: علاقة الاشتمال: بالمر – علم الدلالة ، ١١٨-١٢١، جرمان –علم الدلالة، ٦٨، أحمد عمر – المرجع نفسه، ٩٩.

(٤) انظر: بالمر – المرجع نفسه، ١٢٢-١٢٥، انظر:
Jackson, H, Words and their Meaning, 3rd ed., Longman, London 1991,p. 74-76.

أمّا التّنافر فليس فيه معنى التّضادّ السّابق، ومِن أمثلته قولنا: أحمر وأخضر وأسود، فليس الأحمرُ نقيضاً للأخضر، وليس الأسودُ نقيضاً للأحمرِ، ولكنّ بين هذه المعاني علاقةَ التّنافر المفضيةَ إلى تمايز كلّ واحدٍ واستقلالِه بمعنى على وجهِ التّعيين، ومِن ذلك أيضاً رُتَب سنّ البعير؛ فهو سَليلٌ ساعةَ تضعه أمّه، فإذا استكمل سنةً وفُصِل عن أمّه فهو فَصيل، فإذا كان في السّنةِ الثّانية فهو ابن مَخاضٍ، وفي الثّالثة ابن لَبون، فإذا كانت الرّابعة واستحقّ أنْ يُحْمَل عليه فهو حِقّ، فإذا كانت الخامسة فهو جَذَع[1]، والملاحظ أنّ ثَمّ تنافراً بين هذه المعاني، فكونه فَصيلاً يعني انتفاءَ كونه سَليلاً أو حِقّاً، وكونه جَذَعاً يعني استحالةَ كونِه فَصيلاً[2].

ومِن العلاقات المتقدّم ذكرُها "المشترك اللّفظيّ"، وهو"اللّفظ الواحد الدّالّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالةً على السّواءِ عند أهل تلك اللّغة"[3]، ومِن ذلك العَيْن، فقد تدلّ على العين الجارحةِ المخلوقةِ للإبصار، والعينُ هو الجاسوس تشبيهاً بالعين لأنّه يطّلع على الأمور، وعينُ الشّيء خياره، وعين القوم سيّدهم، والعين عين الماء[4]. ومِن الأمثلةِ الطّريفة الدّالّة على المشترَك أنّ رجلاً قال لِرُؤْبةَ: "لِمَ سمّاك أبوك رؤبة؟، فقال: والله لا أدري أبروبةِ اللّيل، أم بروبة الخمير، أم بروبة اللّبن، أو بروبة الفرس"[5]. أمّا روبة اللّبن فرِغوته، وروبة اللّيل معظمُه، وروبة الخمير زيادتُه، وروبة الفرس طَرْقه في جماعِه، وقيل عَرَقه[6].

لوينز – علم الدلالة ، ١٩، أحمد عمر– علم الدلالة، ١٠٢.

(١) انظر: الثعالبيّ – فقه اللغة وسر العربية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، ط٣، دار الفكر، (د. ت)، ١١٤.

(٢) لمزيد بسط القول في التنافر انظر: بالمر– المصدر نفسه، ١١١-١١٧، أحمد عمر – المرجع نفسه، ١٠٥-١٠٦، محمد الخولي– مدخل إلى علم اللغة ، ١٣٣.

(٣) السيوطي – المزهر، ٣٦٩/١.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ٣٧٥/١.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ٣٧١/١.

(٦) انظر: المصدر نفسه، ٣٧٠/١

وممّا يلحق بركبِ المشترَك اللّفظيّ "الأضداد"؛ إذْ إنّ تعريف المشترَكِ يشتمل على تعريفِ الأضداد، فالأخير يقعُ تحت كلماته معنيان، ولكنّ الصِّبغة الفارقةَ واقعةٌ في أنّ هذين المعنيين الواقعَين تحت الضّدّ متقابلان، والذي ينبغي التّنبيهُ إليه هو إقامة البونِ بين مصطلحَين في مقام الحديثِ عن الوشائج بين المعاني، وهما "الأضداد" و"التّضادّ"، فهما ليسا مترادفَين ولا بمتداخلَين؛ ذلك أنّ الأضدادَ نوع مخصوصٌ مِن المشترَك، ومِن ذلك "الجَوْن" الدّالّ على الأبيض والأسود[1]، و"المولى" الدّالّ على المُنعِم المُعتِق، والمُنعَم عليه المُعْتَق[2].

ومِن العلاقات بين المعاني "التّرادف"، وقد حُدَّتْ بأنّها الألفاظُ المختلفة في المعاني المؤتلِفة[3] ، ومِن ذلك "مضى- ذهب" ، و"سكب-صبّ"، و"جاء-قدم" ، وقد لفتتْ هذه الظّواهرُ الثّلاثة الأخيرة أنظارَ القدماءِ فصرفوا وُكْدهم في بحثِها، وتردّدوا في درسِها بين القَبول والإنكار، والنّاظرُ فيها يجد أنّ لهذه الظّواهر بواعثَ متباينة أفضتْ إلى نشوئها، ومِن ذلك التّباينُ اللّهْجي، والتّطوّر الدّلاليّ، والاقتراض، ونواميس اللّغة[4].

---

(١) انظر: ابن الأنباري- الأضداد ، ١١١.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ٤٦.

(٣) هذا عنوان كتاب لابن مالك بتحقيق محمد عواد، ط١، دار الجيل، بيروت، دار عمار، عمان، ١٩٩١م، ويذكر اللغويّون أن للترادف أنواعاً، كالتام وشبهه، انظر: أولمان – دور الكلمة في اللغة ١٠٩-١١٠، لوينز –علم الدلالة، ٧٤-٧٥. بالمر – علم الدلالة ، ٩٣-١٠٠ جرمان – علم الدلالة ٦٢-٦٩، أحمد عمر –علم الدلالة، ٢٢٠.

(٤) لمزيد بسط القول في هذا الظواهر انظر: السيوطي – المزهر ، ٣٦٩/١- ٤١٠. صبحي الصالح – دراسات في فقه اللغة، ٢٩٢- ٣١٣، رمضان عبد التواب. فصول في فقه اللغة ، ٣٠٨-٣٥٧، توفيق شاهين – المشترك اللغويّ نظرية وتطبيقاً ، ط١، مطبعة الدعوة الإسلامية، القاهرة ، ١٩٨٠م. مهدي عرار- جدل اللفظ المعنى دراسة في علم الدلالة العربي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٥م، ٦٠-١١٩.

والاقتراناتُ اللّفظيّة ملحظٌ جدّ فعّال في تعيينِ المعنى[1]، وقد عُرِّفت بأنّها ارتباطُ الكلمة بأخرى ارتباطاً يقرّره العُرف والعادةُ اللّغويّة[2]، ولذا ليس رصفُ الكلامCollocation أمراً مُلقى على عواهنه، فلنا أنْ نقول:

مات الملكُ / ماتت الشّجرةُ / مات الحوت

أمّا قولنا :

مات السّوق / مات الضّمير / مات الحياء بين النّاس

فليس يُفهَم إلا باستحضارِ الانزياح اللّغويّ المتقدّم ذكرُه، ولكنّ قولنا:

مات الحجر/ الخشب / الجدار

لا يصحّ في الفهم؛ إذ إنّ الموت الحقيقيّ لا يكون إلاّ لذي حياةٍ، والضّرب الأخير ممّا لا يستقيم الاقتران اللّفظيّ فيه[3].

وعلى صعيدٍ معجميّ آخرَ، قد يحدثُ أنْ يصطفيَ النّظام اللّغويّ اقتراناتٍ لفظيّة لازمةً لا تتبدّل كما تبدّلتْ آنفاً، ومِن ذلك أنّ الإنسان قد يخلع بعضَ ما يلبس ممّا يواري الرّأسَ أو الجسم أو القدمين، ولكلّ حالٍ مِن تلكم الحالاتِ اقترانٌ لفظيّ ينبغي التزامه؛ ذلك أنّنا نقول:

هو حافٍ مِن النّعل - حافي القدمين

عارٍ من الثّياب - عاري الجسد

حاسر من العِمامة - حاسر الرأس

أعزل مِن السّلاح[4] - أعزل

---

(١) انظر: Jackson – Words, p.97،

(٢) انظر Robins- General Linguistics,p. 6

(٣) سيأتي حديث في " الإبانة في المستوى النحوي" عن المقبولية النحوية والدلالية.

(٤) هذه أمثلة استقيتها من كتاب الثعالبيّ – فقه اللغة وسر العربية ، ٩١، وقد وقف بالمر عند هذا النظر البنيويّ ، فأشار إلى مثال قريب مما أنا خائض فيه، ومن ذلك:

Flock of sheep – school of whales
Herd of cows- pride of lions.

انظر: علم الدلالة ، ١٤٧،

ويُستشرَف ممّا تقدّم ملحظ لطيفٌ مضمونُه أنّ الحافيَ والعاري والحاسرَ والأعزل كلمات تلتقي على مفهوم واحدٍ، وهو الخلعُ، ولكنّ لكلّ كلمة اقتراناً تمتاز به عن الأخرى، فليس يصحّ أنْ نقول: حافٍ مِن الثّياب، أو حاسر مِن النّعل.

ومِن مثِل ما تقدّم الاقترانات اللّفظيّة الآتية:

النّقْش في الحائط أو الحجر

الوشْم في اليد

الرَّقْش في القرطاس

الوشي في الثّوب[1]

وكذلك: هو عطشانُ إلى الماءِ، جائع إلى الأكلِ والخبز، عَيْمانُ إلى اللّبن، قَرِم إلى اللّحم[2]، ونقول أيضاً: حُسافة التّمر، وقُلامة الظُّفر، ونُشارة الخشب، ومُشاطة الشّعر، وفُتاتة الخبز، وبُراية العود، وبُرادة الحديد[3]، ويُلحَظ ممّا تقدّم أنّها اقتراناتٌ لفظيّة لازمةٌ، وهي، مِن وجهة أخرى، تلتقي على مفهومٍ واحدٍ ينتظم سيرورتَها، وهو ما يتساقطُ مِن الشّيء.

وعلى صعيدٍ معجميٍّ ثالث، قد يبيح النّظام اللّغويّ تَعاوُرَ الضّمائم، ولكنّ هذا مُفْضٍ إلى تباينٍ في المعنى، ومِن ذلك:

حمَل له	**حمل عليه**
دعا له	**دعا عليه**
رغب فيه	**رغب عنه**
سَها في صلاته	**سها عن صلاته**
انقطع إلى البحث	**انقطع عن البحث**
أمسك بالشيء	**أمسك عن الشيء.**

---

(1) انظر: الثعالبيّ – فقة اللغة وسر العربية ، ١٠٧.

(2) انظر: المصدر نفسه، ١٨٢.

(3) انظر: المصدر نفسه، ٧٩.

شتّان ما بين المعنيين المتعيّنين في كلّ جملتين متقابلتَين؛ إنّ مردّ ذلك إلى تباينِ الضّميم.

وعلى صعيدٍ معجميّ رابعٍ، قد يحدث أنْ تقومَ علاقات اقترانيّة بين كلمات، ثمّ تغدو تلك الكلمات بعلاقاتِها الاقترانيّة تعبيراً اصطلاحيّاً قائماً على التزامِ الهيئة التي ورد عليها[1]، والمتعيِّن مِن هذه التّعبيراتِ الاصطلاحيّة لا يمكن الاهتداءُ إليه مِن معاني الكلماتِ المؤلِّفات؛ إذْ إنّها–أعني التّعبيرات الاصطلاحيّة – وَحَدات مُفْرَدة، صحيحٌ أنّها تأتلف مِن كلمتين أو أزيدَ، ولكنّها تؤدّي وظيفةَ الكلمة القائمة برأسِها في الأعمّ الأغلب[2]، ومِن ذلك:

"أصابع زينب"	**نوع من الحلوى**
" طابور خا مس"	**يدل على أن الذي يوسم بهذا الميسم من العيون والعملاء**
" بلّطْ البحر"	**دلالة على النهر وانتفاء الاكتراث.**
" ركب رأسه"	**عاند**
" حبر على ورق"	**لا قيمة له**
" صفر على الشّمال"	**لا قيمة له**
" أعطاه الضّوء الأخضر"	**أذن له، أو أوعز إليه**
" اللّعب بالنّار"	**مغامرة[3]**

---

(١) يسميها Jackson تعبيرات ثابتة (Fixed expressions)

انظر: Jackson – Words and their Meaning, P. 103.

(٢) انظر: بالمر– علم الدلالة ، ٦٧، ومن ذلك أن الناطقين بالإنجليزية يتواضعون للدلالة على الموت بالتعبيرين الاصطلاحيين: Kick the bucket. fly off handle

انظر المرجع نفسه، ١٠٥.

(٣) من المصنفات التراثية التي جمعت تعبيرات اصطلاحية " ثمار القلوب في معرفة المضاف والمنسوب" للثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.

ومِن النّظريّات الذّائعةِ في دراسة المعاني المعجميّةِ "نظريّة الحقول الدّلاليّة"، وهي نظريّةٌ قائمة على افتراضٍ مؤدّاه أنّ بمُكْنةِ اللّغويّ أن يُنْزِل جلّ كلماتِ اللّغة- إنْ لم يُنْزلها كلّها- في مجالاتٍ دلاليّة تُستودَع فيها، بعدَ تصنيفِها في معانٍ عريضةٍ عامّة[1]، وهذه المعاني العامّة تتمثّل في عُنواناتِ الحقول الدّلاليّةِ، ويبقى ثمّ امتيازٌ في كلّ كلمةٍ مِن كلمات الحقل الواحدِ، وبهذا يستقيم أنْ يوصَف معنى الكلمةِ بأنّه المُنْتَج المتعيِّن مِن الموقعيّة المخصوصةِ التي تحتلّها الكلمة بين مواقعِ أخواتِها في الحقل الدّلاليّ الواحدِ، ومِن تلك العَلاقات الدّلاليّة القائمة بين كلماتِ الحقل نفسه[2].

وممّا يجلّي هذا الذي تقدّم الحقلُ الدّلاليّ الموسومُ بالرُّتَب، والرّتب في العالمِ الخارجيّ كثيرةٌ كالألقاب العلميّةِ الجامعيّة: أستاذ، أستاذ مشارك، أستاذ مساعد، محاضر، معيد، مساعد بحث وتدريسٍ. والرّتب الملكيّة والعسكريّة والوِزاريّة، ورُتَب الأوزانِ والمقاييسِ. لننظرْ في بعض الرّتب العسكريّةِ:

رقيب – وكيل – ملازم – نقيب – رائد – مقدَّم – عقيد – عميد – لواء – فريق – مشير.

مِن المقرَّر المُستحكمِ أنّ هذه الكلماتِ تنتسب إلى حقلٍ دلاليّ واحد، وهو حقل الرّتب، وأنّ هذا الحقلَ يشتمل على حقولٍ أخرى يلفّها عنوانُه العريض، وليس ثمّ ريبٌ في التقاءِ هذه الرّتب على معنى واحدٍ عامّ، وهو عنوان الحقلِ الجزئيّ:"الرّتب العسكريّة"، ولكنّ هذا لا يغني عن بيانِ معاني كلماتِ الحقل، ولذا يكون بمُكْنةِ المرء أنّ يعيّن معنى "رائد" معتمِداً على الموقع الذي تسكنُه الكلمةُ المُمثِّلة لهذا

---

(١) انظر: Jackson – Words and their Meaning, p210.

(٢) انظر: Robins- General Linguistics ,p. 69.

المعنى في الحقلِ الدّلاليّ، مستشرِفاً العَلائق المتحصّلة بينها وبين أخواتِها، وهكذا يقع التّنافر الذي هو أساسٌ لفهمِ المعاني[1].

ومِن مثل ما تقدّم الحقلُ الدّلاليّ الذي يشتمل على ترتيبِ سنّ المرأة، فهي الطّفلة ما دامت صغيرةً، والوليدةُ إذا تحرّكت، ثمّ الكاعب والمُعْصِر والخَوْد والمُسْلف والنَّصَف والشَّهْلة والشَّهْبَرة والحَيْزَبون[2]. ومن مِثل ما تقدّم فصلٌ في ترتيبِ العداوة ودرجاتِها[3]، وفصلٌ في ترتيبِ أحوال الغضب وتفصيلِها[4]، وفصلٌ في ترتيب الحبّ ودرجاته[5].

لعلّه يستقيم القولُ إنّ معانيَ هذه الكلمات تزداد جلاءً ووضوحاً بالنّظر إلى الموقعِ الذي تتبوّؤه كلّ كلمة بين بناتِ حقلِها؛ إذْ إنّ هذه النّظريّة تكشف عن التّعالقِ العضويّ بينها، فضلاً عن التّمايزِ الفرديّ. ثمّ إنّ دراسةَ معاني الكلمات على هذا النّحوِ؛ نحوِ تبويبِها في حقولٍ دلاليّة متمايزةٍ هي دراسةٌ لنظامِ التّصوّرات والموجوداتِ والعادات والتّقاليدِ، وهي سبيلٌ تنفي عن الكَلِمِ التّسيّب المزعوم[6].

وفي دراسةِ الحقل الدّلاليّ تَعْرِض بعضُ المشكلات التي يعتاص أمرُها على اللّغويّ المُصنِّف، ومِن ذلك تحديدُ الحقل الدّلاليّ، وتحديدُ الوَحَدات اللّغويّة التي يأتلفُ مِنها الحقل، وتحديد الحقولِ فيما بينها[7]، ولكنّ العائد المرجوّ في دراسةِ المعاني؛ معاني الكلماتِ أعظمُ مِن هذا الاعتياصِ وأجدى، ويبقى ثَمّ مُستأنَس يدافع به الباحثُ هذا المُعتاص المتقدِّم، ومِن ذلك أنّ مكوّناتِ الحقل الواحد تتماثلُ في

---

(١) عرج Robins : على بعض الرتب العسكرية مبيناً فضل الحقل الدلالي على تجلية معنى كلماته Robins- General Linguistics p69.

(٢) انظر : الثعالبيّ – فقه اللغة وسر العربية ، ١١٢.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ١٨٩.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ١٨٩.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ١٨٨.

(٦) انظر: أحمد عمر – علم الدلالة ، ١١٢-١١٣.

(٧) انظر: جرمان – علم الدلالة، ٥٦.

انتسابِها التّصنيفيّ النّحويّ، كأنْ تكونَ المكوّنات جميعُها في الحقل أسماءً أو أفعالاً أو صفاتٍ، ثمّ تتماثل المكوّنات في انتسابِها إلى المحسوساتِ أو المجرَّدات في المنطقِ الخارجيّ، فليس يصحّ أنْ يُجْمَع ما هو محسوسٌ ومجرَّد تحتَ لَبوس عنوانٍ مشترَك، وكلّما زاد عددُ السّمات المشتركة بين الكلماتِ قلّ عدد مكوِّنات الحقلِ الواحد، والأمر بالضّدّ، فكلّما قلّ عدد هذه السّماتِ زاد عددُ مكوِّنات الحقلِ الواحد(١).

وبعد استجماعِ أجلى العَلائق بين الكَلِم، ينبغي التّعريج باقتضابٍ على المُشتمِل عليها، وهو المعجم، فهو مَعِينُ كلماتِ اللّغة، ومُستودَع ثقافةِ الأمّة وفكرها، وهو، ممثِّلاً بجوهره "الكلمات المُستودَعة فيه"، في حركةٍ دائبةٍ متوثِّبة؛ فمِن حياةٍ إلى ضعفٍ إلى غَيبةٍ إلى رجعة، وأهلُ اللّغة يُضيفون عليه مشتقّين ومرتجلين ومقترضين وناحتين، والكلماتُ فيه ليست ثابتةً على حال، فثمّ انزياح لها عن دِلالاتها ممثَّلاً بتوسيعِها وتضييقِها وانتقالِها ورقيِّها وانحطاطِها، كلّ ذلك يُؤْذِن بالقولِ إنّ هذه الحركةَ المتوثِّبة الدّائبة إنّما هي وجه مِن وجوهِ الوفاءِ بالقصد الأوّل للّغة، وهو الإبانةُ عن المقاصدِ ورسومِ التّعبير إبانةً تتساوقُ مع كلّ حادثٍ وكلِّ مُتغيِّر.

رابعاً:الإبانة في المستوى التّركيبيّ:

أحسبُ أنّ المبتدَأ في تعيين الإبانةِ في هذا المستوى واقعٌ في مَيْز ثلاثِ هيئاتٍ في رصف الكَلِم: أمّا أوّلها فهو ذلك الرّصف الملقَى على عواهنِه، المتجافي عن قواعد النّظمِ الجمليّ في العربيّة، وهذه الهيئة منه لا إبانةَ فيها البتّة؛ ذاك أنّها خارجة عن مِضمار أعرافِ النّظام اللّغويّ، وليس يصحّ في الفَهمِ أنْ يُؤتَى بالفعل

---

(١) انظر فيما تقدم: محمد الخولي – مدخل إلى علم اللغة، ١٢٧، ولمزيد بسط القول في هذه النظرية :
Robins- General Linguistics, p.67-70.
Jacksn- Words an their Meaning,p. 210-216.
جرومان – علم الدلالة، ٥٤-٦٢، ليونز – علم الدلالة ، ٤٩-٥٣. حلمي خليل – الكلمة ، دراسة لغوية معجمية ، ط٢، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٢م، ١٤٣ – ١٥٤.

مِن غير تعليقِه وإعماله في اسمٍ، ولا أنْ يُتفكَّر في معنى اسمٍ مِن غير أنْ يُراد إعمال فعلٍ فيه، وجعله فاعلاً أو مفعولاً، أو يُرادَ فيه حكمٌ مِن الأحكام النّحوية[١]، "وإنْ أردت أنْ ترى ذلك عياناً فاعمدْ إلى أيّ كلام شئتَ، وأزلْ أجزاءه عن مواضعِها وضْعاً يمتنع معه دخولُ شيءٍ مِن معاني النّحو فيها، فقلْ في: "قفا نبكِ مِن ذكرى حبيب ومنزلِ": مِن نبك قفا حبيب ذكرى منزل"، ثمّ انظر هل يتعلّق منكِ فكرٌ بمعنى كلمة منها"[٢].

مُساءلة حصيفةٌ تؤذِن بالانتقال إلى الهيئةِ الثّانية؛ فقد تبيّن أنّ الوَحَداتِ اللّغويّة لا تؤدّي معنى وهي متنافرة غير متفاعلة، ولذلك ليس ثمّ بدٌّ مِن تعالقِها تعالقاً تقرّره قواعد النّظم الجُمْلي في العربيّةِ، فقولُنا:

١- أكل محمّدٌ اللّحمَ

٢- أكل اللّحمُ محمّداً

٣- طاف الرّجلُ بالبيتِ العتيقِ

٤- طاف البيتُ العتيقُ بالرّجل

أنماط جمْليّةٌ منظومة على هيئةٍ ترتضيها قواعد النّظم في العربيّةِ، ولكنّها متباينة في "المقبوليّة"؛ فالجملتان الثّانية والرّابعة لا إبانةَ فيهما على وفقِ مقتضى العقْل، مع أنّ مطلبَ التّركيب السّليم قد تحقّق، ولعلّ هذا يفضي إلى تمثّل هيئةِ الرّصف الثّالثةِ التي تُستقى منِها الإبانة(بالمعنى العَريض)؛ إذْ إنّه لا يستقيم أنْ يُكتَفى بقواعدِ النّظم لتكونَ مرجعاً هادياً إلى طرائقِ السّلامة اللّغويّةِ، ولذا يتعيّن استرفادُ الجانب الدّلاليّ المنضافِ إلى تلكم القواعد النّظميّة التّركيبيّةِ، وبذا يصبح أمرُ التّركيب المستقيم عمادُه السّلامة النّظميّة أوّلاً، والسّلامة الدّلاليّةُ ثانياً، ولعلّ مثال "تشومسكي" يُلْمِح بل يصرّح بهذا المرادِ:

---

(١) انظر: الجرجانيّ – دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٩م، ٤١٠.

(٢) المصدر نفسه، ٤١٠.

" **الأفكار الخضراء التي لا لون لها تنام بشدّة**[1]"، وقد هجس بهذا سيبويهِ مِن قبلُ مشيراً في باب "الاستقامة مِن الكلام والإحالة" إلى أنّ منه مستقيماً حسناً، ومحالاً، ومستقيماً كذباً، ومحالاً كذباً[2]. ولا يخفى أنّ الاستقامةَ اللّغويّة التي ينشدها سيبويهِ يتجاذبها قطبان، وهما: "**السّلامة النّظميّة والسّلامة الدّلاليّة**"[3]. فنظم الكلام وتأليفُه "صيغة يُستعان عليها بالفكرةِ لا محالة"[4]، وهو "تأليف الكلماتِ والجمل مرتّبةَ المعاني، متناسبةَ الدّلالات على حسب ما يقتضيه العقل"[5]، فقولُنا:

١- زار محمّدٌ سعيداً

٢- زار سعيدٌ محمّداً

٣- بجّل المريدُ الشّيخَ

٤- بجّل الشّيخُ المريدَ

أنماطٌ جمليّة متماثلة في مكوّناتِها، متباينةٌ في معانيها، ومردّ ذلك إلى هيئة النّظمِ ومواقع الوَحَدات اللّغويّة فيها، وقد قدّم عبد القاهر الجرجانيّ بلطفِ نظره ورويّتِه آراءً مُعجِبة في تحليل الكلم ونظمِه، فأقام مقابلةً بين الحروف المنظومةِ والكلمِ المنظومة، حتّى يُظْهِر وجه التّغايرِ بين الملْحَظين؛ ذلك أنّ نظم الحروف هو تواليها في النّطقِ، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، وليس النّاظم لها "بمقْتفٍ في ذلك رسْماً مِن العقلِ اقتضى أنْ يتحرّى في نظمِه لها ما تحرّاه،...، أمّا نظم الكَلِم فليس الأمرُ فيه كذلك، لأنّك تقتفي في نظمِها آثارَ المعاني، وترتّبُها حسب المعاني

---

(١) انظر: تشومسكي – البنى النحوية ، ترجمة يوئيل عزيز، مراجعة مجيد الماشطة، ط١، دار الشؤون الثقافية العامية، بغداد، ١٩٨٧م، ١٩. وانظر في هذا الملحظ: ليونز – اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس عبد الوهاب، ومراجعة يوئيل عزيز، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، ١٩٨٧م، ١١١-١١٤، ومن أمثلته : " لقد ابتلعت التجريدية أسبوعاً أسود شاحباً" .

(٢) انظر: سيبويه – الكتاب : ١/٢٥-٢٦.

(٣) انظر: نهاد الموسى– نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغويّ الحديث، ط٢، دار البشير، عمان، ١٩٨٧، ١١٣.

(٤) الجرجانيّ – دلائل الإعجاز ، ٥١.

(٥) الجرجانيّ، علي بن محمد – كتاب التعريفات، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٥م، ٣٦١.

في النّفس، فهو إذن نظمٌ يُعتَبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعضٍ، وليس هو النّظمَ الذي معناه ضمّ الشّيء كيف جاء واتّفق، ولذلك كان عندهم نظيراً للنّسج والتّأليف والصّياغة،...، حتّى يكونَ لوضعِ كلٍّ حيث وُضِع علّةٌ تقتضي كونَه هناك، وحتّى لو وُضِع في مكانٍ غيرِه لم يصلح" (١).

يتبيّن ممّا تقدّم قَبْلاً أنّ ثمّ ثلاث هيئاتٍ؛ **أولها**: الخارجة عن قواعدِ التّركيب الجمليّ، **وثانيها**: المتّفقةُ معه، والمفترِقة عن الملحظِ الدّلاليّ، **وثالثُها**: عمادها ذلك المطلبان، وفي هذه الأخيرةِ تتمّ الإفادة، ويُقتنَص مطلوبُ المرسِل.

وقد يُتناوَل التّركيب مِن وجهة أخرى؛ ذلك أنّ النّصّ يأتلف مِن فِقرات، والفِقرات تأتلف مِن جملٍ كبرى، والجملُ الكبرى تُردّ إلى جملٍ صغرى توليديّة(٢)، والجملُ التّوليديّة هي التي تأتلف مِن عددٍ مِن الكلمات الرّئيسة مِن غير نقصٍ أو زيادة، وإنْ نقص منها جزءٌ اختلّ معناها، وإنْ زيد عليها شيء قابله زيادةٌ في المعنى(٣)، وعمادُ هذه الجملةِ علاقةُ الإسناد وقطباها، وهما "ما لا يَغْنَى واحد منهما عن الآخر، ولا يجدُ المتكلّم منه بُدّاً، فمِن ذلك الاسمُ المبتدَأ والمبنيُّ عليه، وهو قولُك: عبد الله أخوك، وهذا أخوك، ومثل ذلك: يذهب عبدُ الله، فلا بدّ للفعل مِن الاسم، كما لم يكنْ للاسم الأوّل بدٌّ مِن الآخَر في الابتداء"(٤). ثمّ تمضي الجملةُ العربيّة في الامتدادِ؛ امتدادٍ مِن عن يمينها، وامتداد مِن عن يسارِها، وكلّ ما يحدث

---

(١) الجرجانيّ – دلائل الإعجاز ، ٤٩

(٢) في ملاحظة ذكية قسم ابن هشام الجمل إلى الصغرى والكبرى، والكبرى هي الاسمية التي خبرها جملة نحو: زيد قام أبوه. انظر كتابه: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك، ومحمد حمد الله، ط١، مكتبة سيد الشهداء، ٤٩٧/٢. وقد سماها خليل عمايرة، " الجملة النواة" ، انظر: كتابه: في نحو اللغة وتراكيبها، ط١ عالم المعرفة، جدة، ١٩٨٤م، ٨٦. وقد سماها محمد عبادة " الجملة البسيطة". انظر كتابه: الجملة العربية – دراسة لغوية نحوية ، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ١٥٣.

(٣) انظر: خليل عمايرة – في التحليل اللغويّ، ط١، مكتبة المنار ، الزرقاء، ١٩٨٧م ، ٤٣.

(٤) سيبويه– الكتاب ، ٢٣/١.

ما هو إلاّ تحويلٌ عن أصل واحد[1]، والظّاهر أنّ امتدادَ الجملة قد يسيرُ في مَسلكَين أولّهما حاصلٌ في العناصرِ الإسناديّة المؤسِّسةِ، فالمبتدَأ قد يكون اسماً، وقد يكون مصدراً مؤوّلاً مؤتلفاً مِن عناصرَ متعدّدة، وكذلك الفاعل، وثانيهما حاصلٌ في العناصرِ الزّائدة على الجملةِ الصّغرى، أي في العناصر غير الإسناديّة[2]، والحديثُ عن العناصرِ الحادثةِ المُضافة إلى الجملةِ الإسناديّة يثير في الخاطر حديثاً عن المعاني النّحويّةِ، وهي معانٍ ذهنيّة مُجرَّدة، كالفاعليّةِ والمفعوليّةِ والإضافة والاستثناء والحال والتّوكيد والنّفي والنّهي وغيرِ ذلك ممّا يقوم عليه الدّرسُ النّحويّ، وفهمُ المعنى-على الصّعيد البنيويّ التّركيبيّ – قائم على فهمِ المعاني النّحويّةِ، كالفاعليّة، وقد حُدّ الفاعلُ بأنّه الاسم الذي "بنيتَه على الفعل الذي بُني للفاعل، ويُجعَل الفعل حديثاً عنه مقدَّماً قبلَه كان فاعلاً في الحقيقة أو لمْ يكن، كقولك: جاء زيدٌ، ومات عمرٌو"[3] . والابتداءُ مِن المعاني النّحويّة، وهو "كلّ اسم ابتدِئ ليُبنى عليه كلامٌ، والمبتدَأ والمبنيّ عليه رفعٌ، فالابتداء لا يكونُ إلاّ بمبنيّ عليه"[4]، والخبر هو "الذي يستفيدُه السّامع ويصيرُ به المبتدَأ كلاماً"[5]، والحالُ "وصفٌ فضلة مذكور لبيانِ الهيئة"[6]، والاستثناء معنى نحويّ يفيد "صرفَ اللّفظ عن عمومِه بإخراج المستثنى مِن أنْ يتناولَه الأوّل، وحقيقتُه تخصيص"[7]، والمفعولُ له هو المصدر المُفْهِم علّةً، المشارِك لعامله في الوقتِ والفاعل[8]، وقد وسم سيبويهِ هذا المعنى النّحويّ قائلاً: "هذا بابُ ما ينتصب مِن المصادرِ لأنّه عذر

---

(١) انظر: خليل عمايرة- في التحليل اللغويّ، ٤١ وقد تحدث عن عناصر التحويل كالترتيب والزيادة والحذف والحركة الإعرابية والتنغيم. وانظر كتابه: في نحو اللغة وتراكيبها، ٨٨-١٤٩.

(٢) انظر: محمد حماسة عبد اللطيف- بناء الجملة العربية، ط١، دار الشروق، القاهرة ، ١٩٩٦م، ٤٨.

(٣) ابن السراج – الأصول، ٧٢/١.

(٤) سيبويه- الكتاب، ١٢٦/٢.

(٥) ابن السراج – الأصول ، ٦٢/١.

(٦) ابن هشام – أوضح المسالك، ٢٥٨/٢.

(٧) ابن يعيش – شرح المفصل ، ٢/ ٧٦.

(٨) انظر : ابن عقيل – الشرح، ٤٧٧/١.

لوقوعِ الأمر"[1]. والمفعول فيه ما كان "وعاءً لشيء، وتُسمّى الأواني ظروفاً لأنّها أوعية لِما يُجعَل فيها، وقيل للأزمنةِ والأمكنة ظروفٌ لأنّ الأفعالَ توجَد فيها فصارت كالأوعية لها"[2]. والتّمييز هو "رفعُ الإبهام وإزالةُ اللّبس؛ وذلك نحو أن تُخْبِر بخبرٍ أو تذكر لَفظاً يحتملُ وجوهاً، فيتردّدُ المخاطَب فيها، فتنبّهه على المرادِ بالنّصّ على أحَدِ مُحتملاته تبييناً للغرض"[3]. والحقّ أنّ المضيّ في استشرافِ هذه المعاني النّحويّةِ ليس مِن غايات هذا البحثِ، ولكنّ المُبتغَى مِن هذا العرضِ المتقدّم أنْ يُشار إلى أنّ لها دوراً فاعلاً في الإبانةِ عن المعنى، وإنْ وُسِم كثيرٌ منها بالفَضَلات، والوسمُ هذا ما هو إلاّ مصطلح نحويّ؛ فليس مضمارُه إذاً الوظيفةَ التي تؤدّيها تلكم المعاني، بل تمثّل الأنماط الجمليّة الصّغرى، وما قد يطرأ عليها مِن إضافاتٍ تفضي إلى مزيدِ معنى، ومِن ذلك كانت تعريجةُ ابن جنيّ على الفَضلة وإشارتُه إلى شدّة عنايتهم بها، "وإنّما كانتْ كذلك لأنّها تجلو الجملة، وتجعلها تابعةَ المعنى لها"[4]. وكذلك إشارة ابن السِّيدِ في مَعرِض الحديث عن الحالِ، فقد قرّر أنّ النّحويّين لم يريدوا بقولهم إنّها فضلة مِن الكلام أنّها لا معنى لها، ولا فائدةَ تحتها، ولكنّ المتعيّن مِن ذلك أمران: أوّلهما أنّ الحال "حكمها أن تَرِد بعد كلامٍ لو سُكِت عليه لاستقلّ بنفسه، وثانيهما أنّها لا تستقلّ بنفسها ولا يُسنَد إليها، وإنّما هي تابعة لغيرها"[5].

وقد عوّل النّحاة كثيراً على الأدوار التي تؤدّيها المعاني النّحويّة في الجملةِ، ومِن ذلك أنّ قولنا :"أنا عبدُ الله منطلقاً" فاسدٌ في بعض السّياقات، ومردّ ذلك إلى الوظيفةِ التي يؤدّيها المعنى النّحويّ "الحال"؛ إذ إنّ المعنى الكلّيّ الذي يكتنف هذا

---

(١) سيبويه- الكتاب، ٣٦٧/١.

(٢) ابن يعيش – شرح المفصل ٤١/٢.

(٣) المصدر نفسه، ٧٠/٢.

(٤) انظر ابن جنيّ – المحتسب، ٦٥/١.

(٥) انظر: ابن السيد البطليوسي – إصلاح الخلل الواقع في الجمل، تحقيق حمزة النشرتي، دار المريخ ، الرياض، ١٩٧٩م، ١١٦.

التّركيبَ البنيويّ أنّ هذا لا يكون لي إلاّ في حال انطلاقٍ، ويفارقني في غيره، "وهذا بابٌ يصلحه ويفسده معناه، فكلّ ما صلح به المعنى فهو جيّد، و كلّ ما فسد به المعنى فمردودٌ"[1].

لننظرْ في امتداد الجملةِ النّواة بما يأتي عَقِبَها مِن "فَضَلات"، وفيما تؤدّيه الكلماتُ المضافة المرشّحة لمعانٍ نحويّة:

جاء التّلميذُ

جاء التّلميذُ شيخَه

جاء التّلميذُ شيخَه مجيئاً

جاء التّلميذ شيخَه مجيئاً صالحاً

جاء التّلميذ شيخَه مجيئاً صالحاً مسرعاً

جاء التّلميذ شيخَه مجيئاً صالحاً مسرعاً تعظيماً

جاء التّلميذ شيخه مجيئاً صالحاً مسرعاً تعظيماً يومَ الخميس أمامَ بيته

والظّاهرُ ممّا تقدّم أنّ الجملة الأخيرةَ تشتمل على معانٍ نحويّة كالإسناد؛ إسنادِ فعل المجيىء إلى التّلميذِ، وينبني عليه معنى "الفاعليّة"، ومِن المعاني أيضاً معنى المفعوليّةِ والظّرفِ والتّوكيد والمفعول لأجله، وكلّها تؤدي أدوارها الوظيفيّة مُمثّلة في الكلم التي أَخَذت مواقعَها بعد أنْ تعلّق بعضُها ببعض، فتعمل معاً في تناغمٍ، ولعلّه يستقيم أنْ يُشبّه مَثَل واضعِ الكلام بمَثَل "مَن يأخذ قِطَعاً مِن الذّهب أو الفضّة، فيذيب بعضها في بعضٍ حتّى تصير قطعةً واحدة؛ وذلك أنّك إذا قلت: "ضرب زيدٌ عَمْراً يومَ الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له، فإنّك تحصل مِن مجموع هذه الكلم كلّها على مفهومٍ هو معنى واحد لا عدّة معانٍ كما يتوهّمه النّاس، وذلك لأنّك

(١) المبرد – المتقضب ٣١١/٤.

لم تأتِ بهذه الكلم لِتُفيدَه أَنْفُسَ معانيها، وإنّما جئت بها لتفيده وجوهَ التعلّق التي بين الفعلِ الذي هو "ضرب"، وبين ما عَمِل فيه، والأحكامَ التي هي محصول التعلّق"[١].

والمتأمّل في المعاني النّحويةِ يجدها لا تَتنازل؛ ذلك أنّ اللّغة وسيلةُ الإبانة عن المقاصدِ، وتنازلُ المعاني وجةٌ مِن وجوه الولوجِ في التّفاصل واللّبسِ، صحيحٌ أنّ ابن اللّغة -إنْ مرسِلاً أو مستقبِلاً - قد يقف تلقاء تركيبٍ محتمِلٍ لمعنيين أو ثلاثة. أمّا أنْ تتنازلَ المعاني فهذا الذي لا يكونُ، فلا تقع الفاعليّة موقعَ المفعوليّة، ولا التّأكيد موقعَ الإخبار، ولا البدلُ موقعَ الوصف، وإنْ اعترض المرءَ معنى محتمِلٍ في سياق بنيويّ فإنّ لكلّ وجهة مِن وجهات التّخريج معنى مفترِقاً عن صنوِه المحتمِلِ افتراقاً يسيراً أو خطيراً.

ولكنْ،كيف يتسنّى لأبناء اللّغةِ إقامة حدود فاصلة بين المعاني النّحويّة؟ وما الإمكاناتُ التي تتوسّل بها اللّغة لرفعِ التّداخل أو درئه؟[٢]. هنا تتداخلُ المستويات اللّغويّة طَلَباً للإبانةِ وتعيينِ المقاصد، فالتّنغيم- وهو مِن وسائلِ الإبانة الصّوتيّة- يدخلُ على الجملة فيحدّد المعنى النّحويّ المتعيّنَ فيها بهيئته، وقد أوردتُ أمثلةً مُبينة عن فضل التّنغيمِ في فهم المعنى[٣]. ثمّ يقع التّداخل مِن باب عريضٍ بين المستوى الصّرفيّ والنّحويّ أجلَ تعيين المعاني النّحويّةِ، ومِن ذلك أنّ هيئة القالَب التّصريفيّ ترشّح لمعنى نحويّ معيّنٍ، فقوالبُ الاسم في الغالبِ مغايرةٌ لقوالب الفعل، وقوالبُ الفعل متباينةٌ في أزمانِها، والمفعولُ المطلق مصدر مِن جنس الفعل، والمفعولُ لأجله مصدر مجلٍّ لعلّة الفعل ، مغايرٌ للفظِه ، والحالُ يغلب عليها أن تكون مشتقّة.

---

(١) الجرجانيّ – دلائل الإعجاز ، ٤١٣.

(٢) ممن لهم سهمة في درس هذا المطلب تمام حسان، فقد عرج على قرائن التعليق: المقالية والحالية، ومن القرائن المقالية التي وقف عندها الإعراب والرتبة والمطابقة والربط والتضام والأداة والتنغيم. انظر كتابه، اللغة العربية، ١٩١-٢٤٠ وانظر له أيضاً : القرائن النحوية واطراح العامل والإعرابين التقديري والمحلي، اللسان العربي، مجلد ١١، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، ١٩٧٤.

(٣) وقد عده Katamba مدخلا لرفع الغموض النحوي.

١- دخلت البيت حذِراً – دخلت البيت حذَراً

٢- أتيتك طالباً عونا – أتيتك طلباً للعون

٣- ضربه مؤدِّباً – يضربه تأديبا[١]

ولا ننسى المطابَقة الصّرفيّة وتداخلَها مع المعاني النّحويّة، ومِن ذلك الجنسُ تذكيراً وتأنيثاً، والعددُ إفراداً وتثنية وجمعاً، والشّخص تكلّماً وخطاباً وغَيبة، والتّعيين تعريفاً وتنكيراً، والحركة الإعرابيّة[٢]. وللحروف فضلٌ في تحديدِ المعاني النّحويّة[٣]، ومِن ذلك الحروف التي تَختصّ بالأساليبِ، كالتّمنّي والتّعجّبِ والاستفهام والتّحضيض والنّهي والنّفي والعرض، والحروفُ التي تختصّ بتعليق الكلم وانتظامِه على وفق مقتضيات النّظام، ومِن ذلك حروف العطف والجرّ.

وللعلامةِ الإعرابيّة دورٌ جليّ في تحديد المعاني النّحويّة[٤]، وقد ذهب القدماءُ ما خلا قُطْرُبا إلى أنّها تؤدّي أدواراً وظيفيّة في الإبانةِ عن المعاني النّحويّة، وقد قال عنها ابن قتيبةَ: "ولها الإعرابُ الذي جعله الله وَشياً لكلامها، وحِليةً لنظامها، وفارقاً في بعض الأحوالِ بين الكلامَين المتكافئين، والمعنيين المختلفَين، كالفاعلِ والمفعول، لا يُفرَق بينهما إذا تساوتْ حالاهما في إمكانِ الفعل أنْ يكون لكلّ واحد منها إلاّ بالإعراب"[٥]. وعنها قال الزّجاجيّ: "إنّ الأسماءَ لمّا كانت تعتورُها المعاني، فتكون فاعلةً ومفعولة ومضافة ومضافاً إليها، ولمْ تكن في

---

(١) وينضاف إلى ما تقدم حديث عن دور البنية الصرفية في تحديد الإعراب وتعدده ودورها في النظم والحذف والتقدير لمزيد بسط القول، انظر: لطيفة النجار– دور البنية الصرفية في وصف الظاهرة النحوية وتقعيدها، ط ١، دار البشير، عمان،١٩٩٤م.

(٢) انظر: تمام حسان – اللغة العربية ، ٤٧–٤٨.

(٣) يسميها تمام حسان الخوالف . المرجع نفسه، ٢٢٤.

(٤) لمزيد بسط القول في ظاهرة الإعراب انظر: محمد حماسة عبد اللطيف – العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٤أحمد ياقوت – ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٠، منيرة العلولا– الإعراب وأثره في ضبط المعنى، دراسة نحوية قرآنية ، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣م.

(٥) ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، ط١، المكتبة العلمية، القاهرة، ١٩٧٣م، ١٤.

صورِها وأبنيتها أدلّةً على هذه المعاني، بل كانتْ مشتركة، جُعلتْ حركات الإعرابِ فيها تُنْبِئ عن هذه المعاني، فقالوا: ضَرَبَ زيدٌ عَمْراً، فدلّوا برفع زيد على أنّ الفعلَ له"[١]. وفي بابِ القول على الإعرابِ قال ابن جني: "هو الإبانةُ عن المعاني بالألفاظِ، ألا ترى أنّك إذا سمعتَ: أكرم سعيدٌ أباه، وشكرَ سعيداً أبوه، علمت-بِرفعِ أحدِهما ونصبِ الآخر-الفاعلَ مِن المفعول[٢]". وإلى ما تقدّم ذهب ابن فارسٍ: "فإنّ الإعراب هو الفارقُ بين المعاني، ألاّ ترى أنّ القائلَ إذا قال: "ما أحسن زيد" لم يَفْرُق بين التعجّبِ والاستفهامِ والذمّ إلاّ بالإعرابِ، وكذلك إذا قال: "ضرب أخوكَ أخانا"[٣]. وقد بيّن العُكبريّ أنّ الإعرابَ دخل الكلامَ لِيفرُقَ بين المعاني مِن الفاعليّةِ والمفعوليّة والإضافة[٤].

وقد عاب هذا الاعتلالَ قطربٌ جانحاً إلى أنّ العلاماتِ قد جيئ بها لِيعتدلَ الكلام لا لِيُفْرَق بها بين المعاني، فالأصلُ - كما يرى- أنّ أواخره ساكنة، وقد كانوا يبطِئون عندَ الإدراج، فلمّا وصلوا وأَمْكَنَهم التّحريك، جعلوا التّحريك معاقباً للإسكان"[٥]. وقد رفض بعضُ الباحثين المحدَثين أنْ تكون العلاماتُ دوالَّ على المعاني النّحويّة، ولكنّها حركاتٌ لوصلِ الكلام في النّطق[٦]، أمّا المُحتكَم في تحديدِ

---

(١) الزجاجي – الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، ط٦، دار النفائس، بيروت ١٩٩٦م، ٦٩.

(٢) ابن جنيّ – الخصائص ، ١-٣٥.

(٣) ابن فارس – الصاحبيّ ، ٦٥-٦٦.

(٤) العكبري – مسائل خلافية في النحو، تحقيق محمد خير الحلواني،(د.م) ،-١٩٦ ،٩٥، وقد ذهب إلى هذا الجرجانيّ – دلائل الإعجاز ، ٨

(٥) الزجاجي – الإيضاح، ٧٠، وقد ردّ عليه الزجاجي وفند معتقده وتابعه على هذا التفنيد محمد حماسة – العلامة، ٢٦٤-٢٧١

(٦) انظر: إبراهيم أنيس – من أسرار اللغة ، ٢٢٥، وفؤاد ترزي في أصول اللغة والنحو، مطبعة دار الكتب، بيروت، ١٩٦٩م، ١٨٢-١٩٣، وقد ذهب فوللرز إلى أن التنزيل العزيز نزل بلهجة مكة المجردة من الإعراب، ثم نقحه العلماء على وفق ما ارتضوه من قواعد ومقاييس ، انظر: صبحي الصالح- دراسات، ١٢.

المعاني النّحويّة في الجملةِ فهو نظامُ الجملةِ العربيّة، والموضعُ المخصوص لكلّ هذه المعاني في الجملة أوّلاً،ثمّ ما يحيطُ بالكلام مِن أحوالِه وملابساته ثانياً[1].

وقد ذهب بعضُهم إلى أنّها ليست للوصلِ إلاّ في حالاتٍ قليلة جدّاً، وأنّها لا تدلّ على المعاني النّحويّةِ، ولكنّ بعضَها جزءٌ مِن الكلمةِ، كالضّمّة في "منذُ"، وبعضَها علامةٌ، كالفتحةِ في "أنتَ". أمّا قولنا "جاء الرّجلُ" فليست علامةً وظيفيّة، والذي يقرّر وظيفةَ الكلمة النّحويّة في الجملةِ هو ترتيبُ الكلمات في الجملة[2].

وهكذا يتبيّن ممّا تقدّم آنفاً أنّ الباحثين أخذوا في شِعْبين بعيدي الغَور عند بحثِهم درسَ العلامات الإعرابيّةِ، فمنهم مَن ارتضاها مَدْخلاً في تحديد المعاني النّحويّة، ومِنهم مَن غيّب دورَها الوظيفيّ في تحديد المعاني، والحقّ أنّ المغالاةَ في المذهبَين ظاهرٌ أمرُها، فليس يصحّ في الفهم أنْ تكونَ العلامةُ الإعرابيّة للوصل، وألاّ يكون لها فضلٌ جليّ في بيانِ المعاني النّحويّةِ، والأمثلةُ كثيرة عن وفرةِ ما تذكره مظانّ النّحو واللّغة. ومِن وجهةٍ أخرى، لا يستقيمُ أنْ يُعتقَد بأنّ العلامةَ هي المُحتكَم الأوحدُ الذي يُفاء إليه في تحديدِ المعاني؛ ذلك أنّ لسياق الحالِ دوراً كبيراً، فضلاً عن قرائنَ أخرى كثيرةٍ[3]، ولعلّ إشارة ابن قتيبةَ تعضد هذا: "**في بعضِ الأحوالِ بين الكلامين المتكافئين**"[4]. والحاصلُ أنّ المرء إذا ما أفاد مِن مرونةِ الجملةِ العربيّةِ تقديماً وتأخيراً، فإنّ الهاديَ إلى المعاني النّحويّة، والدّليلَ عليها، هو العلامات الإعرابيّة، ولعلّ هذا نظرٌ صدر عنه الزّجاجيّ في تفنيد مُعتقَد قُطربٍ ذاك: "وكذلك سائر المعاني، جعلوا الحركاتِ دلائلَ عليها ليتّسعوا في كلامِهم، ويقدّموا الفاعلَ إنْ أرادوا ذلك، أو المفعولَ عندَ الحاجةِ إلى تقديمِه، وتكون

---

(١) انظر: إبراهيم أنيس – من أسرار اللغة، ٢٢٨.

(٢) انظر: داود عبده– أبحاث في اللغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٣م. ٩٧-١٢٩. مع تقريره بأن هناك أمثلة في اللغة تختلف معانيها باختلاف الحركات ولكنها محدودة جداً.

(٣) يرى تمام حسان أن العلامة لا تعين على تحديد المعنى منفردة، انظر كتابه: اللغة العربية، ٢٠٧. وانظر: محمد حماسة – العلامة ، ٢٥٠.

(٤) انظر محمد حماسة– المرجع نفسه، ٢٤٢.

الحركاتُ دالّةً على المعاني"[1]. وقد استنكرَ العكبريّ على مَن يرى أنّ الفرقَ بين المعاني إنّما هو حاصلٌ بلزومِ الرّتبة، وهذا ما يُقيم عليه بعضُ الباحثين المحدَثين تعضيداً لمذهبِهم في تغييبِ فضلِ العلاماتِ الإعرابيّة؛ إذ إنّ في ذلك تضييقاً على المتكلِّم، وإخلالاً بمقصود النّظمِ والسّجعِ، والإعرابُ يهيّئ للمتكلّم إباحةً في التّقديم والتّأخيرِ، ثمّ إنّ التّقديم والتّأخير لا يصحّ في مواضعَ[2].

وقد يستعينُ النّظام اللّغويّ بالرّتبة باعتبارِها مِن إمكاناتِ الإبانةِ عن المعاني النّحويّة، ومعلومٌ أنّ اللّغاتِ تتباين تبايناً ملحوظاً في ترتيبِ الكلمات؛ فثمّ لغات ذاتُ ترتيبٍ يكادُ يكون ثابتاً، وأخرى تتبدّل مواقعُ الكلم فيها على وفقٍ مخصوص[3]، والعربيّة تتردّد بين المنزلتَين، فثمّ رتبةٌ محفوظة، وهي قيود نظميّةٌ يفرضها النّظام اللّغويّ، ورتبةٌ حرّة، وهي مختاراتٌ أسلوبيّة. أمّا الرّتبة اللاّزمُ حفظها فهي سبيل مِن سُبُل رصفِ الكلام وانتظامِه؛ ذلك أنّ الإخلالَ بها هو إخلالٌ بالتّركيب، ومَدعاة إلى الولوجِ في هيئةِ الرّصفِ الأولى[4]، ولذلك لا يبيح النّظامُ اللّغويّ تقديمَ الصّفةِ على الموصوف، ولا المُبدَل على المُبدَل منِه، ولا المضافِ إليه على المضافِ، ولا الصّلةِ على الموصول، ولا المجرورِ على الجارّ[5]، وعلى صعيدٍ تركيبيّ آخرَ، قد يحدث أنْ يفرضَ النّظام اللّغويّ التزامَ الرّتبة درءاً للّبس، وهذا يعني أنّ العلامةَ الإعرابيّة غدتْ عاجزةً عن تأديةِ الوظيفةِ الدّلاليّة، فتأتي الرُّتبة لتسدّ هذا الفراغَ الوظيفيّ الحادثَ بغيةَ الوفاء بمطلب اللّغةِ الأوّل، وهو التّواصلُ والإبانة:

---

(١) الزجاجي – الإيضاح، ٦٩–٧٠.

(٢) العكبري– مسائل خلافية ، ٩٦–٩٧.

(٣) يذهب فندريس إلى أنه لا توجد لغة واحدة تتخذ في ترتيب كلماتها حرية مفتوحة، كما لا توجد لغة واحدة ترتيب الكلمات فيها جامدٌ لا يتزحزح. انظر كتابه اللغة، ١٨٧.

(٤) انظر الصفحة ٥٩ من الكتاب.

(٥) انظر فصلا في التقديم والتأخير عند ابن جنيّ – الخصائص، ٢/٣٨٤– ٣٩٢. لمزيد بسط القول انظر: تمام حسان – اللغة العربية ، ٢٠٧، وانظر القرائن النحوية ٥٠، محمد حماسة– بناء الجملة، ٧٨–٧٩، وكتابه العلامة، ٣١٣–٣١٦.

انتقد موسى عيسى – من انتقد موسى – عيسى انتقد موسى[1] –رأى أخي عمي

"وإذا اتّفق ما هذه سبيله ممّا لا يخفى في اللّفظ حاله، أُلزِم الكلامُ مِن تقديم الفاعلِ وتأخير المفعول ما يقوم مَقام الإعرابِ، فإنْ كانتْ هناك دِلالة أخرى مِن قِبَل المعنى وقع التّصرّفُ فيه بالتّقديم والتّأخير؛ نحو: أكل يحيّى كمّثرى"[2].

وثمّ مطلب يتّصل بالرّتبةِ بنسبٍ حميم، وهو التّقديم والتّأخير، فقدْ تقدّم قَبْلاً أنّ النّظام اللّغويّ يفرض قيوداً ومحدِّداتٍ يجب أخذُها بعين العنايةِ، ولكنّه في الآنَ نفسِه يهيِّئ للمرسِل خياراتٍ، وحيثما وُجِد الخيار وقع الاختيار، وبهذا ينضاف إلى ذلكم المعنى اللّغويّ معنى أسلوبيّ باعثُه اختيارٌ على وجه التّعيين دون غيرِه، ولو أنّنا افترضنا أنّ بِنية الجملةِ العربيّة هي الفعل أوّلاً، فالفاعل ثانياً، فالمفعول به ثالثاً[3]، فإنّ أيّ تنقّل لهذه الكلمات لهو ذو دلالةٍ أسلوبيّة، وقد وقف بعضُ القدماء عند ملاحظَ أسلوبيّةٍ محمَّلة بدلالات إضافيّةٍ، ومن ذلك قول ابن جني:

"ينبغي أنْ يُعلَم ما أذكره هنا؛ وذلك أنّ أصل وضعِ المفعول أنْ يكونَ فضلةً، وبعد الفاعلِ، كَ "ضربَ زيدٌ عمْراً"، فإذا عناهم ذكرُ المفعول قدّموه على الفاعلِ فقالوا: "ضَرَب عمْراً زيدٌ"، فإن ازدادتْ عنايتُهم به قدّموه على الفعلِ الناصبِه، فقالوا: "عَمْراً ضَرَب زيدٌ"، فإنْ تظاهرت العناية به عَقَدوه على أنّه ربّ الجملةِ وتجاوزوا به حدّ كونِه فضلةً فقالوا: "عَمرو ضربه زيدٌ"، فجاؤوا به مَجيئاً ينافي كونَه فضلةً"[4]، وإلى هذا ذهب الزّركشيّ، فقد قرّر أنّ تقديم اللّفظ يأتي وفاءً

---

(١) الأمثلة الثلاثة الأولى مأخوذة من عبد القادر الفهري – البناء الموازي، ٥٥.

(٢) ابن جنيّ – الخصائص ، ٣٦/١.

(٣) الحديث عن البنية العميقة للجملة قائم على الترجيح، إذ إنه ظني الدلالة ، وقد تباين وجه القول عليها، فمن الذين يرون أن الأصل هو (ف ← فا ← مف) خليل عمايرة– رأي في بعض أنماط التركيب الجملي في العربية، في ضوء علم اللغة المعاصر، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، المجلد ٢، العدد ٨، جامعة الكويت، ١٩٨٢، ٥٧ ، ومن الذين يرجحون (فا← ف← مف) داود عبده. انظر: البنية الداخلية للجملة الفعلية في العربية، الأبحاث، المجلد ٣١، كلية الآداب والعلوم، الجامعة الأمريكية ، بيروت، ١٩٨٣.

(٤) ابن جنيّ – المحتسب، ٦٥/١.

لأغراضٍ متباينة، ومِن ذلك التّعويلُ على عِظَمِه والاهتمام به، "فكأنّهم يقدّمون الذي شأنُه أهمّ لهم، وهم ببيانِه أعنى، وإنْ كانا جميعاً يهمّانهم ويعنيانهم"[1].

ولكنّ الجرجانيّ بثاقب نظرِه، وبعيد تأمّلِه استشرف بُعداً آخرَ في التّقديم والتّأخيرِ، راغباً عن تعليلِه تارةً بالعنايةِ، وتارةً أخرى بالتّوسعةِ على الكاتب، جانِحاً إلى عدّ هذا مِن الخطأ[2]؛ ذلك أنّ الألفاظ أوعيةٌ للمعاني، وهي تابعةٌ لها في مواقعِها، "فإذا وجب لمعنى أنْ يكون أوّلاً في النّفس، وجب للّفظ الدّالِّ عليه أنْ يكون مثله أوّلاً في النّطق"[3]. ومِن الأمثلةِ المُبينة عن أثر التّقديمِ والتّأخير في المعنى:

١- أفعلت ؟

٢- أأنت فعلت؟

ففي الجملة الأولى كان الشكّ في الفعلِ نفسِه، والغرض مِن الاستفهام أنْ يُعلَم وجودُ الفعل وتحققّه، أمّا في الثّانية فالشكّ في الفاعلِ مَن هو، وممّا يجري هذا المَجْرى قولُه –عزّ– في التّنزيل:﴿ **أأنت فعلت هذا بآلهتنا** ﴾[4]، وهم يقصدون إقراراً منه لهم بأنّ كسرَ الأصنامِ قدْ كان مِنه، لا إقراراً بأنّ الأصنام قد كُسرتْ، ولذلك كان جوابُه: "**بل فعله كبيرُهم هذا**[5]"، ولو كان التّقرير بالفعلِ لكان الجواب: فعلتُ، أوْ لم أفعل[6].

---

(١) انظر : الزركشي – البرهان، ٢٣٥/٣. وهذه عبارة سيبويه في الكتاب، ٣٤/١.

(٢) انظر : الجرجانيّ – دلائل الإعجاز، ١١٠.

(٣) الجرجاني – المصدر نفسه ، ٥٢، وفي مقام آخر يقول: " وإن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق" ٥٤.

(٤) الآية (الأنبياء – ٦٢).

(٥) الآية (الأنبياء ، ٦٣).

(٦) انظر : المصدر نفسه، ١١٣.

ومِن مثِل ما تقدّم قولُه –تبارك-:﴿ **أفأصفاكم ربُّكم بالبنين واتّخذ من الملائكةِ إناثاً**﴾[1]. لو أنّ الاسمَ الجليل "ربُّكم" قُدِّم في هذا النّظمِ على الفعل "أصفاكم" لصار الإنكارُ في الفاعلِ، ولكنّ المراد إنكارُ كون الفعلِ حاصلاً مِن أصلِه[2].

ومِن مثِل ما تقدّم:

ما زيداً ضربت – ما ضربت زيداً

أمّا في الجملةِ الأولى فالقائلُ فيها لم يقلْها إلاّ وقد وقع منه ضربٌ على مُبهَم، وقد نفى أنْ يكون قد أوقع ضربَه على زيدٍ. أمّا الجملة الثّانيةُ فالقائل فيها ينفي عن نفسِه ضربَ زيدٍ، ولم يُجِب أنْ يكون قدْ ضَرَب، وقد يجوز أنْ يكون قد ضربَه غير القائل، وألاّ يكون قد ضُرِب أصلاً[3].

خامساً :الإبانة الآتية مِن السّياق:

وفي سيرورة استشرافِ معالم الإبانةِ في النّظامِ اللّغويّ ينضاف إلى السّياقِ البنيويّ مَعْلَم له خطره في الإبانة عن المقاصدِ، وأوّل ما يميّزه أنّ الذي تقدّم نظر في نظام اللّغةِ ومادّتها المؤلِّفة، أمّا هذا المَعْلَم فهو نظرٌ سياقيٌ بَرانيٌ ليس ممّا يفعل في تشكيلِ مادّة النّظامِ اللّغويّة.

لمّا كانت اللّغة ظاهرة اجتماعيّة، ولمّا كانت الأحداثُ الكلاميّة لا تتجلّى إلاّ في سياقاتٍ متباينة – لمّا كان ذلك كذلك– وجب استرفاد هذا النّظرِ السّياقيّ محتكَما وموجِّها للمعنى كما يوجّه المقْود السّيّارة؛ ذلك أنّه لا يستقيمُ أن تُتصوَّر الأحداثُ الكلاميّة سائحةً في الهواء الطّلْقِ دون أن يكون لها سياقٌ اجتماعيٌ يلفّها، وسنتبيّن

---

(١) الآية (الإسراء، ٤٠).

(٢) انظر: المصدر نفسه، ١١٤.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ١٢٦، وقد تحدث عن النكرة وتقديمها على الفعل في الاستفهام، وتقديم المتحدث عنه في الخبر المنفي، وتقديمه بعد واو الحال، وتقديم المفعول وتأخيره في النفي، وتقديم الاسم .والفعل مضارع ومسائل أخرى في فصل التقديم والتأخير. انظر ١٠٦–١٤٥.

بعْداً أنّ اطّراح السّياق(المقام) الذي استُودِع فيه الحدث الكلاميّ مَدْعاةٌ إلى تخلُّق اللّبسِ والاحتمالِ، ولذا وجب على اللّغويّ أن يوجّهَ النّظر إلى السّياق للوقوفِ على ما يتّصل به مِن ظروف وأحوالٍ ملابِسة، واستشرافِ أثر الكلام الفعليّ، والأشياءِ المتّصلة بالكلام والموقفِ، وأعمالِ هؤلاء المشترِكين، وتعيين بيئةِ الحدثِ الكلاميّ دون إغفال للمستوياتِ البِنيويّة(١). لننظرْ في الملاحظ الآتيةِ تبياناً لفضل السّياقِ في رفعِ الاحتمال:

يشيع في العربيّة وغيرِها ظاهرة دلاليّة، وهي المشترَك اللفظيّ، والحاصل أنّ القارئَ يقف على مجموعةٍ مِن المعاني التي تقع تحت اللّفظ الواحد، وهو مجرَّد مِن سياقه، ولكنّ أبناء البيئة اللّغويّة الواحدة يتواصلون حتّى مع إشراك كثيرٍ مِن الكلماتِ المتردّدة بين معنيين في أداءاتهم الكلاميّة، ويبقي المحتكَم الأوّلُ، في إلباس الكلمةِ الدلالةَ المرادةَ، السياقَ، ومِن ذلك قولنا: " **هذا حديثٌ حسن**"

إخال أنّ هذه الجملةَ محتملِة متردِّدة بين معنيين: أوّلهما أنّ القائل يرى في الحديثِ حُسْناً؛ ذلك أنّه يوافق هوى نفسه، وثانيهما أنّ القائل هو ممّن يشتغلون بعلم الحديثِ وتحقيقِه، فرأى أنّ هذا الحديثَ النّبويّ الشّريف ليس بصحيح ولا بضعيفٍ، وإنّما هو حسن. وهكذا يتجلّى أنّ كلمة "حسن" ممّا يلحق بركبِ المشترَك اللّفظيّ، وقد أعقب انسلاخُها مِن سياقها لَبساً واحتمالاً، ولا سبيلَ إلى درء اللّبس إلاّ باستصحابِ سياق الحالِ الذي نشأتْ فيه(٢).

---

(١) لمزيد بسط القول في نظرية Firth انظر:

Firth, J., Papers in Linguistics, Oxford University Press, London, 1964. p.177-189.
Lyons- Semantics, p. 607-610

بالمر – علم الدلالة، ٧٤، كمال بشر – دراسات في علم اللغة (القسم الثاني) دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩م، ١٧٢.

(٢) من الأمثلة الدالة على ما تقدم في الإنجليزية: The soldiers took the port at night فكلمة port مترددة بين معنيين، أحدهما نوع من الشراب، وثانيهما المرفأ ، ولا شك أن استصحاب سياق الحال يعمل على رفع هذا الاحتمال. انظر :

Soon, S., Lexical Ambiguity In Poetry, Longman, New York, 1994, p. 64

ولذا يستقيمُ وصف "أولمان" للسّياق بأنّه صِمام الأمان الذي لا يسمح بانداياحِ حقولِ المصطلحاتِ في الغالبِ[1].

وقد تقدّم قبْلاً في مطلب الحديثِ عن الإبانةِ في المستوى المعجميّ فضلُ حديثٍ عن عموميّة دِلالة الكلمةِ المفرَدة[2]، ودورِ السّياق في تعيينِ المعنى المتوائم معَه، وقد صدر عن هذا النّظرِ الزّركشيُّ لمّا عرّج على "معرفةِ غريب القرآن" مشيراً إلى كتاب "المُفرَدات" للرّاغب، واصفاً إيّاه بأنّه "**يتصيّد المعاني من السّياق لأنّ مدلولات الألفاظ خاصّة**"[3]، ومِن الأمثلة المضافةِ إلى ما تقدّم، والمُبينةِ عن أثر الاحتكام إلى السّياق كلمة "التّعليق"؛ إذْ إنّها تنتسب إلى غير مجالٍ دلاليّ، فهي في لغة الأخباريّين والصّحافة تدلّ على مراجعة للخبرِ المذاع استدراكاً، أو تفنيداً، أو تمجيداً. وهي في مجالٍ دلاليٍّ آخرَ- وليكنْ مجالَ النّحو- تدلّ على تعالقِ الكلَم وترتيبِها على وفق ما تقتضيه قواعدُ العربيّة وهواجسُ النّفس، وهي في لغةِ الحبّ تصرّح بانجذابِ أحد طرفي العَلاقةِ إلى الآخر انجذاباً يصدق عليه قولُه -تعالى-: ﴿ **وألقيتُ عليك محبّةً منّي**﴾ [4]، وقد تنتسب إلى مجالٍ دلاليٍّ آخرَ، وهو "الفقه" مِصداقاً لقوله -تعالى-: "**فتذروها كالمُعلَّقة**"[5]، وتعليقُ المحادثات في لغة المتفاوضين مع الصّهاينةِ يدلّ على انقطاعِها ووقفِها، وقد تكون هذه الكلمةُ ممّا تتداوله الأمّهاتُ في البيوتِ، كتعليقِ الملابس على حبل الغَسيل، وهكذا يمضي المرءُ مع وجوهِ هذه الكلمة المتقلّبة بتقلّب المجالِ الدّلاليّ دون أن يُفْرَض معنى قائم برأسِه إلاّ عندما يوجد سياقٌ يستوعبُها في قرار مَكينٍ.

---

(١) انظر: أولمان – دور الكلمة في اللغة، ١٤١.

(٢) انظر : Soon , I bid, p.63.

(٣) الزركشي – البرهان ، ١/٢٩١.

(٤) الآية (طه ،٣٩).

(٥) الآية (النساء،١٢٩)

وليس ملحظُ التّعدد محصوراً في الكلمات المشتركة، ولكنّه يتعدّى هذا ليشملَ الجملة، ومِن ذلك قولنا:

" غداً نلتقي"

فقدْ تكون هذه الجملة صادرةً عن عاشقَين طال عليهما الأمدُ، فيقولُ أحدهما للآخرِ متصبِّراً: غداً نلتقي، وقدْ تكون في سياقٍ آخرَ بين صديقين ضَربا موعداً فقال أحدهما: "غداً نلتقي"، على وجهِ الإخبارِ، وقد تكون بين رجلَين تشاحنا فقالها أحدُهما على وجهِ الوعيد أو الاستهزاء.

السّياق ومخالفة ظاهر اللّفظ لمعناه:

عَوداً على بَدء، فقد تقدّم أنّ لأحوال المتكلّمين كالمركزِ والبيئة والحميميّة فضلاً في استشراف المتعيِّن مِن وقائعِهم الكلاميّة في سياقاتِها، وما مخالفة ظاهرِ اللّفظ لمعناه إلاّ سمتٌ أدائيّ لا يُتصوَّر معناه، ولا يُقْتَنَص منه المراد إلاّ باسترجاع السّياقِ الذي تخلَّقَ فيه، فمِن "سَنَن العرب مخالفةُ ظاهرِ اللّفظ معناه، كقولِهم عند المدح: "قاتله الله ما أشعرَه"، فهم يقولون هذا ولا يريدون وقوعَه"(١).

ومِن مثل ما تقدّم قولُ أحدِ طرفي الحدث الكلاميّ للآخر وقد ألّفْت بين قلبيهما لُحْمة: "عدِمَتْك أمك"، وليس ثَمّ ريبٌ في أنّ سياق حالِ هذا الحدث الكلاميّ هو محبّة وتآلف، فتنتقل هذه المحبّة إلى مدلولِ العبارة السّياقيّ المخالفِ لظاهر اللّفظ، ويتقبّلها الطّرف الثّاني بقَبولٍ حسن مع ارتسام بسمةٍ على شفتَيه، ولكنّ هذه العبارةَ في سياقٍ آخرَ يُستعاذ منه تنبِئُ عن حواشي نفسِ قائلِها بما يكتنفُها مِن ضغينة تلقاءَ المُستَقْبِل، فتنتقلُ هذه الضّغينة إلى مدلولِ العبارة مضافاً إليها تنغيمٌ متساوق مع سياقِ الحال، ممّا يفضي بالطّرف الثّاني إلى أنْ يردَّها عليه بأشنعَ منها؛ إنّ مخالفة ظاهرِ اللّفظ لمعناه تتّفق–مِن وجوه كثيرة– مع قولةٍ لسانيّة حديثةٍ

---

(١) ابن فارس – الصاحبيّ، ٢٠٥.

مضمونُها أنّنا "لا نحتاج أنْ نعني ما نقول، إنّنا نستطيع عن طريق الاستخدامِ المناسب للتّنغيمِ أنْ نكون ساخرين؛ لأنّ جملة :"هذه ماهرة جدّاً" قد تعني: هذه ليست ماهرةً، ونستطيع بالتّنغيم المناسِب أيضاً أنْ نُلْمح إلى ما لا يُقال بنغمةٍ هابطة صاعدةٍ قد تتضمّن تماماً:"أنا أحبّ الشّاي"، وجملة: "إنّها ماهرة جدّاً" قد توحي بأنّها "على الأصحّ غبيّة"[١].

السّياق والإيماء:

ليُسرَّح الخاطر مستحضِراً سياقاً يتجاذبه اثنان قد شرعا في عمل رسميّ، وبعد انقضاء وقت انثنى أحدُهما عن العمل وقد لقي مِن أمره نَصَباً وفي نفسه حاجةٌ تفضي به إلى التّصريح الآتي:

" اللهَ، ما أطيبَ الشّايَ في مثل هذه السّاعةِ"

فيقوم الثّاني مِن مقامه راغباً عن العمل إلى أجلٍ معلوم، مُستجيباً لهذا المُثير الكلاميّ القائم على الإيماء والتّلويحِ دون التّصريح، فيَشْرع في تحضير الشّاي. والظّاهرُ أنّ سياق الحالِ هو الذي أذِن بهذه الاستجابة؛ إذ إنّ المُنشئ الأوّل لم يَرْم إلى التعجّبِ أو الاخبار بطيبِ الشّاي في مثل تلكم السّاعةِ، ولكنّه جنح إلى الأسلوبِ المُغلَّف، والمبنى الملفّف تأدّبا أو تراخياً، فكان ما كان، والمفارقة اللّطيفة أنّ درسَ النّحو يُحدِّث أولي التّخصّص عن أسلوب التعجُّبِ وشرائطِه، ولكنّه في هذا السّياق يتراجع، ليتصدَّرَ سياقُ الحال دورَ الإبانة، فينسخ ما كان مِن درس النّحو مُبِينا؛ ذلك أنّ الأسلوب ههنا هو مطلبٌ يكتسي بلَبوس التّعجّب الذي تلقّفه المستقبِل فأذعن له مستجيباً.

والحقّ أنّ بمُكنة المتأمّل أنْ يقف على جمهرةٍ مِن الأداءات الكلاميّةِ الحيّة التي تقومُ على الإيماء تيمُّناً بفضل دلالةِ السّياق، ورعايةً للجانب النّفسيّ، فالعرب

---

(١) بالمر – علم الدلالة ، ٦١.

"تشيرُ إلى المعنى إشارةً، وتومئ إيماءً دون التّصريح، فيقول القائل: لو أنّ لي مَن يقبل مَشورتي لأشرتُ، وإنّما يحثّ السّامع على قَبول المَشورة"[١].

كلمة حقّ يُراد بها باطل:

والمُحتكَم في تعيُّن كلمة الحقّ التي يراد بها الباطلُ هو السّياق، وممّا يمكن التّمثيل به في هذا المقامِ عبارةٌ تكاد تطّرد في أداءاتِنا الكلاميّة، وهي "**إنْ شاء الله**"؛ فقدْ يرفضُ أحدُنا ظاهر هذه الجملةِ التي يقولها الطّرف الثّاني؛ ذلك أنّه لم يُعلّق الشّرط على المشيئةِ الرّبانيّة العظيمة، بل علّقه على تناسيه ومُخاتلتِه ممزوجةً بهزّة رأس موهِمة بالموافقة، ليُخفيَ في نفسِه ما السّياق مُبْديه، ولذا تغدو عبارة "إنْ شاء الله" في سياقها ذاك– وهي كلمة حقّ لا ريبَ – مطيّةً لانسلاخه مِن مُلْتَزَم ما، ومَوْصِلا يطمئنّ عنده إلى نهايةٍ مفتوحة عائمة، ولذا قد يستدرك عليه قطبُ السّياق الثّاني مستنكراً عليه قولةَ الحقّ التي أراد بها باطلاً قائلاً: إنْ شاء الله؟!! كالمُستعظِم لِما حمّلها الأوّل مِن دِلالات.

وفي مثالٍ آخرَ مُبين غدت كلمة "سبحان الله" معصيةً في سياقها؛ إذ إنّ قائلها لم يأتِ بها تضرّعاً وزلفى، بل قالها بهيئةِ تنغيم يكتنفها استعظامٌ وتطاوُل، "وربّ قولٍ حسنٍ لم يحسُن مِن قائله حين تسبّب به إلى قبيح، كالذي حكى الجاحظ. قال: رجع طاووس يوماً عن مجلسِ محمّد بن يوسف، وهو يومئذ والي اليمنِ فقال: ما ظننتُ أنّ قول: "سبحان الله" يكون معصيةً لله –تعالى–حتّى كان اليوم، سمعت رجلاً أبلغ ابن يوسفَ عن رجلٍ كلاماً، فقال رجلٌ مِن أهل المجلس: "سبحان الله" كالمستعظِم لذلك الكلام، ليُغضب ابن يوسف"[٢].

---

(١) ابن فارس – الصاحبيّ، ٢٤٦. ويتحدث الدلاليون عما يسمى بالمضمّن، وهو المعنى المستتر الذي يقصد لذاته في الكلام، ويبعث على تضمينه آداب اللياقة والمجاملة. انظر: عدنان بن ذريل – اللغة والدلالة ، آراء ونظريات، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، ١٩٨١م ، ١٦١.

(٢) الجرجانيّ – دلائل الإعجاز ، ١٥.

السّياق والأحوال المشاهَدة:

ولا ريبَ أنّ الأحوال المشاهَدة في ثِنْي الحدث الكلاميّ تؤدّي دوراً وظيفيّاً جليّاً؛ ذلك أنّ علائمَ الوجه، وحركاتِ اليدين، ودرجةَ الصّوت، وتنغيمَه-كلّ ذلك دوالّ على معانٍ كالألفاظ، ولعلّ في الأمثلة الآتية فضلَ بيان:

قيس: هل تريدين بعض القهوة.

ليلى: القهوة تجعلني متيقظة.

لنلاحظْ أنّ إجابة ليلى محتمِلة معنيين متغايرَين: معنى القَبول، ومعنى الرّفض، ولا سبيل إلى تعيين المراد مِن جوابها إلاّ باعتبارِ الأحوال المشاهَدة، فإذا كانتْ ليلى مرهَقة يغشّيها النّعاس، وقد همّت بالفُزوع إلى الدِّثار، فإنّ قيساً سيسترشد مِن هذه الأحوالِ المشاهَدة أنّ إجابتها تلك جاءتْ في هيئة رفضٍ ملفَّف. ولكن، قد نسرِّح الخاطر متخيّلين أنّ قيساً وليلى يعملان معاً، وقد أدركا أنّ عليهما أنْ يقوما اللّيل إلاّ قليلاً؛ إذْ إنّ لديهما أوراقاً يجب أنْ يفرغا منها ليسلّماها إلى المُشْرِف في اليوم الآتي، ولذا ليس ثَمّ بدّ مِن أنْ يُشمِّرا عن السّواعد، وأنْ يستجمعا الهمّة، مستعينين بكلّ ما يقوّيهما على قيام اللّيل، فتفزع ليلى إلى القهوةِ، ويدرك قيسٌ أنّ دلالة جوابِ ليلى هي الإيجابُ اعتباراً بمشاهَدة الأحوال، وندرك نحن النّظّارةَ أنْ لا سبيل إلى تعرية مِثل تلكم الإجاباتِ الملفّفة إلاّ بالسّياق.

وعلى صعيدٍ سياقيّ آخرَ قد يسأل قيس ليلى: **هل تريدين قهوة؟**

فتجيب ليلى: نعم أريد، وينبني على هذه المساءلةِ مساءلةٌ ثانية تتقدح عند مَن ينظر إلى السّياقِ مِن الخارج: ما القهوة التي تريدُها ليلى؟ أتريد عُلبة مِن حبيبات القهوة؟ أم قهوةً مطحونة؟ أم أنّها تريد قهوة مُعدَّة للشّاربين؟ لعلّ مكان السّياقِ هو الذي يكشف النّقاب عن المعنى، ليقفَ بنا على إجابة شافية، فربّما كان يَطّوّفان معاً في متجرٍ رحبٍ فيه مِن كل شيءٍ، ثمّ رأى قيسٌ عُلباً مِن القهوة مصفوفةً في معرِض

البيع، فأوحتْ له هذه الرّؤية تساؤلاً أباح به إلى ليلى، فقرّرت على وجهٍ مِن الإحكام القبولَ؛ ذلك أنّ البيت خِلوٌ مِن القهوة أو يكادُ يكون[1].

يتبيّن ممّا تقدّم أنّ للأحوالِ المشاهَدَة فضلاً عظيماً في تعيينِ المعاني، "أوَلا تعلم أنّ الإنسان إذا عنّاه أمر فأراد أنْ يخاطبَ به صاحبَه، وينعم تصويره له في نفسِه، استعطفه ليُقْبِلَ عليه، فيقول: يا فلان، أين أنت؟ أرني وجهك، أقبلْ علي أحدّثْك، أمَا أنت حاضر يا هناه، فلو كان استماع الأذن مُغنيا عن مقابلة العينِ، مُجْزِئاً عنه، لَمَا تكلّف القائلُ ولا كلَّف صاحبَه الإقبال عليه، والإصغاءَ له،...، أفلا ترى إلى اعتبارِه بمشاهدةِ الوجوه، وجعلها دليلاً على ما في النّفوس،...، وقال لي بعض مشايخِنا: أنا لا أحسن أنْ أكلّم إنساناً في الظُّلمة"[2]. ثمّ يخلّص ابن جني إلى أنّه "ليست كلّ حكاية تُروَى لنا، ولا كلّ خبر يُنقَل إلينا يشفع به شرح الأحوالِ التّابعة له، المقترنة كانتْ به، نعم، ولو نُقِلت إلينا لم نفدْ بسماعها ما كنّا نفيده لو حضرناها"[3].

السّياق والإشارة:

وممّا يتّصل بمشاهدة هذه الأحوال الإشارةُ، وهي رافد مِن روافد الإبانةِ وتجليةِ المقاصد في السّياقِ، بل هي في كثيرٍ مِن الأحايين نائب أمينٌ عن الألفاظِ، وليس المَقصدِ مِن هذا الذي تقدّم أنْ تُعَدّ الإشارة بديلاً مِن اللّغة، بل هي متمِّمات مساندة[4]، وقد تكون الإشارةُ باليد والرّأسِ والعين والحاجب والمنكب والثّوبِ وغير ذلك[5]، وقد ورد عن رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– قولُه: "وكيف بك إذا بقيتَ

---

(١) انظر هذا المثال Soon – Lexical Ambiguity, p.70-71 والأسماء في البحث مستعارة، وهي عنده Peter and Mary.

(٢) ابن جنيّ – الخصائص ، ١/٢٤٧-٢٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ١/٢٤٧.

(٤) انظر: أ. كوندر اتوف، أصوات إشارات، دراسة في علم اللغة، ترجمة إدور يوحنا، وزارة الأعلام، بغداد ، ١٦.

(٥) انظر: الجاحظ – البيان والتبين، ١/٧٧.

في حُثالةٍ مِن النّاس، وقد مَرَجَت عهودهم وأمانتهم، واختلفوا فكانوا هكذا، وشبّك بين أصابع يديه"[1]، والملاحظُ في هذا الحديثِ أنّ الرّسول-صلّى الله عليه وسلّم- قد استعان في إبانتِه بالإشارة مُستغنياً بها عن لفظةٍ أو ألفاظ، ولكنّ ناقلَ الحديث الشّريف لم يتمكنْ مِن نقل هذه الحركة التّمثيليّة السّياقيّة، فذكرها وصْفًا، ولعلّ الحديثَ في سياقه الأوّل أبلغ، ولعلّ الإشارةَ التي أدّاها الرّسول-صلّى الله عليه وسلّم- أدلّ على المعنى، ولذلك قيل :"مبلِّغُ الإشارة أبلغُ مِن مبلّغ الصّوت"[2]، والإشارةُ واللّفظ عند الجاحظِ شريكان، و"نِعمَ العونُ هي له، ونعم التّرجمان هي عنه، وما أكثرَ أنْ تنوبَ عن اللّفظ، وما تُغني عن الخطّ، وبعد؛ فهل تعدو الإشارةُ أنْ تكون ذات صورةٍ معروفة، وحِلْيةٍ موصوفة، على اختلافِها في طبقاتِها ودِلالاتها، وفي الإشارةِ بالطّرف والحاجبِ وغير ذلك مِن الجوارح مَرْفَقٌ كبير، ومعونةٌ حاضرة، في أمور يسترُها النّاس مِن بعض، ويُخفونها مِن الجليس وغيرِ الجليس[3].

ومِن الأمثلة الطّريفة الدّالّة على فضل الإشارة السّياقيّة في الإبانة عن الألفاظِ أنّ أبا نُواس طُلِب إليه أنْ يصنع شعراً لا قافية له، فصنع مِن فورِه ارتجالاً:

ولقـــد قلـــتُ للملـــيحة قولـــي   من بعيدٍ لمن يحبّك : (إشارة قبلة)

فأشـــارت بمعصـــم ثـــمّ قالـــت   مِن بعيد خلافَ قولي: (إشارة لا لا)

فتنفّســـتُ ســـاعةً ثـــمّ إنّـــي   قلت للبغلِ عند ذلك: (إشارة امشِ)

---

(١) انظر: ابن رشيق – العمدة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٣م. ١/ ٣٠٩، وهو يخاطب عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) انظر: المصدر نفسه ، ٣٠٩/١.

(٣) الجاحظ – البيان والتبيين، ٧٨/١.

فتعجّب مَن حضر مجلسه مِن اهتدائه وحسنِ تأتّيه[1]. ولا يخفى أنّ لسياق الحالِ مشفوعاً بالحركات التّمثيليّة سُهْمةً ظاهرة في تعيينِ مراد أبي نُواس، ولعلّ هذه الأبياتَ اليومَ لا تُفْهَم إلاّ باستصحاب سياقها الأوّلِ المتقادِم، وترجمةِ الإشارات التي جاء بها أبو نُواس إلى ألفاظٍ تصفها وتعبّر عنها، أمّا المعنى لشهودِ تلك الحضرة فهو بيّن لا محالة بالإشارة.

وقد يغني سياقُ الحال بالإشارات والحركاتِ التّمثيليّة التي تقع فيه عن الكلامِ جملةً، ومِن ذلك:

أشـــارتْ بطرف العين خشيةَ أهلِها　　　إشـــارةَ محـــزونٍ ولـــمْ تـــتكلّم

فأيقنـــتُ أنّ الطّرف قد قال مرحباً　　　وأهـــلاً وســـهلاً بالحبيب المتيَّم[2]

مِن مثل ما تقدّم تغييبُ الكلام في سياق العشقِ، واسترفاد سفيرِه العينِ:

وإذا التقينا والعيونُ روامقٌ　　　صمتَ اللّسانُ وطرفُها يتكلّمُ

تشكو فأفهم ما تقولُ بطرفِها　　　ويردّ طرفي مثلَ ذاك فتفهمُ[3]

السّياق والحذف:

يشيعُ في أداءاتنا الكلاميّة أنْ يُجتزَأ مِن السّياق البِنيويّ اجتزاءً غير مخلّ بالمعنى، والمعوّل عليه في هذه الجهةِ هو السّياق؛ ذلك أنّه يقوم مقام هذا الفراغ الوظيفيّ(الحذف)، وليس ملحظُ الحذف أمراً ملقى على عواهنِه، بل لا يكون "إلاّ عن دليل، وإلاّ كان فيه ضربٌ مِن تكليف علم الغيبِ في معرفتِه"[4]، وأمثلة هذا المطلبِ كثيرةٌ، وقد عقد ابن جني باباً وسمه بباب "شجاعة العربيّة" معرّجاً فيه على

---

(١) انظر: ابن رشيق – العمدة ٣١٠/١، ولعل إشارات أبي نواس كانت مصحوبة بأصوات مفرقعة يتساوق صوتها مع وزن الشعر.

(٢) انظر: البيتين الأخيرين المصدر نفسه، ٣٠٩/١، والأبيات لعمر بن أبي ربيعة انظر ديوانه، ٢٠٤.

(٣) ابن داود – الزهرة ، ١٥٠/١، ولم أعثر على القائل.

(٤) ابن جنيّ – الخصائص ، ٣٦٢/٢.

هذه الظّاهرةِ، مُبيّناً أنّ المحذوف قدْ يكون جملةً أو مفرَداً أو حرفاً[1]، ومِن ذلك حذفُ المُميِّز، والباعث على حذفِه استرفادُ الحال الواشيةِ بما هو محذوف؛ وذلك نحو قول القائلِ: عندي عشرون، واشتريتُ أربعين، وعندها يكون الطّرف الثّاني مِن السّياق مُحيطاً بما يُلْمِح إليه المرسِل، "فإنْ لم يُعلَم المرادُ لزم التّمييز إذا قَصَد المتكلّم الإبانةَ، فإنْ لم يُرِد ذلك، وأراد الإلغازَ، وحذف جانب البيانِ، لم يوجِبْ على نفسِه ذكر التّمييز، وهذا إنّما يُصلحُه ويفسده غرضُ المتكلّم، وعليه مدار الكلام"[2]. وفي مقامٍ آخرَ يعقد ابن جني باباً يبيّن فيه أنّ المحذوفَ إذا دلّت عليه الدّلالة كان في حكم الملفوظِ به[3]، ومِن ذلك أنْ يرى المرء رجلاً قد سدّد سَهماً نحو الغرضِ ثمّ أرسله، فيسمع صوتاً فيقول: "القرطاسَ واللهِ، والمعنى أنّه أصاب القِرطاس، "فـ(أصاب) الآنَ في حكمِ الملفوظِ به البتّة، وإنْ لم يوجدْ في اللّفظ، **غيرَ أنّ دلالة الحال نابتْ منابَ اللّفظ به**"[4].

السّياق والمقبوليّة:

كثيرٌ مِن الجمل التي يَصْدق عليها الوصف بأنّها مستقيمة نحويّاً، غيرُ مستقيمة دلاليّاً[5]، يمكن أنْ تكون مستقيمةً مِن الوجهين في سياقٍ خاصّ يتعارف عليه أهلُه، ومِن ذلك أنّنا نقول: **أكل هوى – يلعب بالنّار – بَلِّطْ البحر**

---

(1) انظر: المصدر نفسه، ٢/٣٦٢-٣٨٣.

(2) المصدر نفسه، ٢/٣٨٠.

(3) المصدر نفسه، ١/٢٨٥.

(4) المصدر نفسه ، ١/٢٨٦. ولمزيد بسط القول في سياق الحال وتجاوز حدود النص الذاتية ومادة العبارة الكلامية الخالصة عند النحاة العرب انظر: نهاد الموسى – الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه، مجلة حضارة الإسلام دمشق، ١٣٩٤- ١٩٧٤م، ونحو اللسانيات الاجتماعية في اللغة العربية، المجلة العربية للدراسات اللغويّة المجلد الرابع، العدد الأول، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ١٩٨٥م.

(5) انظر الصفحة ٥٨-٥٩ من الكتاب.

وممّا ينتسب إلى ما تقدّم اللّغةُ الإبداعيّة القائمةُ على انفتاحِ دلالةِ الألفاظ، وتجاوزِ حدودها المعجميّة التّقليديّة، وإقامةِ علاقات لغويّةٍ غير مألوفةٍ إثارةً لعنصر الدّهشةِ عند المتلقّي، ولكنّ هذا لا يكون في اللّغة الوظيفيّةِ في الغالبِ، ويبقى المُحتكَم الأوّل في تقريرِ المقبوليّة الدّلاليّة السّياقَ الذي إليه تنتسب الجملةُ أو النّصّ؛ ذلك أنّ بَوْناً بين السّياقين عريضاً. لننظرْ في هذا النّصّ:

كان الخريفُ يمرّ في لحمي جنازةَ برتقال

قمراً نحاسياً تفتّته الحجارةُ والرّمال

وتهافت الأطفال في قلب على مهج الرجال

كلّ الوجوم نصيب عيني كل شيء لا يقال

ومن الدّم المسفوك أذرعة تناديني تعال (١)

فالشّاعر قد جعل الخريف يمرّ في اللّحم، وجعلَ للبرتقال جنازة، والقمرُ في هذا السّياق نحاسيّ مجرَّد مِن معالم الجمالِ المعهودة، وللدّم المسفوك أذرعةٌ تستغيث وتتكلّم، ولو أنّ قائلاً جاء بمثلِ هذا في سياق تواصليٍّ وظيفيّ لغُلِب على أمرِه بالمُكاءِ والتَّصْدية(٢).

ومِن وجهة أخرى ليستْ بنحويّة ولا دلاليّة، بل أسلوبيّة، يغدو مطلب "المقبوليّة" مَعْلَماً مِن معالم اللّياقة وحسن التَّأتّي في الأداء؛ إذ إنّ سياقَ الحال يفرض ضرباً مِن السّلوك اللّغويّ وفاءً بالأصلِ البلاغيّ العريض :"موافقة الكلام لمقتضى الحالِ مع فصاحتهِ"(٣)، ولذا صرف البلاغيّون وُكْدهم في هذا الدّرسِ؛ ذلك أنّ للمعاني ألفاظاً "تشاكلُها فتحسن فيها، وتقبح في غيرِها، فهي لها كالمَعْرِض للجارية الحسناءِ التي تزداد حُسْناً في بعض المَعارضِ دون بعض، وكم مِن معنى حسنٍ قد

---

(١) انظر: محمود درويش – ديوانه، دار العودة ، بيروت، ١٩٩٤، ٢٠٨.

(٢) يعرّج ليونز على عبارة تشومسكي " تنام الأفكار الخضراء عديمة اللون بتهيج" مبيناً أنها إذا أنزلت في سياق آخر، ووسع معنى الكلمات، فإنها تغدو مقبولة، انظر: ليونز – اللغة والمعنى والسياق، ١٣٠.

(٣) انظر: القزويني – الإيضاح في علوم البلاغة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٨٥م، ١١.

شين بمَعْرِضه الذي أُبْرِز فيه، وكم مِن مَعْرِض حسنٍ قد ابتُذِل على معنى قبيح أُلبِسه"[١]، ولعلّ تجافيَ الشّاعر عن مراعاةِ سياق الحالِ هو الذي أفضى إلى تطيّر الخليفةِ، وتخريبِه القصرَ المَشيد بعد أن لبثوا سنين عدداً في إنشائهِ؛ ذلك أنّ النّاظم قد افتتح قصيدته بذمّ الزّمانِ، وإقفار الدّيارِ، وتشتُّتِ الأُلاّف.

ولعلّ التّساوق بين سياق الحالِ وهواتفِ النّفس هو الذي أرغم معاويةَ على الانثناءِ عن الفِرار يوم الهَرير، فقد استرجع قولَ القائل:

أبتْ لي عفّتي وأبى بلائي وأخذي الحمدَ بالثّمنِ الرّبيحِ

وإجشامي على المكروهِ نفسي وضربي هامةَ الرّجل المشيحِ

وقولي كلّما جاشت وهاجت مكانَك تُحمدي أو تستريحي

وقد رُوي عن معاوية أنّه قال: "اجعلوا الشّعر أكبر همِّكم، وأكثر آدابكم، فإنّ فيه مآثرَ أسلافكم، ومواضعَ إرشادكم، فلقد رأيتُني يومَ الهرير وقد عزمت على الفِرار، فما يردّني إلاّ قول ابن الإطنابة الأنصاري"[٢].

---

(١) ابن طباطبا – عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري، محمد سلام، المكتبة التجارية ، القاهرة، ١٩٥٦، ٨.

(٢) المبرد – الكامل، تحقيق محمد الدالي، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، ١٤٣٤/٣.



المَطْلَبُ الثَّانِي

المَوَاضِعُ المُرَشِّحَةُ لِتَخَلُّوِ اللَّبْسِ

الفصل الأوّل

مقدّمة

اللَّبس الآتي من التّصويت

اللَّبس الآتي من التّصريف

اللّبس الآتي من التّركيب

تقديم:

تقدّم قَبلاً حديث مجمَل عن تمثّل أنحاء النّظام اللّغويّ وإمكانات الإبانة فيه، وفي هذا المطلبِ حديثٌ لاستشراف المواضع المرشّحة لتخلُّقِ اللّبس والاحتمال، والذي ينبغي التّنبيه عليه أنّ اللّبس مَلمَح لغويّ عامّ لا يقتصر على لغةٍ بعينها، وأنّه ليس معياراً يُحتكَم إليه في المفاضلة؛ ذلك أنّها منتفيةٌ لا تستقيمُ في النّظر اللّسانيّ الحديث، وسبيلي إلى استشرافِ أجلى المواضعِ المرشّحة في هذا المطلب هي استرفاد السّبيل التي عرضتُ فيها ملامحَ الإبانة في النّظام اللّغويّ؛ أعني المضيَّ مع المستويات اللّغويّة بعد تفكيكِها على وجهٍ نظريّ، ولمّا كانت اللّغة مؤتلفةً مِن مستويات، ولمّا كان كلّ مستوى يؤدّي دوراً وظيفيّاً، وجب على الباحث أنْ يمضيَ مع كلّ واحد ليقفَ على النّقطة المُشخَّصة التي تتوارى عندها إمكاناتُ الإبانة، ويظهر ما هو مُعْتاصٌ متأبٍّ في الدّلالة عن معناه، أو ليقفَ على النّقطة التي تغدو عندها بعض إمكانات الإبانةِ المتقدّم ذكرُها إمكاناتٍ للإلباس والتّعمية، والحقّ أنّ قصر هذه الظّاهرة – كما سيتبيّن بَعداً– على النّظام اللّغويّ في ذاتِه لا يستقيم؛ ذلك أنّ مِن مواضع اللّبس ما هو آتٍ مِن السّياق، أو الأساليب. لأجتزئْ بما قدّمت معوّلاً على استشراف هذه الظاهرةِ في مستوياتِ العربيّة، معرِّجاً على أنظارٍ داخليّةٍ وخارجيّة تفعل في تخلُّقِ اللَّبس:

أوّلاً: اللّبس الآتي من التّصويت:

ليس ثمّ ريبٌ في أنّ المفاصل الصّوتيّة عامل رئيسٌ في الكشفِ عن المتعيّن من المعاني كما تقدّم قبْلاً، وأنّ استحضارَها في الأحداث الكلاميّة الحيّة يدرأ عن السّامع الولوجَ في مزالق اللّبسِ الآتي مِن هذه الجهةِ، وإخال أنّ بمُكْنَةِ الباحث أنْ يقف على طائفةٍ من الكَلم التي ترتدّ، في عهد متقادمٍ، إلى كلمتين أو أزيد، ولكنّ تغييب هذه الإمكانةِ أذِن بتوحُّد الكلمتين في لَبوس كلمة واحدة، ومن الأمثلةِ المُبِينة

عن ذلكم عدّ "برّد" مِن الأضداد؛ إذ إنّ بعض اللّغويّين يذهبون إلى أنّه يقع تحتَها معنيان:"**برّد**" على المعنى المعروفِ الذّائع، و"برّد" إذا أسخن، وقد احتجّوا بقول الشّاعر:

عافــت الشّربَ في الشّتاء فقلنا ‏ ‏ ‏ ‏ بــــرّديه تصـــــادفيه سَــــخينا

والمعنى: سخنيه، ولكنّ النّظر المدقِّق يأبى هذا أنْ يكون؛ ذلك أنّ الأصل المتقادمَ "بلْ رِديه"، فأدغم اللام في الرّاء، فصارتا راءً مشدّدة، فتداخلت حدودُ الكلم، ليعقُبَ هذا وهمٌ مؤدّاه أنّهما كلمة واحدةٌ تحتمل معنيين متضادّين[1].

ومثل ذلك أيضاً "**أيْشٍ**"؛ فأصلها أيّ شيء[2]، ولعلّ هذا التّدقيق هو الذي أفضى بالفرّاء إلى الاعتقاد بأنّ أصل (يا لَزيد) هو: يا آل زيد، فخفّف الهمز، وغدتْ على ما هي عليه[3]، ولستُ أزعم أنّ فيما تقدّم لبساً، ولكنّه نظر تاريخيّ دالّ على تداخل حدودِ الكلم.

لِنَرْجِعِ النّظر في طائفة مِن الكلمِ التي لا يتجلّى معناها إلاّ باسترفادِ المَفْصِل الصوتيّ هادياً ومحتكَماً في تعيين الوحَدات الصّرفيّة المتآلفة:

١- إلى Δ هَنا رَجعنا ‏ ‏ ‏ ‏ إلَهَنا رجعنا

٢- إلى Δ هُنا كافٍ ‏ ‏ ‏ ‏ إلهُنا كافٍ

وفي مثالٍ آخرَ مُبين:

٣- جالَ Δ سَنا القمر ‏ ‏ ‏ ‏ جالَسَنا القمر

---

(١) انظر : ابن الأنباريّ – الأضداد، ٦٤، ابن هشام – المغني، ١/ ٣٧٣ والرواية عافت الماء . ابن منظور – اللسان ، مادة "برد" ولم أعثر على قائله.

(٢) انظر : ابن الأنباريّ – الإنصاف، ٢/ ٥٢٨.

(٣) انظر : ابن الحاجب – شرح الكافية، ١/ ٣١٩، وقد أشار ماريو باي إلى أن الخلط في أماكن الفصل عمل على خلق تغييرات تاريخية، وذلك نحو: an ewt، فقد تطورت فغدت: a newt . انظر : أمثلة أخرى: باي – أسس علم اللغة، ٩٦.

ويُفترض في هذا المثالِ المصنوع أنّ ثمّ وقفاً يُخفي العلامةَ الإعرابيّة الواقعة على أواخر الكلمِ؛ ذلك أنّ تحريك الآخرِ في هذا المثال باعثٌ على إقامة البونِ بين المعنيين النّحويّين اللّذين يكتنفان موقع القمر: الإضافة والفاعليّة.

١ - سيأتي Δ كبكر   سيأتيكَ Δ بكر

٢- سيأتي Δ كخالد   سيأتيك Δ خالد

٣- هي في هواه تحت Δ رق   هي في هواه تحترق

٤- انتبه فأنت Δ به   انتبه فأنتبه.

٥- حلالي   حلا Δ لي

٦- لوΔ لام Δ ساعي البريد لما وصلت إليك الرسالة .

٧- لولا Δ مَساعي البريد لما وصلت إليك الرسالة.

٨- لو Δ لام Δ راعي الخير

٩- لولا Δ مراعي الخير

والحقّ أنّ هذا يكثر إنْ تتبّعته، والمبتغَى ممّا تقدّم هو التّنبيه على لَبسٍ آتٍ مِن تداخل حدودِ الكلم على مستوى نطقيّ[1]، وقد وقف ابن جني على نماذجَ مشرقةٍ في دلالتِها على هذه المباحثة، ففي بباب "توجّه اللّفظ الواحد إلى معنيين اثنين" أشار إلى أنّه باب في نهايةِ الانتشارِ، "وليس عليه عَقْد هذا البابِ، وإنّما الغرض البابُ الآخر الأضيق الذي ترى لفظَه على صورةٍ، ويحتمل أن يكونَ على غيرِها، كقولِه:

---

(١) ومن الأمثلة في الإنجليزية :

an aim – a name
an ice man – a nice man
nitrate – night rate

انظر: Kooij, J. Ambiguity in Natural Language: An Investigation of Certain Problems in its Linguistics Description, North- Holand Publishing Company , Amsterdam, 1971 P. 15-17.

وقد سماها تشومسكي بالجناس التركيبي، انظر : البنى النحوية، ١١٣.

نطعـــنهم سُـــلكى ومخلوجـــة كـــرّك لاميـــن علـــى نـــابلِ

فهذا يُنشَد على أنّه ما تراه: كرّكَ لامين (أي ردّك لامين) –وهما سهمان–على نابل،...، ويُروى أيضاً على أنّه:كرّ كلامين على صاحب النّبلِ، كما تقول به: ارمِ ارمِ،تريد السّرعة والعجلة"[1]، والملاحظ ممّا تقدّم أنّ تغييب المفصلِ الصّوتيّ أفضى إلى التّداخل بين الوحَدات الصّرفيّة: **"كرّك لامين – كرّ كلامين".**

ومِن مثلِ ما تقدّم المثلُ السّائر:

١- **زاحِمِ بِعَوْدٍ أو دع**

والمعنى: زاحم بقوّة أو فاتركْ ذلك، "وقد توهّمه بعضهم: بعَوْد أودعَ، فذهب إلى أنّ "أودع" صفة لعَود، كقوله بِعَوْد أوقص، أو أوطفَ، أو نحو ذلك ممّا جاء على أفعل وفاؤه واو"[2].

٢- **وما جَلْس أبكارٍ أطاع لسرحِها جنى ثمرٍ بالواديين وَشوع**

موضع النّظر والمباحثةِ في هذا البيت قوله: "وشوع"؛ إذ فيها قَولان، أولـهما "وشوع" بمعنى كثير، وبهذا تكون صفةً لجنى ثمرِ الواديين، وثانيهما أنّ الواو ليست جزءاً مِن بِنية الكلمة في ذاتِها، وإنّما هي كلمةٌ قائمة برأسِها تفيد العطف، والشّوع ضربٌ من النبت[3]، ولعلّ هذا اللّبس لا يُرْفَع إلاّ بتعيين المَفْصِلِ الصّوتيّ:

وَΔ شوع – وَشوع

---

(١) ابن جنيّ – الخصائص، ٣/١٦٨-١٦٩، وقد وقف عند هذا اللبس الصوتي صاحب الوساطة: انظر : الجرجانيّ – الوساطة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٦م، ٤١٨، والشعر لامرئ القيس، انظر : ديوانه، ط١، دار صادر، ودار بيروت، بيروت ١٩٥٨، ١٤٨.

(٢) ابن جني– المصدر نفسه ، ٣/١٧١.

(٣) انظر : المصدر نفسه، ٣/١٧٢، والشعر للطرماح بن حكيم، انظر: ديوانه، تحقيق عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث، دمشق، ١٩٦٨، ٢٥٩.

٣- وغلــتْ بهــم سجحاءُ جارية		تهــوي بهــم فــي لجّــة البحرِ

موضع النّظر في هذا السّياقِ قوله "وغلت"؛ ذلك أنّ ثمّ اشتباهاً بين كونها ثلاث كلمات: "و∆ غلي/ت"، أو كلمتين "وغل/ت"، وإذا ما رُجّح الوجهُ الأوّل فالواو عاطفة، والفعل مِن الغليان، وإذا كان التّرجيح للوجه الثّاني فالواو جزء فاعلٌ في تشكيل بِنية الكلمةِ الأولى، والفعل مِن التوغُّل[1].

٤- يقول ابن مالكٍ:

**لفاعلَ : الفعالُ والمفاعَلهْ		وغيرُ ما مرّ السماعُ عادَلَهْ**[2]

والنّاظر في قولِه "عادَلَه"يتردّد بين معنيين لا يُوقَف على أحدهما إلاّ بالتّوهّم والتّرجيح، فهل هو: "عاد∆له؟، والفعل في هذه الحال من العَوْد، "وله" جارّ ومجرور، أو هو: "عادَله"، والفعل هنا مصدره المعادلةُ، وهو متّصل بمفعولِه[3].

وقد تقدّم قبْلا أنّ المَفصِل ليس مقصوراً على تعيينِ حدود الكلماتِ وتمايزِها، بل هو إمكانةٌ لتعيين حدودِ الجملِ والمعاني النّحويّة، ومِن ذلك قولنا:

١- " قال الملك هو الصالح"

والظّاهر مِن هذه الجملةِ أنّها محتمِلة لمعنَيين:

أوّلهمــــا: قال ∆ الملك هو الصالح

وثانيهما: قال الملك ∆ هو الصالح

ولا يخفى أنّ المفصِل الصّوتيّ يتضافر مع إمكانةٍ أخرى، وهي التّنغيم، لرفعِ هذا الاشتباهِ الآتي مِن تغييبهما معاً. وممّا هو قريب ممّا تقدّم قوله- تنزّه- في التّنزيلِ:

---

(١) انظر : ابن جني - الخصائص، ٣/١٧٥. وقد نسبه المحقق إلى المسيب بن علس.

(٢) انظر : ابن عقيل - شرح ابن عقيل، ٢/١١٤

(٣) انظر : الصبان - الحاشية، ٢/٤٦٧. وقد ذهب ابن عقيل في شرح الألفية إلى أن معنى قوله " عادله" أن السماع كان عديلاً له.

٢- { **قال ∆ الله على ما نقول وكيل** } [١].

وليس ثمّ ريبٌ في أنّ هذه الوقفة "المفصل الصّوتيّ" المشفوعةَ بتنغيم مُبِين مردّها إلى الاحترازِ مِن توهّم الاسم الكريم "الله" فاعلاً، وإنّما الفاعل في ذلكم السّياقِ الشّريف يعقوب عليه السلام[٢]. ومِن نحو ما تقدّم قولُه -تعالى-:

٣-{ **فلا يحزنْك قولُهم ∆ إنّا نعلمُ ما يسرّون وما يُعلنون** } [٣]

ذلك أنّه ربّما قفز إلى الخاطرِ وهمٌ مؤدّاه أنّ ما بعد "قولهم" محكيٌ بالقولِ، وليس ذلك كذلك البتّة، لأنّه ليس مَقولا لهم[٤]، وقد عدّه النّحّاس والدّانيّ قطعاً تامّاً[٥]، وفي كثير مِن مِثْل هذه المواضعِ تتجلّى قيمة المفصلِ الصّوتيّ الذي يعملُ على انفساخِ نسيج التّركيب، لتستويَ المعاني النّحويّة وِفاقاً لمكنوناتِ المعاني في النّفس، ومن ذلك:

٤- **لا تقلق اليومَ ∆ سيُعقد الامتحان**

لا تقلقْ ∆ اليومَ سيعقد الامتحان

فالجملة المبتدَأ بها يكتنفها نهي عن القلقِ في زمان مُعيّنٍ، ثمّ يعقب هذا النّهي إخبارٌ بتنغيمٍ مفارق لتنغيمِ النّهي. أمّا الجملة الثّانية فهي قائمةٌ على النّهي عن القلقِ، ويعقبُها أخبارٌ بأنّ موعد الامتحان اليوم.

ومِن الأمثلة الدّالّة المُبينةِ عن فضل تضافرِ المفصلِ والتّنغيمِ في تعيينِ المعاني النّحويّةِ قوله- تعالى-:

---

(١) الآية (يوسف ، ٦٦).

(٢) انظر : الزركشي – البرهان، ٣٤٥/١.

(٣) الآية: (ياسين، ٧٦).

(٤) انظر : ابن هشام – المغني ، ٥٠٢/٢.

(٥) انظر : النحاس – القطع والائتناف، تحقيق أحمد العمر، ط١، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٨م، ٦٠١، الداني- المكتفى، ٣٠٢.

٥-{قل يا أهلَ الكتابِ تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألاّ نعبدَ إلا الله } [١]

تباين وجهُ القولِ على إعراب المصدر: "ألاّ نعبد إلا الله"، فقيل جُرّ بدلاً مِن سواء، أو مِن كلمة، وقيل هو مرفوع، والتّقدير: "هي ألاّ نعبد"، وقيل -وهذا مضرِب التّمثيل- إنّ الكلامَ قد تمّ على "سواء"، ثمّ استؤنف، فغدا السّياقُ الشّريف: "قل يا أهلَ الكتاب تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ Δ بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله"[٢]، ولا يخفى أنّ تجاذبَ القول في هذا النّظرِ التّركيبيّ، وتعدّد المعاني النّحويّةِ مردّه إلى تباينٍ في تعيين المفصلِ.

ولعلّ لتغييبِ المفصلِ والتّنغيم فضلاً في سلوكِ سبيل التّعميةِ والإلباس، فلو أنّ زاعماً أراد أنْ يدرأَ عن نفسِه العذابَ أو التّهمة، فإنّه سيفيد مِن هذه الإمكانة معمِّياً ومغطِّياً لِما اجترحه مِن صنيع، ومثال ذلك أنّ ثمّ حدثاً كلاميّاً يتجاذبه ثلاثة، اثنان متقاضيانِ، والثّالث على رأسهما قاضٍ، وقد فزع الأوّلُ إلى بثّ شكواه، فنهد الثّاني لتفنيد مزعمِ الأوّلِ، فتنازعا، فطلب القاضي إلى المشتكَى عليه القولَ الفصلَ، فقال: **"والله يا سيّدي ، ما أخذت له الذي زعم"!**، وقدْ أخفى في نفسِه ما المفصلِ والتّنغيم مبدياه: "ما أخذتُ Δ له الذي زعم".

ولعلّ إغفال الكسائيّ للمفصلِ الصّوتيّ والتّنغيم هو الذي أفضى به إلى اللّحنِ؛ فقد قيل إنّ اليزيديّ سأله بحضرةِ الرّشيد عن هذا البيتِ:

لا يكـــونُ العـــير مهـــراً لا يكـــون المهـــرُ مهـــر

فوهم الكسائيّ إذْ ظنّ أنّ الشّاعر قد أقوى؛ ذلك أنّ "كان" تطلب اسماً مرفوعاً، وخبراً منصوباً، ولكنّ قول الشّاعر: "لا يكون المهرُ مهرٌ" لا يتساوق وقواعدَ السّلامةِ اللّغويّة، فأعاد اليزيديّ عليه الكرّة ثانيةً، وقال: أنا أبو محمّد،

---

(١)الآية (آل عمران، ٦٤).

(٢) انظر : ابن الأنباريّ- البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق طه عبد الحميد طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م، ٢٠٧/١، العكبريّ- البيان في إعراب القرآن، تحقيق على البجاوي، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧م، ٢٦٩/١.

الشّعر صواب، إنّما ابتدَأ فقال: المهرُ مهر"[1]، والمعنى أنّ "لا يكون" الثّانية هي توكيدٌ للأولى، و"المهر مهر" مبتدأ وخبرٌ.

وللتّنغيم فضلٌ في تحديد المعاني النّحويّةِ العريضةِ كالاستفهامِ والتعجّب والنّداءِ وغيرِ ذلك، وقد يحدث أحياناً أنْ يقع اللّبْس لتجريدِ الأحداث الكلاميّة مِن سياقاتِها الحيّة، ومِن ذلك قولنا:

١- عليك السّلام

فهذه الجملة محتمِلة متردّدةٌ بين معنى الإغراء، و"عليك" اسم فعل أمرٍ، والمعنى الكلّيّ: الزم السّلام، ومعنى الأخبار: "وعليك" جارٌ ومجرور تقدّما مبتدأهما، وليس يُنسَى أنّ العلامةَ الإعرابيّة دليل هادٍ لتعيين المعنى النّحويّ، ولكنّ الوقفَ على الأواخر ينسخُها فتغدو كأنّها لم تكنْ، ويبقى التّنغيم "درجة الصّوت" في سياق حيّ المحتكَمَ الأوّل لرفعِ هذا الاشتباهِ.

٢- " ما يَضيرك لو أنّك ذهبت"

وهذه الجملة تحتمل معنيين؛ معنى الاستفهام: "ما يضيرك لو أنّك ذهبت؟"، ومعنى النّفي، وكلا الوجهَين محتمَل صالح. وكذلك قولُه -تبارك-:

٣-{ قُتِل الإنسانُ ما أكفرَه }[2].

فقدْ تردّد المعربون في إعراب "ما" في هذا السّياقِ الشّريفِ بين وجهين متباينَين، أوّلهما أنّها استفهاميّةٌ، والمعنى: أيّ شيءٍ حمل الإنسانَ على الكفرِ مع ما يرى مِن الآياتِ الدّالّة على التّوحيدِ، وثانيهما أنّها تعجبيّة[3]، كقولنا: ما أعظمَ

---

(١) البيت مثبت في ألغاز ابن هشام – تحقيق أسعد خضير،ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١، ١٧. والحادثة ذكرها السيوطي – الأشباه والنظائر، ٢١٣/٦، بتحقيق عبدالعال سالم مكرم.

(٢) الآية (عبس، ١٧).

(٣) انظر : النحاس –إعراب القرآن، تحقيق زهير زاهد، ط٣، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٨ م، ١٥١/٥، مكي بن أبي طالب – مشكل إعراب القرآن، تحقيق حاتم الضامن، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م، ٨٠٣/٢، ابن الأنباريّ – البيان، ٤٩٤/٢، العكبريّ– التبيان، ١٢٧٢/٢ الزمخشريّ – الكشاف عن

محمّداً!، والمعنيان محتمَلان لا يتدافعان، والباعثُ على هذا التّعدّد هو تغييبُ التّنغيم الذي يحدّد المتعيّنَ.

٤-{ ما أغنى عنه مالُه وما كسبَ } [١]

و"ما" في سياقِها محتمِلة أيضاً معنيين: الاستفهام والنّفي[٢]، وكلاهما مفارِق للآخَر، ولا يتعيّن المعنى إلاّ باسترفادِ التّنغيمِ.

٥- " ما يضرّ البحرَ أمسى زاخراً   أنْ رمى فيه غلامٌ بحجَرْ

وقد تكونُ "ما" استفهاميّةً، فيصير في "يضرّ" ضميرٌ عائد عليها، ويكونُ "أنْ رمى" في موضعِ نصبٍ، والمعنى: أيّ شيءٍ يضرّ بالبحرِ يرمي غلامٌ فيه بالحجر، ويجوزُ أنْ تكون "ما" نافيةً، فيصير موضعُ "أن رمى" رفعاً بالفاعليّةِ، والمعنى: ما يضرّ البحرَ رَميُ غلامٍ فيه بالحجر[٣]. والحقّ أنّ بمُكنةِ المرءِ أنْ ينظرَ في علّة هذا اللَّبسِ جانحاً إلى أنّ تعدّد معاني "ما" باعثٌ على وقوعِ اللَّبسِ، ولكنّ التّنقير والتّأمّلَ يُفضيان إلى استشرافِ علّة العلّة، وهي غيابُ التّنغيم.

٦- أَعْبداً حلّ في شُعَبَى غريباً   ألؤما لا أبا لكَ واغترابا

يُحمَل معنى البيتِ الكلّيّ على محملَين، أوّلهما النّداءُ، والهمزةُ ههنا لنداء القريبِ. وثانيهما الإخبارُ المكتَفَ باستهزاءٍ وشتيمةٍ، والمعنى: أتفخرُ عبداً، ولم "تُرِد أنْ تخبر القومَ بأمرٍ قد جهلوه، ولكنّك أردت أنْ تشتمَه بذلك"[٤].

حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، دمشق ، ٢١٩/٤.أبو حيان – البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٣، ٤٢٠/٨.

(١) الآية (المسد، ٢)

(٢) النحاس – المصدر نفسه، ٣٠٥/٥، مكي – المصدر نفسه، ٨٥١/٢، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٥٤٤/٢، العكبريّ– المصدر نفسه– ١٣٠٨/٢، ابن هشام – المغني، ٤١٤/١.

(٣) انظر : الفارسيّ– شرح أبيات، ٥٠٨، والشعر للأخطل، انظر : ديوانه، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٦م،٤٧٢.

(٤) انظر : سيبويه – الكتاب ٣٤٥/١ ، والشعر لجرير، انظر : ديوانه، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٤، ٥٦.

٧- "رأيتُهم عَميت أعينُهم"

تتردّد هذه الجملةُ بين معنيين: الأوّل "رأيتهم وقد عميتْ أعينُهم"، أي وقعتْ الرّؤيةُ في هذه الحالِ، والثّاني أنّ القائل أخبر برؤيتِهم ثمّ استدرك بدعاءٍ عليهم فقال: "عميتْ أعينُهم"، ولا يجلّى المعنى إلاّ بسكتةٍ لطيفةٍ عقبَ "رأيتهم"، ثمّ يأتي الدّعاءُ بهيئة تنغيمٍ تُنبئُ عن حواشي النّفسِ بما يخالطُها مِن حقدٍ مركوزٍ فيها[١].

٨- "لا ينبغي لكم أنْ تتخاذلوا ولا تتهاونوا"

عَوداً على المفصِلِ والتّنغيمِ ثانيةً؛ ذلك أنّ موضع المفصِلِ وتباينَ درجةِ الصّوت يعملان على تباينِ المعنى المتعيّنِ مِن هذا السّياق التّركيبيّ، فلو كان المعنى: لا ينبغي لكم أنْ تتخاذلوا ∆ ولا تتهاونوا، لأصبح المتعيّن أنّ الواعظَ يحضّ النّاسَ على مجافاة التّهاونِ كما ينهاهم عن مجافاةِ التّخاذل أيضاً، وإذا كان موضعُ المفصِلِ: لا ينبغي لكم أنْ تتخاذلوا ولا تتهاونوا ∆، وكانتْ درجةُ الصّوتِ واحدةً غيرَ متفاوتة، فالمرادُ أنّه لا يرضى للنّاس التّخاذلَ ولا التّهاون، وثمّ بَونٌ نحويّ في إعرابِ الفعل "تتهاونوا"؛ إذ هو مجزومٌ بلا النّاهيةِ، وعلامة جزمِه حذفُ النّون. أمّا على الوجهِ الثّاني فهو منصوبٌ عطفاً على "أن تتخاذلوا"، والواو عاطفةٌ فعلاً على فعلٍ، والمعنى الكلّيّ: لا ينبغي لكم أنْ تتخاذلوا وأنْ تتهاونوا.

٩- ولو أنّ عَرْضَ البحرِ بيني وبينها لحدثتُ نفسي ما إليك مَخاضُ

موضعُ التّأمّل قولُه: "ما إليك مخاض"؛ ذلك أنّ "ما" تحتملُ أن تكون نافيةً؛ أي أنّ القائلَ قد استحكم في خواطرِه انعدامُ الوسيلةِ في الوصولِ إلى المخاطَبةِ، وهذا المعنى لا يتجلّى إلاّ بمفصِلٍ صوتيّ بعد قولِه: "لحدّثتُ نفسي ∆ ما إليك مخاض" مشفوعاً بارتفاعِ درجةِ الصّوتِ الدّالّة على النّفي. وقد تكون "ما" موصولةً

---

(١) مجيىء الفعل الماضي حالاً من المسائل الخلافية بين البصريين والكوفيين وقد ذهب الكوفيون إلى جوازها ، أما البصريون فقد أنكروا ذلك، ومن أدلة الكوفيين قوله تعالى: " أو جاؤوكم حصرت صدورهم" (النساء،٩٠)، انظر : ابن الأنباريّ – الإنصاف، ٢٥٢/١.

بمعنى "الذي"، والمعنى الكلّيّ أنّ القائلَ ذو همّة تأبى أنْ تقنع إلاّ بالوصولِ والتّأتّي لذلكم المخاضِ، ويكون تقدير الكلامِ وِفاقا لهذا الوجهِ: "لحدّثتُ نفسي بالذي هو إليك خوضٌ"[1].

ولعلّ مِن أشدّ مواضعِ اللّبس في مطلبِ الحديثِ عن التّنغيمِ هو حذف حرفٍ مِن السّياق البِنيويّ، كحرفِ الاستفهامِ، والتّعويل على فضل التّنغيم في الإبانةِ، ولكنّ المعضلةَ حادثةٌ في المستوى الكتابيّ والانسلاخِ مِن السّياق، ومِن ذلك قولُ الشّاعرِ:

١- ثمّ قالوا تحبّها قلتُ بهراً   عددَ النّجم والحصى والتّرابِ

فقدْ قيل إنّ همزة الاستفهامِ محذوفةٌ، والمعنى: أتحبّها، وقيل: ليس ثمّ حذفٌ مِن هذا السّياق البِنيويّ، والمعنى الإخبار، أي: أنت تحبّها، وكلا الوجهَين صالحٌ متقبّل[2].

٢-ومِن مثِل ما تقدّم قولُه -تقدّس اسمُه-:﴿ **وتلك نعمةٌ تمنّها عليّ أنْ عبّدت بني إسرائيل**﴾[3].

يتردّد معنى هذه الآيةِ الكريمةِ بين أسلوبَين؛ الاستفهامِ والإخبار، أمّا الأولُ فعلى حذفِ حرف الاستفهامِ، والمعنى: "أو تلك نعمةٌ تمنّها عليّ ". أمّا الوجهُ الثّاني فهو الإخبارُ، والمعنى - كما يقول الفرّاء-هي نعمةٌ إذْ ربّيتني ولم تستعبدْني كاستعبادِك بني إسرائيلَ[4].

---

(١) انظر : الفارسيّ - شرح الأبيات ، ٤٤٧، وقد نسبه الفارسيّ للقناني، ولم أعثر عليه.

(٢) انظر : ابن جنيّ - الخصائص ٢٨٣/٢، وأظهر الأمرين عنده أن يكون أراد "أتحبها" ابن هشام - المغني ، ١ /٢٠، ولم يغلب وجهاً على وجه، والشعر لعمر بن أبي ربيعة، انظر: ديوانه، ٤٣١.

(٣) الآية (الشعراء، ٢٢).

(٤) انظر : الفراء - معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ٢٧٩/٢، وانظر هذه الآية: الأخفش - معاني القرآن، تحقيق هدى قراعة، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠م، ٢/ ٤٦١ وقد اقتصر على معنى الاستفهام. النحاس - إعراب القرآن، ١٧٦/٣ - ١٧٧ والمعنى عنده الإخبار، العكبريّ - التبيان ٩٩٥/٢، والمعنى عنده الاستفهام، ابن هشام - المغني، ٢٠/١ وقد ذكر الوجهين مرجحاً الإخبار. المرادي -الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد فاضل، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٩٢م، ٣٤. وقد ذهب إلى الاستفهام.

أمّا على صعيدِ الدّرس التّقابليّ "Contrastive Analysis" فقد يتعذّر على العَجَم نطقُ بعضِ الأصواتِ كالعين، فيبدلونها همزةً، ومِن ذلك:

ناعمة – نائمة

القمر – الكمر

والحقّ أنّ هذه الأمثلةَ ونحوَها ليست ممّا ينتسبُ إلى ظاهرةِ اللّبس؛ ذلك أنّ تمثّلَ هذه الظّاهرةِ مضمارُه الميدان اللّغويّ المحضُ لا ما يخالطُه مِن عُجمة أو مرضٍ نطقيّ، وممّا يخرجُ عن هذا المِضمارِ الألفونات الإقليميّة وتباينها، ومِن ذلك ترقيقُ القافِ،والكشكشةُ، والجيم المِصريّة، والقاف البدويّة، وغيرُ ذلك[1].

ثانياً: اللّبْس الآتي من التّصريف:

١- اختلاف الأصل الاشتقاقيّ:

إنّ أوّلَ ما استفتح به ابن الأنباريّ إنصافَه مسألةٌ خلافيّة في أصلِ اشتقاق "الاسمِ"، فقدْ ذهب الكوفيّون إلى أنّ الاسم مشتَّق مِن "الوَسْم"، وهو العلامة، أمّا البصريّون فجنحوا إلى أنّه مشتَّقٌ مِن "السّموّ"، وهو العلوّ، ولكلّ فريقٍ حجّتُه[2]، ولستُ أزعمُ أنّ ثمّ لَبساً فيما أنا خائضٌ فيه، ولكنْ، ثمّ بونٌ معنويّ مردّه إلى تباينِ وجهِ القولِ على الأصلِ الاشتقاقيّ الذي تنتسبُ إليه الكلمةُ "الاسم".

وقد رُوي "أنّ قوماً مِن العرب أتَوْا رسولَ الله– صلّى الله عليه وسلّم– فقال لهم:"**مَن أنتم؟ فقالوا: نحن بنوغيّان، فقال لهم : بل أنتم بنو رَشدان**"[3]؛ ذلك أنّ

---

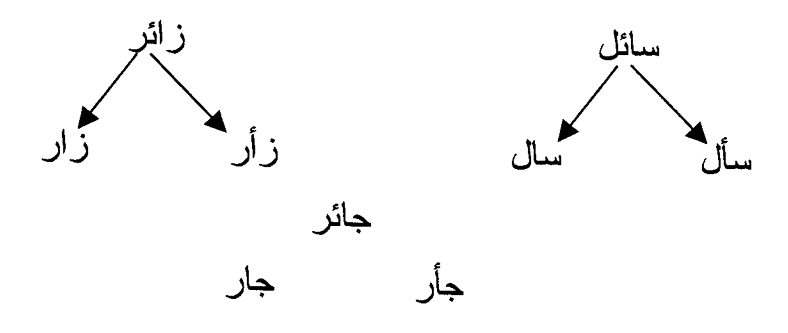
(١) انظر : في مطلب الحديث عن اللبس الآتي من العجمة: حلمي خليل – العربية والغموض: دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٨٨م، ١٧٩–١٨٧.

(٢) انظر : ابن الأنباريّ – الإنصاف، ٦/١

(٣) ابن جنيّ – المنصف، ١٣٤/١. وقد ذكره في الخصائص، ٢٥١/١.

الرسولَ -صلّى الله عليه وسلّم- تكرّه لهم هذا الاسمَ، ذاهباً إلى أنّه مشتقّ مِن الغيّ، ولم يأخذه مِن الغَيْن، وهي السّحاب(١).

وإذا ما اعتاصتْ كلمةٌ ما في معناها على دارسِ العربيّة فإنّه يعودُ إلى المعجم لرفعِ هذا الاعتياصِ، ولكنّه قبلَ ذلك يعمل على تجريدِ الكلمةِ ليعيّن الأصلَ الاشتقاقيّ المُسمّى بالمادّة، وقد يحدثُ أحياناً أنْ تتمظهر كلمتان في ثوبٍ ظاهريٍّ متماثِل مُلبسٍ يعوزُه مزيدٌ مِن الكشفِ والتّنقيرِ، ومِن ذلك "السّائل" و"الجائر" و"الزّائر"، والظّاهر أنّ كلّ كلمةٍ ممّا تقدّم آنفاً تنتسب إلى أصلٍ ثلاثيّ معتلّ العينِ، أو مهموزِها، ونواميسُ اللّغة تقتضي عندَ تفريغ هذه المادّة في قالَبِ اسمِ الفاعل أنْ يستويَ الأصلان في هيئةٍ واحدةٍ، مع وجود بَونٍ بينهما عريضٍ، ويبقى هذا النّاموس اللّغويّ النّافذُ مَدخلاً يفضي إلى الولوجِ في مزالقِ اللّبس في مواضعَ:



جائر

جأر جار

ولو أنّه قيل:

" وقع السّائل على الأرضِ"

لتعيّن مِن هذه الصّيغة المحتمِلةِ معنيان يفيىء كلٌّ منهما إلى أصلٍ اشتقاقيّ ممتازٍ عن الآخرِ، فقدْ يكون "السّائل" صاحبَ المسألة، ويَصْدق عليه قولُه- تنزّه- ﴿ **وأمّا السّائل فلا تنهر**﴾(٢)، وقد يكونُ ممّا هو كالماءِ أو الحبرِ أو الوقود. ومِن مثل ما تقدّم:

---

(١) انظر : ابن عصفور – الممتع، ١٧٢.

(٢) الآية (الضحى، ١٠).

" ما بال هذا الجائر"

ولا يخفَى أنّ كلمةَ "جائر" ترتدّ إلى أصلَين متغايرين، فينبني على هذا التّغايرِ تباينٌ في المعنى؛ فقد يكونُ المتعيِّن الجائر مِن "جار"، وقد يكون مِن "جأر".

وعلى صعيدِ صرفيٍّ آخرَ، قد يحدث أنْ يوجَد أصلان اشتقاقيّان يتوسّطُ أحدَهما واو، وثانيَهما ياء، فيلتقيا على هيئةٍ واحدةٍ متماثلة عند صوغِ الفعل الماضي، ومِن ذلك: **ضـــــاع - قـــــال - صـــــار**"

فالفعلُ الأوّل ممّا يحلقُ بركبِ الأضّداد؛ ذلك أنّه يقال: ضاعَ الرّجل إذا غاب وفُقِد، و"ضاع" إذا ظهر وتبيّن[1]، ومردّ ذلك إلى البِنيةِ العميقةِ التي تفيئ إليها هذه البنيةُ السّطحيّة؛ ولو أنّ قائلاً قال:

" ضاع المسكُ"

لكان كلامُه محتمِلاً متردِّداً بين معنيين، أولّهما أنّ المسكَ اختفى وفُقِد. وثانيهما أنّ رائحتَه ظهرتْ وتبيّنت، ولا يخفى أنّ مردّ اللّبسِ هذا إلى اختلافِ الأصلِ الاشتقاقيّ للفعلين المتّفقَين في المبنى، والمفترقَين في المعنى، فالفعل في الجملةِ الأولى يرتدّ إلى الأصلِ الاشتقاقيّ: "ضيع:ضاع: يضيع". أمّا في المعنى الثّاني فهو مشتقّ مِن: "ضوع:ضاع: يضوع".

ومِن مثْلِ ما تقدّم قولُ القائل:

"يعجبني هذا القائلُ"

ولعلّه يستقيمُ أنْ توصَف هذه الأمثلةُ بأنّها ضربٌ مِن المشترَك اللّفظيّ، ولكنّ التّنقيرعن علّةِ العلّة يفضي إلى استشرافِ باعثٍ آخرَ، وهو موضوعُ هذه المباحثةِ الجزئيّةِ، فقدْ يكونُ "القائل" مشتقّاً مِن: "قول: قال: يقول"، أو مِن: "قيل: قال: يقيل"، ومِنه قولُه –تنزّه– في التّنزيلِ العزيزِ:

---

(١) انظر : ابن الأنباريّ – الأضداد، ٢٨٩

﴿ وكم مِن قريةٍ أهلكناها فجاءها بأسُنا بياتا أو هم قائلون﴾[1] أي: مِن القائلةِ نصفَ النّهارِ[2].

والفعلُ "صار" صيغةٌ سطحيّة لها بنيتان عميقتان، فقدْ يكون الأصلُ الاشتقاقيّ "صور: صار: يصور"، المعنى يميلُ ويعطف، أو "صير: صار: يصير"، والمعنى الكلّيّ التّحول[3].

والظّاهر أنّ هذا الذي تقدّم مِن حديثٍ عن "الأصلِ الاشتقاقيّ" أمرٌ واقع في جبِلّة اللّغةِ، ولذا يستقيمُ أنْ يُقال إنّ اللّبسَ قد يتولّد مِن اللّغة في ذاتِها، وبمُكنة مَن أراد التّعمية والإلباسَ أنْ يستعينَ بهذه المواضعِ وفاءً لِما يصدرُ عنه، فيغدو لسان حالِه كقولِ المُلْغز:

وغلامٍ رأيته صارَ كلباً ثمّ مِن بعد ذاك صارَ غزالاً

ولعلّ مقصدَ الملغِز الأوّل الإبهامُ؛ إيهامٌ على السّامعِ بهذا المعنى القريبِ الذي يَرِد على الخاطرِ، وهو التّحول والصّيرورة، وليس ذلك كذلك، وإنّما المعنى: عطفَ وأمال[4].

٢- العوارض التّصريفيّة:

وإذا ما مضى الباحثُ في تلمُّس النّواميسِ التي تفعلُ في تشكيلِ أبنيةِ الكلمِ فإنّه سيجدُ أنّ للعوارضِ التّصريفيّةِ يداً في اجتماع قالَبين على مبنى واحدٍ، وافتراقِهما في المعنى، ومِن ذلك ما يَرِد على أهل اللّغة ممّا هو مِن قِبَل "مرتَدّ"، ولا يخفى أنّه يلتقي على هذه الصّيغةِ معنيان متضادّان، أحدُهما اسم الفاعلِ، وثانيهما

---

(١) الآية (الأعراف، ٤).

(٢) انظر : ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٧٨م، ١٦٥. ابن عُزيز السجستاني – نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، تحقيق يوسف المرعشلي، ط١، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٩٠م، ٣٣٦.

(٣) انظر : ابن منظور – اللسان، مادة " صير".

(٤) انظر : ابن رشيق – العمدة، ٣٠٣/١.

اسم المفعولِ، وعلّة ذلك أنّها تنتسب إلى أصلٍ عينُه ولامُه متماثلان؛ وذلك نحو: "عدّ"، و"شدّ" و"سنّ"، ولمّا كانت القاعدةُ العريضةُ لصوغِ اسم الفاعلِ مِن غيرِ الثّلاثي مؤدّاها ضمّ أوّله، وكسرُ ما قبل آخره، تعيّن أنْ يكونَ اسم الفاعلِ في بنيته العميقةِ: "مُرتَدِد"، وتعيّن أنْ يقفَ وجاهَه اسم المفعولِ الذي هو "مُرْتَدَد"، ولكنّ النّواميسَ التي يُحتكَم إليها في تشكيلِ أبنيةِ الكلم تأبي هذا؛ ذلك أنّه يُستثقَل الجمعُ بين صوتَين مِن جنسٍ واحد، "فأسكنوا الدّال الأولى، وأدغموها في التي بعدها"، فتشكّلتْ صيغةٌ واحدة يقعُ تحتها معنيان متضادّان. إنّ مردّ ذلك إلى الإدغامِ[1].

لنَرْجع النّظرَ في الجملِ الآتية:

١- لا بدّ مِن معاقبة المرتدّ عقاباً أليماً.

٢- علمــــت بــــأنّ المقتــصّ منـــه مظلوم.

٣- هـــــذا المعلّــم صاحـــــب نظـــــر مُمْتَدّ.

٤- إنّ المحــتــــلّ لا يهـــــدأ لــــه بـــــال.

لعلّ السّياق البنيويّ في الجملةِ الأولى يوحي إلى الخاطرِ ترجيحاً مفادُه أنّ المعنى المتعيّن مِن "المرتدّ" هو اسم الفاعلِ، وهو كذلك حقّاً، أمّا الجملة الثّانيةُ فلا لَبسَ فيها ولا احتمال، ولا يُنسَى فضلُ الجارّ والمجرور في تعيينِ معنى اسم المفعولِ. أمّا الجملةُ الثّالثة فهي محتمِلة؛ فقد يكون المتعيّن أنّ المعلِّم ذو معرفةٍ ونظر "مُمتدِد"، أو"مُتَدَد"؛ أي ممدود. والجملةُ الرّابعة كما الثّالثة؛ ذلك أنّ "المحتلّ" صيغةٌ متردِّدة بين المعنيين معاً.

ومِن مِثْل ما تقدّم ما يحدثُ عند تشكيلِ اسم الفاعلِ والمفعولِ مِن الفعل "ازداد" ونحوِه، فبالعَود على القاعدةِ العريضةِ التي يُحتكَم إليها في تشكيلِ اسمِ الفاعل مِن غيرِ الثّلاثيّ، نجد أنّ "المُدّكَر" اسم مفعولٍ، و"المُدّكِر" اسم فاعلٍ، وأنّ "المُزداد" تتردّد بين ذَيْنك المعنيين؛ إذْ إنّها ترتدّ إلى بنيتين عميقتَين، وهما مُزدَيَد"

---

(١) يقول ابن الأنباريّ: " واستوى اللفظان من أجل الإدغام" انظر : الأضداد ، ٤١٠.

و"مُزدَيِد"، وعلّة ذلك أنّ النّواميسَ التي تفعل في تشكيلِ أبنيةِ الكلم تقتضي أنْ يستويَ هذان اللّفظان "مُزدَيِد" و"مزدَيَد" لاعتلالِ الياءِ في لَبوس كلمةٍ واحدة[1] ، ولذا تُقلَب الياءُ ألفا ليُعْقِب هذا القلبُ الآتي مِن الإعلالِ اشتباهاً في صيغتَين متّفقتين في المبنى، ومفترقتَين في المعنى:

١- أمرَ المختار أهل القرية بالتّكافل.

٢- شرع العقيد المختار باختيار الجنود.

٣- أيها المنتابُ عن عفرِه   لستَ من ليلي ولا سمرِه[2].

٤- ما أشدّ ألمَ هذا المُنتاب.

إخال أنّ السّياقَ البنيويّ، وما تعارف عليه أهلُ البيئة الكلاميّةِ، يُفضيان إلى الاعتقادِ بأنّ المتعيّن مِن "المختار" هو اسم المفعولِ في الجملةِ الأولى. أمّا "المختار" الثّاني فهو مُشتبِهٌ بين المعنيين، فقدْ يكون المتعيّن أنّه هو الذي يَختار مِن الجنودِ مَن أراد، وقدْ يكونُ الأمر بالضدّ، فهو العَقيد الذي اختاره مَن هو أعلى مِنه. أمّا المثال الثّالثُ، فالمتعيّن مِن المُنتابِ ظاهر؛ ذلك أنّ سياقَ القصيدةِ يشي بذلك، وهو اسم الفاعلِ. أمّا في الجملةِ الرّابعةِ فالدّلالة محتمِلة، فقدْ يكون معناها الكلّيّ التعجّب مِن شدّة الألمِ الذي يقاسيه مَن وُضِع في معرِضِ انتيابٍ، وقد يكون التعجّبُ باعثه الألمُ المتحصّل ممّن صنعتُه الانتياب والتّجريح.

عَوداً على نواميسِ تشكيلِ أبنية الكلم؛ فقد تؤْذِن باشتباهِ القوالب المسبوكةِ على وزنِ "يفاعل" ممّا عينه ولامُه متماثلان، ومِن ذلك: "يُشادّ" و"يُضارّ" و"يُحاجّ"، ولو أنّه قيل:"يُقاتَل" لكان اسمُ الفاعل "مقاتِلاً"، واسم المفعول "مقاتَلاً"، والفعلُ المبنيّ للمجهول "يُقاتَل"، ولكنّ إدغامَ الصّوتين الأخيرَين يؤذنُ بتعذّر ظهورِ الصائتِ الذي نحتكم إليه في تعيينِ معنى القالَبِ، فلو أنّه قيل: "يُشادّ" لكان الفعلُ متردّداً بين المبنيّ

---

(١) انظر : ابن الأنباريّ – الأضداد، ٤١٠.

(٢) الشعر لأبي نواس، انظر : ديوانه: دار صادر ، دار بيروت ١٩٦٢، ٣٠٨.

للمعلومِ والمبنيّ للمجهولِ، وكذلك "يُحاجّ" و "يضارّ" وأضرابهما، ولو أنّه عُدِل إلى نواميسِ التّشكيلِ؛ تشكيلِ اسم الفاعلِ والمفعولِ، لاستبهمتْ الصّيغة المتشكّلةُ فغدتْ متردِّدة بين المعنيين، ومِن ذلك "المشادّ"، وهي ترتدّ إلى بِنيتَين عميقتين هما: "المُشادَد" و "المُشادِد"، وعلّة خفاءِ هذه العلامةِ الفارقةِ هي العلّة التي تقدّم ذكرُها آنفاً؛ إذ إنّ إدغام الصامتَين المتماثلين يفضي إلى توحُّدِ صيغتَي المبنيّ للمعلوم والمبنيّ للمجهولِ في صيغةٍ واحدةٍ، وكذلك الحال في اسمِ الفاعلِ واسمِ المفعولِ:

١- سلطان هذا المُحاجّ واهٍ.

٢- لا أرضى لأحد أن يُشادّ.

كلتا الجملتين ملبسة، فالأولى تحتمل أنْ يكون المُحاجّ اسم فاعلٍ، أو اسم مفعول، والثّانية تتردّد بين كون الفعل "يشادّ" مبنيّاً للمعلوم "يشادِد"، ومبنيّاً للمجهول "يُشادَد".

ومِن العوارض التّصريفيّةِ التي تؤذِن باشتباهِ الكلم وتداخلِه عارضُ الجمع، كأنْ تستويَ كلمتان ظاهريّاً، ولكنّ إحداهما جمع، وأخراهما مصدر، ومِن ذلك قولُنا: "ظهور"، فهي مصدر "ظهر"، وهي جمع "ظَهْر"، والذي أذِن بهذا التّداخل الملبِس هو العارضُ التّصريفيّ "الجمع"، ومثلها "الشّباب" المحتمِلة للمصدر والجمع، أعني جمع "شابّ"، وكذلك "الخِصام"، فهي مصدر "خاصم" مخاصمة وخِصاماً، وهي جمع "خصيم"، ككريم وكرِام، و"النُّذُر" جمع نذير، وهي بمعنى الإنذار[1].

١- ينبغي لشباب اليوم أن يكونوا على وعي بقضايا السلام.

٢- ما أجملَ أيام الشباب.

٣- " أو مَن يُنَشّأ في الحِلية وهو في الخِصام غير مبين"[2].

يظهر مِن الجملة المبتدَأ بها أنّ "الشّباب" جمع لا مصدرّ؛ ذلك أنّ ورود ضمير جمعٍ عائد عليهم يعمل على رفع الاشتباهِ، وهنا تتجلّى قيمة السّياق البِنيويّ

---

(١) انظر : ابن منظور – اللسان، مادة " نذر".

(٢)الآية (الزخرف، ١٨).

في تحديد كثيرٍ ممّا يشتبه، ولكنّ الثّانية ملبسة حقّاً؛ إذ "الشباب" مترَدّدة بين معنى "الجمع" و"المصدر"، والحقّ أنّ هذا اللّبْس قد يتجلّى حتّى مع توافرِ سياق جملّيّ، بلْ حتّى مع توافر سياق الحالِ.

أمّا قولُه –تنزّه– ".. وهو في الخِصام" فهو محتمِل احتمالَ ما تقدّم[1]، ولا يخفى أنّ ثمّ بوناً بين المعنيين جليّاً ينبني على هذا التّباين في المشترك الصّرفيّ.

وممّا ينضاف إلى العَوارض التّصريفيّة حذف التّاء المفضي إلى تردّد الفعلِ بين المضيّ والمضارعةِ؛ وذلك نحو "تَلَظّى"، و"تَمَنّى"، و"تَغيّظ"، وهذه–فيما يبدو من نظر بَرّانيّ خاطف– أفعالٌ ماضية، وقد تكون مضارعة، والتّاء محذوفة، والمعنى: "تتلظّى"، و"تتمنّى"، و "تتغيّظ"، والحقّ أنّ السّياق البنيويّ كفيل أمينٌ لرفع هذا الاشتباهِ، ولكنّه يُقصّر أحياناً، فيعقب هذا التّقصيرَ اشتباه ولبسٌ محتمِلان:

١– علمتُ بأنكم تَمنّوْن الظفر.

٢– " فأنذرتكم ناراً تلظّى"[2].

٣– تَلظّى النار

٤– طربت إذ سمعت هديل حمامتين تَجاوبان.

٥– " فإنْ تَولوا فإنّ الله عليم بالمفسدين"[3].

٦– تمنّى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر[4]

يظهرُ مِن الجملة الأولى أنّ التّاء حُذفت، والتّقدير "تتمنّوْن"، وليس يستقيم إلاّ هذا الوجه؛ ذلك أنّ السّياق البنيويّ هو المقرّر والمحتكَم، و"تمنّون" تدلّ دلالة صريحةً على أنّها فعل مضارع اطُّرحت تاؤه. والآيةُ الكريمة في المثال الثّاني

---

(١) انظر : ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٣٩٧، وقد أشار ابن الأنباريّ في موضع آخر، وهو قوله: " وهو ألدّ الخصام" إلى هذين المعنيين. انظر : البيان، ١٤٨/١.

(٢) الآية (الليل ، ١٤)

(٣) الآية: (آل عمران ، ٦٣).

(٤) الشعر للبيد بن ربيعة ، انظر : ديوانه، تحقيق إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت١٩٦٢، ٢١٣.

كذلك، والمعنى "تتلظّى"، وليس يصحّ في الفهم أنْ يكون الفعل –في مظهرِه الخارجيّ– ماضياً، وإلاّ لقيل "تلظّتْ"، لأنّ التّأنيث مع المجازيّ واجب إذا كان ضميراً متّصلاً[1]، أمّا الثّالثة فالفعل متردّد بين الزّمنين وإنْ كانت هيئته مرشّحة لأنْ يكون في المضيّ، وقد حُذِفت تاء التّأنيث من آخره لمجازيّة التّأنيث[2]؛ وذلك نحو قولِنا: طلع الشّمس، وقد يكون فعلاً مضارعاً حُذفت تاؤه، والمعنى: "تتلظّى النّار". أمّا الرّابعة فالسّياق البِنيويّ كفيل بتعيينِ زمن الفعلِ، وهو "تتجاوبان". أمّا قولـــه –تبارك–:"فإنْ تولّوْا .." فهو ذو دلالةٍ صريحةٍ على ما أنا خائض فيه مِن الاحتمال وتعدّدِ المعاني؛ ذلك أنّ "تَولّوا" قد يكون ماضياً، وبهذا يتقرّر أنْ لا شيءَ محذوف البتّة، وقد يكون مضارعاً، فيتقرّر أنّ ثمّ تاءً محذوفة من أوّله، والمعنى: "فإن تَتولَوْا[3]. أمّا قولُه: "تَمنّى ابنتاي" ففيه خلاف، فإذا ما قُدِّر الفعل مضارعاً، أي: "تتمنّى"، فلا ضرورةَ فيه، وإذا ما كان بالضّدّ ففيه ضرورة[4].

٣- اشتباه الصّفة بالعلمِ ، والمصدرِ بالاسمِ:

وعلى صعيدٍ صرفيّ آخرَ، قد يحدث أنْ يقع اشتباهٌ باعثه تداخلٌ بين الصّفة والعلمِ، والمصدر والاسم، ولعلّ العلّة الرئيسةَ أنّ المشتقّات كالصّفةِ المشبَّهة وصيغةِ المبالغة واسمِ الفاعل واسم المفعولِ قدْ تخرج مِن دائرة الوصفيّةِ إلى دائرة العَلَميّة، ومِن ذلك "حَسَن"، و"ماهر"، و"كريم"، و"ناصر"، و"خالد"، و" فاطمة"، وممّا ورد عليّ في هذا المضمار أنّ أستاذاً لنا كلّف أحدنا النّظر في مسألةٍ لغويّة، فاستعان الزّميل بكتاب حقّقه "السّيّد أحمد صقر"، ولمّا ساءله الأستاذ فيما كَتَب ذَكَر أنّه أفاد

---

(١) انظر : ابن هشام – المغني، ٧٤١/٢.

(٢) يمثّل ابن هشام على هذا بقوله : تجلى الشمس. انظر – المغني، ٧٤١/٢.

(٣) انظر : النحاس – إعراب القرآن، ٣٨٣/١، العكبريّ –التبيان ٢٦٨/١، وقد ضعف العكبريّ كونه مستقبلاً لأن حرف المضارعة لا يحذف، وهذا وَهَم صريح ردّ عليه ابن هشام، والأمثلة المتقدمة تفنّد رأي العكبريّ. انظر : ابن هشام – المصدر نفسه، ٨٠٨/٢.

(٤) انظر : ابن هشام– شرح شذور الذهب، تحقيق عبدالغني الدقر، ط٢، الدار المتحدة، دمشق، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٤، ٢٢١.

مِن كتاب حقّقه "أحمد صقر"، فأنغض الأستاذ رأسَه، مستنكِراً عليه قولَه قائلاً: هو"السيّد أحمد..، فعقّب الزّميل باعتذارٍ وفضل بيانٍ مضمونهما أنّه يتجافى عن ذكرِ الألقاب العلميّةِ والاجتماعيّة في التّوثيقِ والدّرس؛ فارتسمتْ بسمة على وجهِ ذلك الأستاذ إذْ علم أنّ الزّميل لم يقتنص مرادَه، ولم يُرفَع ذلك اللّبس إلاّ لمّا قال الأستاذ إنّ كلمة "السيد" اسمه الأوّل، وليست لقباً يتقدّم اسمَه.

ومن مثْل ما تقدّم:

١- كان السّائق ماهراً

٢- هذا حسنٌ.

٣- وقد علمت بأنّه خالدٌ.

٤- إليك يا ناصرَ الدّين.

٥- مررت بمدرستي الحميدةِ.

أحسب أنّ هذه الأمثلةَ المصنوعة تدلّ على موضعٍ مرشّحٍ للولوج في مزالقِ اللّبس، ففي الجملة الأخيرةِ قدْ يكون القائل مشغوفاً بمدرسته، ممجِّداً لها، فتنتقلُ مكنونات النّفس هذه إلى جلّيات الألفاظِ، فتكون الحَميدة صفةً أسبغها الطّالب على مدرستِه لا اسماً يتلبّسها. وفي سياقٍ آخرَ قد يكون للقائلِ مدرسةٌ اسمها الحميدة، وقدْ مرّ بها دون أن يَعوج أو يسلّم أو يمجّد، فكانت جملتُه إخباراً ليس غير. وكذلك الحال في الجملةِ السّادسة، فقدْ يكون "ناصر الدّين" لقباً يتلبّس به صاحبُه، أو يُضفَى عليه، وقدْ يكون اسماً حقيقيّاً كمحمّد أو أحمدَ.

أمّا التّداخل الواقعُ بين الاسمِ والمصدر فمِن أمثلتهِ:

١- هاتِ الخيلَ والرّباط

٢- هذا رباطٌ جيد

٣- قضيت إجازة الفصل الصيفيّ على شاطئ حيفا.

٤- ما أقبح هذا الفصلَ!.

"الرّباط" كلمة متردّدةٌ بين معنَيين صرفيّين، وهما المصدر المأخوذُ مِن "رابط رباطًا ومرابطة" والاسم، والسّياقُ في الجملةِ الأولى يرجِّح كونها اسماً لِما يُربَط به كالحِزام. أمّا في الجملةِ الثّانية فدِلالة هذه الكلمةِ مفتوحةٌ على المعنيين الصّرفيّين. والجملة الثّالثة تقتضي أنْ يكون "الفَصل" اسماً لِما تُعورف عليه مِن فصول الدّراسةِ الجامعيّة. أمّا الجملة الرّابعةُ فالفصل متردّد بين المصدرِ والاسم، فقد يكون فَصلاً دراسيّاً، أو فصْلاً مِن كتاب، وقدْ يكون مصدراً كالضّرب والقتلِ والقطع.

٤- اشتباهٌ في بعضِ الفصائل النّحويّةِ:

وقد يحدثُ أنْ يُعطِّل القولُ بفضل الفصائلِ النّحويّة في إقامةِ الفروق الدّلاليّة، كأنْ توجَد كلمةٌ تصلح للخطابِ والغَيبة معاً، أو التّذكير والتّأنيث، وقد يحدث اشتباهٌ في العددِ المتعيّن، والحقّ أنّ السّياق البِنيويّ يعمل على رفعِ جلّ مظاهرِ الاحتمالِ الآتيةِ مِن هذا الباب، ولكنْ، قد يعرض على أبناءِ اللّغة شيء منه؛ ومن ذلك قولنا: "تَحمِل"، فهي صيغةٌ متردّدة بين التّذكير والتّأنيثِ، والخطاب والغَيبة، والسّياق هو المحتكَم، فلو قيل:

هـــي تحمل

أنت تحمل

لبدتْ "تحمل" في الأولى للغَيبة والتّأنيثِ، وفي الثّانية للخطابِ والتّذكير. ومِن مثْلِ ما تقدّم: "سَمِعْتُما"، وما جرى مَجراها؛ إذ إنّها دالّة على استيعابِ الجنسين؛ التّذكيرِ والتّأنيث، فقدْ تكون لمخاطَبَيْن، أو لمخاطَبتَيْن، ومثلُها "تَسْمعان" وما يجري مجراها، ففيها يتوحّد الجنسان، فقد تكون لمخاطَبين أو لمخاطَبتين، وقد تكون للمؤنّث في غَيبته: "هما تَسمعان" . و"سمعنا" يتوحّد فيها العدد، فلا يكادُ يظهر إلاّ في السّياق؛ ذلك أنّها مشتمِلة على الاثنين والجميعِ. لنرْجِع النّظر فيما يأتي:

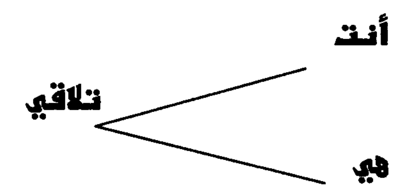
١- ذات يوم ذهبنا لنلعب كرة القدم

٢- سمعتكما وأنتما تنشدان.

٣- لن تذهب حتى تلاقي محمداً

٤- ليس ثمّ بدّ من أن تكلّم أبناءها.

لو أنّ سامعاً ورد على الجملةِ الأولى، وهي مجرَّدة مِن سياقها لبدا له أنّها مُلبسة في دِلالتِها على العدد، فقد يكون الفعل للاثنين، وقدْ يكونُ للجميع، أمّا الجملة الثّانية فهي محتمِلة ملبِسة في الإبانةِ عن الجنس، فقدْ يكون مذكّراً، وقد يكونُ مؤنّثاً. أمّا الجملةُ الثّالثة فالفعلُ "تلاقي" ملبِس أيضاً؛ ذلك أنّه متردّد بين الدّلالةِ على الخطابِ والتّذكير، أو الغيبة والتّأنيث، ولست أرى أنّ اللَّبْس آتٍ مِن مرجع الضّمير المستتر في هذا اللّبس الصّرفيّ النّحويّ؛ ذلك أنّ الصّيغة نفسَها محتمِلة مشترَكة بين ذَيْنِك المعنيين، فنحن نقولُ:



ولمّا كانت الصّيغة مشترَكة بين الخطاب والغَيبةِ، والتّذكير والتّأنيث أذِن هذا بتباين وجه القولِ على مرجع الضّميرِ، فليس السّبب ناشئاً مِن توهّم مرجع الضّميرِ، بل هذا الأخير ناشئ عن العلّةِ الأولى. ونظير ما تقدّم الجملة الرّابعة، فالفعلُ فيها "تُكلّم" متردّد بين الخطابِ والتّذكير، والغيبةِ والتّأنيث، وكلاهما متقبَّل في سياقِ الجملة. ومِن أمثلة ما تقدّم قولُه -تنزّه-: **﴿وألقِ ما في يمينِك تلقفْ ما صنعوا﴾**[1] ، فالفعلُ "تَلْقف" محتمِل لمعنيين صرفيّين متضادّين، أوّلهما الخطاب

(١) الآية (طه ، ٦٩)

والتّذكيرُ، وبهذا يكون الفاعل "موسى" عليه السّلام، وثانيهما: الغَيبة والتّأنيث، وعلى هذا التّقدير تكونُ العصا فاعلاً[1]. وكذلك قول الفرزدق:

يداك يدٌ إحداهما النّيلُ كلّه ... وراحتُك الأخرى طِعان تُغامِرُه

موضعُ التّأمّل في هذا البيت قولُه:"تغامره"؛ ذلك أنّ هذا الفعلَ صالح لأنْ يدلّ على الخطابِ والتّذكير: أنت تغامره، وصالح -مِن وجهة أخرى- لأنْ يدلّ على التّأنيثِ والغيبة: هي تغامره[2] ، ولو أنّ نواميسَ تشكيل الأبنيةِ والقوالب اجترحتْ لنا صيغةً تدلّ على المؤنّثِ الغائب، وصيغةً أخرى ممتازةً عن الأولى تدلّ على المخاطَب الحاضرِ لكان هذا الكلامُ منسوخاً، ولَمَا وقع هذا اللّبس.

٥- في معِاني الأفعالِ:

لعلّ أخطرَ ما يَرِد على ابن العربيّة مِن لَبس في هذه المباحثةِ شيئان: أوّلهما أنْ يكونَ لقالبِ الفعل معنيان أو معانٍ متضادّة، فيغدو القالَب التّصريفيّ الذي نُنْزل فيه مِن الموادّ ما شئنا كالجَوْن أو المولى، وثانيهما - وهو متّصل بسابقِه بلُحمةٍ حميمة- أنْ يَسْلب القالبُ التّصريفيّ معنى المادّة المُنْزَلة فيه، فيحدث تنازعٌ في الخاطر بين معنى المادّة المُنْزَلةِ فيه(أعني القالب)، ومعنى القالبِ الذي ينفي هذا المعنى المُنْزَل، فتتخلّق مَظِنّة مرشِّحة لبعثِ اللّبسِ، وقدْ تقدّم قبْلاً أنّ للأفعال معانيَ متعدّدة[3]، والحقّ أنّ اللّبس قد ينشأ مِن هذا التعدّدِ، ولعلّ في المثال الآتي فضلَ بيان يجلّي ما تقدّم:

مِن معاني القالب التّصريفيّ "تفعّل" مطاوعةُ "فعّل"؛ وذلك نحو كسَّرتُه فتكسّر، والحرصُ على الإضافة؛ وذلك نحو تحلّم وتقيّس، وأخذُ جزءٍ بعد جزءٍ،

---

(١) انظر : هذا المعنى: مكي – المشكل ، ٤٦٨/٢، ابن الأنباريّ – البيان، ١٤٨/٢، العكبريّ –التبيان ، ٨٩٦/٢.

(٢) انظر : الفارسيّ – شرح الأبيات ، ٢٢٤، والشعر للفرزدق. انظر : ديوانه، دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٩٦٠، ٧٦/١، والرواية فيه:

يداك يد إحدهما النيل والندى ... وراحتها الأخرى طعان تعاوره

(٣) انظر ما جاء من حديث عن الإبانة في المستوى الصرفي.

ومنه تَجرّع وتنقّص، والتكثيرُ، كقولنا: تعطّى، والتّركُ، ومنه: "تأثّم" و"تحوّب"، أي تركُ الإثم والحوب[1] ، والملاحظ أنّ ثمّ معنيين متقابلَين يكتنفان القالبَ "تفعّل"، وهما التّرك والإضافةُ، ولو أنّه قيل: **تأثّم الرّجل:** لتردّد السّامع بين معنى تركِ الإثم وإتيانِه، وبذا نقع في تضادّ تصريفيّ مردّه إلى أنّ القالَب "تفعّل" يحتمل معنيين متضادّين، ومثلُها "تحنّث" إذا أتى الحِنث، أو إذا اجتنبه[2]. وقد سمَّى الثّعالبيّ هذه الظّاهرةَ بمخالفة الألفاظِ للمعاني[3]، وهي كذلك حقّاً، ومِنها "تنجّس"، وهي محتمِلة للمعنيين: معنى إتيانِ النّجاسة، ومعنى التّجافي عنها، ومِنها "تصدّق"، فقد يُقال: تصدّق الرّجلُ إذا أعطى، وتصدّق إذا سأل، وأحسب أنّ هذا التّضادّ التّصريفيّ هو الذي أفضى بابن قتيبةَ إلى إنكارِ قولِ مَن يقول: تصدّق إذا سأل[4]، وأنّ استشرافَ ابن السِّيد البطليوسيّ لهذين المعنَيين المكتنَفين في هذا القالَب هو الذي أفضى به إلى تخطئةِ ابنِ قتيبة والردّ عليه[5]، "فالاشتقاقُ أيضاً يوجِب أنْ يكونَ جائزاً، لأنّ العرب تستعمل "تفعّلت" في الشّيءِ الذي يؤخَذ جزءاً بعد جزءٍ، فيقولون: تَحسّيت المَرق، وتجرّعْت الماءَ، فيكون معنى تَصدّقت: التمست الصّدقة شيئاً بعد شيء"[6].

والقالَب التّصريفيّ "أفعل" له معانٍ متعدّدة، ومِن ذلك أنّه يدلّ على التّعدية؛ وذلك نحو "أجلسته"، والتّعريضِ، ومِنه "أبَعْته" و"أقْتَلته"، والاستحقاقِ ومِنه "أَحْصَد

---

(١) انظر : معاني "تفعّل" ابن قتيبة – أدب الكاتب، ٣٠٤- ٣٠٥، ابن السراج – الأصول ، ٣/١٢٢ ابن فارس – الصاحبيّ، ٢٢٦، الأستراباذي – شرح الشافية، ١/١٠٤، ابن عصفور – الممتع ، ١٢٦ السيوطي – الهمع، ٣/ ٢٦٧-٢٦٨، الحملاوي – الشذا، ٤٣.

(٢) يعد ابن الأنباريّ هاتين الكلمتين " تحنث وتأثم" من الأضداد. انظر الأضداد ١٦٩، ١٨٠ .

(٣) انظر : الثعالبيّ – فقه اللغة وسر العربية ، ٣١٨.

(٤) انظر : ابن قتيبة – أدب الكاتب، ٢٧ .

(٥) ابن السيد البطليوسي– الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م، ٢/١٥.

(٦) انظر : المصدر نفسه، ٢/١٦.

الزّرع"، والوجود؛ وذلك نحو "أَحْمَدته"، أي وجدته محموداً[1]، والظّاهر أنّ هذه المعانيَ تتداخل تداخلاً يفضي إلى توهّم معنى القالَب التّصريفيّ، ومِن ذلك "أشكيْتُ الرّجل" إذا أزلت شكواه، أو إذا أحوجته إلى الشّكايةِ، و"أفزعت القومَ" إذا أحللتُ بهم الفزع، أو إذا أحوجتُهم إلى الفزعِ، و"أودعت فلاناً مالاً": دفعته إليه وديعةً، وأودعتُه قبلتُ وديعتَه[2]. ولا ينُسَى أنّ مِن معاني "أفعل" الوجودَ والإصابة، فإذا قيل: " **وعدني الرّجل فأخلفته**" فإنّ هذا القالَب "أخلفته" متردّدٌ بين معنيين متضادّين؛ أوّلهما: وجدتُه مُخْلِفا، وهذه هي الإصابةُ، وثانيهما أنّني أنا الذي لم يفِ بالوعد. وقدْ قال الشّاعر:

أثوى وقصّر ليلةً لِيُزَوَّدا فمضتْ وأخلفَ مِن قتيلةَ موعِداً

ولعلّ مرادَ الشّاعر المتعيّنَ مِن القالب "أخلف" أنّه صادف وعدها خُلْفاً[3].

ومِن مثل ما تقدّم:

١- جـــاء الـــرّجلُ قومـــه <u>فأضـــلّهم</u>

٢-أتيـــــــت الأرض <u>فأحييـــــــتُها</u>

٣-ذهبـــت إلـــى البيـــت <u>فأخليـــتُه</u>.

إنّ القالَب التّصريفيّ المتكرّرَ في الجملِ المتوالية يحتملُ معنيين، ففي الأول معنى الإصابةِ، أي وجدهم ضُلاّلا، وفي الثّاني التّعريض، أو مِن باب "أفعلته ففعل".

---

(١) انظر : معاني أفعل: سيبويه – الكتاب، ٤/٥٩-٦٢ ابن قتيبة – أدب الكاتب ،٣٠١-٣٠٢، الأستراباذي – شرح الشافية، ٨٣/١، ابن عصفور – الممتع، ١٢٧-١٢٨ السيوطي – الهمع، ٢٦٥/٣، الحملاوي – الشذا، ٤٠.

(٢) انظر : ابن قتيبة– المصدر نفسه، ٢٩٥.

(٣) انظر : المصدر نفسه، ٢٩١، ابن الأنباريّ – الأضداد، ٢٣٤. والشعر للأعشى (ميمون بن قيس) انظر: ديوانه، شرح محمد محمد حسين، ط٧، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣، ٢٧٧.

وكذلك الجملةُ الثّانية والثّالثة، فقدْ يكون المعنى: وجدتُها حيّة، ووجدتُه خالياً، وقدْ يكون كما في الجملةِ الأولى، وممّا وُجِّه وجهةً واحدةً لا احتمالَ فيها:

أتيتُ مع الحدّاث ليلى فلم أُبِن فأخليتُ فاستعجمتُ عندَ خلائي

وقد أراد: وجدتُ الموضع خالياً[1].

وفي هذا المَطلب؛ مطلبِ الحديث عن تعدّد معاني القوالب وتداخلِها، وسلبِ معنى الأصل الاشتقاقيّ، تجدر الإشارةُ إلى أنّ هذه القوالبَ يكتنفُها نفيٌّ ملفَّف غير ظاهرٍ، وهذا باعثٌ مِن بواعث تخلّقِ اللّبس والغموض، فقولنا "تأثّم" يدلّ على أنّه لم يعدْ يجترح الإثم(وهذا أحد معنييه)، ولا ينُسى أنّ ثمّ حروفاً للنّفي، فالعُدول عنها وتضمينُها معنى القالَب مدعاةٌ إلى مزيد لَبس، وقد عرّج ابنُ جني على هذه الإلماحةِ المُعْجِبة في بابِ السّلب، فقد رأى أنّ كلّ فعلٍ أو اسم قد وُضِع لإثباتِ معناه لا سلبِه، "ومِن ذلك قولك: "قام"، فهذا لإثباتِ القيام، "وجلس" لإثباتِ الجلوسِ، وجميع ما كان مثله إنّما هو لإثباتِ هذه المعاني لا لنفيِها، ألا ترى أنّك إذا أردتَ نفيَ شيء فيها ألحقتَه حرفَ النّفي فقلت: ما فعل،...،ثمّ إنّهم مع هذا قد استعملوا ألفاظاً مِن كلامِهم مِن الأفعال ومِن الأسماء الضّامنة لمعانيها في سلبِ تلك المعاني لا إثباتِها، ألا ترى أنّ تصريف "ع ج م" أين وقعتْ في كلامِهم إنّما هو للإبهام وضدّ البيانِ، ثمّ إنّهم قالوا أعجمتُ الكتاب إذا بيّنته وأوضحتُه، فهو إذاً لسلب معنى الاستعجامِ لا إثباته"[2]. ثمّ يمضي ابن جني في عرضِ أمثلةٍ تدلّ على ملْحَظ "السّلب"، ولا يخفى أنّ هذا الملْحَظَ وجةٌ مِن وجوهِ اللّبس الذي يمكنُ أنْ يُوسَم بأنّه آتٍ مِن ضعفِ الصّلة بالأصلِ الاشتقاقيّ.

---

(١) انظر : ابن الأنباريّ- الأضداد، ٢٣٤، وانظر : الجوهري - الصحاح، وهو منسوب إلى عتيّ بن مالك العقيلي، مادة " خلا" ، وابن منظور - اللسان، مادة " خلا" .

(٢)ابن جنيّ- الخصائص ، ٣/٧٧-٧٨.

٦- تناوبُ الصّيَغِ واشتراكُها:

وممّا ينضاف إلى ما تقدّم ملحظُ تناوبِ الصّيَغ واشتراكِها، فإذا ما أنعم المرء النّظرَ في قوالبِ العربيّة واستعمالاتِها فإنّه سيجدها تلحقُ بالمشترك اللّفظيّ كالعينِ التي يقع تحتَها معانٍ، ومردّ ذلك إلى أنّ لكثير مِن القوالب تلك معانيَ متباينة، ومِن ذلك "مَفْعَل"، فهذا قالبٌ يجتمع عليه اسمُ الزّمان واسم المكان والمصدر الميميّ، ولذلك فإنّ "المَقْتَل" لفظ يتردّد بين المحتمِلاتِ المتقدِّم ذكرُها، و"المَفْعِل" قالب يلتقي عليه اسمُ الزّمان والمكانِ والمصدر الميميّ أيضاً، وكلّ قالَب ضُمّ أوّله وفُتِحَ ما قبل آخره(مِن الفعل غير الثلاثي) يلتقي عليه اسمُ الزّمان واسمُ المكان واسمُ المفعول والمصدر، ومِن ذلك "مُقتَتَل"، و"فعيل" قالَب يستوعِب المصدرَ والصّفة المشبّهة وصيغةَ المبالغة، وقد يكون بمعنى اسمِ الفاعل، أو اسمِ المفعول، وقد يتردّدُ بين الاثنين. و"فَعول" يفيد المبالغةَ والصّفة المشبَّهة، وقدْ يكون بمعنى اسمِ الفاعل، واسمِ المفعول، وقد يحتمل المعنيين معاً. و"أفْعَل" يأتي صفةً مشبَّهة، وللتعجّب، والتّفضيل، ويأتي فعلاً. و"فعّال" قدْ يدلّ على المبالغةِ والنّسب والحِرفة. و"فاعِل" يقوم مَقام المصدرِ، واسم المفعولِ، والنّسب، و"مفعول" ينوب مَناب المصدرِ واسم الفاعلِ.

لننظرْ في الأمثلة الآتيةِ بياناً وتمثيلاً لما تقدّم:

١- هذا رجل قدير على اللّجاجة والبيان .

٢- نعمل على تحرير الوطن السّليب.

٣- أسماؤكم عندي في ملفّ حفيظ

٤- كيف يرضى هذا التّبيع الاستعباد.

يتكرّر في هذه الجملةِ القالب التّصريفي "فَعيل"، وهو في الجملةِ الأولى غير محتمِل؛ إذ إنّه جاء صفةً مشبَّهة، والمعنى الكلّيّ قريبٌ مِن اسم الفاعلِ. أمّا في الجملةِ الثّانية فقدْ قام القالَب "السّليب" مقام "المسلوب"، والمعنى أنّه اسمُ مفعول.

أمّا في الثّالثةِ فالأمر مغاير؛ إذْ إنّ هذا القالبَ يتردّد بين معنى اسمِ الفاعل واسم المفعول، وكلاهما متقبَّل، فقدْ يكونُ الملفّ محفوظاً، وقد يكونُ حافظاً للأسماءِ، والأمر كذلك في الجملة الأخيرة؛ إذْ إنّ "التّبيع" تحتمل أنْ يكونَ التّابع، أوْ أن يكونَ المتبوع، وتكون الجملةُ عمادُها التعجّب مِن المتبوع الذي يرضى لغيره المهانةَ والاستعباد، أو التعجّب مِن التّابع الذي هانتْ عليه نفسه فرضي بالذلّ والهوان، وقدْ صدَق ابن الأنباريّ لمّا جعل بعض الكلماتِ التي أُنْزِلت في هذا المُنْزَل "فَعيل" مِن الأضْداد[1].

وعلى صعيد صرفيٍّ آخرَ قد تقوم "فَعيل" مقام " مُفْعِل" و "مُفْعَل"، ومِن ذلك:

١- هذا جرح أليم " مُؤلِم"

٢- محمّد صاحب رأي حكيم " مُحْكَم"

ولكنّ بعضَ الصّيغ قد تتردّد بين هذين المعنيين؛ أعني الفاعليّةَ والمفعوليّة، ومِن ذلك "السّميع" تقال للذي يَسْمع، وقد تقال للذي يُسْمع غيرَه، والمعنى: مُسْمِع[2]، والأمينُ ممّا يقع فيه تضادّ معنويّ، وليس مردّ ذلك إلى الأصلِ الاشتقاقيّ، بلْ مردّه إلى القالَب المحتملِ؛ فإذا ما قيل:" **فلان أميني**" فقدْ يعني أنّه مُؤتَمِني، أو أنّه الذي أتّمنه على أمري[3].

وقالب "فَعول" يفيد معانيَ متعدّدة، والولوجُ في اللَّبس حادث عند اشتمالِه على معنيين متضادّين، وفي الأمثلةِ الآتية بيانٌ:

---

(١) انظر : ابن الأنباريّ – الأضداد، ١٤٢، ٣٧٢.

(٢) انظر : المصدر نفسه، ٨٤، وقد وقف ابن فارس عند قالب " فَعيل" بمعنييه " مُفْعِل" و " مُفْعَل"، انظر : الصاحبيّ، ٢٣٦- ٢٣٧.

(٣) انظر : ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٣٤.

١- إنّ الله غفور رحيم.

٢- ذاك ولد عَجول.

٣- اربأ بنفسِك أن تكون زَجوراً.

٤- لا تصاحب مَن هو فَجوع.

تبدو الجملةُ الأولى جليّةً غير ملتبسة؛ ذلك أنّ غفوراً في سياقِها تدلّ على معنى اسمِ الفاعل، "ورحيماً" -وهي على وزن "فَعيل"- لا تحتمل أنْ تكون بمعنى اسمِ المفعول البتّة، وكذلك الجملة الثّانية. أمّا الثّالثة ففيها احتمالٌ مردّه إلى أنّ القالَب التّصريفيّ يأتي بمعنى اسمِ الفاعلِ واسم المفعول معاً، وقد يكون المتعيِّن منِها نهياً عن أنْ يرضى الإنسانُ لنفسِه أنْ يكون زاجراً منّاعاً للخير. وقدْ يكون الأمر بالضدّ؛ كأنْ يكتنفَها نهيٌ عن أنْ يرتضيَ المرء أن يكونَ مزجوراً ذا هَوان. أمّا الجملة الرّابعةُ فهي محتمِلة احتمالَ سابقتِها؛ فالفَجوع تحتمل اسم الفاعلِ واسم المفعول معاً[١]. وقالب "مَفعَل" تجتمع عليه معانٍ صرفيّة متنوّعة، ومِن ذلك:

١- انتظرتك حتّى مَطلَع الشّمس.

٢- وقالوا لها لا تنكحيه فإنّه   لأوّل سيفٍ أنْ يلاقي مَصرَعا

٣- مَقتَل الرّجل بين فكيّه.

٤- يؤلمني ذلك المَقتَل.

جاء القالب "مَفْعَل" على معانٍ صرفيّةٍ متعدّدة مع توحّد رسمِه، ففي الجملة الأولى يحتمل أنْ تكون دلالتُه المصدرَ الميميّ، والمعنى: انتظرتُك حتّى طلوعِ الشّمس، ويحتمل أيضاً أنْ تكونَ اسم الزّمان. أمّا البيتُ الثّاني فهو ملبِس؛ ذلك أنّ "المَصرَع" يجوزُ أنْ يكون مصدراً، ويجوزُ أنْ يكون اسمَ المكان الذي يُصرَع فيه[٢].

(١) يعد ابن الأنباريّ طائفة من الكلم التي جاءت على وزن فعول من الأضداد، انظر : الأضداد، ٣٥٦-٣٥٧.

(٢) انظر : الفارسيّ – شرح الأبيات ، ٤٥٠، والشعر لتأبط شراً كذا نسبه المحقق.

أمّا الجملةُ الثالثة فهي جليّة لا لبسَ فيها ولا احتمال؛ إذ إنّ السّياق البنيويّ ينبئ عن أنّ "المَقْتَل" ذاك اسمُ مكانٍ، والذي يرشّح لهذا المعنى هو ذكر الفكّين، أمّا الرّابعة فيجوزُ فيها وجهان، الأولُ: المصدرُ الميميّ، والمعنى "القتل"، والثّاني: اسمُ المكان، والمعنى أنّ القائلَ يعتريه ألمٌ في موضعٍ مِن مواضعِ الجسم التي تعدّ مَقاتلَ.

و"المَفْعِلُ" قالب مرشّح لغيرِ معنى صرفيّ، فقد يستوعب اسمَ الزّمانِ والمكان والمصدرَ، وممّا جاء مستوعباً لهذه الوجوه معاً قولُه- تنزّه- في التّنزيل العزيزِ:

﴿ فاجعلْ بينَنا وبينك مَوعِداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوى﴾(١)

فالمَوْعِد في هذا السّياق الشّريفِ مُحتمِل للمصدر، ويعضد هذا قولُه- تنزّه-:"لا نُخْلفه نحن ولا أنت"، ومحتمِل للزّمان، ويعضدُه: "قال موعدكم يوم الزّينة"، ومحتمِل للمكان، ويعضده: "مكاناً سوى"(٢).

وضَمّ الأولِ وفتح ما قبل الآخرِ مِن غير الثّلاثيّ يؤذن بتداخلِ اسم الزّمانِ والمكان والمفعول والمصدرِ كما تقدّم قبلاً، ولا يخفى أنّ هذه النّواميسَ التي يُحْتَكَم إليها في استعمالِ القوالب لدلالاتِها، واشتقاقِ بعضها مِن بعض، تعملُ على خلقِ اللّبس وتعدّد المعاني.

وقالب "أَفْعَل" مشترك صرفيّ، فقدْ يكون صفةً مشبَّهة؛ وذلك نحو: أعمى وأحمق، وقدْ يدلّ على التّفضيل: "محمّد أذكى مِن سعيد". وقدْ يحدثُ اشتباهٌ في تردّده بين هذه المعاني في قالبٍ واحدٍ، ومِن ذلك:

١- "أنا أعلمُ بالجادّ والمتراخي"

٢- "وهو أهونُ عليه"(١)

٣- "الله أكبر".

٤- "إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله"(٢).

---

(١) الآية (طه، ٥٨-٥٩).

(٢) انظر : ابن هشام – المغني، ٧٧٦/٢. وقد رجح العكبريّ كونه مصدراً .انظر : التبيان، ٨٩٣/٢.

وقدْ يكون المُبتغَى من الجملة الأولى تقريراً بعلم القائلِ بالجادّ والمسؤول، وليس المَقصِد أنْ تُعقَد مفاضلةٌ بين اثنين قد اشتركا في صفةٍ واحدة، وقد زاد أحدُهما على الآخر، وليس ثمّ شيء محذوفٌ مِن الجملة، ولعلّ هذا يفضي إلى أنْ يكونَ معنى هذا القالب "أعلم" مؤوّلاً بالصّفة المشبَّهة، أي: أنا عالمٌ بالجادّ والمتراخي، وقدْ يكون المبتغَى المفاضلةَ، وقد اجْتزِئ مِن السّياق البنيويّ، والتّقدير: أنا أعلمُ بالجادّ والمتراخي مِن فلانٍ أو غيري....وقدْ يكون "أعلم" في هذا السّياق فِعلاً مضارعاً مثل "ألعب وأدرس".

أمّا المثال الثّاني، وهو الآيةُ الكريمة، فقد حُمِل معنى القالب "أهون" على أنّه صفةٌ مشبَّهة باسم الفاعلِ، فليس يصحّ في الفهمِ أنْ يكون ثمّ شيءٌ أهونُ عليه مِن شيء تنزّه اسمُه، ولذا يكون المعنى: "وهو هيِّنٌ عليه"[3]. أمّا قولنا: الله أكبرُ فقد يحتمِل المعنيين؛ معنى التّفضيلِ الذي يقتضي أنْ يُشار إلى اجتزاءٍ مِن السّياقِ البنيويّ، أي: هو أكبرُ مِن كلّ شيء، أو أنْ يكون قائماً مَقام الصّفةِ المشبَّهة "كبير"[4]، وإخال أنّ هذا المُحتمَل يتساوق مع المُحتمَلِ الحاصلِ في قوله-تعالى-: "وهو أعلمُ بمن..."؛ ذلك أنّ القالب "أعلم" هنا قد يكونُ على أصلِه في التّفضيل في العلمِ، والمعنى الكلّيّ: هو أعلمُ مِن كلّ أحدٍ، وقد يكونُ بمعنى عالم[5]، والمعنيان يجيئان مَجيئاً صالحاً، ولا يتدافعان، أمّا المعنى المدفوع فهو عَدّ "أعلم" في الآيةِ الكريمة فِعلاً مضارعاً؛ ذلك أنّ السّياق البنيويّ لا يبيح هذا، ولعلّ هذا الذي أنا خائضٌ فيه يفسّر قول المتنبّي:

إبْعَدْ بعدت بياضاً لا بياضَ له   لأنت أسودُ في عيني من الظُلَم

---

(١) الآية (الروم، ٢٧).

(٢)الآية (النجم، ٣٠).

(٣) انظر : أبو عبيده – مجاز القرآن، ١٢١/٢، المبرد – المقتضب، ٢٤٦/٣، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٣٤٠، الأسترابادي – شرح الكافية ، ٥٢٦/٣. ابن يعيش – شرح المفصل، ١٠٣/٦.

(٤) لا يذكر ابن قتيبة إلا الوجه الأخير. انظر : المصدر نفسه، ٣٤١.

(٥) انظر : ابن الأنباريّ – البيان، ٣٩٨/٢- ٣٩٩.

وقدْ خُطّئ في هذا البيتِ؛ ذلك أنّ التّفضيل مُمتنِع في الألوان ممّا هو على وزنِ "أفعل"، والصّحيح أنّ القالب "أسود" في سياقه البنيويّ قد يُحمَل على مَحْمِلٍ آخرَ يُفضي بالمتتبّع اللّغويّ إلى أنْ يتجافى عن التّصويب والتّخطئة؛ إذ إنّه قد يكون صفة، كقولِنا أحمر، وأخضر، وأسود، وتكون "من الظُّلَم" في هذه الحالِ صفة لأسود؛ والمعنى أنت أسودُ كائنٌ مِن الظُّلَم[1]، وليس يصحّ في هذا التّأويل المُعْجِب أنْ تكون "مِن" الحرفَ الذي يلازم التّفضيل، مع اعتقادي بأنّ المعنَيين بعيدان عن الهُجْنةِ المُستقبَحة، واللّحنِ المرذول، ولعلّ الجملةَ المصنوعة الآتية تجلّي ما تقدّم:

هذا ورقٌ أحمرُ مِن الورد

قد يقولُها المتكلّم وهو لا يريد المفاضلةَ، بلْ يقرّر للسّامع بأنّ لون الورقِ الذي هو بيديه أحمر، وأنّه مصنوع مِن الورد، أو هو أحمرُ بسببٍ مِن الورد، وإخال أنّ هذا التّقدير، تقديرَ الصّفة لا التّفضيل يجعلني أتقبّل بيتَ المتنبّي وفي نفسي كثيرٌ مِن الإعجاب، فهو الذي ينام ملء جفونِه عن شواردِها، "ويسهرُ الخلق جرّاها ويختصمُ ".

أمّا قالبُ "فاعل" فهو حمّال لمعانٍ صرفيّة متنوّعة، ومِن ذلك أنّه يأتي اسمَ فاعل، واسمَ مفعول، ومصدراً، وصفة مشبَّهة، وبمعنى النّسبِ، ولا يخفى أنّ التقاءَ هذه المعاني الصّرفيّة على صيغةٍ واحدة متماثلةٍ ممّا يعمل على فرز مواضعِ لَبسٍ محتمِلة، ومن ذلك قولُنا:

١- يوم الحرب يوم فاجر ← مفجور فيه

٢- ماء هذه العين دافق ← مدفوق

٣- ﴿ فهل ترى لهم مِن باقيةٍ﴾[2].

---

(١) انظر : ابن هشام – المغني، ٧٠٣/٢، الشعر للمتنبي، انظر ديوانه، ٣٥/٤ (شرح العكبري).

(٢) الآية: (الحاقة ، ٨)

والمعنى في الآية الشّريفةِ: هل ترى لهم مِن نفس باقيةٍ، أو مِن أثرٍ باقٍ، وقدْ تقوم "فاعلة" هنا مقامَ المصدرِ فيكون المتعيّن: فهل ترى لهم مِن بقاء[1].

وقد يحدثُ أحياناً أنْ تُضاف التّاء على أواخرِ أسماء الفاعلين إفادةً للمبالغةِ والتّكثير، ومِن ذلك: راوية، وداهية، وكاشفة. ولعلّ هذه الإضافةَ تعمل على تداخلِ معنَيين صرفيّين، وهما المصدرُ والمبالغة. لِنَرْجِعِ النّظر فيما يأتي:

١- ليس لهذه المعضلة كاشفة.

٢-﴿ ولا تزال تطّلع على خائنةٍ منهم﴾[2].

يُلْحظ أنّ في الجملة الأولى احتمالاً مردّه إلى أنّ القالَب التّصريفيّ "فاعلة" يجتمع عليه المعنيان؛ فقدْ يكون الأوّل المصدر، والمعنى: ليس لهذه المعضلةِ كشفٌ، وقدْ يكونُ المتعيّن مِن هذا القالبِ اسمَ الفاعل، والتّاء المُختتَمة به هي التي للمبالغة لا للتّأنيثِ، فيصبح المعنى: ليس لهذه المعضلةِ مِن رجل كاشفٍ صاحبِ مِراس ودُرْبة، وقد حُمِلت الآية الكريمة المتقدّم ذكرُها على ذلكم المَحْمل، فقيل إنّ "خائنة" هي الخيانةُ "المصدر"، أو هي صفةٌ للخائن تفيد المبالغة[3].

وقدْ يقوم اسم الفاعلِ مقامَ ياء النّسب، وقد جاء في الألفيّة:

ومع فاعلٍ وفعّال فَعِل   في نسب أغنى عن اليا فَقُبِل[4].

يظهرُ مِن هذا النّصّ أنّ نواميسَ استعمال القوالبِ لدِلالاتها يُفضي إلى مزيدِ تداخل وتناوبٍ، ولعلّ هذا يستدعي مِن القارئ فضلَ تبصّر ورويّةٍ لإقامة البونِ بين هذه المتناوِبات، ومِن أمثلة ذلك: "خابز"، فلها دِلالة تتردّد بين اسمِ الفاعل والنّسبِ،

---

(١) انظر : ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٤٨٣،/ ابن عزيز السجستاني – نزهة القلوب،١٤٦، والمعنى عنده : من نفس باقية، أو حالة باقية، الأستراباذي – شرح الكافية ، ١٧٦/١، ابن يعيش – شرح المفصل، ٥٣/٦.

(٢) الآية (المائدة ، ١٣)

(٣) انظر : أبو عبيدة – مجاز القرآن، ١٥٨/١، ابن قتيبة – المصدر نفسه ، ١٤٢، ابن عزيز – المصدر نفسه، ٢١٧، وقد ذكر ابن الأنباريّ أن المعنى قد يكون على فرقة خائنة منهم" انظر : البيان، ٢٨٦/١.

(٤) انظر : ابن عقيل – الشرح، ٤٢٨/٢، الصبان – الحاشية، ٢٨١/٤.

والمعنى ذو خبزٍ، وكذلك "فارس ودارع وطاعم وكاسٍ"، كلّ ذلك متردِّد بين معنيين لا يمتازُ أحدُهما عن الآخر إلاّ بالرّويّة ولطفِ النّظر، ومنه قول الشّاعر:

كليني لِهمّ يا أميمة ناصِبِ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وليلٍ أقاسيهِ بطيءِ الكواكبِ

والمعنى: ذي نَصَب[1]

ومثلُ فاعل "فَعّال"؛ فقد تكون للمبالغةِ كقولنا: "أكّال" و"ضَرّاب" و"هبّاط"، وقد تكونُ للنّسب مقصوداً بها الحِرفة؛ وذلك نحو "سَيّاف وثوّاب وعطّار ونجّار"[2].

وقالبُ اسم المفعولِ يُقام مقام المصدرِ كالمَفتونِ والمَعقول[3]، ويظهر مِن هذا الاشتراكِ أنّه مَدعاة لنشوء اللَّبْس في مواضعَ معيّنة، ولو أنّه قيل:

١- ماله مَعْقول.

٢- حتّى نبارك لك هذا المسرور لا بدّ من الاحتفال.

٣- لا أقوى على الوصول إلى مرتبة المجلودِ التي يتحلّى بها.

لبدا لنا أنّ اسمَ المفعول في الجملةِ الأولى يقوم مَقام المصدر "العقل". أمّا الثّانية فيعتريها اللَّبس؛ ذلك أنّ "المسرورَ" قد تكون مصدراً بمعنى "السّرور"، وقد تكونُ اسمَ مفعول، وكذلك الجملة الثّالثة، فالمَجْلود قد تعني الجَلَد، وقدْ تكون اسمَ مفعول أيضاً، وقد يُقام اسم المفعولِ مقامَ اسم الفاعلِ، ومِن ذلك قوله-تعالى-: **﴿حِجاباً مستوراً﴾**[4]، والمعنى ساترٌ، وقيل: "مستورٌ" على بابِها، والمعنى أنّه مستورٌ عن العيون[5].

---

(١) انظر : الصبان – المصدر نفسه، ٢٨٢/٤، والشعر للنابغة الذبياني، انظر : ديوانه، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٩٦٣، ٩.

(٢) انظر : أمثلة استغناء النسب عن الياء: سيبويه –الكتاب ، ٣٨٢/٣. ابن السراج– الأصول ، ٨٣/٣، الأستراباذي – شرح الشافية ،٨٤/٢ ، السيوطي – المزهر، ٢٧٤/٢– ٢٧٥. الصبان – المصدر نفسه ، ٤/ ٢٨٢.

(٣) انظر : الصفحة ٤٣ من الكتاب.

(٤) الآية (الإسراء،٤٥)

(٥) انظر : ابن عزيز السجستاني – نزهة القلوب، ٤٠٤، ابن فارس – الصاحبيّ، ٢٣٧.

وجموع القلّةِ قد تقوم مَقام جموع الكثرةِ، ولذا يحسن التأنّي في التأتّي لمعنى الجمعِ في سياقِه، ولعلّ هذا التّداخل يُعقِب التباساً بين المعاني الصّرفيّة، ومِن أمثلة ذلك أنّه عِيب على حسّانِ بنِ ثابتٍ قولَه:

لنا الجَفَنات الغرّ يلمعن بالضّحى وأسيافُنا يقطرن مِن نجدةٍ دما

فقيل إنّه كان ينبغي له أنْ يقولَ: لنا الجِفان والسّيوف، ولعلّ الباعث على هذا الحكمِ هو اللّبس الآتي مِن إنابة جمعِ القلّة مُناب جمعِ الكثرة، "فالجموع قد يقعُ بعضُها موقع بعضٍ، ويستغنى ببعضها عن بعضٍ، ألا ترى أنّهم قالوا رَسَن وأرسان، وقلم وأقلام، واستغنوْا بهذا الجمعِ عن جمع الكثرة، وقالوا رجلٌ ورجال، وسبع وسِباع، ولم يأتوا لهما ببناءِ قلّة، وأقيس ذلك أنْ يُستغنى بجمع الكثرةِ عن القلّة لأنّ القليلَ داخلٌ في الكثير"[١].

ثالثاً: اللّبْسُ الآتي من التّركيب:

تقدّم حديثٌ عن اللّبس الآتي مِن التّصريف، وتبيّن أنّ مضمارَه القوالب التّصريفيّةُ والأبنية، أمّا لبس هذا المطلبِ فهو واقع في التّركيب، وليس معنى هذا أنّ اللّبس في هذا المِضمار آتٍ مِن صعوبةِ المفردات وغموضِها في سياقها، بل الأمرُ بالضّدّ، فقد يحدث أنْ يَرِد على المرء جملٌ سمحةُ القياد في ظاهرِها، ولكنّها معتاصة في دِلالتها لِما يكتنفها مِن لَبس واقع في تركيبها[٢]، وليس يصحّ في الفهمِ أنْ توصَف الجملة بأنّها شريط أفقيّ متسلسِل يُقْتَنص المراد مِنه بالنّظر إليه، والاكتفاء به، فثمّ جمل مُلْبِسة محتمِلةٌ، ومِن ذلك:

---

(١) ابن يعيش – شرح المفصل، ١١/٥. وقد ذهب بعض اللغويّين إلى أن الشاعر قد أراد جمع الكثرة، وأنه لم يرد أدنى العدد: سيبويه – الكتاب ، ٥٧٨/٣، ابن جنيّ – الخصائص ٢٠٨/٢، والشعر لحسان بن ثابت: انظر : ديوانه، تحقيق وليد عرفات، دار صادر ، بيروت، ١٩٧٤م، ٣٥/١.

(٢) انظر : سيرل، جون – تشومسكي والثورة اللغويّة، الفكر العربي، العدد٧، كانون الأول، تصدر عن معهد الإنماء، الكويت ١٩٧٩، ١٢٦..

١- نصحت لأختي أن تبقى مع أمّي لأنّها مريضة

٢- مررت برفيقِ أخي محمّد

٣- قابل محمّد سعيداً ضاحكاً[١]

٤- ما ظلمتُك وأنت تنصفني

لننظرْ في الجملة الأخيرةِ التي يقع تحتها معنيان متضادّان، إنّها تعني: ما ظلمتُك وأنت أيضاً لم تظلمني، بل كان مذهبُك إنصافي. وقد تعني: ما ظلمتُك لو أنصفتني[٢]. ومِن هنا تأتي ثورة "تشومسكي" على بعض مقولاتِ البنيويّة؛ ذلك أنّها تقف عاجزةً أمام جمل غامضةٍ مبهمَة[٣]، ومن أمثلته: "قَتْلُ الصّيّادين"، فهي بنية سطحيّةٌ موهمةٌ؛ إذْ إنّ تحتها بنيتين عميقتين، "فهي تُمثّل تمثيلاً مبهَماً على المستوى التّحويليّ"[٤]، وقد كان هذا النّظر الثّاقب المسوِّغَ الأوّل لدراسة التّراكيبِ وِفاقاً للنّظريّة التّحويليّة، "فقد وجدنا أمثلةً مِن الجمل التي تُفهَم بأكثرَ من طريقة واحدة، وهذا مبرِّرٌ مستقلٌ، ودافعٌ لوصف اللّغة طبقاً للبنية التّحويليّة، فمن أجل أنْ نفهمَ جملةً ما مِن الضروريّ أنْ نعرف جمل النّواة التي اشتُقّت منها هذه الجملة"[٥].

وفيما يأتي محاولةٌ لاستشراف المواضعِ التي ترشّح لتخلّقِ اللّبس، وليس المقصدِ أنْ أقفَ عند البنى العميقةِ في كلّ جملة على التّعيين؛ فهذا مطلبٌ يطول، والحقّ أنّ البحثَ عن علّة العلّةِ يفضي إلى العَود على ما تقدّم آنفاً؛ أعني تجاوزَ

---

(١) سيأتي بيان عن هذه الجمل الملبسة بَعْداً.

(٢) انظر : ابن الأنباريّ – الأضداد، ١٢٦.

(٣) ومن ذلك:

I found the boy studying in the library.
The shooting of the hunters.
Old men and women

انظر : تشومسكي – البنى النحوية، ١١٤– ١١٧، انظر : Kooij- Ambiguity,P.59-60.

(٤) المرجع نفسه، ١١٧.

(٥) المرجع نفسه، ١٢٣. ولمزيد بسط القول في مفهوم البنى العميقة انظر : تشومسكي – تأملات في اللغة، ترجمة مرتضى باقر وعبد الجبار علي ط١، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، ١٩٩٠، ٧٤-٩١. Kats, J., Semantict Theory .P.384-411.

البنى السّطحيّةِ، واستشرافَ ما يقع تحتها مِن بنى عميقة مؤلِّفة؛ ذلك أنّ المعنى الذي لا يلبسُ مركوزٌ فيها:

١- مرجع الضّمير:

كثيراً ما يعدل المتكلّم عن تَكرار الأسماءِ معوّلاً على بديلٍ يقوم مقامَها، وهو الضّمير، والظّاهر أنّ للعدول أسباباً خاصّة كالاختصارِ، والفَخامةِ بشأن صاحبه، والتّحقير[1]، ثمّ إنّ الاستعانةَ بالضّمائر تعمل على تجنُّب الرّتابةِ ورداءةِ التّأليف، ولعلّ هذا يتجلّى عند العودِ إلى الأصل، وردِّ الضّمائر إلى مراجعها في سياقٍ جمليّ، ومِن ذلك:

ذهب الأولادُ إلى مدرستهم(الأولاد)، وقد قابلهم(الأولاد) مدير المدرسة فأمرهم (الأولاد) بالمواظبةِ على تدريبهم (الأولاد). وليس تعالق الضّمائرِ بالمراجع أمراً مُلقى على عواهنه؛ ذلك أنّ المطابقةَ محتكَم رئيسٌ في تقرير السّلامةِ اللّغويّة، وفي ربطِ الضّمير بمرجعِه، ومِن ذلك:

١- ذهبتُ إلى زيد لأنّه مريض

٢- كان الرّجل يتمايل ثملاً كالشّجرة التي تداعبُها الرّيح

فالمطابقةُ – وهي قائمة على استرفادِ بعض الفصائلِ النّحويّة- المحتكمُ في تعيين المرجعِ، ففي الجملة الأولى مرجعٌ واحد وضمير، وهما متطابقان في الجنسِ"التّذكير"، والعددِ "الإفراد"، وليس ثمّ مرجع ثانٍ، ولذا يتعيّن ربطُ الضّمير بمرجعِه المتقدّم "زيد".

أمّا الضّمير المتّصلُ بالفعل "تداعبها" فقد تقدّمه اسمان، وهما "الرّجل"، و"الشّجرة"، وقواعدُ المطابقة تأبى عودَه على الرّجل؛ ذلك أنّه لا يتّفق معه في فصيلةِ الجنس، فالرّجلُ مذكَّر، والضَّمير مؤنَّث، أمّا الضّمير والشّجرةُ فبينهما مطابقة في الجنسِ والعدد، ولذا تعيّن عودُ الضّمير عليها.

---

(١) انظر : الزركشي – البرهان، ٤/٢٤-٢٥.

وقد يحدثُ أحياناً أنْ يتقدّم الضّميرَ مرجعان يتطابقان وملامحَه، ولكنّ هذا الملحظَ لا يؤذن باشتباهٍ في تعيّن أحدِهما مرجعاً ضابطاً للمعنى، فلو أنّه قيل: **"ترك الطّفلُ السّرير لأنّه مكسور"** لاقتنص السّامعُ مِن جملة المتكلّم أنّ المكسورَ هو السّرير لا الطّفل، والمفارقةُ اللّطيفة هنا أنّ ثمّ تطابقاً جليّاً بين الضّميرِ والسّريرِ في العدد والجنسِ، ولكنّ الإلفَ اللّغويّ والعلاقاتِ السّياقيّة، والتّعويلَ على حقائقِ الحياة، ومنطق الأشياء في العالم الخارجيّ ؛ كلّ ذلك يعمل على توجيهِ العقل نحو المتعيّن[1]، ولكنّ هذا لا ينفي أنْ يَرِد على السّامع جملٌ يكتنفها لبس آتٍ مِن هذا المطلب؛ مطلبِ تعيين المرجعِ.

لننظرْ في الجمل الآتية:

١- نصحت لأختي أن تبقى مع أمّي لأنّها مريضة.

٢- زار أبي الطبيب لأنّه مريض.

٣- استأذن أخي أبي أنْ يتكلّم.

٤- طلب أخي إلى أبي أنْ يتكلّم.

تقدّم آنفاً أنّ للمطابقة فضلاً في تعيينِ المرجع، والحقّ أنّها في الوقت نفسِه باعثُ اشتباهٍ، فإذا ما عَرض في جملةٍ ما مرجعان متّفقان في ملامحهما مع ملامحِ الضّمير فإنّ ذلك مَزْلَقةٌ للولوج في اللّبسِ في بعض الأحيانِ، ففي الجملةِ الأولى نجد أنّ تطابقاً واقعاً بين الضّميرِ والاسمين اللّذين يتقدمانه: "أختي وأمّي"؛ ذلك أنّ الضّمير يدلّ على التّأنيثِ والإفراد، والأمُّ والأخت لا تخرجان عن هاتَين الفصيلتَين، ولذلك يقع الخاطرُ في حَيْرةٍ واشتباهٍ باعثها تعيين المرجعِ، أهو الأمّ أم الأخت:

١- نصحت لأختي أن تبقي مع أمّي لأنّها "أمّي" مريضة.

٢- نصحت لأختي أن تبقي مع أمّي لأنّها "أختي" مريضة.

---

(١) انظر : حديث Schlesinger عن حقائق الحياة وفضلها في التواصل:
Production and Comprehension of Utterances, Lawrence Erlbaum, N. J. 1977,p150-159.
نقلاً: عن: داود عبده – دراسات في علم اللغة النفسيّ، ط١، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٤م، ١٣.

أمّا الجملةُ الثّانية فهي محتمِلة كسابقتها؛ ولعلّ حقائقَ الحياة التي تحدّثَ عنها Schlesinger لا تشفع للقارئِ في هذا المقامِ، وإنْ كانتْ ترجِّح عود الضّمير على "أبي"، ولكنْ، قدْ يحدث أنْ يكونَ المريض هو الطّبيبَ، وقد ذهب أبي لزيارتِه لتلكم العلّةِ الحادثة، ولِما بينهما مِن لُحَم وتآصرٍ، والأمران محتمَلان غير متدافعَين، والمفارقة في هذا كلّه أنّ المطابقةَ التي هي مَعْلَم إبانةٍ غدتْ في سياقها مَعْلَمَ اشتباهٍ واحتمال.

عوْدًا على حقائقِ الحياة؛ ذلك أنّها تقرّر مرجعَ الضّمير في الجملةِ الثّالثة، فليس يصحّ فيما ران عليه إلفُنا ومُعتقَدنا أنْ يستأذن الأبُ ابنه ليتكلّم، بل الأمر بالضّدّ، ولذا يتعيّن عودُ الضّمير المستتِر على "أخي"، والمعوّلُ عليه في هذه الإبانةِ وكشفِ اللّبس منطقُ الأشياء في العرفِ الاجتماعيِّ وحقائقِ الحياة.

أمّا الجملةُ الرّابعة فهي متردّدة بين معنَيين، أوّلهما أنْ يعودَ الضّمير المستتر في "يتكلّم" على "أبي"، وثانيهما أنْ يعودَ على "أخي"، وكلاهما مُتقبَّل صالحٌ في ذلك السّياق، ويظهر أنّ حقائقَ الحياة في هذه الجملة لم تشفع؛ ذلك أنّ الطّلبَ قدْ يقع مِن الاثنين.

وقدْ يكون موضع اللّبس "مرجعُ الضمير" إمكانةً مِن إمكانات الإلباسِ لمن أراد تعميةً وتغطية لأغراضٍ في النّفسِ شتّى، ومِن ذلك قولُ خالد بن عبد الله القَسْريّ على المنبر:"**إنّ أمير المؤمنين كتب إليّ أنْ ألعن عليّاً، فالعنوه، لعنه الله**"، فأوهم أنّ الضّميرَ في قوله: "فالعنوه، لعنه الله" عائدٌ على عليّ رضي الله عنه، وإنّما الأمر بالضّدّ، فهو عائدٌ على الآمرِ له بلعنته، فأُنْكِرت عليه هذه الفعلة[1].

ومِن مثل ما تقدّم القولُ المنسوب إلى عليّ –رضي الله عنه–: "**أيّها النّاس، تزعمون أنّي قتلت عثمانَ؟ ألا وإنّ الله قتله وأنا معه**"، وقدْ أراد عليّ أنّ الله قتله، وسيقتلني معه، وجعلَ الهاء في "معه" عائدةً على عثمانَ رضي الله عنه، ولعلّ

---

(١) انظر : ابن السيد البطليوسي – الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، تحقيق محمد الداية، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧م، ٥٧–٥٨.

المطابقة في شقّها الثّاني– وهو الإلباسُ– هي التي أفضت ببعضِ المسلمين إلى جعلِ الضّمير في قوله "معه" عائداً على الله، فأوجبوا عليه مِن هذا اللّفظ أنّه شارك في قتلِ عثمانَ رضي الله عنه[1].

يقول الله – تنزّه– في التّنزيل:

١-﴿وما أصاب مِن مصيبة في الأرضِ ولا في أنفسِكم إلا في كتابٍ من قبل أنْ نبرَأها﴾[2]

موضعُ النّظر قوله–تبارك–: "نبرأها"؛ ذلك أنّ قواعدَ المطابقة تبيح عودَ هذا الضّمير "الهاء" على ثلاثةِ مراجعَ متقدّمة:

أولّهـــا: أنّها تعودُ على النّفس: مِن قبل أنْ نبرأ النّفس.

وثانيها: أنّها تعود على الأرضِ: مِن قبل أنْ نبرأ الأرض.

وثالثها: أنّها تعود على المصيبة: مِن قبل أنْ نبرأ المصيبة[3].

٢-﴿ إن ينصرْكم الله فلا غالبَ لكم، وإنْ يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم مِن بعده﴾[4]

والضّمير في "بعده" متردّد بين مرجعَين، وهما الله جلّ ذكره، والمعنى: فمن ينصرُكم مِن بعدِ الله. والخذلان، والمعنى: فمن ينصرُكم مِن بعدِ الخذلان[5]. والذي ينبغي التّنبيهُ عليه بعد هذا العرضِ ألاّ يُذْهَب إلى أنّ الضّمائر مِن معطِّلات التّواصلِ، فقد يحدث ألاّ يكون مرجعٌ مذكور، ولكنّ الإلف والعهدَ الذّهنيّ كفيلان باسترفاد المرجعِ المغيّبِ، فالمتكلّم يُقْدم "عليها توسّعاً واقتداراً واختصاراً ثقةً بفهم المخاطَبِ، كما قال–عزّ ذكره–:"كلّ مَن عليها فانٍ"، أي: مَن على الأرض، وكما

---

(١) انظر :المصدر نفسه ، ٥٦-٥٧.

(٢) الآية: (الحديد، ٢٢).

(٣) انظر : مكي – المشكل، ٧١٩/٢، ابن الأنباريّ – البيان ، ٤٢٤/٢.

(٤) الآية (آل عمران، ١٦٠).

(٥) انظر : مكي– المصدر نفسه، ١٧٨/١، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٢٣٠/١، واكتفى العكبريّ بالوجه الثاني. انظر : التبيان، ٣٠٦/١.

قال:"حتّى توارتْ بالحِجاب"، يعني الشّمس، وكما قال-عزّ وجلّ-:"كلاّ إذا بلغت التّراقي"، يعني الرّوح، فكنّى عن الأرض والشّمسِ والرّوح مِن غيرِ أنْ يجري ذكرها"[1].

٢- الإضافة[2]:

والإضافةُ مِن المواضع المرشّحة لتخلّقِ اللّبس والاحتمالِ، والمتعيّن مِنها أنْ يضاف المصدر إلى الاسمِ؛ وذلك نحو "ضَرْبُ النّاسِ"، والظّاهر مِن هذا التّركيب السّطحيّ أنّ المضاف إليه "النّاس" متردّد بين معنيين: الفاعليّةِ والمفعوليّة، ولكنْ، قد يتعيّنُ المراد باستشراف مجموعةٍ مِن العواملِ متضافرة؛ وذلك نحو منطقِ الأشياءِ في العالم الخارجيّ، ووشايةِ السّياق البنيويّ، والمقاميّاتِ، وفي الأمثلة الآتيةِ فضلُ بيان:

١- أكلُ الخبزِ.

٢- أعجبني ضربُ زيدٍ عَمراً.

٣- أعجبني ضربُ زيدٍ عمروٌ.

٤- " ولولا دفعُ اللهِ النّاسَ"[3]

إذا ما عُرِضتْ الأمثلةُ المتقدّم ذكرُها على سلّم درجاتِ الإبانة فإنّها تظهر جليّةً لا شبهةَ عليها، فمنطقُ الأشياء في العالمِ الخارجيّ يقتضي أنْ يكون الخبزُ مأكولاً لا آكلاً. وبذا يتعيّن مِن هذا التّركيبِ معنى فردٌ، وهو معنى المفعوليّة، أمّا الجملةُ الثّانية والثّالثة فالعلامةُ الإعرابيّةُ وتكامل السّياق البِنيويّ يعملان معاً في تناغمٍ لتعيين معنى هذا التّركيبِ الذي قد يُلْبس، ففي انتصاب "عَمراً " وشايةٌ مِن

---

(١) الثعالبيّ – فقه اللغة وسر العربية، ٣٣٩، والآيات(الرحمن،٢٦)، (ص ٣٢) ،(القيامة، ٢٦) انظر : هذا المطلب: ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن، ٢٢٦.

(٢) انظر : مطلب الحديث عن إضافة المصدر إلى اسم الفاعل أو المفعول: المبرد – المقتضب، ١/١٣-٢١، ابن الأنباريّ – الإنصاف، ١/٢٣١ – ٢٣٤، ابن يعيش – شرح المفصل ٦٠-٦٣، السيوطي – الأشباه والنظائر، ٢/٢٣٦.

(٣) الآية (الحج، ٤٠).

السّياق البنيويّ بأنّ "زيدٍ" فاعلٌ في المعنى، فهو الضّارب عَمراً، والأمر بالضّدّ في الجملةِ الثّالثة؛ إذ إنّ ارتفاع "عمروٌ" ذو دلالةٍ على أنّ "زيد" مفعول به في المعنى.
أمّا التّركيبُ الإضافيّ في الآية الكريمةِ فليس يحتمِل إلاّ وجهاً واحداً؛ ذلك أنّ المُعتقَد الدّينيّ، والعرفَ ، والسّياق البنيويّ، كلّ ذلك يقتضي هذا المعنى.

ولكنْ، قدْ يحدث أنْ يقع لَبس باعثُه هذا التّركيبُ المُوهِم المكثّف، ومِن ذلك:

١- سريّ يرغب في مساعدةِ الأساتذة.

٢- ويكره إزعاجَ الطلاّب.

٣- ويحبّ زيارة الأصدقاء.

٤- نقد تشومسكي نقد مبرَّر[١].

٥- ﴿ كلاّ سيكفرون بعبادتِهم﴾ [٢].

يظهر مِن هذه التّراكيب الإضافيّةِ ملحظ اللّبس والتردّدِ بين المعنيين، ولعلّه مِن التّكرير أنْ يُشار إلى أنّ اللَّبس آتٍ مِن تجلّي البِنية السّطحيّة بعد استوائِها على بنيتَين عميقتين، فسريّ يرغبُ في أنْ يساعد الأساتذة، وقدْ يكون المتعيّن أنّه يرغب في أنْ يساعده الأساتذة، وثمّ بَونٌ بين المعنيين جليّ، فالأساتذةُ في البِنية الأولى مفعولٌ به، وفي الثّانية فاعل. وهو يكرهُ أنْ يزعجه الطلاّب، وقد يكون المعنى مغايراً لهذا، كأنْ يكون المعنى أنّه يكره أنْ يُزعج الطلاّب. وهو ألوفٌ يحبّ أنْ يزور أصدقاءَه، أو يحبّ أنْ يزوره أصدقاؤه، والجملة الرابعة شأنها شأن ما تقدّمها. أمّا قولــه-تعالى- فقدْ قيل إنّ المضافَ إليه متردّد بين معنى الفاعليّةِ والمفعوليّةِ، فإنْ كان المصدرُ "عبادة" مُضافاً إلى الفاعل، فالتّقدير: سيكفر المشركون بعبادتِهم الأصنامَ، وإنْ كان مُضافاً إلى المفعول، فالتّقدير: ستكفرُ الأصنام بعبادتِهم[٣].

---

(١) هذا مثال أورده جون سيرل- تشومسكي والثورة اللغويّة، ١٢٦.

(٢) الآية (مريم، ٨٢).

(٣) انظر : ابن الأنباريّ – البيان، ١٣٦/٢، العكبريّ – التبيان، ٨٨١/٢ أبو حيان – البحر المحيط، ٢٠٢/٦.

وممّا تعدّدت وجوهُ إعرابه قولُ الشّاعر:

يكادُ يمسكه عرفانُ راحتهِ ركنَ الحَطيم إذا ما جاء يستلمُ(1)

إخال أنّ السّببَ الرّئيس في تباينِ وجه القولِ على إعرابه آتٍ مِن هذا التّركيب المحتملِ "عرفان راحته"؛ ذلك أنّ المصدر "عرفانُ" قد أُضيف إلى اسمٍ قدْ يكون فاعلاً أو مفعولاً مِن حيث المعنى، ومِن وجوه الإعرابِ التي قيلت فيه أنّ "عرفانُ" فاعلٌ للفعل "يمسكه"، وقدْ أُضيف إلى الفاعل، وهو "راحته"، والرّكن مفعولٌ به، كأنّه في التّقدير: يكاد يُمْسِكه أنْ عَرَفت راحتُه ركنَ الحطيم، فالتّركيب الإضافيّ هنا قائم على إضافةِ المصدرِ إلى الفاعل في المعنى، وقدْ يكون المعنى بخلافِ هذا الوجه، فالعرفانُ فاعلٌ للفعل "يُمْسكه"، و"راحته" مفعوله، و"الرّكن" هو فاعلُ العرفان، والمعنى: يكاد يُمسكه أنْ عَرَفَ الرّكنُ راحتَه، فالتّركيبُ الإضافيّ في هذا الوجهِ عمادُه إضافة المصدرِ إلى المفعول. أحسب أنّ مردّ هذا التّباينِ في فهم البيتِ باعثُه تلكم البنية السّطحيّة التي تخبِّئ تحتها بنيتَين عميقتين.

٣- خفاءُ العلامةِ الإعرابيّة:

تبيّن في درسِ الإبانة أنّ العلامةَ الإعرابيّة دليل هادٍ إلى المعاني النّحويّةِ العريضة كالفاعليّة، والمفعوليّة، والإضافة، ولكنْ، قد يحدثُ أنْ يتعذّر ظهورُ العلامة الإعرابيّة تعذّراً يفضي إلى التباسٍ في المعنى النّحويّ الذي تؤدّيه الكلمة، وليس المَقْصِد مِن هذا التّقرير أنّ كلّ خفاءٍ للعلامة يُفرِز اللَّبس والاحتمال؛ ذلك أنّنا نَرِد على كثيرٍ مِن الجمل التي لا تظهرُ فيها العلامة، فنقتنص المتعيّن منها مسترفدين قرائنَ سياقيّةً وأنظاراً خارجيّة، وأمثلةُ هذا الملحظ كثيرةٌ كثرةً تغني عن الوقوفِ عندها.

---

(١) الشعر للفرزدق انظر : ديوانه، ٢/١٨٠، وانظر : ما قيل في إعراب البيت: الفارقي – الإفصاح، ٣٥٩–٣٦٠.

وانظر مطلب اللبس الآتي من الإضافة " The Genitive "

Kooij- Ambiguity, p.100

Quik- Acomprehensive,p. 1279.

أمّا مبحث العلّة؛ علّةِ خفاء العلامة، فالقولُ فيه طويل، ومِن ذلك المبنيّات التي يمكن أنْ تُوسَم بأنّها "هكذا خُلقت"، كسيبويهِ الذي يلتزم حركةً واحدة في حالاته الثّلاث، و"مَن"، و"الذي"، و"التي" وغير ذلك. والأسماءُ المقصورة ممّا يتعذّر فيه ظهورُ العلامة الإعرابيّة؛ وذلك نحو "عيسى"، و"موسى"، والأفعالُ المنتهية بالألف، ومِنها "يخشى" و"يسعى"، وقدْ يكون للعوارضِ التّصريفيّة النّحويّة يدٌ في خفاء العلامةِ كإضافة الاسمِ إلى ياء المتكلّمِ، فيلتزم حالاً واحدةً لا تظهر فيها علامةُ الإعراب، فيغدو كعيسى وموسى، ومِن ذلك "أخي"، و"دفتري"، و"محاميّ"، والملاحظُ أنّ هذه الأسماءَ معرَبة تظهر عليها الحركةُ قبلَ هذا الحادث، ولكنّ اتّصالَها "بالياء" يُبْطل قبولَ ظهور العلاماتِ الإعرابيّة عليها. وإعرابُ الجمل والمصدرِ المؤوّل ممّا يتعذّر فيه ظهور العلامة[1]. وفي الأمثلةِ الآتية بيانُ ما تقدّم:

١-كان محمّدٌ صديقُ زيدٍ له بيتٌ كبير.

٢- كان محمّدٌ صديقَ زيد له بيت كبير.

٣-كان محمّدٌ صديقي له بيت كبير.

يظهر مِن الجملةِ الأولى أنّ المتكلّم يشير إلى أنّ محمّداً له بيتٌ كبير، وفي ثِنْي هذا الإخبارِ يوضّح للسّامع مَن محمّد، فيذكر أنّه صديق زيدٍ، فيكون إعراب "صديق" عطفَ بيان. أمّا الجملةُ الثّانية فهي مؤلفة مِن خبرين لـــ "كان"، أولّهما "صديق زيد"، وثانيهما الجملةُ الاسميّة "له بيت كبير". والظّاهرُ مِن هاتين الجملتَين أنّ المعنى الدّقيق لا يظهر إلاّ بالعلامةِ الإعرابيّةِ الفارقة بين المعاني النّحويّة، وعند خفاءِ هذه العلامةِ وتعذّر ظهورِها على الاسمِ المضاف إلى ياء المتكلّم فإنّ المعنيين المتقدّمين في الجملتَين محتمَلان في الجملة الثّالثة، فقدْ يكون مقصدِ المتكلّمِ الإخبارَ بأنّ محمّداً كان صديقَه، وقد يكونُ الوصف.

---

(١) يشير محمد عبد اللطيف إلى ملحظ فقدان العلامة والنغمة، والاختلاف في تقدير المحذوف في تعدد المعاني، وكذلك ظاهر حمودة. انظر : العلامة الإعرابية،٢٩٥-٣٠٥، وأسس الإعراب ومشكلاته، ٩٩-١١٩.

ومِن مِثل ما تقدّم قوله-تعالى-:﴿ **إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة**﴾[1]، فباستبدالِ كلمةٍ مكان "أخي" في سياقٍ مصنوع يتجلّى الفرقُ المعنويّ الذي يشتبه باختفاءِ العلامة: **١- إن أخي وليداً سائقٌ ماهر.**

٢- إن أخي وليدٌ سائق ماهر.

لننظرْ في الأمثلةِ الآتية:

١- رأيت رفيقَ أخي محمّدٍ.

٢- رأيت رفيقَ أخي محمّداً .

٣- رأيت رفيقَ أخي مصطفى.

٤- رأيت دفترَ الطّالب الأعمى.

٥-رأيت أخا الطّالب الأعمى.

يظهر في الجملةِ الأولى والثّانية بجلاءٍ فضل العلامةِ الإعرابيّة في تعيّن المعنى النّحويّ الذي تمثّله كلمةُ "محمّد"، فمجيئها مجرورةً في الجملةِ الأولى معناه أنّها تابعة لكلمةِ "أخي"، وبذا يتعيّن معنى تضمينيّ مِن هذا التّركيب مفادُه أنّ للمتكلّم أخاً اسمه "محمّد"، وليس ذلك كذلك في الجملةِ التي تعقبها؛ ذلك أنّ مجيىء كلمةِ "محمّد" منصوبةً يُؤْذِن بالقول إنّها تابعة لكلمةِ "رفيق"، فيتعيّن مِن هذا معنى تضمينيّ مفارقٌ للأوّل مفادُه أنّ اسمَ رفيقِ أخي هو "محمّد". والفضلُ كلّه للعلامة الهاديةِ إلى المعنى. أمّا الجملةُ الثّالثة- وفيها يكمن اللّبس والاحتمالُ- فهي متردّدة بين المعنيين المتقدّمَين، وعلّة هذا اللّبسِ تعذّر ظهورِ العلامة الفارقةِ في هذا السّياق التّركيبيّ:

رأيت رفيقَ أخي مصطفى

أمّا الجملةُ الرّابعة فهي- وإنْ خَفِيت العلامةُ الإعرابيّة لتعذّر ظهورِها على آخر الأعمى- متجافيةٌ عن اللَّبس والاحتمالِ؛ ذلك أنّ منطق الأشياءِ في العالمِ

---

(١) الآية: (ص،٢٣).

الخارجيّ يقرّر أنْ تتعلّق "الأعمى" بالطّالبِ لا الدّفتر؛ ذلك أنّه لا يكونُ إلاّ لذي روحٍ، ولعلّ هذا التّعبيرَ المفارق لنواميسِ الكون(الدفتر الأعمى) يغدو متقبَّلاً في سياقٍ إبداعيّ. أمّا الجملةُ الخامسة فهي مُلبِسة محتمِلةٌ، وليس للسّياق البنيويّ ولا لحقائقِ الحياةِ ومنطقِ الأشياء وشاية. ها نحن أولاءِ نعودُ ثانيةً إلى خفاء العلامةِ المؤْذنِ بالولوج في تيهِ التعدّد واللّبس؛ فالأعمى قد يكونُ الطّالبَ، وقد يكون أخاه:

رأيت أخا الطّالبِ الأعمى

١-أتتك به سعادُ.

٢-أتتك به فَرَحاً.

٣- أتتك به بُشْرى.

موضعُ النّظر في هذه الأمثلةِ المصنوعة "بُشرى"، وهنا يظهر التّداخلُ بين المستويين الصّرفيّ والنّحويِّ، فكلمة "بُشرى" مشترِكة بين المصدريّةِ والاسميّة، وهذا لبسٌ آتٍ مِن الصّرف، وينبني على هذا الاشتباهِ الصّرفيّ اشتباهٌ نحويّ، فقد تكون في سياقِها ذاك فاعلاً لأنّها اسم، وقد تكونُ مفعولاً له منصوباً؛ ذلك أنّها مصدرٌ. والحقّ أنّ هذا اللّبسَ المتردّد بين المستويَين الصّرفيّ والنّحويّ في الجملةِ الثّالثةِ لا يُرفَع إلاّ بظهورِ العلامةِ الإعرابيّة المميِّزةِ للمعنيين النّحويّين: الفاعليّةِ كما في الجملة الأولى، والمفعوليّةِ الغائيّة كما في الجملةِ الثّانيةِ.

١-هذه أختُ سعادَ النّاجحةَ.

٢- هذه أختُ سعادَ النّاجحةُ.

٣-هذه أختُ سعادَ الصّغرى.

لعلّ ما تقدّم مِن بيان يغني عن تجليةِ اللّبس الواقعِ في الجملة الثّالثة.

١-هذا غلافُ المذكّرةِ التي ضاعت يومَ الخميس.

٢-هذا غلاف المذكرةِ الذي ضاع يوم الخميس.

٣-هذا دفتر الغلامِ الذي تمزّق يوم الخميس.

٤-هذا دفترُ الغلام الذي ضاع يومَ الخميس.

عوداً على المطابقة، فهي في المثالَين الأوّلين تعمل على بيانِ المعنى: "المذكّرة التي"، و"الغلاف الذي"، وقد يذهبُ الخاطر الأوّلُ إلى أنّ "الذي" تتعلّق بالغلام، ولكنّ حقائقَ الحياة لا ترجِّح هذا الخاطرَ الواهم، ولذا يتعيّن أنْ تكون "الذي" تابعةً للدّفتر: "الدّفتر الذي تمزّق". أمّا الجملةُ الرّابعة فهي محتمِلة معنيَين أوّلهما: أن تكونَ "الذي" في محلّ جرّ صفةٍ للغلامِ، ولذا يتعيّن خاطرٌ في الذّهن مِن هذا السّياقِ مضمونُه أنّ الذي ضاع يومَ الخميس هو الغلام. وثاني ذَيْنك المعنيين أنْ تكونَ "الذي" في محلّ رفعِ صفة للدّفترِ، والمعنى أنّ الذي ضاع يومَ الخميسِ هو الدّفتر، ولا يخفى أنّ بناءَ "الذي" والتزامَها حركةً واحدة في جميعِ أوضاعِها يفضي إلى تعذّر ظهورِ المعنى في مثلِ هذه المواضعِ.

١-جاء معلّمو الأولاد الذين يعيشون في القريةِ.

٢-رأيت حقيبةَ هندٍ التي فُقدت أمسِ.

٣-مررت بأختِ هندٍ التي فُقدت أمسِ.

يظهرُ أنّ بناء "الذي" و"التي" والتزامَهما حركةً واحدة في جميعِ الحالاتِ الإعرابيّة يفضي إلى اللّبس في الجملتَين الأولى والثّانية،ولو أنّ القائلَ استغنى عن كلمةِ "التي" في الجملةِ الثّانية لكان الكلام:

رأيت حقيبةَ هندٍ المفقودةِ

رأيت حقيبةَ هندٍ المفقودةَ.

ولكنّ الجملة الثّالثة ملبسةٌ، وستبقى ملبسةً وإنْ تُؤوِّلت:

مررت بأختِ هندٍ المفقودةِ أمسِ

إخال أنّ الباعثَ على هذا اللّبس الأخيرِ ليس آتياً مِن خفاءِ العلامةِ الإعرابيّةِ فقط، بلْ مِن مطلبٍ آخرَ سيأتي عليه حديثٌ، وهو "التّعلّق".

١-أنا أعلمُ مَن في الدّار

٢-لا يعلم مَن جهل

عَوْدًا على خفاءِ العلامةِ الآتي مِن البناء، يظهر أنّ "مَنْ" الاسمَ الموصول يتردّد بين معنيين نحويّين في الجملةِ الأولى؛ فقد يكون في محلّ نصبِ مفعولٍ به؛ وذلك نحو: رأيت مَنْ جاء. وقدْ يكون في محلّ جرّ بالإضافةِ، ولا يخفى أنّ ثمّ تداخلاً بين المستويَين الصّرفيّ والنّحويّ في هذا المثالِ؛ ذلك أنّ "أعلم" قالبٌ تصريفيّ يحتمل الاسميّة والفعليّةَ. أمّا الجملةُ الثّانية فهي كسابقتِها، ويظهر منها أنّ "مَن" تحتمل معنيين نحويّين متضادّين: أوّلهما الفاعليّة، وثانيهما المفعوليّةُ. ولعلّ العلّة التي أفضتْ إلى تردّد النّحويّين في إعرابِ "مَنْ" في قولِه- تعالى-:﴿ **لا يملكون الشّفاعة إلاّ من اتّخذ عند الرّحمن عهداً**﴾[1]هي خفاءُ العلامة في "مَنْ"، فقيل إنّ فيها وجهَين: الرّفع والنّصب، والأوّل على البدلِ مِن "الواو" في "يملكون"، والثّاني على الاستثناءِ المنقطِع[2]. وليس المقصدِ مِن إيرادِ هذا الأخير أنْ يُعدّ لبساً، ولكنّه الإشارةُ إلى سُهْمة خفاءِ العلامة الإعرابيّةِ في تعدّد وجوهِ الإعراب.

٤- التعلّق:

قدْ يحدث أنْ تتداخلَ العلاقات السّياقيّةُ التّركيبيّة لتفضيَ إلى اشتباهٍ في ربط بعضِ الكلماتِ بما تعود إليه، ولهذا الاشتباهِ مواضعُ معيّنة، ومِن ذلك اشتباهٌ في تعلّق الاسم الموصولِ في حالاتٍ مخصوصة، والصّفة، وصاحب الحال، وتعيين المستثنى مِنه، ولعلّ في الأمثلةِ الآتية بياناً تطبيقيّاً يجلّي هذا الوصفَ النّظريّ:

١-جاء غلاما الفريقين اللّذين خسرا المباراة.

٢-جاء غلاما الفريقَين اللذان فازا.

٣- رأيت غلامي الفريقين اللذين فازا.

يظهرُ من الجملةِ الأولى أنّ للعلامةِ الإعرابيّة فضلاً في الإبانةِ عن المعنى؛ ذلك أنّها تهدي القارئ إلى أنّ "اللذين" تتعلّق بالفريقين لتوافقهما في الحالةِ الإعرابيّة. والجملةُ الثّانية كسابقتِها، فمجيىء "اللذان" مرفوعةً مَعْلَم إبانة عن

(١) الآية: (مريم، ٨٧).

(٢) انظر : مكي – المشكل، ٤٦١/٢، ابن الأنباريّ – البيان، ١٣٧/٢ العكبريّ- التبيان، ٨٨٢/٢.

رجوعِها إلى الاسمِ المرفوع وهو "غلاما". أمّا الجملةُ الثّالثة – وهي موضع التّمثيل– فهي محتمِلةٌ المعنيين؛ ذلك أنّ "اللذين" تحتمل عوداً على "الفريقين" و"الغلامين"، ويظهرُ هنا تعطُّل القولِ بفضل العلامةِ الإعرابيّةِ؛ ذلك أنّها في "اللذين" تحتملُ معنيين؛ معنى النّصبِ، ومعنى الجرّ، ولو أنّ نواميسَ اللّغة اجترحتْ لها حركاتٍ متمايزةً في الحالات الثّلاث لَما وقع هذا اللَّبس في هذا الموضعِ، ولكنّ الالتقاء على علامةٍ واحدة في حالتَين متباينتين يُفضي في مواضعَ إلى مزالقِ اللَّبس:

" مررت بأمّهات الطّالبات اللواتي ذهبن إلى الرّحلة"

يظهرُ ثانيةً اشتباهٌ في تعيين مرجعِ الاسم الموصولِ، وهذا شبيهٌ باللّبس الآتي مِن الاشتباهِ في تعيينِ مرجع الضّمير؛ ذلك أنّ المطابقةَ تفعل في تشكيلِ هذا اللَّبسِ، فتقدُّم مرجعَين متطابقَين متضايفَين يستدعي اسماً موصولاً متردّداً في عودِه عليهما:

مررتُ بأمّهات الطّالبات اللواتي ذهبن إلى الرّحلةِ

ومن أمثلةِ اللّبس الآتي مِن "التّعلّق":

١-اشتريت قلمَ حبرٍ سائلٍ

٢-اشتريت قلمَ حبرٍ طويلاً

٣- اشتريت قلمَ حبرٍ أسودَ

يظهر مِن الجملة الأولى والثّانيةِ أنّ للعلامة فضلاً في ردّ الصّفة إلى موصوفِها، فكلمة "سائل" المجرورةُ تعود على "حبر" المجرور، وهذه مطابَقةٌ إعرابيّة. أمّا في الجملةِ الثّانية فهي تقضي بعودِ "طويلاً" على "قلمَ" وفاءً بقواعدِ المطابقة.

أمّا الجملةُ الثّالثة فهي مُلبِسة مشتبِهة؛ ذلك أنّ لغيابِ العلامةِ الجزئيّ يداً في ذلك، وهذا يؤذنُ باشتباهٍ في مرجعِ الصّفة "أسود"، أهو الحبرُ أم القلم، وكلاهما

صالحٌ، ويظهرُ أنّ التقاء علامتَين إعرابيّتَين في علامةٍ واحدة هو الباعثُ على ذلك؛ ذلك أنّ "أسودَ"- وهي ممنوعةٌ مِن الصّرف- تتردّد بين النّصبِ والجرّ، وقواعدُ إعراب الكلمِ تقتضي أنْ يلتقيَ على الاسم الممنوعِ مِن الصّرف علامةٌ واحدة في حالتَين متباينتين(النّصب والجرّ)، والذي يزيد مِن تجلّي اللّبس في هذا السّياقِ هو تقدّم مرجعَين متطابقَين في الجنسِ والعددِ، والصّفةُ تطابقهما في هاتين الفصيلتَين، ويبقى لغيابِ العلامة الجزئيّ الفعلُ في تخلّقِ لَبسِ التعلّق:

اشتريتُ قلمَ حبرٍ أسود

لِنَرْجِعْ النّظر فيما يأتي لبيانِ اشتباهٍ في مرجع البدلِ، وتعطُّل القول بفضلِ العلامةِ في حالاتٍ محدّدة.

١-هذا صديقُ أخي إبراهيمُ

٢-هذا صديقُ أخي إبراهيمَ

٣-رأيت صديقَ أخي إبراهيمَ

٤-رأيت شقيقة أختي سعادَ

الجملة الأولى مُبينةٌ لا لبسَ فيها، فرفعُ إبراهيم يقتضي كونَها بدلاً مِن "صديق". والجملةُ الثّانية - وهي مُبينة كسابقتِها- تقتضي أنْ يكون "إبراهيم" بدلاً مِن "أخي". أمّا الجملةُ الثّالثة فقد اشتملتْ على المعنيين كليهما، وقد حدث اشتباهٌ في تعيينِ مرجع البدلِ "إبراهيم"؛ أهو أخي أم صديقي، ولا يخفى أنّ لغيابِ العلامة الأصليّة يداً في ذلك، فالفتحةُ على "إبراهيمَ" علامةُ نصب، وإذا كان ذلك كذلك، تعيّن أنْ يكونَ مرجعُ "إبراهيم" هو الصّديق، وهي في الآنَ نفسه علامة جرّ، وإذا كان ذلك تعيّن أنْ يكونَ المرجعُ أخي. والجملةُ الرّابعة ملبسةٌ كما الثّالثة؛ كلّ ذلك باعثُه تعطُّل القولِ بفضل العلامةِ الإعرابيّةِ المؤدّي إلى اشتباهٍ في تعلّق الكلمةِ بمرجعِها.

١-زرت مساجدَ القدسِ العتيقةَ

٢-زرت مساجدَ القدسِ العتيقةِ

٣- أصلي الجمعة في مساجدِ القدسِ العتيقةِ

عوداً جديداً على اشتباهِ تعيين المرجع؛ مرجعِ الصّفة، فالظّاهر مِن الجملةِ الأولى أنّ القائلَ زار المساجد العتيقةَ في القدس، وأنّه زار المساجدَ في القدس العتيقةِ في الجملةِ الثّانية، أمّا الجملة الثّالثة فالمعنيان المتقدّمان محتمَلان، ويظهر فيها أنّه تقدّم الصّفةَ "العتيقةِ" مرجعان يتنازعان عليها، وممّا يزيد الطّين بِلّة أنّ كلا المرجعَين متماثلٌ في العلامةِ الإعرابيّة. ومِن مثل ما تقدّم:

١-جاء الرّجال والأولادُ مِن أهل القريةِ إلى المدينة.

٢-سمعت عن النّساء والبنات الجميلاتِ.

٣-هند أبوها قائم وشريفة.

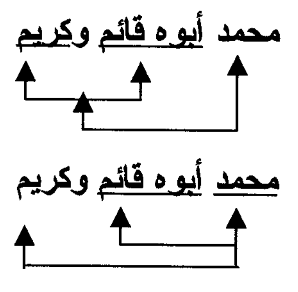
٤-محمّد أمّه مدّرسة ومحاسب.

٥-محمّد أبوه قائم وكريم[١].

كلتا الجملتَين المتقدّمتين ملبسة، فالصّفةُ "من أهل القرية" قد تتعلّق بالأولادِ، وقد تتعلّق بكلا المرجعَين "الرجال والأولاد". والصّفةُ "الجميلات" محتمِلة في تعلّقها بالبناتِ، أو تعلّقِها بالنّساء والبنات معاً. والجملةُ الثّالثة والرّابعة لا لَبس فيهما، فليس يلتبس تعلّق "شريفة" بالأبِ لامّحاء التّوافقِ في الفصيلة النّحويّةِ "الجنس". وقواعدُ المطابقة تقتضي عودَها على هندٍ. والجملةُ الرّابعة كذلك، "فمحاسب" تتعلّق بالمبتدأ "محمّد". أمّا الخامسةُ فقواعد المطابقةِ تجيز عودَ "كريم" على المرجعَين المتقدّمين: "محمّد" و"أبوه"، والمعنى المحتمَل:

---

(١) لا يجوز ابن السراج هذا الوجه لأنه ملبس انظر : الأصول، ٢/٦٢-٦٣.



وممّا ينضافُ إلى مباحثةِ اللّبس الآتي مِن توهّم "التّعلّق" صاحبُ الحال؛ إذْ إنّ الخاطر قدْ يتردّد بين شيئين في تعيينِ مرجع الحالِ، وفي الأمثلةِ الآتية فضلُ بيانٍ:

١- جاء سريٌّ ضاحكاً.

٢- قابل سرىٌّ بثينةَ ضاحكةً.

٣- قابل سريٌّ بثينةَ ضاحكاً.

٤- قابل سريٌّ أباه ضاحكاً.

٥- قابل الآباء أبناءهم وهم مسرورون.

٦-مررت بصالح جالساً.

يظهرُ في الجملة الأولى مرجعٌ واحد، وحالٌ واحدة متعلّقة به دالّة على هيئتِه. أمّا في الجملة الثّانيةِ فثمّ اسمان تقدّما الحال، ولكنّ قواعدَ المطابقة- أعنى فصيلةَ الجنس في هذا المثالِ- تشفع للمعنى فتتعيّن الإبانةُ، وتتعلّق "ضاحكةً" ببثينةَ، والجملة الثّالثة كذلك. أمّا الرّابعةُ فهي محتمِلة لا تنفع فيها شفاعةُ المطابقة؛ بل هي مصدرُ اللّبس، فالحالُ تقدّمها مرجعان متماثلان في الجنسِ، والحالُ تماثلهما في هذه الجهةِ، فاقتضى هذا التّماثلُ أنْ يتردّد الخاطرُ في تعلّق الحالِ بصاحبِها بين مرجعَين:

قابل سريٌّ أباه، أبوه ضاحك.

قابل سريٌّ أباه، سريٌّ ضاحك.

والجملةُ الخامسة كسابقتِها. أمّا السّادسةُ فحقائق الحياةِ ومنطق الأشياءِ في العالمِ الخارجيّ يرجّحان كونَ الحال مِن "صالح"؛ إلاّ أنْ يكونَ القائل محمولاً. والمقصدِ مِن هذا المثالِ الأخيرِ فضلُ تحوّطٍ؛ فليس يعني أنّ الحالَ إذا تقدّمها مرجعان متماثلان في الجنسِ والعددِ، فإنّها تكون ملبِسةً باطّراد، فثمّ مقاميّاتٌ تعمل على درءِ اللّبس، وثمّ منطقٌ للأشياء يؤثّر في إدراكِنا لهذه المادّة اللّغويّةِ التي لا تسيحُ في هواءٍ طلق.

ومِن مثلِ ما تقدّم:

١- ﴿ أنِ اتّبع ملّة إبراهيمَ حنيفاً﴾[١]

٢- ﴿ وقاتلوا المشركين كافّة﴾ [٢]

٣-" رأيت ربّي في أحسنِ صورة".

يظهرُ في الآية الشّريفةِ احتمال دلاليّ؛ ذلك أنّ الحال "حنيفاً" يتردّدُ تعلّقُها بمرجعَين، أولهما الضّمير المرفوع في "اتّبع"، وثانيهما "إبراهيم" عليه السّلام، وكلاهما صالحٌ[٣]. والحالُ في الآيةِ الشّريفة الثّانية تحتمِل مرجعَين، وهما: الضّمير المتّصلُ "الواو" و"المشركين"[٤]. أمّا الحديثُ الشّريف فقد أولَه أهل التّنزيهِ تأويلاتٍ متعدّدة، ومِن ذلك تأويلٌ يخصّ هذه المباحثة، وهو اشتباهٌ في صاحبِ الحالِ، فالتّقدير: رأيت ربّي وأنا في أحسنِ صورةٍ، ومثلُه: رأيت الأميرَ في أحسنِ زيٍّ، فالتّقدير في هذا

---

(١) الآية (النحل، ١٢٣).

(٢) الآية (التوبة، ٣٦).

(٣) انظر : مكي – المشكل، ٤٢٦، ابن الأنباريّ – البيان، ٨٥/٢، وقد رجحا كونها حالاً من الضمير لا من إبراهيم، لأنه مضاف إليه. وقد عدها ابن عقيل حالاً من إبراهيم مجوزاً مجيئ الحال من المضاف إليه. انظر : الشرح، ٥٣٦/١.

(٤) انظر : ابن هشام – المغني ٧٣٣/٢. العكبريّ – التبيان، ٦٤٣/٢.

كلّه راجعٌ إلى الرّائي لا المرئيّ، وقيل إنّ معنى "الصّورة" الصّفة، أي: على أحسنِ صفة، فتكون الصّفةُ على هذا الوجهِ لا توجب تحديداً ولا تجسيماً(١).

ومِن اللّبس الآتي مِن ملحظ "التّعلّق" اشتباهُ تعيين المستثنى منه؛ وذلك نحو: "**علمت بنجاح الطلاّب ، وعودة الأساتذة إلاّ بعضَهم**". وههنا يستوقف السامعَ سؤالٌ: هل يعود المستثنى "بعضَهم" على الكلّ: أي على الطلاّبِ والأساتذةِ، أم يعود على الأساتذةِ فقط؟ هذه مسألة عسيرةٌ، ومستصفَى المساءلة فيها: إذا ورد الاستثناءُ بعد جملٍ عُطِف بعضُها على بعض فهل يعود للكلّ؟ يظهر في هذا النّظرِ المُشْكِل مذاهبُ متباينة، ومِن ذلك أنّ الاستثناءَ يتعلّق بالكلّ، وعليه ابن مالكٍ إلاّ أنْ يقوم دليلٌ على إرادةِ "البعض"، أو أنّه يتعلّق بالكلّ إنْ سيق الكلّ لغرضٍ واحدٍ، فقولنا: أكرِمْ العلماءَ، واحبسْ ديارَك على أقاربِك، وأعتقْ عبيدَك إلاّ الفسقة مِنهم" الاستثناءُ فيه للأخيرة فقط. أو أنّه إذا اتّحد العامل فللكلّ، وإذا اختلف فللأخيرةِ خاصّة؛ إذ لا يمكن عملُ العوامل المختلفة في مستثنى واحدٍ(٢). ومع هذا يبقى هذا الموضعُ المخصوص مَدْخلاً مِن مداخل اللّبس التي يجبُ التّنبيه عليها، ومِن أمثلةِ هذا المطلبِ:

١-قام الشّيخ اللّيلَ نصفَه إلاّ قليلاً

٢-غلب مئة مؤمنٍ مئةَ كافر إلاّ اثنين

يظهرُ في الجملةِ الأولى أنّ "قليلاً" صالح لكونِه مستثنى مِن "الليل" أو مِن "نصفه"، والمعنى: قام اللّيلَ إلاّ قليلاً. أو: قام نصفَ اللّيل إلاّ قليلاً. والجملةُ الثّانية مُشْكِلة أيضاً؛ ذلك أنّ اثنين قد تقدّمها مرجعان، فقد تتعلّق بمئةِ مؤمن، وبهذا يكونُ

---

(١) انظر : ابن فورك – مشكل الحديث وبيانه، تحقيق موسى علي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ٧٠، ابن السيد – الإنصاف، ١٨٥.

(٢) انظر : هذه الآراء: السيوطي – الهمع، ١٩٦/٢– ١٩٧. وانظر : رأي ابن مالك: السلسيلي – شفاء العليل في إيضاح التسهيل، تحقيق الشريف عبد الله البركاتي، ط١، المكتبة الفيصلية، مكة، ١٩٨٦م، ٥٠٥/١.

عدد الغالبين منهم ثمانيةً وتسعين، وقد تتعلّق بمئةِ كافر فيكون عددُ المغلوبين مِن الكافرين ثمانيةً وتسعين[1].

١- استبدلت إلاّ زيداً مِن أصحابنا بأصحابكم

٢- استبدلت مِن أصحابنا بأصحابكم إلاّ زيداً.

يظهر أنّ "زيداً" الأولى مستثنى مِن قوله: "مِن أصحابِنا". أمّا في الجملةِ الثّانية فالأمران محتمِلان؛ فقد يكون "زيداً" متعلّقاً بـــ "مِن أصحابنا"، أو "أصحابكم". ومِن الأمثلةِ المُبينة عن أثرِ هذا الموضعِ في تخلّقِ الاحتمال وتعدّد المعاني قولُه- تنزّه-:

" وإذا جاءهم أمرٌ مِن الأمن أو الخوفِ أذاعوا به ، ولو ردّوه إلى الرّسول وإلى أولي الأمر مِنهم لعلمه الذين يستنبطونه مِنهم ، ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته لاتّبعتم الشّيطانَ إلا قليلاً"[2].

وقد اختُلِف في تعيين تعلّق المستثنى، فقيل:

١- إنّه استثناء مِن قولِه -تعالى-: "لاتّبعتم الشّيطان إلاّ قليلاً".

٢- إنّه استثناء مِن الضّمير "الواو" في يستنبطونه، والمعنى: لعلمه الذي يستنبطونه إلاّ قليلاً.

٣- إنّه استثناء مِن الضّمير في قولِه -تعالى-: "أذاعوا به".

٤- إنّه استثناء مِن الضّمير "الهاء" في قوله: "أذاعوا به".

٥- إنّه استثناء مِن الضّمير في قوله: "جاءهم".

٦- إنّه استثناء مِن الضّمير في قوله: "عليكم"[3].

---

(١) يرى ابن مالك أن الثاني " أولى" في حالة تأخر المستثنى، ومثّل بهذه الجملة وأحسب أنه رأي تحكميّ، فالجملة ملبسة محتملة للمعنيين. انظر : السلسيلي – المصدر نفسه، ٥٠٥/١، السيوطي – المصدر نفسه، ١٩٧/٢.

(٢) الآية: (النساء، ٨٣).

(٣) انظر : هذه الوجوه: ابن الأنباريّ – البيان ، ٢٦٢/١. وانظر : ما قيل في إعرابها: النحاس- إعراب القرآن، ٤٧٥/١-٤٧٦. مكي – المشكل ٢٠٤/١٦ العكبريّ -التبيان، ٣٧٦/١.

٥-مرونةُ الجملةِ العربيّة:

ومِن المواضع التي تتضافرُ مع ملحظ "التّعلّق" اللّبسُ الآتي مِن مرونةِ الجملة العربيّةِ؛ ذلك أنّ تغيير مواقعِ الكلم الأصليّة يعمل -في مواضعَ-على اشتباهٍ في العلاقات السّياقيّةِ البنيويّة، فقد يطولُ الفصل بين العاملِ والمعمولِ، فيُؤذِن هذا بتداخلِ العلاقات البنيويّة، ليعقبَه وهم واحتمالٌ، وقد يُحدِث تعدّدُ العوامل في السّياقِ الواحد اشتباهاً في تعيين المعمولِ الذي يتعلّق بعاملِه. ولعلّ مرونةَ الجملة العربيّة، وفصلَ الفعلِ عن مفعولِه هي التي أفضتْ إلى توهّم التّنازعِ في قولِ الشّاعرِ:

ولو أنّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ كفاني ولم أطلبْ قليلٌ من المالِ[1]

والملاحظُ أنّ جملة "لم أطلب" معترضةٍ بين العاملِ "كفاني"، والمعمولِ "قليل"، ولا يخفى أنّ بثّ عاملٍ آخرَ في هذا المُعْتَرَض أفضى إلى توهّم التّنازعِ، وإلى تعلّقِ "قليل" بالفعل "أطلبْ". وليس ذلك كذلك البتّة لفسادِ المعنى، وقد أعمل الشّاعرُ الفعل الأوّل، والمعنى: كفاني قليلٌ ولم أطلبْ.

لننظرْ في الجملِ الآتية:

١- علمت قبل سفري أنّهم اشتروا السّيارة.

٢- علمت أنّهم اشتروا السّيارة قبل سفري.

٣- قرّرت يوم الاثنين أنْ أسافر إلى عكّا.

٤- قرّرت أن أسافر إلى عكّا يوم الاثنين.

٥- علمت بمجيئ سريّ اليومَ.

٦- ﴿ إنّه على رجعِه لقادرٌ يومَ تُبلَى السّرائر﴾[2]

---

(١) الشعر لامرئ القيس، انظر: ديوانه، ٣٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥، ٣٩. وانظر : البيت: سيبويه - الكتاب، ١/ ٧٩، والمبرد- المقتضب، ٧٦/٤، ابن الأنباريّ - الإنصاف ٨٤/١، ابن عصفور - المقرب،١٧٨، ابن هشام -المغني، ٢/ ٦٦١ الأستراباذي- شرح الكافية، ١٥٨/١. الأشباه والنظائر ٢٦٠/٤.

(٢) الآية (الطارق، ٩).

يظهرُ مِن الجملة الأولى أنّ الظّرف متعلِّق بالفعل "علمت"، والمتقرِّر مِن الجملة أنّ القارئ علِم قبل سفرِه بأنّهم اشتروا السّيارة. ولكنّ الجملةَ الثّانية محتملة؛ ذلك أنّ "قبل سفري" تحتمِل أنْ تتعلّق بعاملَين متباينَين، فقدْ يكون المعنى أنّ القائلَ يقرّر أنّه علم قبلَ سفرِه بأنّهم اشتروا السّيارة، وقدْ يكون المعنى أنّهم اشترَوا السّيارة قبل سفرِه؛ كلّ ذلك مردّه إلى مرونةِ الجملةِ العربيّة المفضيةِ إلى اشتباهٍ في التّعلّق.

علمتُ قبل سفري

اشتروا قبلَ سفري

أمّا الجملةُ الثّالثة فهي واضحة، والظّرف "يوم الاثنين" مركوزٌ في موضعٍ دالٍّ على تعلّقه بالفعل "قرّرت"، ولمّا نُقِل مِن موضعِه -في الجملة الرّابعة- وقد تقدّمه عاملان يتجاذبانه، تُوُهِّم في تعلّقِه، فصار لدى الخاطرِ معنيان: أنّ ظرف القرارِ كان يوم الاثنين، أو أنّ ظرفَ السّفر كان يومَ الاثنين[1]:

قرّرت أن أسافرَ إلى عكّا يومَ الاثنين

والجملةُ الخامسة ملبِسة كسابقتِها، فقد يتعيّن مِنها أنّ مجيئ سريّ كان اليوم، أو أنّ علمَ السّامعِ كان "اليوم"، وثمّ بونٌ بين المعنَيين عريض؛ ذلك أنّ المتكلّم قد يقولُ الجملة، وقدْ مضى على مجيئِ سريٍّ يومان أو أسبوع أو شهر، ولكنّه لم يعلم إلاّ اليومَ. وقد يكونُ المتعيِّن أنّ المتكلّم قالها بعدَ أنْ عيّن يومَ المجيئ، فيكون زمنُ المجيئ وزمنُ العلمِ واحداً:

---

(١) من أمثلة هذا الموضع المرشح في الإنجليزية :

They will decide to sell every thing before we arrive
I will let you Know whether I will need you here when the doctor arrives.

انظر : Quirk – A Comprehensive, p.1042-1043.

Amr – Ambiguity, p. 35.

علمتُ بمجيئِ سريٌ اليومَ

أمّا الآيةُ الكريمةُ ففيها خلافٌ؛ ذلك أنّ الظّرف "يوم" يحتمل أنْ يكونَ العامل فيه "رجعِه"، والمعنى: إنّه على رجعِه يومَ تُبلى السّرائر لقادر، أو أنْ يكون "قادرٌ": "إنّه على رجعِه لقادرٌ يومَ تُبلى السّرائر" هو العامل، ولعلّ هذا الوجه باطلٌ؛ ذلك أنّ قدرتَه -تعالى- لا تتقيّد بذلك اليومِ ولا بغيرِه[1].

١- فَرَمَوا بنقعٍ يستقلّ عَصائباً   في الجوّ منه ساطعٌ ومُكَتَّبُ

موضع التّأمّل قولُه "في الجو"؛ ذلك أنّها قد تُردّ إلى غير مرجع، كأنْ تتعلّق بالفعل "يستقلّ في الجوّ"، أو تتعلّق بالعصائبِ: "عصائب في الجوّ"، فتكون صفةً لها، أو قدْ تتعلّق بــ "منه"، أي: "في الجوّ منه ساطع"[2].

٢- وماءٍ قد وردتُ لوصل أروى   عليه الطّيرُ كالوَرَق اللَّجين

في هذا الشّعرِ لَبسٌ ظاهر؛ ذلك أنّ "الورق اللّجين" تحتمل ضربَين: أحدهما أنْ تكون حالاً مِن الطّير، والمعنى أنّ الطّير على الماءِ كالورق اللّجينِ، والآخر أنْ يكونَ وصفاً للماء، وهنا يظهرُ أثرُ مرونةِ الجملة العربيّة في تخلّق اللّبسِ، فقد يكون التّقدير: وماءٍ كالورقِ اللَّجين وردتُه لوصلِ أروى عليه الطّير[3].

---

(١) يرى مكي أن العامل في الظرف " يوم" هو قادر. انظر : المشكل ٨١٢/٢. وقد ذكر ابن الأنباريّ الوجهين مرجحاً الأول. انظر : البيان، ٥٠٧/٢. والعكبريّ لا يجوز أن يعمل فيه " رجعه" للفصل بينهما بالخبر: التبيان، ١٢٨١/٢. وقد تأولها ابن جنيّ فقال إن المصدر الملفوظ به " رجعه" دال على الفعل، كأنه قال : يرجعه يومَ تبلى السرائر. انظر : ابن جنيّ- الخصائص ، ٢٥٩/٣. ابن هشام المغني، ٧٠٠/١، وأحسب أن في هذا التأويل تكلفاً ظاهراً. فالظرف متعلق بالمصدر " رجعه".

(٢) انظر:الفارسيّ- شرح الأبيات ، ٣٢٣-٣٢٤. الشعر في ديوان الهذليين، وهو لساعدة بن جؤية، ١٨٨/١.

(٣) انظر: الفارسي - المصدر نفسه، ٢٩٢-٢٩٣، والشعر للشماخ، انظر ديوانه، تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر ١٩٦٨، ٣٢٠.

وماءٍ قد وردتُ لوصلِ أورى عليه الطّير كالورق اللّجين

٣- وحاربتُ يومَ الجسر والموتُ كانِع وأبناؤه بين الذّراعين والنّحرِ

يحتمل تعلّق الظّرفِ "بين" بشيئين، وهما: كانع، والتّقديرُ: "والموتُ كانع بين الذّراعين والنّحر"، أي في هذا الموضعِ، وإذا كان ذلك كذلك، تعيّن إضمارُ خبرٍ لأبنائه، والتّقدير: وأبناؤه كانعةٌ، وهذا كثيرٌ كقولِنا: محمّد منطلق وزيد؛ أي: وزيدٌ منطلق، وقد يكونُ متعلّقاً بأبنائه، والمعنى: "وأبناؤه بين الذّراعين والنّحر"، فالظّرف خبرٌ لأبنائه[1].والمعنيان:

الموتُ كانع بين الذّراعين والنّحرِ

أبنـــاؤه بين الذّراعــين والنّحــر

٤-أشافيةٌ بزورتِها سِقامي إذا ما أقفرتْ منها العِراصا

في هذا الشّعر دلالةٌ مُبينة عن أثرِ مرونةِ الجملةِ العربيّة؛ ذلك أنّ فصلاً بين العاملِ والمعمول مقدارُه طولُ البيت، فالمُفتَتَح، وهو "بزورتِها" عاملٌ في المُنتَهى، وهو "العراصا"، ولعلّ أوّل خاطرٍ يَرِد على القارئ أنّ في البيت لَحناً مرذولاً وهُجْنة؛ إذ إنّه يتوهّم بأنّ التّقدير: إذا ما أقفرتْ منها العِراصُ، ولكنّ هذا الخاطرَ الواهم مدفوعٌ بيقين مفادُه أنّ القائلَ أراد تعميةً وتغطية، ففصل بين العاملِ والمعمول، فجَعل الأوّل في المُفتتَح، والثّاني في المُنتَهى، وأقام الكلامَ على العلاقات البِنيويّةِ المُلْبِسة مُوهماً ومضلّلاً، والتّقدير الكلّيّ: "أشافيةٌ هندٌ سقامي بزورتِها العِراصَ إذا ما أقفرت منها". وثمّ تقديرٌ آخرُ، وهو جعْل "العراصا" مفعولاً بقوله: "أشافية"، والتّقديرُ: "أشافية مسقمتي العِراصَ بزورتِها، ويُحمَل الكلام على مَحْمل التّجوّز، وجعلِ العِراصِ ممّا يشفَى[2].

---

(١) انظر : الفارسيّ- المصدر نفسه، ٢٥٠، ولم أقف على قائله.

(٢) انظر : الفارقي - الإفصاح، ٢٦٥- ٢٦٦، ابن عدلان - الانتخاب، ٦٤٠.

إخال أنّ ما تقدّم مِن حديثٍ عن اللّبس الآتي مِن التعلّق ومرونةِ الجملةِ العربيّة ما هو إلاّ نزرٌ يسير، والمَقْصِد مِن ذلك كلّه هو الإلماحُ إلى هذين الموضعَين المرشّحين لوقوعِ اللَّبس، ولا يخفى أنّ القرائنَ السّياقيّة والمعرفيّةَ تعملُ على رفع كثيرٍ ممّا قدْ يَرِد على أبناءِ اللّغة، ومِن ذلك قوله-تنزّه-:﴿ **إنّ الذين كفروا ينادَوْن لمقتُ الله أكبرُ من مقتِكم أنفسَكم إذ تُدْعَون إلى الإيمانِ فتكفرون**﴾[1]. يظهر مِن هذه الآيةِ الكريمةِ أنّ ثمّ مرجعَين يتقدّمان الظّرف "إذ"، وهما: مقتُ الله تبارك، ومقتُ الكافرين أنفسَهم، وقدْ يتردّد الخاطرُ، للوهلة الأولى، بين هذين المقتَين في ربطِ الظّرف بمرجعِه، ولكنّ المعنى لا يَحتمل إلاّ عَوداً واحداً؛ ذلك أنّه لا يصحّ في الفهم أنْ يتعلّق بالثّاني لفسادِه، لأنّهم لم يمقتوا أنفسَهم في ذلك الوقتِ، وإنّما يمقتونها في الآخرة[2]، ولذا يتعيّن أنْ يتعلّق الظّرفُ "إذ" بالمقتِ الأوّل، والمعنى الكلّيّ: لَمَقْتُ الله إيّاكم وقتَ دعائكم إلى الإيمانِ فكفرُكم أكبرُ مِن مقتِكم أنفسَكم الآنَ[3].

٦-الحذفُ:

الحذفُ أو "الاقتصاد في الكلامِ"[4] ظاهرةٌ شائعة في الأحداثِ الكلاميّة، وقد تبيّن أنّ لدِلالةِ السّياق فضلاً جَليلاً في الكشفِ عن المحذوف، والظّاهر أنّ هذه الظّاهرةَ تتجلّى بوضوحٍ في الأحداثِ الكلاميّة المنطوقة أكثرَ مِن المكتوبة، وقدْ عرّج اللّغويّون القدماءُ على مَطْلَب هذه المباحثةِ، فقدْ قرّر المبرِّد قاعدةً عريضةً أساسُها التّواصل، وهي: "فكلُّ ما كان معلوماً في القولِ جاريًا عند النّاس فحذفُه

---

(١) الآية (غافر، ١٠).

(٢) انظر : ابن هشام – المغني ، ٦٩٩/١.

(٣) انظر : ابن جنيّ– الخصائص، ٢٥٩/٣، وقد رفض بعض اللغويّين كون " إذ" ظرفاً للمقت؛ ذلك أنهم أضمروا ناصباً يتناول الظرف ويدل عليه المصدر، حتى كأنه قال: مَقَتكم إذ تدعون! انظر هذا الرأي : المصدر نفسه، ٢٥٩/٣. ابن هشام – المصدر نفسه، ٦٩٩/٢– ٧٠٠، مكي – المشكل ، ٦٣٤/٢، العكبريّ – التبيان، ٢/ ١١١٦. أبو حيان – البحر المحيط، ٤٣٥/٧.

(٤) هذه تسمية بييرجيرو. انظر كتابه: علم الدلالة، ١٠٨.

جائزٌ لعلم المخاطَب"[1]، وقد وضع ابنُ هشامٍ ثمانية شروطٍ للحذف، وهي في مُجْمَلها ودلالتِها الكلّيّة تدور في فلكِ التّواصل والإفهامِ، ومنها وجودُ دليل حاليّ، ومِن ذلك قولُهم لمن رفع سوطاً: "زيداً" بإضمارِ "اضرب"، وألاّ يكونَ ما يُحْذَف كالجزءِ، وألاّ يؤدّي حذفُه إلى اختصارِ المختصَر[2]. وقد عرّج ابنُ يعيشَ على هذه الظّاهرةِ معوِّلا على دلالةِ السّياق البنيويّ والحاليّ، ومِن ذلك إلماحتُه إلى حذفِ المبتدأ أو الخبرِ مع أنّهما متلازمان، "فلا بدّ منهما، إلاّ أنّه قد تُوجَد قرينةٌ لفظيّة أو حاليّة تُغْني عن النّطقِ بأحدهما، فيُحْذَف لدِلالتِها عليه، لأنّ الألفاظَ إنّما جيئ بها للدّلالة على المعنى، فإذا فُهِم المعنى بدون اللّفظ جاز ألاّ تأتيَ به، ويكون مُراداً حكماً وتقديراً"[3].

ولكنْ ، قدْ يعرضُ أنْ يَرِد على أهل اللّغةِ لَبْس آتٍ مِن قِبَل هذا المطلبِ، وهو مطلبُ إبانةٍ وإفهام، وإخاله يقع على المستويين المنطوقِ والمكتوب، ومِن ذلك أنْ يغدوَ الحدث الكلاميّ المكتوبُ بعد انسلاخِه مِن سياقِه الحيّ مُلبِساً محتمِلاً للعلّة هذه. ولا يخفى أنّ هذا الحدثَ المكتوب فَقَدَ بعض عناصرِ الإبانة، وأدلّة المقاميّاتِ، وقد يحدث أحياناً ألاّ تشفع المقاميّاتُ ودلالة الحالِ في هذه الجهة، فيقع اللّبس في الأحداثِ الكلاميّةِ الحيّة، ولذا يجدُ المرء في كثيرٍ مِن الحالات أنّ الحدثَ الكلاميّ الذي يشترك فيه يَعوزُه بسطٌ للقول وتطويلٌ، فيعقِّب على القائلِ إنْ لم يستوقفْه بـــ:

أفصح ، ماذا تعني؟ لم أفهم ، من الذي جاء؟

١- وممّا ورد عليّ في هذا المِضمار أنّ زميلاً طَلَب إلى آخرَ أنْ يعرض على طلاّبه أوراق استبانةٍ لكي يقيّدوا ملاحظهم عليها ، ولمّا عاد الزّميل الآخر ساءله الأوّل قائلاً: أعطيتَهم؟ فقال الثّاني : نعم ، فقال الأوّل مستدرِكاً على سؤاله

(١) المبرد – المقتضب، ٢٥٤/٣.

(٢) انظر : ابن هشام – المغني ٧٨٦/٢-٧٩٦.

(٣) ابن يعيش – شرح المفصل ٩٤/١.

بسؤالٍ : وأين الأوراق ؟ فقال الثّاني وقد عقّب باعتذارٍ: خلتُك تسأل : أعطيتَهم محاضرة؟.

يظهر مِن هذه الحادثة شيئان، أولهما أنّ الاجتزاء من السّياق البِنيويّ "أعطيتَهم" الباعث الأوّل على تخلّق اللّبس ، وثانيهما أنّ سياق الحال لم يشفع ، ولم يقم مَقام ذلكم المحذوف الذي اطّرحه القطبُ الأوّل اقتصاداً وتعويلاً على سماحة الأحوال ودِلالاتها.

٢- ومِن مثلِ ما تقدّم أنّ اثنين كانا يتجاذبان حَدَثاً كلامياً ، وقدْ شكا أحدُهما المعيشة الضّنك التي تثقلُه ، فقال : المال هو المشكلة الكبيرة! فقال الثّاني مستنكِراً عليه قولَه : المال هو الذي ييسِّر لك مطالب الحياة ، فقال الأوّل: لم أعنِ ما قفز إلى خاطرِك الأوّل ، وإنّما قصدت فَقْدَ المال وقلّتَه ، فتقبّل منه الأوّل ما قصد بقبولٍ حسن ؛ إذ إنّ كلامه بالمعنى الجديد المتجافي عن الحذفِ والاجتزاء من السّياق البنيويّ وافقَ هوى نفسه.

ومِن مثل ما تقدّم:

٣- نحن رجالَ العلم أمّة ترفض الهوان

ممّا أصله النّداء الاختصاص ، ولكنّ الأخير يفارق المنادى في أحكام، ومن ذلك أنّه ليس معه حرف نداء لا لفظاً ولا تقديراً ، وأنّه- أعني المخصوص- لا يأتي أولَ الكلام ، بل في أثنائه ، وأنّه يقلّ أنْ يكون علَماً[(١)].

وقدْ يحدث تداخل بين هذين المعنيين ؛ النّداء والاختصاص ، وإخال أنّ علّة هذا الحذفُ لا التّنغيم ؛ ذلكم أنّ الاسم المنصوب على الاختصاصِ يجب حذف عاملِه ، والمنادى يجوز حذف حرف ندائه ، ومِن ههنا يحدث الاشتباه، ولعلّ الجملة المصنوعة: "نحن رجالَ العلم" متردّدة بين المعنيين ، فقدْ يكون المقصِد نداءَ رجال العلمِ في حضرةٍ ما كاجتماع ، وقد يكون المَقصِد أنّه يخصّ رجال العلم ، وهو

---

(١) انظر : ابن هشام – أوضح المسالك، ٦٩/٤-٧٠، وقد أشار الأستراباذي والسيوطي إلى أن الاختصاص مشبه بالنداء. انظر : شرح الكافية، ٣٩٢/١ والهمع، ٢٤/٢.

واحد منهم ، وليس ينفع التّنغيم في هذا السّياق ؛ ذلك أنّ ثمّ تشابهاً بين تنغيمِ الاختصاص و تنغيم النّداء في هذا الموضع على وجه التّعيين.

٤- ويرغبُ أنْ يبني المعاليَ خالد ويرغبُ أن يَرضى صنيع الألائمِ

ممّا ران عليه إلف أهل اللّغة أنّ ضميم الفعل "رغب" عاملٌ فاعل في تعيين معناه ؛ ذلك أنّه يأتي مشفوعاً بحرف الجر"الباء" ، أو حرف الجر "عن" ، وعندَ هذا يصبح لدى ابنِ اللّغة معنيان متضادّان ، فقولنا: رغب به معناه : أراده وأحبه، "ورغب عنه" إذا عافه واطّرحه ، والفرق بين المعنيين جليّ ، ولا يخفى أنّ اطّراح هذا الحرف مَجْلَبة للاحتمال والتوهُّم ، وقد صدَق هذا الملْحَظ على البيت المتقدِّم ؛ ذلك أنّه يحتمل المعنيين ، فإنْ قُدِّر المحذوف "عن" فقد تعيّن أنْ يكون المعنى مَدْحاً، وإنْ قُدِّر المحذوف "بـــ" فقد تعيّن أنْ يكون ذمّا ، ولا يجوز أنْ يجتمع في هذا البيت تقديرُ الضّميمين للتّناقض الحاصل[١].

ومِن أمثلة هذا المطلب:

٥- ﴿ وإذْ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ ربَّنا تقبّلْ منّا﴾[٢]

يظهر من هذه الآية الكريمة أنّ ثمّة شيئاً محذوفاً بعد "إسماعيل"، ولعلّه "يقولان" أي : وإذْ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان ربَّنا تقبّل منّا ، والجملة المقدَّرة "يقولان" في محلّ نصب حال . وثمّة وجه آخرُ في تقدير المحذوف، وهو "يقول"،`والمعنى: وإسماعيل يقول ربَّنا...، لأنّ البناء كان من إبراهيم ، والدّعاء كان من إسماعيل عليهما السّلام[٣]، ولعلّ هذا يفسِّر قراءة مَن

---

(١) انظر : ابن السيد –الإنصاف، ٥٦، ابن هشام – المغني، ٦٨٢/٢، ولم أعثر على قائله.

(٢) الآية: (البقرة، ١٢٧).

(٣) انظر : ابن الأنباريّ – البيان، ١٢٣/١، العكبريّ– التبيان ، ١١٥/١ أبو حيان – البحر المحيط، ٥٥٨/١-٥٥٩.

وقف على قولِه : مِن البيت ∆، ثمّ ابتدأ : وإسماعيل(يقول) ربَّنا... [1]، والمُستصفى مِن كلّ ما تقدّم أنّ الحذف باعث من بواعث تعدّد المعنى واحتمالِه في بعض المواضع.

٦- فقلتُ له: لا والذي حجّ حاتمٌ أخونُك عهداً إنّني غيرُ خوّانِ

موضع النّظر والتّأمّل قولُه :"لا والذي حجّ حاتم" ؛ إذْ إنّ "الذي" تحتمل معنيين ؛ فإنْ عَنَى بـــ"الذي" الله -سبحانه- فالتّقدير: لا والذي حجّ له حاتمٌ ، وقد حَذَفَ "له" من الصّلة ، وإنْ عَنَى من "الذي" الكعبة ، فذَكَّر على إرادة البيت ، فالضّمير في "حجّ " محذوف ، والمعنى: والذي حجّه حاتم[2]، وأحسب أنّ التردّد بين هذين المعنيين الصّالحين في سياقهما باعثُه اشتباهٌ في تعيين المحذوف.

٧- وأهلَكَ مهـــرَ أبيـــك الدوا ء ليس له في طعـــامٍ نصيب

يقول الفارسيّ: "وقد جاء في الشّعر أبيات مثلُ ذلك في حذف المضاف إليه، ومع أنّه يؤدّي حذفه إلى الإلباس"[3]. ولعلّ هذا التّقرير الذي جاء به الفارسيّ يتوافقُ مع ما في هذا البيتِ من حذف ؛ ذلك أنّ المعنى المتعيّن : أهلَكَ مهرَ أبيك فَقْدُ الدّواء[4]، فحُذِف المضافُ لِيُعقِبَ هذا الحذفُ التباساً قد يتعذّر رفعه عند مَن لم يقف على تفسير هذا البيت ونحوه ، والحقّ أنّني كنت قد عرضتُ هذا البيت على ثلّة مِن طلاّب العربيّة في الدراسات الأولى "البكالوريوس" ، فجنحوا كلّهم إلى أخذ المعنى على ظاهر اللّفظ ، لا على تقدير محذوف ، وحسبي بعد هذا العرضِ اقتباسُ قول ابن قتيبةَ:

---

(١) انظر : ابن الأنباريّ -المصدر نفسه، ١/ ١٢٣.

(٢) انظر : الفارسيّ- شرح الأبيات ، ٤٢٩، وقد نسبه المحقق إلى العريان بن سهلة، وانظر : خزانة الأدب، ٦/ ٥٦-٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ٣٨٧.

(٤) انظر : المصدر نفسه، ٤٠٥، وقد اختلف في نسبة هذا الشعر، وهو منسوب في المفضليات إلى ثعلبة بن عمرو. انظر : كلام المحقق.

" وقد يُشْكِل الكلامُ ويغمض بالاختصارِ والإضمار"[1]

وممّا ينضاف إلى اللّبس الآتي من الحذف بعضُ الأمثلة من التّفضيل والمقارنة؛ وذلك نحو:

هي تحبّه أكثر منك.

محمد يحبّ زيداً أكثر من عَمرو.

سعيد يلاطف أباه أكثر من أمّه.

يَصْدُق على هذه الجمل بأنّها تأتلف مِن مبنى مُكثَّف ومعنى مُغلَّف ؛ ذلك أنّ فيها حذفاً وتكثيفاً يُفضيان إلى صيرورتها محتمِلة ، فالجملة الأولى قد تعني أنّها تحبّ فلاناً أكثر من حبّك له ، أو أكثر مِن حبّها لك. ومحمّد يحبّ زيداً حبّاً يفوق حبّ عَمرو لزيد، أو حبّ محمّد لعمرو . والجملة الثّالثة كسابقتها.

يظهر أنّ بسط هذا الكلام الموجَز المكثّف يعمل على رفع إلباسِه وإشكاله ، فلو أنّه قيل: سعيد يلاطف أباه أكثرمن ملاطفته"سعيد" لأمّه،لبدتْ الجملة مُبينَة عن معناها[2].

٧- حروف المعاني وتعدّد معانيها:

هذا موضعٌ آخرُ من المواضع المرشِّحة لوقوع اللَّبس ، وليس المَقصِدِ من هذا العنوان العريضِ أنْ يكون باب "التناوب" مفتوحاً باطّراد ؛ إذ إنّه يفضي إلى تداخل في المعاني ، وقد ألمح ابن جني إلى هذا المطلب ، فقال :" ...وذلك أنّهم يقولون إنّ "إلى" تكون بمعنى "مع" ، ويحتجّون لذلك بقول الله –سبحانه وتعالى-: "مَن أنصاري إلى الله"، أي :مع الله ، ويقولون إنّ "في" تكون بمعنى "على" ، ويحتجّون بقوله –عز اسمه– : "ولأصلبنّكم في جذوع النّخل" ، أي : عليها ، ولسنا

---

(١) ابن قتيبة – تأويل المشكل، ٢١٨.

(٢) انظر: أمثلة هذه الموضع في الإنجليزية :

Quirk- A Comprehensive, p.1137.

ندفع أنْ يكون ذلك كما قالوا ، ولكنّا نقول إنّه يكون بمعناه في موضعٍ دون موضع، على حسب الأحوالِ الدّاعية إليه ، والمسوّغة له ، فأمّا في كلّ موضع ، وعلى كلّ حال فلا، ألا ترى أنّك إنْ أَخَذتَ بظاهر هذا القول غُفْلاً هكذا لا مقيَّداً لزمك عليه أنْ تقول : سرت إلى زيدٍ ، وأنت تريد "معه" ، وأنْ تقول: زيد في الفرس وأنت تريد "عليه"...[1]".

أحسب أنّ الذي تقدّم تحوّط حميد لا بدّ منه ، وأنّ من حروف المعاني ما هو كالمشترك اللّفظيّ ، ومن ذلك "ما" ، فقد تكون اسماً ، وقد تكون حرفاً ، وإذا كانت اسماً فإنّ لها مواضعَ ، ومِن ذلك أنْ تكون استفهاماً وشرطاً وتعجّباً وخبريّة ونكرةً موصوفة، وإذا كانت حرفاً كان لها مواضع ، ومِن ذلك أنْ تكون نافيةً وزائدة وفي تأويل المصدر[2].

ولكنْ قد يحدث اشتباهٌ باعثُه تداخلٌ في معاني الحروف ، كأنْ يتردّد المرء بين معنيين أو أكثر ، أو قد يُذْهَب إلى أنّ حرفاً ما قد قام مَقام آخر، والأمثلة الآتية تجلّي ما تقدّم:

١ – جئتك بشيءٍ من الذّهب

"مِن" في سياقِها محتمِلة معنيين : أوّلهما أنْ تكون تبعيضيّة ، وإذا كان ذلك كذلك فالمعنى أنّ القائل جاء بنزرٍ يسيرٍ من الذّهب ، وجاء كلامه هذا إخباراً بهذا النّزر ، وثانيهما أنْ تكون بياناً للجنس ، والمقصِد أنّ القائل يرمي إلى إذاعة خاطرٍ عند المتلقّي مؤدّاه أنّه لم يأتِ بالفضّة ولا الحديد ، بل جاء بالذّهب ، وكانت "مِن" في سياقها هذا بياناً للجنس الذي جاء به المتكلِّم لا المقدار كما في التّأويل الأوّل.

---

(١) ابن جنيّ الخصائص ، ٣٠٩/٢- ٣١٠، وقد رفض محمد عواد نيابة بعض حروف الجر عن بعضها. انظر : كتابه: تناوب حروف الجر في لغة القرآن، ط١، دار الفرقان عمان، ١٩٨٢م، ٨١. ولا بد من الإشارة إلى أن العنوان يشتمل على كلمات تعد أسماء ومن ذلك ما ومن وغير ذلك. والآية (طه ، ٧١).

(٢) انظر : معاني " ما" الرماني – معاني الحروف، تحقيق عبد الفتاح شلبي، ط٢، مكتبة الطالب الجامعيّ، السعودية، ١٩٨٦م، ٨٦-٩٠.

٢- " فُتِن فلانٌ بالمدينة "

قد تعني "الباء" الظّرفيّة ، والمعنى قريب من قولنا: جُنّ فلان في المدينة ، وقدْ تكون أنّ المدينة كانت سببَ فتنته ، ومثل ذلك قوله –تقدّس اسمه-:﴿ **فأهلكناهم بذنوبهم**﴾[١]، أي بسبب[٢].

٣- " ومن تطوّع خيراً فإنّ الله شاكرٌ عليم"[٣]

مِن معاني "مَنْ" أنّها شرطيّة ، كقولنا : مَنْ يدرسْ ينجحْ ، وقد تأتي بمعنى "الذي" ، وهي محتمِلة المعنيين في السّياق الشّريف ، فإذا كانتْ شرطيّة تعيّن أنْ يكون موضع "تطوّع" جزماً ، ومعناه الاستقبال ، وإذا كانتْ بمعنى الذي فالمتعيِّن مِن "تطوّع" المضيّ على بابه[٤]. ولا يخفى أنّ التّنغيم قد يعمل على توجيه المعنى.

٤- " ذهبنا إلى المنزل إذْ أحمد موجود "

" إذ" تتردّد بين معانٍ متنوّعة ، ومن ذلك أنّها تأتي ظرفاً ، ومنه قوله-تعالى-: ﴿ **فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا**﴾ [٥]، وأنّها تأتي للتّعليل، وقد حمَل ابن هشام معنى "إذْ" في قوله –تعالى-﴿ **ولن ينفعكم اليومَ إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون**﴾ على هذا المحمل ، والمعنى الكلّيّ ، ولن ينفعَكم اليوم اشتراككم في العذاب لأجلِ ظلمكم في الدّنيا[٦]، والملاحَظ أنّ الجملة المتقدِّم ذكرُها محتمِلة للمعنيين: معنى التّعليل والظّرفيّة ، والباعث على تخلّق هذا اللّبس هو أنّها كالمشترك اللّفظيّ، وممّا جاء محتمِلاً قولُ المتنبيّ:

---

(١) الآية (الأنفال ، ٥٥).

(٢) انظر : معاني " الباء" المصدر نفسه،٣٦-٤١، المالقي – رصف المباني،١٤٢ -١٥٢، ابن هشام – المغني،١/ ١٣٧-١٥١، المرادي- الجنى، ٣٦-٥٦.

(٣) الآية (البقرة، ١٥٨).

(٤) انظر : مكي – المشكل، ١/١١٣، ابن الأنباريّ – البيان، ١/١٢٩- ١٣٠، العكبريّ- التبيان، ١/١٣٠- ١٣١.

(٥) الآية (التوبة، ٤٠).

(٦) انظر : ابن هشام- المغني، ١/١١٣، والآية (الزخرف، ٣٩).

٦- أمِنَ ازديارك في الدُّجى الرّقباء   إذْ حيث كنتِ من الظّلام ضياء

و"إذ" في سياقها المتقدّم متردّدة بين الظّرفيّة والتّعليليّة[١].

٧- فإنّك كاللّيلِ الذي هو مدركي   وإنْ خلتُ أنّ المنتأى عنك واسعُ

تأتي "إنْ" شرطيّة ، وهذا كثير ذائع ، ونافيةً ، ومنه قوله- تعالى-:﴿ إن الكافرون إلا في غرور﴾[٢]، ومخفّفةً من الثّقيلة[٣]، وقد يتساءل المرء عن المتعيّن مِن "إنْ" في الشّعر المذكور ، فيطّرِح المعنى الأخير ؛ إذْ إنّه لا يستقيم البتّة، فيبقى المعنيان، وهما الشّرط "الجزاء" والنّفي ، وكلاهما صالح في سياقه ، والمعنى : وما خِلت أنّ المنتَأى عنك واسع لأنّك كاللّيل الذي هو مدركي . وقد يكون: إنْ خلتُ أنّ المنتأى عنك واسعٌ أدركتني ولم أفتْك كما يدركني ، ولعلّ المعنى الأوّل أشبه[٤]، ولا يخفى أنّ ثَمّ بونا بين المعنيين عَريضاً.

٨- ﴿ إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسولَه ويسعَون في الأرضِ فساداً أنْ يُقتّلوا أو يصلّبوا أو تُقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفَوا من الأرض، وذلك لهم خزيٌ في الدّنيا ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيم﴾[٥].

تتردّد "أو" بين معانٍ متباينة ، ومن ذلك أنّها تأتي للتّخيير ؛ وذلك نحو: كُلْ سمكاً أو اشرب لبناً ، والمعنى أنّه لا يجوز لك أنْ تجمع بين هذين المطلبين ، بل الفعل مُسلَّط على أحد هذين ، وتأتي للإباحة ، ومن ذلك : جالس الحسن أو ابن سيرين ، أوْ تعلّم الأدب أو الفقه ؛ أي كلّ ذلك مُباح للمخاطَب يفعل منه ما شاء

---

(١) انظر : المصدر نفسه، ١١٩/١، وقد أعربها ابن هشام بأنها ظرف مبدل من محل " في الدجى"أو للتعليل والشعر في ديوان المتنبي: (شرح العكبري)، ١٢/١.

(٢) الآية: (الملك، ٢٠)

(٣) انظر : معاني " إن" الرماني – معاني الحروف، ٧٤-٧٦، المالقي- رصف المباني، ١٠٤- ١١١، المرادي – الجنى،٢٠٧/٢١٥، ابن هشام – المغني ، ٣٣/١-٤١.

(٤) انظر : الفارسيّ – شرح الأبيات ، ٩٣، والشعر للنابغة الذبياني، انظر ديوانه: ٨١.

(٥) الآية (المائدة، ٣٣).

على الانفرادِ والاجتماع . وتأتي للإضراب والتّقسيم "التّفصيل"[1]. وقد كان تردُّدُ "أو" بين معنيين هما التّخيير والتّفصيل باعثاً من بواعثِ الاختلاف الفقهيّ ، فقد ذهب قوم إلى أنّ "أو" في سياقِها الشّريف للتّخيير ، وانبنى على هذا الفَهم اللّغويّ حكمٌ فقهيٌّ مفاده أنّ السّلطان مخيَّر في هذه العقوبات ، يفعل بقاطع السّبيل أيّها شاء، وذهب آخرون إلى أنّ معنى "أو" التفصيل، "فمن حارب وقَتَل وأخَذَ المال طُلِب ، ومن قَتَل ولم يأخذ المال قُتِل ، ومن أَخَذ المال ولم يقتلْ قُطِعت يده ورجلُه من خلاف ، واحتجّوا من اللّغة بأنّ العرب تستعمل "أو" للتّفصيل فيقولون : اجتمع القوم فقالوا : حاربوا أو صالحوا ، أي: قال بعضهم كذا، وقال بعضهم كذا"[2].

٩- أنّى جئت؟

مِن معاني "أنّى" كيف ، و"من أين" ، و"متى"، وقد أُوِّل قوله- تعالى- :﴿ **فأتوا نساءكم أنّى شئتم**﴾ [3] على هذه الأوجه المتقدّمة[4] ، وقد اقتصر ابن قتيبةَ على المعنيين الأوّلين قائلاً: "والمعنيان متقاربان يجوز أنْ يُتَأوّل في كلّ واحد منهما الآخر"[5]، والظّاهر أنّ هذا المشترَك اللّفظيّ يُفرِز لَبساً محتمِلاً ، فقولنا "أنى جئت؟" قد يكون المتعيّن منه السؤالَ عن الكيفيّة ، أو المكان ، أو الزّمان .

ومِن أمثلة هذا التعدّد ما يكتنف الحرف "ربّ" ؛ إذ إنّه يقع للتّكثير كثيراً، وللتّقليل قليلاً[6]، ولا يخفى أنّ هذا التردّد بين المعنيين المتضادّين يؤدّي إلى المَظِنّة

---

(١) انظر : معاني " أو" الرماني – معاني الحروف، ٧٧-٨٠، المالقي – رصف المباني، ١٣١-١٣٤، المرادي- الجنى،٢٢٧-٢٣٢، ابن هشام – المغني، ٨٧/١-٩٥.

(٢) ابن السيد – الإنصاف، ٤٨-٤٩ وانظر : ما قيل في هذه الآية: عبد الوهاب طويلة – أثر اللغة في اختلاف المجتهدين، دار السلام، مصر، ١٤١٤هـ، ٢٣١. عبد القادر السعدي – أثر الدلالة النحوية واللغويّة في استنباط الأحكام من آيات القرآن التشريعية،ط١، مطبعة الخلود، بغداد، ١٩٨٦م، ١٣٨-١٤٠.

(٣) الآية: (البقرة، ٢٢٣)

(٤) انظر : العكبريّ – التبيان ١٧٨/١، الأستراباذيّ – شرح الكافية، ٢٨٨/٣.

(٥) ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن، ٥٢٥.

(٦) انظر : ابن هشام – أوضح المسالك، ٤٦/٣، ابن مالك – شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، تحقيق طه محسن، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد،١٩٨٥م. ١٦٤

والتوهّم ، ولذا يحتاج القارئ إلى رويّة ولطف نظرٍ في الكشف عن المعنى المتعيِّن منه في سياقِه.

١٠- و"ما" في قوله -تعالى-:﴿ والأرضِ وما طحاها﴾ [(١)] تتردّد بين كونِها اسماً موصولاً ، والمعنى : والأرضِ والذي طحاها ، وكونِها مصدريّة ، والمعنى: والأرضِ وطحائها[(٢)].

بعد هذا العرض المُقْتَضَب أختتم هذه المباحثة مشيراً إلى أنّ "معاني الحروف" درس عسيرٌ، ولعلّه ينبني على فرض معنى على حرفٍ في سياقِ التّركيب أشياءُ كثيرة، ومن ذلك "الفاء" في قولهم: "ما تأتيني فتحدّثني"؛ فبتباينِ وجهِ القول على الفاءِ يتباينُ المعنى تبايناً جليّا ، ويتباينُ إعراب الفعل "تحدثني" أيضاً ؛ ذلك أنّه يجوز الرّفعُ على وجهين ، والنّصب على وجهين ، فإذا كانت الفاء عاطفةً وجب الرّفع : ما تأتيني فتحدّثُني ، وعندها يشترك الفعلان في النّفي ، والمعنى : ما تأتيني وما تحدّثُني . وإذا كانت الفاء للاستئناف تعيّن الرّفع ، وتباينَ المعنى المنبني على معنى "فاء" الاستئناف عن المعنى المبني على معنى "فاء" العطف ، فالفعل الثّاني "تحدثني" في هذا السّياق؛ سياق الاستئناف مُثْبَت لا منفيّ ، والتّقدير : ما تأتيني ، وأنت تحدّثُني الآنَ . وقد يُنصَب الفعل "تحدثني" ، والفاء سببيّة ، وله معنيان : أولّهما نفي السّبب : أما "تأتيني" فينفي المسبّب : "فأنت تحدثني"، وثانيهما: نفي الثّاني فقط ، والمعنى : منك إتيانٌ كثير ، ولا حديثَ منك[(٣)]، لعلّ في هذا المثال بياناً عن جدل التأثّر والتّأثير الواقع بين حروف المعاني والسّياق البنيويّ.

٨-وممّا ينتسب إلى هذا المطلب؛ مطلبِ الحديث عن حروف المعاني وتناوبِها "**توهّم الأصالة والزيادة**" فيها ؛ ذلك أنّ النّظام اللّغويّ يبيح في بعض المواضع أنْ تُزاد لأغراض كالتّوكيد ، وقد يحصل تباينٌ في الفهم مردّه إلى التردّد

---

(١) الآية (الشمس، ٦).

(٢) ابن الأنباريّ – البيان،٢/٥١٦.

(٣) انظر : هذه المسألة: سيبويه- الكتاب، ٣/٣٠-٣١، ابن هشام -المغني ، ٢/٧٣٤.

بين كونها زائدةً أو أصليّة ، ويظهر أنّ هذا التردّد موضعٌ من المواضع المرشِّحة لإفراز اللَّبس والاحتمال ، والأمثلة الآتية تعضد هذا المذهب:

١- "ما عدت بخائب"

فإذا كانت الباء زائدةً فالمعنى:"ما عدت خائباً"، وقد قرّر المتكلّم بزيادتها التّوكيد، وإذا كانتْ جزءاً أصيلاً من السّياق البنيويّ فالمعنى أنّ المتكلّم لم يرجعْ بأحد خائب ، أو لم يرجع ومعه خائب ، ومِن مثلِ ما تقدّم قولُ الشّاعر:

٢- فما رجعتْ بخائبةٍ رِكابٌ   حكيمُ بنُ المُسيَّب مُنتهاها[١]

والمعنى: خائبةً ، أو بحاجة خائبة.

٣- ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصّلاةِ فاغسلوا وجوهَكم وأيديَكم إلى المرافقِ وامسحوا برؤوسِكم﴾ [٢].

مِن أركان الوضوء التي تضمّنتها الآية الشّريفة مسحُ الرّأس ، وفيه نصّ ظاهر لا ريب ، وقد اختَلَف علماء الفقه في مقدار هذا المسح المتعيّن ، والظّاهر أنّ هذا الاختلاف الفقهيّ قائمٌ في أصله على اختلاف لغويّ[٣]، ولعلّ توهّم أصالة الحرف "الباء" وزيادته هي الباعث الأوّل المفضي إلى هذا الاختلاف اللّغويّ الفقهيّ؛ فقد ذُهِب إلى أنّها زائدة ، والمعنى: امسحوا رؤوسَكم ، ومثلها: لست عليكم بشهيدٍ ، أي : لست عليكم شهيداً ، وإذا كان ذلك كذلك ، فالمتحصّل مِن هذا النّصّ مسحُ جميع الرأس ، وقد جنح آخرون إلى عدّها أصليّة ، ومعناها التّبعيض، والمعنى: بعضَ رؤوسكم ، وقيل هي للإلصاق ، والمعنى : ألصقوا المسحَ برؤوسِكم[٤]. والحقّ أنّ أمثلة هذا الموضع المرشّح لتخلُّق اللّبس ظاهرةٌ في العربيّة

---

(١) الشعر منسوب للقحيف العقيلي في الخزانة١٠/١٣٧: وانظر : ابن هشام – المغني ١/١٤٩، المرادي – الجنى، ٥٦، السيوطي – الهمع، ١/٤٠٦.

(٢) الآية: (المائدة، ٦)

(٣) انظر : عبد الوهاب طويلة – أثر اللغة ، ٢٦٩–٢٧٠ عبد القادر السعدي – أثر الدلالة ، ١٠٨–١١٠.

(٤) انظر : ابن هشام – المغني، ١/١٤٣، وقد ذكر معنى الاستعانة، ورجح معنى الإلصاق ، ورجح العكبريّ زيادتها رافضاً كونها للتبعيض. انظر : التبيان ١/٤٢٢.

في العصور المتقادِمة ، وهي كذلك في التّنزيل العزيز ، وسَيَرِد بعض الأمثلة في مطلب الحديث عن مشكلِ القرآن وغريبِ الحديث ، والملاحَظ أنّ هذه الزّيادة والأصالة لا تشيع كثيراً في الأساليب المعاصرة.

٩- اشتباهُ الزّمن النّحويّ:

تُقسَم الأفعالُ إلى الماضي والمضارع والأمر، وهي قسمة محتكَمها الأوّلُ الزّمن، وأوّل ما يظهرُ مِن هذه القسمة العريضةِ أنّها عامّة لا تُحدِّد زمن الفعل إلاّ وهو مُنسلِخ مِن سياقه في الغالب؛ ذلك أنّ السّياق هو المُحتكَم الأوّل في تعيينِ زمن الفعلِ، فقولنا "يدرس" فعلٌ مضارع، ولكنّه يغدو ماضياً أو مُستقبِلاً عند دخولِه في سياق بنيويّ، ومِن ذلك:

"لمْ يدرس"، والزّمن ههنا المضيّ، و"سيدرس"، والزّمن ههنا خالصٌ للاستقبال، و"غفر الله لك"، والزّمن ههنا للاستقبالِ، فهو دعاء. و"قد أقلعت الطّائرة"، والزّمن فيها المضيّ القريبُ، والذي يبدو مِن زمن الأفعالِ وهي مجرَّدة أنّه موغِل في الإطلاقِ والعموميّة، ومِن ذلك "درس"، فهذا ممتدّ في الزّمنِ الماضي الذي لا يُعلَم له حدّ، وقولُنا "سيدرس" ممتدّ في الاستقبالِ إلى أجلٍ غيرِ معلوم، ولذا يستعينُ المرسِل لضبطِ الزّمن وِفاقاً لمرادِه بأساليبَ متنوِّعة، ومِن ذلك الظّرف:

سيدرس بعدَ ساعة

درس قبل يومين

لننظرْ في الفعلِ الماضي، وهو للمضيّ في الغالبِ، وقد ينصرف إلى الحال؛ وذلك إذا قُصِد به الإنشاءُ، ومِنه "بِعْتُ"، و"اشتريت"، و"زوّجتُك ابنتي"، وغير ذلك مِن ألفاظ العقودِ؛ "إذ هو عبارة عن إيقاع معنى بلفظٍ يقارنه في الوجود"[١]، وقد ينصرفُ إلى الاستقبالِ؛ وذلك نحو:﴿ **إنّا أعطيناك الكوثر**﴾[٢] ، والمرادُ بهذا الوعدُ،

---

(١) السيوطي- الهمع، ٣٧/١.

(٢) الآية: (الكوثر، ١)

وقد ينصرف الفعل إلى الاستقبالِ إذا اقتضى طلباً؛ وذلك نحو: لا تلعبْ، أو عُطِف على ما عُلِم استقبالُه، ومِنه: "ويوم يُنفَخ في الصّور ففزِع"(١).

ولكنْ، قد يحدث اشتباهٌ في تعيينِ زمن الفعل في سياقِه البنيويّ، ومِن المواضعِ الملتبِسة أنّه يحتمل المضيّ والاستقبالَ إذا وقع بعد همزة التّسوية، ومِن ذلك:

١ - ﴿سواء عليّ أقمت أم قعدت﴾

فقد يُحتمَل أنْ يكون المتعيّن مِن هذا التّركيبِ ما كان منك قيامٌ أو قعود، أو ما يكونُ منك مِن ذلك، والحقّ أنّه موضعٌ ملبِس لتردّد الفعل بين الزّمنين، ولكنّه ليس كذلك إذا اقترن الفعلُ بــ "لم"، لأنّ "لم" مع المضارع تردّه إلى المضيّ كما تقدّم، ومِن ذلك:

٢- " سواء عليّ أأنذرتهم أم لم تنذرهم"

وههنا يظهرُ فضل السّياقِ البنيويّ في تعيينِ زمن الفعلِ، فقولُه: لم تنذرْهم معناه المضيّ، فوجب مضيّ الأوّل لأنّه معادلٌ له(٢).

ويتردّد الفعلُ بين الزّمنين بعد أداةِ التّحضيض؛ وذلك نحو: هلاّ فعلت، والظّاهرُ مِن هيئةِ الفعل أنّه ماضٍ، وإذا كان كذلك، فهو توبيخٌ، والوجهُ الآخرُ هو الاستقبال، والمعنى أنّه أمر، ومِنه قوله-تنزّه - في التّنزيل:"**فلولا نفرَ مِن كلّ فرقة طائفة**"، والمعنى: لِيَنفر(٣).

ويتردّد الفعلُ بين الزّمنين بعد "كلّما". لننظرْ فيما يأتي:

---

(١) الآية (النمل، ٨٧)، وانظر : مطلب هذا الدرس: السلسيلي – شفاء العليل، ١/١١٠-١١١، السيوطي – الهمع، ٣٧/١.

(٢) انظر : السلسيلي- المصدر نفسه، ١/١١٠-١١١، السيوطي – المصدر نفسه، ١/٣٧-٣٨

(٣) انظر :- المصدر نفسه، ١١١/١، السيوطي- المصدر نفسه، ٣٨/١، والآية (التوبة، ١٢٢).

١- كلّما لعبتُم خسرتُم.

٢- ﴿ كلّما نضجت جلودُهم بدّلناهم﴾[١].

يظهرُ مِن الجملة الأولى أنّ دِلالةَ الفعل "لعبتم" في هذا السّياقِ تتردّد بين المضيّ والاستقبالِ، فقد يكون المعنى أنّكم دائماً تلعبون فتخسرون، وقدْ يكونُ المعنى المضيّ؛ أي أنّكم كلّما لعبتُم(مِن قبل) خسرتم. أمّا قوله –تعالى– فهو لا يحتمِل إلاّ زمناً واحداً، وهو الاستقبالُ[٢].

ويتردّد الفعلُ بين الزّمنين بعد "حيث"، ومِن ذلك:

١- " ومِن حيث خرجتَ فولّ وجهَك"[٣]

٢- " فأتوهن مِن حيث أمركم الله"[٤]

٣- لا يضيرني مِن حيثُ أتى الخطر

يظهرُ مِن سياق الآيةِ الكريمة أنّ الفعل للاستقبالِ، والدالّ على هذا قولُه: فولّ، والمعنى: ومِن حيث تخرج. أمّا في الآيةِ الكريمة الثّانية فالفعلُ خالصٌ للمضيّ. أمّا الجملة الثّالثة فهي محتمِلة؛ ذلك أنّ "يَضيرني" ترشّح الفعلَ "أتى" للاستقبالِ، والتّقدير: لا يَضيرني مِن حيثُ يأتي، وقد يَخلُص الفعلُ للمضيّ، ويبقى المعنى على ظاهر لفظِه، ولعلّ للمقاميّات والأبعادِ الخارجيّة يداً في تعيينِ أحدِ الزّمنين، وقد يتعذّر ذلك في مواضعَ.

وقدْ يتردّد الفعلُ بين الزّمنين مع "إنْ" الشّرطيّة؛ ذلك أنّها تقلبُ معناه إلى المستقبَلِ في الغالب[٥]، ومِن ذلك:

---

(١) الآية: (النساء، ٥٦).

(٢) انظر : السلسيلي – المصدر نفسه، ١١١/١، السيوطي – المصدر نفسه ٣٨/١٠.

(٣) الآية: (البقرة، ١٤٩).

(٤) الآية (البقرة، ٢٢٢).

(٥) يزعم بعض النحويين أن " إن" تبقى على مدلولها من المضيّ، ولا تغير أدوات الشرط دلالتها عليه، انظر : السيوطي – المصدر نفسه، ٤٥٤/٢.

" إنْ كنتَ عازماً على قتالِه فأنتَ خاسر"

يظهرُ مِن هذا السّياق البنيويّ أنّ الفعلَ "كنت" يحتملُ أنْ يكون خالصاً للمضيّ، والمعنى أنّك كنت قد عزمتَ على قتالِه "في الماضي"، وقد يكونُ للاستقبال، والمعنى أنّك إذا عزمتَ على قتالِه، وأردت ذلك فإنّك ستخسر. وممّا يُحمَل على وجهٍ واحدٍ، وهو الاستقبال، قوله-تقدّستْ صفاته-:﴿**وإن كنتم جُنُباً فاطّهروا**﴾[1].

وقد يتردّد الفعلُ بين الزّمنين مع "لو"، وهي شرطٌ للماضي غالباً، ولكنّها قدْ تَرِد للمستقبَل ولا تجزم، ولا يخفى أنّ هذا التردّدَ بين الزّمنين مَجْلَبة للّبس، ومِن ذلك:

" لو أنك استقبلتني لرحّبت بك"

قدْ يكونُ الشّرط في هذا السّياقِ مقيَّداً بالماضي، وقد يكون مقيَّداً بالمستقبَل، وممّا حُمِل على هذا الوجهِ الأخيرِ قولُ الشّاعر:

ولـــو أنّ لـــيلى الأخيلـــيّة ســـلّمتْ — علـــيّ ودونـــي جـــندلٌ وصـــفائحُ

لســلمتُ تســليمَ البشاشــةِ أو ْ زَقا — إلــيها صــدى مِــن جانبِ القبرِ صالحُ

والمعنى: لو أنّها تسلّم عليّ[2] .

وقدْ يتردّدُ الفعل بين الزّمنين بعد "إذا"، والمشهورُ أنّها ظرفٌ للمستقبَل متضمِّن معنى الشّرطِ، ولكنّها تجيىء للماضي في مواضعَ[3]، فيعقب هذا التباسٌ. والتّداخل بين أسلوبي الدّعاء والإخبارِ يعملُ على اشتباهِ زمنِ الفعل، ومِن ذلك:

---

(١) انظر : المصدر نفسه، ٤٥٤/٢، والآية (المائدة، ٦).

(٢) انظر : ابن هشام – المغني، ٣٤٤/١، وقد رد على من زعم أن " لو" لا تأتي للمستقبل، ابن عقيل – الشرح ، ٢/ ٣٢٧-٣٢٨ . السيوطي –المصدر نفسه ، ٤٦٨/٢ والشعر لتوبة بن الحميّر.انظر: ديوانه ، تحقيق خليل العطية ، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٨ ، ٤٨

(٣) انظر : ابن هشام – المصدر نفسه، ١٢٩/١.

قال رجل وفّقه الله إنّ سريّا سيأتي اليومَ

قد تكونُ جملة "وفّقه الله" في محلّ رفعِ صفةٍ لــ"رجل"، والفعل على هذا الوجهِ ماض، وقد تكون دعائيّةً، والفعل للطّلب والإنشاءِ، وهو دالّ على الاستقبالِ، ولعلّ للتّنغيم فضلاً في ترشيحِ أحد هذين المعنيين.

١٠- طولُ الجملة:

تُقرّر الدّراساتُ اللّغويّة النّفسيّة أنّه إذا ما وُجِدت جملتان متساويتان في عواملَ متنوّعةٍ إلاّ في الطّول، فإنّ الجملةَ الطّويلة أصعبُ مِن الأخرى؛ إذْ إنّها تُثْقل الحافظة فيما تبثّه مِن مَقولات وأفكارٍ، وقدْ تتساوى جملتان طولاً، وتختلفان في عددِ المَقولات التي تحتويها كلٌّ مِنهما، وفي هذه الحالِ تكون الجملةُ التي تشتمل على مَقولاتٍ مكثَّفة عسيرةً على القارئ، وقدْ ينضاف إلى ما تقدّم ملحظُ التّعقيد؛ تعقيدِ التّركيب، وتداخلِ العلاقات السّياقيّة التّركيبيّة[١]، ومِن ذلك ما ساقه المبرّدُ في باب "مسائل طوال يُمتحَن بها المتعلّمون": الضّارب الشاتمَ المكرمَ المعطيَه درهماً القائم في داره أخوك سوطاً أكرمَ الآكلُ طعامَه غلامه زيد عمراً بكراً عبدَ الله أخوك"[٢]. ويظهر ممّا تقدّم أنّها جملة معقَّدة متشابِكة في علاقاتِها البنيويّةِ، وأنّها جملة طويلةٌ ثانياً، فهي ممّا يَعتاص ولا يكاد يُفهَم، وأحسب أنّ شرحَها ممّا يستغلق؛ ذلك أنّها مكثَّفة بالمَقولات المتداخلةِ، ولعلّ هذا الضّربَ مِن التّأليف المعتاصِ لا يتجلّى إلاّ عند مَن أراد معاياةً وامتحاناً.

وفي الأشباهِ والنّظائر مثالٌ آخرُ قريبٌ يبلغ وجوهُ إعرابِه أكثر مِن ألفي ألف وجه[٣]، والذي ينبغي التّنبيه عليه في هذين الموضعَين أنّ ملحظ التّعقيدِ والطّول يتضافران معاً لبثّ الإلباسِ والتّعمية. وممّا ورد عليّ في هذا المِضمار- أعني

---

(١) وقف داود عبده عند عوامل صعوبة الفهم، فعرّج على طول الجملة وكثرة مقولاتها وتركيبها المعقد وغير ذلك. انظر : داود عبده – دراسات في علم اللغة النفسيّ، ٢٨-٣٢.

(٢) المبرد – المقتضب، ٢٢/١، وقد شرحها المبرد و المحقق.

(٣) انظر : السيوطي –الأشباه والنظائر ، ١٧٥/٣.

طولَ الجملة– أنّنا كنّا في قاعةِ الدّرس نقرأ بُرْدة "كعب"، وقد طلب الأستاذ إلى أحدِنا أنْ يشرح قولَه:

كأنّ أوبَ ذراعَيها وقدْ عرقتْ وقدْ تلفّع بالقورِ العَساقيلُ

فاستغلق المعنى على الطالبِ؛ إذ إنّه لم يهتد إلى خبر "كأنّ"، فالتفت الأستاذُ إلى ثانٍ وثالثٍ ورابع، وشرع جميع مَن في الحضرةِ ينقبّون عن خبر"كأن"، ولم نهتدِ إليه إلاّ لمّا تجاوزنا حدودَ البيت الأوّلِ والثّاني والثّالث والرّابع؛ إذْ إنّه قارّ فيه، والحقّ أنّ ذلك التّجاوزَ لم يكنْ لنا إلاّ باسترفاد المَعونةِ والرّشد مِن الأستاذ ذاك، والأبيات هي:

كــأنّ أوبَ ذراعَــيها وقــدْ عرقــتْ وقــدْ تلفّـــع بـــالقورِ العَســـاقيلُ

يومــاً يَظَــلّ بهــا الحرباءُ منتصبِاً كــأنّ حاجــبَه بالشَــمسِ مملــولُ

وقــالَ للقــومِ حــاديهم وقد جعلتْ وُرقُ الجَنادب يركضنَ الحَصى قيلوا

شــدّ الــنّهار ذراعــا عَيْطَلٍ نَصَف قامــتْ فجاوبهــا نُكْــدٌ مَــثا كيل(١)

ولا يخفى أنّ هذا مثالٌ مُبين عن "الغموض" الآتي مِن طولِ الجملة، فأنْ يفصل بين "كان" وخبرِها أربعةُ أبيات مَجْلَبةٌ للغموضِ وانتفاءِ الوقوف على المتعيِّن، ولا يُنسى تداخلُ العلاقات السّياقيّة البنيويّة بين هذين المتباعدَين.

ومِن الأمثلة الدّالّةِ على أثرِ الطّول في بعثِ الاحتمال واللّبسِ سورة "الجنّ" في التّنزيل العزيز، وقد قال عنها ابن قتيبةَ:

---

(١) الشعر لكعب بن زهير ، انظر : السكري، شرح ديوان كعب بن زهير ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٠، ١٦-١٧.

"في هذه السورةِ إشكالٌ وغموض ممّا وقع فيها مِن تَكرار "إنّ" واختلاف القرّاء في نصبِها وكسرها واشتباهِ ما فيها مِن قولِ الله وقولِ الجنّ، فاحتَجْنا إلى تأويلِ السّورة كلّها"[1].

إذنْ، يظهر أنّ ثمّ قولَين: قولاً لله العظيم، وقولاً للجنّ، وقد يحدث اشتباهٌ بين القولَين لِما فيهما مِن تداخل، ولِما يظهرُ مِن طول سياقيّ شريفٍ، ومِن ذلك قولُه-تعالى-:**﴿وأنّه كان رجالٌ مِن الإنس يعوذون برجالٍ مِن الجنّ فزادوهم رَهَقاً﴾** [2]، فقد يجوز أنْ تُنصَب "أنّه" لتُرَدّ إلى قوله:**﴿ قل أوحي إلى أنّه استمع﴾**، والمعنى: "وأنّه أوحِي إليّ أنّه كان رجال مِن الإنسِ"، ويجوزُ كسرُها لتكونَ مبتدأةً مِن الله سبحانه[3].

١١- اشتراكُ المعاني النّحويّة:

وقد يحدثُ أنْ يقع اللّبس مِن تداخل المعاني النّحويّة، كأنْ يكونَ القالب التّصريفيّ مرشّحاً لمعنيين نحويّين متباينَين أو أزيد[4]، ولكنّ للسّياقين: المقاليّ والحاليّ فضلاً في ترجيحِ معنى على غيرِه، ومِن ذلك قولُه- تنزّه-:**﴿ثمّ استوى إلى السّماء وهي دخان فقال للأرضِ ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا ائتينا طائعين﴾**[5]، فالظّاهر أنّ قولَه-تنزّه-: ائتيا طوعاً أو كرهاً محتمِل؛ ذلك أنّ هذه الصّيغةَ قد تدلّ على المفعولِ له، وقد تدلّ على الحالِ، ولكنّ لاستكمالِ السّياق البنيويّ فضلاً كبيراً

---

(١) ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن، ٤٢٦.

(٢) الآية: (الجن، ٦)

(٣) انظر : المصدر نفسه، ٤٢٦-٤٣٤.

(٤) انظر : نهاد الموسى – اللغة العربية وأبناؤها : أبحاث في قضية الخطأ وضعف الطلبة في اللغة العربية، ط٢، مكتبة وسام، عمان، ١٩٩٠، ٣٤.

(٥) الآية (فصلت، ١١).

في تعيينِ المعنى النّحويّ، فمجيئ "طائعَين" حالاً يرجّح أنْ يكون المعنى النّحويّ المكتنَف في "طوعاً" و"كرهاً" حالاً[1].

وقد يحدثُ أحياناً ألاّ تنفع شفاعةُ السّياق، فيبقى اللَّبسُ والاحتمال ظاهرَين، ومِن ذلك احتمالُ المصدريّة والحاليّة والمفعول لأجلِه:

١- هربت خوفاً منك

٢- هربت خائفاً منك

٣- ﴿ يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾[2]

يظهرُ مِن الجملةِ الأولى أنّ الصّيغة تدلّ على معنى "المفعول له"، وهي في الثّانيةِ تدلّ على معنى "الحالِ"، ولكنّها في الآيةِ الكريمة محتمِلة، فقد تدلّ على الحالِ، والمعنى: يُريكم البرق خائفين وطامعين، وقدْ يكون المعنى النّحويّ الذي تدلّ عليه هو المفعول له، والمعنى: يريكم البرقَ لأجلِ الخوف والطّمعِ، وقد تدلّ على المصدريّةِ، والمعنى: فتخافون خوفاً، وأحسبه بعيداً، ومثلُ ما تقدّم:

"جاء محمّد رغبةً"

فقد يكون المتعيّن: جاء محمّد للرّغبة: مفعولاً له.

جاء محمّد يرغب رغبةً: مصدراً.

جاء محمّد راغباً: حالاً[3].

وقد يحدث اشتباهٌ بين المصدرِ والظّرف والحالِ، ومِن ذلك:

١. سرتُ زمناً طويلاً

٢. سرتُ سيراً طويلاً

---

(١) انظر : : ابن هشام – المغني ٧٢٩/٢– ٧٣٠، وقد اشار Nida إلى فضل السياق البنيويّ واستكماله في رفع كثير من مظاهر اللبس، ومن ذلك:I hit the man with a stick فقد تعنى أنني ضربت الرجل الذي كان يحمل عصا، أو أنني ضربت الرجل بالعصا، ولكن توسيع السياق يبدد ما كان محتملاً، ولو أنه قيل:

I hit the man with a stick which I had picked up.

لتعين معنى واحد، انظر : نيدا – نحو علم الترجمة ٢٠٦-٢٠٩.

(٢) الآية (الرعد، ١٢).

(٣) انظر : ابن هشام – المصدر نفسه، ٧٢٠/١

٣. **سرتُه طويلاً**

٤. **سرتُ طويلاً**

٥. **﴿وأُزلِفت الجنّة للمتّقين غيرَ بعيد﴾**[١].

يظهرُ مِن الجملة الأولى أنّ "طويلاً" صفة لظرفٍ منصوبٍ، وأنّها في الثّانية صفة لمصدر منصوبٍ، وأنّها في الثّالثة حال. أمّا في الرّابعة فقد اجتمعت المعاني المتقدِّمةُ على "طويلاً" فحدث اشتباهٌ في المعنى النّحويّ الذي تؤدّيه هذه البنيةُ؛ ذلك أنّها تحتمل أنْ تكونَ حالاً وظرفاً ومصدراً، وكلّ ذلك يجيىء مَجيئاً صالحاً في ذلكم السّياقِ، والآيةُ الشّريفة برهانٌ مشرِق في الدّلالةِ على تعدّد المعاني النّحويّةِ، فقوله: "غيرَ بعيد" يحتمل وجوهاً، وهي:

وأُزْلِفت الجنّة إزلافاً غيرَ بعيد.

وأزلفت الجنّة زمناً غيرَ بعيد.

وأزلفت الجنّة الإزلاف في حالة كونه غيرَ بعيد[٢].

لننظرْ في الأمثلةِ الآتية:

١- أنت لا تعلم شيئاً

٢- وعدتك وعداً طيّباً

٣- ﴿ أنفقوا خيراً لأنفسِكم﴾[٣]

ثمّ اشتباهٌ في الجملة الأولى بين المفعولِ المطلق والمفعولِ به؛ ذلك أنّ "شيئاً" في سياقِها محتمِلة للمعنيين؛ فقد يكون المعنى: أنت لا تعلم علمَ شيء، فحُذِفَ المفعولُ المطلق، وقد يقع الفعلُ "تعلم" على "شيئاً"، فيكون مفعولاً به. والجملة الثّانيةُ تحتمِل المعنيين المتقدِّمين، والحقّ أنّ ثمّ بوناً بين المعنيين طفيفاً، فكلمة "وعداً"

---

(١) الآية: (ق، ٣١).

(٢) انظر إعراب الآية: النحاس – إعراب القرآن، ٢٣٠/٤، العكبريّ – التبيان، ١١٧٦/٢، ابن هشام– المغني، ٧٢٩/٢.

(٣) الآية (التغابن، ١٦)

تحتمل وقوعَ الفعل عليها وقوعاً مباشراً، والمعنى: وعدتك موعداً طيّباً، وتحتملُ أنْ تكون مفعولاً مطلقاً. وكلمة "خيراً" في الآيةِ الكريمة محتمِلة، فقدْ تكون مفعولاً به صريحاً، وكأنّ المرادَ بالخير ههنا المالُ، وقد تكون وصفاً لمصدرٍ محذوف، والتّقدير: أنفقوا إنفاقاً خيراً[1]، وقدْ يكون المعنى: أنفقوا يكنْ خيراً لأنفسِكم، وهي على هذا الوجهِ خبر "كان" المحذوفةِ.

١-" مَن صام رمضان إيماناً واحتساباً"[2]

٢-" أمَا إنّي لم أستحلفكم تهمةً لكم"[3]

قولـــه الشّريف-صلّى الله عليه وسلّم-:"إيماناً واحتساباً" يحتمل في نصبه وجهَين: أحدهما المصدر في موضعِ الحال، والمعنى: مَن صام رمضانَ مؤمِناً محتسِباً. وثانيهما المفعولُ لأجله، والمعنى: مَن صام رمضانَ للإيمان والاحتسابِ، ونظير هذا في الوجهَين قولُه -تعالى-:**﴿اعملوا آل داودَ شكراً﴾**[4]، أي شاكرين، أو للشّكر. أمّا قوله-صلّى الله عليه وسلّم- "تهمةً" فهو محتمِلٌ احتمالَ سابقه، فيجوز أنْ يكونَ مفعولاً لأجله، والمعنى: لأجل التّهمةِ، ويجوز أنْ يكون مصدراً في موضعِ الحال، والمعنى: متّهماً[5].

١- لقد كذبتْكَ نفسُك فاصدُقَنها   لِما منّتْك تغريراً قَطامِ

٢- ﴿والذين اتّخذوا من دون اللهِ قرباناً آلهةً﴾[6]

---

(١) يضيف ابن الأنباريّ وجها آخر، وهو أن تكون مفعولاً به لفعل محذوف تقديره: وأتوا خيراً. انظر: البيان ٢/ ٤٤٣.

(٢) انظر : الحديث: العكبري – إعراب الحديث النبويّ، ٢٥٨.

(٣) انظر الحديث: المصدر نفسه، ٣٠٧.

(٤) الآية: (سبأ، ١٣).

(٥) انظر : المصدر نفسه، ٣٥٧.

(٦) الآية: (الأحقاف، ٢٨).

يجوز أنْ يكونَ قولُه "تغريراً" مفعولاً له، أي: للتّغرير، ويجوزُ أنْ يكون مفعولاً به ثانياً، والأمران محتمَلان[1]. أمّا قوله- تنزّه- "قرباناً" فقدْ يكون مفعولاً له، فيكون جواباً عن سؤال: لماذا اتّخذوا مِن دون الله آلهةً؟، وقد يكونُ مفعولاً به، "وآلهة" بدلاً منه، والمعنى اتّخذوا قرباناً، والقربان هو الإلهةُ، وقد يكون منصوباً على المصدرِ[2].

١- أكرمتُك ومحمّداً

٢- كرم زيدٌ ضيفاً

في الجملةِ الأولى اشتباهٌ بين المفعولِ به والمفعول معه؛ ذلك أنّ "محمّداً" يجوز أنْ يكونَ معطوفاً على المفعولِ، والواو للعطف، ويجوزُ أنْ يكون مفعولاً معه، والواو للمعيّة[3]. أمّا الجملة الثّانية فهي محتمِلة معنى التّمييز والحالِ، فإنْ قُدِّر أنّ الضّيف هو غيرُ زيدٍ، فهذا تمييز مُحوَّل عن الفاعلِ، والمعنى: كَرُم ضيفُ زيدٍ، وإنْ قُدِّر أنّ الضّيف هو زيدٌ نفسُه احتمل الحال، والمعنى: كَرُم زيدٌ في حال كونِه ضيفاً، واحتمل التّمييز، "وعند قصدِ التّمييز فالأحسن إدخالُ "من"، ومِن ذلك: هذا خاتم حديداً"[4].

وما ينبغي التّنبيه عليه في بابِ الحديثِ عن تعدّد المعاني النّحويّةِ إقامةُ بونٍ بين "كان" التّامّة والنّاقصةِ؛ ذلك أنّ للنّاقصة معنى ليس للتّامّة؛ وذلك نحو:

١. كان الرّسول مبلّغاً أميناً

٢. سهرت اللّيلة فكان المطرُ

---

(١) انظر: الفارسيّ- شرح الأبيات، ٢٥٦ وقد عدّ " ما" زائدة في هذا الوجه، والشعر لعنترة، انظر : ديوانه، ٢٤٢.

(٢) انظر: ابن الأنباريّ- البيان، ٣٧٢/٢، وهي عند العكبريّ مفعول به انظر : التبيان، ١١٥٨/٢.

(٣) انظر: ابن هشام – المغني ، ٧٣١/١.

(٤) المصدر نفسه، ٧٣٢/١، ولإقامة بون بين التمييز والحال انظر : السيوطي- الأشباه والنظائر، ٢٣١/٢، وانظر: إن سوب لي- الحال والتمييز نموذج في تأسيس الفرق ورفع اللبس بين المنصوبات، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٣.

٣. وعينان قال اللهُ كونا فكانتا فَعولان بالألبابِ ما تفعلُ الخمرُ

الجملة الأولى جليّة لا لَبس فيها، و"كان" في سياقِها الأول ناقصةٌ تطلب اسماً وخبراً، أمّا في الجملةِ الثّانية فهي تامّة لا تطلب خبراً، والمعنى: فحصل المطرُ أو حدث، والشّعرُ في المثال الثّالث يعوزُه رويّة لاستكشافِ معناه؛ إذْ إنّ "كان" ليستْ ناقصةً، والمعنى المتعيّن منها: احدُثا فَحَدَثتا، ولو نصب الشّاعرُ "فعولان" لاختلف المعنى، فتعيّن أنّ الله خلقهما وأمرهما أنْ تفعلا ذلك، وليس ذلك كذلك، بل هما تفعلان بالألبابِ ما تفعل الخمرُ، فـ "كان" في هذا الشّعر تامّة مكتفيةٌ بمرفوعِها[١].

وممّا يتداخلُ فيه المعنيان قولُ الحقّ السّلام:

﴿تتّخذون أيمانَكم دَخَلا بينكم أنْ تكونَ أمّةٌ هي أربى مِن أمّة﴾.

فقدْ تكون ناقصةً، واسمها "أمّة"، وقدْ تكون تامّةً، والمعنى "توجد"، وأمّة فاعلها[٢].

وكذلك ينبغي التّفريقُ بين الأفعال التي تتردّد بين النّقصانِ والتّمام، ومِن ذلك "عاد"، فقد تكون شبيهةً بـــ "كان" التّامّة، وقد تكونُ شبيهةً بـــ "كان" النّاقصة، فلو قيل:

١-عاد الرّجل إلى بيته سعيداً

٢-عاد الرّجل بصيراً

٣-لم يعدْ خائباً

٤- أبلغهم يومَ اللّقاء

لَتَعَيّن مِن الجملة الأولى تمام "عاد"، وتكون "سعيداً" منصوبةً على الحالِ. أمّا الثّانية فهي محتمِلة، ولعلّ الأرجحَ أنّها ناقصة تطلبُ اسماً وخبراً، و"بصيراً" في سياقِها خبر، والمعنى: أصبح الرّجل بصيراً. وقد تكون تامّةً، و"بصيراً" حال مِن

---

(١) انظر : ابن جنيّ – الخصائص، ٣٠٥/٣، السيوطي – الأشباه والنظائر، ١٦١/٣ والشعر لذي الرمة، انظر ديوانه، (بتحقيق الطباع) ، ١٩٧.

(٢) الآية (النحل، ٩٢)، وانظر ابن الأنباري – البيان، ٨٣/٢، العكبري– التبيان، ٨٠٥/٢.

الرّجلِ. والجملة الثّالثة كذلك، فهي متردِّدة بين المعنيين. أمّا الرّابعةُ فثمّ تداخلٌ بين المفعولِ به والمفعولِ فيه؛ ذلك أنّ ظرفَ الإبلاغ قد يكونُ يومَ اللّقاء، وقد يكونُ المعنى أنّ المراد تبليغه هو زمنُ اللّقاء.

ومِن مثل التّنبيهِ على التّردّد بين تمام "كان" ونقصانِها التّنبيه على الإعمالِ والإلغاء في "إنّما"؛ ذلك أنّ "ما" كافّة، و"إنّ" مكفوفة، وقدْ تكون "ما" اسماً موصولاً بمعنى "الذي" فتشتبه بـــ "ما" الكافّة؛ وذلك نحو: "**إنّما ضربوا محمّداً**"، فالمتعيّن مِنها أنّ الذي ضربوه هو محمّد، وقد حُذِف العائدُ، ولستُ أزعم أنّ فيما تقدّم لَبساً لا يُرفَع، ولكنْ، ثمّ فروقٌ معنويّة دقيقةٌ ينبغي التّنبيه عليها. والملحظ الأخيرُ الذي أختتمُ به هذه المباحثة؛ مباحثةَ اللّبس الآتي مِن التّركيب، أنّ تعدّدَ الوجوه الإعرابيّة في كثيرٍ مِن الأمثلةِ ممّا لا يلحق بركبِ اللّبس والاحتمالِ؛ إذ إنّها تعودُ إلى خلافٍ منهجيٍّ أو لَهْجيّ[١]، فليس مِن اللّبس التّردّد في إعرابِ "أحد" بين الفاعلِ لفعلٍ محذوف، أو مذكورٍ، أو مبتدأ كما في قولِنا: "إن أحدٌ جاء فأكرمْه"، وليس مِن اللّبس التّباينُ في خبر "ما" الحجازيّة والتّميميّة، وليس مِن اللّبس التّردّد في إعرابِ "زيد" بين المستثنى والبدلِ في قولِنا: ما جاءني أحدٌ إلاّ زيدٌ(أو زيداً)[٢].

(١) انظر: نهاد الموسى- العربية وأبناؤها، ١٩- ٣٣.

(٢) انظر هذه المسألة: ابن الأنباريّ – الإنصاف، ٢٧٦/١، ابن هشام – المغني، ٧٣١/٢.

الفصل الثّاني

اللّبس الآتي مِن المعجم والتّطوّر الدِّلاليّ
اللّبس الآتي مِن الأسلوب
اللّبس الآتي مِن السّياق

رابعاً: اللّبس الآتي مِن المعجم

١- المشترَك اللّفظيّ:

هذه ظاهرةٌ دلاليّة عامّة، وإمكانةٌ مِن إمكانات الإبانةِ والتّواصل، ولكنّها مَجْلَبة للّبس في مواضعَ؛ ذلك أنّ الكلمة المشترَكة يقع تحتها معنيان أو أكثر، وإذا كان ذلك، فإنّ المرءَ قد يقيم معنى مُقام آخرَ حتّى مع توافر سياقٍ جَمْليّ، وقد استشعر ابن دُرُستويْهِ أنّ هذه الظاهرةَ مِن معطِّلات التّواصل؛ ذلك أنّ اللّغة موضوعةٌ "للإبانة عن المعاني، فلو جاز وضعُ لفظٍ واحد للدّلالة على معنيين مختلفين، أو أحدهما ضدّ للآخر، لَما كان ذلك إبانةً، بل تعمية وتغطية"[١]، والحقّ أنّ في هذا الرّأيِ المتقدّم تعميماً ومغالاة، فالاشتراكُ واقع في اللّغة لا ريبَ، وثمّ سياقٌ يُحتَكَم إليه في تعيينِ المعاني الصّرفيّةِ والنّحويّة والمعجميّة، وليس يصحّ في الفهمِ أنْ يُطَّرَح القولُ بوجود هذه الظّاهرة ظنّاً بأنّها تقودُ إلى الإلباس والتّعميةِ؛ إذْ إنّ اللّبس آتٍ مِن هذه الظّاهرة ومِن غيرها، ثمّ إنّها ظاهرة لغويّةٌ عامّة، وينبني على هذا الاعتقادِ بأنّ هذا الموضعَ هو مِن مرشِّحات اللّبس في كلّ اللّغاتِ[٢].

لننظرْ في هذه الجملِ المصنوعة الآتية:

١- يعقوبُ شاعر مُجيد لا يحسن الهجاء.

٢- يعقوب رجل لا يحسن الهجاء.

٣- يجب أن تُطيع أمر أبيك.

٤- هذا أمرٌ لا أرتضيه.

---

(١) السيوطي – المزهر ٣٨٥/١، مهدي عرار – جدل اللفظ والمعنى، ١٩٩.

(٢) من أمثلة ذلك في الإنجليزية " bill " فهي تشتمل على معنيين، وهما المنقار وورقة الحساب، والجمل الآتية ملبسة لاحتمالها معنيين:

The bill is large
The bank was the sense of the crime
John was looking for the glasses

انظر : أمثلة هذا المطلب: أولمان- دور الكلمة ، ١٢٦-١٤٦، بالمر- علم الدلالة،٧١، جرومان – علم الدلالة، ٤٠، Kooij – Ambyuity,P. 52, 126.

٥- سنحتفل يوم إجازتك احتفالاً عظيماً.

٦- سنحتفل بأحمدَ احتفالاً عظيماً.

٧- هل انتهيت مِن كتابة رسالتك.

يظهر مِن الجملةِ الثّانية أنّها محتمِلة ملبِسة؛ ذلك أنّ كلمة "الهجاء" يقع تحتَها معنيان متباينان، فقدْ يكون المعنى الكلّيّ مِن الجملة أنّ يعقوبَ رجلٌ لا يُحسن الهجاءَ الذي هو ضدّ المدح، وقدْ يكون المتعيّن أنّه أمّيّ لا حظَّ له مِن العلمِ، فليس يُحسِن التّهجّي، ولكنّ اللّبسَ منتفٍ عن الجملةِ الأولى؛ ذلك أنّ السّياق البنيويّ يرجّح معنى فرداً، وهو "الذمّ"؛ لأنّ المُتحدَّث عنه شاعرٌ قد اكتسب نصيباً مِن العلمِ باللّغة ومبادئها. أمّا الجملةُ الثّالثة فموضعُ النّظر فيها الكلمةُ "أمر"، وليس يخفى أنّ كلمة "الأمر" متردّدة بين معنيَين: أولّهما الأمرُ الذي فيه إلزام وفرضٌ، وثانيهما الشّأنُ وجملةُ الأحوال، ويَصدُقَ الأخيرُ على قولِه- تنزّه- :**﴿وما أمرُ فرعونَ برشيد﴾**[1]. والمعنى: جملةُ أفعاله وشأنه[2]، ولكنّ هذا التّردّدَ غيرُ واقع في الجملةِ الثّالثة؛ إذ إنّ ذكر الطّاعةِ وحقائقَ الحياة يستدعيان في الخاطرِ "الأمر" الذي هو إلزامٌ وفرض. أمّا في الجملةِ الرّابعة فالمعنيان محتمِلان، والمعنى الكلّيّ أنّ القائلَ لا يرتضي هذا الأمرَ "الإلزاميّ" المفروضَ عليه، أو أنّه لا يرتضي هذا الموقف "أو هذه الحال" بعينِها. أمّا الجملةُ الخامسة فموضعُ النّظر فيها "إجازتك"؛ إذْ إنّه يقع تحتَها معنيان، فقدْ يكون المتعيِّن مِنها الانقطاعَ عن العملِ أو الدّراسة لأجلٍ مسمًّى، وقدْ يكونُ التّخرّجَ والحصول على إجازةٍ في حقلٍ ما. أمّا السّادسة فموضعُ النّظر فيها الكلمة "سنحتفل"، وهي أيضاً متردِّدة بين معنيين متقاربَين، وهما الاهتمامُ والاحتفال الذي هو تعبيرٌ عن السّعادة والفرحِ، وقد يكونُ المعنى أنّنا سنهتمّ بأحمدَ اهتماماً عظيماً، وقدْ يكونُ أنّنا سنعقد حفلةً عظيمة حبّاً لأحمد. أمّا الجملةُ السّابعة فهي محتمِلة أيضاً، فالمستفهِم قد يسألُ صديقَه عن أطروحتِه الجامعيّةِ، وقد يسأله عن رسالةٍ بريديّة،

---

(١) الآية (هود، ٩٧).

(٢) انظر : السيوطي – المزهر، ٣٦٢/١.

والحقّ أنّ هذا اللَّبسَ قد وَرَدَ عليّ مع صديقٍ سألني قائلاً: هل أرسلتَ إلى فلانٍ الرّسالة؟ فقلت له: أنتظرُ سفرَك حتّى أرسلَها معك؛ ذلك أنّها ثقيلة، فاستدرك على سؤالِه بتجليةٍ قائلاً: ما عنيت رسالتَك الجامعيّة. والظّاهرُ مِن هذه الحادثةِ أنّ لَبساً صريحاً قد وقع، ولولا استدراكُ القطبِ الثّاني لظلّ اللّبس قائماً، ولمضى القُطب الأوّل لِطيّته وهو يظنّ أنّه أجاب عن سؤالِ صديقِه فوفّاه حقّه.

ويظهرُ تعدّد المعاني والاحتمال الآتي مِن هذه الظّاهرة جليّاً في قول الحقّ- تنزّه-:

١- ﴿ اهبطوا مِصراً فإنّ لكم ما سألتُم﴾[(١)]

فقد تُردّد في اقتناصِ المتعيِّن مِن "مصراً"، فقيل إنّه- تنزّه- أراد مصراً مِن الأمصار، وهي على هذا الوجهِ مصروفة، وقيل إنّه-تبارك- أراد "مصرَ" البلدَ المعروف، فصُرِفت وإنْ كانت مؤنَّثةً مَعْرِفة، لأنّها على ثلاثةِ أحرفٍ أوسطُها ساكن، فجاز أنْ تُصرَف كهندٍ ودعدٍ[(٢)].

ومِن أمثلة اللّبس الآتي مِن المشترَك:

٢- هذا النّهارُ بدا لها من همِّها ما بالها باللّيل زالَ زوالُها

"الهمّ" في هذا الشّعرِ لا يخلو مِن أحدِ أمرَين؛ إمّا أنْ يكون الهمّ الذي جَمْعه "هموم"، وإمّا أنْ يكونَ الهمّ الذي هو العَزْم على الشّيء، والمعنيان محتمَلان في هذا السّياقِ[(٣)].

وقدْ يحدثُ أحياناً أنْ تتضافر مجموعةٌ مِن العوامل لتخلُقَ اللّبس، ومِن ذلك:

---

(١) الآية (البقرة ، ٦١)

(٢) انظر: سيبويه – الكتاب ، ٢٤٢/٣، وقد ذكر الوجه الأخير الفراء – معاني القرآن، ٤٣/١. وقد ذكر الوجهين، و الوجه الأخير أحب إليه، الأخفش – معاني القرآن، ١٠٥/١- ١٠٦ وقد ذكر الوجهين المبرد – المقتضب، ٣٥١/٣، وقد ذكر الوجه الأول، ونفى الأخير، ابن الأنباريّ- البيان، ٨٧/١، وقد ذكر الوجهين، العكبريّ – التبيان، ٦٩/١، وقد ذكر الوجهين أبو حيان – البحر، ٣٩٦/١- ٣٩٧.

(٣) انظر : الفارسيّ – الشرح، ٥٨٦، وقد روي البيت برفع " النهار" ونصبه، ورفع " زوالها" ونصبه أيضاً، وفي ذلك وجوه ، انظر: ٥٨٤-٥٩١، والشعر للأعشى، انظر ديوانه ، ٧٧.

٣-لا يبعدُ اللهُ التّلببَ والـــ غاراتِ إذْ قال الخميسُ نَعَمْ

لقد أعرب بعضُهم قوله "نَعَمْ" حرفَ جوابٍ، وهي ليست كذلك، وإنّما هي ههنا واحد الأنعامِ، وهي خبر لمبتدأ محذوفٍ، والمعنى: قال الخميس-وهو الجيش- هذه نَعَمٌ فأغيروا عليها[1]، فالمشترك اللّفظيّ باعثٌ من بواعث اللّبسِ، والحذفُ؛ حذف المبتدأ يفضي إلى مزيدِ لبسٍ، وتغييبُ المفصلِ والتّنغيم في هذا السّياق يزيد ممّا تقدّم، كلّ ذلك يعمل على تخلّقِ اللّبسِ والاشتباهِ.

٢ -وفي بابِ الحديث عن اللّبسِ الآتي مِن المشترك يعرض مطلبٌ آخرُ متّصل به، وهو **اللّبس الآتي مِن ظاهرة "الأضداد"**؛ إذ إنّ اشتمالَ كلمة واحدةٍ على معنيين متضادّين قدْ يعمل على نشوءِ اللّبس، ومِن ذلك "الحَزَوَّر"، وهي تُقال للغلام اليافعِ الذي قارب الاحتلامَ، وتُقال للشّيخ[2]، ولمّا ورد ابن الأنباريّ على قولِ الشّاعر:

وإذا نزعتَ نزعتَ مِن مُستَحْصِفٍ نزْعَ الحَزوّر بالرِّشاء المُحْصَدِ

تردّد بين المعنيين المتضادّين، فجوّز أنْ يكونَ الحَزَوَّر الذي انتهى شبابه، أو الذي قارب الحُلُم، فهو ينزع نزْعاً ضعيفاً[3]، وقد ذهب الجوهريّ إلى أنّ المتعيّن مِن الحَزَوَّر البالغُ القويّ أيضاً، وهو مخالفٌ في رأيه لابنِ الأنباريّ[4].

ومِن الكلمات التي تنتسبُ إلى هذه الظّاهرة "أسررت"، فقدْ تكون بمعنى "كتمتُ"، وهو الغالبُ، وقدْ تكون بمعنى "أظهرتُ"، ولمّا ورد بعض اللّغويّين

---

(١) انظر البيت : ابن هشام- المغني، ٦٨٤/٢، وقد نسب المحقق الشعر للمرقش الأكبر، والتلبب لبس السلاح، والمعنى: لا قطع الله عهدي بلبس السلاح.

(٢) انظر : ابن الأنباريّ -الأضداد، ٢١٧، ويضيف صاحب اللسان أن من العرب من يجعل الحزور البالغ القوي البدن الذي حمل السلاح، والشعر للنابغة الذبياني، ٤٢.

(٣) انظر : ابن الأنباري - الأضداد، ٢١٨.

(٤) انظر : الجوهري -الصحاح، مادة "، حزر" ابن منظور -اللسان مادة "حزر".

والمفسِّرين على قولـــه: ﴿ **وأسرّوا النّدامة لمّا رأوا العذاب**﴾[1] تردّدوا بين المعنيين، ولم يقفوا على أحدِهما إلاّ بالتّوهّم دون التّحكّمِ، فقيل إنّ معنى قولِه الشّريف أنّهم كتموا النّدامة، أو أظهروها عند مُعاينةِ العذاب محتجِّين للأخيرِ بقول الشّاعرِ:

ولمّا رأى الحجّاج جرّد سيفَه أسرّ الحروريُّ الذي كان أَضمَرا[2]

لعلّه يحسنُ أنْ أكتفي بما قدّمت مِن حديثٍ عن أثر المشترَكِ اللّفظيّ (والأضداد ضربٌ مِنه) في نشوءِ اللّبسِ، وسيأتي حديث في الدّراسةِ التّطبيقيّة حول هذا المرشِّح.

٣-وعلى صعيدٍ لفظيّ آخرَ، قد يحدث أنْ تكون **دلالةُ الكلمة عائمةً** تتّسع لمُدخَلات متنوِّعةٍ، فيؤدّي هذا في بعضِ الأحيان إلى احتمالٍ وتباينٍ في فهم الدّلالةِ، ومِن ذلك:

١-" طوبى لِمن مات في النّأنأة"

والنّأنأة تدلّ على العجزِ والضّعف[3]، ولذلك احتمل قولُه أنّه أراد أوّل الإسلام قبل أنْ يقوى ويكثرَ أهلُه وناصره، أو أنّه أراد آخرَ الإسلام عند ضعفِ البصائرِ وكثرة البِدع والخلافِ[4].

---

(١) الآية (سبأ، ٣٣).

(٢) انظر: ابن الأنباريّ - الأضداد، ٤٦، وقد نسب الشعر للفرزدق، وهو ليس في ديوانه، ولم أعثر على قائله، وانظر ما قيل في هذه الآية: ابن قتيبة - تفسير غريب القرآن، ٣٥٧، ابن عزيز- النزهة، ٩٣ أبو حيان - البحر،٣٤/٧ ، شهاب الدين بن الهائم- التبيان في تفسير غريب القرآن، تحقيق فتحي أنور، ط١، دار الصحابة للتراث، طنطا، ١٩٩٢، ٣٤٤.

(٣) انظر: ابن السيد - الإنصاف، ٤٦، ابن منظور -اللسان، مادة "نأنأ"، والحديث لأبي بكر رضي الله عنه.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ٤٦، الزمخشريّ - الفائق، ٣٩٩/٣، ابن الأثير - النهاية، ٣/٥، وقد ذهب صاحب اللسان إلى الوجه الأول.

٢- ومِن مثلِ ما تقدّم دلالةُ "النّفي"؛ إذْ إنّها تدلّ على معنى عامّ، وهو التّنحية، ولذلك يُقال: نَفَى شَعْر فلانٍ إذا ثار وذهب متساقطاً[١]، ويَصْدق على التّنحيةِ الطّردُ، فكأنّه نفيٌ مِن سَعةِ الدّنيا إلى ضيقِها "السّجن"، ولمّا وردوا على قوله-تقدّس-:﴿ **أو يُنفَوا مِن الأرض**﴾[٢] اختلفوا في النّفي مِن الأرض ما هو، فقال الفقهاءُ الحجازيّون: يُنفَى مِن موضعٍ إلى موضع، وقال الفقهاءُ العراقيّون: يُسجَن ويحبَس[٣].

٣- و"ردّ التّحيّة" ذو دلالةٍ عائمة مشتركة، فيجوز أنْ يكون المتعيّنُ مِنها القبولَ بردّها كما هي، أو بأحسنَ مِنها، ويجوز أنْ يكون رفضَها وانتفاءَ قبولها، كقولنا: ردّه خائباً، أو ردّ عليه قولَه، ولمّا ورد الفارسيّ على قول الشّاعر:

وقفنا فسلّمنا فردّتْ تحيّةً   علينا ولمْ تَرْجِع جَوابَ المخاطِبِ

أشكل عليه فاحتمل عنده المعنيين: معنى انتفاءِ القَبول، ومعنى ردّ الجوابِ[٤].

٤- وممّا دلالتُه عائمة محتمِلة تتّسع لمُدخَلاتٍ متقاربة "النّكاح"، فقد تدلّ على الوطءِ، وهو أصلُ النّكاح في كلام العربِ[٥]، أو العَقْد، والمعنيان صالحان؛ ذلك أنّ العقدَ علّة مؤدّيةٌ إلى الوطءِ، وقد انبنى على هذه العموميّةِ الدّلاليّة تباينٌ في الفهمِ والحكم، والآياتُ التي وردتْ فيها كلمةُ النّكاح متعدّدة، ولذا استرعتْ اهتمامَ مَن يشتغلون بالفقهِ والأحكامِ، ومِن ذلك قولُه -عزّ مِن قائلٍ-:

﴿ **ولا تنكِحوا ما نكح آباؤكم مِن النّساء إلاّ ما قدْ سلفَ**﴾[٦]

---

(١) انظر : ابن منظور – اللسان، مادة " نفا" .

(٢) الآية (المائدة، ٣٣).

(٣) انظر : ابن السيد – الإنصاف، ٥٠-٥١، عبد القادر السعدي – أثر الدلالة، ٣١٩-٣٢٠، ولكلا القولين شاهد من اللغة.

(٤) انظر : الفارسيّ –الشرح، ٥٥٠، والشعر لذي الرمة : انظر ديوانه، شرح أبي نصر الباهلي، تحقيق عبدالقدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، ١٩٨٢، والمعنى عنده لم تقبلها، ١/١٩٠.

(٥) انظر : الأزهري– تهذيب اللغة، مادة " نكح"، ابن منظور – اللسان مادة " نكح".

(٦) الآية (النساء، ٢٢).

في هذا السّياقِ الشّريف بيانُ حكم زواجِ الابن مِن منكوحةِ أبيه، وقد اختلَف الفقهاءُ في الحكم الفقهيّ المتعيّنِ منها، ومردّ ذلك إلى عموميّةِ الدّلالةِ واشتراكِها بين الوطءِ والعَقد، فقدْ قال قسمٌ مِنهم إنّها تحرم على الابنِ بوطءِ الأب إيّاها سواء أكان حلالاً أم حراماً، ومِنهم مَن قال: إنّها تحرم بعقدِ الأبِ عليها، أمّا إذا وطِئها حراماً فلا تحرم[1]. وممّا ينتسبُ إلى المشتركِ اللّفظيّ باب القول على:

٢- المجالات الدّلاليّة:

قيل إنّ رجلاً سأل أعرابيّاً فقال: أتهمز "إسرائيل"؟ فقال: إنّي إذاً لَرَجل سَوْء، أراد : ﴿همّاز مشّاء بنميم﴾، فثنّى الرّجلُ: أتجرّ فلسطين؟ فقال: إنّي إذاً لَقويّ[2].

يظهرُ مِن هذه الحادثةِ الطّريفة- بقطعِ النّظرِ عن صحّتها- أنّ للهمز والجرّ مجالَين دِلاليّين، أحدهما لغويّ، والآخرُ اصطلاحيّ نحويّ، والتّفاصلُ الواقعُ في هذه الحادثةِ آتٍ مِن انتساب هاتين الكلمتَين إليهما، ولعلّ انتفاءَ معرفةِ الأعرابيّ بالحقل الاصطلاحيّ هو الذي أذِن بذلكم اللَّبسِ، فكانتْ قصّة طريفةً مُبينة عن أثرِ هذا الموضعِ في تخلّق اللّبسِ.

ومِن مثّل ما تقدّم تنبيهُ السّيوطيّ على كلمةِ "الإعراب" في قوله- صلّى الله عليه وسلّم-: "مَن قرأ القرآنَ فأعربه كان له بكلّ حرفٍ عشرون حسنةً، ومَن قرأه بغير إعرابٍ كان له بكلّ حرفٍ عشر حسنات"، "فالمراد بالإعرابِ هنا معرفة

---

(١) انظر : عبد القادر السعدي – أثر الدلالة، ٣٢٥.

(٢) انظر : الشريشي – شرح مقامات الحريري، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ٤٥٧/٢.

معاني ألفاظِه، وليس المراد به الإعرابَ المُصطلَحَ عليه عند النّحاةِ، وهو ما يقابل اللّحْنَ، لأنّ القراءة مع فقدِه ليست قراءةً، ولا ثوابَ فيها"[1].

والحاصلُ ممّا تقدّم أنّ المرء قدْ يَرِد عليه كلماتٌ محتمِلة لمعانٍ متعدّدة؛ ذلك أنّها تُنسَب إلى غيرِ مجالٍ دلاليّ، ولذا يعوزُه نظرٌ وتدبّر لتعيينِ المجال الدّلاليّ الذي إليه تنتسبُ الكلمة، وليس يخفى أنّ معانيَ الكلمة الواحدة(في الغالب) متّصل بعضُها ببعض؛ ذلك أنّ ملْمحاً جامعاً ينْبِئ عن المعنى العامّ، ولكنْ، يبقى لكلّ معنى في مجالِه الدّلاليّ وسمٌ خاصّ، ومِن ذلك "المتعدّي"، فهي في لغةِ القانون دالّةٌ على مَن يتعدّى على غيره، فيُعاقَب على فِعلته، وهي عند اللّغويّ دالّة على الفعلِ الذي يطلب مفعولاً. و"القَديم" في لغةِ أهلِ الفلسفة هو الله جلّ، ولا شيءَ يشركُه في هذه الصّفةِ، ويقابله الحادثُ بالذّات، والقديمُ لغةً تُطلَق على ما عتق وتطاول به الزّمان[2]. و"النّصْب" عند أهلِ القانون جُرم يُعاقَب عليه، وعند أهلِ اللّغةِ الفتحُ في الإعرابِ. و"الخبر" عند النّحويّ ليس كالخبرِ عند مَن يشتغلون في الصّحافةِ، و"النَّحت" عند الصّرفيّ ليس كالنّحتِ عند أهل الفنونِ التّشكيليّة. لنَرْجِع النّظر في الجملِ الآتية:

١- لنا في القَصْر رخصة.

٢- استتار الفاعل لا يعني أنّه غير موجود.

٣- يعجبني هذا التّصدير.

٤- اعتلالُ العين يفضي إلى تغييرٍ في بِنيتها.

---

(١) السيوطي – الإتقان، ٣٨٢/٢، ومن المؤلفات التي عنيت بهذا الجانب: الآمدي (٦٣١)هـ – المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين، تحقيق عبد الأمير الأعسم، ط١، دار المناهل، بيروت، ١٩٨٧م، و الجرجانيّ (٨١٦ هـ) التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م.

(٢) انظر : أبو البقاء الكفوي– الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغويّة، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٣م، ٧٢٧.

يظهر مِن الجملةِ الأولى أنّ انتساب كلمةِ "القصر" إلى غيرِ مجال دِلاليّ يؤْذِن بالولوج في الاحتمالِ؛ فقد تكون الجملةُ على لسان فقيهٍ، فيكون القصر هنا قصرَ الصّلاة واختزالَها اقتداءً بسنّة رسولِ الله- صلّى الله عليه وسلّم- عند حادثٍ ما، وتكون الرُّخصة بمعنى الإباحةِ والتّسهيل. وقدْ تكونُ الجملة هذه على لسانِ لغويّ أو شاعرٍ يجنح إلى الضّرورةِ؛ فيُعوِّل على قصرِ الممدود، ومِن ذلك "الصّحراء" و"السّماء"، فيطّرِح أواخرها المهموزة، وتكون الرّخصةُ هنا قريبةً مِن الأولى، والمعنى التّسهيل أو الضّرورة. وقدْ يقولها آخرُ فتنتسب الكلمةُ إلى المجال اللّغويّ، فيكون القصرُ هنا البناءَ المَشيدَ الممتاز عن غيرِه، وتكون الرّخصة الإجازةَ التي تؤهّل صاحبَها للسّياقة أو التّملكِ أو غير ذلك، وهكذا يظهر أنّ كلمة "القصر" تنتسبُ إلى مجالَين اصطلاحيّين، وهما الفقهُ والصّرف، وإلى آخرَ لغويّ.

أمّا الجملةُ الثّانية فقد يقولها نحويّ يذيع في طلاّبِه معلومةً مفادها أنّ الفاعلَ موجود لا يُحذَف، ولكنّه قدْ يستتر، ويبقى للتّقدير فضلُ بيانٍ للكشف عن المعنى، ومِن ذلك:"جاء"، فالفاعلُ مستترٍ تقديرُه هو. وقدْ تكون الجملةُ على لسان قاضٍ أو محامٍ، أو مفتّشٍ يبحثُ عن المجرمِ الهارب، فالفاعلُ في لغتِهم هو الذي اقترف جُرْماً يعاقَب عليه، واستتارُه عن الأنظارِ والعيونِ لا يعني أنّه غير موجودٍ. و"التّصدير" في الجملةِ الثّالثة ينتسب إلى غيرِ مجالٍ دِلاليّ، فقدْ تكون الجملةُ على لسان تاجرٍ يشغلُه أمر البيعِ والشّراء والاستيراد والتّصدير، وقدْ تكون على لسانِ بلاغيّ همُّه تنميقُ الكلام وتزيينه، والمتعيّن مِن مصطلحِه هو ردّ العجز على الصدّر، وهو أنْ يوافقَ آخرُ الفاصلة آخرَ كلمة في الصّدر؛ وذلك نحو:﴿ **والملائكةُ يشهدون، وكفى بالله شهيداً**﴾[1]. والجملةُ الرّابعة محتمِلة احتمالَ ما تقدّمها، فقدْ تكون على لسانِ رجلٍ ممّن يشتغلون بالصّرفِ، فيكون "الاعتلال" دالاّ على حرفِ العلّة، و"العين" دالّة على عينِ الفعلِ "ع"، و"البِنية" رسم الكلمةِ وجوهرُها. وقدْ تكون

---

(١) الآية (النساء، ١٦٥). وانظر : الكفوي –الكليات، ٣٠٦.

على لسانِ طبيبٍ واعظٍ، فالاعتلالُ عنده علامةُ المرض، والعين هي العين الحقيقيّةُ التي يُبصَر بها، و"بِنيتها" جسمُها وما تأتلف مِنه.

وقد ألمح ابنُ فارسٍ إلى التّردّد بين المعنيين في بابِ "الأسباب الإسلاميّة"، فأشار إلى كلمةِ "المؤمن" وأصلِها، فقد عرفت العربُ المؤمن مِن الأمانِ، ثمّ زادت الشّريعة شرائطَ وأوصافاً، وكذلك السّجود، فقد عَرَف العربُ السّجود، ولكنّه لم يكن على الهيئةِ المقرَّرةِ في الصّلاة، ولذا يُعَدّ كلام الشّاعر:

١-أوْ درّة صدفيّة غوّاصُها بَهِجٌ متى يرها يُهِلّ ويسجدِ

ملبساً؛ ذلك أنّ الخاطرَ قد يتوهّم أنّ سجودَه كالسّجود الشّرعيّ، وليس ذلك كذلك، وإنّما هو الانحناء والطّأطأة[١].

٢- ومِن مثلِ ما تقدّم قوله -صلّى الله عليه وسلّم-: "**إذا دُعِي أحدكم إلى طعامٍ فليجبْ ، فإنْ كان مفطراً فليأكلْ ، وإنْ كان صائماً فليصلّ**". وقد يقفزُ إلى النّفس خاطرٌ مؤدّاه أنّ الصّلاةَ هنا جاءت بمعناها الشّرعيّ، وهي العبادة المتعارَفُ على أركانِها وأفعالِها وهيئتها، ولكنّ لها معنى آخرَ، وهو المعنى اللّغويّ الدالّ على الدّعاء، وقد حُمِل هذا القولُ على المعنى اللّغويّ، والمتعيّن مِنه: لِيَدْعُ لأهلِه بالخير والبركة[٢]، وقد جاءتْ "الصّلاة" في قولِ الشّاعر بالمعنى اللّغويّ:

٣- تقولُ بنتي وقــدْ قرّبْــت مرتحلاً يا ربّ جنّبْ أبي الأوصابَ والوجَعا

عليكَ مثل الذي صلّيت فاغتمضي نوماً فإنّ لــجنبِ المرءِ مضطَــجعاً

أي: عليك مثل الذي دعوت[٣].

٤- يُعرّف ابنُ الحاجب المفعولَ فيه بقوله:

---

(١) انظر : ابن فارس -الصاحبيّ ، ٧٩. الشعر للنابغة الذبياني، ٤٠.

(٢) انظر : الراغب الأصفهاني - المفردات في غريب القرآن، ٢٨٥، الزمخشريّ - الفائق، ٣٠٩/٢، ابن الأثير - النهاية، ٥٠/٣.

(٣) انظر : الزمخشريّ - المصدر نفسه، ٣٠٩/١، والشعر للأعشى، انظر ديوانه، ١٥١.

" المفعولُ فيه هو ما فُعِل فيه فعْل مذكور مِن زمانٍ أو مكانٍ، ثمّ يستدرك عليه الأستراباذيّ شارحاً قولَه: " فعْل مذكور" لكي يدرأ وهمٌ قد يَرِد على النّفسِ مضمونُه أنّ الفعل في هذا السّياقِ هو قسيمُ الاسم والحرفِ، وليس ذلك كذلك، بل هو الحدثُ الذي تضمّنه الفعلُ المذكور[1].

وممّا ورد عليّ مِن لبس آتٍ مِن المجالات الدّلاليّة أنّني كنتُ أحدّث طلاّباً عن التّعالق المَكينِ بين المُسنَدِ والمسندِ إليه؛ ذلك أنّ أحدهما لا يستغني عن الآخرِ، ولا تتمّ الفائدة إلاّ بهما، وكنتُ قد تمثّلت: "محمّد منطلق"، و"ينطلق محمّد"، فأشرتُ إلى أنّ القائلَ في الجملةِ الأولى أسند الانطلاقَ إلى محمّد، ولذا تمّت الفائدةُ، وتعيّن الخبر، وكذلك الجملة الثّانية، فعلاقةُ الإسناد فيها تُبين عن المعنى والخبرِ المراد، فاستوقفني أحدُ الطلاّب قائلاً: لعلّك تريد الجملةَ الأولى؛ ذلك أنّها مؤتلفة مِن مبتدأ وخبرٍ، أمّا الثّانية فهي مؤتلفةٌ مِن فعلٍ وفاعل، فأدركت مرادَه، وبيّنت أنّ الخبرَ في سياقِ كلامي المتقدّمِ لم يكنْ مصطلَحاً نحويّاً خالصاً، وإنّما قصدتُ الإخبار والإفادة.

٣- اختلاف اللَّهَجات:

مِن المقرَّر المستحكِم أنّ العربيّة بناءٌ ائتلافيٌّ ينتظم لهَجاتٍ متعدّدةً كانت تلتقي على قدر أساسيٍّ مشترَك في نظمِها الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ والنّحويّة والمعجميّة، ولكنّها كانت تفترقُ في مظاهرَ لغويّة بذل اللّغويّون الوُسعَ كلَّه في حصرها عندما بدأ التّقعيد[2]، والحقّ أنّ مظاهرَ الافتراقِ كانت كثيرةً كثيرة، وأنّ مادّة التّقعيد اللّغويّ لم تقم على استرفادِ كلِّ المعطَيات اللّغويّةِ اللّهْجيّة؛ ذلك أنّ هذا مطلبٌ متعذِّر مِن جهة، ومفارِق لقصدِ التّقعيد والبناءِ الائتلافيّ الجامعِ على مادّة لغويّةٍ مشتركَة مِن جهة أخرى، ولذلك اقتُصِر على قبائلَ مخصوصةٍ في رسمِ صورة العربيّة، "والذين عنهم نُقِلت اللّغة العربيّة، وبهم اقتُدِي، وعنهم أُخِذ اللّسان العربيّ مِن بين

(١) انظر : الأستراباذي – شرح الكافية، ٢/١١.

(٢) انظر : نهاد الموسى– اللغة العربية، ١٩.

قبائل العرب هم: قيس، وتميم، وأسَد، فإنّ هؤلاءِ هم الذين عنهم أكثر ما أُخِذ ومعظمه، وعليهم اتُّكِل في الغريبِ وفي الإعرابِ والتّصريف، ثمّ هُذيل، وبعض كنانة، وبعض الطّائيّين، ولم يُؤخَذ عن غيرِهم مِن سائرِ قبائلِهم"[1].

إخال أنّ اللغويّين معذورون في هذا الاقتصارِ لشيئين: أولّهما: لو أنّ لغويّاً معاصراً أراد أنْ يُوصِّف اللّهَجاتِ العاميّة اليومَ لوجد في هذا المطلبِ عسراً ومشقّة إنْ لم يجد عَجزاً، فإلى أيّ لهجةٍ يفيىء؟ وعلى أيّ مظهرٍ لغويّ يعتمد؟ أيقيم توصيفَه على لهجةِ المغرب العربيّ، أم على لهجةِ المشرق؟ وفي لهجةِ المشرق لهَجات متمايزةٌ كلهجة السّودانِ والأردنّ والعراقِ، وفي العراق لهَجات متعدّدة تفترقُ في بعضِ ملاحظِها اللّغويّة؛ لعلّ هذا الذي تقدّم يفضي إلى اقتباسِ نظرٍ مُعجِب للمعريّ مفادُه: "ولا يمكن أنْ يُحاطَ بجميعِ ما لفظتْ به القبائل،...،إذْ كان غايةً ليست بالمُدركَة"[2]، وابن حزمٍ يقرّر أنّ مَن سمع لغةَ أهل "فَحْص البَلّوط"- وهي على ليلةٍ واحدةٍ مِن قرطبة- كاد يقول إنّها لغةٌ أخرى غير لغةِ أهلِ قرطبة، "وهكذا في كثيرٍ مِن البلاد، فإنّه بمجاورةِ أهلِ البلدة بأمّة أخرى يتبدّل لغتُها تبديلاً لا يخفى على مَن تأمّله"[3].

وثاني ذَيْنك الشّيئين أنّ للتّنزيل العزيزِ أثراً جليّاً في هذه الوجهةِ التّقعيديّة المؤلِّفة، ومع هذا كلّه، فقد راعى الفروقَ اللّهْجيّة، وتعدّدت القراءاتُ القرآنيّة الشّريفة، "فالنّبيّ-صلّى الله عليه وسلّم- بُعِث إلى جميعِ الخلق أحمرِها وأسودها، عربيِّها وعجميّها، وكانت العربُ الذين نزل القرآن بلغتِهم لغاتُهم مختلفة، وألسنتهم شتّى، ويعسر على أحدِهم الانتقالُ مِن لغتِه إلى غيرها، أو مِن حرفٍ إلى آخرَ، بل قدْ يكون بعضُهم لا يقدر على ذلك، ولا بالتّعليم ولا العلاجِ، لا سيّما الشّيخ والمرأة

(١) السيوطي – المزهر ، ٢١١/١.

(٢) المعري – عبث الوليد، تحقيق ناديا الدولة، دمشق، ١٩٧٨،٥٢٨.

(٣) ابن حزم – الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق الناشر، ط٢، دار الحديث، القاهرة ، ١٩٩٢م ١-٣٤.

ومَن لم يقرأ كتاباً،...، فلو كُلِّفوا العدولَ عن لغتِهم، والانتقال عن ألسنتِهم، لكان مِن التّكليف بما لا يُستطاع، وما عسى أنْ يتكلّف متكلِّفٌ وتأبى الطّباع".[1]

أمّا مظاهرُ تباين اللَّهَجات فهو مطلبٌ يطول، ومِن أمثلتِه لزوم الألفِ في المثنّى في الأحوالِ الثّلاثة: جاء الولدان، ورأيت الولدان، ومررتُ بالولدان[2]، والتّردّد في إعرابِ الأسماءِ السّتّة بين ثلاثةِ وجوهٍ: أوّلها الرّفع بالواو، والنّصب بالألف، والجرّ بالياء، وثانيها "النّقص"، وهو حذفُ الواو والألف والياء، والإعراب بالحركاتِ الظّاهرةِ؛ وذلك نحو: هذا أبُه، ورأيت أبَه، ومررت بأبِه، وثالثها "التّمام"، وهو إلزامُها ألفاً[3]. والتّردّد بين إعمال "ما" كَ "ليس" وإلغائها، والأولُ بلغة أهل الحجازِ، والثّاني بلغةِ بني تميمٍ[4]، ومِن أمثلةِ التّباين اللّهْجيّ كسرُ أوائلِ الأفعال المضارعةِ، "وذلك في لغةِ جميعِ العربِ إلاّ أهل الحجازِ، وذلك قولهم: أنت تِعْلم ذاك، وأنا إِعلم، وهي تِعلم، ونحن نِعلم ذاك[5]، وفي بابِ القولِ على اختلافِ لغات العربِ يعرض ابنُ فارسٍ لهذه المسألةِ مِن وجوهٍ متباينة، كالاختلافِ في الحركاتِ، ومِنه نَستعين ونِستعين، والاختلاف في الحركةِ والسّكونِ، ومِنه: مَعَكم ومَعْكم، والاختلاف في إبدالِ الأصواتِ، ومِنه: أولئك، وألالك، والاختلاف في الهمزِ والتّليينِ، والقلب، ومِنه: صاعِقة وصاقِعة، والاختلاف في الحذفِ والإثباتِ، ومِنه: استحيَيْت واستحَيْت، والاختلاف في الإمالةِ، والاختلاف في التّذكير والتّأنيثِ والإدغام والإعرابِ وصورةِ الجمعِ والزّيادةِ، ومِنه: "أنظور"[6]، ولا ينسَى في هذا

---

(1) ابن الجزري – النشر، ٢٢/١.

(2) انظر: ابن جنيّ – الخصائص ١٦/٢، ابن عقيل – الشرح، ٥٦/١، ابن مالك– شواهد التوضيح، ١٥٧، السيوطي –الهمع، ١٣٤/١– ١٣٥ .

(3) انظر: ابن عقيل – المصدر نفسه، ٤٨/١–٤٩.

(4) انظر: سيبويه – الكتاب، ٥٧/١، ابن جنيّ– الخصائص، ١٢/٢.

(5) سيبويه– المصدر نفسه، ١١٠/٤، وتكسر الفاء في المثال والأجوف و الناقص والمضاعف، انظر: ابن السراج– الأصول، ١٥٦/٣، الأستراباذي– شرح الشافية، ١٤١/١.

(6) انظر: ابن فارس – الصاحبيّ، ٥٠–٥٤، السيوطي – المزهر ٢٥٥/١

المقام عَنْعَنة تميم، وكشكشةُ ربيعة، وكسكسةُ هوازن[١]، ولا يُنسى استعمال الألفاظ لدلالاتِها؛ ذلك أنّ القبائلَ كانت تتباين في بعضِ التّسميات التي تسبغُها على أشيائها، وبمُكْنةِ الدّارس أنْ يتّخذ مِن التّباينِ اللّهْجي مَدْخلاً مِن مداخل دراسةِ ظواهرَ دلاليّة مخصوصةٍ كالتّرادف والمشترَكِ والأضْدادِ، وابن جني يقرّر أنّه "إذا كَثُر على المعنى الواحد ألفاظٌ مختلفة، فسُمِعت في لغة إنسانٍ واحدٍ، فإنّ أحرى ذلك أنْ يكون قدْ أفاد أكثرَها أو طرفاً منها مِن حيثُ كانت القبيلةُ الواحدة لا تتواطأ في المعنى الواحدِ على ذلك كلِّه، وكلّما كَثُرت الألفاظُ على المعنى الواحدِ كان ذلك أولى بأنْ تكون لغاتٍ لجماعاتٍ اجتمعت لإنسانٍ واحد"[٢]، ويظهر أثرُ اللّهَجات في تخلّقِ الأضداد جليّاً في قولِ ابن الأنباريّ: "إذا وقع الحرفُ على معنيين متضادّين فمحالٌ أنْ يكون العربيّ أوقعه عليهما بمساواةٍ منه بينهما، ولكنّ أحدَ المعنيين لحيٍّ مِن العربِ، والمعنى الآخرُ لحيّ غيره، ثمّ سمع بعضُهم لغةَ بعضٍ، فأخذ هؤلاءِ عن هؤلاءِ، وهؤلاءِ عن هؤلاء"[٣]، "فالمُعْصِر" في لغةِ قيس وأسَد التي دنتْ مِن الحيضِ، وهي في لغةِ الأزْد التي ولدتْ أو تعنّستْ[٤]، و"المُقَوَّر" في لغةِ الهلاليّين السّمين، وفي لغةِ غيرِهم المهزول، و"السّاجد" المنحني عند بعضِ العربِ، وهو في لغة طيِّىء المنتصِب[٥]، و"القَلْت" في كلامِ أهل الحجازِ نُقْرة في الجبلِ يجتمع فيها الماء، فيَغرق فيها الجمل لو سقط فيها، و"القَلْت" في لغةِ تميم وغيرهم نُقرة صغيرةٌ

---

(١) انظر: ابن جنيّ – الخصائص، ٢/١٣-١٤، وقد نسب ابن فارس الكشكشة إلى بنى أسد، انظر: الصاحبيّ، ٥٦، ونسبها سيبويه إلى ناس من بني تيميم ومن أسد، انظر: الكتاب ٤/١٦٩، وانظر السيوطي- المصدر نفسه، ١/ ٢٢١-٢٢٣.

(٢) ابن جنيّ – المصدر نفسه، ١/٣٧٤-٣٧٥.

(٣) ابن الأنباري- الأضداد، وقد تحدث Akmajian عن التنوعات اللغويّة "Language Variation في الإنجليزية فعرج على هيئة النطق وتنوعها بتنوع اللهجات، وعلى الكلمات ومعانيها المتنوعة بتنوع اللهجات، انظر: Linguistics: An Introduction to Language and Communication, the MIT press, Massachusetts, 1979,p. 176-180

(٤) انظر: ابن الأنباري- المصدر نفسه، ٢١٦.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ٢٩٤

في الجبلِ يجتمع فيها الماء[1]. و"اللَّمْق" عند بني عقيلٍ الكتابة، وعند سائرِ قيسٍ المَحْو[2]، و"السّامِد" مِن الأضداد؛ إذ هي في كلام أهلِ اليمنِ اللاّهي، وفي كلامِ طيّيء الحزين، ولمّا وردوا على قوله –تبارك-:**﴿وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون﴾**[3] التبس عليهم الأمرُ، فتردّدوا بين المعنيين الآتيَين مِن تباين اللّهَجات، فقيل إنّ المتعيّن: وأنتم لاهون، وقيل: وأنتم حزينون متحيِّرون[4].

أمّا المشترَك اللّفظيّ – والأضداد ضربٌ مِنه– فأمثلتُه كثيرة، ومِن ذلك أنّ "الألْفت" في كلام قيسٍ الأحمقُ، وفي كلام تميمٍ الأعسر، و"السَّليط" عند عامّةِ العربِ الزّيتُ، وعند أهلِ اليمن دُهن السّمسم[5]، و"الرّبّاد" هو الطّيّان بلغةِ اليمن[6]، و"العِنْك" البابُ بلغتِهم أيضاً[7]، وعَنَك البابَ وأعنكه إذا أغلقه، وأعْنَك الرّجل إذا تَجِر في العُنوكِ، وهي الأبواب[8]. و"التّفكّه" التّعجّب والتّندّم، مثل "التفكّنّ"، وهي لغةٌ لعُكْل، وقد حُمِل قوله –سبحانه–**﴿ فظلتم تفكّهون﴾**[9] على المعنيين، وهنا يظهرُ ثانيةً أثر التّباين اللّهْجي في تعدّدِ المعنى والاحتمال[10].

أحسبُ – بعد هذا العرضِ الدّالّ بالاقتضابِ– أنّ أجلى مرشّحٍ لتخلّقِ اللّبس الآتي مِن التّباين اللّهْجيِّ هو استعمال الألفاظِ لدلالاتِها؛ ذلك أنّ تواضَع قبيلتَين على

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ٤٢١

(٢) انظر: المصدر نفسه ، ٣٥.

(٣) الآية (النجم، ٦٠-٦١)

(٤) انظر: المصدر نفسه، ٤٣-٤٥، الزمخشريّ- الكشاف ، ٣٥/٤، أبو حيان – تحفه الأريب،١٣٢ ، وقد ذهب ابن قتيبة وابن عزيز السجستاني ومكي بن أبي طالب إلى أن المعنى " لاهون" انظر: تفسير غريب القرآن ٤٣٠، النزهة، ٢٧١، مكي – العمدة، ٢٨٨.

(٥) انظر: السيوطي – المزهر ٣٨١/١.

(٦) انظر: الزمخشريّ – الفائق، ١٢٨/٢ وانظر: اللسان مادة " ربد" .

(٧) انظر: المصدر نفسه ، ٣٣/٣.

(٨) انظر ابن منظور– اللسان، مادة "عنك".

(٩) الآية (الواقعة، ٦٥)

(١٠) ذكر– المعنيين: ابن قتيبة– تفسير غريب القرآن ٤٥، ابن عزيز – النزهة ١٧٢، الزمخشريّ – الكشاف، ٤/ ٥٧، أبو حيان – البحر – ٢١١/٨، وذكر أن " تفكّه" من أخوات " تأثّم"، والمعنى تطرحون الفكاهة عن أنفسكم.

معنيَين متباينَين لكلمةٍ واحدة ملحظٌ يفرزِ مواضعَ لبس محتمِلة، ولكنْ، قد يجدُ المرءُ علائقَ بين المعاني المتباينة بتباينِ اللّهَجات، ومِن ذلك السّليط الدّالّ على الزّيتِ وذُهن السّمسم كما تقدّم آنفاً، ولعلّ هذه العَلائقَ تعمل على تقريبِ المتعيّن مع بقاءِ باب اللّبس مفتوحاً.

وممّا ورد عليّ في هذا المضمارِ أنّ صديقاً مِن أفقٍ عربيّ قال لنا مرّةً: **لقد أحضرت معي مِن السّودان فولا طيّباً** ، فوَهِمت إذْ ظننتُ أنّه كالفولِ الذي نعهده ونأكلُه، وعجِبَ صديقٌ ثالث في الحضرةِ تلك مِن أنّ هذا الفولَ لم يتسنّهْ لطول الشّقّة والزّمنِ، ولكنّ هذا الوهم والعجبَ ظلاّ حبيسي النّفس، ولم نفصح عنهما إلاّ لمّا جاء بالفولِ الذي حدّثنا عنه، فإذا هو "الفُستُق" عندنا، فأعلنتُ ما أسررتُ في نفسي مِن وهمٍ، واستدرك عليّ الثّالث بأنّ هذا الوهم باعثُه تباين لهْجيّ؛ إذْ إنّهم يسمّون "الفُستق" بالفول السّودانيّ.

ومِن مثل ما تقدّم أنّ صديقاً عُمانيّاً زارني فسألتُه عن ثالثٍ لنا، فقال: "**تركتُه مهتمّاً ، عنده امتحان شامل**"، فقلت له: هذا هاجسٌ حميد يستنهضُ الهمّة، فأنغض رأسَه مستنكِراً عليّ هذا المذهبَ قائلاً: وكيف يكونُ "الهمّ" عاملاً مِن عواملِ النّجاحِ؟ فقلت: بونٌ عظيم بين الهمّ والاهتمامِ، فأدرك ساعتَها أنّني لم أقتنصْ مرادَه، وأنّنا نلتقي على معنى واحدٍ، ولكنّ الذي شتّت الخواطرَ وأقام التّفاصلَ التّباين اللّهجيّ؛ ذلك أنّ "المُهتمّ" عند أهلِ عُمان تدلّ على المهمومِ عندنا، وليس يخفى أنّ استعمالَهم لهذا الوجهِ صالح؛ ذلك أنّ القالَب الذي أودِعتْ فيه تلكم الكلمة هو "افتعل"، وهو في إحدى وجهاتِه دالٌّ على معنى الإضافةِ والاكتساب، فاهتمّ: إذا اكتسب نصيباً مِن الهمّ.

وممّا حُدِّثت به وأنا أستشرفُ وقائعَ كلاميّةً ملبِسة في هذا البابِ كلمة "البِطّيخ"؛ ذلك أنّها "الشّمّام" عند أهلِ الإمارات والعراق والمغرب العربيّ، ولمّا خُيِّرَ الأوّلُ بين فواكهَ متنوّعةٍ آثر البِطّيخ، فجاء صاحبُه بالبِطّيخ الذي تعارف عليه أهلُ البيئةِ الكلاميّة التي ينتسب إليها، وبعد أنْ فرغا منه أوحى الأوّل إلى صديقِه أنْ

ليس هذا الذي عنى؛ ذلك أنّ البيئةَ الكلاميّة التي ينتسب إليها تتباينُ في إسقاطِ دلالةٍ أخرى للكلمة نفسِها عن بيئةِ الآخر. وبذا تصبحُ كلمة "البِطّيخ" مشتركاً لفظيّاً باعثُه التّباين اللّهْجي، والحقّ أنّ أمثلةَ هذا المطلب كثيرةٌ كثيرة، والذي أودّ التّنبيه عليه أنّ كثيراً مِن مظاهرِ اللّبس الآتي مِن هذه الجهةِ على التّعيين يمّحي بالمعرفة المكتَسَبَة، والتَّطواف في الآفاقِ العربيّة والمجاوَرة؛ ذلك أنّ الرّصيد المعجميّ يتوسّع بهذا التَّطواف، وقد تنبّه ابن جني إلى هذا الملحظِ؛ ملحظِ التّواصل مع تجلّي التّباين اللّهجيّ، فقال: "فقد علمتَ بهذا أنّ صاحبَ لغةٍ قد راعى لغةَ غيره؛ وذلك لأنّ العربَ وإن كانوا منتشرين، وخلقاً عظيماً في أرضِ الله غير متحجّرين ولا متضاغطين، فإنّهم بتجاورِهم وتزاورِهم يَجرون مَجرى الجماعة في دار واحدةٍ، فبعضهم يلاحظُ صاحبَه، ويراعي أمر لغتِه، كما يراعي ذلك مِن مُهمِّ أمره، فهذا هذا"[١].

٤- التّطوّر الدّلاليّ:

التّطوّر ناموسٌ نافذُ الفعل في الكونِ، يتجلّى في معالمَ متباينةٍ، ومنها اللّغة؛ ذلك أنّها ظاهرة اجتماعيّةٌ غير معزولةٍ عن المجتمع وما يُستخدَم فيه، أو يتوارى عنه، أو يضعف، ثمّ إنّها وسيلةُ التّفكير وأداته، والفكرُ في حركة دائبةٍ متوثّبة متطوِّرة، وما ينسحبُ على الفكرِ ينسحب على اللّغة؛ إنّها عرضة للتّطوّر والتّغيّرِ الحادثِ في مستوياتِها الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ والنّحويّةِ والمعجميّة والأسلوبيّة، والذي يخصّ هذه المباحثةَ هو التّطوّر الواقعُ في الدّلالةِ، والنّاظر في المعجماتِ العربيّة يجد تراخياً جليّاً بين كثيرٍ مِن الألفاظِ ودلالاتِها، ولا يُنسى أنّ كثيراً مِن ألفاظ العربيّة المعمَّرةِ متداولة، ومِن شأن هذا أنْ يُعقِب التباساً؛ ذلك أنّ اللاّحق في كثيرٍ مِن الأحيان يفهمُ ألفاظ السّابق كما يفهمُها في عصرِه ظانّاً أنّ تلكم الألفاظَ المتقادِمةَ

---

(١) ابن جنيّ – الخصائص ٢/١٧-١٨

كانت تعني عند السّابقِ ما تعنيه عنده[1]، "ولو قمنا بمقارنةٍ كاملةٍ بين فترتَين متباعدتَين لتكشّف لنا الأمرُ عن اختلافاتٍ عميقة كثيرةٍ مِن شأنها أنْ تعوّق فهمَ المرحلة السّابقةِ وإدراكَها إدراكاً تامّاً، فممّا لا شكّ فيه أنّنا في حاجةٍ إلى استعدادٍ لغويّ خاصّ كي نتمكّنَ مِن فهم الملحمةِ الإنجليزيّة القديمة "Beowulf" مثلاً، أوْ أنْ نتذوّقَ أساليب النّثر في عهد الملكِ فريدKing Al fred"[2].

لنا أنْ نسرّح الخاطرَ متخيّلين أنّ امرأ القيسِ "السّابق" بُعِث حيّاً من قبره بمشيئةِ الله القديرِ، وأنّه بدأ يتجوّلُ في أسواقِ اللاّحق بزيّه العربيِّ التّقليديّ وقد نفض عن جبينه رمالَ الصّحراءِ، أحسبُ أنّ نصيبَه معنا مِن التّواصل خافت؛ ذلك أنّ كثيراً مِن الألفاظِ الحادثةِ لا عهدَ له بِها، كالحاسوب، والهاتف، والتّلفاز، والمذياعِ، وأنّ كثيراً من ألفاظِ عصرِه استوتْ اليومَ في ملامحَ دلاليّة مفترقةٍ عن ملامحِها الأولى افتراقاً يسيراً أو خطيراً، ولا يُنسى أنّه سيفتقد كثيراً مِن ألفاظِ عصرِه التي طواها الزّمن، سيفتقد ناقتَه وصفاتِها، وسيفَه وأوصافه، والملامحَ الدّلاليّة المميِّزة لكلّ وصفٍ، والخمرة وأشكالَها، وأنواعَ الرّياح التي كان يقيم فروقاً دلاليّة بين ألفاظِها، وحصانَه والأوصافَ الدّقيقة التي كان يُسبغها عليه، وفوق هذا كلِّه سيجدُ نفسه غريباً في عالم البنطالِ والقميص، وأحسبُ أنّ الباحثَ غيرُ مبالغٍ لو قال: والأمرُ عند اللاّحقِ كما هو عند السّابقِ "امرئ القيس"، فإذا ما أُرْجِع إلى القرونِ الأولى فإنّه سيلاقي عَنَتاً ومشقّة في التّواصلِ، بل ستُفضي به تلك المشقّة إلى أبوابِ اللّبسِ؛ ذلك أنّه سينقّر عن معاني ألفاظِ السّابقِ في المعجماتِ، وقد يتعذّر عليه إدراكُها كإدراكِ السّابق، وسيجدُ أنّ كثيراً مِن المدلولاتِ قدْ تطوّرتْ مع بقاءِ رسمِها على ما هو عليه كالبريدِ وريشةِ الكتابةِ والدّبابةِ، ولا يُنسى امّحاءُ الفروقِ الدّلاليّة المميِّزةِ التي كان يقيمها السّابق، كالفرقِ بين القُعود والجلوس، والظّلّ والفيءِ، والقَضيم والكَهامِ، وغير ذلك كثيرٌ كثيرٌ، حقّاً أنّها مشكلةٌ لغويّة تفضي

---

(١) انظر: مهدي عرار– جدل اللفظ والمعنى، ١٨٤.

(٢) أولمان – دور الكلمة ، ١٧٠.

باللاّحقِ إلى الولوجِ في عالمِ اللّبس مِن بوّابةٍ عريضة: مِن امّحاءِ الفروقِ الدّلاليّة، ومِن انزياح الألفاظِ عن دلالاتِها إلى حدّ الإيهامِ دون الإحكام، ومِن انتفاءِ مقدرتِه على إقامةِ بونٍ بين المُطْلَق والمُقيَّدِ، وعندها ستصبح النّاقةُ وصفاتها المتباينة المتنوّعةُ "ناقةً" واحدةً عند اللاّحق، وهي عند السّابقِ أشكالٌ وألوان وأنواع، وستغدو أنواعُ السّيوف وصفاتُها سيفاً واحداً، كما ستصبح جميعُ أنواع السّياراتِ المتباينة التي يراها امرؤ القيسِ سيّارةً واحدة؛ ذلك أنّها ممّا يقع خارجَ وعيِه ومفهومِه، فقد يصعب عليه أنْ يدرك أنّ هذه مِن طراز "مرسيدس"، وأنّ تلك مِن طراز "فولفو".

لِنَرْجع النّظر في الأمثلةِ الآتيةِ لتجلية انزياحِ الألفاظ عن دلالاتِها، وما يعقب هذا الانزياحَ مِن لبسٍ في إدراك مقاصدِ السّابق:

١-جَهَش للبكاء وأجْهَشَ:

ثمّ بونٌ بين الدّلالة القديمةِ ودلالة اليوم؛ فالمتعيّن مِنها قديماً هو الاستعدادُ للبكاء والاستعبارِ، والجَهْش أنْ يفزع الإنسان إلى غيرِه، وهو مع ذلك كأنّه يريدُ البكاء كالصّبيّ يفزع إلى أمّه وأبيه وقدْ تهيّأ للبكاء[١]، والحقّ أنّ هذا المعنى مفارقٌ لما ران عليه إلفُنا في استعمالِ اليوم؛ ذلك أنّ "أجهش" تدلّ في هذه الأيامِ على أنّه أغرق في البكاءِ وأطال إلى حدّ النّحيبِ، وأحسبُ أنّ التّجافيَ عن أخذ التّطوّرِ الدّلاليّ بعين العنايةِ، وملاحظة أطوارِ الدّلالة المتعاقبة أمرٌ يفضي إلى اللّبسِ وإلى فهم ألفاظِ السّابق فهماً مغايراً للقصدِ الأوّلِ، ولمّا عرّج الثّعالبيّ على فصلِ ترتيب البكاءِ بيّنَ موضعَ هذه الكلمةِ في حقلها الدّلاليّ بين أخواتِها، فقال: "إذا تهيّأ الرّجل للبكاءِ قيل: أجهش، فإنْ امتلأت عيناه دموعاً قيل: اغرورقتْ عينُه وترقرقتْ، فإذا سالتْ قيل: دَمَعتْ وهمعت، فإذا كان لبكائِه صوتٌ قيل: نَحب ونشج، فإذا صاح مع

---

(١) انظر: ابن منظور – اللسان ، مادة " جهش".

بكائه قيل: أعول"[1]. يظهرُ ممّا تقدّم بجلاء ملحظان: أولُهما ما تقدّم عليه الحديثُ، وهو أنّ دِلالة "أجهش" اليومَ مفارقةٌ لدلالتها أمسِ، وثانيهما أنّ موضعَ الكلمةِ في الحقلِ الدّلاليّ بين أخواتِها مطلبٌ له خطرُه في تعيينِ معناها، وملاحظةِ امتيازِها عن بنات حقلِها.

٢- المَأْتَم:

عوداً ثانياً على خطورةِ فهم ألفاظ السّابقِ كما يفهمها اللاّحق، فالمَأْتَم اليومَ يكاد يقترنُ بالمصيبةِ والمناحة، وقد شكا مِن ذيوعِ هذا المعنى الحادث ابنُ قتيبة، فخطّأ مَن يقول إنّ دلالةَ المَأْتَم تقترن بالمصيبة، وإنّما "المأتم" النّساءُ يجتمعن في الخيرِ والشّرّ"[2]، واستدرك عليه ابنُ السِّيدِ قائلاً: "إنّ المأتم يكونُ مِن الرّجال أيضاً"[3]. والمُستصفى ممّا تقدّم أنّ دلالةَ المأتم قديماً لم تقترن بالشّرّ والنّساءِ فقط، بل اقترنتْ بالخيرِ والشّرّ والنّساءِ والرّجالِ، ولعلّ هذا يُفسِّر بأنّ الأصلَ الدّلاليّ العريض هو الاجتماعُ والانضمام، ونظرُ ابنِ فارسٍ في مقاييسِه يعضدُ هذا، فقد ذهب إلى أنّ الهمزةَ والتّاء والميم أصلٌ يدلّ على انضمامِ الشّيء بعضه إلى بعض[4]، ولو أنّه ورد على اللاّحق قولُ الشّاعر:

رمتْه أناةٌ مِن ربيعة عامرٍ نؤومُ الضّحى في مأتَمٍ أيّ مأتمِ[5]

لكان هذا الموضعُ مرشّحاً للولوج في مزالقِ اللّبسِ الآتي مِن التّطوّر الدّلاليّ؛ ذلك أنّ مأتم اللاّحقِ ليس كمأتمِ السّابق، فهو في هذا البيتِ اجتماعُ النّساء

---

(١) الثعالبيّ – فقه اللغة وسر العربية، ١٢٥.

(٢) ابن قتيبة– أدب الكاتب ، ٢٦.

(٣) ابن السيد – الاقتضاب، ١٥/٢.

(٤) ابن فارس – المقاييس ، مادة " أتم".

(٥) انظر الشعر: ابن قتيبة – أدب الكاتب ، ٢٧، ابن فارس – المصدر نفسه، مادة " أتم"، ابن منظور – اللسان مادة " أتم" وهو منسوب في اللسان إلى أبي حية النميريّ.

لا محالةَ في مقامِ فرح، وليس خطأً أنْ يُقال إنّ المأتمَ هو المصيبة في هذه الأيّامِ، لأنّ النّساء اجتمعن لذلك، والحزنُ هو السّببُ الجامع[١].

٣- الدّابّة:

والدّابّةُ تكاد تكون مقتصرةً في يومِنا هذا على بعضِ الحيواناتِ التي تدبّ على الأرضِ، ولكنّها قبْلاً اسمٌ لِما دبّ على الأرضِ، وقدْ جاء في التّنزيلِ العزيز: **﴿ واللهُ خلق كلّ دابّةٍ مِن ماء فمِنهم مَن يمشي على بطنِه....﴾** [٢].

يظهر مِن هذا السّياق الشّريفِ أنّ دلالةَ الدّابّة عامّة مفتوحةٌ على ما يعقل وعلى ما لا يعقلُ، وسببُ ذلك قوله- تنزّه- "فمِنهم"، والمرادُ: والله خلق كلّ نفس دابّة، ومثلُه قولُه-تنزّه- **﴿ما تركَ على ظهرِها مِن دابّة﴾** [٣]، وقد قيل: مِن دابّةٍ مِن الإنسِ والجنّ وكلّ ما يعقل[٤]. لعلّ في هذا العرضِ بياناً مجلّياً للفرق الحادثِ بين دابّة السّابقِ ودابّةِ اللاّحق، وليس يخفى أنّ إطلاقَ هذا الوسمِ على أحدٍ ما يُعَدّ إهانةً وازدراءً في يومِنا هذا، وقد ألمح صاحبُ اللّسان إلى التّطوّر الدّلاليّ الواقعِ في هذه الدّلالة، فأشار إلى أنّ الدّابّةَ هي التي تُركَب، وأنّ هذا الاسمَ غَلَب على ما يُركَب مِن الدّوابّ، وحقيقتُه الصّفة[٥]، وليس يخفى أنّ هذا التّطوّر الدّلاليّ تخصيصٌ لدِلالةِ الكلمة، واطّراحُ بعض ما تستغرقُه دلالتُها، ويبقى المعوّلُ عليه في رفع اللّبسِ واقتناصِ مقاصدِ التّعبير استشرافَ أطوارِ الدّلالةِ المتراكمة كتراكمِ الطّبقات الأثريّة.

---

(١) انظر: ابن منظور- المصدر نفسه، مادة " أتم"

(٢) الآية (النور، ٤٥)

(٣) الآية (فاطر، ٤٥)

(٤) انظر: المصدر نفسه، مادة " دبب" .

(٥) انظر: المصدر نفسه، مادة " دبب"

٤- الطّرَب :

الطّرب في دلالتِه القديمةِ واقعٌ في الفرح والحزنِ؛ إذ إنّه خِفّةٌ تعتري المرء عند الشّدّةِ؛ شدّة الفرحِ أو الحزن، ولكنّ هذه الدّلالة تطوّرتْ فغدتْ تدلّ على الخفّة التي تعتري المرءَ في حالِ الفرحِ فقط، وقدْ شكا مِن هذا التّطوّر ابن قتيبةَ، فخطّأ مَن يجعلُه في الفرحِ دون الجزع[1] ، ولعلّ اطّراح "الجزع" مِن دائرةِ دلالة "الطّرب" تخصيصٌ دلاليّ، واقتصارٌ على ملمح معنويٍّ وهو الفرحُ، والظّاهرُ أنّ على المرءِ أنْ يتنبّه إلى هذين المعنيين: المتقادِم والحادثِ حتّى لا يقع في لَبس، فيتجافى تجافياً غيرَ مقصودٍ عن فهم كلام السّابقِ، وممّا جاء بالمعنى المتقادِم:

سألتْني جارتي عنْ أمّتي — وإذا ما عـــيّ ذو اللّـبّ سَـأل

سألتني عن أناسٍ هلكوا — شربَ الدّهـــر علـيهم وأكَـــل

وأراني طَرِباً في إثْرِهم — طـرَبَ الوالــهِ أو كالمُخْـتبَل[2]

٥- الرّضْخ :

للرّضخ معانٍ متنوّعةٌ، ومِنها كسرُ الرّأس، وكسرُ النّوى، فيقال: رضختُ رأسَ الحيّة بالحجارةِ، وهذا معنى في أذهانِنا ما يزال قائماً، وينضافُ إلى معانيها العطاءُ، فيُقال: رضخ له مِن مالِه إذا أعطاه، والرّضيخة العطيّةُ، وراضخَ فلانٌ شيئاً إذا أعطى وهو كارهٌ.

يظهر أنّ المعنى الأخيرَ، وهو العطاءُ، غير شائعٍ في عُرفنا اللّغويّ اليومَ، فالنّاس يتعارفون على أنّ معنى "الرّضخ" الكسرُ أو الدّقّ، وقد تدلّ أيضاً على الإذعانِ والانقيادِ، فيُقال: رَضَخ فلان لفلانٍ، إذا استجاب له وأذعن، والحاصلُ أنّ تطوّر هذه الدّلالةِ مرشّحٌ لتخلّقِ اللّبسِ، ومِن ذلك قولُ ابن قتيبةَ: " **فإذا حضرها**

---

(١) انظر: ابن قتيبة – أدب الكاتب، ٢٤.

(٢) الشعر للنابغة الجعديّ، والبيت الأخير مثبت في أدب الكاتب، ٢٤، وأضداد ابن الأنباري، ١٠٢. وانظر ديوانه، منشورات المكتب الإسلامي ط١، دمشق،١٩٦٤، ٩٢-٩٣.

الأقارب واليتامى والمساكين **فارضخوا لهم وعدوهم**"[1]. وقدْ كنتُ قدْ عرضتُ هذا النّصّ على ثلّةٍ مِن طلاّب العربيّةِ الشّادين، فجنحوا كلّهم إلى أنّ المتعيّن مِنها هو ما ران عليه إلفُنا اللّغويّ اليومَ، وهو الإذعانُ والانقياد، وليس ذلك كذلك في هذا السّياقِ المتقادِم، بل المعنى: أعطوهم شيئاً قليلاً[2].

٦-التّعزير:

وهذه كلمةٌ مِن الأضداد[3]، فيقال عزّره إذا ردّه، والتّعزيرُ ضرب دون الحدِّ لمنعِه الجانيَ مِن المعاودة، وردعِه عن المعصيةِ، وقيل هو أشدّ الضّربِ، وثمّ معنى آخرُ يقابل ما تقدّم، وهو التّوقيرُ والنّصر، وأصلُ ذلك كلّه المنعُ والرّدّ، "فكأنّ مَن نصرتَه قد رددتَ عنه أعداءه، ومنعتَهم مِن أذاه"[4]. أمّا دلالتها اليومَ فهي مفترقةٌ عمّا تقدّم افتراقًا يسيراً؛ ذلك أنّها في عُرفنا اللّغويّ لا تشيعُ إلاّ بمعنى التّأديب، ولعلّه يستقيمُ أنْ يُقال إنّ دلالة "التّعزير" مرّت بأطوارٍ متعاقبة: أوّلها دلالةُ الأصل على معنى عامّ، وهو المنعُ، والمنعُ يقع بالتّأديبِ، ويقع بالتّوقيرِ والنّصر، ثمّ مرّتْ هذه الدّلالةُ بطورٍ آخرَ جديد لنا إلفٌ به، وهو التّأديبُ، والحاصل أنّ هذا الطّورَ الأخير اقتصر على ملمحٍ دلاليّ واحدٍ، واطّرح الآخر؛ فهو تضييقٌ لدائرةِ المعنى التي تتربّع عليها هذه الكلمةُ، وقدْ وردتْ في التّنزيل العزيزِ بالمعنى المتقادم : **﴿ لتعزّروه وتوقّروه﴾**[5].

---

(١) ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن، ٣٢١.

(٢) انظر معنى الرضخ: ابن فارس – المقاييس، مادة رضخ، وابن منظور – اللسان، مادة رضخ.

(٣) انظر: ابن الأنباري – الأضداد ، ١٤٧.

(٤) ابن منظور – اللسان، مادة "عزر"

(٥) الآية (الفتح، ٩).

٧- الشّنْق:

لهذه الكلمةِ في هذه الأيّام معنى ليس لها مِن قبلُ؛ فقد كان يُقال: شَنَق البعير شَنْقاً إذا جَذَب خطامه وكفّه بزمامِه مِن قِبَل رأسه، وأَشْنَق البعيرُ بنفسه إذا رفع رأسه، والشِّناق حبلٌ يُجْذَب به رأس البعيرِ والنّاقة، وشَنَق رأس الدّابّة: شدّه إلى أعلى شجرةٍ أو وَتِدٍ مرتفع حتّى يمتدّ عنقها وينتصب[1]، والمُستصفى ممّا تقدّم أنّ تطوّر هذه الدّلالةِ وانتقالَها مِن مجال إلى مجالٍ لعلاقة المشابَهة أمرٌ يجب التّنبيه عليه، وليس يصحّ في الفهمِ أنْ يُحْمَل معنى قولِه :"شَنَق دابّته" أو "شَنَق رأس حصانِه" على محملِ المعنى الذي نتداوله اليومَ؛ إذ إنّ مقاصدَ التّعبيرَين متباينة، مع وجودِ ملْمَح جامعٍ.

٨- سائر:

"السُّؤْر" بقيّة الشّيء، والسّائر الباقي، ولكنّها تطوّرتْ فأصبحتْ تدلّ على الجميع، والجوهريّ يقرّر المعنى الأخير[2]، ولكنّ بعضَ اللّغويّين يرون هذا المعنى متجافياً عن السّلامةِ اللّغويّة؛ ذلك أنّه ممّا تغلط فيه العامّة[3]، والحاصل أنّ ورودَ اللّبس على المرء حاصلٌ إذا ماعَرَض له: "جاء سائر الطّلاب" إذْ إنّ لهذه الكلمة طورَين دلاليّين، فقد يتشبّثُ المرسلُ بطورٍ، ويتشبّث المتلقّي في الحدثِ الكلاميّ نفسِه بطورٍ دلاليّ آخرَ، فيحدث اللّبس الآتي مِن التّطوّرِ الدّلاليّ.

ومِن مثل ما تقدّم التّطوّر الحادثُ في دلالة "الشّجْب" و"المِشوار" و"الضَّيْعة" و"الوغد"، والحقّ أنّ هذا يكثرُ إنْ تتبّعتَه، وقد أوردتُ أمثلة تنبّهُ على الغرض الذي قصدتُه.

---

(١) انظر: المصدر نفسه، مادة " شنق"

(٢) انظر: الجوهري – الصحاح، مادة " سأر"، السيوطي– المزهر، ١٣٦/١.

(٣) انظر: الزمخشري– الفائق ٤١/١، ابن الأثير – النهاية ٣٢٧/٢، الأزهري – تهذيب اللغة، مادة " سأر"، ابن منظور – اللسان، مادة " سأر".

وعلى صعيدٍ لفظيّ آخرَ، قد يحدث تطوّرٌ في طبيعةِ المدلول وهيئتِه، والحاصل أنّ هذا التّطوّر مَجْلَبةٌ للّبس في مواضعَ لانتفاءِ فهم النّصّ على حقيقتِه، فبندقيّة السّابقِ لم تعد كبندقيّة اللاّحقِ؛ إذ إنّها لم تعدْ سلاحاً حجريّاً، وريشةُ الكتابة لم تعد ريشةَ طيرٍ، والورقة لم تعدْ ورقةَ برديّ، وغير ذلك كثيرٌ[1]. لننظرْ فيما يأتي:

٩- التُّحْفة:

تدلّ هذه الكلمةُ قديماً على الطُّرفة مِن الفاكهةِ وغيرِها مِن الرّياحين، وهي أيضاً ما أتْحفتَ به الرّجل مِن البرّ واللّطف[2]، وفي بابِ الأطعمةِ والأشربة يقرّر الثّعالبيّ أنّ طعامَ الضّيف القِرى، وطعام الدّعوة المَأْدُبة، وطعام الزّائر التّحفة[3]، ولكنّ هذه الدّلالةَ المتقادمة لا تشيعُ عندنا اليومَ البتّة، بل تكاد تكونُ مطويّةً في بطونِ المعجمات، والشّائعُ عندنا أنّ دلالةَ التّحفةِ ترتبط بما يُستخرَج مِن معامي الأرضِ مِن الآثار، أو بالشّيءِ المستطرَف الذي يوضَع للزّينة.

١٠- البريد:

بونٌ بين المعنيين كبيرٌ، واللّبسُ المحتمِل آتٍ مِن تطوّر المرجعِ وافتراقِه عمّا كان عليه؛ ذلك أنّ البريد قديماً الرّسلُ على دوابّ البريدِ، وقد قيل: الحمىّ بريدُ الموت، أي رسول الموت تُنذِر به، وقيل لدابّة البريدِ: بريد، والبريدُ كلمة فارسيّةٌ أصلها "بريده دم"، أي: محذوف الذّنب، لأنّ بغالَ البريد كانتْ محذوفةَ الأذناب كالعلامةِ لها"[4].

---

(١) انظر: بيير جيرو- علم الدلالة، ١١٤.

(٢) انظر: ابن منظور اللسان، مادة " تحف" .

(٣) انظر: الثعالبيّ – فقه اللغة سر العربية، ٢٦٤.

(٤) انظر: ابن منظور – اللسان ، مادة " برد" .

وعلى صعيد دلاليٍّ آخرَ قد يحدثُ أنْ تمّحيَ فروق دلاليّة بين كلمتَين أو أكثر، فيحدث تطابقٌ بين دائرتي الدّلالتَين، واللّبسُ في هذا الموضعِ آتٍ من امّحاءِ الفروق الدّلاليّةِ التي كان السّابق يقيمها، ولكنّ اللاّحقَ لا يقيم تلك الفروق، ولعلّ نزْراً يسيراً مِن المتخصِّصين هم القوّامون على هذا المطلبِ، ومِن ذلك:

١- الجبهة والجبين:

لا يكاد اللاّحقُ يَفْرُق بينهما، وقد شكا مِن هذا التّطوّرِ الدّلاليّ ابن قتيبةَ جانحاً إلى عدّه مِن الخطأ [1]، فالجبهةُ مسجدِ الرّجل عند السّجودِ، وقيل هي مستوى ما بين الحاجبَين إلى النّاصية، والجبينُ فوق الصّدغ، وهما جبينان؛ واحدٌ عن يمينِ الجبهة، وآخرُ عن شمالِها[2].

٢- الصّراخ والصّياح:

يقرّر الثّعالبيّ أنّ ثمّ بوناً بينهما، فالصّياحُ صوت كلِّ شيءٍ إذا اشتدّ، والصّراخ الصّيحةُ الشّديدة عند الفزعة أو المصيبة[3]، وأحسبُ أنّ هذا البونَ الدّلاليّ المقرَّر قد اطُّرِح وامّحى، فلم يبق منه إلاّ الرّسْمُ الكتابيّ، واللّبس آتٍ مِن تناسي هذا الفرقِ وانتفاء تحقّقِه عند اللاّحق.

٣- الظّلّ والفيء:

الظّلّ يكونُ غدوةً وعشيّة، ومِن أوّل النّهار إلى آخرِه، ومعناه السّتْر، ولذلك يقالُ: أنا في ظلّك، أي في سترِك وحمايتِك، والفَيء مفترقٌ في دلالتِه عن الظّلّ؛ ذلك أنّه لا يكون إلاّ بعد الزّوالِ، ولا "يُقال لِما قبل الزّوال فيءٌ، وإنّما سُمّي بالعشيّ

---

(١) انظر: ابن قتيبة – أدب الكاتب، ٣٠.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ٣٦.

(٣) انظر: الثعالبيّ – فقه اللغة وسر العربية. ٢١٤، وقد ذكر هذا البون الدلالي صاحب اللسان، انظر: مادة "صيح" ومادة "صرخ".

فيئاً لأنّه ظلّ فاء عن جانبٍ إلى جانبٍ، أي رجع عن جانبِ المغرب إلى جانب المشرقِ، والفَيءُ هو الرّجوع"[1]، واللاّحق لا يقيم بوناً بين المعنيين.

٤- القعود والجلوس:

ومِن مثل ما تقدّم امّحاءُ البونِ الدّلاليّ بين القعود والجلوسِ، وقد خطّأ الحريريّ مَن يجعلهما بمعنى واحدٍ، وإخال أنّ هذه التّخطئةَ برهان مشرقُ الدّلالةِ على التّطوّر الحادثِ فيها، فالاختيارُ "على ما حكاه الخليلُ بن أحمد أنْ يقال لمن كان قائماً "اقعد"، ولمنْ كان نائماً أو ساجداً اجلس"[2].

وفي بابِ معرفة المُطلَق والمقيّد يظهرُ أثرُ هذا الإشكال الدّلاليّ بجلاءٍ، فالكأس لا تكون كأساً حتّى يكونَ فيها شراب، وإلاّ فهو قدحٌ أو كوب[3]، والحُلّة لا تكون إلاّ ثوبَين، وهما إزارٌ ورداء مِن جنس واحدٍ، فإنْ اختلفا لم تُدْعَ حُلّة[4]، واللّحية لا تكون لِحيةً إلاّ شعراً على ذَقَن ولحيين[5]، وليستْ هذه الشّروط التّقييديّة مِن محدِّدات المعنى عند اللاّحق. والذَّنوب لا تكون ذَنوباً إلاّ وهي ملأى، ولا تُسمَّى خاليةً ذَنوبا[6].

وعلى صعيدٍ دلاليٍّ قريب لما تقدّم، قد يحدثُ أنْ تمّحيَ الفروق الدّلاليّةُ المُميِّزة بين كلماتٍ تنتسب إلى حقلٍ دلاليّ واحدٍ، ومِن ذلك "رمق ولحظ ولمح وحدج"، والظّاهر أنّ لكلّ كلمةٍ دائرةً دلاليّة تلتقي مع الأخرى، ولكنّ هذا الالتقاءَ لا ينفي التّمايز الدّلاليّ، ومشكلةُ اللاّحق أنّه لا يقيم هذا التّمايزَ، ومِن ذلك أنّ المرء إذا

---

(١) انظر: ابن قتيبة – أدب الكاتب ، ٢٨-٢٩

(٢) الحريري- درة الغواص في أوهام الخواص، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت.) ، ١٣٤. وانظر: ابن فارس- الصاحبيّ، ٩٨-٩٩، السيوطي – المزهر، ٤٠٤/١.

(٣) انظر: ابن فارس- المصدر نفسه، ٩٩ الثعالبيّ- فقه اللغة سر العربية، ٥٠، السيوطي-المصدر نفسه، ٤٤٩/١

(٤) انظر: ابن فارس – المصدر نفسه ٩٩، السيوطي – المصدر نفسه ٤٤٩/١.

(٥) انظر: ابن فارس – المصدر نفسه، ١٠٠ ، السيوطي- المصدر نفسه ٤٤٩/١.

(٦) انظر: ابن فارس – المصدر نفسه،١٠٠، الثعالبيّ- فقه اللغة سر العربية ، ٥٢ ، السيوطي- المصدر نفسه ١/ ٤٥٠.

نظر إلى الشّيءِ بمجامعِ عينه قيل: رَمَقَه، وإذا نظر إليه من جانب أذنه قيل: لَحَظَه، وإذا نظر إليه بعجلةٍ قيل: لَمَحَه، فإنْ رماه ببصرِه مع حدّة قيل: حَدَجَه، فإنْ نظر إليه نظرةَ الكارهِ أو المتعجّب قيل: شَفَنه"[1]. ومِن مثِل ما تقدّم تفصيلُ أسماء السّيوف وصفاتها، فإذا كان عريضاً فهو صَفيحةٌ، وإذا كان لَطيفاً فهو قَضيب، وإذا كان صَقيلاً فهو خَشيب، وإذا كان ماضيَ الضّريبةِ فهو رَسوبٌ، وإذا كان فيه حُزوز مطمئنّة فهو مُفقَّر، وإذا كان كَليلاً لا يمضي فهو كَهام، وإذا كان قدْ سُوّي وطُبِع في الهندِ فهو إصليتٍ[2]، وغير ذلك كثيرٌ كثير، ومنه صفات النّاقةِ والحصانِ والصّحراء والرّياح، ذهبَ ذلك بذهابِ أهله، ومِن هنا تتولّد صعوبةُ النّصّ القديم، ولست أعني الألفاظَ الغريبةَ التي لا عهدَ للقارئ بها، بل تلكم الألفاظَ التي غدتْ مترادفةً مع غيرِها لامّحاء ملامحَ دلاليّة خاصّةٍ، فهي متباينة باعتبارِ الأصلِ، ومترادفةٌ باعتبارِ الحالِ، والمجالات الدّلاليّة المعجميّة تنبسطُ وتنقبضُ مع حاجاتِ النّاس، فالمهنّدُ والكَهامُ والإصليتُ وصفاتُ النّاقة والفرسِ لا يعني عند اللاّحقِ كما كان يعني عند السّابقِ، كلّ ذلك يعزّز الأنظارَ القائلةَ بتعالقِ اللّغة بالمجتمعِ تعالقاً عضويّاً لا تنفصم عراه، ولذلك يتعذّر على كثيرٍ منّا أنْ يلتقط الدّلالاتِ العميقةَ في النّصّ القديمِ، صحيحٌ أنّه يمضي معه، ولكنّه يفهمُه فهماً معاصراً في الغالبِ، وهذا باب عريضٌ للولوجِ في عالمِ اللّبسِ. لِنَرْجع النّظر في الثّلج عند "الأسكيمو"، إنّه يوحي في أذهانِ البيئةِ اللّغويّة العربيّة فكرةً واحدةً، وله صورة صوتيّةٌ واحدة، ولكنّ الموغِلين في أرضِ الثّلج مِن الأسكيمو يذهبون إلى أنّ له مصطلحاتٍ متنوّعةً تستدعي معانيَ متنوّعة[3] ، وهكذا كانتْ أسماء السّيف-أعني صفاتِه- وصفات النّاقة والصّحراء.

---

(1) انظر: الثعالبيّ – المصدر نفسه، ١٢٢-١٢٤.

(2) انظر: المصدر نفسه، ٢٥٠-٢٥١.

(3) انظر: جرومان- علم الدلالة، ٣٧.

وقدْ ألمح الغزاليّ بثاقب بصره إلى مشكلةِ التّرادفِ، أي التباسِ المترادِفِ بالمتباين، "وذلك إذا أُطْلِقت أسامٍ مختلفةٌ على شيءٍ واحد باعتباراتٍ مختلفة، ربّما ظُنّ أنّها مترادفة، كالسّيفِ والمهنّد والصّارمِ، فإنّ المهنّد يدلّ على السّيفِ مع زيادةِ نسبهِ إلى الهندِ، فخالف إذاً مفهومُه مفهومَ السّيف"[1].

لِنَرْجع النّظرَ في هذه الحادثةِ التي يتردّد قطباها بين إقامةِ الفروقِ الدّلاليّة وامّحائها: كان أبو عليّ الفارسيّ بمجلسِ سيف الدّولة بحلبَ، وبالحضرةِ جماعةٌ مِن أهل العلم باللّغةِ، ومنهم ابنُ خالويه، فقال ابن خالويه: أحفظ للسّيفِ خمسين اسماً، فتبسّم أبو عليّ وقال: ما أحفظُ له إلاّ اسماً واحداً، وهو السّيفُ، فقال ابنُ خالويهِ: فأين المهنّد والصّارم وكذا.... فقال أبو عليّ: هذه صفاتٌ، وكأنّ الشّيخَ لا يَفْرُق بين الاسمِ والصّفة[2].

ومِن مثالٍ تطبيقيّ آخرَ يظهر التّردّد بين القطبَين؛ بين مَن يستحضر الفروقَ الدّلاليّة، ويرى أنّ في كلّ كلمةٍ معنى ليس في الأخرى، وبين مَن يرى امّحاءَ الفروقِ الدّلاليّة فيعدّها مترادفة، وقد تجلّى هذا التّردّدُ لمّا وردوا على بيتِ البحتريّ:

فمُجَدَّلٌ ومُرَمَّلٌ ومُوَسَّدٌ ومُضَرَّجٌ ومُضَمَّخٌ ومُخَضَّبُ

وقدْ ردّ الآمديّ على مَن عاب قول البحتريّ لِما فيه مِن تَكرارٍ وترادفٍ لا يفيد جانحاً إلى نفيه، وإلى إقامةِ فروق دلاليّة دقيقةٍ، فالمُضرّج مِن الضَّرَج، وهي الحُمرةُ المشرقة التي ليست بقانيةٍ، والمُضمَّخ يريد به غِلَظ الدّمِ، وأنّه قدْ صار في متانةِ الطّيب الذي يُتَضَمّخ به، "والمخَضّب: أراد أنّ الدّم قدْ خضّبه كما يُخضَّب بالحناء، ففي كلّ لفظةٍ ما ليس للأخرى، وإنْ كانتْ الحمرةُ قد شملِت الجميع"[3].

---

(١) انظر: الغزالي – المستصفى، ٨٢/١، وانظر هذا الرأي: الآمدي- الإحكام في أصول الأحكام، ٢٥/١-٢٦.

(٢) انظر: السيوطي – المزهر، ٤٠٥/١.

(٣) الآمدي – الموازنة ٤٠٠/١، والشعر للبحتري ، انظر ديوانه، تحقيق حسن الصيرفي، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٣،١/٧٦.

٥- المعنى العاطفيّ:

تقدّم قبْلاً أنّ معنى كلمةٍ ما ليس مقصوراً على المعنى الإشاريّ، فثمّ معنى سياقيّ، وآخرُ مجازيّ، وثالثٌ هامشيّ[١]، والمشكلةُ ههنا أنّ كثيراً مِن الكلمات يتباينُ فهمُها بتباين عواملَ متنوِّعةٍ كالخبرة والثّقافة، ولعلّ هذا التّباينَ باعثٌ عريض مِن بواعثِ اللّبس والافتراقِ في الفهمِ في الأحداثِ الكلاميّةِ، ومِن ذلك كلمة "محافظ"، فهي عند أوّلٍ ملفوفةٌ بإيحاءاتٍ سلبيّة؛ إذ إنّه يرى فيمن يتمثّل هذا النّهجَ إحصاراً للعقل في أسوارِ مدينة فكريّةٍ يعدّها بائدةً أو مرذولة، وتضييقاً على النّفس يعقبُه تفويتُ كثير مِن لذاذاتِ الحياة، وهي عند مَن يقف وجاهَه ذاتُ ملامحَ إيجابيّة، وألوانٍ معنويّة زاهية؛ ذلك أنّها مفخرةٌ يستعصم بها، ويراها صبغةً فارقةً تميّزه عن هُجْنة مُستقبَحَة في مدينةِ ذلك الأوّل.

ومِن مثل ما تقدّم "الإسلام" و"الإرهابُ" و"الفدائيّ" و"الحريّة" و"الأبوة"؛ لننظرْ في السّلامِ: إنّه عند "زيدٍ" ممّا يُستعاذُ بالصّمتِ مِن أمثاله، فينادي بمقاومةِ التّطبيعِ، أمّا عند "عمروٍ" فهو ممّا يُستلاذ به، وإنْ لم يَنْدَ مِنه بطائلٍ، فينادي بالتّطبيع، وينشأ عن الافتراقِ الأوّلِ في الظّلالِ الهامشيّة التي تكتنف دلالةَ السّلام افتراقٌ ثانٍ في الظّلال الهامشيّةِ التي تكتنف التّطبيعَ. "والكرم" ذو دلالةٍ هامشيّةٍ متباينة بتباينِ الأفرادِ، فقدْ يكون عند أوّلٍ وسماً عربيّاً خالصاً أصيلاً، فيعتزّ به ويمجّده إلى حدّ التّباهي، وهو عند ثانٍ تبذيرٌ باعثُه الطّيش أو سوءُ التّدبير، و"الرّجولة" كذلك أمرها، والحقّ أنّ مُثُل هذا المطلبِ كثيرةٌ عن وفرةِ ما يقفُ عليه المرءُ في زحمةِ الشّارع أو البيتِ الأسْريّ، والذي يسترعي الانتباهَ أنّ المشتركين في الحدث الكلاميّ لا يختلفان في تعيينِ مفهوم المعنى الإشاريّ المركزيّ، ولكنّهما يختلفان فيما يكتنِفُ المعنى المركزيّ مِن معانٍ خاصّة، وظلالٍ هامشيّة، ومِن ذلك أنّ رجلاً ذهب مقابِلاً لآخرَ طلباً للعمل، فقال له الأوّلُ: وظيفتُك أنْ تكون "ناطوراً"

---

(١) انظر : الصفحة ٤٦ من الكتاب.

للمصنعِ، فحَنِق الثّاني وقال: لا تقلْ: أريدك ناطوراً، بلْ قل: أريدُك حارِساً، ولكنّ الأوّلَ لم يلتفتْ إلى طلبِه اعتقاداً مِنه بأنْ لا ضيرَ مِن كلمتِه ولا سوءَ أدب، فهو في بيئتِه وعُرفِه الخاصّ يستعملُ هذه الكلمة دون أنْ يكون لها إيحاءٌ سلبيّ، أمّا الثّاني فقد كان لها إيحاءاتٌ سلبيّة، وظلالٌ موحِشة ضاقتْ بها نفسُه، فاحتدم النّقاش بينهما حول كلمةِ "ناطور"، وليس مِن شكّ في أنّه نقاش باعثُه التّباينُ فيما يحيطُ بالمعنى المركزيّ مِن ظلالٍ ومشاعرَ، وكانت نهايتُه خروجَ الثّاني غضبانَ أسِفاً وفي نفسِه شيء.

ومِن مثل ما تقدّم أنّ قسم اللّغةِ العربيّة عقد ندوةً اشترك فيها ثلّةٌ من أعضاء القسمِ، وقد تحدّث أحدُ الأساتذة عن ملحظٍ أسلوبيّ، وهو الانحرافُ اللّغويّ، ويعني به التّعبيرَ اللّغويّ المفارقَ لأصل الوضعِ أو المألوفِ، كقولنا: مات الحجرُ أو الموت، ثمّ سوئِل ذلكم الأستاذُ فيما صدر عنه مِن ملاحظَ وآراءٍ، وقد أنكر عليه أستاذٌ آخرُ بكثيرٍ مِن الأدب والدّماثةِ هذا المصطلح؛ إذْ إنّه يوحي للخاطرِ الأوّل معنى هامشيّاً سلبيّاً، واقترح ساعتَها الانعطافَ اللّغويّ، أو الانزياحَ، فردّ عليه الثّاني مُحامياً عن وجاهةِ مصطلَحه، محتجّاً بأنّه تعبيرٌ اصطلاحيّ يكاد يكون متعارَفاً عليه، والمُستخلَصُ مِن هذه الحادثة أنّ ثمّ افتراقاً في الحدثِ الكلاميّ باعثُه افتراقٌ في ظلالِ المعنى المركزيّ وإيحاءاتِه.

والذي ينبغي التّنبيه عليه أنّ ثَمّ عواملَ متنوّعةً تزيد مِن تجلّي هذا اللّبس، ومِنها تباينُ المكان، ومِن أمثلةِ ذلك كلمة "السّجن"، فقدْ كانتْ في الأرض المحتلّةِ ذات دلالةٍ هامشيّة مُعْجِبةٍ تدلّ على النّضالِ؛ إذ إنّه– أعني السّجن– مَفْخَرة تُنْشَد فيها الأهازيجُ وألحان العودةِ، وهي عند دولةٍ أخرى آمنةٍ مستقرّة ذاتُ دلالة سلبيّةٍ؛ ذلك أنّه مأوى أهلِ الجناياتِ والجرائم. وللهوى يدٌ في تشكيلِ دلالة سلبيّةٍ أخرى، فهي عند المحتلِّ المغتصِب ذاتُ دلالةٍ سلبيّةٍ؛ ذلك أنّه مأوى "المخرِّبين" وعقابُهم.

وللزّمانِ يدٌ في حوك ظلالٍ سلبيّة أو إيجابيّةٍ حول المعنى المركزيّ، ومِن ذلك قولنا: "نكح" و"حُبلى"، فالشائعُ عندنا عوضًا عن هاتين الكلمتَين "تزوّج"

و"حامل". وللمقامِ يدٌ في تشكيلِ هذا الملحظِ أيضاً، فثمّ ألفاظٌ تصلح في مقامٍ، ولا تكاد تصلحُ في مقامٍ آخرَ، ومِن ذلك "العَقيلة"، فالشّائع في الأسماعِ أنْ يُقال: جاء الملكُ وعقيلتُه، وألاّ يقُال: جاء الملكُ وحليلتُه أو امرأته.

ولستُ أزعم أنّ فيما تقدّم لَبساً واحتمالاً، بل المقصدِ مِنه بيانُ المعاني الهامشيّة، والظّلالِ الإيحائيّة التي تحيط بالمعنى المركزيّ، وما مِن ريبٍ أنّها متبدّلة بتبدّلِ المكانِ والزّمانِ والمقام والهوى؛ كلّ ذلكم يجمعُه كلمةٌ واحدة، وهي السّياقُ.

خامساً: اللّبس الآتي مِن الأسلوب

وهذا موضعٌ مِن المواضع العريضةِ المرشّحة لتخلّقِ اللّبسِ، وأوّل ما يميّزه عمّا تقدّم أنّه لَبس غيرُ واقعٍ في جبِلّة اللّغة؛ إذْ إنّه ليس ممّا تُفْرزه النّواميسُ اللّغويّة الفاعلةُ في تشكيلِ النّظام اللّغويّ، وإنّما هو لبس واقعٌ في الأسلوبِ وإخراجِ الكلام، ومِن أمثلتِه أنْ يُفهَم الكلام فهماً لفظيّاً على ظاهرِه، وحقُّه أنْ يُحمَل على مَحْمل التّجوّزِ والانزياحِ اللّغويّ، أو أنْ تكون الدّلالةُ الأسلوبيّة عائمةً تحتمل معانيَ متباينة، أو أنْ يكون المقصدُ الأوّل للمرسِلِ الإلباسَ والتّعمية، فيتكئ لتحقيقِ مطلبِه على أسلوبٍ لغويّ مُخفياً في نفسه ما يريد إخفاءَه، مُوهِمًا مَن يقف وجاهَه بالمعنى الظّاهرِ غيرِ المراد، والمشكلةُ في هذه المواضع آتيةٌ مِن إيرادِ المقاصد والمعاني بألفاظٍ لا تُفهَم على حقيقتِها، فليستْ المسألة ههنا كنظريّةِ "دي سوسير" الدّلاليّة؛ أعني أنّها ليستْ كمثلِ الصّورة الصّوتيّة(الدّالّ) التي تستدعي صورةً ذهنيّة(المدلول) استدعاءً مباشراً، فالأمرُ ههنا مغاير؛ ذلك أنّها قائمةٌ على الاستدلالِ المنطقيّ، فلو قيل:

"ضعْه على الرّفّ"

والقائلُ يقصد مِن هذا المعنى المجازيّ ، لَما دلّت الألفاظ على المعنى دلالةً مباشرة؛ إذْ ليس ثمّ بدّ مِن فكّ هذه الرموزِ، والتّدرّج في الاستدلالِ المنطقيّ،

فالمرء يضعُ على الرّفّ ما لا يحتاج إليه إلاّ قليلاً، ومعنى هذا أنّ الوضعَ على الرّفّ هو تغييبُ الشّيء واطّراحه، وهكذا يهتدي المرءُ عند إقامةِ علاقاتٍ منطقيّةٍ إلى أنّ هذا التّعبيرَ يستلزم معنى التّناسي والتّجاهل.ومِن أمثلةِ "الاستدلال المنطقيّ" أنّ امرأةً قالت لرجلٍ: أشكو إليك قلّة الجرذان، فقال: ما أحسنَ ما كَنَيْت به، املأوا بيتَها خبزاً وسَمْناً وتمْراً[١]، والظّاهر أنّ هذا الأسلوبَ الكنائيّ موغِل في الإلباسِ، والنّاس في قدرتِهم على إدراكِ مراميه متفاوتون، وقدْ استطاع ذلكم الرّجلُ الوالي أنْ يقتنصَ مرادَها بتجافيه عن دلالةِ الألفاظِ المعجميّة، واستشرافه ملحظَ "الاستدلال المنطقيّ"، فمعنى "قلّة الجرذان" يستلزم إيحاءً في الذّهن مضمونُه قلّةُ ما تقتات عليه، أو تكثر في المواضعِ التي يكونُ فيها، وقد شَكا مِن هذا النّظرِ القاصرِ عبدُ القاهر الجرجانيّ؛ أعني فهمَ الألفاظِ على حقيقتِها، فقال: "ومِن عادة قومٍ ممّن يتعاطى التّفسيرَ بغير علمٍ أنْ يوْهَموا أبداً في الألفاظِ الموضوعةِ على المجازِ والتّمثيل أنّها على ظواهرِها، فيُفسِدوا المعنى بذلك، ويُبطِلوا الغرضَ، ويمنعوا أنفسَهم والسّامعَ فهمَ العلمِ بموضعِ البلاغة"[٢].

ومِن مثْل ما تقدّم قوله -صلّى الله عليه وسلّم-:

" مَن عضّ على شِبْدعِه سَلِم مِن الآثام"

والشِّبْدع العقربُ، وليست المشكلة في هذا السّياقِ الشّريفِ آتيةً مِن الكلمةِ الغريبة، بل مِن هذا الأسلوبِ الكنائيّ القائمِ على الانزياحِ اللّغويّ، فقد شبّه الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- اللّسانَ بالعقرب، فالعقربُ تلسع، وكذلك اللّسان[٣]؛ إذْ إنّه يلسع النّاس بالنّميمةِ والغيبة، وليس يخفى أنّ المرءَ لا يهتدي إلى المعنى إلاّ بالاستدلالِ المنطقيّ، أمّا اللّفظ فلا.

---

(١) انظر: القاضي الجرجانيّ (٤٨٢هـ) المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤م، ١٧٠

(٢) الجرجانيّ – الدلائل، ٣٠٥.

(٣) انظر: الزمخشريّ – الفائق ، ٢/٢٢٠.

ومِن مِثْل ما تقدّم أنّ دَلالَةً دخلت إلى قومٍ تخطِب إليهم، فسألوها عن صناعتِه، فقالتْ: "**يكتب بقلم حديد ، ويختم بالزّجاج**"، ولم يفهموا المتعيّنَ من كلامِها بأخذِه على ظاهرِه، وإنّما اعتمدوا الاستدلال المنطقيّ سبيلاً ومُحتكَماً موجِّهاً إلى المتعيّنِ، ففهموا مِن كلامها أنّه: حجّام[1]، والحاصل أنّه تعبير كنائيّ مُلبِس قد يضلّ عن مقصدِه كثيرٌ، والمفارَقة ههنا أن تِلكُمُ الدَّلاّلَةَ– وغيرها مِن مِثْل هذه الأمثلةِ– تريد أنْ تُذيع في خاطرِ المتلقّي معنى مفهوماً، وقدْ كان أمامَها سبيلان: الأولى صريحةٌ دالّة، والثّانية مُلْمِحةٌ مُعْتاصة، ولكنّها آثرتْ الثّانية، والملحظُ اللّطيف ههنا أنّ كلتا السّبيلين تؤدّي إلى الغرض نفسِه، ولكنّ إحداهما أطولُ مِن الثّانية؛ ذلك أنّها تجتزِئ مِن المستقبِل وقتاً لا بأسَ به حتّى يصل إلى المتعيّنِ منها، وقدْ تكون مُضلِّلة غيرَ هاديةٍ إلى ذلكم الغرضِ، ومِن هنا يتبيّن أنّ الكلامَ "على ضربَين: ضربٍ أنت تصل مِنه إلى الغرض بدِلالة اللّفظ وحدَه، وذلك إذا قصدتَ أنْ تُخبِر عن "زيد" مثلاً بالخروجِ على الحقيقةِ، فقلت: خرج زيدٌ، وضربٍ آخرَ أنت لا تصلُ مِنه إلى الغرض بدلالةِ اللّفظِ وحده، ولكنْ، يدلُّك اللّفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعُه في اللّغةِ، ثمّ تجد لذلك المعنى دلالةً ثانيةً تصل بها إلى الغرضِ، ومدار هذا الأمرِ على الكنايةِ، و الاستعارة، والتّمثيل"[2].

ومِن مواضعِ اللّبس الأسلوبيّ الآتي مِن فهمِ الكلامِ على ظاهرِه، أو مِن التّردّد بين المعنى الحقيقيّ والمعنى المجازيّ التّعبيراتُ الاصطلاحيّة، ومِن ذلك قولُنا:

١- أخذ بيدِه

٢- وضعه على الرّفّ

٣- هو يلعب بالنّار

٤- أعطاه الضّوء الأخضر

---

(١) انظر: القاضي الجرجانيّ – المنتخب ، ٧٦.

(٢) الجرجانيّ – الدلائل ، ٢٦٢.

٥- أدار له ظهرَه

يظهرُ أنّ هذه التّعبيراتِ الكنائيّة حمّالةٌ لمعنيَين: لغويٍّ ومجازيّ، فقدْ يكون المتعيّن مِن الأولى أنّه أخذ بيدِه حقّاً، وقد يكون المراد أنّه أعانه على شيءٍ ما دون أنْ يحدثَ ما تقدّم. وكذلك الجملةُ الثّانية؛ فقدْ يكون المتعيِّن أنّ الرّجلَ وضع على الرّفّ شيئاً، وقدْ يكون أنّه اطّرحه مستثنياً له. واللّعب بالنّارِ في الثّالثةِ محتمِل، وإعطاؤه الضّوء الأخضرَ كذلك[١]، والمعوّل عليه في رفع هذا اللَّبْسِ الأسلوبيّ هو السّياقُ، ولكنْ، قد يقع المرءُ في الحَيْرةِ والاشتباهِ حتّى مع توافرِه، ومِن ذلك قولُه – تعالى–:

﴿قدْ مكر الذين مِن قبلِهم فأتى الله بنيانَهم مِن القواعدِ﴾[٢]

موضعُ التّأمّل قولُه– تنزّه– "بنيانهم"؛ ذلك أنّها قد تُحمَل على المعنى الحقيقيّ؛ والبُنيانُ ههنا هو الصّرحُ الذي بناه هامان لفرعونَ، وقد تُحمَل على المعنى المجازيّ، وقدْ ذهب "آخرون إلى أنّه كلامٌ خرج مَخرَج التّمثيلِ والتّشبيهِ، ومعناه أنّ ما بَنَوه مِن مكرِهم وراموا إثباتَه وتأصيله أبطله الله–تعالى– وصرفه عليهم، فكانوا بمنزلةِ مَن بنى بُنياناً يتحصّن به مِن المهالكِ، فسقط عليه فقتله،

---

(١) ومن ذلك في الإنجليزية:

Kick the bucket
Fly off the handle

وهما كنايتان عن الموت، وقد أشار "Jackson" إلى اللبس الآتي من احتمال الوجهين الحقيقي والمجازي (literal and non-literal)

انظر: Jackson- Words, p107.

وقد وقف بالمر" عند التعبيرات الاصطلاحية مشيراً إلى أنه لا يمكن التنبؤ بالمتعين منها من معاني كلماتها. انظر علم الدلالة ٦٧.

(٢) الآية (النمل، ٢٦)

والقَوْلان جائزان على مذاهبِ العربِ، ألا تراهم يقولون: بنى فلان شَرفاً، وبنى مَجداً، وليس هناك بُنيان في الحقيقة"[1].

وقد وقف الغزاليّ عند هذا الموضعِ؛ موضعِ التّردّد بين المعنى الحقيقيّ والمعنى المجازيّ في السّياقِ الواحد، فرأى أنّ اللّفظ إذا دار بينهما فهو للحقيقة إلى أنْ يدلّ الدّليل أنّه أراد المجازَ، ومِن ذلك "استقبلني في الطّريقِ أسد"، فليس يُحمَل هذا القولُ على "الشّجاع" إلاّ بقرينةٍ زائدةٍ، وإنْ لمْ تظهرْ هذه القرينة فاللّفظُ للسّبُع"[2]، ولمّا ورد المفسّرون على قولِه -تعالى-:**﴿وإنْ كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكم مِن الغائطِ أو لامستُم النّساء فلم تجدوا ماءً فتيمّموا﴾**[3] تردّدوا بين المعنى الحقيقيّ والمجازيّ في قولِه- تنزّه- "لامستُم"، فذهب فريقٌ مِن الفقهاء إلى أنّ لمسَ المرأة التي ليست بمُحْرَم ينقضُ الوضوء؛ ذلك أنّهم فهموا اللّمسَ فهماً حقيقيّاً في السّياقِ الشّريفِ، وهو مسّ البشرةِ، وذهب فريقٌ آخر إلى أنّ المرادَ مِن اللّمسِ هو المعنى المجازيّ، وهو الجماعُ، والحكمُ المبني على هذا الفهمِ اللّغويّ أنّ لمسها لا ينقضُ الوضوء؛ ذلك أنّه غيرُ الجماع، وأنّ الكنايةَ تكون في بعضِ المواقفِ لِطيّ ما يُستقبَح ذكرُه، فكنى الله- تنزّه-عن الجماعِ بالملامسةِ، واستدلّوا أيضاً بأنّ الفعل "لامس" مودَعٌ في القالبِ "فاعَل" الدّالّ على المشاركةِ بين اثنين بقصدِهما صراحةً، والجماعُ كذلك[4].

---

(١) ابن السيد – الإنصاف، ٧٦، وهو عند ابن قتيبة مَثَل، انظر تفسير غريب القرآن، ٢٤٢، وقد ذكر المعنيين الزمخشريّ – الكشاف، ٤٠٧/٢، وأبو حيان- البحر، ٤٧٠/٥-٤٧١.

(٢) انظر الغزالي – المستصفى ، ٦٩٣/١.

(٣) الآية (النساء ، ٤٣-٤٤، المائدة ،٦)

(٤) انظر ما قيل في هذه الآية: اليزيدي – غريب القرآن، ٤٩، ابن عزيز – النزهة، ٣٨٨، والمعنى عنده النكاح، الجرجانيّ – المنتخب، ٩، والمعنى عنده النكاح، ابن الأثير – المثل السائر، ١٨١/٢، وقد ذكر المعنيين، ابن فارس – المقاييس ، مادة " لمس وقد ذكر المعنيين، ابن منظور- اللسان مادة " لمس" واللمس كناية عن النكاح عنده، أبو حيان – البحر،٢٦٩/٣، عبد الوهاب طويلة – أثر اللغة، ١٩٢- ١٩٧، عبد القادر –أثر الدلالة ٣١٤-٣١٦.

وقد يحدثُ على صعيدٍ أسلوبيّ آخرَ أنْ تكونَ الدّلالة الأسلوبيّة عائمةً محتمِلة، بل يمكن تشبيهُها في هذا المقام بالمشترَك اللّفظيّ الذي يقعُ تحتَه معنيان، ومِن ذلك قولُنا: "**خفيف اليد**"، فقدْ تعني أنّه نشّال لصّ، أو أنّه نشيطٌ سريع الحركةِ في عملِه، والحقّ أنّ هذا الاشتراكَ الدّلاليّ الأسلوبيّ أفضى إلى وهمٍ في حدثٍ كلاميٍّ يتجاذبه اثنان؛ إذْ إنّ أحدَهما شرع في وصفِ عاملٍ يريد أنْ يستخلصَه لعمله، وفي ثِنْي حديثه ذاك، نَعَتَه بهذه العبارةِ، فاستعاذ الثّاني مِن قوله؛ إذ إنّ أوّلَ ما قفز إلى خواطرِه أنّ المتعيّن منِها أنّه "نشّال"، فاستدرك عليه الأوّل موجِّهاً هذه الدّلالةَ الأسلوبيّةَ الوجهة التي أرادتها نفسه.

وقدْ رُوي أنّ الحجّاج سأل أعرابيّاً فقال: كيف كانت سنتكم هذه؟ فقال الأعرابيّ: **تفرّقت الغنم، وماتت الكلبُ، وطفئت النّار**، فقال الحجّاجُ لأصحابه: أترونه ذَكَر خِصباً أم جَدباً، فقالوا: بلْ جدباً شديداً، فقال الحجّاجُ: ما أقلّ بصرِكم بأمر العربِ، وإنّما ذكر خِصباً، والمتعيّنُ مِن كلامِ الأعرابيّ ذاك أنّ تفرّقَ الغنم كنايةٌ عن انصرافِها إلى المراعي ورتوعِها فيها، وموتَ الكلب حاصلٌ عندما لم يمتْ مِن الغنم شيء ليأكلَ مِن لحمِه، وانطفاءَ النّار لاكتفاءِ النّاس باللّبن عن اللّحمِ[1]. ولستُ إخال أنّ اللّبسَ الذي وقع فيه مَن كان مع الحجّاجِ– بقطع النّظرِ عن صحّةِ الحادثة– آتٍ مِن قلّة بصرِهم بكلامِ العربِ، وإنّما مِن هذه الدّلالة الأسلوبيّةِ العائمة، ومِن إيرادِ المعنى المراد بغيرِ اللّفظِ المعتاد، "وكان أحدُهم إذا أورد المعنى المقصودَ بغيرِ لفظه المعهود، كأنّه لم يأتِ إلاّ به، ولا عَدَلَ عنه إلى غيرِه؛ إذْ الغرضُ فيهما واحد، وكان أبو عليٍّ– رحمه الله– إذا عبّر عن معنى بلفظٍ ما فلم يفهمْه القارئُ عليه، وأعاد ذلك المعنى عينَه بلفظٍ غيرِه ففهمه يقول: هذا إذا رأى ابنَه في قميصٍ أحمرَ عرفه، فإنْ رآه في قميصٍ كُحليّ لم يعرفْه"[2].

---

(١) انظر: الجرجانيّ – المنتخب ، ٩٢.

(٢) ابن جنيّ – الخصائص ،٢/٤٧٠.

وممّا جاءتْ دلالته الأسلوبيّة محتمِلةً قولهم: "**هذا أمر لا يُنادى وليده**"، واللّفظُ غير مختلَفٍ فيه، ولكنْ، يختلفُ في معناه وتفسيرِه، فقدْ يكون المعنى الكلّيّ الذي يكتنفُ هذه الكنايةَ أنّ الإنسان يذهل عن ولدِه لشدّة الخطبِ، أو قدْ يكون أنّه أمرٌ عظيم فلا يُنادى فيه الإماءُ والصّبية، وإنّما الرّجال والجلّة، أو قد يكونُ كنايةً عن الخطبِ المعضِل والأمرِ الشّديد، أو قدْ يكون أنّ المرأة تشتغل عن ولدِها فلا تناديه[1].

ومِن مثل ما تقدّم حديثُه -صلّى الله عليه وسلّم- لسُبَيْعةَ الأسلميّة لمّا تشوّفتْ للخُطّاب بعد أنْ مات عنها زوجُها، فقيل لها: "لا يحلّ لكِ، فسألتْ النّبيّ -صلى الله عليه وسلّم- فقال لها: **ارْبَعي على نفسك**"[2]، والظّاهرُ مِن هذا التّعبير الأخيرِ "اربعي بنفسِك" أنّه محتمِل لوجهَين: أحدهما أنْ يكونَ مِن "رَبَعَ" بمعنى: وقف وانتظر، وبهذا يوافقُ قولَه-تعالى-: "**والمطلَّقات يتربّصن بأنفسهنّ ثلاثةَ قُروء**"[3]، وينبني على الفهمِ اللّغويّ حكمٌ فقهيّ مفادُه أنّه -صلّى الله عليه وسلّم- أمرها بالكفّ عن التّزوّجِ، وانتظارِ مدّة التّربّصِ، وثانيهما معنى مجازيّ مِن قولِهم: ربَع الرّجل إذا أخصب الرّبيعُ، فيكون المعنى: "نفسّي عن نفسِك، وارمي بها إلى الخِصب والسَّعةِ، وأخرجيها عن بؤسِ المُعتدَّة"[4].

وقيل إنّ بعض العراقيّين هجا رجلاً كان على مذهبِ ابن حنبلٍ ثمّ انتقل إلى مذهبِ أبي حنيفةَ، ثمّ لنتقل إلى مذهبِ الشافعيّ، فقال فيه:

مَن مبلغٌ عنّي الوجيهَ رسـالة ... وإنْ كان لا تُجدي لديه الرّسائلُ
تمذهبت للنّعمان بعـد ابن حنبلٍ ... وفـارقتَـه إذ أعـوزتْـك المآكلُ
وما اخترت رأيَ الشّافعيّ تديّنـاً ... ولـكنّما تهـوى الذي منه حاصلُ

---

(١) انظر: ابن جني – الخصائص، ١٦٧/٣، الجرجانيّ – المنتخب ، ١٧٩.

(٢) انظر الحديث: الزمخشريّ – الفائق ، ٢٨/٢، والرواية فيه " يا سبيعة اربعي بنفسك – وروي على نفسك"، ابن الأثير – النهاية ، ١٨٧/٢ ابن المنظور – اللسان، مادة " ربع".

(٣) الآية (البقرة، ٢٢٨).

(٤) الزمخشريّ – المصدر نفسه،٢٨/٢.

وعمّا قليـل أنت لا شـكّ صـائر إلى مالـكٍ فافطـن لِمـا أنا قائـلُ

والمغالطةُ التي أرادها القائلُ في البيتِ الأخيرِ واقعةٌ في "مالك"؛ فمالكٌ هو ابن أنسٍ صاحبُ المذهب، وهو خازن النّار[1]، فلنفطن لِما هو قائلٌ؛ ذلك أنّ في قولِه "مالك" تورية، والحقّ أنّ تأمّل هذا المصطلحِ يُبِين عن احتمالِ تخلّق اللّبس منه، فالتّوريةُ: الإخفاء[2]، وكذلك الكنايةُ التي تدلّ على السّترِ والتّغطية، وكلّ ما تقدّم سبيلُه سترُ المعنى وإخفاؤه لكي يتجلّى في هيئةٍ قد تكون محتمِلةً ملبِسة في مواضعَ[3].

وقدْ يكونُ مقصدِ المتكلّم "التّعمية"، فيعمد إلى اللّغةِ وسيلةِ الإبانةِ ليصلَ إلى هذا الغرضِ، وسبيلُه في هذا التّورية والكنايةُ، أو الإبهامُ باستعمالِ ألفاظ التّنكيرِ، أو العموم، أو التّشبيهات المحتملة المتردّدة بين معنيين أو معانٍ، أو إرسال الكلام مُجمَلاً غيرَ مبينٍ، وتكون اللّغة في تحقيقِ هذا المطلبِ وسيلةَ إلباسٍ وتعمية، فالمعاني، وإنْ كانتْ أكثرُ مقاصدِ الكلام تقتضي الإعرابَ عنها، والتّصريح عن مفهوماتِها، " يُقصَد في كثيرٍ مِن المواضع إغماضُها وإغلاقُ أبواب الكلام دونها، وكذلك أيضاً قد نقصد تأديةَ المعنى في عبارتَين: إحداهما واضحةُ الدّلالة عليه، والأخرى غيرُ واضحةِ الدّلالة لضروبٍ مِن المقاصدِ، فالدّلالةُ على المعاني إذن على ثلاثةِ أضربٍ: دِلالة إيضاحٍ، ودلالة إبهامٍ، ودلالة إيضاحٍ وإبهامٍ معاً"[4].

وممّا يجلّي المواضعَ المتقدّمة أنّ المرءَ قد يجنح إلى التّوريةِ للتّخلّص مِن الكذب[5]، ومِن أمثلةِ ذلك أنّ رجلاً مِن الخوارج ألزم رجلاً مِن الشّيعةِ البراءةَ مِن

---

(١) انظر: ابن الأثير – المثل السائر ٢/٢٠٥.

(٢) انظر مبحث التورية :ابن رشيق – العمدة ١/٣١١-٣١٢.

(٣) للحديث عن اللبس الآتي من التورية انظر:
Empson – Seven Types, P.103, Leech, G. N. A Linguistic Guide to English Poetry, Longman, London, 1969, P.209 Su,- Lexical Ambiguity, P.122.

(٤) حازم القرطاجنيّ – منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م، ١٧٢.

(٥) هذا عنوان باب عقده القاضي الجرجانيّ في المنتخب ، ٧٢.

عليّ وعثمانَ رضي الله عنهما، فقال: " **أنا مِن عليّ وعثمانَ بريء**"، والظّاهر أنّ المتكلّمَ ذاك جعل ظاهرَ البراءة منهماً معاً، ليدفعَ به شرَّ مَن يقف وجاهَه، وقد أراد البراءةَ مِن عثمانَ وحدَه[1].

وقيل إنّ رجلاً مِن أهل الكُدْيةِ كان يطوفُ بشوارع بغدادَ ويقول: ارحموني يا قوم؛ فوالله إنّ في حلقي خمسةً"، وهو يعني أنّه ينفق على خمسةٍ، وهذا حملٌ يُثقِله، والحقّ أنّها تورية، فقد حُكِي أنّه كان يقولُها مع حركة جسميّةٍ يفتدي بها الحِنث في يمينِه، وهي أصابعُه الخمس المعقودةُ في حلقِه[2]، والظّاهر أنّ المعمّيَ ذاك لم يكذب، بل جنح إلى الإبهامِ على السّامعِ وتضليلِه بما يصدرُ عنه مِن كلامٍ مخالفٍ لحالِه.

وعلى صعيدٍ أسلوبيّ آخرَ، قدْ يعمد المرسلُ إلى الأسلوبِ المُجمَل الملبِس، فيكونُ الكلامُ محتمِلاً لمعانٍ متباينةٍ، ومِن ذلك أنّ شُرَيحاً القاضيَ دخل على زيادٍ في علّتِه، وقدْ تركه يجود بنفسِه، فسأله النّاس عن حالِه فقال: **تركتُه يأمر وينهى**، فجزِع بعض النّاس لسلامتِه، وما راعهم إلاّ صياح النّائحات عليه، ولمّا سُئل شُريحٌ في كلامِه قال: تركته يأمرُ بالوصيّةِ وينهى عن البكاءِ[3]، والملاحظُ أنّ شريحاً جاء بإجابةٍ حصيفة مُجمَلةٍ، وقد استطاع أنْ يوهِمَ سامعيه بأنّ زياداً يأمر وينهى، والإجمالُ حاصل فيما يقعُ عليه الأمرُ والنّهيُ: إنّه ينهى عن البكاء، ويأمر بالوصيّةِ!، وهكذا تحلّل شريح مِن سؤالٍ لم يُرِد أنْ يردّ عليه، فأوهم وعمّى معتمداً على المبنى المكثّفِ والمعنى المغلّفِ، والمفارقة اللّطيفةُ في هذا المثالِ أنّ مَن سمع جوابَه لا يقوى على رميِه بالكذب، فللجوابِ إذاً وجهان: أولّهما قريبٌ مُلبسٌ ينقدح في خاطرِ المتلقّي للوهلةِ الأولى، وثانيهما بعيدٌ مُعمّى يبقى خبيئاً في نفس المتلقّي.

---

(١) انظر: القاضي الجرجاني – المنتخب، ٧٢.

(٢) انظر: المصدر نفسه،٧٣.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ٧٣، الشريشي – شرح مقامات الحريري، ٢/٤٥١

ومِن مثل ما تقدّم أنّ رجلاً غريباً طلب امرأةً حسناءَ يتزوّجها، فقالت له دَلاّلة: **عندي امرأة كأنّها باقة نرجس**، فخطبها وتزوّجها، فلّما دخل رأى عجوزاً، فذهب إلى الدّلاّلةِ وقرّعها على كذبِها، فبيّنت له أنّها لم تكذبْ حين وصفتْها بباقة النّرجسِ، والظّاهرُ أنّ اللّبس في هذه التّعميةِ المقصودة آتٍ مِن تشبّثِ الدّلاّلة بوجهِ شَبَهٍ تخفيه، وتشبُّثِ الرّجل بوجهِ شبهٍ آخر يُقتنَص مِن ظاهر كلامِ الدّلاّلةِ، فقولها "باقة نرجس" يُلْمِح إلى أنّها فاتنةٌ جميلة، ولكنّ المعمِّيةَ تلك أرادتْ وجه شبهٍ آخرَ؛ إذ إنّ مقصدِها المعمَّى الإشارةُ إلى صفرةِ وجهها، وبياضِ شعرها، وخضرةِ ساقِها[1]، وكذلك باقة النّرجس، والاستدلالُ المنطقيّ يحتمل المعنيين؛ معنى المخدوعِ المُلتبِس عليه الأمر، ومعنى المخادِع المعمِّي الذي حفظ لنفسه التّحلّل مِن أيِّ التزامٍ يعقب هذا الحدثَ الكلاميّ.

وعلى صعيدٍ أسلوبيّ مشابهٍ، قد يعمد المرءُ إلى أسلوب التّنكيرِ والعموم وألفاظِهما لتحقيقِ الإبهام على السّامعِ، وأغراضُ النّفس مِن هذا كثيرة، والحقّ أنّ هذا الملحَظ شائعٌ في حياتنا اليوميّة، فإذا ما أراد إنسان أنْ يعمّي على إنسانٍ فإنّه سيلجأ إلى أسلوب التّنكيرِ، والإكثارِ مِن الدّلالات العائمةِ، والإشاراتِ الضّمنيّة المُبهمَةِ، ولعلّ هذا يكثر في لغةِ الصّحافةِ والسّياسيين، ومِن ذلك: "**جاءني رجل** فسألني عنك"، "وقد علمت **مِن مصادر موثوقة**".

والحقّ أنّ هذا ليس لبساً فاقعاً، وإنّما هو إيهامٌ على السّامعِ، فالسّياسيّ أو الإعلانيّ لا يُقحم نفسه في دهاليزِ الأسلوبِ المباشِرِ والمواجِه؛ بل يفيىء إلى التّلويحِ دون التّصريحِ، والإبهامِ دون الإحكامِ، وقد ينصب شَركاً لغويّاً مقصوداً، وما النّزاع اللّغويّ السّياسيّ: "**من الأراضي المحتلّة، من أراضٍ محتلّة**" إلاّ تجلٍّ مِن تجلّيات الإلباسِ والشَّرك اللّغويّ المقصودِ[2].

([1]) انظر: الثعالبيّ – الكناية والتعريض ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤م، ٢٣.

([2]) لهربرت أ. شيللر في كتابه The Mind Managers " المتلاعبون بالعقول" تنظير معجب في مطلب الحديث عن الإعلان والإعلام، وقد وقف عند " أسطورة الحياد" وتضليل الأفراد وهم لا يدركون، والسبيل إلى هذا "

ولمّا توفّي الملك الحسين شرَعت بعض وكالات الأنباء في الحديثِ عن " **أمن الأردنّ ومصالحه وتهديد دول الجوار**"، وليس القصدُ مِن هذه العبارةِ إلاّ دولة واحدة، أو دولتَين، وفي مثل هذه المواضعِ يظهر أثرُ الدّلالةِ العائمة المُبهَمةِ المحتمِلة التي يتحلّل صاحبُها مِن أيّ التزامٍ يعقبُها، ويؤدّي غرضه مِن إذاعتِها، ويبقى الأمر قائماً على الإبهامِ والمعنى الملفَّف.

وكذلك قولُهم: "**سنستخدم جميع الوسائل لإنجاح عمليّة السّلام**"، والوسائلُ كلمة عائمةٌ في سياقِها محتمِلة، والمرسِل في هذا القصدِ يعمد إلى الإشارةِ الضّمنيّةِ، فلا يورِّط نفسَه في مواجهةٍ أو مساءلة أو نقدٍ، فالوسائلُ العسكريّة ممكنةٌ، والسّياسيّة كذلك، وغيرُ ذلك كثيرٌ.

ومِن أمثلةِ التّلويح والإشارةِ الضّمنيّة في لغةِ الصِّحافةِ والسّياسيّين ما تُحُدِّث به عن القدسِ الشّريف؛ عن مَحطِّ الإشكالِ المُعتاصِ، فقد قالتْ دولة غربيّة: "**يجب أنْ تكون مكاناً مفتوحاً لجميع الأديانِ السّماويّة**"، والحقّ أنّ هذه الجملةَ التي حيكتْ دلالتُها كحِياكة الخيّاطِ الماهر لثوبِه تستوقفُ كثيرين؛ ذلك أنّ لها إيحاءاتٍ متباينةً، فما معنى كونِها "مكاناً مفتوحاً"؟ وهل في هذه الدّلالة "مكاناً مفتوحاً" إلماحةٌ إلى تدويلِ القدس؟ أو فيها إلماحةٌ إلى حريّة الأديانِ بقطع النّظرِ عن السّيادة؟

والقوّامون على شؤونِ النّاس يقولون: "**تحديد أسعار السّلع الاستهلاكيّة**"، وهم يعنون رفعَ الأسعارِ، ويعمدون في هذا كلّه إلى الاستعانةِ بألفاظٍ تلطفيّة للتّغطيةِ عن مرادِهم، أو لأقلْ: للتّخفيف مِن وقعِ هذا القرارِ على المستهلِك.

وفي مَطلَع ذيوعِ قصّة "كلينتون" مع "مونيكا" ألمحتْ الصِّحافةُ الغربيّة إلى وجودِ "علاقة" بينهما، وبقي الأمرُ مفتوحاً لانفتاحِ هذه الدّلالةِ المبهمَةِ المنكَّرة، وبقي حال مَن يسمعُ هذا الخبر كمن ينظرُ إلى المعنى مِن سِتْرٍ رقيقٍ، فيخلدُ إلى سوانحِ فكره في تصوّرِ هذه العلاقةِ وطبيعتِها!ثمّ تحدّثتْ الصّحافة الأجنبيّةُ عن "وجودِ

التجزيئية" "Fragementation" والمتابعة الإعلامية الآنية .Immediacy of Information انظر: كتابه: المتلاعبون بالعقول (الإصدار الثاني) ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٩م.

علاقة حميمة"intimate relation ، والحقّ أنّ في هذا الاستعمالِ اللّغويّ تلويحاً فاقعاً لِما يكتنفه ويلابسُه، وتلطّفاً في الدّلالة الأسلوبيّةِ، وتحلّلاً مِن أيّ التزامٍ قد يعقُب هذا الحدثَ الكلاميّ؛ إذْ إنّه قائمٌ على الإبهامِ والعموميّة دون الإحكامِ والخصوصيّة.

وممّا حُدِّثتُ به وأنا أستشرف وقائعَ كلاميّةً ملبِسة في هذا المِضمار أنّ أمرءاً عُلّق فتاة فأراد أنْ يخطِبها، فسأل عنها صديقاً له، فقال له: ما لك وشأنَها؛ **إنّ لها رفيقاً تأتي معه كلّ يوم في سيّارته إلى الجامعة**، فأعاد الأوّل المساءلةَ تارةً أخرى للتّحقّق مِن هذا الأمرِ، وما كان مِن الثّاني إلاّ أنْ أعاد ما أذاعه في مسامعِه مِن قبلُ، فصرف الأوّلُ نظره عن هذا المطلبِ، وقدْ كان الثّاني يعلم أنّ الذي يأتي معها كلّ يومٍ في الغُدوّ والرّواحِ أخوها، ولكنّه -أعني الثّاني- كان يؤمّل في الزّواجِ مِنها، فأخرج كلامَه منكَّراً ذا عموميّةٍ تتّسع لمُدْخَلاتٍ وإيحاءاتٍ متنوّعة، ولو أنّه أتى بيمينٍ غليظٍ كأيْمان ابن دريدٍ في ملاحنِه لَما كان كاذباً، ولَتحلّلَ مِن أيّ التزامٍ.

وقدْ يحدثُ أحياناً أنْ يتواصل اثنان بكلامٍ خاصّ قائمٍ على الحذفِ والاختصارِ والكناياتِ والإشاراتِ العائمةِ، وليس يخفى أنّ مَن يَرِد على حديثِهما لا يكاد يَنْدى مِنه بطائلٍ، وما مِن ريبٍ أنّ نجاحَ هذا التّواصل السّريّ قائمٌ على مجموعةٍ مِن العوامل متضافرة، كالحميميّة المؤلِّفةِ بين المشتركين، وهيئة العلاقةِ وطبيعتها، فللمهرِّبين ألفاظٌ خاصّة يجترحونها للتّعمية والتّغطيةِ، ومظاهرُ لغويّة قدْ تخفى على مَن يقعُ خارجَ حظيرتهم، فالأرنبُ عندهم "المليون"، والأخضرُ هو "الدّولار"، وليس يُنسى أنّ لهم تعبيراتٍ اصطلاحيّة خاصّةً، وأنّ التّعميةَ اللّغويّة مطلبٌ له خطره في لغةِ العيونِ والجواسيس، وسيأتي بعْداً في الدّراسةِ التّطبيقيّة حديثٌ عن حادثةِ الأسير الذي استعان باللّغةِ ذاتِها ليُوَرّي عن مرادِه في إنذار قومِه مِن غزو مَن يأسرونه.

ومِن مثل هذا التّواصل اللّغويّ الذي لم يفهمه إلاّ قطباه، ما قاله أحدُهما:

ما هذا الخَدش في وجهِك؟

فقال : إنّي سقطت عن فرس لي أشقر

فقال: أين أنت عن الأشهب الوطيء

والحاصلُ أنّ هذا الحدث الكلاميّ موغِلٌ في الإلباسِ والتّعمية؛ ذلك أنّ قطبَيه أرادا ذلك ليخفى على مَن حولهما، فالفرسُ الأشقر ههنا الخمرُ، والمتعيِّن مِن هذه التّعميةِ أنّ إفراطه في الشّرب أفضى إلى تمايلِه فسقوطِه فخدشِ وجهه، فاستدرك عليه القطبُ الثّاني مستنكِراً عليه هذه الفعلةَ قائلاً: أين أنت عن الأشهبِ الوطييءِ؟ أي الماء الذي هو كالفَرس الذّلولِ[1].

وممّا هو قريب ممّا تقدّم قصّةُ خالد بن الوليدِ مع رجلٍ من أهل الحيرةِ، ويظهر مِن تلك القصةِ المعاياةُ الكلاميّة التي يُقحِم فيها ذلك الرّجل خالداً رضي الله عنه، وسبيلُه في هذا اللّغةُ، والإجاباتُ العائمة المتحلِّلة مِن أيّ التزامٍ يعقبُها، وقد وصفها الجاحظُ بأنّها باب "مِن اللّغزِ في الجواب"[2]، ومضمونُها أنّ خالداً قال لأهلِ الحيرةِ: أخرجوا إليّ رجلاً مِن عقلائِكم أسأله عن بعضِ الأمورِ، فأخرجوا إليه عبدَ المسيح بن عمرو[3]. فقال له خالدٌ: مِن أين أقصى أثرِك؟ فقال: مِن صُلْب أبي، قال: فمِن أين خرجتَ؟ قال: مِن بطنِ أمّي، قال: فعلامَ أنت؟ قال: على الأرضِ، قال: ففيم أنتَ؟ قال في ثيابي، قال: فما سنّك؟ قال عَظْم، قال: أتعقلُ لا عقلتَ؟ قال:أي والله وأقيّد. فقال له: ابنُ كم أنتَ؟ قال: ابن رجلٍ واحد. قال: كم أتى عليك مِن الدّهر؟ قال: لو أتى عليّ شيء لقتلني. حقّاً أنّها معاياةٌ كلاميّة قائمةٌ على الإلباسِ والتّلاعبِ باللّغةِ وإمكانات التّعميةِ، ولذا عقّب خالدٌ بعد أنْ ضاق صدرُه بهذا

---

(١) انظر: الثعالبيّ – الكناية والتعريض ، ٦٧.

(٢) انظر: الجاحظ –البيان، ٢/١٤٧– ١٥١.

(٣) قيل إنه من المعمرّين، وقد أدرك الإسلام ولم يسلم انظر كلام المحقق.

التّهرّب اللّغويّ قائلاً: ما تزيدني مسألتك إلاّ غُمّى[1]، فردّ عليه ذاك مماحِكاً: ما أجبتك إلاّ عن مسألتك[2].

أختتم هذه المباحثةَ بالإشارة إلى أنّ ثمّ بوناً عريضاً بين الغموضِ الفنّيّ واللّبس الأسلوبيّ؛ ذلك أنّ الغموضَ الفنّيّ، وتعدّد المعاني، وانفتاحَ الدّلالة، مطالبُ رئيسةٌ في اللّغة الشّعريّة، وفي هذه النّقطةِ على وجهِ التّعيين يحدث التّمايزُ الفارق بين الغموضِ الفنّيّ واللّبسِ الأسلوبيّ؛ ذلك أنّ اللّبس عامّة، والأسلوبيّ في هذا المقامِ خاصّة، تعطيلٌ للقولِ بفضل اللّغةِ في إقامة التّواصلِ، وليست لهذا الغرض اللّغةِ، إلاّ لِمن أراد تعميةً وتغطيةً في مواقفَ وعوارضَ مخصوصةٍ. أمّا الغموضُ الفنّيّ فليس المقصدِ منه التّعميةَ أو التّغطية، بلْ هو وجهٌ آخرُ مِن وجوه التّواصل الإبداعيّ، وإشراكُ المتلقّي في هذه العمليّةِ ليكونَ منتِجاً للدّلالة النّصيّة في القراءة[3]، "ولو كان التّعقيد وغموضُ المعنى يُسقطان شاعراً لوجب ألاّ يُرى لأبي تمّام بيتٌ واحد، فإنّا لا نعلم له قصيدةً تسلم مِن بيتٍ أو بيتين قد وَفَر مِن التّعقيد حظّهما، وأُفسِد به لفظُهما، ولذلك كثُر الاختلافُ في معانيه، وصار استخراجُهما باباً منفرداً ينتسبُ إليه طائفة مِن أهل الأدبِ، وصارت تُتطارح في المجالسِ مطارحةَ أبياتِ المعاني وألغاز المُعمّى"[4].

---

(١) الغمّى: الأمر الملتبس، وقد رجح المحقق هذه الوجه.

(٢) انظر: الجاحظ- البيان والتبيين، ١٤٧/٢-١٤٨.

(٣) لقد غدت هذه مقولة عند أهل النظر التفكيكي "Deconstruction"، فقد هجس بها "رولان بارت"، فأعلن موت المؤلف، وولادة الأثر الأدبي، والقارئ يعشقه فيقيم معه علاقة شهوة، كل ذلك باعثه القول بتشظي اللغة والإشارة العائمة والمعنى المنزلق. انظر:

Baland, R., The Pleasure of the Text, translated by Miller, R., London, 1976,p. 27.

وانظر بارت- النقد والحقيقة ، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥م.

(٤) القاضي الجرجانيّ – الوساطة ٤١٧.

ولكنْ، قد يحدث أنْ يَفزَع المبدِع إلى بعضِ إمكاناتِ اللّغة في الإلباسِ لغاياتٍ جماليّة محضةٍ، وممّن عُرِف بهذا المذهب قديماً أبو العلاء المعريّ، ففي قصيدتِه التي مطلعُها:

مغاني اللوى من شخصك اليوم أطلال وفي النوم معنى من خيالك محلال

يلحّ على عَقد مفارقاتٍ لغويّة قائمةٍ على المشترَك اللّفظيّ، ومِن ذلك:

معانيك شتـــى والعبـــارة واحـــــد فزندك مغتـــال وطرفـــك مغتـــال

وأقتال حرب يفقد السـلم فيهـــمُ على غيرهم أمضى القضاء وأقتـــال

حروف سـرى جاءت لمـعنى أردته برتـني أسـماء لـهـن وأفعـــال

إذا صدق الجد افترى العـم للفتـــى مكارمَ لا تُكـــري وإن كذب الخـــالُ

بدت حية قصراً فقلـــت لصاحبـي حيـاة وشر بئس مـا زعـــم الفال

يعمد أبو العلاءِ إلى ظاهرةِ المشترَك اللّفظيّ، فالمعاني شتّى، والعبارةُ واحدة، والزَّنْد المُغتال مأخوذٌ مِن قولهم: ساعد غَيْل إذا كان ممتلئاً، والمُغتال الثّاني مِن الإهلاك. والأقْتال الأولى جمع قِتْل، وهو العدوّ، و"أقتالُ" الثّانية فعل مِن قولنا: اقْتلتُ على الرّجلِ أقتالُ: إذا احتكمت عليه، والحُروف: النّوق، وقولُه "برتْنيَ أسماءٌ وأفعال" إلغازٌ بقول النّحويّين: اسمٌ وفعل وحرفٌ جاء لمعنى"، فالحرفُ في هذا الإبلُ التي أضعفها السّفر، وأفعالُها بَرَتْ جسمه، فحركتُها به وانتقالُها كالأفعالِ التي تُصرّف الاسم، فترفعه تارةً، وتنصبه تارةً، أمّا برْي أسمائها فهو محتمِل معنيين: أحدهما أنّه يريد أنّها لمّا كانتْ تسمّى حروفاً– وذلك لضعفِها وهزالها– كان في أسمائِها فألٌ بأنّه سيصير حَرفاً مثلَها، أوْ أنْ يصحبَه الحُرْف، وهو الحِرمان الذي أضنى جسمه، وأكثر همَّه.

والجَدّ في سياقِه الحظّ، والعَمّ: الجماعةُ، والخال: المَخيلة، وتُكري: مِن أكرى الزّاد إذا نقص، وقد ألغز عن العمّ والجَدّ والخالِ. أمّا البيتُ الأخير فهو قائمٌ

على ملحظِ الاشتقاقِ الدّلاليّ؛ ذلك أنّ الحيّةَ تدلّ على الحياةِ، وهي في الوقتِ نفسِه شرّ: "حياةٌ وشرّ بئس ما زعم الفالُ"[١].

والحقّ أنّ الحديثَ عن الغموض الفنّيّ ليس مَطلباً مِن مطالبِ هذه الدّراسةِ، وقد عرّج عليه بإسهابٍ "Empson" في كتابِه "سبعة أنماط مِن الغموضِ"[٢].

سادساً: اللّبسُ الآتي مِن السّياقِ

في مَطلبِ الحديث عن الإبانةِ تبيّن أنّ للسّياق فضلاً عظيماً في تعيين المعنى، وفي هذا المطلبِ محاولة لاستشرافِ اللّبس الآتي مِن هذه الجهةِ، وأوّل ما يستجلبُ الخاطر نظرٌ مفادُه المساءلةُ عن مواضعِ تخلّقِ اللّبس السّياقيّ، وأحسب أنّ أوّلها انسلاخُ الحدثِ الكلاميّ مِن سياقه، وثانيَها الانقطاعُ عن السّياق الثّقافيّ والاجتماعيّ، وثالثَها تغييبُ المواجهةِ والمشاهَدَة، ورابعَها الدّخول الطّارئ في سياق حدثٍ يجري بين اثنين، وفيما يأتي بيانٌ :

تقدّم قبْلاً حادثةٌ طريفة بين قيس وليلى، وصفوةُ المستخلَص منها أنّ قيساً عَرَض على ليلى شربَ القهوة، فجاءت بإجابةٍ محتمِلةٍ ليس بمُكْنة السّامع أنْ يفرضَ عليها دلالةً إلاّ باسترفادِ السّياق؛ أعني سياقَ الحالِ والأنظارَ الخارجيّة، فقولها: "القهوة تجعلُني متيقّظة" يحتمل معنيَين تقدّم الحديث عليهما[٣]، وممّا يجلّي فضلَ السّياق في تعيين المعنى قولُنا :

"ما رأيُك بالقهوة"

إخال أنّ هذه الجملةَ محتمِلة لمعانٍ متباينة تنتسب إلى سياقاتٍ متباينة، ومِن ذلك :

---

(١) مجموعة : التبريزي (٥٠٢هـ)، والبطليوسي (٥٢١هـ) ، والخوارزمي(٦١٧هـ)- شروح سقط الزند، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، الدار القومية، القاهرة، ١٢١١،١٩٦٤-١٢٦٣

(٢) لمزيد بسط القول في هذه الظاهرة في العربية ، انظر : عز الدين إسماعيل – الشعر العربي المعاصر ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦، وإبراهيم رماني – الغموض في الشعر العربي الحديث، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ١٩٨٧.

(٣) انظر الصفحة٧٧ من الكتاب.

١- السّياق الأوّل:

قدْ يقولها "سري" لصديقِه "أحمد" وهو يرغِّبه في شربِ القهوة، ولا يخفى أنّ الكلامَ قد خرج مخرج الاستفهامِ، والمرادُ منه الطّلبُ المؤدَّب، أو العرض المغلَّف المتمظهرُ في هيئةِ استفهامٍ، والمعنى: هل تشربُ القهوة معي يا صديقي؟ ومثلُها: هل يمكن أنْ تكتبَ؟ فالقائلُ لا يسأل عن إمكانةِ تحقّقِ الكتابة، بل يطلب إلى صديقِه أنْ يكتب.

٢- السّياق الثّاني:

قد يقولُها سريّ لصديقه أحمدَ بعد الفروغ مِن شربِها، فقد أعدّها سريّ وفي نفسه ثقةٌ بأنّه يجيدُ صنع القهوة، أو في نفسِه ريبٌ مِن ذلك، فيقول لصديقه أحمد: "ما رأيُك بالقهوة؟" مستشرِفاً منه فضلَ بيانٍ، فالأسلوبُ ههنا محضُ استفهامٍ؛ إذ إنّه يسائله رأيَه بعد شربِها والفروغِ منِها.

٣- السّياق الثّالث:

وقد يقولُها سريّ لصديقه أحمدَ، وهو يحضّه على الذهاب إلى "المقهى"، ولعلّهما كانا في حَيرة مِن أمرهما، فأومأَ أحمدُ إلى سريّ أنْ أشر علينا، فكانت الخِيَرة لسريّ، فقال وفاءً بإيماءةِ صاحبِه: ما رأيك بالذّهاب إلى القهوةِ "المقهى"؟ وليس ثمّ ضير مِن وضعه القهوةَ موضعَ اسم المكان، فنحن نقول: "اسأل القرية"، و"عيشة راضية"، و"هذا الحرفُ مِن الأضداد"، أي الكلمة.

٤- السّياق الرّابع:

وقد يقولُها سريّ لأحمدَ ملتمِساً مِن صديقه فضلَ بيان طبيّ، فقد يكون "أحمد" في هذا السّياقِ الرّابع طبيباً، فيحدّثه عن منافعِها- إن كان لها منافع- ومضارّها، وآثارها، فيشير عليه بتركِها، أو بالتّقليل منِها، وليس يخفى مِن هذا المثال أنّ سياقَ الحال محتكَم رئيسٌ في الدّلالةِ على المتعيّن، وأنّ انسلاخَ الحدث الكلاميّ منِه يفضي في كثيرٍ مِن المواضعِ إلى المَظنّة واللّبسِ، ولعلّ هذا هو الذي

جعل ابنَ الأنباريّ يعدّ "بيضة البلدِ" مِن الأضداد؛ ذلك أنّها متردِّدة بين معنى المدحِ، ومعنى الهجاءِ، فإذا كانت مدحاً فالمعنى أنّه واحدُ أهلِه والمنظورُ إليه منهم، وإذا كانت ذمّاً فالمعنى أنّه حقير مَهينٌ، كالبيضةِ التي تفسدها النّعامة فتتركها مُلقاة لا تلتفت إليها[١]، والحقّ أنّ هذا التّعبيرَ الاصطلاحيّ الأسلوبيّ ليس له معنيان إلاّ في سياقَين متغايرَين.

ومِن طريف اللّبسِ الآتي مِن تناسي سياق الحالِ ما ساقه ابن السِّيد في "الإنصافِ"؛ إذْ إنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وهب لعليٍّ -رضي الله عنه عمامة-له كانت تسمَّى "السّحاب"، وقد مرّ عليٌّ -رضي الله عنه- بالرّسولِ، فقال النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- لِمن كان معه: أما رأيتم عليّاً في السّحاب؛ يعني العِمامة التي وهبها له صلّى الله عليه وسلّم، وليس يخفى أنّ هذا المعنى لم يكن ملتبِساً على مَن شهد السّياق ومقاميّاتِ الحدث اللّغويّ ذاك، ولكنْ، لخفاءِ سياق الحالِ أو إخفائِه، ذهب بعضُ النّاس أنّه أراد السّحاب المعروفَ، وكان ذلك سبباً لاعتقادِ بعضهم أنّه في السّحاب[٢]، ويظهر مِن وجهة أخرى أنّ للاشتراكِ اللّفظيّ الحادث سُهْمةً في تخلّق هذا المفهومِ.

وقد وقف الجرجانيّ صاحبُ الوَساطة(٣٦٦هـ) عند أبيات مشكلةٍ ملبِسة، ولم يُرِد القسم الذي خفاءُ معانيه واستتارها مِن جهة غرابةِ اللّفظ وتوحّشِ الكلام[٣]، وإنّما أراد الأبياتَ الآتيَ لبسُها مِن غياب "شاهدِ الحال"، وانسلاخِ الحدث الكلاميّ مِن سياقِه. لننظرْ في كلامِه المُبين عن أثرِ هذا الفاعلِ في ضياع كثيرٍ مِن القيم المعنويّةِ التي تُفضي إلى مزيدِ معنى:

" وإنّما أُريد مثل قول الأعشى:

إذا كان هادي الفتى في البلا ... دِ صدرَ القناةِ أطاع الأميرا

(١) انظر: ابن الأنباري – الأضداد، ٧٧.

(٢) انظر: ابن السيد – الإنصاف، ١٦٩-١٧٠.

(٣) الجرجانيّ – الوساطة ، ٤١٧، والشعر للأعشى، انظر ديوانه، ١٤٥.

فإنّ هذا البيتَ– كما تراه– سليمُ النّظر مِن التّعقيد، بعيدُ اللّفظِ عن الاستكراه، لا تُشكِل كلّ كلمةٍ بانفرادِها على أدنى العامّة، فإذا أردتَ الوقوف على مراد الشّاعر فمِن المحال عندي، والممتنِع في رأيي أنْ تصلَ إليه إلاّ مِن شاهد الأعشى بقولِه، فاستُدلّ بشاهدِ الأعشى، وفحوى الخطابِ، فأمّا أهلُ زمانِنا فلا أجيز أنْ يعرفوه إلاّ سماعاً إذا اقتصر بهم مِن الإنشادِ على هذا البيت المُفرَد، فإنْ تقدّموه أو تأخّروا عنه بأبياتٍ لم أبعد أنْ يُستدَلّ ببعض الكلام على بعضٍ، وإلاّ فمن يسمع بهذا البيتِ فيعلم أنّه يريد أنّ الفتى إذا كبر فاحتاج إلى لزومِ العصا أطاع لمن يأمره وينهاه، واستسلم لقائدِه، وذهبتْ شِرّته"[1].

ومِن مظاهرِ اللّبس اشتباهٌ في تعيينِ العموم أو الخصوصِ في الحدث الكلاميّ، وفي هذا المبحثِ يقرّر الغزاليّ أنّ المخاطبةَ شِفاهاً لا يمكن دعوى العمومِ فيها، ولعلّ المعوّل عليه في هذا التّقرير هو سياقُ الحال المُبين عن إرادةِ العموم أو إرادةِ الخصوص، "فإذا قال لجميعِ نسائه الحاضراتِ: طلّقتُكن، ولجميع عبيدِه: أعتقتُكم، فإنّما يكون مخاطِباً مِن جملتِهم مَن أقبل عليه بوجهِه، وقَصَد خطابه، وذلك يُعرَف بصورتِه وشمائلِه والتفاتةِ نظره، فقد يحضرُه جماعة مِن الغلمانِ مِن البالغين والصّبيانِ، فيقول: اركبوا معي، ويريدُ به أهلَ الرّكوب منِهم دون مَن ليس أهلاً له، فلا يتناول خطابُه إلاّ مَن قصده، ولا يُعرَف قصدُه إلاّ بلفظِه أو شمائلِه الظّاهرة، فلا يمكن دعوى العمومِ فيها"[2]، ولكنّ انسلاخَ الحدثِ من سياقِه يؤدّي إلى اللّبس والاحتمالِ؛ ذلك أنّ التفاتَه وشمائله وصورتَه وسياقَ حاله، كلّ ذلك مظاهرُ غيرُ لغويّة ليس بمُكنة المرءِ تسجيلها على أوراق. ومِن أمثلة ذلك قولُه– تنزّه– في التّنزيلِ:

---

(١) انظر: الجرجاني، الوساطة، ٤١٨، وحلمي خليل – العربية ، ٣٥ وقد ضرب الجرجانيّ أمثلة أخرى تبين عن أثر السياق في فهم مقاصد الكلام.

(٢) انظر: الغزالي – المستصفى، ١٢٦/٢.

﴿ولله المشرقُ والمغرب ، فأينما تولّوا وجوهَكم فثمّ وجه الله[١]﴾

لو جنح المرءُ إلى فهم الآيةِ معتمداً على مدلولِ الألفاظ لاقتضى هذا أنّه لا يجبُ استقبالُ القبلة سفراً ولا حضراً، وليس يخفى أنّ هذا مخالفٌ لِما انعقد عليه الإجماعُ، ومِن هنا يأتي فضلُ سياقِ الحال والملابسات الخارجيّة في تقييدِ المعنى؛ إذْ إنّها نَزَلت لمّا صلّى النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- على راحلتِه وهو يستقبلُ مِن مكّةَ إلى المدينةِ حيث توجّهتْ به[٢]، أو فيمن صلّى لاجتهادٍ وبان له الخطأ[٣]، ومثلُه قولُه- تنزّه-:﴿إنّ الصّفا والمروةَ مِن شعائرِ الله﴾[٤]، فالذي يظهرُ مِن هذا اللّفظ الشّريفِ أنّ السّعي ليس فرضاً، وقد ذهب قومٌ إلى انتفاءِ فرضيّته تمسُّكاً بذلك، ولكنّ السّيّدة عائشةَ-رضي الله عنها-ردّت ذلك معتمدةً على سياقِ الحال وسببِ النّزول، وهو أنّ بعضَ الصّحابة تأثّموا مِن السّعي بينهما لأنّه مِن عملِ الجاهليّةِ، فنزلتْ الآية لتقرِّر أنّ الصّفا والمروةَ مِن شعائر الله العظيم[٥].

ومِن مثلِ ما تقدّم قولُه-تنزّه- :﴿ **قلْ لا أجدُ فيما أوحي إليّ محرَّماً على طاعمٍ يطعمه إلاّ أنْ يكونَ ميتة أو دمًا مسفوحاً أو لحمَ خنزير**[٦]﴾؛ ذلك أنّ الظّاهرَ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ حصرُ المحرَّمات بالاستثناء، ولكنّ سياقَ الحالِ يدفع توهّمَ هذا الحصر، فلمّا حرّم الكفّارُ ما أحلّ الله، وأحلّوا ما حرّم الله، وقد كانوا على المُضادّةِ والمحادّةِ، نزلتْ الآية الكريمةُ، ولم يقصد اللهُ العظيم حِلّ ما وراء الذي ذكر؛ "إذ القصدُ إثبات التّحريمِ لا إثبات الحلّ"[٧].

---

(١) الآية (البقرة، ١١٥)

(٢) انظر: الزركشي – البرهان ١/١٠١.

(٣) انظر: السيوطي – الإتقان ١/١٠١.

(٤) الآية (البقرة، ١٥٨).

(٥) انظر: المصدر نفسه، ١/١٠١.

(٦) الآية (الأنعام، ١٤٥)

(٧) المصدر نفسه، ٢/١٠١-١٠٢.

وممّا يشيع في درسِ السّياق مشاهدةُ الأحوال واعتبارُ الوجوه، ولعلّ تغييبها يعمل على تخلُّق اللّبسِ، ولا يخفى أنّ المراسَلة لا تغني عن المواجَهةِ، ومَن ذا الذي يقنع اللّغويّ أنّ مستقبِلَ الرّسالة قد وَعَى مراد المرسِل كلَّه فوفّاه حقّه؟ ومَن ذا الذي يقنع اللّغويّ أنّ الرّسول الحاملَ للرّسالة قادرٌ على تبليغ مرادِه بصدقٍ وإخلاص إلى المرسَل إليه، فكثيراً ما نجد أنّ المرء يقول لرسولِه طلباً للاطمئنان والتّوكيد: ماذا ستبلّغ؟ أعدْ عليّ ما قلته لك، لا تقلْ له كذا، بلّغه مشاعري، وانقلْ له لَهجة كلامي وحدّةَ صوتي، وكثيراً ما يشيع في أسماعِنا:

" الهاتف لا يحلّ مشكلة"

" العين تستحيي مِن العين"

" خاطبه أنت ، ولا ترسل إليه رسولاً"

لعلّ الباعثَ على المتقدّم –في بعضِ وجهاتِه– خفاء قِيَم تواصليّة تجلّي المعنى وتفي بنقلِ المراد بصدقٍ وأمانة، فكم مِن وسيطٍ أخفق في تبليغِ الرّسالة كما أرادها المرسِلُ الأول، وعندها يطلبُ إليه القُطب الثّاني أنْ جئني بمسؤولِك؛ ذلك أنّك لا تصلح للتّواصل معي، فيُطَّرَح الرّسولُ الوسيط، ويأتي مرسلِه فيحلّ ما كان مِن لَبسٍ أو إشكال باعثُهما أنّ الرّسول غيرُ قادر على تمثيلِ مَقاصدِ المرسِل الأوّل.

لِنَرْجع النّظر في هذه الحادثةِ المصنوعةِ لبيان فضلِ المواجَهة على المهاتَفة، ومضمونُها "شكايةُ حال" يتجاذبها اثنان ليس لأحدِهما عهدٌ بالآخر، ووسيلةُ التّواصل الهاتف:

- **مرحبا ، أريد أنْ أهاتف الطّبيب سريّاً.**
- **سريّ يتكلّم.**
- **أريدك أن تتفضّل عليّ بتشخيص حالتي ، أنا محمّد.**
- **نعم ، ممّ تشكو يا محمّد؟**
- **يعتريني ضعف واسترخاء شديدان ، ولست أدري لماذا؟**
- **هل تتعب عندما تصعد الدّرج.**

- **نعم، وقد كنت أصعد إلى الطّابق السّابع ، أمّا الآن فلا أقوى مِن شدّة التّعب واللّهاث، ولست أستطيع العمل في الحديقة.**
- **وكيف أنت والحياة الجنسيّة؟**
- **آه ، ما عدت كسابق عهدي البتة ، ولا أقوى على هذا.**
- **يبدو أنّ ثمّ مشكلة حقيقيّة يا محمّد . وهل تعوّدت المشي الرّياضيّ؟**
- **نعم كنت أمشي مسافة ساعتين كلّ يوم ، أمّا الآن فلا أستطيع .**
- **كم عمرك يا محمّد؟**
- **عمري اثنان وتسعون عاماً.**

يا للهول؛ لقد شرع الطّبيبُ "سريّ" في تقييدِ العوارضِ التي ألمح إليها المَريض، والله أعلمُ بما أخفى، وقد كانتْ موضعَ نظر وعنايةٍ؛ ذلك أنّها كادتْ تنبئ عن علّةٍ جسميّة مشكلة، ولكنّ الاستدراك الأخيرَ جعل الطّبيب سريّاً ينسخ كلّ ما قيّده مِن عوارضَ بخطّين مائلَين متقاطعين؛ ذلك أنّه وَهِم إذْ ظنّ أنّها عوارضُ مرض، والمتمارِض ذاك "محمّد" يريد مِن نواميسِ الكون ألاّ تفعلَ فعلَها فيه ليبقى كما كان، وكأنّه اتّخذ قوله-تعالى-:**﴿كما بدأنا أوّل خلقٍ نعيده﴾**[1] ظِهريّاً، وليس يخفى أنّ المهاتفةَ لم تنقل الرّسالة اللّغويّة كما المواجَهة، "أفلا ترى إلى اعتبارِه بمشاهدةِ الوجوهِ وجعلِها دليلاً على ما في النّفوس"[2]، وأحسبُ أنّ هذه المحاورةَ المتقدّمة آنفاً تتّفق مع إلماحةٍ مُعْجِبة منقولة عن أحد شيوخِ ابن جني

---

(١) الآية (الأنبياء، ١٠٤).

(٢) انظر الصفحة ٧٧ من الكتاب.

مضمونُها أنّه لا يُحْسِن أنْ يُكلِّم إنساناً في الظّلمة، وأحسبُ – ولستُ بمبالغٍ- أنّه لو أدرك عصرَنا لاستدرك فقال: وأنا لا أُحْسِن أنْ أكلّم إنساناً بالهاتف.

وقدْ يحدث اللَّبس مِن دخول السّامعِ الطّارئ على السّياقِ، فيقع في خاطره معنى ليس بمرادٍ، والحقّ أنّ هذا الموضعَ المرشّح لتخلّق اللّبسِ قريبٌ مِن موضع تغييبِ السّياق، والذي ينبغي التّنبيه إليه أنّ كلّ المواضع المحتمَلة: الصّوتيّة والصّرفيّة والتّركيبيّة والمعجميّة والأسلوبيّة، تغدو مرشِّحة لوقوعِ اللّبس عند تغييبِ السّياقِ، أو دخولِ السّامع الطّارئِ فيه، فلو أنّه قيل:

"هذا حديث صحيح".   الفعل الصّحيح

لبدا الكلام محتمِلاً عند مَن يدخلُ في هذا السّياق وهو جارٍ بين اثنين متواصِلَين، وممّا وقعتُ عليه وأنا أستشرفُ وقائعَ كلاميّة ملبِسة في هذا المِضمار أنّ أستاذ النّحو ساءلنا ونحن في السّنةِ الثّانية عن إعرابِ "سمْعاً وطاعة" في امتحانٍ، ولمّا فرغنا مِنه وخرجنا مِن القاعةِ تشاغلتُ مع صديقٍ برجْعِ النّظر فيما كتبناه في الامتحانِ، فعرّجنا على "سمعاً" و"طاعة"، فقلت ساعتَها إنّها مفعول مطلَق، فاستدرك عليّ صديقي قائلاً: إنّها مصدر نائبٌ عن فعلِه، فرددتُها عليه، ولمّا اعتاص علينا الأمرُ ووقعنا في حَيْصَ بيص، راجعنا أستاذَ النّحو ملتمسين منه فضلَ إبانة، فأومأ إلى سلامةِ الوجهَين المؤْتلفين مِن معنيين متباينَين، ولم يُرفَع ما كان مِن لَبسٍ واحتمال إلاّ باسترفادِ أنظارٍ خارجيّة، ومقاميّاتٍ تفعل في توجيهِ المعنى، فإعرابي لها مفعولاً مطلقاً معناه أنّ هذه الجملةَ قد تصدر عن "عامل" يقف وجاهَ سيّدِه ممتثِلاً، ولعلّ هذا السّيّد قد أمر الخادم فائتمر بأمرِه فلم يُثْنِّ ولم يستدرِكْ، بل قال: سمْعاً وطاعة، ويكون المعنى في سياقِ الحال هذه: أسمع يا مولاي سمعاً وأطيع طاعةً. والمعنى النّحويّ الصّالحُ في هذا السّياقِ أنّها مفعولٌ مطلق؛ أحسبُ أنّ هذا الذي انقدح له زنادُ الخاطرِ في الامتحان.

أمّا إعرابها مصدراً نائباً عن فعلِه فهو يستدعي سياقَ حال مباينة للأولى، كأنْ يوجّه السّيّدُ عامله إلى مقصدٍ ما، فيتثاقل الثّاني أو يستدرك أو يتململ متراخياً،

فيقول السّيّد موبّخاً أو زاجراً أو آمراً لاستنهاضه واطّراحِ ما قد كان مِنه منْ تثاقُل: سمعاً وطاعة، والمعنى:اسمعْ وأطع، ولا يخفى أنّ لهيئةِ التّنغيم سُهمةً جليّة في توجيهِ المعنى، بل تعيينه، والمقصدُ مِن عرض هذه الحادثةِ اللّغويّة الحيّة بيانُ أثر السّياقِ في توجيه المعنى، ولمّا كان المطلبُ؛ مطلبُ أستاذ النّحو منسلِخاً مِن سياقه والمقاميّات التي تلفّه، انداحتْ الدّلالة، فأصبح هذا الانسلاخُ مَجْلَبةً للّبس والاحتمالِ، وما إعرابي لها إلاّ استحضارٌ لسياق حالٍ مفارقة لسياقِ الحال التي ذهب إليها خاطرُ الصّديق في إعرابِه.

وقد تفعلُ الغربةُ؛ الغربةُ عن سياق ثقافيٍّ ما في تخلّق اللّبسِ، فكثيراً ما يَرِد المرءُ على أحداثٍ كلاميّة ملبِسة لأنّ نصيبَه مِن سياقها الثّقافيّ التّفاصلُ، فينشد وقتَها تفسيراً مِن المرسلِ وتجليةً، وقد يبقى هذا اللّبس حبيسَ نفسِه إذا لم يكن الحدثُ اللّغويّ على هيئةِ حوار تخاطبيٍّ حيّ. ومِن ذلكم أنّ د."إحسان عبّاس" كان قدْ حدّثني عن قصّةِ رجلٍ يوصَف بأنّه "مجذوب" في السّودان، وكان في الحضرةِ تلك باحثٌ عُمانيّ، فاستدرك بفضلِ أدبِه بالسّؤالِ عن المتعيّنِ مِن معنى "مجذوب"، وإلى أيِّ شيء جُذِب، فبيّن له د. إحسان أنّ هذا مصطلح له سياقٌ ثقافيّ على وجه التّعيين عند مَن يزعمون أنّهم ينتسبون إلى التّصوّفِ، والمعنى أنّه رجلٌ لا توافق- في زعمِهم- ظواهرُ أعمالِه بواطنه، فقد انغمس في حبّ الذّاتِ الإلهيّة، فهامَ على وجهِه حتّى غدا كالمجنون، فصار مجذوباً بذلك العشقِ الإلهيّ، مستغنِياً عمّا سواه، وعندها أضاف الباحثُ العُمانيّ إلى حصيلته اللّغويّةِ مصطلَحاً لم يكن يعرف مِنه إلاّ الرّسم؛ وذلك لغربتِه عنه، وانقطاعه عن هذا السّياق الثّقافي.

ومِن مثْل ما تقدّم أنّني هممتُ بكتابة بحث عنوانه :"القيم الخلافيّة وتجليّاتُها في اللّغة"، ولمّا ورد على العنوان صديقٌ ممّن يشتغلون بالحاسوب استرعى انتباهه؛ ذلك أنّه وَهِم إذْ ظنّ أنّه موضوع اجتماعيّ ذو لُحْمة بالأخلاق والآداب ، فشرع يسائلني في مادّته ومَعالمه الأوّليّة طالباً إليّ التّأنّي في التّأتّي لهذا المطلب الاجتماعيّ المُعْجِب المتردّد بين قطبَين: اللّغةِ والمجتمع، ولكنّني استدركت عليه

بنفيِ هذا الوهم الذي سكن خواطرَه للوهلةِ الأولى، مبيِّناً أنّ "القيم الخلافيّة" مصطلحٌ ينتسب إلى سياق ثقافيٍّ خاصٍّ في علم اللّغة، وهي ظاهرة تتجلّى في المستوى الصّوتيّ، والصّرفيّ، والتّركيبيّ، والمعجميّ، وتقومُ على ملحظ التّقابلِ المُؤْذن بالتّمايزِ لكشف الإبانةِ وإظهارِها على الإلباس، فالضّدّ بالضّدّ يُعرَف، فعقّب باعتذارٍ مقرون بدهشةٍ؛ ذلك أنّ غربتَه عن هذا السّياقِ الثّقافيّ هي التي أفضتْ به إلى تلكم المَظِنّة الملبِسة، ولعلّ غربتَه تلك-مِن وجهةٍ أخرى- هي التي لمْ تسعفني على تجليةٍ وافيةٍ للقيم الخلافيّة أمامَه، فمضى وفي نفسه شيءٌ.

الفصلُ الثّالث

محاولةٌ لرفعِ اللَّبْس

محاولةٌ لرفع اللَّبس

"وإنْ بشكلٍ خيف لبسٌ يُجتنَب"[١]

"ويجبُ مراعاة المعنى إنْ حصل بمراعاةِ اللّفظ لَبس أو قُبح"[٢]

تقدّم قبْلاً مطلبٌ للقولِ على أجلى المواضعِ المرشِّحة لتخلُّق اللّبس، وفي هذا المُستدرَكِ مطلب للقولِ على محاولةِ رفعِه وفاءً بالقصد الأوّل مِن اللّغةِ، وهو التّواصل، والحقّ أنّ للقدماءِ اللّغويّين إشاراتٍ مُعجبةً وردوا عليها وهم يتلمّسون أنحاءَ هذا النّظامِ اللّغويّ على وجهِ الإحكامِ والتّقعيد، وهي تُلْمِح بلْ تُصرِّح بوقوفِهم على هذه الظّاهرةِ وقوفَ المدقِّقِ المتأمِّل، والذي ينبغي التّنبيه إليه أنّ مطلبَ القولِ على رفعِ اللّبس لا يعني انتفاءَه بالكلّيّةِ، وإلاّ لغدا حالُ الباحثِ في هذا المقامِ كحالِ التي نقضتْ غزلَها مِن بعدِ قوّة، وليس يُنسى أنّ كثيراً مِن الجملِ قدْ تتفتّق عن المرءِ وهو يحسبُها مُبينة عن مقاصدِ نفسِه، ولكنّه بعد حينٍ، أو لاستدراكِ المتلقّي عليه، يعود ثانيةً ليَرتق ما تفتّق عنه، ويصلح ما أفسده بيانُه ؛ إذْ إنّه ملبِس قد يحتملُ معنى لا يتّفق وهوى النّفسِ، أو غامضٌ تعتريه شبهةٌ تحجبُ المعنى المبتغى توصيلُه.

أمّا السّبيل إلى رفعِ اللّبس في هذه الورقةِ فهي قائمة على استرجاعِ المواضعِ المرشِّحة، والنّظرِ في جلّ معطياتِها، واستشرافِ الإمكاناتِ التي تعملُ على رفعِه، أو التّقليلِ منه، مشفوعةً ببعضِ نظراتِ القدماء وعللِهم ومنعِهم

---

(١) ابن عقيل – الشرح، ٤٢٠/١

(٢) السيوطي– الهمع ، ٢٨٤/١. وقد عرّج على هذا المطلب باقتضاب:

Kooij- Ambiguity,p 36-38., Quirk- Comprehensive,p. 1044, 1346.
Amr M. – Ambiguity , P. 51-56 .

ومن أمثلة ذلك الترقيم والتنغيم والمفاصل الصوتية واستحضار المحذوف وإعادة النظر في هيئة النظم والتركيب والاستدراك بالأقواس.

وتجويزِهم، وإخال أنّ الباعث على جملةٍ من العِللِ والمنعِ والتّجويزِ هو التّجافي عن اللَّبس غيرِ المقصودِ لا النّظر المعياريّ القائم على "قل ولا تقل".

في اللَّبسِ الآتي مِن التّصويتِ يظهر أنّ أول وسيلةٍ لرفع اللّبس استحضارُ التّنغيمِ والمفاصلِ الصّوتيّة، وقد تبيّن قبْلاً أنّ تغييبها يفضي إلى اللّبسِ وتداخلِ حدود الكلمِ ، وحدودِ الجملِ ، وتشاكلِ الأساليب، كالتباسِ الاستفهام بالنّفي، والاستفهامِ بالإخبارِ، والحقّ أنّ هذا المطلب رهينٌ بالمرسِلِ المتكلِّم، فهو المنتِج للكلام، والمسؤولُ عن تعيينِ مقاصدِه، والإخلالُ بإمكانتي الإبانةِ "التّنغيم والمفصِل" إخلالٌ بمقاصدِ الكلام، وقد تنبّه اللّغويّون القدماءُ إلى سُهْمةِ هذه الإمكانة في الإبانةِ، ومِن ذلك الحادثةُ التي أَغْرب فيها الشّيخ لتلميذِه "قيّما" في قولِه- تنزّه- :**﴿ولم يجعل له عِوَجاً قيّما﴾**[1] صفة للعِوَجِ، وهذا خطأٌ فاقعٌ؛ ذلك أنّ العِوَج لا يكونُ قيّماً، ولعلّ مِن البواعثِ على تخلّقِ اللّبسِ في هذا السّياقِ الشّريفِ وصلَ الكلامِ والتّجافيَ عن الوقفةِ اللّطيفة "المفصِل" بعد "عوجاً" دفْعاً لهذا التّوهّمِ :عوجاًΔ قيّماً. وإعرابُها أنّها حالٌ مِن الكتاب، والمعنى: أنزل الكتابَ قيّماً[2].

ومِن مثْلِ ما تقدّم حديثُ القدماءِ عن ضميرِ الفصلِ ودورِه في تعيينِ المقاصدِ والمعاني النّحويّة، وإنّما سُمِّي فصلاً لأنّه فُصِل به بين كونِ ما بعده نَعتاً، وكونِه خبراً[3]، ومِن ذلك:

١-الأذكياء الفائزون في المدرسة

قد يتوهّم السّامعُ كونَ "الفائزون" صفةً للأذكياءِ، ولكنّ إدخال ضميرِ الفصلِ: "الأذكياء هم الفائزون في المدرسة" يُعيّن كونَ "الفائزون" خبراً لا صفةً، وليس يخفى أنّ التّنغيمَ يتضافر مع ضميرِ الفصلِ لتعيينِ المعنى. ومِن مثْلِ ما تقدّم

---

(١) الآية (الكهف، ١)

(٢) انظر: ابن هشام – المغني ، ٦٩٢/٢.

(٣) انظر سيبويه- الكتاب ٣٨٩/٢ ابن السراج – الأصول ١٢٥/٢، ابن يعيش – شرح المفصل ، ١١٠/٣ الأستراباذي – شرح الكافية ، ٦٢/١ ، ابن هشام – المصدر نفسه، ٦٤٤/٢، السيوطي –الهمع، ٢٢٧/١.

التباسُ التّأكيد بالفاعليّةِ، فالنّفسُ والعينُ كثيراً ما يليان العاملَ ويقعان غيرَ تأكيد؛ وذلك نحو:"طابت نفسُ فلانٍ"، "فلو لم نؤكّدْ معهما بالمنفصِلِ لالتبس الفاعلُ إذا كان غائباً أو غائبةً بالتّأكيد"[1]؛ وذلك نحو:

١- ذهبت نفسُها "ملبسة"؛ فقد تعني أنّها ماتت

٢- ذهبت عينُها "ملبسة"؛ فقد تعني أنّها عميت

وفي هذه الأمثلةِ ونحوِها تبرز قيمةُ ضميرِ الفصلِ المتضافرِ مع التّنغيمِ في رفعِ اللّبسِ، وتعيينِ المقاصد: ذهبت هي نفسُها - ذهبت هي عينُها

والملاحَظ أنّ هاتين الظّاهرتَين الصّوتيّتين يتعذّر تمثيلُهما في المستوى الكتابيّ، فيُعتاض عنهما بعلاماتِ التّرقيمِ التي تعملُ على انفساخِ نسيجِ التّركيبِ، وتعيينِ المعاني النّحويّةِ، ومِن ذلك ما يتجلّى مِن معانٍ في الرّسومِ الآتيةِ:

١- فقال له: أعطيتَهم

فقال له: أعطيتَهم!

فقال له: أعطيتَهم؟

فقال له: أعطيتَهم.

٢- لا بارك الله فيك "دعاء وذمّ"

لا . بارك الله فيك "جملتان، والثّانية دعاء بالخير والبركة"

٣- ما أحسن مصطفى ملبِسة

ما أحسنُ مصطفى؟

ما أحسنَ مصطفى!

ما أحسنَ مصطفى.

---

(١) انظر: الأستراباذي – شرح الكافية، ٢/٣٦٠، السيوطي – الهمع. ٣/١٣٦.

ويظهر أنّ التّجافيَ عن علامةِ التّرقيمِ القائمةِ مقامَ المفصِلِ الصّوتيّ المشفوعِ بهيئةِ تنغيمِ الإخبارِ والدّعاءِ في "بارك الله فيك" يعمل على قلبِ المَقاصدِ، والدّخولِ في مزالقِ الحَرَج.

٤- قال الملك هو الصالح " ملبسة"

قال: الملكُ هو الصالح

قال الملكُ: هو الصالح

٥- لا تقلقْ اليومَ سيعقد الامتحان " ملبسة"

لا تقلقْ، اليومَ سيُعقد الامتحان

لا تقلقْ اليومَ، سيُعقد الامتحان

٦- محمّد مدير المدرسة ومعاونوه يساعدون الطلاّب "ملبسة"

محمّد مدير المدرسة. ومعاونوه يساعدون الطلاّب

٧- وقد علمتُ أنّه حفظه الله من أهل الإيمان

وقد علمت أنّه – حفظه الله– مِن أهل الإيمانِ

يظهر مِن كلّ ما تقدّم أنّ لعلاماتِ التّرقيمِ دوراً جليّاً في تعيينِ المعاني النّحويّةِ، ومقاصدِ النّفس، وانفساخِ نسيجِ التّركيبِ على مقتضاها[١].

وقد تقدّم قبْلاً أنّ لبساً قد يَرِد على المرءِ مِن تداخلِ حدودِ الكلماتِ في المستوى المنطوقِ، ولكنّ هذا اللّبسَ سيُرفَع عند تمثيلِ الكلامِ المنطوقِ إلى رسومٍ مكتوبةٍ؛ ذلك أنّ لها وشايةً تُبين عن حدودِ الكلماتِ المتداخلةِ صوتيّاً، ومِن ذلك:

١-أبى ريقُه – أبا ريقه

---

(١) من أمثلة ذلك في الإنجليزية:

They sent Dick a doctor from the hospital
They sent Dick, a doctor from the hospital . Amr – Ambiguity, P. 55.

٢-إنْ نما – إنّما

٣-جالسنا القمر – جال سنا القمر[1]

أمّا اللّبسُ الآتي مِن اختلافِ الأصلِ الاشتقاقيّ والعوارضِ التّصريفيّةِ فرفعُه قد يحصلُ بتكاملِ السّياق البنيويّ، أو باستشرافِ الأبعادِ الخارجيّةِغيرِ الكلاميّة، أو بالأقواسِ والاستدراكِ الكلاميّ، والجملِ المُعترِضة؛ وذلك نحو:

١- وقع السّائل على الأرض "ملبسة"

وقع السّائل الفقير على الأرض

وقع الحبر السّائل على الأرض

٢- إنّ المحتلّ لا يهدأ له بال "ملبسة"

إنّ المحتلّ الظّالم لا يهدأ له بال

إنّ المحتلّ المظلوم لا يهدأ له بال

إنّ المحتلّ لا يهدأ له بال حتّى تتحرّر أرضه السّليب.

ومِن وسائلِ رفعِ اللّبسِ الآتي مِن اشتباهِ الصّفةِ بالعلمِ ما تقدّم آنفاً، وقد ينضافُ إليه ضميرُ الفصل لتعيينِ العلميّةِ، ومِن ذلك:

كان السّائق ماهراً - كان السّائق هو ماهراً

هذا حسنٌ - هذا هو حسن

وقد تنبّه اللّغويّون القدماءُ إلى أنّ بعضَ العوارضِ التّصريفيّة تفضي إلى اشتباهٍ، ولذا نبّهوا على ما قد يَرِد على المرءِ مِن هذه الجهةِ، ومنعوا وجوّزوا مُحتكِمين إلى القصد الأوّل مِن اللّغةِ، ومِن أمثلةِ ذلك أنّه شذّ جمع "فاعل" صفةً على "فواعل"، و"إنْ كان هو الأصل، لأنّ "فاعلة" تُجمَع على "فواعل"، فكرهوا التباسَ البناءين؛ وذلك نحو: ضاربةٍ وضوارب"[2]، والحقّ أنّ هذا ملحظٌ حصيفٌ لست

---

(١) انظر الصفحة ٢٦-٢٧ من الكتاب.

(٢) المبرد – المقتضب، ٢١٨/٢، وانظر الفكرة نفسها: ابن يعيش- شرح المفصل، ٥٥/٥.

أحسبُه معيارياً، وإنّما هو حكمٌ تقتضيه الإبانةُ، والذي يعضُد هذا المذهب أنّنا نقول "فوارس"، وهي جمع فارسٍ، وعلّة ذلك أنّها لا تكونُ مِن نعوت النّساءِ، ولا تكادُ تقترن في العُرفِ اللّغويّ إلاّ بالرّجالِ، ولمّا لم يكن للمؤنّثِ حظّ مِنه "مِن وجهةٍ لغويّة" أَمِنوا اللّبسَ فجاءوا به على الأصلِ[1].

وفي بابِ النّسبِ عرّج بعض اللّغويّين على مسألةِ النّسبِ مِن "عبدِ مناف" و"عبدِ الأشهل"، فقيل إنّ تحقيقَ النّسبِ قائمٌ على اطّراحِ الأوّل، وإضافةِ الياءين إلى الثّاني؛ وذلك نحو: **مَنافيّ وأشْهليّ**، والقياسُ بالضّدّ، أي أنْ تلحقَ "الياءان" الاسمَ الأوّل مع اطّراحِ الثّاني، ولكنّهم خالفوا القياسَ وفاءً بالقصد الأوّل مِن اللّغةِ؛ ذلك أنّ قولهم "عَبديّ" يشتبه بالنّسبِ إلى عبدِ القيسِ وعبدِ الأشهلِ[2].

وفي مقامٍ آخرَ مِن النّسبِ يفسِّر بعض اللّغويّين لحاقَ المورفيم "يّ" بالتّحرّزِ مِن اللّبسِ؛ ذلك أنّها لو كانت خفيفةً لالتبست بياءِ الإضافةِ، ومِن ذلك: "كتابي" و "كتابِيّ"[3].

والإدغام–وهو مِن العوارضِ التّصريفيّة– يجوز في مواضعَ، ولا يجوز في أُخَرَ، وعلّةُ هذا الحظرِ وتلكم الإباحةِ درءُ اللّبسِ، "فإنْ قال قائل: ولِمَ جاز الإدغام في "امّحى الكتابُ"؟، وهلاّ بيّنت النّون فقيل: "انمحى"، كما شاة زَنْماء، وزُنُم، وكما قالوا "أَنْمُلة" و"أنمار" ونحو ذلك. قيل: قدْ كان القياسُ في "زَنْماء" و"زُنْم" و"أنملة" و" أنْمار" ونحوِها أنْ تُدغَم النّون في الميم؛ لأنّها ساكنةٌ قبل الميمِ، ولكنْ لم يجزْ ذلك لئلاّ يلتبس الأصولُ بعضُها ببعض، فلو قالوا "زمّاء" و "زُمّ" لالتبس بابُ زَمَمْتُ

---

(1) المبرد – المقتضب ،٢١٩/٢ .

(2) انظر هذه المسألة : سيبويه – الكتاب ٣٧٦/٣، وعبارته: " وأما القياس فكما ذكرت لك، إلا أنهم قالوا منافي مخافة الالتباس" ، ابن السراج – الأصول، ٦٩/٣، السيوطي– الهمع: ٣٥٧/٣، الأشباه والنظائر ٣٣٩/١ الصبان – الحاشية ٢٧١/٤.

(3) ابن يعيش–شرح المفصل،١٤٢/٥

النّاقة، ولو قالوا: "أمَلة" لالتبس بباب أمَّلت، ولو قالوا "أمّار" لالتبس بباب "أمَّرت"....، ولم يخافوا في "امّحى" الكتاب أنْ يلتبسَ بشيءٍ"[1].

ومِن العوارضِ التّصريفيّة سقوطُ المورفيم "التاء" المميِّز للجنس مِن قوالبَ مخصوصةٍ، ومِن ذلك: فَعول ومِفْعال ومِفْعيل وفَعيل بمعنى مَفعْول ما جرى على الاسمِ ، ومِن ذلك أنّنا نقول:

رجل صَبور : وامرأة صَبور وشَكور

رجل مِعْطار : وامرأة مِعْطار ومِئْناث ومِذكار

رجل جَريح : وامرأة جَريح وسَليب

والحقّ أنّ إسقاطَ المورفيم المميِّز رهين بتعيينِ الموصوفِ، فإذا جرتْ على موصوفِها لم يأتِ بالتّاء، وإذا لم يذكُروا الموصوف تعيّن مخالفةُ الشّائعِ لدرءِ اللّبسِ والاشتباهِ، فلو أنّه قيل:

١-رأيت صبوراً

٢-مررت بسليبٍ

٣-ما أجمل هذا المِعطارَ

لكان القالَب متردّداً في دلالتِه بين الجنسين: المذّكرِ والمؤنّثِ، ومردّ ذلك إلى اطّراحِ الموصوفِ: امرأةٌ مِعطار، ورجل صبورٌ، ولمّا دخل اللّبس مِن حيث لم يقصد، ولمّا كان هذا الموضعُ محتمِلاً، وجب العَودُ إلى الأصلِ ومخالفةِ الشّائعِ وفاءً بالمقصدِ الأوّلِ مِن اللّغةِ، وينبني على هذا إدخالُ المورفيم "التاء" المعيِّن للجنسِ:

رأيت صبورةً

رأيت صبوراً

مررت بقتيل بني فلان

---

(١) ابن جنيّ – المنصف ٧٣/١، وانظر الفكرة نفسها : ابن السراج– الأصول، ٣٥٥/٣، ابن عصفور – الممتع، ٤٥٠-٤٥١.

مررت بقتيلة بني فلان[1]

ومِن مِثْل ما تقدّم أنّ المورفيم "التاء" يُحذَف ممّا هو وصفٌ خاصّ بالمؤنّث، والظّاهرُ أنّ لمنطقِ الأشياءِ في العالم الخارجيّ وحقائقِ الحياة سُهمةً في هذا الحذفِ، فقولنا: حائضٌ وطالقٌ وطامثٌ ومرضِع، كلّ ذلك صفات لا تُسبَغ على المذكّرِ، ولمّا لم يخافوا لَبساً سقطتْ التّاء[2]، والظّاهرُ ممّا تقدّم أنّ شرطَ الحذفِ الإبانةُ وانتفاء الإلباسِ، فليس الأمر مُلقى على عواهنِه؛ ذلك أنّه "لا يجوز أنْ تُحذَفَ الهاء وتُجعَل البقيّةُ بمنزلةِ اسمٍ ليست فيه الهاء إذا لمْ يكن اسماً خاصّاً غالباً، مِن قِبَلِ أنّهم لو فعلوا ذلك التبس المؤنّثُ بالمذّكر؛ وذلك أنّه لا يجوز أنْ تقول للمرأةِ: يا خبيثُ أقبلي، وإنّما جاز في الغالبِ لأنّك لا تذكّر مؤنّثاً ولا تؤنّثُ مذكّراً"[3].

وفي مطلبِ الحديثِ عن التّرخيم – وهو ممّا يبحَث في الدّرسِ النّحويّ– يحدُث حذفُ مِن البنيةِ، والمرخَّم مخيَّر بين الانتظارِ "نيّة المحذوفِ"، وهو الأشهر، وتركِ الانتظارِ، وإذا ما فضّل الأولَ فلا يغيِّر ما بقي مِن البنيةِ؛ وذلك نحو:

يا جَعْفَ	مِن: "جعفر"
يا هرقْ	مِن: "هرقل"

ولمّا ورد اللّغويّون على ما هو نحو " قائمة" و"قاعدة" أشاروا إلى وجوبِ الانتظارِ درءاً للّبسِ؛ ذلك أنّ "قائمة" ستغدو بعد التّرخيمِ على لغةِ مَن يتركُ الانتظار: "قائم"، وهي صيغةٌ تلتبس بالمذكّرِ فلا يتعيّن الجنس البتّة[4]، والمُستصفى ممّا تقدّم أنّه يتعيّنُ الانتظارُ فيما فيه تاءُ التّأنيث إذا خيف التباسُه بالمذكّر، "والحقّ

---

(1) انظر: ابن يعيش – شرح المفصل، ١٠٢/٥، ابن هشام – أوضح المسالك ٢٥٩/٤، السيوطي – الهمع، ٢٩/٣، وإذا جرد عن الوصفية تدخل التاء عليه، ومن ذلك الذبيحة والنطيحة.

(٢) انظر: ابن السيد – الاقتضاب، ١٣١/٢–١٣٢، السيوطي – المصدر نفسه، ٢١٩/٣، وهذا الرأي هو المذهب الكوفيّ، أما البصريون فيرون أن هذه صفات جاءت على معنى النسب، أي : ذات إرضاع وذات حيض.

(٣) سيبويه – الكتاب، ٢٥١/٢.

(٤) انظر: الأستراباذي– شرح الكافية ٣٧٢/١، ابن هشام– أوضح المسالك٦٢/٤، السيوطي– المصدر السابق٦٨/٢.

أنّ كلّ موضعٍ قامتْ فيه قرينةٌ تزيل اللّبسَ جاز ترخيمُ جميع ما ذُكِّر، على نيّة الضمّ كان أوْ لا، وإلاّ فلا"[1].

مِن وجهةٍ ثانيةٍ، لا يجوز ترخيمُ جمع المذكّرِ السّالم لئلاّ يلتبسَ بالمفرد[2]، ولا يجوزُ ترخيمُ المنسوبِ مطلَقاً؛ نحو "زيديّ"؛ وذلك أنّه لو كُسِر "زيد" لالتبس بالمضافِ إلى الياءِ، ولو ضُمّ لالتبس بنداءِ المنسوبِ إليه[3].

أمّا اللّبسُ الآتي مِن اشتباهٍ في بعضِ الفصائلِ النّحويّةِ فقد تقدّم أنّ السّياق البنيويّ كفيلٌ أمينٌ برفع كثيرٍ مِن مواضعِه، وقد ينضافُ إلى هذا الاستدراكُ الكلاميُّ والأقواسُ والمقاميّات. وفي بابِ التّأنيثِ عرّج ابنُ هشامٍ على تأنيثِ أسماءٍ بغيرِ علامةٍ، والهادي إلى ذلك السّياقُ البنيويّ وتعالقُ عناصرِه البنيويّةِ، فالضّمير وقواعدُ المطابقة دليلٌ على الجنسِ؛ ومِن ذلك: ﴿ **النّار وعدها الله الذين كفروا**﴾[4]، والإشارةُ إليها:﴿ **هذه جهنّم**﴾ [5]، والتّصغير؛ وذلك نحو: "عُيينة" و"أُذَينة"، والمطابقة بين الفعلِ والاسمِ، ومنه:﴿ **ولمّا فصلت العير**﴾[6]. لنَرْجِع النّظر في هذه الجملةِ:

لقيتُ مَن أحبّه

إنّها جملةٌ ملبسة عائمةُ الدّلالة: فقوله: "مَن أحبّه" قد يكون مذكّراً، وقدْ يكون مؤنّثاً، ولذلك "يجبُ مراعاة المعنى إنْ حصل بمراعاةِ اللّفظِ لَبس أوْ قبحٌ"[7]، ورفعُ اللّبس عن هذه الجملةِ واقعٌ في تعيين الجنسِ؛ وذلك نحو:

---

(١) الأسترابادي – شرح الكافية ، ٣٧٢/١

(٢) انظر: المصدر نفسه ٣٧٢/١.

(٣) انظر: المصدر نفسه ٣٧٢/١

(٤) الآية (الحج، ٧٢)

(٥) الآية (يس ، ٦٣)

(٦) انظر: ابن هشام – أوضح المسالك ٢٥٧/٤، والآية (يوسف، ٩٤).

(٧) السيوطي – الهمع ، ٢٨٤/١، المعنى نفسه عند الأسترابادي – شرح الكافية ، ١٤٠/٣.

لقيتُ مَن أحبّه - لقيت مَن أحبّها

أعطِ مَن سألك - أعط مَن سألتْك

ومِن مثلِ ما تقدّم أنّ "رويداً" تلحقها كافُ الخطابِ، وهي بمعنى الفعلِ، وذلك:

رويدَك زيداً - رويدكم زيداً

ولكنّنا – مِن وجهةٍ أخرى– نقول: ضعْه رويداً؛ أي وضْعاً رويداً، والظّاهر مِن هذا المورفيم المميِّز "الكاف" أنّه عاملُ إبانةٍ، ورافعُ اشتباهٍ؛ ذلك أنّها لاحقٌ لتبيين المخاطَب المخصوصِ، فقولنا: "رويداً " ذو دلالةٍ عائمةٍ؛ ذلك أنّها تقع:

للواحدِ فيُقال له: "رويداً"

وللجميع فيقال لهم: "رويداً"

وللمذكر فيقال له: "رويداً"

وللأنثى فيقال لها: "رويداً"

"فإنّما أدخل الكافَ حين خاف التباسَ مَن يعني بمن لا يعني، وإنّما حذفَها في الأوّلِ استغناءً بعلمِ المخاطَبِ أنّه لا يعني غيرَه"[1].

أمّا اللّبسُ الآتي مِن تناوبِ الصّيَغ واشتراكِها فرفعُه حاصل بتكاملِ السّياقِ البنيويّ، والمقاميّاتِ والأقواس، وفوق ذلك كلِّه فكّ الصّيغةِ المشتركةِ والإتيان بها على المعنى المرادِ، ومن ذلك:

١- لا تصاحب مَن هو فَجوع

لا تصاحبْ مَن هو فاجع

لا تصاحبْ مَن هو مفجوع

لا تصاحبْ مَن هو فجوع يحبّ ظلم النّاس وفجعهم.

٢-أنت الطّاعم الكاسي

---

(١) سيبويه – الكتاب ، ٢٤٤/١.

أنت المطعوم المكسوّ.

أنت الطّاعم الكاسي الذي يتصدّق وينفق ماله على الفقراء.

٣-كيف يرضى التّبيع هذا الظّلم؟

كيف يرضى التّابع هذا الظّلم؟

كيف يرضى المتبوع هذا الظّلم؟

كيف يرضى التّبيع هذا الظّلم وامتهان مستخدميه؟

كيف يرضى التّبيع المسؤول بهذا الظّلم وامتهان مستخدميه؟

أمّا اللّبسُ الآتي مِن التّركيبِ، فهو كثيرٌ، ومِن مواضعِه "تباين وجه القولِ على الضمّير"، والإمكانةُ التي يُرفَع بها اللّبس ههنا هي العودُ إلى التّحويل "Transformation"[١]، وإعادةِ الصّياغةِ، فقولُنا: "نصحت لأختي أنْ تبقى مع أمّي لأنّها مريضة" ، يمكن رفع اللّبس بالعودِ إلى الأصلِ:

نصحت لأختي أنْ تبقى مع أمّي ، لأنّ أمّي مريضة

نصحت لأختي أنْ تبقى مع أمّي ، لأنّ أختي مريضة

وقد يُرفَع اللّبسُ بالاستدراكِ الكتابيّ المتمثّلِ بالأقواسِ، ومِن ذلك: لأنّها "أمّي"، أو بالاستدراكِ المتمثّلِ بالجملِ المعترِضةِ، كقولنا: لأنّها- أعني أمّي- مريضة.

وفي مطلبِ الحديثِ عن "إزالة اللّبسِ حيث يكون الضّمير يوهِم أنّه غير المرادِ"[٢] عرّج الزّركشيّ على آياتٍ شريفاتٍ مِن التّنزيلِ مُبيّناً أنّ إعادةَ ذكرِ الاسمِ

---

(١) تصدق هذه الإمكانة على الجمل المبنية للمعلوم في الإنجليزية ومن ذلك أن جملة : The policeman killed the woman with a gun" ملبسة والسبيل إلى رفع اللبس هو تحويل من المبني للمعلوم إلى المبني للمجهول The Woman was killed with a gun(by the police man) Amr-Ambiguity, P. 54.

(٢) انظر: الزركشي – البرهان ٢/٤٨٨.

إمكانةٌ مِن إمكاناتِ رفع اللّبسِ، والمفارقةُ اللّطيفة ههنا أنّ ذكرَ الضّميرِ في بعضِ الأحيانِ ملبسٌ، وأنّ ذكر الاسم في بعض الأحيان ملبسٌ أيضاً، ومِن ذلك:

﴿ يظنّون بالله ظنّ السوء ، عليهم دائرة السَّوْء﴾ (١)

وقد كرّر الحقّ -سبحانه- "السَّوء" لأنّه لو قال: "عليهم دائرتُه" لتعيّن ثَمّ مرجعان يتقدّمان الضّميرَ، فيُلتَبَس بأنْ يكونَ الضّمير عائداً على اللهِ، والمرادُ عودُه على السّوْء(٢)، ولو قيل: وقد علمتُ مِن زيد أنّه ذهب(والقائل يعني مِن الضّميرِ"الهاء" زيداً):

وقد علمت مِن زيد أنّ زيداً ذهب

لبدتْ الجملةُ الثّانية ملبسةً محتمِلةً؛ ذلك أنّ تكريرَ الاسمِ مَجْلبة لتوهّمِ السّامعِ بأنّ زيداً الأوّل ليس زيداً الثّانيَ. حقّاً أنّها مفارقةٌ مُعْجِبة، والحاصلُ أنّ الاستعانةَ بالضّميرِ في الجملةِ الأولى عملتْ على درءِ اللّبسِ ورفعِ أيّ خاطرٍ متوهَّمٍ قد يَرِد على المرءِ.

والإضافةُ مَجلبةٌ للّبس في مواضعَ، والحقّ أنّ إعادةَ بناءِ الجملةِ مطلبٌ له خطرُه في رفع اللّبسِ؛ ذلك أنّ المعوّلَ عليه هو المعنى، والمعنى روحٌ جسمه اللّفظ، فقد يُلْبِس المرءُ معناها- أعني الإضافة - نَظْماً مفارِقاً لهذا النّظم الملبِس، فيفكِّك هذا المبنى المكثَّف والمعنى المغلَّفَ، إلى آخرَ مشرقٍ في دلالته مُبينٍ:

محمّد يحبّ زيارة الأصدقاء "ملبسة"

وبمُكنة المرءِ أنْ يَرِد على المعنى المركوزِ في البِنية العميقةِ، فيغدو كلامُه مُستبيناً:

محمّد يحبّ أنْ يزورَ الأصدقاء

محمّد يحبّ أنْ يزورَه الأصدقاء

---

(١) الآية : (الفتح ، ٦)

(٢) انظر: المصدر نفسه، ٤٨٩/٢.

وخفاءُ العلامةِ الإعرابيّةِ مرشّح آخرُ، والحقّ أنّ المرسِل قد يتجافى عنه– إنْ هو أراد– بوسائلَ، كالاستدراكِ المتمثِّل بالكلام والجملِ المعترِضةِ، وتغييرِ البناءِ النّظميّ الملبِسِ في بنيتِه السّطحيّةِ، ومِن ذلك:

١- كان محمّد صديقي له بيت كبير "ملبسة"

كان محمّدٌ "صديقي" له بيت كبير

كان محمّدٌ – أعني صديقي – له بيت كبير

كان صديقي محمّدٌ له بيت كبير

كان صديقي محمّداً له بيت كبير

٢- أتتك به بشرى "ملبسة"

أتتك به للبُشرى

ولو أنّه قيل: أتتك به أختك بشرى

أو: أتتك به الفتاةُ بشرى

لظلّ اللّبسُ قائماً، والحقّ أنّ استشرافَ الأنظارِ الخارجيّة في هذا الموضعِ مطلبٌ له خطرُه في رفعِ اللّبسِ، ولكنْ، قد يعمد المرءُ إلى الأقواسِ لتبيين المعنى، أو إلى بسطِ الكلامِ ومدِّ السّياقِ البنيويّ مدّاً أفقيّاً؛ وذلك نحو:

أتتك به "بشرى"

أتتك به الفتاة التي تسمّى "بشرى"

ومِن أمثلةِ رفعِ اللّبسِ الآتي مِن إعادة النّظم وترتيبِ المكوّنات البنيويّةِ:

١- هذا دفتر الغلامِ الذي ضاع يومَ الخميس "ملبسة"

هذا الدّفتر للغلامِ الذي ضاع يومَ الخميس

هذا الدّفتر الذي ضاع يومَ الخميس للغلامِ

يظهر أنّ هاتين الجملتَين الأخيرتَين تنبِئان عن تجلّي بنيتَين عميقتَين في تلكم الملبِسةِ، ومِن مثلِ ما تقدّم:

١- هذه أخت سعاد الصّغرى "ملبسة"

هذه الأختُ الصّغرى لسعادَ

هذه أخت "سعاد الصّغرى"

٢- مررت بأخت هند المفقودة "ملبسة"

مررت بالأخت المفقودةِ لهند

مررت بأختِ "هند المفقودة"

٣- سمعت عن النّساء والبنات الجميلات "ملبسة"

سمعتُ عن البنات الجميلات والنّساء

سمعت عن النّساء و"البنات الجميلات"

٤- أصلّي الجمعة في مساجد القدس العتيقة "ملبسة"

أصلّي الجمعة في المساجد العتيقةِ للقدسِ

أصلّي الجمعة في المساجد في القدس العتيقةِ

٥- محمّد أبوه قائم وكريم

محمّد كريم وأبوه قائم

يظهر ممّا تقدّم أنّ إعادةَ النّظرِ في هيئةِ النّظم والمواقعِ البنيويّةِ ملحظٌ فاعلٌ في رفعِ اللّبسِ، ولكنّه قد يكونُ في مواضعَ أخرى مَزْلَقةً للولوجِ فيه، وتغدو الحالُ عند هذا كمَن يهرب مِن اللّبسِ إلى اللّبسِ، ولذلك حذّر اللّغويّون مِن أنّ "التّقديم والتّأخير" قد يفضيان في مواضعَ إلى الإخلال بالمعنى واللّبسِ، ومِن ذلك إشارةُ الزّركشيّ إلى عللِ "التّقديم والتّأخير" متمثّلاً قولَه –تعالى- :**﴿ قال رجلٌ مؤمن مِن آل فرعون يكتم إيمانَه﴾**[1]. فلو أَخَّر قوله "مِن آل فرعون" لغدا :"وقال

---

(١) الآية (غافر، ٢٨).

رجل مؤمنٌ يكتم إيمانَه مِن آلِ فرعون" ، ويظهرُ أنّه محتمِلٌ لمعنيين متباينَين، كلّ ذلك باعثُه تباينُ المواقع البنيويّةِ في نسيجِ التّركيب[1].

ومِن المواضعِ التي يفعل التّقديم والتّأخير في رفعِ لبسِها قولُنا:

قابل سريّ أباه ضاحكاً " ملبسة"

قابل سريّ ضاحكاً أباه

قابل الآباء وهم مسرورون أبناءَهم

وفي هذا يقول شارحُ الكافية: "ثمّ اعلم أنّ الحالَ قد يكون مِن الفاعلِ وحدَه، ومِن المفعولِ وحدَه، فإذا قلت: لقيت زيداً راكباً، فإنْ كان هناك قرينةٌ حاليّة أو مقاليّة تُبيّن صاحب الحالِ جاز أنْ تجعلها لِما قدّمت له مِن الفاعلِ أو المفعولِ، وإنْ لم تكنْ، وكان الحالُ مِن الفاعلِ وجب تقديمُه إلى جنب صاحبِه لإزالةِ اللّبس؛ نحو: لقيت راكباً زيداً، فإنْ لم يتقدّمْه فهو عن المفعول"[2]، والظّاهر أنّ اللّغويّين عوّلوا في مواضعَ على لزومِ الرّتبةِ رفعاً للّبسِ، ومِن ذلك امتناع تأخيرِ الخبرِ، ووجوبُ تقديمِه إذا كان الخبر مسنَداً إلى "أنّ" المفتوحةِ المشدَّدةِ وصلتِها؛ ذلك أنّ تأخيرَه يلتبس بالمكسورةِ، ومِن ذلك قولُه في التّنزيلِ العزيزِ:**﴿ وآية لهم أنّا حملنا ذريّتَهم﴾**[3]، ووجوبُ تأخيرِ الخبرِ إذا خيف التباسُه بالمبتدأ، وذلك إذا كانا معرفتَين أو متساويَين ولا قرينة، ومِن ذلك:

زيد أخوك

أفضل منك أفضل منّي[4]

ووجوبُ تقديمِ الفاعل على المفعولِ عند خفاءِ العلامةِ والقرينةِ، "ولو قلت: "ضَرَب هذا هذا"، تريد تقديماً وتأخيراً لم يجزْ، فإذا قلت: "ضرب هذا هذه"، جاز

---

(١) انظر: الزركشي- البرهان ، ٢٣٣/٣.

(٢) الأستراباذي – شرح الكافية ٥١/٢، وقد أشار إلى هذا الملحظ ابن السراج- الأصول ، ٢١٩/١، ٢٤٥/٢.

(٣) انظر: السيوطي – الهمع، ٣٣٢/٢ والآية (يس، ٤١).

(٤) انظر: ابن هشام- أوضح المسالك- ١٨٧/١ ، السيوطي – الأشباه ٦٤/٢.

التّقديمُ والتّأخير، فقلتَ: "ضرب هذه هذا" لأنّه غيرُ ملبسٍ، ولو قلتَ: "ضرب الذي في الدّارِ الذي في البيتِ" لم يَجُز التّقديم والتّأخير للإلباس"[1].

والظّاهر مِن كلام اللّغويّين عن "القرينةِ" أنّ ذلك جائزٌ إذا كان السّامع مدركاً للمرادِ، كأنْ يكون ثمّ سياقٌ كلاميّ حيّ، أو قرائنُ بنيويّة أخرى، والحقّ أنّ اللّغويّين استشرفوا بُعْداً آخرَ، وهو "حقائق الحياة"، ومنطقُ الأشياء في رفعِ اللّبسِ، ومِن ذلك قولُنا:

١- أعطِي زيدٌ درهما

٢-كُسِي زيدٌ ثوباً

٣-ويجوز أنْ يقال: أعطي زيداً درهمٌ

٤-كسي زيداً ثوبٌ

والتّقديمُ والتّأخير هنا جائز لأنّه لا يُلبِس على السّامعِ، لأنّ منطق الأشياءِ يقتضي أنْ يكونَ الدّرهم مأخوذاً، وكذلك الثّوب، فهما مفعولان وإنْ بدا غير ذلك، ولكنّ هذا التّقديمَ والتّأخيرَ المتساوقَ مع منطقِ الأشياءِ في العالمِ الخارجيّ مُطّرَح ممتنِعٌ في قولِنا:

أعطِي زيدٌ عمْراً

ذلك أنّه ملبسٌ؛ إذ يجوز أنْ يكون كلّ واحدٍ منهما آخذاً للآخرِ، "**وهو لا يُلبس في الدّرهم وما أشبه، لأنّ الدّرهم لا يكون إلاّ مأخوذاً، وإنّما هذا مجاز**"[2].

ويظهر أثرُ التّقديمِ والتّأخيرِ جليّاً في رفعِ اللّبسِ الآتي مِن مرونةِ الجملةِ العربيّةِ؛ وذلك نحو:

---

(١) ابن السراج- الأصول ٢٤٦/٢، وقد عقد باباً في الأشياء التي لا يجوز تقديمها، ومنها: " التقديم إذا ألبس على السامع أنه مقدم" انظر: ٢٤٥/٢-٢٤٦.

(٢) انظر:ابن السراج- الأصول،٧٩/١، ٢٤٦/٢ ابن هشام - أوضح المسالك، ١٣٦/٢ وقد بين أن هذه المسألة فيها ثلاثة أقوال وهي الامتناع مطلقاً إن لم يلبس، والجواز مطلقاً، وقيل يمتنع مطلقاً ، وقيل وإن لم يعتقد القلب.

١- قرّرت أنْ أسافر إلى عكّا يومَ الاثنين " ملبسة"

قررت يومَ الاثنين أنْ أسافر إلى عكّا

أمّا اللّبسُ الآتي مِن الحذفِ فرفعُه هيّن؛ ومِن ذلك استرجاعُ المحذوفِ، وتجلية المتعيّنِ، ومِن ذلك: **١-هي تحبّه أكثر منك.**

هي تحبّه أكثر مِن حبّها لك.

هي تحبّه أكثر مِن حبّك له.

ومِن الإمكاناتِ الفاعلةِ في رفعِ هذا اللّبسِ في كثيرٍ مِن المواضع "سياقُ الحال"، ولذا عُدّ مطلباً أساسيّاً لجوازِ الحذفِ؛ ذلك أنّه- أعني الحذفَ- شائعٌ متكاثرٌ في الأحداثِ الكلاميّةِ، ومِن أمثلةِ حذفِ الحروفِ:

دخلت البلد - ذهبت الشّام - عجبت أنّك قائم

ولكنّ هذا الجوازَ ينزوي ليحلّ محلّه الحظرُ إذا لم يتعيّنْ الحرفُ؛ ذلك أنّ الحذفَ إذا أفضى إلى الإلباسِ فهو محظورٌ، ومِنه: رغبت أنّك قائم، فهنا يقع اشتباهٌ في تعيينِ المحذوفِ، أهو "في" أم "عن"[١]، وصفوةُ القولِ أنّ لسياقِ الحال فضلاً جليّاً في رفعِ اللّبس الآتي مِن هذه الجهةِ، "ألا ترى أنّك إذا قلت: مررت بطويلٍ، لم يستبنْ مِن ظاهر هذا اللّفظ أنّ الممرور به إنسانٌ دون رمحٍ أو ثوبٍ أو نحوِ ذلك، وإذا كان كذلك كان حذف الموصوفِ إنّما هو متى قامَ الدّليل عليه، أو شهدت الحالُ به، وكلّما استبهم الموصوفُ كان حذفُه غيرَ لائقٍ بالحديث"[٢].

وتعدّد معاني "حروفِ المعاني" مِن المرشّحاتِ لتخلّقِ اللّبس، ومِن وسائلِ رفعِه الإضافةُ على السّياقِ البنيويّ، أو ذكرُ معنى الحرفِ، ومِن ذلك:

١-جئتك بشيءٍ مِن الذّهبِ " ملبسة"

---

(١) انظر : السيوطي –الهمع ٦/١-٧ .

(٢) ابن جنيّ – الخصائص ٣٦٨/٢، وانظر الفكرة نفسها عند ابن السراج- الأصول ، ٣٢/٢، وعبارته: "فالمبهم يحتاج إلى أن يميز بالأجناس عند الإلباس".

جئتك بشيءٍ قليل مِن الذّهب

جئتك بشيءٍ مصنوع مِن الذّهب

٢-ذهبنا إلى المنزل إذ سريٌّ موجود

ذهبنا إلى المنزل لأنّ سريّاً موجود

ذهبنا إلى المنزل حيث سريٌّ موجود

وفي هاتين الجملتَين الأخيرتَين ذكرٌ لمعنيي "إذ" في الجملةِ الأولى.

٣-أنّى جئتَ ؟

متى جئت ؟ - كيف جئت؟ - مِن أين جئت؟

وما اللاّم الفارقةُ إلاّ وسيلة مِن وسائلِ رفعِ الاشتباهِ الواقعِ بين "إنْ" المخفّفة و "إنْ" النّافية، فإذا قيل: إنْ زيدٌ لقائم، فإنّ "إنْ" ههنا مخفَّفة مِن الثّقيلة، واللاّم بعدها فارقةٌ رافعةٌ للاشتباهِ، والأسلوبُ إثبات، وعلّةُ ذلك أنّ تخفيف "إنّ" يؤْذِن بتداخلها مع النّافيةِ، "فيُخاف التباسُ الإثباتِ بالنّفي عند تركِ العملِ، فألزموا تاليَ ما بعد المخفّفةِ اللاّم المؤكّدة مميزِّةٍ لها"[1]، وليس يُنسى في هذا المقامِ أنّ تكاملَ السّياقِ البنيويّ وتعالقَ مكوّناتِه باعثٌ مِن بواعثِ رفعِ الاشتباهِ؛ ومِن ذلك "لا" النّاهية و"لا" النّافية، فالقرائنُ البنيويّة التّركيبيّةُ تعملُ على تعيينِ المعنى فيما يأتي:

لا تلعبون	**" نافية"**
لا تلعبوا	**" ناهية"**

ومِن معاني "اللاّم" أنّها حرف جرّ وحرفُ ابتداءٍ، ولكنّ نواميسَ اللّغةِ تقتضي أنْ تتمايزَ اللاّمان في مواضعَ دَرءاً للّبسِ، ومِن ذلك:

" لَزيد - لِزَيد"

فالأولى ابتدائيّةٌ، والثّانية جارّة، والمعلومُ أنّ لام الجرّ مع الظّاهرِ مكسورة (إلاّ المستغاث)، وأنّها مع المُضمَرِ مفتوحة إلاّ مع "الياء"، وعلّة ذلك أنّها "تلتبسُ

---

(١) ابن مالك - شرح مشكلات الجامع، ١٠٤، وانظر : المرادي - الجنى ، ١٣٣.

بغيرِها مِن اللاّمات؛ إذ المضمَر المجرورُ غيرُ المرفوع، ولو فُتِحت في غيرِ المُضمَرِ لالتبستْ بلامِ الابتداءِ، والفرقُ بالإعرابِ لا يتمّ؛ إذ ربّما يكون الظّاهر مبنيّاً أو موقوفاً عليه"[١].

ورفع اللّبسِ الآتي مِن توهّمِ الأصالةِ والزّيادةِ حاصل بإثباتِ الحرفِ عند إرادةِ الأصالةِ، واطّراحِه عند إرادةِ الزّيادةِ إذا كان إثباتُه يفضي إلى احتمالٍ، وقد يُرفَع بإضافةِ بعضِ العناصرِ البنيويّة لبيانِ المقصد، ومِن ذلك:

١- ما عدتُ بخائبٍ

ما عدت خائباً

ما عدتُ بشيء خائب أو أحدٍ خائب

أمّا رفع اللّبسِ الآتي مِن طولِ الجملةِ فرفعُه حاصلٌ بتهذيبِها وتجليةِ عناصرِها البنيويّةِ، والتّجافي عن تداخلِ المواقعِ البنيويّةِ والتباسِها، والاستعانةِ بعلامات التّرقيم، كالفواصلِ وإشارةِ الاعتراضِ.

أمّا اللّبسُ الآتي مِن اشتباهِ الزّمنِ النّحويّ فرفعُه في الغالبِ قائمٌ على استشرافِ المقاميّاتِ والأنظارِ الخارجيّة، ومِن ذلك: "عفا الله عنك" دعائيّة، و"عفا السّلطان عنك" خبريّةٌ ماضيةٌ، وليس يُنسى أنّ تكاملَ السّياقِ البنيويّ ذو أثر فاعلٍ في تعيينِ الزّمنِ النّحويّ.

أمّا رفع اللّبسِ الآتي مِن اشتراكِ المعاني النّحويّةِ فرفعُه قد يحصلُ بفكّ الصّيغةِ الملبِسةِ لتعيينِ المعنى النّحويِّ المرادِ، واستبدالِها بما يتساوقُ مع المعنى النّحويّ، وإضافةِ بعض العناصرِ البنيويّة، ومِن ذلك:

١-جاء سريّ رغبةً "ملبسة"

جاء سريّ للرّغبة

---

(١) الأسترابادي- شرح الكافية، ٢٩١/٤، وانظر : ابن السراج – الأصول ، ٣٥١/١، السيوطي – الهمع، ٣٧٣/٢.

جاء سريّ يرغب رغبةً

جاء سريّ راغباً

٢-خرجتم جهاداً "ملبسة"

خرجتم مجاهدين

خرجتم للجهاد

٣- لم يعد خائباً "ملبسة"

لم يرجع خائباً

لم يصبح خائباً

٤- أكرمتك ومحمّداً "ملبسة"

أكرمتك مع محمّدٍ

أكرمتك وأكرمت محمّداً

٥- هذا خاتم حديداً "ملبسة متردّدة بين الحال والتمييز"

هذا خاتمٌ مِن حديدٍ

وليس يُنسى إدخالُ ضميرِ الفصلِ، وقد تقدّم حديثٌ عنه.

أمّا اللّبس الآتي مِن المعجمِ كاللَّهَجاتِ والمشترَك، ومنه الأضدادُ والمجالات الدّلاليّة، والدّلالاتُ العائمة، فرفعُه حاصلٌ بغيرِ سبيل؛ كتكاملِ السّياقِ البنيويّ، ومِن ذلك أنّ كلمة "النَّقْد" محتمِلةٌ متردّدة، والمضيّ في استرفادِ عناصرَ بنيويّةٍ يفضي إلى تعيينِ المعنى:

النّقد "ملبسة"

النّقد يملأ الأسواق "ملبسة"

كتب النّقد تملأ الأسواق "ملبسة"

وقد وقف عند ظاهرةِ الأضداد ابنُ الأنباريّ محامياً عن وجودِها، دافعاً شبهةَ التّوهّمِ واللّبس، رادّاً على مَن يقول إنّ اللّفظةَ إذا اعتورها معنيان مختلِفان لمْ يَعرف المخاطَب أيّهما أراد المخاطِب، وسبيلُه فيما تقدّم السّياق؛ ذلك "أنّ كلام العربِ يصحِّح بعضه بعضاً، ويرتبطُ أوّله بآخرِه، ولا يُعرَف معنى الخطابِ منه إلاّ باستيفائِه، واستكمالِ جميع حروفه"(١).

وقد يستعينُ المرسِل بالأقواسِ أو الشّرحِ بالجملِ المعترِضة، ومِن ذلك: فقدّم لنا الجزائريّ ليموناً، والليّمونُ عندهم البرتقال عندنا.

وقد تقدّم أنّ لسياقِ الحالِ فضلاً جليّاً في تحديدِ المعاني المعجميّةِ، والحقّ أنّ كلّ ذلك واجب على المرسِلِ؛ على مَن أراد التّواصل والإبانةَ، "لِيَنوط باللّفظةِ المُشكِلة مِن القرائنِ ما يُخلِّصُ معناها إلى المفهومِ الذي قصده حتّى يكون المعنى مُستبيناً"(٢).

أمّا اللّبس الآتي مِن التّطورِ الدّلاليّ فرفعُه متعذّر في كثيرٍ مِن المواضعِ؛ إذْ إنّ كثيراً ممّا يَرِد على المرءِ في هذه الجهةِ هو مِن نصوصٍ قديمةٍ، و استشرافُ التّراخي بين اللّفظِ ودلالتِه مطلبٌ قد يتعذّر وقوفُ المُتخصّصةِ عليه، أو لأقلْ: وقوفُ بعضِهم، وليس يُنسى أنّ طائفة ممّن يتصدّرون للتّصحيحِ ينصِّبون أنفسهم قوّامين على اللّغةِ وألسنةِ العبادِ، فيشرعون في تخطئةِ كثيرٍ مِن استعمالاتِ الألفاظِ لدِلالاتِها، وحجّتهم في هذا أنّها ممّا نُقِل عن الأصمعيّ وابنِ الأعرابيّ، والمشكلة– مِن وجهةٍ أخرى– أنّ استعمالَ ألفاظِ اليومِ لدلالاتِها أمرٌ قد انعقد عليه الإجماعُ؛ إجماعُ أهل البيئةِ اللّغويّة، وهو أساسُ التّواصل، ولكنّ بعض المتكلّمين أو الكاتبين يفيئون إلى الدّلالاتِ الأولى التي لم يعد للمجتمع اللّغويّ عهدٌ بها. حقّاً أنّها مشكلةٌ

---

(١) ابن الأنباريّ – الأضداد، ٢.

(٢) انظر : القرطاجنيّ – منهاج البلغاء، ١٨٥.

معتاصٌ أمرُها، وأحسب أنّ ممّا يخفّفُ من تجليّاتها "المعجم اللّغويّ التّاريخيّ"، فهو السّجل الشّاملُ لمفرداتِ العربيّةِ: أصيلِها ودخيلِها، ومولَّدِها وحديثِها. والمشكلةُ واقعة في "حديثِها"، ومِن هنا تأتي قيمةُ هذا المطلب العزيزِ؛ إذْ إنّه سيُدخل الدّلالاتِ اللّغويّةَ التي تشيعُ عندنا اليومَ بمعنى مفارقٍ لِما شاع عندنا أمسِ، وليس يعني هذا انتفاءَ اللّبسِ الآتي مِن التّطوّرِ الدّلاليّ.

أمّا اللّبس الآتي مِن الأساليب، فقد يكون مطلباً مِن مَطالبِ المرسِلِ كالذين يشتغلون بالصِّحافةِ والإعلانِ والسِّياسةِ، أو كالذين يتلاعبون باللّغةِ ذاتِها مِن أهلِ الألغازِ، وعند ذلك سيفزعُ هؤلاءِ إلى استفزازِ إمكاناتِ الإلباسِ والتّعمية معتمدين على وسائلَ متنوّعةٍ، ومنها اللّغة، وسيأتي بعْداً -في مطلبِ الحديثِ عن الدّراسةِ التّطبيقيّةِ- فصلٌ للحديثِ عن الألغازِ اللّغويّةِ والملاحنِ، وقد تقدّم أنّ أهلَ الإبداعِ الفنّيّ قد يجنحون إلى بعضِ ما تُقدّمه اللّغة مِن إمكاناتِ الإلباسِ للتّلاعب باللّغةِ لغايات فنيّة، كانفتاحِ الدّلالةِ الشّعريّة.

أمّا اللّبسُ الآتي مِن السّياقِ فقد يُرفَع بعضُه بعنايةِ المرسِلِ "بالتّكييف"، ومِن ذلك أنّ عليه أنْ يكيّفَ كلامَه بما يتواءم مع المتلقّي، ويتمّ هذا المطلبُ التّواصليّ القائمُ على أنّ لكلّ مقامٍ مقالاً بملاحظةِ الموقفِ والزّمانِ والمكانِ والملابساتِ، ومِن أمثلة ذلك "السّياق الثّقافي"، فليس يصحّ في الفهمِ أنْ يَتواصلَ دارسُ الفلسفةِ أو عالمُ اللّغةِ بألفاظِ تخصّصه مع أهلِ العامّةِ أو الشّارعِ،وليس يُنسى أنّ كثيراً مِن السّياقاتِ التي تُستساغ مع الكبيرِ لا تُستساغ مع الصّغير، وأنّ بعض ما تقوله الفتاةُ لأترابِها لا يصلح أنْ يُقال للشّبابِ، وأنّ ما يُقال في معرِض العزاءِ لا يُقال في معرِض الفرحِ، ولو أنّ قائلاً قال في موقفِ عزاء "فرصة طيّبة"، أو في موقفِ الفرح: "عظّم الله أجركم" لغُلِب على أمرِه بالاستهزاءِ والهُجْنةِ المُستقبَحة المرذولة.

ورفع اللّبسِ الآتي مِن دخولِ الطّارئ على السّياق حاصلٌ في أنْ يجلّي المرسِلُ المضمارَ العامّ الذي يدورُ في فلكِه الحدثُ الكلاميّ. أمّا اللّبس الآتي مِن

انسلاخِ الحدثِ الكلاميّ مِن سياقه فهو مطلبٌ يعوزُه رويّةٌ وتدبّر؛ ذلك أنّه مَزلَقةٌ في مواضعَ كثيرةٍ للولوجِ في عالم اللّبسِ.

صفوةُ المُستخلَصِ ممّا تقدّم أنّ اللّبسَ قد يُرفَع بوسائلَ متباينةٍ، ومِن ذلك سياقُ الحالِ، وتكاملُ السّياقِ البنيويّ، وحقائقُ الحياةِ ومنطق الأشياءِ في العالمِ الخارجيّ، والاعتياضُ، كالاستدراكِ الكلاميّ بالجملِ المعترِضةِ، والتّرقيم، وإعادة النظر في هيئة النّظم، وحسبي بعدَ هذا العرضِ قولُ القرطاجنيّ:

" فأمّا طريقُ الحِيَل في إزالةِ الغموض والاشتكالِ الواقعين بهذه الأشياءِ فهي أنْ يُعتاض مِن الشّيءِ الذي وقع به الإغماضُ والإشكال، أوْ أنْ يُقرَن به ما يُزيل الغموضَ والاشتكالَ"[1].

(١) القرطاجنيّ – منهاج البلغاء، ١٧٥.

المطلب الثالث

دراسة تطبيقية

الفصل الأوّل

مُشكِل القرآن ومتشابهُه وغريبُه

مُشكِل الحديث وغريبُه

"مُشكِل القرآن ومتشابِهُه وغريبُه"

لا ريب أنّ للتّنزيل العزيز دوراً جليّاً في نشأة الدّراسات اللّغويّة؛ فقد نزل بلسانٍ عربيّ مُبينٍ على سبيل التّحدي والإعجاز، فأفحم الخصوم أهلَ اللّدد والفصاحة، وأفضى بكثيرين إلى دراسةِ المباحث المتعلِّقة به، ومِنها دراسةُ مشكلِه وغريبه ومتشابهِه. والحقّ أنّ تلكم الدراسات كانتْ متباينةً في وجهاتِها: فمِنها ما يختصّ بدرس المشكِل مِن إعرابِه؛ وذلك نحو "مشْكِل إعراب القرآن" لمكيّ بن أبي طالب، و"البيان في غريب إعراب القرآن" لابن الأنباريّ. ومِنها ما يختصّ بدرس الألفاظ القرآنيّة التي ترادفتْ مبانيها، وتنوّعتْ معانيها "المشترَك اللّفظيّ"، ومنها "الأشباه والنّظائر" لمقاتلِ بن سليمان البلْخيّ، و"التّصاريف" ليحيى بن سلام، و"الأشباه والنّظائر" للثّعالبيّ. ومنها ما وجهتُه في الغالب تجليةُ معاني ألفاظِه، وبيانُ مقاصدِها في سياقِها، ككتب الغريب، كالغريبِ المنسوب إلى ابنِ عبّاس، وغريبِ ابن قتيبةَ والسّجستانيّ، واليزيديّ، ومكيّ بن أبي طالب، والرّاغبِ الأصفهانيّ، وأبي حيّان الأندلسيّ، وابن الهائم المصريّ وغيرِها. والنّاظر في كتب الغريبِ هذه يلاحظ أنّها لم تقتصرْ على درس المفرداتِ؛ إذْ إنّ فيها بعض المسائل الصّرفيّةِ والنّحويّة والأسلوبيّة، ومِنها المصنَّفات التي عُنِي أصحابها بدرس المتشابِهِ لا مِن جهة الإشكال أو التّفاصلِ الواقع في الآيةِ الكريمةِ، بل مِن جهة تشابهِ بعض الآياتِ المتفرّقات،ومِنها "البرهان في توجيهِ متشابِه القرآن" للكرمانيّ، و"ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل، في توجيهِ المتشابِه اللّفظ مِن آي التّنزيل" لابن الزّبيرِ الغرناطيّ"[1] .

---

(١) من ذلك قوله عز:" سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض" [آل عمران، ١٣٣]، وقوله:" سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض" [الحديد، ٢١]. وهذه الكتب لا تتصل بظاهرة اللبس.

ومِنها المصنَّفات التي اتّخذتْ وجهة العموم؛ وذلك نحوِ "تأويل مشكلِ القرآن" لابن قتيبة؛ إذْ إنّ فيه مباحثَ معجميّة وصرفيّة ونحويّة وأسلوبيّة. و"تيجان البيان في مُشكلات القرآن" لمحمّد أمين العمريّ. ومِنها المصنَّفات التي عُني أصحابها بدرسِ علوم القرآنِ، فعرّجوا على المُشكل والمتشابِه منه؛ وذلك نحو "البرهانُ في علوم القرآن" للزّركشيّ، و"الإتقان في علوم القرآن" للسّيوطيّ.

ولعلّه ينبغي للباحثِ قبلَ الشّروع في تلمّس ظاهرة اللّبسِ في تلكم المصنَّفات أنْ يتلبّث عند مصطلحِ المُشْكل والمتشابِه والغريبِ؛ إذْ إنّ فيها تداخلاً لا يخفى على صاحبِ نظر.

أمّا المتشابِه فمادّته "شبه"، والشّينُ والباء والهاء أصل واحد يدلّ على تشابهِ الشّيءِ وتشاكلِه لَوناً ووصفاً،...، والمشبِّهات مِن الأمور: المُشكِلات، واشتبه الأمران إذا أشكلا"[1]، ومِنه قوله- تعالى-: **﴿وأتُوا به متشابِهاً﴾**، أي: متّفقَ المناظر، مختلف الطّعوم[2]، ومنه يُقال: اشتبه عليّ الأمرُ إذا أشبه بغيره، فلم تكدْ تَفْرُق بينهما، ثمّ يُقال "لكلّ ما غمض ودقّ متشابهٌ، وإنْ لم تقع الحَيرة مِن جهة الشّبَه بغيرِه، ألا ترى أنّه قيل للحروفِ المقطَّعة في أوائلِ السّوَر "متشابه"، وليس الشّكّ فيها، والوقوفُ عندها لمشاكلتِها غيرَها، والتباسها بها، ومِثْل "المتشابه" المُشكِل، وسمِّي مُشكلاً: لأنّه أشكل؛ أي دخل في شكل غيرِه، فأشبهه وشاكله، ثمّ قدْ يُقال لِما غمض- وإنْ لم يكن غموضُه مِن هذه الجهة- مشكلٌ"[3].

بدا لي مِن هذا النّصّ المقتبَس آنفاً أنّ المتشابِه والمشكِل إنّما يدلاّن على شيءٍ واحدٍ مِن ناحيةٍ لغويّة، وهما حقّا كذلك، والقُطب الذي تدور عليه دلالتُهما هو "الغموض"؛ فكلّ ما غمض واعتاص متشابِهٌ ومشكِل في الآنَ نفسِه.

---

(١) ابن فارس- مقاييس اللغة ، مادة " شبه".

(٢) انظر : ابن قتيبة- تأويل مشكل القرآن ، ١٠١. الزركشي- البرهان، ٦٩/٢، والآية [البقرة، ٢٥].

(٣) ابن قتيبة- المصدر نفسه، ١٠٢.

وقد قيل إنّ القرآن كلّه مُحكَم لقولِه –تعالى-:**﴿ كتابٌ أُحكمتْ آياتُه﴾**، وقيل إنّه كلّه متشابِه لقوله: **﴿كتاباً متشابِهاً مثاني﴾**، وقيل إنّ القرآن يُقسَم إلى محكَم ومتشابِه لقولِه: –تعالى-:**﴿منه آياتٌ مُحكَمات هنّ أمّ الكتابِ وأخرُ متشابِهات﴾**(1). ولا يخفى أنّ الأدوارَ العقديّة واللّغويّةَ والمعرفيّة تتداخل في هذا الاختلافِ المتقدِّم، ولعلّ مُبتغى مَن قال بإحكامِ القرآنِ بالمطلَق أنْ يرفع عنه التّأويلَ آخذاً بظاهر النّصّ، متجافياً عن تعدّد وجوهِ القول، ومُبتغى مَن قال إنّه كلّه متشابِهٌ أنْ يتّخذ مِن هذا النّظر مَدخلاً للقول باعتقادِه ورأيِه جانحاً إلى التّأويل ورميِ النّظر إلى ما وراء النّصّ وفاءً لِما يصدر عنه مِن فكرٍ واعتقاد.

وقدْ تباينتْ أقوالُ القدماء في المتشابِه تبايناً جليّاً، فقيل إنّ المُحكَم ما عُرِف المراد مِنه، إمّا بالظّهور، وإمّا بالتّأويل. والمتشابِه ما استأثر الله بعلمه، كقيامِ السّاعة، وخروج الدّجّال، والحروف المُقطَّعة في أوائل السُّوَر، وقيل إنّ المُحكَم هو ما وضح معناه، والمتشابِهُ نقيض ذلك، وقيل إنّ المحكَم هو الذي لا يحتمل مِن التّأويل إلاّ وجهاً واحداً، أمّا المتشابِه فهو ما احتمل أوجهاً، وقيل إنّ المحكَم ما كان معقولَ المعنى، والمتشابِهُ ضدّه كاختصاصِ الصّيام برمضانَ دون شعبان، وقيل المُحكَم ما استقلّ بنفسه، والمتشابِه ما لا يستقلّ بنفسه إلاّ بردِّه إلى غيره، وقيل المحكَم ما تأويلُه تنزيلُه، والمتشابِه ما لا يُدرى إلاّ بالتّأويل، وقيل المحكَم هو الذي لم تتكرّر ألفاظُه، والمتشابِه ضدّه، وقيل المحكَم الفرائضُ والوعدُ والوعيد، والمتشابِه القصصُ والأمثال، وقيل المتشابِه هو المنسوخ الذي لا يُعمَل به، وقيل المحكَم ما يعرفه الرّاسخون في العلم، والمتشابِه ما ينفرد الله بعلمه(2).

---

(1) انظر : الزركشي- البرهان ، ٦٨/٢، السيوطي- الإتقان ، ٦٧٥، والآيات تباعاً (هود، ١) (الزمر، ٢٣) (آل عمران، ٧).

(2) انظر معاني المحكم والمتشابه:

يتجلّى مِن تلكم التّعريفات المتعدّدة أنّ القول بالمتشابه مبحثٌ لمّا يُحسَم بعدُ، وأنّ القدماء لم يكونوا سواءً في تحديد رسمِه، وبيانِ المعنى الذي يعتورُه، ولعلّ هذا يُفضي بي ثانيةً إلى رجيعٍ مِن القول مؤدّاه أنّ للأدوار اللّغويّةِ والعقديّة والمعرفيّةِ يداً في ذلك، فما هو مُحكَم عند "زيد" قد يكون متشابِهاً عند "عمْرو"، و"النّاس متنازعون في المُحكَم والمتشابِه، كما همْ متنازعون في مذاهبِهم، لأنّ ما يعدّه المشبِّه مُحكَماً عند الموحِّد مِن المتشابِه، وما يعدّه الموحِّد محكَماً عند المشبِّه بخلافِه، وكذلك القول فيمن يعتقدُ الجبْر، وفيمن يقول بالعَدل"[1].

لعلّ البَون بين المتشابِه والمشكِل إنّما هو راجع إلى أنّ الأوّل مِن مصطلحات علومِ القرآن، وليس الثّاني كذلك، وإنّما هو مصطلح مِن مصطلحات أهل اللّغة، ولكنّ دائرةَ المتشابِه قد انداحتْ للبواعث التي تقدّم القول عليها، فشملتْ متشابِهاً لغويّاً خالصاً، ومتشابِهاً عقديّاً فكريّاً، ولا يعنينا في هذا المقام إلاّ درس المتشابِه اللّغويّ أو المتّصل به بنسبٍ حميم؛ مع استذكار أنّ موجِبَ المتشابِه والمشكِل إنّما هو واحدٌ، وممّا يتّصل بالمتشابِه المشكِلِ اللّفظُ الغريبُ؛ ذلك أنّه مِن غامضِ المشكِل، ومدار المتشابِه والمُشكِل -كما تقدّم قبْلاً- الغموضُ، وقد عدّ السيّد أحمد صقر "تفسير غريب القرآن" لابن قتيبة تتمّة لكتابه "تأويل مشكل القرآن"، فقد قال ابن قتيبةَ: "**وأفردت للغريب كتاباً كي لا يطول**[2]".

ولعلّ القول بأنّ الحروف المقطّعة مِن المتشابِه بعيدٌ؛ ذلك أنّها ليست ممّا تُعورِف على أنّه لغة نتكلّم بها، ولعلّ مقصدِها- والله تعالى أعلم- الإعجازُ والتّحدّي، ولا يصحّ في الفهمِ أنْ يكون المتشابِه ممّا ينفرد الله العليمُ تعالى بعلمه،

الغزالي – المستصفى، ١/٣١١-٣١٢. والزركشي – البرهان ، ٢/٦٩. ابن كثير – تفسير القرآن العظيم، ١/٣٤٤-٣٤٥. أبو حيان – البحر المحيط، ٢/٣٩٦-٣٩٧، السيوطي – الإتقان، ٦٧٥-٦٧٧، الكفوي – الكليات، ٨٤٥-٨٤٦.

(١) القاضي عبد الجبار – متشابه القرآن، تحقيق عدنان زرزور، دار التراث، القاهرة، ١٩٦٩م، ٢٠، ولم يعد القاضي الحروف المقطعة من مثل (آلم ، والمص)، ولا القصص والأمثال من المتشابه.

(٢) انظر: ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن ، ٣٢، وانظر مقدمة المحقق: ١٤.

وأنْ يكون المُحكَم ما يعرفُه الرّاسخون؛ "إذْ ليس في القرآن ما لا تفهمُه العرب"[1]، ولا أنْ يكون المُحكَم الوعدَ والوعيدَ والحلال والحرام، والمتشابهُ القصص والأمثال[2]، ولا أنْ يكون المحكَمُ هو النّاسخ، والمتشابِه هو المنسوخ؛ إذْ إنّ المنسوخ قدْ يكونُ ممّا يدلّ ظاهرُه على المراد، فيكون محكَماً فيما أريد به وإنْ نُسِخ، وقد يكون النّاسخ غيرَ مستقلٍّ بنفسه متشابهاً[3].

وقد استجمع الرّاغبُ الأصفهانيّ الأقوالَ في هذه المسألة في نصٍّ مشرِق الدّلالة مُبين، فرأى رأيَ بعض الفقهاءِ في أنّ المتشابِه مالا ينبِئ ظاهره عن مرادِه[4]، وقدْ ذهب إلى أنّه يتردّد بين ثلاثةِ معالم: أوّلها التّشابهُ الآتي مِن جهة اللّفظ، وثانيها التّشابه الآتي مِن جهةِ المعنى، وثالثُها التّشابه الآتي مِن جهتهِما. أمّا المتشابِه مِن جهة الأوّل فهو ضربان: ضربٌ يرجع إلى الألفاظِ المفردَة، وذلك إمّا مِن جهة غرابتِه اللّفظيّة، ومنه(الأبّ، ويزفّون)، وإمّا مِن جهة الاشتراكِ اللّفظيّ، ومنه(العين ، واليد). والضّرب الثّاني يرجع إلى النّظْم كالاختصارِ والبسط والتّقديم والتّأخير[5].

أمّا التّشابه الآتي مِن جهة الثّاني(المعنى) فهو مرتبط بأوصافِ الله عزّ وجلّ، وأوصافِ يوم القيامة؛ ذلك أنّ تلك الصّفاتِ لا تُتَصوّر لنا، ولا نعي مدلولَها؛ إذ كان لا يحصل في نفوسِنا صورة ما لمْ نحسّه، أو لم يكن مِن جنسِ ما نحسّه[6].

وأمّا التّشابه الآتي مِن جهة اللّفظ والمعنى فهو على خمسة أضرب: أوّلها مِن جهة الكمّيّةِ، كالعموم والخصوصِ، وثانيها مِن جهة الكيفيّةِ، كالوجوب والنّدب،

---

(١) انظر: الغزالي– المستصفى، ٣١٤/١.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ٣١٢/١.

(٣) انظر: القاضي عبد الجبار– متشابه القرآن، ٢٠.

(٤) انظر: الراغب – المفردات، ٢٥٤.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ٢٥٤.

(٦) انظر: المصدر نفسه، ٢٥٤.

وثالثُها مِن جهةِ الزّمان، كالنّاسخِ والمنسوخ، ورابعُها مِن جهةِ المكان والأمورِ التي نزلتْ فيها، وخامسُها مِن جهة الشّروط التي يصحّ بها الفعل أو يفسد، كشروط الصّلاة[١].

أمّا مسألة الوقوفِ على المتعيّن مِن المتشابِه فقد اختُلِف فيها، والمفارقةُ اللّطيفة في هذا المقام أنّ الآية التي تتضمّن القول الفصلَ في المحكَم والمتشابِهِ متشابهةٌ:

﴿وما يعلم تأويلَه إلاّ اللهُ والرّاسخون في العلمِ يقولون آمنّا به﴾[٢]".

وقد اختُلِف في الواو في هذه الآية الشّريفة أهي للقطع أم للعطف؛ فمِنهم مَن رجّح كونَها استئنافيّة، وأنّ الوقف على "إلاّ الله":

"وما يعلم تأويله إلاّ الله Δ والرّاسخون في العلم يقولون"

والوقف ههنا تامّ، وما بعدَه منقطِعٌ عمّا قبله، و"الرّاسخون" مبتدأ مرفوع وخبره: "يقولون"، ومِنهم مَن رجّح كونَها عاطفةً؛ إذْ إنّ الله لم يكلّفْ الخلق بما لا يعلمون، ويكونُ "الرّاسخون" في هذه الحالِ مرفوعاً بالعطف على الله تعالى جدُّه، و"يقولون" في محلّ نصبٍ على الحال[٣]، والمعنى أنّهم يعلمون.

وبعدُ:

فما تقدّم قبْلا بسطٌ للقول فيه بيانٌ لمعنى المتشابِه وما يشتمِل عليه، ويبقى لهذا البيانِ مُستأنَفٌ مضمارُه تخصيص القولِ على مُثُلِ الإشكالِ واللّبسِ في مصنّفات المتشابِهِ.

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ٢٥٥.

(٢) الآية (آل عمران، ٧).

(٣) انظر فيما قيل حولها:

الفراء- معاني القرآن ١٩١/١، النحاس- القطع والائتناف، ٢١٢- ٢١٣، النحاس- إعراب القرآن، ٣٥٥/١، مكي - مشكل إعراب القرآن ، ١٤٩/١، الداني - المكتفى، ١٤١، ابن الأنباريّ- إيضاح الوقف والابتدا، ١/ ٥٦٥، البيان، ١٩٢/١، الزركشي - البرهان، ٧٢/٢-٧٣، أبو حيان- البحر المحيط، ٤٠٠/٢، الأنصاري- المقصد، ٢٢.

أوّلاً: الإشكال الصّوتيّ:

تبيّن قبْلاً أنّ النّظام الكتابيّ يقصِّر عن تمثيل ظواهرَ صوتيّة فونيميّة، وأنّ ذلك يؤذن بتشاكل الأساليب مِن وجهةٍ كتابيّة، واشتباهِها مِن وجهة صوتيّة:

﴿ما أغنى عني مالِيَه﴾[١]

يتباين المعنى المكتنِف هذا التّركيبَ الشّريف بتباين التّنغيم، فقد يكون محضَ نفي، وقدْ أخبر بذلك متأسّفاً على مالِه الذي لم ينفعْه، وتكون "ما" في هذا السّياق نافيةً لا موضعَ لها. وبهيئةِ تنغيم آخرَ لا يتجلّى إلاّ في المستوى النّطقيّ تكون "ما" استفهاميةً في موضع نصبٍ، لأنّها مفعول "أغنى"؛ والتّقدير: "أيّ شيءٍ أغنى عني مالِيَه". وهذا استفهامٌ فيه توبيخٌ للنّفس وتأنيب[٢]. والظّاهر أنّ ثمّ باعثَين يلتقيان على بعث اللّبس، وينبني تاليهما على أوّلِهما، وهما غيابُ التّنغيم، وغيابُه هذا سبيل إلى جعل "ما" محتمِلة في سياقِها الكتابيّ المجرَّد.

﴿حكمةٌ بالغةٌ فما تُغن النُّذُر﴾[٣]

يظهرُ في هذه الآية الشّريفة -كسابقتها- أنّ غياب التّنغيم أفضى إلى اشتمالِها على معنيين؛ أوّلهما أنْ تكون "ما" نافيةً لا موضع لها، وثانيهما في موضع نصبٍ بــ "تُغني"، والمعنى: أي شيءٍ تغني النُّذُر[٤]؟

﴿ولا يحلّ لكم أنْ ترثوا النّساء كرْهاً ولا تَعضلوهُنّ﴾[٥]

يتضافر عنصران صوتيّان في نشوءِ اللّبس، وهما الوقفُ والتّنغيم، ولعلّ في التّمثيل الآتي فضلَ بيان يجلّي:

---

(١) الآية (الحاقة، ٢٨).

(٢) انظر: النحاس – إعراب القرآن ٢٣/٥، ابن الأنباريّ – البيان،٤٥٨/٢ العكبري – التبيان،٢/ ١٢٣٧، أبو حيان – البحر المحيط، ٣١٩/٨.

(٣) الآية (القمر، ٥).

(٤) انظر النحاس – المصدر نفسه، ٢٨٦/٤، مكي – مشكل إعراب القرآن ، ٦٩٧/١، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٤٠٣/٢، العكبري – المصدر نفسه،١١٩٢/٢.

(٥) الآية (النساء، ١٩).

" ولا يحلّ لكم أن ترثوا النّساء كرهاً ∆ ولا تعضلوهنّ"

إنّ الوقف الكافي[1]عند "كرها" يفضي إلى انفساخِ التّركيب، فيكونُ المعنى الشّريف، مع تمثّلِ هذا الوقف أوّلاً، وبروزِ تنغيمٍ جديد ثانياً، نهياً، والفعل "تعضلوهنّ" مجزوماً بـــ "لا"، والواو عاطفةٌ جملةً طلبيّة على أخرى خبريّة.

ولا يحلّ لكم أنْ ترثوا النّساء كرها ولا تعضلوهنّ∆

وإذا لم نتمثّلْ هاتين الظّاهرتين الصّوتيّتين – أعنى الوقف والتّنغيم، وظلّتْ هيئة التّصويت على درجةٍ ذات تساوق، فإنّ "لا" نافية، و"تعضلوهنّ" منصوبٌ عطفاً على "أنْ ترثوا"، وتكون الواو عاطفةً فعلاً على فعلٍ[2]، والمعنى: "لا يحلّ لكم أنْ ترثوا النّساء وأنْ تعضلوا".

﴿ قلْ تعالَوا أتلُ ما حرّم ربُكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً﴾[3]

يتباين فهمُ المتعيّن في صورته التّركيبيّة بتباين موضعِ الوقف في هذه الآيةِ الشّريفة، فقد يكونُ الوقف الكافي بعد "عليكم"[4]: "قلْ تعالَوا أتلُ ما حرّم ربّكم عليكم ∆ ألاّ تشركوا به شيئاً"، ويكون المصدر المؤوّلُ في محلٍّ رفع خبرٍ لمبتدأ محذوفٍ[5]، والتّقدير: هو ألاّ تشركوا، وقد يكونُ الوقف بعد ربّكم: "قل تعالَوا أتلُ ما حرّم ربّكم ∆ عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً"، ولا ريبَ أنّ ثمّ بوناً معنويّاً جليّاً يفضي إليه تباين موقع الوقفِ في هذا السّياق الشّريف؛ فالمصدر "ألاّ تشركوا"مع تمثّلِ

---

(١) انظر: ، النحاس – القطع والائتناف، ٢٤٨، الداني – المكتفى، ١٥٣، الأنصاري –المقصد ، ٢٧.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ٢١٣/٣، وقد أشار إلى الوجهين الفراء – معاني القرآن، ٢٥٩/١ النحاس– إعراب القرآن، ٤٤٣/١– المصدر نفسه، ٢٤٨، الداني – المصدر نفسه ، ١٥٣/٢، ابن الأنباريّ – البيان، ٢٤٧/١، العكبري –التبيان،١/ ٣٤٠، الأنصاري– المصدر نفسه، ٢٧.

(٣) الآية (الأنعام، ١٥١).

(٤) انظر: النحاس – المصدر نفسه، ٣٢٦.

(٥) انظر: النحاس – المصدر نفسه، ١٠٦/٢، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٣٤٩/١ العكبري –المصدر نفسه،١/ ٥٤٨.

الوقفِ بعد "عليكم" منصوبٌ على الإغراء، والعامل فيه "عليكم"، والمعنى: الزموا تركَ الشّرك[1].

وقد يُطّرَح الوقف في هذه الآية الكريمة، فتصبح: "قل تعالَوا أتلُ ما حرّم ربّكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً ∆"، ويكون المصدرُ "ألاّ تشركوا" بدلاً مِن "ما"، أوْ مِن الضّمير المحذوفِ مِن "ما حرم"؛ إذ تقديره: ما حرّمه، وتكون "لا" زائدةً ههنا[2]. وقد يكون التّقدير: "لئلاّ تشركوا به شيئاً"[3]، وقد ضعّف أبو حيّانَ هذا الوجهَ؛ ذلك أنّ ما جاء بعده "وبالوالدَين إحساناً" أمرٌ معطوف بالواو، فلا يناسبُ أنْ يكون تبييناً لِما حرّم، وضعّف وجهَ النّصب على الإغراء[4]: "ما حرّم ربُّكم ∆ عليكم ألاّ تشركوا"، وإخال أنّ هذا وجهٌ حسنٌ لا يُدفَع؛ إذ إنّه خيرٌ مِن تقدير زيادة "لا"، أو عدِّها ناهيةً أُدْخِلتْ عليها "أن"[5].

﴿قال فإنّها محرَّمة عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض﴾[6].

"أربعين" في سياقِها ظرف زمانٍ، وقد اختُلِف في عاملِها، والفاصل في هذا هو معرفةُ موقعِ الوقف: "قال فإنّها محرَّمة عليهم ∆ أربعين سنةً يتيهون في الأرض"، والمعنى المتعيِّن بعدَ تمثُّلِ هذا الوقف أنّها محرَّمة عليهم أمداً غير محصورٍ، وهم مع هذا يتيهون في الأرضِ أربعين سنة[7]، وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخير، والأصل–والله أعلم–: "يتيهون في الأرضِ أربعين سنة".

---

(١) انظر: ابن الأنباريّ – البيان، ٣٤٩/١، العبكري – التبيان، ٥٤٨/١، أبو حيان – البحر المحيط، ٢٥١/٣.

(٢) انظر: ابن الأنباريّ– المصدر نفسه ، ٣٤٩/١، العكبري– المصدر نفسه، ٥٤٨/٢، أبو حيان – المصدر نفسه، ٢٥١/٣. وقد ذهب النحاس ومكي في هذا الوجه إلى أن المصدر " ألا تشركوا" بدل من " ما". انظر: إعراب القرآن ، ١٠٦/٢، القطع والائتناف ٣٢٦، مشكل إعراب القرآن،١/ ٢٧٧.

(٣) انظر: النحاس – المصدر نفسه، ١٠٦/٢، القطع والائتناف، ٣٢٦، أبو حيان – المصدر نفسه، ٢٥١/٣.

(٤) انظر: أبو حيان – المصدر نفسه، ٢٥١/٣.

(٥) انظر: الفراء – معاني القرآن، ٣٦٤/١.

(٦) الآية (المائدة،٢٦).

(٧) انظر: الداني – المكتفى، ١٦٥، ابن الأنباريّ– البيان، ٢٨٩/١، الزركشي– البرهان، ٣٤٥/١، الأنصاري – المقصد ، ٣١.

وقد يكونُ الوقف على "يتيهون في الأرضِ": "قالَ فإنّها محرَّمة عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرضΔ"، والمعنى أنّ التّحريم والتّيهَ كان أمدهما أربعين سنةً[1].

وقد يكونُ الوقف على "أربعين سنةً": "قال فإنّها محرَّمة عليهم أربعين سنةً Δ يتيهون في الأرض"، ومعناه أنّ التّحريمَ كان أربعين سنةً، وأنّ "يتيهون" مُسْتأنَف[2]. ولا يخفى أنّ لهذه المفاصلِ الصّوتيّة يداً في توجيهِ المعنى وتعدّدِ احتمالاتِه، وقد كان للتّقديم والتّأخير في هذا التّركيبِ دورٌ في علوِّ درجة اللّبْس.

﴿ وما يُشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾[3]

قد يقف القارئ وقفاً تامّاً عند "يُشعركم": "**وما يشعركمΔ إنّها إذا جاءت لا يؤمنون**"، فيكونُ الكلام الأوّل مكتفياً، وتكونُ الهمزة مكسورةً؛ ذلك أنّها منقطعةٌ عمّا قبلها، و"ما" استفهاميّة في موضعِ رفع بالابتداءِ، وفي "يشعركم" ضمير يعود إلى "ما"، ويُقدَّر مفعول ثانٍ محذوف، والمعنى: أيّ شيءٍ يُشعركم إيمانَكم. وقد يتمثّل موقع الوقف في:

وما يشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنونΔ

فتكون الهمزةُ مفتوحةً، والتّركيب غيرَ منقطع، سواءً أقدّرنا أنّ معنى "أنّها" هو "لعلّها"، أم قدّرنا زيادة "لا"، والمعنى على هذا النّحو: "أنّها لو جاءتْ لم يؤمنوا"، والهمزة متعلِّقةٌ بما قبلها، والمصدرُ في محلّ نصبِ مفعولٍ به. وقد أجيز الوقفُ على "يُشعركم": "**وما يشعركمΔ أنّها إذا جاءت لا يؤمنون**"، والابتداء (بأنّ) مفتوحةَ الهمزة، والمعنى "لعلّها"، فقد حكى الخليلُ عن العرب: إيتِ السّوق أنّك تشتري كذا،

(١) انظر: الداني- المكتفى، ١٦٤.

(٢) انظر: النحاس – القطع والائتناف، ٢٨٥، الداني- المصدر نفسه، ١٦٤.

(٣) الآية (الأنعام، ١٠٩).

بمعنى: لعلّك[١]. وقد رأى الكسائيّ أنّ "وما يشعركم" ليس بوقف؛ إذْ إنّ المعنى عندَه: وما يشعركم بأنّها إذا جاءت يؤمنون، "ولا" زائدةٌ عنده[٢].

ثانياً: الإشكال الصّرفيّ:

يَرِد المرء على آياتٍ كريمة فيها لَبس آتٍ مِن هذه الجهة، وقد تنبّه المصنِّفون في غريب القرآن ومشكلِه لهذا الملحظ؛ ذلك أنّ كثيراً مِن الصّيَغ الصّرفيّة تتناوب، فقد تُقام صيغة مُقام أخرى، والإشكالُ يقع مِن جهة أنّ لكلّ صيغةٍ في العربيّة معنى مخصوصاً. ولعلّ في الأمثلة الآتيةِ فضلَ بيانٍ:

﴿لا تسمعُ فيها لاغيةً﴾[٣]

يظهر أنّ تركيب هذه الآيةِ سهل ميسَّر، ولكنّ الإشكال واقعٌ في معنى الصّيغة الصّرفيّة؛ ذلك أنّ المعنى المعجميّ لا يكفي لتحديدِ المتعيِّن مِنها. فالقالَب التّصريفيّ الذي جاءتْ فيه المادّة المعجميّة "لغا" هو اسم الفاعلِ، وبهذا يكون المعنى: لا تسمع فيها كلمةً لاغيةً، أو جماعةً لاغية، أو قائلةً لغواً. وقد يكون المتعيِّن مِن هذه الصّيغة الصّرفيّة "لغواً"، أي أنّ الصّفة قامتْ مقامَ المصدر[٤]، والحقّ أنّ هذين المعنَيين المُكتنفَين صيغة "فاعلة: لاغية"، لا يُدافع أحدُهما الآخر في هذا السّياقِ الشّريف.

---

(١) انظر القول على هذه الآية: سيبويه – الكتاب، ١٢٣/٣، الفراء – معاني القرآن، ٣٥٠/١، النحاس –القطع والائتناف، ٣١٩، إعراب القرآن، ٩٠/٢، مكي – مشكل إعراب القرآن، ٢٦٥/١، الداني– المكتفى، ١٧٧، ابن الأنباريّ– إيضاح الوقف والابتداء، ٦٤٢، البيان ، ٣٣٤/١ العكبري– التبيان،٥٣٠/١-٥٣١، أبو حيان – البحر المحيط، ٢٠٣/٤-٢٠٥، الأنصاري – المقصد، ٣٥.

(٢) انظر: ابن النحاس – المصدر نفسه، ٣١٩.

(٣) الآية (الغاشية،١٠).

(٤) انظر ما قيل حولها: الفراء – المصدر نفسه، ٢٥٧/٣، وقد ذهب إلى أن المعنى "حالفة على كذب، أبو عبيدة – مجاز القرآن، ٢٩٦/٢، والمعنى عنده: " لغواً"، معاني القرآن – الأخفش، ٥٧٧/٢، والمعنى عنده: " كلمة لغو"، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٥٢٥. وقد ذهب إلى المعنيين، ابن عزيز – نزهة القلوب، ٤٨١، وقد ذهب إلى المعنيين، اليزيدي – غريب القرآن، ١٧١، والمعنى عنده: " لغواً"، ابن الهائم – التبيان ، ٤٦٠، وقد ذهب إلى المعنيين ، أبو حيان – المصدر نفسه، ٤٥٨/٨، وقد ذهب إلى المعنيين، ابن منظور – اللسان، مادة "لغا".

﴿اركضْ برجلِك هذا مُغتسَل بارد وشرابٌ﴾[1]

موضع المباحثة في هذا الآية الشّريفة "مغتسَل"؛ ذلك أنّها صيغة متردّدة بين معنيين في هذا السّياق، وهما اسم الموضع الذي يُغتسَل فيه، وقد صيغ مِن غير الثّلاثي، فضُمّ أوّله، وفُتِح ما قبل آخره. وقيل إنّه "الغَسول"، وهو الماء البارد الذي يُغتسَل به[2].

﴿إنّه كان وعدُه مأتيّاً﴾[3]

تباين القولُ على معنى هذه الصّيغة، ولا يخفى أنّها اسم مفعول اكتنفه إعلالٌ فصار على هذه الهيئة، ولكنّ المساءلة في هذا السّياقِ مضمارها معناه؛ أهو اسم فاعل في ثوبِ اسم مفعول، أم أنّه على الصّورة المرسومةِ التي أتى عليها؟

١- إنّ وعده كان آتياً، وهو وجه صالح لا يُدفَع.

٢- إنّ وعده كان مأتيّاً، وهو كمثْلِ سابقه.

والمعنى أنّ الوعد هو الجنّة، وهم يأتونها، وقد خطّأ الرّاغب الأصفهانيّ قول مَن عدّه اسم فاعل "آتيًا"، والمعنى عنده أنّه مفعول، وليس شيء يسند تخطئتَه[4].

﴿لا عاصمَ اليومَ مِن أمرِ الله﴾[5]

وهذه الآية كسابقتها، ولكنّ الأمر بالضّدّ، فالصّيغة اسم فاعل، وقد جاءت متردّدة بين معنيين؛ بين اسمِ الفاعل الذي جاءتْ عليه، واسم المفعولِ الذي جاء في

---

(١) الآية (ص ، ٤٢).

(٢) انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن، ١٨٥/٢، ابن قتيبة–تفسير غريب القرآن، ٣٨٠ ابن عزيز – نزهة القلوب، ٤٣٢، الراغب– المفردات، ٢٠٢. أبو حيان – تحفة الأريب، ١٩٨، البحر، ٣٨٤/٧. ابن الهائم –التبيان، ٣٦٠ ، ابن منظور –اللسان، مادة " غسل" وقد ذكروا كلهم أن هذه الصيغة مترددة بين ذينك المعنيين.

(٣) الآية (مريم، ٦١).

(٤) انظر الراغب– المصدر نفسه، ٩، ابن قتيبة – المصدر نفسه، ٢٧٤، ابن عزيز– المصدر نفسه، ٤٠٥، وقد عده اسم فاعل، "آتياً"، وقال الفراء فيه: "ولم يقل آتياً فكل ما أتاك فأنت تأتيه، انظر معاني القرآن، ١٧٠/٢. الزمخشريّ– الكشاف، ٥١٥/٢، أبو حيان– المصدر نفسه، ١٩١/٦، ابن منظور– المصدر نفسه، مادة "أتي".

(٥) الآية (هود، ٤٣).

صيغة اسم الفاعل، ولا ريبَ أنّ بَوْناً بين المعنيين كبيراً، وقد قيل إنّ المعنى: "عاصم: فاعل"، أي لا مانعَ ولا أحدَ يعصم مِن أمر الله، وقيل إنّ المعنى الذي يكتنف هذه الصّيغة "معصوم: مفعول"، والمراد: لا معصومَ اليومَ، وكلاهما مُتقبَّل[١].

وقد يكون للعوارضِ التّصريفيّة دور في نشوء اللّبس، ومِن ذلك:

﴿ولا يُضارّ كاتبٌ ولا شهيدٌ﴾[٢]

موضع المباحثة في هذه الآية "يُضارّ"؛ ذلك أنّها بنية سطحيّة محتمِلة، وقد وقع تحتها معنيان: ولا يُضارِر، ولا يُضارَر، ولا يتجلّى المعنى إلاّ في البنيةِ العميقة، ولكنّها مُغيَّبة مِن هذا العارض التّصريفيّ الذي أفضى إلى إدغامِ الرّاءين معاً، فاتّحدتْ صيغة المبنيّ للمعلوم "يُضارِر"، مع صيغة المبنيّ للمجهول "يُضارَر" مخلِّفةً وراءها لَبساً، والمعنى الكلّيّ أنّه نهي للكاتبِ والشّهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب مِنهما، وعن التّحريف والزّيادة والنّقصان. وقد يكونُ المعنى ألاّ يُضارَر الكاتب والشّهيد؛ وذلك نحو ألاّ يُعطى الكاتبُ حقّه مِن الجُعْل، أو أنْ يُحمَّل الشّهيد مُؤْنة مجيئه مِن بلد[٣]، أو يُعنفا ويُشَقّ عليهما في ترك أشغالِهما، ويُطلَب مِنهما ما لا يليق في الكتابة والشّهادة[٤]. وقد ذهب ابن قتيبةَ إلى المعنيين[٥]، أمّا الفرّاء فقد ذهب إلى المعنى: ألاّ يُدعى الكاتب وهو مشغولٌ ولا الشّهيد[٦]، ولم يذهب إلى غيرِ

---

(١) انظر: الفراء – معاني القرآن، ١٥/٢، ابن قتيبة– تفسير غريب القرآن، ٢٠٤، والمعنى عنده: " معصوم" ابن عزيز – النزهة، ٣٢٦، ابن الهائم– التبيان ، ٢٣٤، والمعنى عنده: لا مانع، الزمخشريّ– الكشاف، ٢٧١/٢، أبو حيان – البحر، ٢٢٧/٥، ابن منظور – اللسان، مادة عصم.

(٢) الآية (البقرة–٢٨٢).

(٣) انظر: الزمخشريّ – المصدر نفسه، ٤٠٤/١.

(٤) انظر: أبو حيان – البحر المحيط، ٣٧٠/٢.

(٥) انظر: ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ١٠٠

(٦) انظر: الفراء، معاني القرآن، ١٨٧/١.

هذا الوجه، ولكنّ هذا لا ينفي الوجهَ الآخر البتّة، فكلاهما متقبّل في سياقه، وقد ذهب إليهما النّحّاس أيضاً[1].

﴿وأنّ المَساجد لله فلا تدعوا مع اللهِ أحداً﴾[2]

موضع النّظر ههنا "المساجد"، ففيها دلالة على أثر العوارضِ التّصريفيّة التي تفضي أحياناً إلى تشاكل صيغتين في صيغةٍ واحدة محتملةٍ؛ ذلك أنّ "المساجد" صيغة تدلّ على الجمع، واحدها "مَسْجِد"، وقد يكون "مَسْجَداً"، ولمّا حَدَث عارض الجمع اشتركتْ الصّيّغتان في المبنى مع افتراقهما في المعنى. وإذا كانتْ المساجد جمع "مَسْجَد" احتمل أنْ يكون المعنى "السّجود"؛ ذلك أنّنا نقول سجدتُ سجوداً ومَسْجَداً، كما يقال: ضربتُ في الأرض ضَرباً ومَضْرَباً، ثمّ جُمِع فقيل "المساجد"، وقد يكون المعنى أيضاً الآراب التي يسجدُ عليها الإنسان، واحدها: "مَسْجَد" بفتح الجيم، وهي الجبهةُ والأنف واليدان والرّكبتان والقدمان، وإذا كانتْ المَساجد جمع "مَسْجِد"، فالمتعيّن مِن هذا الجمع هو البيوتُ المعدَّة للصّلاة والعبادة، وقد يكون المعنى: كلّ موضعٍ يُسجَد فيه، فهو مَسْجد كان ذلك مخصوصاً أو لمْ يكن، لأنّ الأرض كلّها مَسجِد[3].

وعلى صعيد صرفيّ آخرَ يكون لتوهّم الأصل الاشتقاقيّ نصيب في وقوع اللّبس:

﴿وانظرْ إلى طعامِك وشرابِك لم يتسنّهْ﴾[4]

اختُلِف في أصل هذا الفعل، فقيل إنّ الهاء زائدة في الوقفِ، وأصلُه "يتسننّ" على هيئة "يتفعّل"، بثلاث نونات، فأَبدلَ مِن الثّالثة ألفاً لتكرّر الأمثال، فصار

---

(١) انظر: النحاس – إعراب القرآن، ٣٤٦/١.

(٢) الآية : (الجن،١٨).

(٣) انظر: الفراء– معاني القرآن، ١٩٤/٣، والمعنى عنده: بيوت العبادة، ومساجد الرجل، ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ٤٩١، والمعنى عنده: السجود، جمع مَسْجَد، ابن عزيز – نزهة القلوب، ٤١٤، ابن الهائم، التبيان ، ٤٣٠، والمعنى عندهما: بيوت العبادة ومساجد الرجل، الزمخشريّ – الكشاف ، ١٧٠/٤ أبو حيان – البحر المحيط، ٣٤٥/٨.

(٤) الآية (البقرة، ٢٥٩).

"يتسنّى"، ثمّ حُذِفتْ الألف للجزم: "لمْ يتسَنّ"، ثمّ جيىء بالهاء بياناً لحركة النّون في الوقفِ، والمعنى أنّ ريحه وطعمَه لم يتغيَّرا. ويَحتمِل أنْ يكون معناه: لم يتغيَّر بممرِّ السّنين عليه، أو لمْ تمرّ عليه السّنون التي مرّتْ عليه، فهو بحاله كأنّه لمْ يلبثْ مئة سنة[١]. وفي هذا التّوجيه تكون الهاءُ أصليّة غيرَ مُطّرَحة في الوقفِ أو الوصلِ، واللّفظ مأخوذاً مِن السَّنَه، فيقال: سانهت النّخْلةُ، إذا حملتْ عاماً وحالتْ عاماً، وقد رجّح الفرّاء هذا الوجه[٢]، وقد ذهب أبو عبيدةَ إلى تخطئة مَن عدّها مِن "الأسِن" المتغيّر، ولو كان ذلك كذلك عنده لكانت: ولمْ يتأسّن[٣]. والحقّ أنّ في هذين المعنيين تداخلاً، ولكنّ الوقوف على الأصل الاشتقاقيِّ الذي إليه تنتسبُ الكلمة مطلبٌ له خطره في الوقوف على المتعيِّن.

﴿وهمْ يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾[٤]

اختُلف في معنى المِحال، فقيل إنّه الكيد والمكر، أو العقوبةُ والنّكال، وقيل هو مأخوذ مِن القوّة، وقد ذهب الزّمخشريّ إلى أنّ المعنى الكلّيّ هو شدّة المكايَدة والمماكَرة، ومِنه تمحّل فلان لكذا، إذا تكلّف في استعمالِ الحيلةِ واجتهد فيه، وجوّز أنْ يكون المتعيّن أنّه شديد العقابِ، فيكون مَثلاً في القوّة والقدرة[٥]، وقد ذكر صاحب اللِّسان أنّ المِحال هو "الكيد ورَوْم الأمر بالحِيَل،...، والمِحال: التّدبير، والمماحلة: المماكرة والمكايدة، ومنه قولُه-تعالى-:"شديد المِحال"[٦]، ولكنّه لمّا

---

(١) انظر: الزمخشريّ –الكشاف، ٣٩٠/١.

(٢) انظر: الفراء – معاني القرآن، ١٧٢/١، والمعنى عنده: لم تغيره السنون، ومن وصله بغير هاء جعله من المساناة ، لأن " لام" سنة تعتقب عليها الهاء والواو ، فتكون الهاء في هذه الحال زائدة.

(٣) انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن، ٨٠/١، وانظر فيما قيل فيها: الأخفش – معاني القرآن، ١٩٧-١٩٨، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٩٤-٩٥. ابن عزيز – نزهة القلوب، ٤٨٤، النحاس- إعراب القرآن، ٣٣٢/١، مكي – مشكل إعراب القرآن، ١٣٨- العمدة- ٩٣، ابن الأنباريّ – البيان، ١٧١/١ الزمخشريّ –الكشاف، ١/ ٣٩٠، العكبري – التبيان،٢٠٩/١، ابن الهائم- التبيان، ١٣٧، ابن منظور – اللسان، مادة " سنن"

(٤) الآية (الرعد، ١٣).

(٥) انظر: الزمخشريّ – المصدر نفسه، ٣٥٤/٢ أبو حيان – البحر ، ٣٦٧/٥.

(٦) انظر: ابن منظور – اللسان، مادة " محل"

عرّج على رأي للقتَيبيّ يذهب فيه إلى أنّ معنى شديد المحالِ هو شديد المكرِ والكيد نقل قول الأزهريّ في تفنيدِه، وعدّه غلطاً فاحشاً، فليس "شديد المحال" مِن الحيلةِ؛ ذلك أنّ مِفْعَلاً إذا كان مِن بنات الثّلاثة فإنّه يجيىء بإظهار الواو والياء؛ مثل "المِزْوَد" و"المِحور".

إخال أنّ ثمّ خلطاً بين معاني مادّتي "محل"و"حيل"، فالمَحْل ذو دلالةٍ على القوّة والشّدّة، والحَيْل كذلك، ولكنّ الأخيرة امتازتْ بكلمة فيها معنى المُخادَعة والمكرِ "الحيلة". ومِن هنا وقع الخلطُ بين المعنيين؛ فذهب ابن قتيبةَ إلى أنّ المعنى في هذه الآيةِ هو الكيدُ والمكر فقط، وأصلُ المِحال عنده: الحيلة[1]، وقد زاوج بين المعنيين أبو عبيدةَ، فرأى أنّها بمعنى العقوبةِ والمكر والنّكال[2]، وقد عدّها اليزيديّ مِن المماحلة: المجادلة[3]، وقد تردّد ابن عزيز بين المعنيين: العقوبةِ والنّكال، أو المكرِ والكيد[4]. أمّا مكّيّ فقد ذهب إلى أنّها بمعنى العقاب[5]، واكتفى العكبريّ بأنّها القوّة فقط[6]، والصّفوةُ ممّا تقدّم آنفاً أنّ الذي جَنَح إلى أنّها القوّة والعقوبةُ والنّكال فاء إلى مادّة "المحل"، وأنّ مَن قال المماكرة والمكايدة فقدْ ذهب إلى "الحيلة"، وبَونٌ بين المعنيين جليّ.

ثالثاً: الإشكال التّركيبيّ:

وفي مضمار المستوى التّركيبيّ ألفى المصنِّفون في مشكِل القرآن ومتشابِهه تراكيبَ محتمِلة، فشرعوا يعرّجون عليها بالتّنبيهِ والتّوجيه ما استطاعوا إلى ذلك

---

(1) انظر: ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٢٢٦.

(2) انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن، ٣٢٥/١.

(3) انظر: اليزيدي – غريب القرآن ، ٨٩.

(4) ابن عزيز– النزهة، ٤٤١.

(5) انظر: مكي – العمدة ، ١٦٦.

(6) انظر: العكبري – التبيان، ٧٥٤.

سبيلاً، وقد تعذّر عليهم هذا المَطلب في بعضِ الأحايين، فلم يكن بمُكْنتهم إلاّ بسط الوجوهِ المحتمِلة، والوقوف عند نهايةٍ مفتوحة:

١- مرجع الضّمير:

﴿ولكنّ البرّ مَن آمن باللهِ واليوم الآخر والملائكة والكتابِ والنّبيّين وآتى المالَ على حبّه﴾[١]

موضع النّظرِ في هذه الآية الشّريفةِ الضّمير في "حبّه"؛ ذلك أنّ قواعد المطابقة تُجيز عودَه على غيرِ مرجع، فملامحُه تتّفق وأسماءً تقدّمتْه؛ فقد يكون عائداً على المال، والمصدرُ مضافاً إلى المفعولِ: وآتى المالَ على حبّ المال، وقد يكون عائداً على "مَن"، فيكون المصدرُ مضافاً إلى الفاعل، والمعنى: "وآتى المالَ على حبّ المؤمن له". وقد يكون عائداً على الإتيانِ، والمعنى: وآتى المالَ على حبّ الإتيان، وقد يكون عائداً على الله -جلّ ذكره- في قوله: "مَن آمن بالله"، المعنى: وآتى المالَ على حبّ اللهِ، أي على حبّه لله"[٢].

ها نحن أولاءِ نقف وجاهَ آية شريفةٍ تتعدّد فيها وجوهُ القول على "مرجع الضّمير"، وكلّها متقبّلة غير متدافعةٍ، فالضّمير قدْ يعود على المالِ، أو المؤمنِ، أو الإتيان، أو الله جلّ. وقد عُدّتْ هذه الآية مِن المُشكِل، وحقّ لها ذلك.

﴿ ألمْ ترَ إلى الذي حاجّ إبراهيمَ في ربّه أنْ آتاه الله المُلك﴾ [٣]

في هذه الآية الشّريفة ضميران تقدّمهما مرجعان ، وليس ثمّ بدّ مِن ربط كلٍّ واحدٍ منهما بمرجعِه حتّى يستقيم المعنى، والحاصل أنّ قواعد المطابقة – وهي كما تقدّم قَبلاً سبيل إلى الإبانةِ عن المعنى- تخلِقُ تداخلاً يفضي إلى احتمال ، فالضّمير في "آتاه" ذو وجهين: فقدْ يكون عائداً على إبراهيمَ عليه السّلام ، ويجوز أنْ يكون

---

(١) الآية: (البقرة، ١٧٧).

(٢) انظر : مكي – مشكل إعراب القرآن ١/١١٨، ابن الأنباريّ – البيان، ١/١٣٩-١٤٠، وقد رأى أن الأول أوجه الأوجه، إذ إن المضمر فيه أقرب إلى المضمر من سائرها. العكبري – التبيان ، ١/١٤٤.

(٣) الآية (البقرة ، ٢٥٨).

عائداً على الذي حاجّ إبراهيم ، وهو نمروذ[1]، والفرق بين العَودين بيِّنٌ؛ ذلك أنّه إذا ما كان عائداً على "نمروذ" فالمعنى أنّ الحامل له على المُحاجَّة هو إيتاؤه المُلْك، وقد أورثه ذلك الكِبْر والعتوّ ، فجاءت لذلك مُحاجّته، وإذا ما كان عائداً على إبراهيمَ فالباعث على مُحاجّته ما آتاه الله مِن النّبوة والمُلك[2]. أمّا الضّمير الأوّل في "ربّه" فهو متردِّد بين العَود على النّمروذ ، والعَود على إبراهيم[3].

﴿ وإنْ كنتم في ريبٍ ممّا نزّلنا على عبدِنا فأتوا بسورةٍ مِن مثلِه﴾ [4]

موضع المباحثةِ الضّمير في "مثلِه": تقدّمته مراجعُ ملامحُها موافقة لملامحِه مِن حيث العددُ والجنس ، وهي "ريب" و "الذي نزّلنا" ، و"القرآن" و "عبدنا". ولكنّ المعنى السّياقيّ يُملي باطّراح المرجع الأوّل ؛ ذلك أنّه لا يستقيم البتّة ، ويبقى في قائمة الاحتمالات مرجعان هما "القرآن"[5] و "عبدنا" ، والمعنى المتعيّن مِن كلّ مرجع:

فأتوا بسورةٍ مِن مثل هذا القرآن ، وتكون "من" زائدةً في هذا الوجه.

فأتوا بسورة مِن مثل هذا العبد "النّبيّ" صلى الله عليه وسلم ، وتكون "مِن" لابتداء الغاية[6].

﴿ ولا تقتلوا النَّفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ، ومَن قُتِل مظلوماً فقدْ جعلنا لوليِّه سُلطاناً فلا يسرفْ في القتلِ إنّه كان منصوراً﴾ [7].

---

(١) انظر: ابن الأنباريّ – البيان، ١٦٩/١، العكبري – التبيان ، ٢٠٦/١.

(٢) انظر: الزمخشريّ – الكشاف، ٣٣٨/١، أبو حيان – البحر ، ٢٩٨/٢.

(٣) انظر: ابن الأنباريّ – البيان، ١٦٩/١. ولم يذكر إلا العود على النمروذ، وكذلك رأي مكي. انظر: مشكل إعراب القرآن، ١٣٧. أما صاحب البحر فقد ذهب إلى الوجهين.

(٤) الآية (البقرة، ٢٣).

(٥) انظر: الفراء – معاني القرآن ، ١٩/١، أما صاحب البحر فقد ذكر الوجهين: ٢٩٨/٢.

(٦) انظر: مكي – مشكل إعراب القرآن، ٨٣/١، ابن الأنباريّ – البيان، ٦٤/١ العكبري – التبيان، ٤٠/١، وأضاف وجها ثالثاً وهو عود الضمير على الأنداد بلفظ المفرد، وإخال أن فيه تكلفا. وقد ذكر المعنيين الزمخشريّ – الكشاف، ٢٤١/١.

(٧) الآية (الإسراء، ٣٣).

يظهر في هذا السّياقِ الشّريف أنّ المراجع المطابقةَ للضّمير متعدّدة، وقد أفضى هذا إلى تباينِ القولِ على مرجعِه، فقيل إنّه عائد على "الوليّ"، ونصرُه إيّاه بأنْ أوجب له القصاص، وقيل عائد على المقتولِ، ونصرُه واقع بقتلِ قاتله في الحياةِ الدّنيا، والثّوابِ في الآخرة، وقيل على "القتل"، فيكون المعنى أنّ القتلَ كان منصوراً، وقيل هو عائدٌ على القاتل؛ ذلك أنّه إذا أُقيد منه في الدّنيا فقُتِل فهو منصورٌ، ويظهر أنّ هذا المرجعَ لم يَرِد له ذكر في السّياقِ، وقيل الضّمير عائدٌ على "الدّم"، والمعنى أنّ دم المقتولِ كان منصوراً، وقيل هو عائدٌ على الحقّ[1]، والله أعلى وأعلم.

٢- غياب العلامة الإعرابيّة:

مُحتَكَمٌ صدر عنه المصنِّفون في مشكِلِ القرآن؛ وذلك أنّها -كما تقدّم- عنصر دلاليّ له خطرُه، وغيابُها مَجْلَبة للَّبس:

﴿ كتابٌ أُنزِل إليك لتُنْذر به وذكرى للمؤمنين﴾ [2]

تكونُ ذكرى مرفوعةً ومنصوبة ومجرورةً: أمّا مرفوعةً فعلى العطف على كتابٍ، أو على تقديرِ مبتدأ، أي: وهو ذكرى للمؤمنين[3]. أمّا منصوبةً فبالعطف

---

(١) انظر: الفراء – معاني القرآن، ١٢٣/٢، والمعنى عنده: الولي، والدم، والمقتول، والقتل، النحاس – إعراب القرآن، ٤٢٣/٢-٤٢٤. وقد ذهب إلى أربعة أقوال هي: الولي، والمقتول، والقتل، والقاتل، وعد الأخير بعيداً فيه عسف. مكي- مشكل إعراب القرآن، ٤٣١/١ والمعنى عنده، الولي، والمقتول، والدم، والقتل، والقاتل. ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٨٩/٢-٩٠، والمعنى عنده الولي و المقتول والقتل. العكبري –المصدر نفسه، ٨٢٠، وقد أضاف إلى الوجوه الخمسة المتقدمة وجها سادساً هو " الحق".

(٢) الآية (الأعراف، ٢).

(٣) انظر: النحاس – المصدر نفسه، ١١٤/٢، مكي- المصدر نفسه، ٢/١، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٣٥٣/١، واقتصر الفراء في الرفع على العطف، انظر : معاني القرآن، ٣٧٠/١.

على موضع "لتُنذر به"، أي: إنذاراً وذكرى[1]. أمّا مجرورةً فعطفاً على "لتُنذر به"؛ لأنّ معناه الإنذار، أي: للإنذارِ والذّكرى[2].

﴿حرّمْنا عليهم شحومَهما إلاّ ما حملتْ ظهورُهما أو الحَوايا﴾ [3]

يبدو أنّ ظهور الحركةِ على الحَوايا متعذِّر، وقد أعقب هذا تعذّرَ الوقوف على المتعيِّن، فاحتملتْ "الحَوايا" وجهَين؛ وجهَ الرّفع ووجهَ النّصب. أمّا الرّفْع فعلى أنّه معطوفٌ على قوله: "حُرِّمت ظهورُهما"[4]. أمّا النّصب فمن وجهَين: أولهما أنْ تكون الحَوايا معطوفةً على "ما" في قولِه: "إلاّ ما حملتْ ظهورهما"، و"ما" ههنا في موضعِ نصبٍ على الاستثناء[5]، وثانيهما أنْ تكون معطوفةً على قوله "شحومَهما"، والتّقدير: حرّمنا عليهم شحومَهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظمٍ، وعلى هذا التّقديرِ تكون الحَوايا مُحرَّمةً بخلاف ما قبلَها[6].

﴿ وجعلنا لكمْ فيها مَعايشَ ومَن لستم له برازقين﴾ [7]

يجوزُ في "مَن" أنْ تتوالى عليها الحركات الثّلاثُ، فتكون منصوبةً بالعطف على "معايش"، والمعنى: جعلنا لكم فيها المَعايشَ والعبيدَ والبهائم، وقيل: قد تُنْصَب بتقدير فعلٍ، والمعنى: وجعلنا لكم فيها مَعايش، وأعشنا مَن لستُم له برازقين،

---

(١) انظر: الفراء ، المصدر نفسه، ٣٧٠/١، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٣٥٣/١، وفي وجه النصب أشار العكبري إلى أنها قد تكون حالاً من الضمير في أنزل. وانظر المصدر نفسه، ٥٥٥.

(٢) انظر: النحاس – إعراب القرآن، ١١٤/٢، مكي – مشكل إعراب القرآن،٢٨١/١، ابن الأنباريّ– المصدر نفسه، ٣٥٣/١، العكبري – المصدر نفسه،٥٥٦/١.

(٣) الآية (الأنعام، ١٤٦).

(٤) انظر: الفراء – المصدر نفسه، ٣٦٣/١. النحاس – المصدر نفسه، ١٠٤/٢، مكي – المصدر نفسه،١/ ٢٧٦، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٣٤٨/١، العكبري – المصدر نفسه،١/ ٥٤٦، أبو حيان – البحر ، ٢٤٦/٤.

(٥) انظر: مكي – المصدر نفسه،١/ ٢٧٦، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٣٤٨/١.

(٦) انظر: ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٣٤٨/١، العكبري – التبيان،١/ ٥٤٦. أبو حيان– البحر ، ٢٤٦/٤.

(٧) الآية (الحجر،٢٠).

فأُضْمِر الفعل لدِلالة الكلام عليه[1]. وتكون "مَن" مرفوعةً بالابتداء، وخبره محذوف[2]، والتّقدير: وجعلنا لكم فيها معايشَ، ومَن لستم له برازقين كذلك. وتكون مجرورةً، والمعنى: وجعلنا لكمْ ولِمَن لستم له برازقين، وهذا جائزٌ عند الكوفيّين[3]، والحاصلُ أنّ حركة البناءِ التي تلتزم "مَن" في جميع مواقعِها أفضتْ إلى غيابِ عنصر دِلاليٍّ مُبين، فتردّد المعنى بين وجوهٍ تصلح للتّعاورِ في سياقِها.

٣- مرونة الجملة العربيّة:

﴿ ثمّ أنزل عليكم مِن بعدِ الغمّ أمنةً نُعاساً يَغشى طائفةً منكم﴾[4]

موضع النّظرِ في هذه الآيةِ الشّريفةِ قولُه "أمنةً نعاساً"، وقد ذُهِب إلى أنّ "أمنةً" مفعول منصوب "بأنزل"، و"نعاساً" بدلٌ منِها[5]، وهو وجه مُتقبّل. ولكنّ ثَمّ إعراباً آخر قائماً على ألاّ تكون الكلماتُ في مواضعِها الأُوَل باعتبار الأصلِ، ولا شكّ أنّ هذا يؤدّي إلى معنى جديدٍ، كأنْ يكون النّظم في أصلِه: ثمّ أنزل نُعاساً يغشى طائفةً منكم أمنةً. وتكون "نعاساً" في هذه الحال مفعولاً به، ثمّ تجيئ "أمنةً" لتجلّيَ السّبب، أو لتجلّي الحال، فتكون مفعولاً له متقدّماً[6]، أو حالاً[7]، والحقّ أنّني أميلُ إلى الوجه الأوّل؛ ذلك أنّ الله -تعالى- قال في موضع آخرَ: "إذْ يُغشّيكم النّعاس

---

(١) انظر: النحاس – إعراب القران، ٣٧٨/٢، مكي ، مشكل إعراب القرآن، ٤١١/١، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٦٦/٢، العكبري – المصدر نفسه،٢/ ٧٧٩. وذهب الفراء إلى أن " من" قد تكون منصوبة دون تقدير فعل: انظر معاني القرآن، ٨٦/٢.

(٢) انظر: ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٦٦/١.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ٨٦/٢، النحاس – إعراب القرآن، ٣٧٨/٢، مكي – مشكل إعراب القرآن"٤١١/١، العكبري – التبيان ،٢/ ٧٧٨، ولم يجوز ابن الأنباريّ هذا الوجه. انظر: المصدر نفسه، ٦٦/٢.

(٤) (آل عمران ، ١٥٤)

(٥) انظر: النحاس – المصدر نفسه ٤١٣/١. مكي – المصدر نفسه، ١١٧/١، ابن الأنباريّ – البيان، ٢٢٦/١، العكبري – المصدر نفسه،١/ ٣٠٢، وقد أضاف وجهاً ثالثاً، وهو مجيئ " أمنة" حالاً من " نعاساً".

(٦) انظر: النحاس – المصدر نفسه، ٤١٣/١. مكي – المصدر نفسه، ١٧٧/١، ابن الأنباريّ– المصدر نفسه،١/ ٢٢٦.

(٧) انظر: العكبري – التبيان،١/ ٣٠٢، وقد ذكر الزمخشريّ هذه الوجوه، وكذلك أبو حيان انظر: الكشاف، ١/ ٤٧٢، البحر ، ٩٧/٣.

أمنةً منه"[1]، ولعلّ "أمنة" تجيب عن السّبب، أي للأمْنة، ولا يخفى أنّ لمرونةِ الجملة العربيّةِ وحريّةِ عناصرها غيرِ المُطلَقة يداً في ولوج دائرةِ اللّبس وتعدّدِ المعاني.

﴿ وسخّرنا مع داودَ الجبالَ يسبّحن والطّيرَ﴾ [2]

وفي نصب الطّيرِ وجهان: أنْ تكون مفعولاً معه منصوباً، والمعنى: يسبّحْن مع الطّير، وهي في هذا التّقديرِ في موضعها، فلا تقديمَ ولا تأخير. والوجه الثّاني أنْ تكونَ معطوفةً على "الجبال"[3]، وقواعدُ التّركيب تجيز حدوثَ هذا، ممّا يفضي إلى الاحتمالِ في كثيرٍ مِن الأمثلة.

﴿ إنّما أنت منذرٌ ولكلّ قوم هادٍ﴾ [4]

موضع المباحثة قولُه: "ولكلّ قوم هاد" .

يظهر مِن هذا التّركيب أنّه مُؤتلفٌ مِن مبتدأ مؤخَّر، وخبرٍ مقدَّم "لكلّ قوم"، ولكنّ الرّويّة قد تهدي إلى معنى مباينٍ للأوّل بتباينِ تقدير التّركيب، فقد يكون– والله أعلم – إنّما أنت منذر وهادٍ لكلّ قومٍ، فيكون "هادٍ" معطوفاً على "منذر"، وهذا فَصلٌ بين حرفِ العطفِ والمعطوفِ، وقواعدُ التّركيب تجيزه، ولا يخفى أنّ ثمّ فرقاً بين المعنيين باعثُه تلكم المرونةُ التي تكتنف تركيبَ الجملة العربيّ. أمّا في هيئة التّركيب التي جاءتْ عليها الآية فالجملةُ "ولكلّ قوم هاد" مُستأنفَة[5].

---

(١) الآية (الأنفال،١١). وقد أشار صاحب البحر أن فاعل الإنزال هو " الله"، وفاعل النعاس هو المنزل عليهم، وهذا يضعف القول بأن " أمنة" مفعول به لاختلال أحد الشروط، وهو الاتحاد في الفاعلية.

(٢) الآية (الأنبياء،٧٩).

(٣) انظر: النحاس – إعراب القرآن، ٧٥/٣، وقد أشار إلى أنه يجوز في الطير الرفع ، بمعنى " يسبّحن هن والطير" . مكي– مشكل إعراب القرآن، ٤٨٠/١، ابن الأنباريّ –البيان، ١٦٣/٢. العكبري – المصدر نفسه، ٢ /٩٢٣، الزمخشريّ – الكشاف، ٥٨٠/٢، أبو حيان – المصدر نفسه، ٣٠٧/٦، وقد قرئت بالرفع على الابتداء، والمعنى: والطير مسخر، أو على الضمير المرفوع في " يسبحن على مذهب الكوفيين، انظر البحر ٣٠٧/٦.

(٤) الآية (الرعد ، ٨)

(٥) انظر ما قيل فيها:

النحاس – المصدر نفسه، ٣٥٢/٢ ، وقد رجح العطف لأن المنذر هو الهادي إلى الله، والمعنى عنده: أنت منذر وهادٍ. مكي – المصدر نفسه ،٣٦٩/١، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٤٨/٢، العكبري – المصدر نفسه، ٢/

ومِن الأمثلة المُبينة عن مرونةِ الجملة العربيّة:

﴿ ولولا كلمةٌ سبقتْ مِن ربِّك لكان لزاماً وأجلٌ مُسمًّى﴾ (١)

الأصل في هذا التّركيب: ولولا كلمةٌ وأجل مُسمّى لكان العذابُ لِزاماً، ولا يخفى أنّ ثمّ فَصلاً بين المعطوف والمعطوفِ عليه بجوابِ "لولا"، وهو "كان واسمها وخبرها"(٢)، ولستُ أزعم أنّ في هذه الآيةِ بتركيبِها المُشكِل لَبساً لا يُرفَع، ولكنّه ممّا يلحق بركبه؛ ذلك أنّه يَعوزه فضل تدبّرٍ ونظر، وقد أجاز الزّمخشريّ أنْ يكون "أجلٌ" معطوفاً على الضّمير المُستكنّ في "كان"، والمعنى: لكان الأخذُ العاجلُ وأجلٌ مسمّى لازمَين، كما كانا لازمَين لعادٍ وثمود(٣).

٤- وممّا ينضافُ إلى اللّبس الآتي مِن التّركيبِ قضيّة **الاجتزاءِ من السّياق البنيويّ**، وقد تقدّم قبْلاً أنْ ليس كلّ اجتزاءٍ مِن السّياق ملبساً يفضي إلى احتمال، وما يخصُّ موضوعةَ المباحثة في هذا المقام ما يلبس ولو مِن طرفٍ خفيٍّ:

﴿ صبغةَ الله ومَن أحسن مِن الله صبغة﴾ (٤)

اختُلف في إعراب صبغة، فقيل هي مفعولٌ به لفعل محذوفٍ تقديره: اتبعوا صبغةَ الله، وقيل على البدلِ مِن "ملّة إبراهيم"، وقيل على الإغراءِ: أي عليكم دينَ الله(٥). وقد رجّح الزمخشريّ وأبو حيّان أنّها مفعولٌ مطلق مضعّفين كونَها بدلاً مِن

---

٧٥٢. وقدر العكبري مبتدأ محذوفاً، والمعنى: ولكل قوم نبيُ هادٍ، ولم ينف ما يحتمله هذا التركيب الشريف من تعدد المعنى.

(١) الآية (طه ، ١٢٩)

(٢) انظر الفراء – معاني القرآن ١٩٥/٢، الأخفش- معاني القرآن ٤٤٥/٢، النحاس – المصدر نفسه، ٦٠/٣، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه ، ١٥٥/٢ العكبري – المصدر نفسه، ٩٠٨/٢.

(٣) انظر: الزمخشريّ – الكشاف ، ٥٥٨/٢، أبو حيان – البحر ، ٢٦٨/٦

(٤) الآية (البقرة، ١٣٨)

(٥) ذهب إلى هذه المعاني الثلاث: ابن الأنباريّ–البيان، ١٢٦/١، العكبري–التبيان، ١/ ١٢٢، وذهب الفراء، إلى أنها منصوبة على البدل أو على إضمار فعل انظر معاني القرآن، ٨٢/١، واكتفى النحاس بإعرابها بدلاً،انظر إعراب القرآن، ٢٦٧/١ أما ابن قتيبة فقد جعلها مفعولاً به، والمعنى:ألزموا صبغة الله. انظر تفسير غريب القرآن ٦٤، تأويل مشكل القرآن ١٤٩. الزمخشريّ – المصدر نفسه، ٣١٦/١، أبو حيان –المصدر نفسه ، ٥٨٤/١.

"ملّة إبراهيم"؛ وذلك أنّه طال بين المبدلِ منه والمبدَل بجمل كثيرة، والإغراءُ عندهما ينافره آخرُ الآية "ونحن له عابدون"، والأحسنُ ما رجّحاه، والمعنى:صبغنا الله بالإيمانِ صبغة[1]، والظّاهر ممّا تقدّم أنّ هذا الاجتزاءَ عمل على تعدّد وجوهِ القول في توجيهِ الإعراب، ومِن ثمّ على تعدّد المعاني المكتنَفةِ في كلّ توجيهٍ.

﴿ وأقسموا بالله جهدَ أيمانهم لئن أمرتَهم ليخرجنّ، قل لا تقسموا، طاعةٌ معروفة، إنّ الله خبير بما تعلمون﴾ [2]

موضعُ التّمثيل في هذه الآيةِ قوله "طاعة معروفة". وقد تباين تقديرُ المحذوفِ فيها، ويظهر أنّ إرسال الكلامِ المجمَل المجتزَأ بعضُ سياقه البنيويّ يفضي إلى قائمةٍ مِن الاحتمالات ممكنةٍ:

طاعة: خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ تقديره: أمرُنا طاعة[3]، أو أمرُكم والذي يُطلَب إليكم طاعةٌ معروفةٌ لا يشَكّ فيها ولا يُرتاب. أو طاعتكُم طاعة معروفة بأنّها القولُ دون الفعل[4]، وقيل طاعة: مبتدأ، والخبر هو المحذوفُ، والمعنى المتعيِّن: طاعةٌ معروفة أمثلُ مِن غيرها، وأولى مِن هذه الأيمانِ الكاذبة[5].

﴿ إنّما يريد الله ليذهبَ عنكم الرّجس أهلَ البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ [6]

يظهرُ أنّ "أهل" في موقعِها الإعرابيّ محتمِلة، فقد تكون منادى منصوباً قد حُذفتْ أداة ندائه، والتّقدير: يا أهلَ البيت[7]، وقد تكون اسماً منصوباً على

---

(١) انظر: الزمخشريّ – المصدر نفسه، ٣١٦/١، أبو حيان – المصدر نفسه، ٥٨٤/١.

(٢) الآية (النور، ٥٣)

(٣) انظر: مكي – مشكل إعراب القرآن،٥١٥/١، ابن الأنباريّ – البيان ١٩٨/٢، العكبري – التبيان، ٢/ ٩٧٦، وقد ذهب النحاس إلى أن المضمر هو: " لتكن طاعة".

(٤) انظر: الزمخشريّ – الكشاف ، ٧٣/٣، أبو حيان – البحر ، ٤٣٠/٦.

(٥) انظر: النحاس – إعراب القرآن، ١٤٤/٣ ، مكي – مشكل إعراب القرآن ،١/ ٥١٤ ابن الأنباريّ – البيان، ٢/ ١٩٨، العكبري – التبيان ،٢/ ٩٧٦، الزمخشريّ –المصدر نفسه،٧٣/٣، أبو حيان – المصدر نفسه، ٤٣٠/٦.

(٦) الآية (الأحزاب، ٣٣)

(٧) انظر: النحاس – المصدر نفسه، ٣١٤/٣- ٣١٥، مكي – المصدر نفسه،٢/ ٥٧٨، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٢٦٩/٢، وقد ذكروا أنه يجوز وجهاً ثالثاً وهو " الخفض" على البدل من الضمير في (عنكم) عند

الاختصاصِ أو المدح، أي أخصُّ أهلَ البيت. ولا ريب في أنّ ثمّ لبساً باعثُه أمران: اشتراكٌ في العلامة النّحويّةِ بين المنادى المضافِ والاسمِ المنصوب على الاختصاصِ، وحذفٌ مِن السّياق البنيويّ مؤذنٌ بقائمة مِن الاحتمالاتِ.

٥- وينضاف إلى اللّبس التّركيبيّ ظاهرةُ **إضافة المصدر إلى الفاعلِ أو المفعول:**

﴿ وأُدخل الذين آمنوا وعملوا الصّالحات جنّاتٍ تجري مِن تحتها الأنهارُ خالدين فيها بإذن ربّهم تحيّتهم فيها سلام﴾ [١]

يظهر اللّبس في هذه الآيةِ بجلاءٍ، وموضعُه "تحيّتهم"؛ ذلك أنّها مصدرٌ مضاف إلى ضمير فاعلٍ أو مفعول، والمعنى المتعيّن في كلّ تركيبٍ:

١- **تحيّتهم:** أضيف المصدرُ إلى ضمير الفاعلِ، فغدا المعنى أنّهم يحيّي بعضهم بعضاً بالسّلام.

٢- **تحيّتهم:** أضيف المصدرُ إلى ضمير المفعولِ، فصار المعنى بالضدّ، أي أنّ الملائكةَ يحيّونهم بالسّلام[٢]. وثمّ بونٌ جليّ بين معنى الفاعليّةِ والمفعوليّةِ في ذلكم السّياق الشّريفِ، ولكنّ ذَيْنِك المعنَيين قد تجلّيا معاً في بنيةٍ سطحيّة موهمةٍ.

﴿ وأقم الصّلاة لِذكري ﴾

وما جرى عليه القولُ آنفاً يجري عليه حاضراً؛ ذلك أنّنا وجاهَ تركيبٍ محتملٍ له بنيتان عميقتان، فقدْ يكون المصدرُ " ذكر" مضافاً إلى المفعولِ، والمعنى: لذكركِ إيّاي، أو إلى الفاعلِ والمعنى لذكري إيّاك أو إيّاها [٣].

الكوفيين، ولا يجوز ذلك عند البصريين. العكبري – المصدر نفسه ، ١٠٥٧/٢، أبو حيان – المصدر نفسه، ٧/ ٢٢٤.

(١) الآية (إبراهيم، ٢٣)

(٢) إلى معنى المفعولية ذهب الزمخشريّ، وأبو حيان. انظر: الكشاف، ٣٧٦/٢، البحر المحيط، ٤١٠/٥، وقد ذهب إلى المعنيين، الفاعلية والمفعولية: مكي – المصدر نفسه، ٤٠٤، ابن الأنباريّ –البيان، ٥٨/٢، العكبري – التبيان،١/ ٧٦٨، والآية (طه، ١٤) .

(٣) انظر: النحاس – إعراب القرآن ، ٣٤/٣، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ١٣٩/٢ العكبري – المصدر نفسه، ٢/ ٨٨٧.

٦- وينضافُ إلى اللَّبْس التّركيبيّ " **تعدّد معاني الحروف**"، وقد عقد لها ابنُ قتيبةَ باباً قائماً برأسِه في تأويل مُشكلِ القرآن[١]، ولعلّ الباعث على هذا استشعارُه أنّها قد تحتمل معانيَ متعدّدة حتّى مع توافر سياقٍ جُمْليّ، ومِن ذلك حديثُه عن "ما"، فمِن معانيها أنّها تأتي بمعنى "مَن"، و"الذي"، وتأتي مصدريّة:

﴿ وما خَلَق الذّكر والأنثى﴾ [٢]

١- والذي خلق الذّكر والأنثى

٢- وخلقِه الذّكر والأنثى[٣]

ومِن مِثل ما تقدّم:

﴿ والسّماءِ وما بناها ، والأرضِ وما طحاها، ونفسٍ وما سوّاها﴾ [٤]

"ما" فيها ثلاثة وجوه: الأوّل أنْ تكون مصدريّة، وتقديره: وبنائِها، وإلى هذا الوجهِ ذهب النّحّاس[٥]، والثّاني بمعنى "الذي"، وتقديره: "والذي بناها"، والثّالث بمعنى "مَن"، وتقديره: ومَن بناها، وقد استجمع ابن الأنباريّ هذه الوجوهَ دون تقديمِ أحدها على الآخر[٦]. أمّا القولُ بأنّها مصدريّة، فليس بالوجهِ عند الزّمخشريّ؛ إذْ إنّها متلوّة بِ"ألهمها"، وهذا يؤدّي إلى فساد النّظمِ كما يزعم، والوجهُ عنده أنْ تكون موصولةً بمعنى "الذي"، وإنّما أوثرتْ على "مَن" لإرادة الوصفيّة، كأنّه قيل: "والسماءِ والقادرِ العظيم الذي بناها"[٧]، والحقّ أنّني سقتُ هذه التّوجيهات؛ توجيهَ النّحّاس وابن الأنباريّ والزّمخشريّ، لكي أشير إلى سُهمة تعدّد معاني الحروف وتناوبِها في تباين القولِ على المعنى المتحصّل في السّياق الجُمْليّ.

---

(١) انظر: ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن، ٥١٩- ٥٦٣.

(٢) الآية (الليل،٣).

(٣) انظر: ابن قتيبة– المصدر نفسه ، ٥٣٣.

(٤) الآية (الشمس، ٧،٦،٥).

(٥) انظر: النحاس – إعراب القرآن ، ٢٣٦/٥.

(٦) انظر: ابن الأنباريّ – البيان، ٥١٦/٢.

(٧) انظر: الزمخشريّ – الكشاف، ٢٥٨/٤، أبو حيان – البحر، ٤٧٣/٨.

﴿ ولا جُناحَ عليكم إنْ طلّقتُم النّساء ما لم تمسّوهنّ ﴾ (١)

ثانيةً إلى "ما"، ولكنْ بمعنى آخرَ مفارقٍ للأوائل، فقد تكون ظرفيّة زمانيّة مصدريّةً، والمعنى: مدّة لم تمسوهنّ، أو شرطيّة، والمعنى: إنْ لم تمسوهنّ(٢). ولستُ أزعم أنّ في هذه الآية لَبساً لا يُرفَع؛ ذلك أنّ "ما" الظّرفيّة المصدريّة شبيهةٌ بالشّرط، وقد تقتضي التّعميم(٣). ولكنْ، يبقى قدرٌ مِن الظّلالِ الهامشيّة والإيحائيّةِ التي تفضي إلى تخصيصِ المعنى، كديمومةِ الفعل في الزّمانِ، أو تعلّقِه بالشّرط، مع عدم انتفاءِ القول بالتّداخل.

﴿ قال يا ليتَ قومي يعلمون بما غفر لي ربّي وجعلني مِن المكرَمين ﴾ (٤)

وثالثةً إلى "ما"، فقد تكونُ في هذا السّياق الشّريفِ مصدريّة، والمعنى: "يا ليت قومي يعملون بغفرانِ ربّي لي". وقدْ تكون بمعنى "الذي"، وقد حُذِف عائدُه، أي: بما غفره لي ربّي. وقد تكون استفهاميّةً فيها معنى التعجّبِ على التّحقير لعملِه، والتّعظيمِ لمغفرة ربّه، والمعنى: بأيّ شيء غَفر لي ربّي(٥)، وما يجلّي المعنى الأخيرَ هو التّنغيم؛ ذلك أنّه عنصر فونيميّ، فإظهار هيئةِ الاستفهام الصّوتيّةِ تعمل على بيان أنّ "ما" في سياقِها هذا إنّما هي كذلك.

﴿ وأرسلناه إلى مئةِ ألفٍ أو يَزيدون ﴾ (٦)

---

(١) الآية (البقرة، ٢٣٦)

(٢) انظر: ابن الأنباريّ – البيان، ١/١٦٢، العكبري – التبيان، ١/١٨٨.

(٣) انظر: أبو حيان – البحر ، ٢/٢٤٠.

(٤) الآية (ياسين،٢٧)

(٥) انظر: الفراء– معاني القرآن، ٢/٣٧٤، النحاس – إعراب القرآن، ٣/٣٩٠، مكي – مشكل إعراب القرآن، ٢/ ٦٠١، ابن الأنباريّ – البيان ، ٢/٢٩٢، العكبري– التبيان،٢/ ١٠٨٠، أبو حيان، المصدر نفسه، ٧/٣١٦، وقد ضعف النحاس والعكبري الوجه الأخير " الاستفهام" ذلك أن الألف حقها أن تحذف في "بما" في الاستفهام، ذلك نحو " عمّ"، لِمَ" والحق أنه ليس بحجة دامغة، وقد انتصر الفراء لهذا الوجه معرجاً على شاهد شعري أثبتت فيه الألف.

(٦) الآية (الصافات، ١٤٧).

موضع المباحثةِ "أو"؛ فالأقوالُ فيها تباينيتْ، ومردّ ذلك كلِّه إلى مشترك لفظيٍّ يقع تحته معانٍ متعدّدة، وقد اكتفى الفرّاء بنظرِه إليها بمعنى "بلْ"[1]، واعتقد أبو عبيدةَ بهذا المعنى مضيفاً إليه ثانياً، وهو "الواو" [2]. وأضاف إلى هذين المعنَيين "مكيٌّ" ثالثاً، وهو مجيئُها على بابها، أي للتّخيير، والمعنى: إذا رآهم الرّائي قال: هم مئة ألفٍ أوْ يزيدون[3]، وأضاف ابنُ الأنباريّ رابعاً وهو "الشّكّ"، والمعنى أنّ الرّائي إذا رآهم شكّ في عدّتِهم لكثرتهم، والشّكّ راجعٌ إلى الرّائي لا إلى الله جلّ ذكره[4]، وقد رفض ابن قتيبةَ هذا كلَّه جانحاً إلى أنّ "بلْ" هي بمعنى "الواو"[5]. وذهب النّحّاس إلى أنّ القول بأنّها بمعنى "بلْ"، أو بمعنى "الواو" لا يصحّ، ورأى أنّ المتعيِّن منها الإبهام؛ ذلك أنّنا نقول: جاءني زيدٌ أو عمرٌو، ونحن نعرف مَن جاء منهما، ولكنّ المرءَ مطلبُه الإبهامُ والتّعمية على المخاطَب[6].

أحسبُ أنّ المعانيَ المذكورة آنفاً تجيئ مجيئاً صالحاً في سياقها الشّريف؛ ذلك أنّ لها شواهدَ واستعمالاتٍ أُثِرت عن العرب، ويبقى صفوة المبتَغى مِن إثباتِ هذه المُعاياة في اقتناصِ المعنى هو عدم الوقوف عليه إلاّ بالتّوهّم والتردّدِ بين قائمة مِن الاحتمالاتِ الممكنة.

٧- وممّا ينتسب إلى هذا المطلبِ؛ مطلبِ الحديث عن معاني الحروفِ وتناوبِها **توهُّم الأصالة والزّيادة:**

﴿ ويغفر لكم والله غفورٌ رحيم ، لئلاّ يعلم أهل الكتاب ألاّ يقدرون على شيء مِن فضل الله، وأنّ الفضل بيدِ الله﴾ [7].

---

(١) انظر: الفراء – المصدر نفسه، ٣٩٣/٢.

(٢) انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن، ١٧٥/٢.

(٣) انظر: مكي – مشكل إعراب القرآن، ٦١٩.

(٤) انظر: ابن الأنباريّ – البيان – ٣٠٨/٢.

(٥) انظر: ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن، ٥٤٤.

(٦) انظر: النحاس – إعراب القرآن، ٤٤٣/٣. وذكر معنى الشك أيضاً.

(٧) الآية (الحديد، ٢٩).

"لئلاّ يعلم" فيها إشكال مردُّه إلى أنّ معنى السّياق الكلّيّ يرشّح لاطّراح "لا"، ولهذا قيل إنّها زائدة للتّوكيد[1]، والمعنى "ليعلم أهلُ الكتاب"،ومثلُها قوله-تعالى- "وما منعك ألاّ تسجد"[2]، وقد أضاف ابنُ الأنباريّ والعُكبريّ وجهاً ثانياً، وهو أصالتُها في مكانِها، والمعنى عند العكبريّ: لئلاّ يعلم أهلُ الكتاب عجزَ المؤمنين[3]، وقد استشرف ابنُ الأنباريّ ارتباطاً بالآية التي تقدّمتْها، وهي: "يؤتِكم كِفْلَين مِن رحمته ويجعلْ لكم نوراً تمشون به"[4]، والمعنى عندَه: لئلاّ يعلم أهل الكتاب أنْ يُفْعَل بكم هذه الأشياء ليبيّن جهل أهلِ الكتابِ وأنّ ما يؤتيكم الله مِن فضلِه لا يقدرون على إزالتِه وتغييرِه[5].

﴿ حتّى إذا جاؤوها وفُتِحتْ أبوابُها وقال لهم خزنتُها سلام عليكم﴾ [6]

بحثاً عن جواب "إذا" تباين القولُ على "الواوين"، فقيل إنّ الجوابَ محذوف، والتّقديرُ: فازوا أو نَعِموا، وقيل إنّ الجواب ليس بمحذوفٍ[7]، وإنّما هو "وفُتِحت أبوابُها"، وعلى هذا الواو زائدة، والتّقدير: "حتّى إذا جاؤوها فُتِحت أبوابُها". وقيل جوابُها: "وقال لهم خزنتُها"، مع انتفاء أصالةِ "الواو" كما في سابقِ التّقدير، والحاصل ممّا تقدّم أنّ للتّردّد بين أصالة الحرف وزيادتِه يداً في تعدّد المعاني.

---

(1) انظر ما قيل فيها: الفراء – معاني القرآن، 137/3، الأخفش – معاني القرآن 536، ابن النحاس، إعراب القرآن، 369/4، ابن الأنباريّ- البيان، 425/2، العكبري- التبيان،2/ 1211، الزمخشريّ- الكشاف، 68/4، أبو حيان – البحر المحيط، 227/8.

(2) الآية (الأعراف، 12).

(3) انظر: العكبري – المصدر نفسه، 1211/2.

(4) الآية (الحديد، 28).

(5) انظر: ابن الأنباريّ – البيان ، 425/2.

(6) الآية (الزمر، 73).

(7) انظر ما قيل فيها: أبو عبيدة – مجاز القرآن ، 192/2، الأخفش- معاني القرآن، 497. النحاس – إعراب القرآن، 22/4، الرماني – معاني الحروف، 63، مكي – مشكل إعراب القرآن، 633/2، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، 327/2.

﴿ فستُبْصِر ويُبصرون ، بأيِّكم المفتون﴾ [1]

موضع الإشكالِ في هذه الآية الشّريفة حرف الجرّ "الباء"، وفيه ثلاثة أوجهٍ أولُها: أنْ يكون زائداً، وقد زيدت الباءُ في المبتدأ، كما زيدت في قولِه:"بحسبِك درهم"، أي حسبُك درهم، والمعنى المتحصّل مِن الآية: أيُّكم المفتون؟. وثانيها أنّ الباء أصليّةٌ ليستْ بزائدةٍ، وأنّ المفتونَ مصدرٌ كالميسور والمعقول، والمعنى على ما تقدّم: بأيِّكم الفتنةُ. وثالثُها أنّ الباء معناها "في"، والتّقدير: في أيّ الفريقَين المفتون[2]؟. يظهر ممّا تقدّم أنّ اشتراك حروفِ المعاني وتوهّم الأصالةِ والزّيادة فيها مِن الدّواعي الفاعلةِ في نشوء اللّبس.

٨- وقد يعملُ اشتراكُ المعاني النّحويّة على وقوعِ المرء في دائرة اللّبس، وقد وقف المصنِّفون في مشكلِ إعراب القرآن عند كثير مِن هذه المُثُل:

﴿ وإنْ كنتم خرجتُم جهاداً في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي﴾ [3].

يظهر أنّ كلمة "جهاد" مصدر مرشَّح لأنْ يكون مفعولاً له، والمعنى المتعيِّن مِنها في سياقها البنيويّ: إنْ كنتم خرجتُم للجهاد في سبيلي. ولكنّها تحتملُ معنى نحويّاً آخرَ يشترك سابقُه معه في علامةِ الإعراب، وهو الحال، والمعنى: إنْ كنتُم خرجتُم مجاهدين في سبيلي[4]، وقد أُوِّل المصدرُ بمشتقٍّ حتّى يُقتنَص معنى الحال، ولا يخفى أنّ تباين القولِ في وجهي الإعرابِ في هذا السّياق إنّما هو وجهٌ آخرُ

---

(١) الآية (ن، ٥،٦).

(٢) انظر بيانها: أبو عبيدة –مجاز القرآن، ٢٦٤/٢، الأخفش – معاني القرآن، ٥٤٧، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٤٧٨، النحاس- إعراب القرآن، ٧/٥، مكي – مشكل إعراب ،٢/ ٧٤٩، ابن الأنباريّ – البيان، ٢/ ٤٥٣، العكبري – التبيان٢/ ١٢٣٤، ابن تيمية – تفسير آيات أشكلت، ١ /١٤٦-١٥٩. الزمخشريّ – الكشاف، أبو حيان – البحر ٣٠٣/٨.

(٣) الآية (الممتحنة ، ١).

(٤) انظر : النحاس – المصدر نفسه، ٤١٠/٤، مكي – المصدر نفسه٧٢٨/٢، ابن الأنباري – المصدر نفسه، ٢/ ٤٣٢، العكبري- المصدر نفسه، ١٢١٧/٢، وقد تجافى عن إعراب " جهاداً " مفعولا له، جانحا إلى عدها معمول فعل محذوف دل عليه الكلام، أي : جاهدتم جهادا وإخاله بعيدا في هذا السياق، والوجه الأول عنده أوجه.

لتباينِ القول على المعنى المستترِ المحتمِل، ولعلّ هذا هو الباعثُ الأوّلُ الذي حمل المصنِّفين في مشكِل إعرابِ القرآن على إلحاقِها بركبِ المُشكِل.

﴿ فأجمعوا أمرَكم ثمّ ائتوا صفّاً﴾[١]

"صفّا" تحتمل أنْ تكونَ مصدراً في موضع الحالِ، فيكون المعنى الكامن فيها: ثمّ ائتوا مصطفّين، أو أنْ تكون مفعولاً به، ويكونَ المراد – والله أعلم– اقصدوا صفّاً على وجهِ التّعيين[٢]، ويلاحظ أنّ في هذه الآية التباساً بين معنى "الحالِ" و"المفعول به".

﴿فَكُلا منِها رَغَداً﴾ [٣]

تحتمل "رَغَداً" ههنا أنْ تكونَ صفةً لمصدر محذوف: فَكُلا منِها أكْلاً رَغَداً، أي طيِّباً هنيئاً، ويجوز أنْ تكونَ مصدراً في موضع حال: أي كُلا مُستطيبين متهنّئين[٤].

﴿ فيها يُفرَق كلّ أمرٍ حكيم أمراً مِن عندِنا﴾ [٥]

في هذه الآيةِ الشّريفة يتنازع "أمراً" معانٍ نحويّة متعدّدة، كأنْ يكون حالاً من "كلّ"، أو مِن ضمير الفاعلِ في "أنزلناه"،أي: آمرين،أو مِن ضمير المفعولِ في الفعل نفسِه، أي في حالة كونِه أمراً مِن عندنا بما يجب أنْ يكون[٦]،أو أنْ يكون مفعولاً له[٧]، أو

---

(١) الآية (طه، ٦٤).

(٢) انظر : النحاس – إعراب القرآن، ٤٧/٣، ابن الأنباري – البيان، ١٤٧/٢، والعكبري– التبيان، ٨٩٥/٢، أبو حيان – البحر ، ٢٣٩/٦، وقد ذكر أن الصف هو المكان الذي يجتمعون فيه لعيدهم وصلواتهم.

(٣) الآية (البقرة،٣٥).

(٤) انظر: النحاس – المصدر نفسه، ٢١٣/١، ابن الأنباريّ – المصدر نفسه، ٧٥/١، العكبري – المصدر نفسه، ١ /٥٢، أبو حيان– المصدر نفسه، ٣٠٩/١.

(٥) الآية (الدخان، ٥)

(٦) انظر: أبو حيان – المصدر نفسه، ٣٤/٨.

(٧) انظر: العكبري– التبيان ، ١١٤٤/٢.

مفعولاً به[1]، وعاملُه "منذِرين"، أو محذوفٌ تقديره: "أعني أمراً"، أو نائباً عن المفعول المطلَقِ على معنى: يُفرَق كلُّ أمرٍ فرقاً وأمراً[2]. ولا يخفى ممّا تقدّم أنّ الباعث على اللّبسِ في هذا السّياق الشّريفِ أمران: أولهما اشتراكُ تلكم المعاني النّحويّة في حركةٍ واحدة، وهي النّصْب، وثانيهما أنّها معانٍ مُتقبَّلة تجيئ مَجيئاً صالحاً يوافق متقضى السّياق، فالحالُ، والمفعولُ له، والمفعولُ به، والنّائبُ عن المفعول المطلقِ؛ كلّ ذلك ممّا يُعيّنه السّياق ويرشّح له.

رابعاً: الإشكال المعجميّ

١- الألفاظ الغريبة:

وقد عُدّت الألفاظ الغريبةُ في سياقها ضرباً مِن ضروب المتشابِه[3]، وهي كذلك حقّاً؛ إذ إنّ انتفاء وقوفِ المرءِ على المتعيِّن منها يفضي إلى وقوعِه في دائرةِ الغموضِ، والحقّ أنّ كون اللّفظ غريباً لا يعني أنّه ملبِس البتّة، ولكنّني أوردتُها ههنا استكمالاً لاستجلاء صورةِ المشكِل أو المتشابِه في غريب القرآنِ، فما الألفاظ الغريبةُ مِن اللّبس في شيءٍ، ولكنّها ألصقُ بالغموضِ وأقربُ:

﴿ وفاكهةً وأبّاً ﴾ [4]

كان أبو بكرٍ الصدّيق-رضي الله عنه- قد سئل عن الأبّ ما هو، فقال: "أيُّ سماء تظلّني، وأيّ أرض تقلّني إذا قلت في كلامِ الله ما لا أعلم، وقرأ عمر سورة "عَبَس"، فلمّا بلغ الأبّ قال: الفاكهة عرفناها، فما الأبّ؟ ثمّ قال: لَعَمْرك يا ابن الخطّاب، إنّ هذا لهو التكلُّف"[5].

---

(١) انظر: ابن الأنباريّ – البيان، ٣٥٧/٢.

(٢) انظر: الفراء – معاني القرآن، ٣٩/٣- مكي – مشكل إعراب القرآن، ٦٥٤/٢.

(٣) انظر: الراغب – المفردات، ٢٥٤.

(٤) الآية (عبس،٣١).

(٥) الزركشي- البرهان، ٢٩٥/١- ٢٩٦.

اختُلف في معنى "الأبّ" فلم يوقف على معناها تعييناً، وقد ذكر الزّركشيُّ فيها سبعةَ أقوال أولُها: ما ترعاه البهائم، وأمّا ما يأكله الآدميّ فالحَصيد، وثانيها: التّين خاصّة، وثالثُها ما نبت على وجهِ الأرضِ، ورابعها ما سوى الفاكهةِ، وخامسُها الثّمار الرّطبة، وسادسها أنّ رطب الثّمار هو الفاكهة، وأنّ يابسَها هو الأبّ، وسابعها أنّه للأنعام كالفاكهةِ للنّاسِ[1].

﴿ مِن بقلِها وقثّائِها وفومِها وعدسِها وبصلِها﴾ [2]

وكما اختُلف في معنى "الأبّ" اختُلف في معنى "الفُوم"، فذهب الفرّاءُ إلى أنّها لغةٌ قديمةٌ، وهي الحِنطة والخبز جميعاً قد ذُكِرا، وقد سمع مِن العرب أنّهم قالوا: فَوّموا لنا، وهم يريدون: اختبزوا لنا[3]، وقيل إنّ المُراد منها "الثّوم"؛ لأنّها مع ما يشاكلها مِن العدسِ والبصلِ وشبهه، والعربُ تُبدِل الثّاء بالفاء، فيقولون "جَدَث" و"جَدَف"[4]، وأحسب أنّ السّياق الكلّيَّ يقرّب المرء من المعنى؛ ذلك أنّ قائمةَ الاحتمالات لا تكادُ تخرج عن كونِه ممّا يؤكَل، ولكنّ المشكلة في تعيين ماهيّتِه وجوهرِه، ومِن هنا ينشأ الغموضُ.

﴿ والقناطير المُقنطرَة مِن الذّهب والفضّة﴾ [5]

وقد اختُلف أيضاً في تحديد معنى القِنطار، والحقّ أنّ الغموض ليس واقعاً في دلالتِه المركزيّة، وإنّما في تحديدِ مقدارِه، فقيل هو ثمانون ألف درهمٍ، أو ملء

---

(١) انظر: الزركشي- البرهان ١/٢٩٥-٢٩٦، وانظر معنى الأب: الفراء - معاني القرآن، ٢٣٨/٣، أبو عبيدة، مجاز القرآن، ٢٨٦/٢، ابن قتيبة - تفسير غريب القرآن، ٥١٥، اليزيدي - غريب القرآن، ١٩٩، ابن عزيز- نزهة القلوب، ١٠٩، مكي - العمدة - ٣٣٧، الراغب - المفردات، ٨، أبو حيان - تحفة الأريب، ٢٩، ابن الهائم - التبيان - ٤٥٠.

(٢) الآية (البقرة ، ٦١)

(٣) انظر: الفراء - المصدر نفسه، ٤١/١، ابن قتيبة - المصدر نفسه، ٥١.

(٤) انظر: الفراء - المصدر نفسه، ٤١/١، ابن قتيبة- المصدر نفسه، ٥١، ابن عزيز - نزهة القلوب، ٣٥٨، مكي - العمدة ، ٧٦، وقال إن معناها " الحبوب" أو الثوم أو الحنطة، ابن الهائم - التبيان، ٨٩.

(٥) الآية (آل عمران ، ١٤).

مسك ثورٍ ذهباً أو فضّةً، أو مئة رطلٍ، أو ألف مثقال، أو ثمانية آلافِ مثقال، وقيل فيه غير ذلك[١]، وإخال أنّ أرجح الأقوالِ قول أبي عبيدة: "قدرُ وزنٍ لا يحدّونه"[٢]، ولعلّ هذا أدّى إلى تباينِ وجوهِ القول عليه مِن جهة، ومِن جهةٍ أخرى أدّى إلى أنْ يصبح القنطار متبايناً بتباين الدّيارِ.

﴿ وإنْ كان رجلٌ يورَث كَلالةً ﴾ [٣]

قيل إنّ الكَلالة مِن القرابةِ ما خلا الوالدَ والولدَ[٤]، وقد سمّوا كلالةً لاستدارتهم بنسبِ الميّت الأقرب، وقيل كلُّ مَن لم يرثْه أب أو ابن أو أخ فهو عند العربِ كَلالة[٥]، وقيل الكَلالة اسمٌ للمال الموروث[٦]، وقد اختُلف في دلالةِ أصلِها، فقيل إنّها مأخوذة مِن الكَلال، وهو الإعياءُ، فكأنّه يصير الميراثُ إلى الوارث بعد إعياءٍ[٧]، وذهب الزّمخشريّ إلى أنّها مصدرٌ بمعنى الكلالِ، وهو ذهابُ القوّة مِن الإعياء، فاستُعيرت للقرابة مِن غيرِ جهةِ الوالد والولد، لأنّها بالإضافةِ إلى قرابتِها كالّةٌ ضعيفة[٨]، وقيل هي مشتقّة مِن تكلّله النّسب، إذا أحاط به، فالأبُ والابن طرفا الرّجلِ، فإذا مات ولم يخلفْهما فقد مات عن ذهابِ طرفَيه، فسُمّي ذهاب الطّرَفين

---

(١) انظر ما قيل فيه:
الفراء – المصدر نفسه، ١٩٥/١، أبو عبيدة – مجاز القرآن ٨٨/١-٨٩، ابن قتيبة – المصدر نفسه، ١٠١، ١٠٢، اليزيدي – غريب القرآن، ٤٠، ابن عزيز- المصدر نفسه ، ٣٦٤-٣٦٥، مكي – المصدر نفسه،٩٧ ، أبو حيان – تحفة الأريب، ٢١٩ – البحر ٤١٤/٢- ٤١٥، ابن منظور – اللسان، مادة " قنطر".

(٢) أبو عبيدة – المصدر نفسه، ٨٨/١.

(٣) الآية (النساء، ١٢)

(٤) انظر: الفراء- معاني القرآن، ٢٥٧/١ .

(٥) انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن، ١١٨/١، وقد خطأه أبو حيان في ذكره الأخ مع الأب والولد، انظر: البحر، ١٩٧/٣.

(٦) انظر: مكي – مشكل إعراب القرآن،١/ ١٩٢، ابن الأنباريّ – البيان، ٢٤٥/١، العكبري- التبيان١/ ٣٣٦، ابن الهائم – التبيان ، ١٦٤.

(٧) انظر: أبو حيان – البحر، ١٩٦/٣.

(٨) انظر: الزمخشريّ – الكشاف ، ٥٠٩/١- أبو حيان – المصدر نفسه، ١٩٦/٣-١٩٧.

كلالة، وكأنّها اسم للمصيبة[1]، وقيل كلّ مَن مات ولا والدَ له ، ولا ولد فهو كَلالةُ ورثته، وكلّ وارثٍ ليس بوالد للميّت ولا ولد فهو كَلالة موروثِه[2]، وقيل الكلالةُ مَن لا يرثه أب ولا أمّ، أو الخِلو مِن الولد فقط[3].

يُستخلَص ممّا تقدّم أنّ الكَلالة ذاتُ دلالةٍ عائمة، فقد تدلّ على الوارثِ والموروث والقرابةِ والمال، وقد أفضى هذا التّباين في فهمِ مقصدِها إلى التّباين في فهمِ معناها النّحويّ[4]:

١- فإنْ كانت الكَلالة "الميّت الموروث" فانتصابُها على الحال، والمفعولان محذوفان، والتّقدير: يورَث وارثُه ماله في حالة كونِه كلالةً. وقد تكون منصوبة على التّمييز[5].

٢- وإنْ كانت الكَلالة "الوارث" فانتصابُها على أنّها مفعول به بالفعل "يورَث"، ويكون المفعول الثّاني محذوفاً تقديرُه : يورث كلالةَ ماله.

٣- وإنْ كانت الكَلالة "القرابة" فانتصابُها على المفعول له، والمفعولان محذوفان، والتّقدير: يورَث لأجل الكلالة.

٤- وإنْ كانتْ الكلالةُ "المال" فانتصابها على أنّها مفعول ثانٍ.

٥- وإنْ كانت الكلالةُ "الوراثة" فانتصابُها على الحال، أو على النّعتِ لمصدرٍ محذوف، والتّقدير: يورَث وراثةً كلالةً.

٦- ويجوز في "كان" أنْ تكون ناقصة، والكَلالة بمعنى "الميّت"، و"يورَث"صفة للرّجل، وتُنصَب كلالة على خبر "كان": إنْ كان رجلٌ موروثٌ ذا كلالة؛ وقد

---

(١) انظر: ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ١٢١، ابن عزيز– نزهة القلوب، ٣٧٩، ابن الهائم –التبيان، ١٦٤، ابن منظور – اللسان ، مادة " كلل".

(٢) انظر: ابن منظور – المصدر نفسه، مادة " كلل"

(٣) انظر: أبو حيان – البحر ، ١٩٦/٣-١٩٧، وقد ضعف أبو حيان هذين الوجهين وقد ذكر الهرويّ أن الكلالة هو الذي لا ولد له ولا والد بلغة قريش. انظر: الهروي– لغات القبائل، ٨٧.

(٤) انظر هذه الوجوه الإعرابية : أبو حيان – المصدر نفسه، ١٩٧/٣.

(٥) انظر: ابن الأنباريّ – البيان، ٢٤٥/١.

تكونُ "كلالة" في هذا الوجه حالاً. وقد تكون "كان" تامّةً، و"رجل" فاعلها. وكَلالةٌ حال مِن الضّمير. "وقد كثرَ الاختلافُ في الكلام، ومُلخَّص ما قيل فيها أنّها الوارثُ أو الميّت الموروث، أو المال، أو الوراثةُ، أو القرابةُ[1].

٢- المشترك اللّفظيّ:

تقدّم قبْلاً أنّ ظاهرة المشترَك اللّفظيّ تفرز مواضعَ لَبس متحمِلة، وقد توقّف عند هذه الظّاهرة المصنِّفون في مشكلِ القرآن وغريبِه، فشرعوا يفسِّرون ويعيِّنون المعنى بهديٍ مِن سياقِ الآيات الكريماتِ، ولكنّهم في كثيرٍ مِن المواضع تردّدوا بين معانٍ متعدّدة؛ ذلك أنّ اللّفظ الواحدَ يقع تحتَه معنيان أو أكثر:

﴿ وسيّداً وحَصوراً﴾ [٢]

موضع المباحثةِ في هذا السّياقِ الشّريفِ "حَصوراً"؛ ذلك أنّ الأقوال قد تباينتْ في تحديد مقصدِها، فقيل هو الذي لا يقرب النّساء، إمّا مِن العُنّة، وإمّا مِن العفّة والاجتهادِ في إزالة الشّهوة، وهو "فَعول" بمعنى "مفعول"؛ كأنّه محصور عنهنّ. وقيل هو الذي لا يولَد له، أو الذي لا يخرج مع النّدامى، أو الذي لا يُخرج سرّاً[٣]. والظّاهر أنّ الباعث على تعدّدِ المعاني الواقعةِ تحت "حَصور"هو أنّ دلالة هذهِ الكلمةِ تتّسم بالعموميّة،فأصلُ الحصر المنعُ والحبْس[٤]، ولمّا كان الحبسُ يقع على أشياءَ متباينةٍ في العالم الخارجيّ، كحبس الشّهوة، أو السرّ، أو النّفس، لمّا كان ذلك كذلك، أذن باشتراكِها وتعدّدِ وجوه القولِ عليها، والملحظُ اللّطيف في هذا المقام

---

(١) أبو حيان – البحر ، ١٩٧/٣.

(٢) الآية (آل عمران، ٣٩).

(٣)انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن، ٩٢/١، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ١٠٥ اليزيدي – غريب القرآن ، ٤١، ابن عزيز – نزهة القلوب، ٢٠٠، مكي – العمدة، ٩٨، الراغب– المفردات، ١٢٠، وقد اكتفى اليزيدي ومكي والراغب بدلالة الحصر عن النساء، أبو حيان – تحفه الأريب، ٧٦، ابن الهائم – التبيان، ١٤٦. الزمخشريّ– الكشاف، ٤٢٨/١، أبو حيان – البحر المحيط، ٤٦٧/٢-٤٦٨.

(٤) ابن قتيبة – المصدر نفسه، ١٠٥، ابن منظور – المصدر نفسه، مادة " حصر"، وقد قال أبو عبيدة: " المحصور له غير موضع، والأصل واحد". انظر: مجاز القرآن، ٩٢/١.

أنّ قبيلةَ كنانةَ قد تعارفتْ على أنّ المقصد مِن الحَصور هو الذي لا حاجة له بالنّساء[1]، وفي ذلك إلماحةٌ بأنّ دائرةَ هذا اللّفظ الدّلاليّةَ لا تتّسع إلاّ لمعنى واحدٍ فيما ران عليه إلفُ قبيلةِ كنانة.

﴿ وجَعلَ لكم بنينَ وحَفَدةً ﴾ [2]

حَفد يَحْفِد حَفْداً إذا خفّ في العمل وأسرع، والحَفْد الخدمة في العمل، وأصل الحَفْد: الخدمة والعملُ، وكلّ مَن عمل عملاً أطاع فيه وسارعَ فهو حافِد[3]، ولمّا كانتْ هذه الدّلالة عائمةً تتّسع لمُدْخَلات متنوّعة، ولمّا كان الأصل الاشتقاقيّ ذا دِلالةٍ عامّة، تنوّعتْ المُدْخَلات فيها، فغدتْ ممّا يلحقُ بركب المشترَك اللّفظيّ، وقد أفضى هذا إلى تشبُّثِ بعضهم بدلالةٍ واحدة، أو بمجموعةٍ من المُدْخَلات الدّلاليّة التي تتّسع لها دائرةُ الأصل العائم، فذهب أبو عبيدةَ ومكيٌّ إلى أنّ الحَفَدة في سياقِ هذه الآيةِ هم الأعوان والخُدّام[4]، وقد أُخِذتْ هذه الدّلالة مِن مُداركة الخَطوِ والإسراعِ في المشيِ، وإنّما يفعل هذا الخُدّام[5]، وقيل هم الأصهارُ، أو بنو ابنِك، أو أولاد الأولاد. وقيل البناتُ لأنّهن يخدمن في البيوتِ، أو بنو المرأةِ من زوجها الأوّل[6]. وقد وقف الرّاغب على المعنى الكلّيّ العائم مُشيراً إلى أنّ الحَفَدة هم المتحرّكون

(١) انظر: ابن عباس " رواية ابن حسنون " – اللغات في القرآن، ٢٣، الهروي – لغات القبائل، ٦٥.

(٢) الآية (النحل، ٧٢).

(٣) انظر: ابن منظور – اللسان مادة " حفد".

(٤) انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن ، ٣٦٤/١، مكي – العمدة ، ١٧٨.

(٥) انظر: ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٢٤٦.

(٦) انظر ما قيل:

ابن قتيبة – المصدر نفسه، ٢٤٦، اليزيدي- غريب القرآن ٩٦، الراغب- المفردات ، ١٢٣ أبو حيان – تحفة الأريب، ٣٩٠، ابن منظور – اللسان، مادة " حفد" الزمخشريّ- الكشاف، ٤١٩/٢، أبو حيان – البحر ، ٥/ ٤٩٩.

بالخدمة أقاربَ كانوا أم أجانب[1]. وقد حدَثَ تخصيصٌ لهذه الدّلالة العائمة، واختّصتْ بالدّلالةِ على الأختين بلغةِ سعد العَشيرة[2].

﴿ لا يرقُبون في مؤمنٍ إلّاً ولا ذمّة﴾ [3]

الإلّ كلمة مشترَكة تتعدّد المعاني التي تقع تحتَها، فقيل إنّ الإلّ في هذا السّياق الله عزّ وجلّ، أو العهدُ، أو القرابةُ، أو الحلفُ، أو الجوارُ[4]، وقد أضاف الزّمخشريّ معنى آخرَ، وهو "الجؤار"، والوجه عنده أنّ اشتقاق الإلّ بمعنى الحِلف، لأنّهم إذا "تحالفوا رفعوا به أصواتَهم وشهروه مِن الإلّ وهو الجؤار"[5]، وإخال أنّ الأمر قد التبس على الزّمخشريّ؛ ذلك أنّ رفع الصّوت "الجؤار" هو الألّ بفتح الهمزة، لا "الإلّ".

﴿ وقرآنَ الفجرِ إنّ قرآن الفجرِ كان مشهوداً﴾ [6]

معلومٌ أنّ القرآن هو التّنزيل العزيزُ، ومعناه الجمع؛ ذلك أنّه يجمع السُّور فيضمّها. وفي مقام آخرَ نقول: قرأ يقرأ قراءةً وقرآناً، فأصبح تحت هذا اللّفظ معنيان: التّنزيلُ العزيزُ والقراءةُ، ولعلّ هذا موضعُ لَبس محتمِل، ولذلك عرّج عليه

---

(١) انظر: الراغب – المصدر نفسه، ١٢٣.

(٢) انظر: ابن عباس " رواية ابن حسنون " – اللغات في القرآن، ٣٣، الهرويّ– لغات القبائل، ١٦٠ السيوطي – الإتقان ٤٦٧/٢.

(٣) الآية (التوبة، ٨)

(٤) انظر ما قيل فيها:

أبو عبيدة – مجاز القرآن، ٢٥٣/١، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ١٨٣، ابن عزيز– نزهة القلوب، ١٢٦، مكي – العمدة، ١٤٦، الراغب – المفردات، ١٢٣، وقد قال إن الإل كل حالة ظاهرة من عهد حلفٍ وقرابة تئل: (تلمع) فلا يمكن إنكاره. الكشاف، ١٧٦/٢، أبو حيان – البحر ، ١٥/٥.

(٥) الزمخشريّ – المصدر نفسه، ١٧٦/٢.

(٦) انظر: ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٣٣، ابن منظور – اللسان، مادة "قرأ".

المصنِّفون في غريبِ القرآن بالتّنبيه درءاً للّبس أو لِما قدْ يكون، والمعنى المتعيِّن مِن قوله- تعالى- هو "قراءة الفجر"[1].

وممّا ينتسب إلى هذا المبحثِ مصنَّفات الوجوه والنّظائر، والمعنى المراد مِن هذه التّسمية هو أنْ تَرِد الكلمة الواحدةُ في مواضعَ متفرّقة في التّنزيل العزيز متباينةَ المعنى، متّفقةَ المبنى، فالوجوهُ اسمٌ للمعاني، والنّظائر اسمٌ للمباني، ومِن ذلك كلمة "الكُفر"، فقدْ جاءتْ على وجوهٍ متباينة في الآياتِ التّاليات:

﴿ إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتَهم﴾ [2]

﴿ فلمّا جاءهم ما عَرفوا كفروا به﴾ [3]

﴿ ليبلوَني أأكفرُ أم أشكرُ﴾ [4] – **﴿ واشكروا لي ولا تَكفرون﴾** [5]

﴿ ثمّ يومَ القيامةِ يكفرُ بعضُكم ببعضٍ﴾ [6]

أمّا معنى الكفرِ في الآيةِ الأولى فهو نقيضُ الإيمان لا ريبَ. أمّا في الثّانية فلا بدّ مِن استشرافِ ظلالٍ هامشيّة ترتبط بدلالةِ الكفر ههنا، فالمعنى أنّهم جحدوا به وهم يعرفونه، ومثلُه قوله –تعالى-: "ولله على النّاس حجّ البيتِ مَن استطاع إليه سبيلاً، ومَن كَفَر فإنّ الله غنيّ"[7]، والمعنى: مَن أنكره وجَحده فلمْ يره واجباً فإنّ الله غنيٌّ. أمّا في الثّالثة فالظّلالُ الهامشيّةُ السّياقيّة تجنحُ بالكلمة إلى أنْ تكون كفرَ النّعمة لا كفرَ الإيمانِ على التّعيين.

---

(١) انظر : أبو عبيدة – مجاز القرآن، ٣٨٨/١، والمعنى ما يقرأ به في صلاة الفجر، ابن قتيبة – المصدر نفسه، ٢٦٠، ابن عزيز – نزهة القلوب، ٣٧٢، ابن الهائم – التبيان، ٢٦٨، وقد ذهب الفراء إلى أن معنى قرآن الفجر، صلاة الفجر، معاني القرآن ١٢٩/٢، وتابعه الزمخشريّ – الكشاف، ٤٦٢/٢.

(٢) الآية (البقرة ، ٦).

(٣) الآية (البقرة ، ٨٩).

(٤) الآية (النمل ، ٤٠).

(٥) الآية (البقرة ، ١٥٢).

(٦) الآية (العنكبوت ، ٢٥).

(٧) الآية (آل عمران ، ٩٧).

أمّا في الرّابعة، فالمعنى هو البراءةُ، أي: يتبرّأ بعضُهم مِن بعض. وهكذا يقفُ المُتفحِّص لهذه الآياتِ وجاهَ أربعة معانٍ للكفر، وهي كفرٌ بتوحيدِ الله، وكفرٌ بالنّعمة، وكفرُ الجحد، والبراءة، ولستُ أزعم أنّ في تلكم الآياتِ لَبساً لا يُرفَع، ولكنْ، ثمّ ظلالٌ هامشيّة وسياقيّةٌ تنضاف إلى الدّلالةِ المركزيّة، وليس ثمّ بدٌّ مِن استحضارِها.

٣- وممّا ينتسب إلى ظاهرةِ المشترَك اللّفظيّ الأضداد، ولكنّ للأخيرة خصوصيّةً مِن قِبَل أنّ المعنيين المستتِرَين تحت اللّفظ متضادّان، وقد وقف المصنِّفون في غريب القرآنِ عند ألفاظٍ متعدِّدة تنتسب إلى هذه الظّاهرة، فاستشرفوا المتعيِّن مِن بعضِها، ولكنّ أخرى أشكلتْ عليهم، فلم يقفوا على المراد إلاّ بالتوهّمِ أو إطلاقِ القول على المعنَيين المتضادَّين:

﴿ إنّ السّاعة آتيةٌ أكاد أُخفيها﴾ [١]

"أخفى" مِن حروف الأضداد، فيُقال أخفيت الشّيء إذا سترتُه، وأخفيتُه إذا أظهرتُه، وفي هذه الآيةِ الشّريفةِ موضعان لِ "أخفي": موضعُ كتمان، وموضعُ إظهار[٢]. والله أعلم بمرادِه.

﴿ واللّيل إذا عَسعَس﴾ [٣]

---

(١) الآية (طه، ١٥).

(٢) انظر ما قيل فيها:

الفراء – معاني القرآن، ١٧٦/٢، وأشار إلى قراءة " أخفيها"، أبو عبيدة – مجاز القرآن، ١٦/٢، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٢٧٧ والمعنى عنده: أسترها. ابن الأنباريّ – الأضداد، ٩٥، اليزيدي- غريب القرآن، ١١٣، ابن عزيز – نزهة القلوب، ١١٧، والمعنى عنده: أظهرها لا غير. مكي- العمدة،١٩٩ ، والمعنى عنده: أسترها، أبو حيان – تحفة الأريب، ٩٧، ابن الهائم – التبيان، ٢٦٨، وقد جاء في اللسان: "خفيت الشيء أخفيه، كتمته وأظهرته، وأخفيت الشيء سترته وكتمته. انظر: ابن منظور – اللسان ، مادة " خفا" وقد ذهب ابن جنيّ إلى أن المعنى : أكاد أزيل خفاءها، وخفاء كل شيء غطاؤه ، كقولنا: نشكّيها: أي نزيل لها عما تشكوه، وقريب منه: أعجم الكتاب، إذا أزال إعجامه. انظر ابن جنيّ – سر صناعة الإعراب، ٣٨/١.

(٣) الآية (التكوير ، ١٧).

تتردّد كلمة "عسعس" بين معنيين متضادَّين، وهما: "أقبل" و "أدبر"، ولا يخفى أنّ لهذا التّضادّ المعنويّ يداً في تباين فهمِ المرادِ مِن هذه الآية الشّريفة، وقد زعم الفرّاءُ أنّ المفسِّرين أجمعوا على أنّ معنى "عسعس" هو أدبر، "وكان بعضُ أصحابِنا يزعم أنّ "عسعس": دنا مِن أوّله وأظلم"[1]، وأحسبُه كذلك، ولعلّ لتباين اللّهَجات دوراً في نشوء هذا التّضادّ؛ إذْ إنّ "عسعس" معناها "أدبر" بلغةِ قريش[2].

﴿ ومِن النّاس مَن يشري نفسَه ابتغاءَ مرضات الله﴾ [3]

وموضعُ النّظر "يشري"؛ ذلك أنّها مِن حروفِ الأضداد، فتقول: شرَيت الشّيء إذا بعتُه، وشريته إذا ابتعته، والمعنى المرادُ في هذه الآية الشّريفةِ هو "يبيع نفسَه"، وقد قال الشّاعر:

فلمّا شراها فاضتْ العينُ عَبرةً — وفي الصّدر حُزّازٌ مِن اللّومِ حامزُ[4]

وربّما كان لهيئة التّعاطي في البيعِ والشّراء نصيبٌ في صيرورة اللّفظ مِن الأضداد؛ ذلك أنّ البيع والشّراء يتلازمان، فالمُشتري دافعٌ الثّمن، وآخذٌ المُثمَن، والبائعُ بخلافه، فهو دافعٌ المُثمَن، وآخذٌ الثّمن، وللخاطر أنْ يتصوّر كلَّ واحد منهما مُشترياً وبائعاً، وتتضح هذه الهيئةُ إذا كان البيع سلعةً بسلعة، ومِن هذا الوجهِ صار لفظ الشّراء متردّداً بين معنيين متضادَّين[5].

---

(١) انظر: الفراء – المصدر نفسه، ٢٤٢/٣، ابن قتيبة – المصدر نفسه، ٥١٧، اليزيدي– المصدر نفسه، ٢٠٠، ابن عزيز – المصدر نفسه، ٣٣٣. مكي – المصدر نفسه، ٣٣٩، أبو حيان – المصدر نفسه،١٩٣ ابن الهائم – المصدر نفسه، ٤٥٢.

(٢) انظر: الهروي– لغات القبائل، ٣١٦، ابن الهائم – المصدر نفسه، ٤٥٢.

(٣) الآية (البقرة ، ٢٠٧).

(٤) انظر: ابن الأنباريّ – الأضداد، ٧٣، والبيت للشماخ، ديوانه، ١٩٠ وانظر ما قيل في الآية : أبو عبيدة – مجاز القرآن، ٧١/١، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٨١، اليزيدي – غريب القرآن، ٣٥، مكي – العمدة، ٨٩، الراغب – المفردات، ٢٦٠، أبو حيان – تحفة الأريب، ١٥٥ ، ابن الهائم – المصدر نفسه، ١٢٦.

(٥) انظر: الراغب – المصدر نفسه، ٢٦٠.

﴿ والمُطلَّقات يتربّصْن بأنفسِهنّ ثلاثةَ قُروءٍ﴾ [1]

القُروء مفردها القُرْء، وهو الطّهر والحيض، وقد تردّد كثيرٌ مِن المصنِّفين في غريب القرآنِ بين تَيْنِك الدّلالتين[2]، وأصلُه الوقت، والحَيض يأتي لوقتٍ، والطّهر يأتي لوقت[3].

٤- وفي مِضمار الحديثِ عن المشترَك اللّفظيّ يمكن الحديثُ عن مبحثٍ يتّصل به بنسبٍ حميم، وهو "المجالات الدّلاليّة"، وقد تبيّن أنّ لهذه الظّاهرةِ دوراً في وقوع اللَّبس.

﴿ كمَثَلِ غيثٍ أعجب الكفّارَ نباتُه﴾ [4]

لمّا عرّج ابن قتيبةَ على هذه الآية أشارَ إلى أنّ قوماً مِن المغرضين تلبّثوا عند كلمةِ "الكفار"، فرأوا أنّ هذا ممّا يستوي فيه المؤمنون والكافرون، ولا ينقص إيمانُ المؤمنين إنْ هو أعجبهم، فلماذا خُصّ الكافرون دونَ المؤمنين؟[5].

لعلّ المعنى المرادَ ههنا: الزُرّاع؛ ذلك أنّه يقال للزّارع كافر، لأنّه يلقي البذر في الأرض فيكفره "فيغطّيه"، وقد خُصّوا بالذّكر لأنّهم أهلُ البصر بالنّبات والفِلاحة، وهذه دِلالةُ الكفر الأصليّة "التّغطية"، ولكنّها نُقِلت إلى مجالٍ آخرَ لعَلاقة المشابهة، فأصبحتْ تدلّ على ما هو نقيضٌ للإيمان، ومجيئها في سياقِ الآية الشّريفة – وهي منتسبةٌ إلى حقل لغويٍّ مفارِق للإلف – أَذِنَ بهذه المساءلة، بل بتعدّد وجوهِ القول، فقيل إنّ الكفّار في هذا السّياقِ الشّريفِ قد تعني الكفّارَ الذين طُمِس على قلوبهم؛ ذلك أنّ سياق الكلامِ لا يأبى هذا الوجهَ، فقد شبّه الله -تبارك-

---

(١) الآية (البقرة ، ٢٢٨).

(٢) انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن، ٧٤/١، ابن قتيبة -تفسير غريب القرآن، ٨٦، اليزيري- غريب القرآن، ٣٦، ابن عزيز – نزهة القلوب، ٩١، أبو حيان – تحفة الأريب، ٢١٤، ابن الهائم – التبيان، ١٢٩.

(٣) انظر: ابن الأنباريّ – الأضداد، ٣٧، ابن عزيز – المصدر نفسه، ٣٧٢.

(٤) الآية (الحديد ، ٢).

(١)ابن قتيبة- تأويل مشكل القرآن ، ٢٨.

حالَ الدّنيا وسرعةَ تقضّيها مع قلّة جدواها بالنّباتِ الذي أنبته الغيثُ فاستوى، فأُعجِب به الكفّار الجاحدون، فبعث الله عليه العاهةَ، فهاج واصفرّ فصار حطاماً عقوبةً لهم[1].

﴿ فقولي إنّي نذرتُ للرّحمن صوماً فلن أكلّم اليومَ إنسيّا﴾ [2]

إخال أنّ اللّبس في هذه الآيةِ أخفُّ مِن سابقه، والمعنى المتعيّن مِن الصَّوم في هذا السّياق الشّريفِ هو الإمساكُ عن الكلام "الصّمت"[3]. والظّاهر أنّه جاء باعتبارِ الأصل، وليس كقولِه: "كُتِب عليكم الصّيام"[4]، ولعلّ سبب وقوفِ كثيرٍ مِن المصنِّفين في غريبِ القرآن عندَ هذه الآية الشّريفةِ هو استشعارُهم أنّ خلطاً قد يقع بين المجالَين: اللّغويّ والشّرعيّ، فعملوا على درئِه بالتّنبيه عليه.

﴿ وصلّ عليهم إنّ صلاتَك سكنٌ لهم﴾ [5]

﴿ ومِن الأعراب مَن يؤمن بالله واليومِ الآخر ويتّخذ ما ينفقُ قرباتٍ عند الله وصلوات الرّسول﴾ [6]

إنّ انتساب كلمةِ "الصّلاة" إلى حقلَين دلاليّين قدْ يُفرِز مواضعَ لَبس محتمِلة، فليس المتعيّن مِن الصّلاة في هاتين الآيتين الصّلاة الشّرعيّة التي أُمِرنا بها خمساً كلَّ يوم، ولكنّه الدّعاء، والمعنى: ادْعُ لهم واستغفرْ، فإنّ دعاءك سكونٌ وتثبيت

---

(١) انظر: الزمخشريّ – الكشاف ، ٤/٦٥، أبو حيان – البحر ، ٨/٢٢٣، وقد ذكرا الوجهين.

(٢) الآية (مريم،٢٦).

(٣) انظر: أبو عبيدة– مجاز القرآن ٢/٦، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٢٧٤ اليزيدي – غريب القرآن، ١١٠، ابن عزيز – نزهة القلوب، ٢٩٧، الثعالبيّ – الأشباه والنظائر– ١٨٣، مكي – العمدة، ١٩٥، أبو حيان – تحفة الأريب، ١٦١، ابن الهائم – التبيان، ٢٨٢، ابن منظور – اللسان، مادة " صوم" الزمخشريّ – الكشاف، ٢/٥٠٧، أبو حيان – البحر ، ٦/١٧٦.

(٤) الآية (البقرة ، ١٨٣).

(٥) الآية (التوبة ، ١٠٣).

(٦) الآية (التوبة ، ٩٩).

لهم[1]، وصلواتُ الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– هي استغفارُه لهم ودعاؤه، "وسمّاها "صلوات" جرياً على الحقيقةِ اللّغويّة، أوْ لأنّ الدّعاء فيها"[2].

٥- التّطوّر الدّلاليّ:

تبيّن قبْلاً أنّ انزياح الألفاظ عن دلالاتِها يؤْذن أحياناً بوقوع المرء في اللّبس، ولعلّ في الأمثلة الآتية فضلَ بيان:

﴿ اركضْ برجلِك هذا مُغتَسل باردٌ وشرابٌ﴾ [3]

لعلّه ينبغي أوّلاً أنْ يُبيَّن التّطوّر الدّلاليّ الحادث في دلالة الرّكض:

جاء في اللّسان: ركَضَ الدّابّة يَرْكُضُها ركْضاً: ضرَب جنبيها برجله، وفلان يَرْكُض دابّتَه: وهو ضَرْب مَرْكَليها برجله، فلمّا كثر هذا على ألسنتِهم استعملوه في الدّوابّ، فقالوا: هي تَرْكُض؛ كأنّ الرّكض منها، ويُقال أيضاً: أرْكَضَت الفرس إذا اضطرب جنينها في بطنِها، وركَض الطّائر في طيرانه، أي ضرب بجناحيه، وأصل الرّكض الضّربُ، والرّكض تحريكُ الرِّجل، وركَض الأرض والثّوب: ضربهما برجله[4].

لعلّه يستقيم بعد هذا العرض الدّالِّ بالاقتضاب على مادّة "ركض" أنْ يُقال إنّ اللّفظ في هذا المثال قدْ انزاح عن دلالتِه، فأصلُه ممّا بدا لي الضّرْب الذي يساوقه حركة، ويصدّق هذا: ركَضَ الدّابّةَ، وركَضَ الطّائرُ إذا ضرب جناحيه. ولمّا انزاح اللّفظ عن دلالته أصبحنا نقولُ: رُكِضَت الدّابّة، وركض الرّجل إذا فرّ وعدا، وممّا جاء في التّنزيل العزيزِ على هذا المعنى الحادث **﴿ إذا هم منِها يركضون﴾** [5]،

---

(١) انظر: أبو عبيدة – المصدر نفسه، ٢٦٨/١، ابن سلام – التصاريف، ١٦٦، ١٦٧، ابن قتيبة – المصدر نفسه، ١٩١– تأويل مشكل القرآن ، ٤٦٠، ابن عزيز – المصدر نفسه، ٢٩٥، الثعالبيّ– المصدر نفسه، ١٨٨، ابن الهائم – المصدر نفسه، ٢٢٨.

(٢) أبو عبيدة – المصدر نفسه، ٢٦٨/١.

(٣) الآية (ص ، ٤٢).

(٤) انظر: ابن منظور – اللسان، مادة " ركض"

(٥) الآية (الأنبياء ، ١٢).

وقوله-جلّ-:﴿ **لا تَركضوا وارجِعوا**﴾ [1]". ويظهرُ أنّ هذا الاستعمال الدّلاليَّ في سياقه ذاك قدْ جاء على هذا المعنى المُنزاح. أمّا في قوله-تعالى-: "اركضْ برجلِك" فالمرء قد يتردّد بين المعنى الحادثِ والمتقادِم، مع أنّ بينهما بَوناً، وإقامةُ أحدهما مُقام الآخرِ تؤذن بالانزياحِ عن المراد والمتعيِّن، وهو: اضربْ برجلِك الأرض[2].

﴿ فاليومَ ننجّيك ببدنك﴾ [3]

النَّجاء الخلاص مِن الشيءِ، فنقول: نجا ينجو نجاءً ونَجْواً ونَجاةً، والصّدق مَنْجاة ، ومنه قول الحق:﴿ **إنّا منجّوك وأهلك**﴾ [4]، أي: مخلِّصوك مِن العذاب وأهلك، والنَّجْوة والنَّجاة: ما ارتفع مِن الأرضِ فلم يعلُه السّيل، فيظنّ المرءُ أنّه نجاؤه. ولعلّه يستقيم أنْ يُسرِّح الخاطرُ إلى أنّ الأصل في هذه الدِّلالةِ هو ما ارتفع مِن الأرض، وهذا نجاء الهاربِ مِن السّيل وغيره، ثمّ تطوّرتْ هذه الدّلالة فغدتْ تتّسع للمحسوسِ والمجرَّد، وأصبحتْ النّجاة غيرَ مقتصرةٍ على طلبِ النّاجي ما ارتفع مِن الأرض، بل إنّ كلّ ما يسعفُه على تنجيتِه هو نجاؤه ونجاته.

أمّا في قوله-تعالى-: "فاليومَ ننجّيك" فثمّ ملحظ يجب التّنبيهُ إليه؛ ذلك أنّ ننجّيك -والله أعلم - جاءتْ باعتبار الأصل، لا باعتبارِ الانزياحِ الدّلاليّ، فالمعنى المتعيِّن مِنها: أنّنا نجعلك فوق نجوةٍ مِن الأرض، أو نُلقيك على نجوةٍ لتُعْرَف[5].

---

(١) الآية (الأنبياء ، ١٣).

(٢) انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن، ١٨٥/٢، ابن قتيبة- تفسير غريب القرآن، ٣٨٠ ابن عزيز- نزهة القلوب، ١١٨، اليزيدي -غريب القرآن، ١١٨، الراغب -المفردات، ٢٠٢، أبو حيان – تحفة الأريب- ١١٥، ابن الهائم – التبيان، ٣٦٠ ابن منظور – اللسان، ركض: أبو حيان – البحر ، ٣٨٤/٧.

(٣) الآية (يونس ، ٩٢).

(٤) الآية (العنكبوت ، ٣٣).

(٥) انظر: أبو عبيدة – المصدر نفسه، ٢٨١/١، الأخفش – معاني القرآن، ٣٧٨، ابن قتيبة – المصدر نفسه، ١٩٨، ابن عزيز – المصدر نفسه، ٤٥٨ اليزيدي- غريب القرآن، ٧٨، مكي – العمدة، ١٥٣.

ويسند هذا قولُه- تعالى-: "ببدنِك"، ولمْ يقل "بروحك[1]"، ويسنده أيضاً قراءةُ ابن مسعود: "فاليومَ ننحّيك ببدنك"، أي نلقيك بناحيةٍ ممّا يلي البحر[2].

٦- تباين اللّهجات:

" في القرآن مِن اللّغات خمسون لغةً ، ومنها: لغة قريشٍ، وكِنانةَ، وخَثْعم، والخَزرج، وأشعرَ، ونُمَير، وقيس عَيْلان، وجرْهم، واليمن، وأَزْد شنوءة، وكِندة، وتَميم، وحِمْيَر، ومَدْيَن، ولَخم، وسعد العشيرة، وحضرمَوت، وسَدوس، والعمالقة، وأنْمار، وغسّان، ومَذْحج، وخُزاعة، وغَطَفان، وسَبأ، وعُمان، وبني حنيفة، وثعلبة، وطيِّئ، وعامر بن صعصعة، وأوس، ومزينة، وثَقيف، وجُذام، وبَليّ، وعُذْرة، وهوازن، والنّمِر، واليَمامة"[3].

لقد بات مقرَّراً أنّ التّنزيل العزيزَ يشتمل على ملاحظَ لهْجيّة تختصّ بها القبائل العربيّة، وقد اقتضت حكمةُ الله أنْ يكون للقرآن فضلٌ في تقريب المسافات بين اللَّهَجات، ومع هذا كلِّه يبقى بمُكنة المرء أنْ يتلمّس في آيِ الذّكر الحكيمِ سماتٍ لهْجيّة خاصّة على الصّعيد الصّوتيّ والصّرفيّ والنّحويّ والدّلاليّ، وقد تنبّه المصنِّفون في علومِ القرآنِ إلى أثرِ هذا التّباين، فوقفوا عنده منبِّهين، ولعلّ أشدّ مواضعِ اللَّبس والتّفاصل الآتي مِن تباين اللَّهَجات واقعة في الجانب المعجميِّ، وقد أفرد بعضُ المصنِّفين كتباً في هذا المطلب، ومِنها "لغات القبائلِ الواردةُ في القرآن الكريم" للهرويّ، واللّغات في القرآن، برواية ابن حسنون عن ابنِ عبّاس، وفي الأمثلة الآتيةِ فضل بيانٍ يجلّي موضوع هذه المباحثة:

﴿ يومَ يُنفَخ في الصّور﴾ [4]

---

(١) انظر: ابن منظور – اللسان، مادة " نجا" .

(٢) انظر: الزمخشريّ – الكشاف، ٢٥٢/٢، وأبو حيان – البحر ، ١٨٩/٥.

(٣) انظر: السيوطي – الإتقان ، ٤٧٠.

(٤) الآية (النمل، ٨٧).

اختُلف في معنى الصّور، فقيل إنّه جمع "الصّورة"، كقولنا:صوف وصوفة[١]، والمعنى المرادُ هو النّفخ في الصّوَر لتحيا[٢]. وقيل إنّ الصّور قرن ينفخ فيه إسرافيلُ، والمعنى الأخيرُ ينتسب إلى لغة قومٍ مِن أهل اليمنِ، وقد اعترض قومٌ فأنكروا أنْ يكون الصّور قَرناً، كما أنكروا العرشَ والميزان والصّراط، وذهبوا إلى أنّه جمعُ صورة[٣]، والمعنى الثّاني "القرن" أعجبُ إلى ابن قتيبةَ مِن الأوّل لقول رسول الله-صلّى الله عليه وسلّم-: "كيف أنعمُ وصاحبُ القرن قد التقمه وحنى جبهتَه، ينتظر متى يؤمر فينفخ"[٤].

﴿ واضمُمْ إليك جناحَك مِن الرّهْب﴾ [٥]

قيل إنّ الرَّهب معناها الخوف[٦]، وقيل هي الكُمّ بلغة بني حنيفةَ[٧]، وقد قال صاحبُ اللّسان في هذه الآيةِ: "الرَّهْب كمٌّ مدرعتِه. قال الأزهريّ: وأكثر النّاسِ ذهبوا في تفسيرِ قوله "مِن الرّهب" أنّه بمعنى الرّهْبة، ولو وجدتُ إماماً مِن السّلف يجعل الرّهب كُمّاً لذهبت إليه، لأنّه مِن صحيح العربيّةِ ، وهو أشبهُ بسياق الكلامِ والتّفسير"[٨] ، ولمّا ورد الزّمخشريّ على هذه الآيةِ أشار إلى أنّ الرَّهب الكمّ بلغةِ حِمير ، جانحاً إلى عدّه مِن بِدَع التّفسير، وليس لديه ما يعضدُ مذهبَه إلاّ أنّه مِن لغة حِمير ، وأنّه لم يُسمَع مِن الأثبات الثقاتِ الذين تُرضى عربيّتهم! [٩].

---

(١) انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن، ٤١٦/١، ابن منظور – اللسان ، مادة " صور".

(٢) انظر: أبو عبيدة – المصدر نفسه، ٤١٦/١، ابن عزيز – نزهة القلوب، ٣٠٤.

(٣) انظر: ابن منظور – اللسان، مادة " صور"

(٤) انظر: ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٢٦.

(٥) الآية (القصص، ٣٢).

(٦) انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن، ١٠٤/١، ابن قتيبة – المصدر نفسه، ٣٣٣، مكي – العمدة، ٢٣٤.

(٧) انظر: الهروي – لغات القبائل، ٢١٨، رواية ابن حسنون، اللغات، ٤، ابن الهائم-التبيان، ٣٢٨، السيوطي- الإتقان، ٤٧١.

(٨) انظر: ابن منظور – اللسان، مادة " رهب"

(٩) انظر: الزمخشريّ- الكشاف، ١٧٥/٢، أبو حيان – البحر ، ١١٢/٧.

﴿ أفلمْ ييْأس الذين آمنوا﴾[1]

في هذه الآية الشّريفةِ دلالة واضحةٌ على أثر تباين اللّهَجات في نشوء اللّبس؛ ذلك أنّ كثيراً ممّنْ صنّفوا في هذا المطلبِ نبّهوا على معناها، وإخالُ أنّ مكّيّاً، وهو مِن الذين لهم سُهْمة فيه، قد وقع في اللّبس وهو يحاول رفعَه، فقد ذهب إلى أنّ المتعيّن هو اليأسُ نقيضُ الرّجاء[2]، وليس ذلك كذلك؛ إذ إنّ المعنى المتعيِّنَ منها هو: يعلم ويتبيّن بلغة النَّخع، وقد قال سُحيم بن وَثيلٍ:

أقولُ لهم بالشِّعب إذ يأسرونني ألمْ تيأسوا أنّي ابنُ فارسِ زَهْدَمِ[3]

﴿ خُلِق الإنسان مِن عَجَل﴾ [4]

تباين القولُ على معنى "عجل" في هذه الآيةِ الشّريفةِ، فذهب بعضُهم إلى أنّه العجلة والسّرعة[5]، وهذا وجه متقبّلٌ لا يُدفَع، ولكنّ آخرين ذهبوا إلى أنّ المعنى: مِن طين؛ ذلك أنّ العَجَل هو الطّين بلغة حِمير[6]، وقد ضعَّف هذا المذهبَ ابنُ منظور، و"كأنّ هذا الموضع لمّا خَفِي على بعضهم قال: إنّ العَجَل ههنا الطّين. قال لَعَمْري إنّه في اللّغة لكما ذُكِر، غير أنّه في هذا الموضعِ لا يُراد به إلاّ نفس العجلةِ

---

(١) الآية (الرعد، ٣١).

(٢) انظر: مكي – العمدة، ١٦٧.

(٣) انظر البيت: أبو عبيدة – مجاز القرآن، ٣٣٢/١، وانظر ما قيل فيها: ابن عباس – غريب القرآن ، ٣٧، الهروي– لغات القبائل، ١٥٠، وقد عدها بلغة هوازن، ابن غريب القرآن ، ٢٢٧، ابن عزيز، نزهة القلوب، ٤٩٢، اليزيدي، غريب القرآن، ٩٠، أبو حيان – تحفة الأريب، ٢٩٤، ابن الهائم – التبيان، ٢٥١، السيوطي، الإتقان، ٤٦٠.

(٤) الآية (الأنبياء، ٣٧).

(٥) انظر: الفراء– معاني القرآن، ٢٠٣/٢ ، أبو عبيدة – المصدر نفسه، ٣٨/٢ الأخفش– معاني القرآن، ٤٤٨، ابن قتيبة – المصدر نفسه، ٢٨٣، اليزيدي – غريب القرآن، ١١١، ابن منظور– اللسان، مادة " عجل" الزمخشريّ – الكشاف، ٥٧٣/٢، أبو حيان – البحر ، ٢٩١/٦.

(٦) انظر: اليزيدي – المصدر نفسه– ١١٩، مكي – العمدة ٢٠٧، الزمخشريّ – المصدر نفسه، ٥٧٣/٢، أبو حيان – المصدر نفسه، ٢٩١/٦.

والسّرعة، ألا تراه -عزّ اسمه- كيف قال عُقَيبَه: "سأريكم آياتي فلا تستعجلون"، فنظيرُه قوله-تعالى-: **﴿ وكان الإنسان عَجولاً ﴾** "[1].

إخالُ أنّ هذين المذهبَين لا يتدافعان في اقتناصِ المراد؛ ذلك أنّ السّياق الذي وردتْ فيه الآيةُ هو: **﴿ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت، ونبلوكم بالشّر والخيرِ فتنة ﴾** و**﴿ إذا رآك الذين كفروا إنْ يتخذوك إلاّ هُزوا أهذا الذي يذكرُ آلهتَكم وهم بذكر الرّحمن هم كافرون ﴾** [2]، وهو سياقٌ يُلْمِح بلْ يُصرِّح بضعف الإنسان وفنائِه، وتنكبِّه لطريق الحقّ، وهو مِن سلالةٍ مِن طين. ولعلّ شيوع هذه الكلمة في لهجتَين متباعدتين أفضى إلى ظاهرةِ المشترَك اللّفظيّ، فأصبحت دلالتُها محتملِة متردّدة حتّى في السّياق القرآنيِّ الشّريف.

﴿ أتدعون بَعْلاً وتذرون أحسنَ الخالقين ﴾ [3]

تباين وجهُ القول على بَعْل، فذهب بعضُهم إلى أنّه اسمُ علمٍ لصنم مسترشدين بهديٍ مِن السّياق التّاريخيّ، فقد قيل إنّه كان مِن ذَهَب وكان له أربعةُ وجوه، وقد فُتِنوا به حتّى أخدموه أربعمئة سادنٍ[4]، وقد قال بعضُهم إنّ البَعْل هو الرّبّ مسترشدين بتباين اللّهَجات، مشيرين إلى أنّه ذائعٌ بلغة حِمير، ولا يخفى أنّ ثمّ بوناً في الفهم بين المعنيين:

أتدعون هذا الصّنم ربّا سوى الله   "اسم علم"

أتدعون بَعْلاً ربّا سوى الله. وقد ذُكِر عن ابن عبّاسٍ أنّ ضالّة أنشِدتْ، فجاء صاحبها قائلاً: أنا بعلُها ، فقال ابنُ عبّاس: هذا قول الله: "أتدعون بعْلاً: أي ربّاً[5].

---

(1) ابن منظور - اللسان، مادة " عجل"

(2) الآية (الأنبياء، ٣٥-٣٦).

(3) الآية (الصافات، ١٢٥).

(4) انظر: الزمخشريّ - الكشاف، ٣/ ٣٥٢، أبو حيان - البحر المحيط، ٣٥٨/٧.

(5) انظر ما قيل فيها:

خامساً :

الإشكال الأسلوبيّ:

للعرب المجازاتُ في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذُه، ومنها الاستعارة والتّمثيلُ والإخفاءُ والإظهارُ والتّعريض والكنايةُ والإفصاحُ والقصدُ بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العمومِ لمعنى الخصوص ، ومِن المُقرَّر أنّ القرآن الكريم قد نزل بكلّ هذه المذاهب[1]؛ ذلك أنّه نزل بلغة العربِ وطرائقِهم في الأداء، ولهذه الطرائقِ وظائفُ متنوّعة كأنْ تكون لها صبغة جماليّة بيانيّة، أو أنْ تكون سبيلاً إلى الإيضاح والتّقريب، أو يكونَ للأدوار النّفسيّة والاجتماعيّة نصيبٌ منها، وهذه الطّرائق التي يخرج الكلام فيها مفارِقاً لظاهر اللّفظ قد يُشكِل أمرُها في بعض الأحايين فيقع اللّبس مِن هذه الجهةِ، كأنْ يُؤخَذ الكلام على ظاهرِ لفظه مع تغييبِ مقتضاه، ومِن ذلك قولُه-تبارك-:**﴿حتّى يتبيّنَ لكم الخيطُ الأبيض مِن الخيطِ الأسودِ مِن الفجرِ﴾** [2]، فقد قيل إنّ عديّ بن حاتمٍ -رضي الله عنه- قال: "أخذتُ عقالاً أسود، وعقالاً أبيض فوضعتُهما تحت وسادي، فنظرتُ فلم أتبيّنْ، فذكرت ذلك للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فقال : "إنّ وسادَك إذنْ لطويل عريضٌ" [3]، ولعلّ هذه الآية الشّريفةَ كانت مُلْبِسة مشكِلة في أسلوبِها على بعض مَن ورد عليها، فحصل ما

الفراء – معاني القرآن، ٣٩٢/٢- ٣٩٣. وقد ذكر المعنيين، أبو عبيدة – مجاز القرآن، ١٧٢/٢، والمعنى: ربّا. ابن سلام- التصاريف، ٣١٢، والمعنى: ربّا، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٣٧٤، وقد ذكر المعنيين. مكي – العمدة ، ٢٥٦، والمعنى : ربّا، ابن الهائم – التبيان، ٣٥٤، وقد ذكر المعنيين، رواية ابن حسنون- اللغات، ٤٢، والمعنى: ربّا، الهروي- لغات القبائل، ٢٣٧، والمعنى : رباً، الزمخشريّ-الكشاف، ٣٥٢/٢، أبو حيان – البحر ، ٣٥٨/٧. وقد ذكرا المعنيين.

(١) انظر: ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن، ٢١-٢٢.

(٢) الآية (البقرة، ١٨٧).

(٣) الزمخشريّ – الفائق، ٦٠/٤.

حصل، والمعنى المرادُ مِن الخيط الأبيضِ النّهارُ، والخيطِ الأسودِ اللّيل[1]، وقد عدّها الشّريف الرّضيّ استعارةً عجيبة مرادُها أنْ نتبيّن بياضَ الصّبح مِن سواد اللّيل ، والخيطان ههنا مجازٌ ، وإنّما شبّههما بذلك لأنّ بياضَ الصّبح يكونُ في أوّل طلوعهِ مُشرِقاً خافياً، ويكون سواد اللّيل منقضِياً موليّاً، فهما جميعاً ضعيفان ، أي أنّ هذا يزداد انتشاراً، وهذا يزداد اسْتراراً[2].

وقد عرّج على هذه الظّاهرةِ ابن قتيبةَ في مُفتَتَح مشكلِه ضارباً أمثلة تُبين عن خطر فهم المعنى بما يوافق المبنى فقط ، كقولِه في قولِه –تعالى-: ﴿ **فضربْنا على آذانِهم في الكهفِ سنين عدداً** ﴾ [3]: "إنْ أردت أنْ تنقله بلفظِه لم يفهمه المنقول إليه ، فإنْ قلتَ: أنمناهم سنينَ عدداً لكنتَ مترجِماً للمعنى دون اللّفظ[4]"، ومثلُه قوله –تعالى-: ﴿ **وإمّا تخافنّ مِن قومٍ خيانة فانبذ إليهم على سواءٍ** ﴾ [5]، وليس بمُكنة المتدبّر هذه الآيةَ الشّريفة أنْ يأتي بهذه الألفاظِ مؤدّيةعن المعنى الذي أودِع فيها حتى "تتبسّط مجموعها، وتصلَ مقطوعها، وتُظهرَ مستورها، فتقول: إنْ كان بينَك وبين قومٍ هدنة وعهد، فخفتَ خيانةً ونقضا، فأعلمهم أنّك قد نقضتَ ما شرطتَ لهم، وآذِنهم بالحرب، لتكونَ أنت وهم في العلم بالنّقضِ على استواء"[6].

﴿ **وثيابك فطهّرْ** ﴾ [7]

---

(١) انظر: الفراء – معاني القرآن، ١/١١٥، أبو عبيدة – مجاز القرآن ، ١/٦٨، وقد رأى أن دلالة الخيط تقوم مقام اللون. ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٧٥، ابن عزيز– نزهة القلوب، ٢١٦، الشريف الرضيّ– البيان، ٢٠، ابن الهائم– لتبيان ، ١٢١.

(٢) انظر: الشريف الرضي – المصدر نفسه، ٢١.

(٣) الآية (الكهف، ٢٥).

(٤) ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن، ٢١.

(٥) الآية (الأنفال، ٥٨).

(٦) المصدر نفسه، ٢١.

(٧) الآية (المدثر، ٤).

اختُلِف في المتعيِّن مِن هذه الآية الكريمة، فقيل هي على ظاهر ألفاظِها، والمعنى أنّه أمره بتطهيرِ الثّياب مِن النّجاسات؛ ذلك أنّ طهارتها شرطٌ في صحّة الصّلاة ، وبعضُهم فَهِم الثّياب الفهمَ نفسَه، ولكنّه تباين فهمُه للتّطهير، فقيل: تطهيرُها تقصيرُها[1]، ومخالفة العرب في تطويلِ الثّياب وجرّهم الذّيولَ على سبيل التّكبّر[2]، وقيل إنّ الثّياب في هذا السّياق لا تُفهَم على ظاهرِها؛ إذْ إنّها كناية عن النّفس أو القلب، وهي المُشتمِلَة على صاحبِها، وبذلك يكونُ المعنى: طهّرْ نفسك أو قلبك، ويُصدّق هذا الكناية: "فلانٌ طاهر الجَيب أو الثّياب أو الذّيل أو الأردان"[3].

﴿ ولو تقوّل علينا بعضَ الأقاويل لأخذنا مِنه باليمينِ ثمّ لقطعنا مِنه الوتين﴾[4]. يقع الاحتمالُ في هذه الآية الشّريفةِ في موقعين أوّلهما تحديدُ دلالةِ اليمين أهي الجارحةُ أم شيءٌ قامتْ مقامه، وثانيهما تعيينُ صاحب اليمين؛ ذلك أنّها مشترَكة في سياقِها ذاك ، وقد قيل إنّ اليمين هنا هي القوّةُ والقدرة[5]، والمعنى: لَنِلْنا منه عقاباً بقوّة منّا، وقد تعودُ اليمين بمعناها المجازيّ على عائدٍ آخرَ، والمعنى: لأخذنا مِنه بيمينِه، ونزعنا مِن قوّته، وأذللناه وأعجزْناه[6]، وقدْ تكونُ

---

(١) انظر: الفراء – معاني القرآن، ٣/٢٠٠، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن ، ٤٩٥، ابن عزيز – نزهة القلوب، ١٨٧–١٨٨، ابن الهائم – التبيان ، ٤٣٤، ابن منظور – اللسان، مادة " طهر"

(٢) انظر: الزمخشريّ – الكشاف، ٤/١٨٠، أبو حيان – البحر ، ٨/٣٦٣.

(٣) انظر ما قيل فيها:

الفراء– معاني القرآن، ٣/٢٠٠، ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن، ١٤٢، وتفسير غريب القرآن، ٤٩٥، اليزيدي– غريب القرآن، ١٩١، ابن عزيز –نزهة القلوب، ١٨٧، ابن الهائم–التبيان،٤٣٤، ابن منظور ، اللسان ، مادة "طهر"، الشريف الرضي–تلخيص البيان، ٣١٣، وقد أغرق الشريف في فهم هذه الكناية مضيفاً أن الثياب قد تكون كناية عن الأزواج، فكأنه أمره أن يستطهر النساء من دنس الكفر، وإخاله بعيداً.

(٤) الآية (الحاقة، ٤٤).

(٥) انظر: الفراء – المصدر نفسه، ٣/١٨٣، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ١٥٤، ابن عزيز – المصدر نفسه، ٥٠٤، الشريف الرضي– المصدر نفسه، ٣٠٣، ابن الهائم– المصدر نفسه، ٤٢٥.

(٦) انظر: أبو حيان – البحر ، ٨/٣٢٢.

اليمين في هذا المقامِ الجارحةَ[1]، والمعنى: لقطعْناها، أوْ لأخذنا منه بالمَيامن، ثمّ عاقبناه بقطعِ الوتين، أو لأخذْنا بيمينِه فمنعناه مِن التّصرّف، وقد استأنسَ بعضُهم بنظرٍ سياقيٍّ خارجيٍّ لإسناد هذا الوجه، فقيل إنّ المعنى: لو أنّه تَقوّل علينا شيئاً لم نقلْه لقتلناه صَبراً كما يفعل الملوك، فأكثرُ ما يقول السّلطان بعد وجوبِ الحكم: خذْ بيدِه، واسفعْ بيده[2].

﴿ وأصبح فؤادُ أمّ موسى فارغاً﴾ [3]

تباينتْ وجوه القول على هذه الآية، ويظهرُ أنّ لعموميّة هذا المجازِ وإرسالِ الكلام على وجه الإجمال دوراً في ذلك، فقد أصبح فؤادُها فارغاً، ولكنْ، من أيِّ شيء؟. قيل فارغاً مِن الحزنِ لعلمِها أنّه لم يغرقْ[4]، وقيل يائساً[5]، وقيل مِن الصّبر خالياً[6]، وقيل صفراً مِن العقل، قد خلا مِن صبرٍ وثبات لِما دهمها مِن الارتماضِ وشدّة الدّهش حين سمعت وقوعَه في يد فرعونَ[7].

ومِن مثلِ ما تقدّم:

﴿ انفروا خِفافاً وثقالاً﴾[8]

أحسب أنّ في أسلوب الآية الكريمة إجمالاً؛ ذلك أنّ دلالة "خفافاً وثقالاً" عائمةٌ تصلح أنْ تتّسعَ لمُدخَلات متنوّعة، فقيل إنّ المراد هنا: انفروا نشاطاً وإنْ ثَقُل عليكم أمر الخروج[9]، أو: لينفرْ مِنكم مَن كان مُخفّاً أو مُثقِلاً، والمُخفُّ: خفيف

---

(١) انظر: ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن، ١٥٥،ابن عزيز – النزهة ، ٥٠٤، ابن الهائم – التبيان، ٤٢٥.

(٢) انظر: ابن قتيبة – المصدر نفسه، ١٥٥، الزمخشريّ – الكشاف، ١٥٥/٤، أبو حيان–البحر، ٣٢٢/٨.

(٣) الآية (القصص، ١٠).

(٤) انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن، ٩٨/٢.

(٥) انظر: اليزيدي – غريب القرآن، ١٣٧.

(٦) انظر: ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٣٢٨، ابن منظور – اللسان ، مادة فرغ".

(٧) انظر: الزمخشريّ– الكشاف، ١٦٧/٣، الشريف الرضيّ –البيان ، ١٩٩، وقد ذكر هذه المعاني أبو حيان، البحر ، ١٠١/٧-١٠٢.

(٨) الآية (التوبة، ٤١).

(٩) انظر: الفراء – معاني القرآن ، ٤٣٩/١.

الحال، ويكون الخفيفَ الظّهر مِن العيال، والمُثقِل قد يكون مِن الغنى[١]. ويجوزُ أنْ يكون الكثيرَ العيال، وقد يكون المراد: انفروا شباباً وشيوخاً[٢]، ورُكبانا ورِجالاً[٣]، وقيل خفافاً مِن السّلاح ، أي مقلّين منه ، وثقالاً : مُستكثرين منه، وقيل خِفافاً مِن الأتباع والحاشية، وثقالاً بهم، أوْ خِفافاً إلى الطّاعة، وثِقالاً عن المُخالفة، أو مَهازِيلَ وسماناً[٤].

﴿ إلاّ أنْ يعفون أو يعفو الذي بيده عُقدةُ النِّكاح﴾[٥]

ثانيةً إلى الإجمال الذي يُؤْذن باللّبس؛ ذلك أنّ الذي بيده عُقْدة النّكاح ليس واحداً، فالزّوج بيدِه عقدةُ النّكاح، ووليُّ المطلَّقة بيده العُقدة كذلك، وقد عدّ الغزاليّ هذه الآيةَ مِن المتشابِه؛ ذلك أنّها مُحتمِلة [٦]، وإنْ كان الذي بيدِه العُقدة الزّوجَ فالمعنى أنّ المرأة تَطلّق مِن قبل أنْ يدخل بها، وقد فرض لَها المهر، فلها نصفُ ما فرض إلاّ أنْ تهبَه ، أوْ يتمّم لها الزّوجُ الصّداق كاملاً، وإنْ كان الوليّ فالمعنى أنّ لها أنْ تعفوَ عمّا يجب لَها مِن النّصف؛ نصفِ المهر، أو يعفوَ الوليّ عن ذلك، فيكون عفوُه جائزاً عن ابنتِه[٧].

﴿ ولمّا سُقِط في أيديهم ورأوا أنّهم قدْ ضلّوا﴾[٨]

---

(١) انظر: ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ١٨٧، وقد ذكر هذين المعنيين الفراء.

(٢) انظر: ابن قتيبة – المصدر نفسه، ١٨٧.

(٣) انظر: ابن عزيز – نزهة القلوب، ٢٢٤.

(٤) انظر هذه المعاني: الزمخشريّ – الكشاف، ١٩١/٢، أبو حيان – البحر المحيط، ٤٦/٥.

(٥) الآية (البقرة،٢٣٧).

(٦) انظر: الغزالي – المستصفى ، ٣١٣/١، ويرى الفراء أن الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح في هذا السياق الشريف، انظر: معاني القرآن، ١٥٥/١.

(٧) انظر: ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ٩١، وانظر ما قاله الزمخشريّ- الكشاف ٣٧٤/١-٣٧٥، أبو حيان – البحر المحيط، ٢٤٥/٢.

(٨) الآية (الأعراف، ١٤٩).

أسلوب كنائيٌّ ليس فيه مِن الحقيقةِ شيءٌ، والمعنى الكامنُ فيه أنّهم ندموا، فيُقال لكلِّ مَن ندم وعجز عن شيءٍ: سُقِط في يده، وأُسقِط في يده[1]. ولمّا عرّج الزّمخشريّ على هذه الآيةِ أشار إلى أنّ المعنى: "اشتدّ ندمُهم وحسرتهم"، لأنّ مِن شأن مَن اشتدّ ندمُه وحسرتُه أنْ يعضّ يده غمّاً، فتصير يدُه مسقوطاً فيها، لأنّ فاه قد وقع فيها[2]، وقيل إنّه مأخوذٌ مِن "السَّقيط"، وهو ما يغشى الأرضَ بالغَدوات شبه الثّلج، والسّقيط يذوب بأدنى حرارةٍ ولا يبقى، ومَن وقع في يده السَّقيط لم يحصلْ على شيءٍ منه البتّة، فصار هذا القولُ مَثلاً لكلِّ مَن خسِر، وكانتْ عاقبته النّدامة، وقيل إنّها مأخوذةٌ مِن هيئةٍ تعتري النّادم، ولذلك يطأطئ رأسَه، ويضع ذَقَنه على يده، معتمداً عليها، ويظلّ على صورةٍ لو نُزِعتْ يدُه لسَقط على وجهه، كأنّ اليد مسقوطٌ فيها[3]، وصفوةُ القول في هذا الأسلوبِ الكنائيّ الرّفيع أنّها "لا شيءَ على الحقيقة هناك سُقط في أيديهم"[4].

وممّا أُلحق بهذا المبحثِ آياتُ الصّفات، فقدْ عُدّتْ مِن المتشابه[5]، ولستُ إخال أنّ مَلْمَح التّشابه فيها آتٍ مِن جهة كونِها مُلبِسةً حقّاً، وإنّما هو آتٍ مِن تباينِ الوجهات في المُعْتَقَد، وطرائقِ التّفكير والاستدلال، وقد اختلف النّاسُ في الوارد مِنها فكانوا على ثلاثِ شعَبٍ أولّها تغييبُ التّأويل وانتفاؤُه، فالآيات مُحْكَمات تُفْهَم على ظاهرِها، وثانيها الاعتقادُ بالتّأويل مع الإمساكِ عنه، وثالثُها الاعتقاد بالتّأويل مع الإقدامِ عليه بما يليق به عزّ[6]، ولعلّ الذين قالوا بتغييبِ التّأويل وانتفائِه قدْ

---

(١) انظر: الفراء – معاني القرآن، ٣٩٣/١، أبو عبيدة – مجاز القرآن، ٢٢٨/١ الأخفش – معاني القرآن ، ٣٣٧، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن ، ١٧٢، اليزيدي – غريب القرآن ، ١٣٨، الراغب– اليزيدي–غريب القرآن، ١٣٨، ابن الهائم– التبيان، ٢١٠.

(٢) انظر: الزمخشريّ – الكشاف، ١١٨/٢.

(٣) انظر هذه التفاسير : أبو حيان – البحر المحيط، ٣٩٢/٤.

(٤) الشريف الرضي– البيان، ٦٠.

(٥) انظر: الراغب– المفردات، ٢٥٤، الزركشي– البرهان، ٧٨/٢، السيوطي– الإتقان، ٦٨٥.

(٦) انظر: الزركشي – البرهان ٧٨/٢.

عوّلوا على مطابقةِ المعنى لظاهرِ اللّفظ، أمّا الذين اعتقدوا بوجوبِ حملِ الكلام على خلافِ المفهومِ مِن حقيقتِه فقد بدا لهم استحالةُ التّشبيه والتّجسيم في حقّ الله ، ومِن ذلك ذكر "الوجه"، فقد تردّدوا بين المنزلتَين؛ منزلةِ الأخذِ بالظّاهر، ومنزلةِ التّأويل[1]. أمّا في المنزلةِ الثّانية فالوجهُ مؤوّل بالذّات، أو بالاحتكامِ إلى الدّلالة الكلّيّة في ثِنْي السّياق، ومِن ذلك: **﴿يريدون وجهَه﴾**[2] ،**﴿ إنّما نطعمُكم لوجه الله﴾** [3]، **﴿إلاّ ابتغاءَ وجه ربِّه الأعلى﴾** [4]. والمرادُ مِن الوجهِ ههنا إخلاص النّيّة لله[5]. ومِن ذلك أيضاً اليد ، كما في قوله :**﴿ ما خلقتُ بيدي﴾** [6]، و**﴿ ويد الله فوق أيديهم﴾**[7] ، و**﴿ ممّا عملتْ أيدينا﴾** [8]، وهي مؤوّلة بالقدرة. ومِن نحو ما تقدّم صفةُ القرب والفوقيّة والمجيئ والرّضا والغضب والعَجب[9]، والذي يبدو أنّ تلكم الصّفات ما جاءت إلاّ في سياق لغويّ كريمٍ يجري مَجرى لغة العربِ في مخاطباتِها، وكلّ صفةٍ تستحيل حقيقتُها على الله تفسَّر بلازمِها[10]، وعند هذا يظهر المتدبّرُ برويّةٍ ولطفِ نظرٍ متجافياً عن مذهبِ الشّطط والتكلّف في تغييبِ التّأويل أو استحضارِه، بلْ يُقصَد إلى الغرض المتعيِّن مِن تلكم الصّفاتِ كمن ينظر إلى المعنى مِن سترٍ رقيق، فيعوّل على المعنى الكلّيّ السّياقيّ؛ ذلك أنّ جميع الأغراضِ النّفسانيّة: أعني الرّحمةَ والفرحَ والسّرورَ والغضبَ والحياءَ والمكرَ والاستهزاءَ لها أوائلُ ولها غايات، ومن ذلك "الغضبُ ، فإنّ أوّله غلَيان دم القلب ، وغايتَه إرادة

---

(١) انظر : المصدر نفسه، ٢/٨٠.

(٢) الآية (الكهف،٢٨)

(٣) الآية (الإنسان،٩)

(٤) الآية (الليل،٢٠)

(٥) انظر: السيوطي – الإتقان، ٦٩٨.

(٦) الآية (ص،٧٥)

(٧) الآية (الفتح،١٠)

(٨) الآية (ياسين،٧١)

(٩) انظر: المصدر نفسه، ٦٨٨.

(١٠) انظر: المصدر نفسه، ٦٩٢.

إيصالِ الضّرر إلى المغضوب عليه، فلفظُ الغضب في حقّ اللهِ لا يُحمَل على أوّله الذي هو غلَيان دم القلب، بلْ على غرضِه الذي هو إرادةُ الإضرار، وكذلك الحَياء،...،له أولٌ، وهو انكسارٌ يحصل في النّفس، وله غرضٌ وهو تركُ الفعل، فلفظُ الحياء في حقّ الله على ترك الفعلِ لا على انكسارِ النفس"[١].

سادساً: الإشكال السّياقيّ:

تبيّن قبْلاً أنّ للسّياق فضلاً في توجيه المعنى؛ ذلك أنّه عنصرٌ دلاليّ غيرُ ملفوظٍ ، ولعلّ كثيراً مِن آي الذّكر الحكيم لا يُفهَم الفهمَ الدّقيق المُستقصي إلاّ إذا استُحْضِر سياقه الأوّل، وقد تقدّم أنّ شطراً مِن المتشابِه المُشكِل باعثه انتفاءُ معرفة الأحوال التي نزلتْ فيها الآياتُ الكريمات، وقد وقف المفسِّرون طويلاً عند السّياق وأحوالِه تجليةً لِما يحيط بالآياتِ مِن ملامحَ سياقيّةٍ تاريخيّة واجتماعيّة تفضي إلى مزيدِ معنى:

﴿ إنّما النّسيء زيادةٌ في الكفر﴾ [٢]

عدّ الرّاغب الأصفهانيُّ هذه الآيةَ مِن المتشابِه[٣]؛ ذلك أنّ مَن لا يعرف عادتَهم في الجاهليّةِ يتعذّر عليه معرفة تفسيرِها واستنباطُ مقصِدها. ويُستفتَح رفع اللّبسِ الواقعِ فيها ببيان دلالةِ النّسيىء؛ وهو التّأخير، فنقول: نسأتُ عنه دَيْنه ، ومنِه النَّساء في العمُر، فنقول: أنْسَأ الله أجلَك[٤]، ولكنّ اللّبْس لمّا يُرْفَع؛ إذْ إنّ في النّسيىء دلالةً عامّة، فإلى أيّ نسيىء تفيئ الآية الشّريفة؟ لقد وقع اللَّبس ، ولا سبيلَ إلى رفعِه إلاّ بالعَود على السّياق التّاريخيّ والاجتماعيّ ثانيةً.

---

(١) المصدر نفسه، ٦٩٢.

(٢) الآية (التوبة، ٣٧).

(٣) انظر: الراغب – المفردات، ٤٩٢.

(٤) انظر: الفراء – معاني القرآن، ١/٣٥٧، القالي– الأمالي، ١/ ٤.

كانتْ العرب في الجاهليّةِ إذا صَدَروا عن مِنى قام رجلٌ مِن بني كنانةَ يقال له: نُعَيم بن ثعلبةَ، وكان رئيسَ الموسم، فيقول: أنا الذي لا أُعاب، ولا يُرَدّ لي قضاء، فيقولون له : أنسِئْنا شَهراً- وهم يريدون تأخيرَ حرمةِ المُحرَّم- واجعلْها في صَفَر، وأحلَّ لنا المُحرَّم؛ ذلك أنّهم كانوا يكرهون أنْ تتوالى عليهم ثلاثةُ أشهرٍ لا يُغيرون فيها ، لأنّ مَعاشهم كان مِن الإغارة، وكان نُعيم يستجيبُ لهم، فيُحلّ لهم المُحرّم، ويحرّم عليهم صَفراً، فإذا ما كانتْ السّنة المُقْبِلة حَرّم عليهم المُحرَّم، وأحلّ لهم صَفراً، وهذا هو الإنْساء[1]، ومنه قولُ الشّاعر:

ألسْنا النّاسئِين على مَعدٍّ   شهورَ الحلِّ نجعلُها حراما

وكأنّهم كانوا يستنسِئونه ويستقرضونَه، فيؤخِّرون التّحريم، ويحرِّمون غيرَه مكانَه لحاجتِهم إلى القتال، ولذلك قال الله: "يحلونه عاماً ويحرِّمونه عاماً"[2]، ولا يخفى أنّ هذه المعرفة المتقدِّمة تُؤذِن بالقبض على المعنى المتعيّنِ وفهمِ الآية الشّريفةِ في سياقِها الأوّل .

﴿ ما جَعَلَ اللهُ مِن بَحيرة ولا سائبةٍ ولا وَصيلةٍ ولا حامٍ، ولكنّ الذين كفروا يفترون على اللهِ الكذبَ﴾ [3].

يظهر، للوهلةِ الأولى، أنّ هذا السّياق البِنيويّ الشّريف لا يقدِّم لنا إلاّ براءةً مِن الله العظيم في حقِّ البَحيرة والسّائبة والوَصيلة والحامي ، وهذه غايةٌ الإبانة فيه، إذْ إنّها كالمصطلحاتِ التي تَستغرقُ معرفة جاهليّةً مكثّفة، وليس ثمَّ بدٌّ مِن استحضارِ

---

(١) انظر بيان الحادثة: الفراء - المصدر نفسه، ٣٤٦/١ - ٤٣٧، القالي، المصدر نفسه، ١ /٤ الزمخشريّ - الكشاف ، ١٨٩/٢، واسم الرجل عنده جنادة بن عوف الكناني، أبو حيان - البحر المحيط ، ٤٣/٥

(٢) انظر: معنى النسيء: أبو عبيدة - مجاز القرآن، ٢٥٩/١، وقد تبين أن النبي-صلى الله عليه وسلم- لما حجّ قال: " إن الزمان قد استدار وعاد كهيئته فاحفظوا العدد"، ابن قتيبة- تفسير غريب القرآن، ١٨٦، ابن عزيز - النزهة، ٤٤٦، مكي - العمدة ، ١٤٧، واكتفى بذكر المرادف ، التأخير، الراغب- المفردات،٢٥٤ ، ابن الهائم - التبيان ، ٢٢٤، والآية (التوبة، ٣٧).

(٣) الآية (المائدة ، ١٠٤).

ذلكم السّياقِ التّاريخيّ والاجتماعيّ أجلَ تمثّل هذه المعرفةِ المُختزَلة الآتيةِ في رسومِ مصطلحات : أمّا البَحيرة، فهي فَعيلة بمعنى مفعولة، وقد قيل إنّها النّاقة إذا نتجتْ خمسةَ أبطن؛ فإنْ كان الخامس ذكراً نَحروه، فأكله الرّجال والنّساء، وإنْ كان أنثى بَحَروا "شقّوا" أذنها، وكانتْ حَراماً على النّساء لحمَها ولبنَها وركوبَها[1]. وقيل كانوا يحرِّمون ركوبَها ، فلا تُطرَد عن ماءٍ ولا مرعى، وإذا لقيها المُعْيي لم يركبْها[2]. أمّا السّائبة فقدْ قيل إنّ الرّجل في الجاهليّةِ إذا قَدِم مِن سفرٍ بعيدٍ فبلغ منزلَه، أوْ بَرِئ مِن علّةٍ سيَّب بعيرَه بنَذْر حَمَلَه[3]،أو سَيّب مِن مالِه ما شاء[4]، كأنْ يُسيّب عَبداً[5]. أمّا الوصيلة – وهي في الغنم على قول الأكثرين – فقد كانوا إذا ولدتْ سبعةَ أبطنٍ نظروا، فإنْ كان السّابع ذكراً ذُبِح واشترك في أكلِه الرّجال والنّساء، وإنْ كان أنثى تُرِكت لمْ تُذبَح، وإنْ كان ذكراً أو أنثى قيل: وصلتْ أخاها فلمْ تُذْبَح البتّة، وغدتْ منافعها للرّجال دون النّساء إلاّ إذا ماتتْ[6]. أمّا الحامي فهو الفَحل إذا لقح ولده،

---

(١) انظر: ابن قتيبة – المصدر نفسه، ١٤٧، ابن عزيز – المصدر نفسه، ١٣٩، ابن الهائم– المصدر نفسه، ١٨٧، ابن منظور – اللسان، مادة " بحر" وقيل إنها الناقة أو الشاة التي بحرت أذنها، وكانت العرب تفعل بهما ذلك إذا نتجتا عشرة أبطن، فلا ينتفع منها بلبن ، ولا ظهر، ثم تترك ترعى وترد الماء ويحرم لحمها على النساء، ويحلل للرجال، فنهى الله عن ذلك. اللسان : مادة " بحر" .

(٢) انظر: الزمخشريّ – الكشاف، ٦٤٩/١، وقيل البحيرة هي السقب إذا ولد بحروا أذنه وقالوا اللهم إن عاش فعفي، وإن مات فذكي، وإن مات أكل. ويظهر من اختلاف هذه النقول أن العرب كانت تختلف طرائقها في البحيرة، فصار لكل منها في ذلك طريقة، وهي كلها ضلال: انظر أبو حيان – البحر ، ٣٣/٤.

(٣) انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن، ١٧٩/١، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ١٤٧، ابن عزيز – النزهة، ١٤٠، ابن الهائم – التبيان، ١٨٧، ابن منظور – اللسان ، مادة " سيب".

(٤) انظر: الفراء– معاني القرآن، ٣٢٢/١، أبو حيان – البحر ، ٣٣/٤. وقد أشار الفراء إلى أن من معاني "السائبة" الناقة إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث سيّبت فلم تركب، ولم يجزّلها وبر، ولم يشرب لبنها، فإذا ماتت أكلها الرجال والنساء.

(٥) انظر: أبو عبيدة – مجاز القرآن ١٧٩/١، الزمخشريّ – الكشاف، ٦٤٩/١، أبو حيان – المصدر نفسه، ٣٣/٤. ابن منظور – اللسان مادة " سيب".

(٦) انظر معاني " الوصيلة": الفراء– معاني القرآن، ٣٢٢/١، أبو عبيدة – المصدر نفسه، ١٨٠/١، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، ١٤٧، ابن عزيز– النزهة، ١٤٠، مكي – العمدة، ١٣٣، ابن الهائم– التبيان، ١٨٧، الزمخشريّ– المصدر نفسه، ٦٤٩/١، أبو حيان – المصدر نفسه، ٣٣/١-٣٤. ابن منظور – المصدر نفسه، مادة " وصل" ، وقد تباينت الأقوال فيها، وقد أوردها صاحب البحر.

ويُقال إذا نتج مِن صُلبه عشرة أبطن، فقد حمى ظهرَه فلا يُرْكَب ولا يُمنَع مِن كلأٍ ولا ماءٍ ولا يُجزّ له وَبر[1].

يظهر ممّا تقدّم أنّ أقوال اللّغويّين أنفسِهم قد تباينتْ في تفسير تلكم المصطلحات، ولعلّ مِن بواعثِ هذا التّباينِ إلماحةَ أبي حيّان إلى أنّ العرب كانتْ تختلف طرائقُها في البَحيرة، وما يجري على البَحيرة يجري على السّائبة والوَصيلة والحامي، وليس هذا مَوقعَ الإشكال؛ ذلك أنّ الله حرّم هذه الأعرافَ الجاهليّة، وهذا ما يوحيه سياقُ الآية الشّريفة: "ما جعل الله...، ولكنّ الذين كفروا يفترون على اللهِ الكذب". ولكنّه واقع في غيابِ السّياقِ الاجتماعيِّ والتّاريخيّ.

﴿ وكلّ إنسانٍ ألزمناه طائرَه في عُنقِه﴾ [2]

موضع النّظر في هذه الآيةِ الشّريفةِ قولُه: طائره، فقدْ قيل إنّه حظُّه أو عملُه إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرّ[3]، والحقّ أنّ هذا الإشكال لا يُرفَع إلاّ باسترجاع السّياقِ التّاريخيّ الاجتماعيّ، وقد بيّن ابنُ قتيبةَ أنّ المعنى المتعيِّن مِن هذه الآيةِ أنّ لكلّ امرئ حظّاً مِن الخير والشّرّ قد قضاه الله عليه، فهو قد لَزِم عنقَه، والعربُ تقول لكلّ ما لزم الإنسان: قد لزم عنقَه، وقد قيل للحظِّ -إنْ خيراً وإنْ شرّاً - طائرٌ لعادةٍ ران عليها إلفُ العرب قديماً؛ ذلك أنّهم كانوا يقولون جرى له الطّائرُ بكذا مِن الشّرّ أو الخير على سبيل الطّيرة والفال، "فخاطبهم اللهُ بما يستعملون، وأعلمهم أنّ

---

(١) انظر: معاني الحامي: الفراء – المصدر نفسه، ٣٢٢/١ والمعنى عنده: إذا لقح ولد ولده، أبو عبيدة – المصدر نفسه، والمعنى: إذا نتج من صلبه عشرة أبطن، ابن قتيبة– المصدر نفسه، ١٤٨، ابن عزيز – المصدر نفسه، ١٤٠، وقد ذكر المعنيين. مكي – المصدر نفسه،١٢٣، والمعنى البعير إذا نتج من صلبه عشرة فلا يركب، ابن الهائم– المصدر نفسه، ١٨٧، وقد ذكر المعنيين. الزمخشريّ – المصدر نفسه، ٦٤٩/١، أبو حيان – المصدر نفسه، ٣٤/٤.

(٢) الآية (الإسراء، ١٣)

(٣) انظر: الفراء – المصدر نفسه، ١١٨/٢، واقتصر على معنى "عمله" ، ابن قتيبة – المصدر نفسه، ٢٥٢، ابن عزيز– المصدر نفسه ، ٣١٢، الراغب – المفردات،٣١٠ ، ابن الهائم– المصدر نفسه، ٢٦٤، وقد ذكر أن المعنى هو " كتابه" انظر: العمدة ، ١٨٠.

الأمرَ الذي يجعلونه بالطّائر هو ملزمُه أعناقَهم"[1]. والمعنى الكلّيّ أنّ عمل المرءِ لازم له لزومَ القِلادة أو الغلّ لا يُفكّ عنه[2].

وممّا يتّصل بمبحث السّياق ودلالته معرفةُ أسباب النّزول، فمعلومٌ أنّ لكثير مِن الآيات الشّريفة وقائعَ مخصوصة أحاطتْ بها، وتعلّقتْ بها دلالةُ النّصّ الشّريف، فقد يظهر الكلام ذا عموميّة في معناه، ولكنّ له خصوصيّة مِن جهةِ ارتباطِه بواقعةٍ ما. وقد خطّأ الزّركشيّ والسّيوطيّ القائلِين بأنّ هذا المبحث لا طائلَ تحته لجريانه مَجرى التّاريخ[3]، وهو ليس كما زعم؛ ذلك أنّ مِن فوائده تخصيصَ الحكم عند مَن يرى أنّ العِبْرةَ بخصوص السّبب، والوقوفَ على المعنى، وإزالةَ الإشكال[4].

﴿ لا تحسبنّ الذين يَفرحون بِما أتَوْا ويحبّون أنْ يُحمَدوا بما لمْ يَفعلوا﴾ [5].

أشكلتْ هذه الآية على مروانَ بنِ الحكم، فقال: "لئنْ كان كلّ امرئٍ فَرِح بما أوتي، وأحبّ أنْ يُحْمَد بما لمْ يفعل مُعذّباً، لنعذبّن أجمعون، ولمْ يُرفَع ما داخله مِن إشكال إلاّ ببيانٍ لابن عبّاسٍ مؤدّاه أنّ الآية الشّريفة نزلتْ في أهل الكتاب، فقدْ كان رسول الله –صلّى الله وعليه وسلّم– قد سألهم عن شيءٍ فكتموه إيّاه، وأخبروه بغيرِه، مُخادعين مُستحمِدين بذلك إليه، فَرِحين بكتمانِهم ما سألهم عنه[6]. والحاصلُ ممّا تقدّم أنّ دلالة الآيةِ في ظاهرها ذات عموميّة، ولم يُرفَع هذا اللّبْس الآتي مِن جهةِ تغييبِ سياقِ الحال إلاّ باسترجاعِه وتمثّلِه؛ ذلك أنّه عنصر دلاليّ يتحكّم بالمعنى ويوجّهه إمّا بالتّخصيصِ أو التّعميم أو الإبانةِ.

---

(1) ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن، 252، وقد ذكر هذا المعنى الشريف الرضي – البيان، 131.

(2) انظر: الزمخشريّ – الكشاف، 2/440.

(3) انظر: الزركشي – البرهان، 1/22، السيوطي – الإتقان، 99.

(4) انظر: الزركشي – المصدر نفسه، 1/22، السيوطي – المصدر نفسه، 99.

(5) الآية (آل عمران، 188).

(6) انظر: الواحدي – أسباب النزول، ط1، دار هلال، بيروت، 1983، 97، الزركشي – البرهان، 1/27. السيوطي – لباب النقول ، 62، الإتقان، 100، وقد تعدد القول على أسباب نزول هذه الآية، ولعل هذا أرجحها.

﴿ ليسَ على الذين آمنوا وعمِلوا الصّالحات جناحٌ فيما طَعِموا إذا ما اتّقَوا﴾ [1]

قيل إنّ عثمانَ بنَ مظعونٍ وعمر بن معدي كرب كانا يقولان بإباحةِ الخمر، وحجّتُهما هذه الآية التي يتّسم سياقُها البنيويّ بالعموميّة، ولكنّ الشّرط فيها ليس معلّقاً على الدّلالةِ المُستغرِقةِ المفتوحة، ولو علِما سببَ نزولِها لَما قالا ذلك، وهو أنّ ناساً قالوا لمّا حُرّمتْ الخمر: كيف بمَن قُتِلوا في سبيلِ الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهي رجسٌ؟ فنزلتْ هذه الآية[2].

---

(١) الآية (المائدة،٩٣)

(٢) انظر: السيوطي – اللباب ، ١٠٠، وانظر: الواحدي – أسباب النزول، ١٤٤، الزركشي – البرهان ، ٢٨/١.

مُشْكِلُ الحديثِ وغريبُه

تقديمٌ:

للحديثِ النّبويّ الشّريفِ مكانةٌ مؤثّلة في التّشريعِ الإسلاميّ؛ إذْ إنّه القطبُ الثّاني الذي يدور عليه الإسلامُ، وفرضٌ مِن فروضِ الكفاياتِ يجب التزامُه[١]، ولمّا كان ذلك كذلك، انصرف كثيرٌ مِن المسلمين شرّاحاً ومتعلّمين على جمعِه ودرسِه واقتناصِ فوائدِه، معرّجين على أحاديثَ يكتنفُها إشكالٌ له بواعثُ متباينة، فشَرَعَ بعضُهم يلتمسُ هذه الأحاديثَ المشكلةَ التي قد يستغلقُ معناها على أبناءِ اللّغة؛ بل على أهلِ العلمِ مِنهم والتّنقير، مقيماً على تفسيرِها، وبيانِ غريبِها، ومشكلِ إعرابِها، وبديعِ أسلوبِها، ولمْ يقفوا عند غريبِ حديثِ الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- فقط، بل اشتملتْ مصنّفاتهم على غريبِ أحاديثِ الصّحابةِ والتّابعين وغيرِهم، "ثمّ إنّ الحديثَ لمّا ذهب أعلامُه بانقراضِ القرون الثّلاثة، واستأخر به الزّمانُ فتناقلتْه أيدي العجمِ، وكثرتْ الرّواةُ، وقلّ مِنهم الرّعاة، وفشا اللّحْن، ومرنتْ عليه الألسنُ اللّكن، رأى أولو البصائرِ والعقولِ، والذابّون عن حريمِ الرّسولِ أنّ مِن الوثيقةِ في أمرِ الدّين، والنّصيحةِ لجماعةِ المسلمين، أنْ يُعْنَوْا بجمعِ الغريبِ مِن ألفاظِه، وكشفِ المُغدف مِن قناعِه، وتفسيرِ المشكلِ مِن معانيه، وتقويمِ الأَوَد مِن زيغ ناقليه"[٢]، ومِن الأوائلِ الذين لهم قُدْمة في التّصنيفِ في هذا المضمارِ أبو عبيدةَ مَعْمَر بن المثنّى[٣]،ثمّ تلاه قُطْرب، وأبو عمرو الشّيبانيّ، وأبو زيدٍ الأنصاريّ وغيرهم[٤]،

---

(١) ابن الأثير – النهاية، ٣/١.

(٢) الخطابي، غريب الحديث، تحقيق عبدالكريم العزباوي، دار الفكر، دمشق ١٩٨٢، ٤٧/١.

(٣) ابن الأثير– المصدر نفسه١ / ٧ ، وقد أشار د. حسين نصار أن هذا العزو يعوزه مراجعة وفضل بيان، فقد نسب صاحب الفهرست الكتاب الأول في هذا المبحث إلى أبي عدنان بن عبد الأعلى. انظر حسين نصار، المعجم العربي، ٤٢/١.

(٤) لمزيد بسط القول انظر: ابن الأثير – المصدر نفسه، ١/٣-١١، وحسين نصار – المصدر نفسه، ٤٢/١-٥٤، ونعمان العلي– غريب الحديث النبوي، رسالة ماجستير ، جامعة اليرموك، إربد، ١٩٨٧، ٥٠-٥٤.

والظّاهرُ أنّ هذه الكتبَ التي ذُكِرت مفقودة مطويّةٌ؛ وهي إذا حُصّلتْ كانتْ كالكتابِ الواحدِ؛ إذ كان مصنفوها يَرِدون على الحديثِ الواحدِ فيعتورونه فيما بينَهم، فيدخلُ بعضُهم على بعضٍ[1]، ثمّ جاء أبو عُبيد الهرويّ ، فصنع كتابَه الموسومَ بغريبِ الحديثِ، وتلاه ابنُ قتيبةَ الذي عقّب بكتابِه كتابَ أبي عُبيد الهرويّ، وفي الكتابَين مندوحةٌ عن الكتبِ الأُولِ؛ إذْ كانا قدْ أتيا على جِماعِ ما تضمّنتْه مِن شروحٍ وبيانٍ، فزادا عليها بالشّرحِ والتّأويلِ والتّطويلِ[2]، ثمّ كثرتْ المصنَّفاتُ في غريبِ الحديثِ ومشكلِه، إلى حدّ الوصولِ إلى عتبةِ العملِ المعجميِّ.

ولمّا شرعتُ في دراسة هذه المصنَّفات أجلَ تمثّلِ مظاهرِ التّفاصلِ فيها ألفيتُها متباينةً في حقولِ اهتمامِها، فمِنها ما يتردّدُ بين بيانِ الغريبِ في لفظِه وأسلوبِه وإعرابِه، كغريبِ الحديثِ للهرويّ، وغريبِ الحديثِ لابنِ قتيبة، وغريبِ الحديثِ للحربيِّ، وغريبِ الحديثِ للخَطّابيّ، والفائقِ للزّمخشريِّ، والنّهايةِ لابنِ الأثيرِ وما شابهها، ومنِها ما يتّخذُ سَمْتاً مخصوصاً على التّعيين؛ كأنْ يُعْنى مصنّفٌ بالمشكلِ منه في وجهةٍ واحدة؛ وذلك نحو "مشكل الحديثِ وبيانه" لابن فورك، و"تأويل الأحاديثِ الموهمةِ للتّشبيه" للسّيوطيّ، وقدْ عُني المصنِّفان بتأويلِ ما اشتهر مِن الأحاديثِ المرويّةِ عن الرّسولِ -صلّى الله عليه وسلّم- ممّا يوهِم ظاهرُه التّشبيه والتّجسيم مِن ذكرِ الجوارحِ والأبعاضِ، ويُفهَم معناه فَهْماً يشطّ بالألفاظِ إلى مكانٍ طَروحٍ، وقدْ عرّج ابن فورك على المُحْكَمِ والمتشابِهِ في آي التّنزيلِ العزيزِ، مبيّناً أنّ هذه الظّاهرةَ ليستْ مقصورةً عليها؛ إذْ إنّها تتجلّى في حديثِه صلّى الله عليه وسلّم، فمِنه الكلامُ البيّنُ المستقلّ في بيانِه بذاتِه، ومنِه المفتقِرُ في بيانِه إلى غيرِه، وذلك على هيئةِ عادةِ العربِ في خطابِها، وعُرفِ أهلِ اللّغةِ في بيانِها، ولم يكن كلّ

---

(١) انظر :الخطابي – غريب الحديث، ١/٥٠، ابن الأثير– النهاية، ١/٧.

(٢) انظر : الخطابي – المصدر نفسه ، ١/٥٠، ابن الأثير – المصدر نفسه، ١/٧.

خطابِهم جليَّاً مفهوماً مستغنياً عن بيانٍ وتفسيرٍ، ولم يكنْ كلّه مستغلِقاً يعوزُه البيانُ والتّفسير[١].

ومِن تلكم المصنّفاتِ المخصوصةِ بوجهةٍ واحدةٍ لا يحيد عنها مصنّفوها "شواهدُ التّوضيحِ والتّصحيحِ لمشكلاتِ الجامعِ الصّحيح" لابنِ مالكٍ، وقد عُنِي فيه بالمشكلِ منِه في الإعرابِ، فأشار في كثيرٍ مِن المواضعِ إلى تعدّدِ وجوهِ الإعرابِ، والحذفِ، ولغاتِ العربِ، ومثلُه العُكبريّ في مصنّفِه "إعرابُ الحديث النّبويّ"، وقد أشار إلى أنّ جماعةً مِن طلبةِ الحديثِ التمسوا منِه "أنْ يُمليَ مختصَراً في إعرابِ ما يُشكِل مِن الألفاظِ الواقعةِ في الأحاديثِ، وأنّ بعضَ الرّواةِ يخطِئُ فيها، والنّبيّ- صلّى الله عليه وسلّم- وأصحابُه بريئون مِن اللّحْن..."[٢].

ومِنها "المجازاتُ النّبويّة" للشّريف الرّضيّ؛ فقدْ عمد إلى شرحِ بعضِ الأحاديثِ النّبويّةِ الشّريفةِ؛ إذْ كان "فيها كثيرٌ مِن الاستعاراتِ البديعةِ، ولُمَعِ البيانِ الغريبةِ، وأسرارِ اللّغة اللّطيفةِ، يعظمُ النّفع باستنباطِ معادنِها، واستخراجِ كوامنِها..."[٣].

ومِنها "تأويلُ مختلف الحديثِ" لابن قتيبةَ، وسبيلُه في مصنّفِه هذا ليستْ النّظرَ البنيويّ، أو تتبّعَ الغريبِ والحوشيّ، وإنّما هي قائمةٌ على ذكرِ الأحاديثِ التي ادّعِي فيها التّناقض؛ كأنْ ينقضَ حديثٌ آخرَ، أو ينقضَ حديثاً آيٌ مِن التّنزيلِ، أوْ ينقضَ حديثاً النّظرُ وحجّة العقلِ، ويظهرُ أنّ هذه السبيلَ التي سلكها ابنُ قتيبةَ مفارقةٌ لِما تقدّم مِن وجهاتٍ؛ ذلك أنّها قائمةٌ على مقابلةِ حديثٍ ينتسبُ إلى سياقٍ بحديثٍ آخرَ ينتسب إلى سياقٍ آخرَ مُبيِّناً وجهَ التّفاصلِ المزعوم بين هذين السّياقَين، عاملاً على رفعِه، بما تيَسّر له مِن إمكاناتٍ.

---

(١) انظر : ابن فورك – مشكل الحديث وبيانه، ٣٩.

(٢) العكبري – إعراب الحديث النبويّ، ٩٣.

(٣) الشريف الرضي – المجازات النبوية، تحقيق محمود مصطفى، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧، ١٩.

وإذا ما استجمع الباحثُ أشتاتَ ما تقدّم مِن حديثٍ حولَ مصنَّفات غريبِ الحديثِ ومشكلِه –مع استذكارِه تباينَها في وجهاتِها المذكورةِ قبْلاً – إذا ما فعل ذلك، فإنّه سيقتنصُ ملْمَحاً مشتركاً ينتظمُها؛ وهو محاولةُ تقريبِ الأحاديثِ وتفهيمِها لِما يعتريهامِن إشكالٍ وتفاصلٍ، أو لِما يُقَدّر أنْ يكون. وقدْ بدا لي آنَ تلبّثي عندَها أنّ البواعثَ على نشوءِ اللّبس متعدّدة؛ فمنِها ما يتعلّق ببنيةِ اللّغةِ في ذاتِها، ومنها ما يُعْزى إلى السّمتِ الأسلوبيِّ الذي جرتْ عليه تلك الأحاديث، ومنِها ما يتعلّقُ بسياقِ الحالِ، أو السّياقِ الاجتماعيّ التّاريخيّ، ولعلّ الإشارةَ إلى هذه ا لمحاورِ يكتنفُها عمومٌ يعوزُه بسطٌ للقولِ وتخصيص، والمُبتغى مِن ذلك كلّه استشرافُ مجموعةٍ مِن المُحتكَمات التي صدَر عنها المصنِّفون في هذه المباحثِ فتمثّلوها في عدّهم بعضَ الحديثِ غريباً.

أولاً : الإشكال الصّوتيّ:

لمْ أعثرْ على أمثلةٍ كثيرةٍ يتجلّى فيها مطلبُ هذه المباحثة، ولعلّ باعثَ ذلك شيئان: **أوّلهما:** أنّ كثيراً مِن الأحاديثِ لم تُحفَظ بنصّها اللّفظيّ، وإنّما تناقلها الرّواةُ بالمعنى، وأذاعوها كذلك، فصار تمثّلُ الظّاهرةِ هذه متعذّراً. **وثانيهما:** أنّ هذه الظّاهرةَ لا تتجلّى إلاّ على مستوى صوتيٍّ كما تقدّم قبْلاً. وقد بدا لي أنّها أكثرُ ظهوراً في التّنزيلِ العزيزِ؛ ذلك أنّه كتابٌ تكفّل العظيمُ بحفظِه، فلم يخالطْه مِن الشك أدناه البتّةَ، وهو كتابٌ يُتلى صباح مساء، ولذلك نهدَ اللّغويّون والقرّاءُ ينبّهون على مواضعِ الوقفِ اللاّزمِ والحسنِ والسّكتِ وغيرِ ذلك. ومِن أمثلةِ تجلّي هذه الظّاهرةِ في الحديثِ:

" عجبتُ للمؤمنِ إنّ الله لم يقضِ له قضاءً إلاّ كان خيراً له"(١)

---

(١) العكبري – إعراب الحديث النبوي، ١٢٤.

موضعُ النّظر في هذا السّياقِ الشّريفِ كسرةُ همزة "أنّ" وفتحها، ولا ريبَ أنّ التّردّدَ بين هذين الوجهَين ما هو إلاّ تردّدٌ بين معنيين، وقدْ عرّج العُكبريُّ على الوجهين مستجيداً الكسرَ على الاستئنافِ، والمُحتكَم الرّئيسُ في تعيُّنِ أحدِهما هو المفصلُ الصّوتيُّ الذي يأتي عَقِبَه تنغيمٌ مفارقٌ لمبتدَأ الكلامِ:

عجبتُ للمؤمنِ ∆ إنّ الله لم يقضِ له قضاءً إلاّ كان خيراً له.

فيكونُ الكلامُ قد تمّ عند المؤمنِ، ثمّ استُؤنف بكلامٍ جديدٍ، وهيئةِ تنغيمٍ جديدةٍ، وقد يوصَلُ الكلامُ، وتبقى درجة التّنغيمِ واحدةً غيرَ متفاوتة، وعندَها يتعيّنُ فتحُ همزة "أنّ" على معنى: **عجبتُ للمؤمنِ في أنّ الله لم يقضِ له قضاء إلاّ كان خيراً له . أوْ عجبتُ للمؤمنِ من أنّ الله...**[١].

" لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ إنه يحبّ الله ورسولَه"[٢]

تباين وجهُ القولِ على الهمزةِ في قولِه (أنّه)، ولعلّ الذي أعلى مِن وجودِ التّباينِ هو توهّمُ الأصالةِ والزّيادةِ في "ما"، فالرّسولُ –صلّى الله عليه وسلّم– نهى عن لعنِه؛ لأنّه رأى أنّه "المجلود" مُحبٌّ لله ورسولِه صلّى الله عليه وسلّم، ولكنّ "ما" نافيةٌ: ما علمتُ أنّه يحبّ اللهَ ورسولَه، ولذلك قيل إنّها زائدةٌ، والمعنى: "فوالله علمتُ أنّه يحبّ اللهَ ورسولَه"، وهنا تكونُ الهمزةُ مفتوحةً، والكلامُ موصولاً بعضُه ببعضٍ، والمصدر "أنّه يحبّ" في محلّ نصبٍ بـــ "يعلم"، فلا مَفصِلَ صوتيّاً موجود. وقدْ تكونُ "ما" أصليّة[٣]، ويكونُ المفعولُ به محذوفاً، والهمزةُ مكسورةً، والتّقدير:

فوالله ما علمتُ عليه أو منه سوءاً ، ثمّ أستأنف بعد ذلك:

"فوالله ما علمت ∆ إنّه يحبّ اللهَ ورسولَه".

---

(١) انظر : العكبري – إعراب الحديث النبوي، ١٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ٢٨١. وقد ذكر المحقق أن رجلا كان على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد لقب "حمارا" وكان يضحك الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وقد جلده الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الشراب فقال رجل من القوم: اللهم العنه، فما أكثر ما يؤتى به ! فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) الحديث المتقدم.

(٣) وقد أشار العكبريّ إلى الوجهين ، الفتح والكسر. وقد رجح د. نهاد الموسى أن تكون "ما" ظرفية زمنية.

ولا ريبَ أنّ ثمّ بوْناً معنوياً ينبني على تجلّي المفصلِ الصوتيِّ وتغييبِه؛ فتجليتُه تعمل على انفساخِ نسيجِ التّركيب البنيويّ، واعتبارِ ما بعدَه- أعني المفصلَ- كلاماً مستقلاً قائماً برأسِه، أمّا تغييبُه فإنّه يفضي إلى أنْ يكون الكلامُ شرْجاً واحداًمتساوقاً.

سُئل الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- عمّن صامَ الدّهر، فقال :"**لا صامَ ولا أفطرَ**"[1] . معلومٌ أنّ "لا" مع الماضي تفيدُ الدّعاء، كقولِنا: لا زالَ الله في عونِك"، ومعنى الحديثِ على هذا الوجهِ أنّه دعاءٌ على ذلك الذي صامَ الدّهر؛ إذْ إنّه لو أرادَ الإخبارَ لقالَ: لم يصمْ ولمْ يصلِّ. وقدْ يكونُ معناه الإخبارَ كقولِه -تعالى- في التّنزيل:﴿ **فلا صدّق ولا صلّى**﴾[2]، ولعلّ باعثَ هذا اللّبس – وهو التردّد بين معنى الدّعاءِ والإخبارِ في الحديثِ- لعلّه غيابُ التّنغيم، وقد أدّى هذا إلى تشاكلِ الأسلوبَين في ثوبٍ ظاهريٍّ متماثِل، وما مِن ريبٍ أنّ تنغيمَ الدّعاءِ في سياقِه الأوّلِ مفارقٌ لتنغيمِ الإخبارِ في السّياقِ نفسِه.

أُتي النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بإناءٍ مِن لبنٍ، فقال: "**لولا خمّرتَه ولو بعودٍ تعرضُه عليه**"[3]. والتّخميرُ ههنا التّغطية، وقد يتساءلُ القارئُ أين جوابُ لولا؛ ذلك أنّه يخالُها شرطيّة، ولكنّ الأمرَ مخالفٌ لهذا الوهمِ؛ إذْ إنّها تحضيضيّة[4]، ويشهدُ على هذه روايةُ ابنِ الأثيرِ لهذا الحديثِ: "هلاّ خمّرتَه"[5]، ولعلّ اللَّبس الذي قد يقعُ في هذا الحديثِ آتٍ مِن تغييبِ التّنغيمِ وانفصامِ الحديثِ عن سياقِه الأوّلِ، فتنغيمُ التّحضيضِ ليس كتنغيمِ الشّرطِ.

---

(١) الخطابي – غريب الحديث، ٥١٩/١.

(٢) الآية (القيامة،٣١)، وانظر : المصدر نفسه، ٥١٩/١.

(٣) الزمخشريّ – الفائق، ٣٩٥/١.

(٤) انظر المصدر نفسه ، ٣٩٥/١.

(٥) ابن الأثير – النهاية ، ٧٧/٢.

ثانياً: الإشكال الصّرفيّ:

وهذا محتكَم آخرُ صدر عنه المصنِّفون في غريبِ الحديثِ؛ إذْ إنّهم ألفَوا بنى صرفيّة موهمةً محتمِلة؛ وقد يكونُ مِن رجيعِ القولِ ولكنّه مِن التّذكرةِ أنْ يقال إنّ لأبنيةِ الكلمِ في العربيّةِ معانيَ مخصوصةً، وقد يحدث تداخلٌ بين هذه الأبنيةِ، كأنْ تكونَ الصّيغةُ الواحدةُ مشتركةً محتمِلةً يكتنفُها معنيان أو أكثر، فيقع اللّبْس، وقدْ ورد المصنّفون في غريبِ الحديثِ على مُثُلٍ كثيرةٍ في هذا المطلبِ، فشرعوا يفسِّرون ويشْرحون ما وقعَ فيها مِن تشاكلٍ أو تداخلٍ مع صيغٍ أخرى رفعاً للّبْس، أوْ درءاً لِما قدْ يقعُ فيه القارئ، ومِن الأمثلةِ المُبينةِ عن هذا المطلبِ قولُ قتادةَ: "كانَ أهلُ الجاهليّة لا يورثون الصّبيّ، يجعلون الميراثَ لذوي الأسنانِ، يقولون: "**ما شأن هذا الصّديغ الذي لا يُحترَف له ولا ينفع نجعل له نصيباً مِن الميراث**"(١).

ها نحن أولاءِ نعودُ ثانيةً وثالثةً إلى خطورةِ الاشتراكِ الصّرفيِّ ، فصيغةُ "صَديغ" على وزن" فَعيل" ، وهي صيغةٌ متردّدة بين معنيين: بين فاعلٍ كعليمٍ، ومفعولٍ كأسيرٍ، وقد وقعَ لبسٌ إلى حدِّ الإيهامِ في هذا الحديثِ باعثُه اشتمالُ هذه الصّيغةِ على المعنيين، فقيل إنّ هذا القالَبَ التّصريفيَّ قد جاء بمعنى "فاعلٍ: صادغ"، وعلى هذا يصبحُ المعنى: هو الذي أتى له مِن وقتِ الولادةِ سبعةُ أيّامٍ، لأنّه إنّما يشتدّ صُدغُه إلى هذه المدّة(٢)، وقيل هو مِن قولِهم: ما يصدغُ نملةً مِن ضعفِه، أي ما يقصعُ، فهو صادغ. وقيل إنّ المعنى الذي يكتنفُ هذا القالبَ التّصريفيّ هو

---

(١) انظر الحديث : الزمخشريّ– الفائق، ٢٩١/٢ ، وابن الأثير – النهاية، ١٧/٣، وابن منظور – اللسان، مادة (صدغ)

(٢) انظر : الزمخشريّ– المصدر نفسه، ٢٩١/٢، ابن الأثير– المصدر نفسه، ١٧/٣، ابن منظور – المصدر نفسه، مادة (صدغ)

"مفعول: مصدوغ"، وعلى هذا يكونُ المعنى: ما شأنُ هذا المصدوغ؛ والمصدوغُ هو المصروفُ عن الشّيءِ فكأنّه لضعفِه لا يقدرُ على شيءٍ ، فكأنّه مصروفٌ عنه[1].

ومِن مثلِ ما تقدّم أنّه -صلّى الله عليه وسلّم- نهى عن الغارفة

لعلّه يحسنُ قبلَ تمثّلِ اللّبسِ الصّرفيّ في هذا الحديثِ أنْ يُوضَّح اللّبسُ المعجميّ أوّلاً: يُقال غَرفتُ النّاصية، إذا قطعتُها، فهي مُنغرِفة أو مقطوعةٌ، ولكنّ اللّبْس لمّا يُرْفَعْ حتّى مع هذه التّجلية المعجميّةِ ؛ ذلك أنّ "الغارفة" في هذا السّياقِ محتمِلةٌ متردّدةٌ بين ثلاثةِ وجوهٍ **أوّلُها:** أنْ تكونَ اسمَ فاعلٍ على الحقيقةِ، وهي التي تُجَزّ ناصيتُها عند المصيبةِ. **وثانيها:** أنْ تكونَ اسمَ فاعلٍ بمعنى مفعول، وهي التي تقطعُها المرأةُ وتُسدّيها مُطرَّرة على وسطِ جبينِها، **وثالثُها:** أنْ تكونَ مصدراً بمعنى "الغَرَف"[2]، وكلّ تلكم الوجوهِ متقبَّلةٌ في سياقِها ذلك، ولا يخفى ما يعتري هذا السّياقَ البنيويّ مِن لبسٍ باعثُه اشتراكٌ في معاني أبنيةِ الكلمِ، ولذلك كان حقّاً على المصنِّفين في هذا المطلبِ أنْ يُعّدَ هذا مِن غريبِه.

ومِن مثلِ ما تقدّم ما رُوي عن ابنِ عبّاسٍ في قصّةِ العِجل: "**وإنّه مِن حُليٍّ تعوّره بنو إسرائيلَ مِن حليّ فِرعون**"[3]. وموضعُ التّمثّلِ فيما تقدّم قولُه: "تعوّره"، والمعنى: استعاره بنو إسرائيلَ، والحاصلُ أنّ دِلالةَ "تعوّره" تؤدّي دلالةَ "استعاره" في هذا السّياقِ، أي أنّ "تفعّل" تجيىءُ مجيئاً صالحاً مِن "استفعل"، كقولِنا: استعجبَ وتعجّب، وتوفّى واستوفى[4].

---

(١) انظر : الزمخشريّ- الفائق ، ٢/٢٩١، ابن الأثير- النهاية، ١٧/٣، ابن منظور - اللسان ، مادة (صدغ)

(٢) انظر : الزمخشريّ- المصدر نفسه، ٥٨/٣. وابن الأثير - المصدر نفسه، ٣٦٠/٣، وابن منظور - المصدر نفسه ، مادة غرف.

(٣) الزمخشريّ - المصدر نفسه٤٠/٣، ابن الأثير- المصدر نفسه، ٣٢١/٤، وابن منظور، المصدر نفسه، مادة " عور".

(٤) انظر : الزمخشريّ- المصدر نفسه، ٤٠/٣.

ومِن الأمثلةِ الدّالّةِ على تناوبِ الصّيغِ قولُ الحسن: "حادِثوا القلوبَ بذكرِ الله"، وموضعُ النّظرِ في هذا الحديثِ قولُه "حادثوا"، والمقصدُ الذي أشار إليه المصنِّفون في غريبِ الحديثِ هو قريبٌ مِن معنى التّجديدِ والإحداثِ؛ أي: اجلوها واغسِلوا الدّرَن والطّبع عنها، وتعاهدوها كما يُحادَثُ السّيفُ بالصِّقال[1]، فهذه هي محادثةُ القلوبِ، والظّاهر أنّها جاءتْ على وزنِ "فاعلوا"، والمفاعلةُ قد تكونُ مِن اثنَين؛ وذلك نحو المشاركةِ والمقاتلةِ، ولكنّها في هذا السّياقِ ليستْ كذلك، وإخالُها جاءتْ بمعنى "أحدثوا"، ومِنه أحدثَ الرّجلُ سيفَه[2]؛ ذلك أنّ "فاعلَ" تجيىء بمعنى "أفعل" مجيئاً صالحاً[3].

على صعيدٍ صرفيٍّ آخرَ قدْ تُؤذِن العوارضُ التّصريفيّة باتّفاقِ المبنى وافتراقِ المعنى، وقدْ يحدثُ أحياناً أنْ يُشتَبهَ في الأصلِ الاشتقاقيِّ الذي تُردّ إليه الكلمةُ، ومِن ذلك قولُه –صلّى الله عليه وسلّم–: **"أتاني جبريلُ عليه السّلام ليلةَ أُسري بي بالبُراق، فقال: اركب يا محمّد ، فدنوت منه لأركب فتحيّا منّي"**[4]، والحقّ أنّ ثمّ لَبساً يكتنفُ هذا الحديثَ؛ ذلك أنّ "تحيّا" قدْ تعنى أنّه انقبض وانزوى ، وبذا تكونُ مأخوذةً مِن الحياءِ مأخذَ التّمثيل؛ إذْ إنّ مِن شأنِ الحَييّ أنْ تعتريَه تلك الهيئةُ "التّقبضّ والانزواء"[5]. وقدْ يكونُ الفعل "تحيّا" أصلُه "تحوّى"، وهذا موضعُ تمثّلي على اللَّبس الآتي مِن هذه الجهةِ، ومعناه تجمّعَ أو التوى واستدارَ، وقد أُبْدِلت الواو ياءً، فأصبحتْ ذات رسمٍ مطابقٍ لآخرَ في المبنى، مفارقٍ له في المعنى، وإلى

---

(١) انظر : الزمخشريّ – المصدر نفسه، ٢٦٨/١١، وابن الأثير – النهاية، ٣٥١/١، ابن منظور – اللسان، مادة " حدث"

(٢) انظر : ابن منظور – المصدر نفسه ، مادة " حدث".

(٣) انظر : ابن قتيبة – أدب الكاتب، ٣٠٣، ومثله : عاليت رحْلي على الناقة أي أعليت

(٤) انظر الحديث : الخطابي – غريب الحديث، ١٦١/١، الزمخشريّ – الفائق ، ٣٤١/١. ابن الأثير – النهاية، ١/ ٤٧٢، ابن منظور – اللسان ، مادة " حيا " مع تفاوت في روايته.

(٥) انظر : الزمخشريّ– المصدر نفسه، ٣٤١/١، ابن الأثير – المصدر نفسه، ٤٧٢/١، وابن منظور– المصدر نفسه، مادة " حيا" .

الأخيرِ ذهب الخطّابيّ، ولم يقلْ بغيرِه[1]، والحاصلُ أنّ المطابقةَ الوهميّةَ منشؤها مِن العارضِ التّصريفيّ الحادثِ "الإبدال". وقدْ يكونُ "تحيّا" مِن "تَفَيْعَلَ"، وهو مأخوذٌ مِن الحيّ، كتَحَيّزَ مِن الحَوْز"[2].

وفي مثالٍ آخرَ دالّ أنّه قال-صلّى الله عليه وسلّم-:" **إنّ الله أذهبَ عنكم عُبِيَّةَ الجاهليّة وفخرها بالآباء...".** يُفتَتَح التّفاصلُ في هذا الحديثِ بالغموضِ المعجميّ، والمعنى العامّ هو الكِبْر، ولكنّ النّظرَ الفاحصَ في هذه البِنيةِ يجعلُ صاحبَه يتردّدُ بين وزنَين صَرفيّين لها؛ فإمّا أنْ تكون "فُعّيلة" ، أو "فُعُّولة" ؛فإنْ كانتْ مِن "فُعُّولة" فهي مِن التَّعْبية، ومادّتُها الأصليّة "عبا"، والمتكبِّرُ ذو تكلّفٍ وتعبيةٍ خلافَ مَن يسترسلُ على سجيّتِه، وإنْ كانتْ على وزنِ "فُعِّيلة"، فهي مِن عُبابِ الماءِ، ومادّتُها "عبب"، وهو أوّلُه وارتفاعُه، ثمّ قُلبت الباءُ ياءً[3]، فأصبح لدينا بنيةٌ واحدةٌ تنتسبُ إلى أصلَين اشتقاقيّين.

ثالثاً:الإشكال التّركيبيّ:

تبيّن قبْلاً أنّ اللّبْس قد ينشأ مِن التّركيبِ، وقد وقع هذا في الحديثِ، والنّاظر في مصنّفاتِ غريبِ الحديثِ؛ أعني غريبَ الهرويّ، وابنِ قتيبة، والحربيّ، والخطّابيّ والزّمخشريّ، وابنِ الأثير، وما شاكلها يجدُها لم تُعنَ بدرسِ مشكل الإعرابِ والتّركيبِ عنايةً لها حضورُها، ولا يعني هذا أنّ تلك العنايةَ مُغيَّبة منتفيةٌ، ولكنّها لم تكن كعنايةِ العكبريّ، وابنِ مالكٍ في هذه الوجهةِ على التّعيين؛ فقد وقفا على أحاديثَ مشكلةٍ في تركيبِها، وتعدّدِ وجوهِ القولِ فيها، وتقديرِ ما اجتُزِئ مِن سياقِها البِنيويّ. وإذا ما استُجمعتْ تلكم المصنَّفات معاً أجلَ تمثّلِ هذه الظّاهرة فيها،

---

(١) انظر : الخطابي – غريب الحديث ، ١٦٢/١.

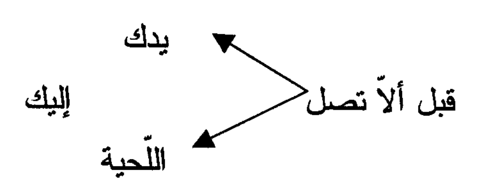
(٢) انظر : الزمخشريّ – الفائق، ٣٨٤/٢، ابن الأثير – النهاية ، ٤٧٢/٣، ابن منظور – اللسان ، مادة " هوز".

(٣) انظر : الزمخشريّ – المصدر نفسه، ٣٨٤/٢، ابن الأثير – المصدر نفسه، ١٦٩/٣، ابن منظور – المصدر نفسه ، مادة "عبب".

فإنّ الإشكال الآتيَ مِن التّركيب يتجلّى في محاورَ متعدِّدة؛ كالقولِ على مرجعِ الضّمير:

رأي المغيرةُ بن شعبةَ عروةَ بن مسعود يكلّم النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ويتناولُ لحيته يمسّها، فقال: **أمسكْ يدَك عن رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- قبل ألا تصل إليك، فقال يا غُدَر: وهل غسلتَ رأسَك مِن غَدْرتك إلاّ بالأمس"**[١].

في هذا الحديثِ تتضافرُ مجموعة مِن البواعثِ على نشوءِ اللّبس؛ وهي لَبسٌ معجميّ، وآخرُ تركيبيّ، وثالثٌ أسلوبيّ. أمّا المعجميّ فقولُه: يا غُدَر، وهي بِنية صرفيّة معدولةٌ مِن "غادر". أمّا قوله :"قبلَ ألاّ تصل إليك" فإنّه أراد: قبل أنْ أقطعَ يدك؛ ذلك أنّ قطعَها يفضي إلى عدمِ وصولِها إليه، أمّا اللَّبس التّركيبيّ - وهو مطلب التّمثلِ في هذا المقامِ- فهو واقعٌ في وجهِ القولِ على الضّمير المستترِ في "تصل":



وإذا كان الضّمير المستترُ عائداً على اللّحيةِ - ولا شيءَ يدفع هذا العَود - فثمّ معنى آخرُ ليس ثمّ بدٌ مِن استشرافِه، وهو أنّ القائل أراد أنّه سيَحول بينها وبينَه فلا تصل يدُه إليها، ولا يقدِر على مسِّها[٢].

" متّعنا اللهمّ بأسماعِنا وأبصارِنا واجعلْه الوارث منّا"[٣]

---

(١) انظر : الزمخشريّ – الفائق ، ٥٥/٣.

(٢) انظر : المصدر نفسه، ٥٥/٣.

(٣) الخطابي – غريب الحديث ، ٣٤٣/١

الإشكالُ واقعٌ في الضّمير المتّصل بالفعل "اجعل"، وقد جاء بلفظِ الواحدِ، وقد تقدّم ذكر الأسماعِ والأبصارِ بلفظِ الجماعة، وقواعدُ المطابقةِ تأبى هذا أنْ يكون، فما مرجعُ الضّمير إذاً؟ لعلّ "الهاء" الضّميرَ راجعة إلى ضميرِ الفعلِ، وهو الاستمتاعُ بهما، وكأنّه يقول: واجعلْ الاستمتاعَ الوارث...، وملامحُ الاستمتاعِ مِن تذكيرٍ وإفرادٍ تطابقُ ملامحَ الضّمير"الهاء"، وقدْ يُلتمَس وجهٌ آخرُ متقبّل، وهو أنْ تكون الإشارةُ بالضّميرِ إلى واحدٍ مِنْ كلّ سَمْعٍ ومِن كلِّ بصرٍ [1].

" مَن صام يوماً ابتغاءَ وجهِ الله خُتِم له بها"[2]

والضّميرُ المتّصل بحرفِ الجرّ "الهاء"، يدلّ على التّأنيثِ والإفرادِ، والاسمُ الذي تقدّمه مُفرَد مذكّر، وقد التقى مع الضّميرِ في ملمحٍ واحدٍ هو "الإفراد"، وافترق عنه في ملمحِ "الجنسِ"، وشرائطُ المطابقةِ تأبى أنْ يكون الضّمير "الهاء" عائداً على اليومِ، وهنا ينبعثُ المشكلُ في التّركيبِ فلا يبقى إلاّ فسحةٌ مِن التّأويل تشيرُ إلى أنّه إنّما أنّث الضّمير لأنّه أراد العبارةَ أو الخصلةَ أو النّيّة الصّالحةَ[3].

وقدْ يتجلّى الإشكالُ التّركيبيّ في اشتراكِ المعاني النّحويّةِ، ومِن ذلك: استعارَ الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–مِن رجلٍ يوم حنين أدرعاً، فقال: " **أغصْباً يا محمّد؟ قال: بل عاريّة مضمونة**".

تتعدّد المعاني النّحويّة وتتداخلُ في قوله :"أغصْباً"، فيحدث التباسٌ بين المنصوبِ على المصدرِ والحالِ والمفعول له، والتّقديرُ في ذلك كلِّه:

أتغصبُ غَصْباً يا محمّد	منصوب على المصدر
أتأخذها غاصباً يا محمّد	حال
أتأخذها للغصب يا محمّد	مفعول له[4]

---

(١) انظر : المصدر نفسه، ٣٤٣/١.

(٢) انظر : المصدر نفسه، ١٨٤.

(٣) انظر : المصدر نفسه، ١٨٤.

(٤) المصدر نفسه ،٢١٧ .

ويظهرُ أنّ هذه المعانيَ النّحويّة الثّلاث جاءتْ متشاكلةً في علامةِ الإعراب، ويبقى أمرُ التّعدّد قائماً على سَعةِ الاختيار، مع تباينِ المعنى المتجلّي في كلٍّ بنيةٍ عميقة.

"مَن ترك ثلاثَ جمعٍ تهاوناً مِن غير عذرٍ طبع الله تعالى على قلبِه"(١)

موضعُ النّظر في هذا السّياق الشّريفِ قوله "تهاوناً"، فمجيئ هذه الكلمةِ مصدراً يرشّحها لأنْ تكون مفعولاً له ، ولكنّها مِن وجهةٍ أخرى، قد تُؤوّل بمشتقٍّ فيغدو المعنى: متهاوناً(٢).

" علّموا الصّبيّ الصّلاة ابنَ سبعٍ، واضربوه عليها ابنَ عشر"(٣)

في هذا الحديثِ إبانةٌ عن اشتراكِ المعاني النّحويّة، فقولُه-صلّى الله عليه وسلّم-"ابن" تحتمل في سياقِها البِنيويّ ذاك وجهَين إعرابيّين تتشاكلُ علامتُهما، فقد تكون "ابن" حالاً مِن الصّبيّ منصوبةً، والمعنى: إذا كان ابن سبع وإذا كان ابن عشر، أو علّموه واضربوه مراهقاً. وقد تكونُ بدلاً مِن "الصّبيّ"، ومِن الهاءِ في قولِه "اضربوه"، وكلاهما متقبّل، والحقّ أنّ هذين المعنَيين اللذَين يكتنفان هذا التّركيبَ "الحال والبدل" متقاربان في هذا السّياقِ، ولكنْ، يبقى بمُكنةِ المرءِ أنْ يستشرفَ بُعْداً معنويّاً متميّزاً في كلِّ وجهٍ مِن ذَيْنِك الوجهَين(٤).

"مَن لقي الله لا يشركُ بِه شيئاً... دخلَ الجنّة"(٥)

موضعُ المباحثةِ قولُه -صلّى الله عليه وسلّم-: شيئاً؛ ذلك أنّها محتمِلة في سياقِها معنيَين نحويّين، **أوّلهما:** أنْ تكون مفعولاً به "ليشرك"، ويعضدُ هذا الوجهَ قولُه-تعالى-: "ولا يشرك بعبادةِ ربّه أحداً "(٦)، **وثانيهما:** أنْ تكون في موضعِ

---

(١) المصدر نفسه، ٣١٩.
(٢) انظر : المصدر نفسه، ٣١٩.
(٣) المصدر نفسه ، ٢٠٠.
(٤) انظر : المصدر نفسه ، ٢٠١.
(٥) المصدر نفسه، ٣٠٣.
(٦) الآية [الكهف،١١٠]

المصدرِ، والتّقدير: ألاّ يشركَ به إشراكاً، ويعضدُ هذا قولُه:**﴿ولا يضرّكم كيدُهم شيئاً﴾** [١]، أي لا يضرّكم ضرراً [٢].

وعلى صعيدٍ إعرابيّ آخرَ، قد يحدث تعدّدٌ في المعاني النّحويّةِ، مع انتفاءِ التّشاكلِ في العلامةِ الإعرابيّةِ، ولعلّ سبب ذلك أنّ الكلمةَ المرادَ إعرابُها وبيانُ موقعِها الوظيفيّ متردّدة بين معنيين نحويّين صالحَين، ولكنّ علامة كلٍّ منهما متباينةٌ، ومِن ذلك:

" مَن همّ بحسنةٍ فلم يعملها كُتبت له حسنةٌ" [٣]

والنّاظر في هذا الحديثِ الشّريفِ برويّةٍ ولطفٍ ونظرٍ يقف على وجهَين لا يُدافع أحدُهما الآخرَ في إعراب "حسنة"؛ إذ إنّه يجوز فيها الرّفعُ على أن تكونَ "حسنة" مفعولاً لِما لمْ يُسمّ فاعلُه، ويجوز فيها النّصبُ على معنى: كُتِبت الخصلةُ التي همّ بها حسنةً، وانتصابُها هنا على الحالِ. ويكون للفعل "كُتبت" فاعل مستتر" [٤].

"مَن أفطر يوماً مِن رمضانَ بغير رخصة رخّصها الله فلن يُقبل منه الدّهر كلّه" [٥]

تحتمل كلمةُ "الدّهر" في سياقِها أنْ تكون منصوبةً ومرفوعةً، أمّا وجهُ النّصب فعلى تقدير: فلن يُقبَل مِنه الصّومُ الدّهرَ، فهو منصوبٌ على الظّرفِ. أمّا وجهُ الرّفع فكائنٌ على تقديرٍ: فلن يُقبَل مِنه صومُ الدّهرِ، فحذف المضاف [٦]، والملاحظُ أنّ الوجهَ الأوّل "النّصب" يؤذنُ بالقولِ على وجودِ ضميرٍ مستترٍ للفعل "يُقبل"، أمّا الثّاني فلا استتارَ فيه، ويظهرُ أنّ هذا الالتباسَ بين موقعَين بنيويّين

---

(١) الآية [آل عمران، ١٢٠]

(٢) انظر : المصدر نفسه، ٣٠٣.

(٣) المصدر نفسه،٢٢٣

(٤) المصدر نفسه، ٢٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ٢٦٢.

(٦) انظر : المصدر نفسه ، ٢٦٣.

وظيفيّين(الفاعليّة والظّرف) أعقبَ تبايناً في وجهِ القولِ على العلامةِ الإعرابيّةِ، الرّفعِ والنّصبِ.

وقدْ يكونُ للحذفِ مِن السّياق البنيويّ يدٌ في تعدّد المعاني النّحويّةِ؛ ذلك أنّ التّباينَ في تقدير ما اجتُزِئ مِنه يؤذنُ بذلك، فيفضي هذا إلى التباسٍ بين المعاني النّحويّة:

"قال رجل:يا رسولَ الله، أرأيت هذه الأمراضَ التي تصيبنا مالنا بها؟ قال: كفّارات"[1].

هنا يأتي دورُ المعربِ لينظرَ في هذه الإجابةِ المجتزَأةِ التي تفضي إلى وجهَين: أنْ تكون "كفّارات" خبرَ مبتدأ محذوفٍ، وبذا يكون التّقديرُ:"هي كفّارات". وقد تكونُ مبتدأً، والخبرُ محذوفاً، وكأنّ الأصل: لكم بها كفّاراتٌ[2].

"بُنِي الإسلامُ على خمس: شهادة أنْ لا إلهَ إلاّ الله"[3]

والمرادُ تمثّله في هذا المقامِ هو "شهادة"، والنّاظر فيها يجدُها متردّدةً بين كونِها بدلاً مجروراً مِن خمس، وهذا وجهٌ متقبَّل يدرأ ملحظَ الاجتزاءِ مِن السّياقِ البِنيويّ، ولكنّه لا ينفيه البتّةَ، وكونِها خبراً تقديرُ مبتدئه "هي"، أو مفعولاً به تقديره: أعنى شهادةَ أنْ ....[4].

" إنّ الله –عزّ وجلّ– زادكم صلاةً فصلّوها فيما بين صلاة العشاء إلى صلاة الصّبح؛ الوتر الوتر"[5].

موضعُ النّظر قولُه –صلّى الله عليه وسلّم–: الوتر الوتر، فقد تباين وجهُ القولِ على إعرابِه بتباينِ تقديرِ المحذوفِ، فقد تكونُ "الوتر" منصوبةً والتّقدير:

---

(١) المصدر نفسه، ٢٠٥.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ٢٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ١٥٧.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ١٥٧.

(٥) المصدر نفسه، ١٨٩.

صلّوا الوترَ

عليكم الوترَ

زادكم الوترَ

أعني الوترَ

وقد تكونُ مرفوعةً، والتّقدير، هي الوتر. وكرّر توكيداً[1].

وقد يكونُ لتناوبِ حروفِ المعاني دورٌ في وقوعِ الإشكالِ، فإذا ما أقيم حرفٌ مُقام حرفٍ آخرَ، فإنّ ذلك قد يفضي إلى تسريحِ الخاطرِ إلى المعنى المتعيِّن مِن ذلك الحرفِ في سياقِه، كما يحدث في اللّبس الآتي مِن المشترك اللّفظيّ:

"اسكنْ أُحُد، فما عليك إلاّ نبيّ أو صدّيق أو شهيد" [2]

موضعُ النّظر قولُه -صلّى الله عليه وسلّم- "أو"؛ ذلك أنّها حرفُ عطفٍ، ومذهبُ الجمهورِ أنّها تشركُ في الإعرابِ لا المعنى؛ وذلك أنّنا إذا قلنا: قام زيدٌ أو عمرو تبيّن أنّ الفعل واقعٌ مِن أحدِ هذين الاسمَين[3]، وقيل إنّها تُشرك في الإعرابِ والمعنى[4]، وعلى هذا جاءتْ "أو" في الحديثِ الشّريفِ، فأشركت الأسماءَ المتتالية وقامت مقامَ الواو، وكان المعنى: فما عليك إلاّ نبيّ وصدّيق وشَهيد[5].

" ما مِن شيءٍ يصيبُ المؤمن حتّى الشّوكة إلاّ كُتب له بها حسنة[6]"

الإشكالُ واقع في "حتّى"؛ إذْ إنّه يقعُ تحتَها ثلاثة معانٍ أولّها: أنْ تكون جارّة، وثانيها أنْ تكونَ عاطفة، وثالثُها أنْ تكون ابتدائيّة[7]، والمعاني الثّلاثة

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ١٨٩.

(٢) ابن مالك – شواهد التوضيح والتصحيح، ١٧٢.

(٣) انظر: المرادي – الجنىالداني، ٢٢٧.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ٢٢٧.

(٥) انظر: ابن مالك – شواهد التوضيح والتصحيح، ١٧٤.

(٦) العكبري – إعراب الحديث النبويّ ، ٢٠٠.

(٧) وزاد الكوفيون رابعاً وهو أن تكون حرف نصب للمضارع، وبعضهم زاد خامساً وهو كونها بمعنى الفاء انظر: المرادي – الجنى الداني، ٥٤٢.

المذكورةُ تصلح أنْ تتعاورَ في سياقِ الحديثِ الشّريف، وهذا يعمل على تعدّدِ وجوهِ القولِ على ما يليها، فيجوزُ أنْ تكونَ "الشّوكة" مجرورةً، فتكونَ حتّى بمعنى "إلى"، والمعنى الكلّيّ المتعيّن: "لو انتهى ذلك إلى الشّوكة....". ويجوزُ أنْ تكون "الشّوكة" مرفوعةً بالابتداء، والتّقدير: حتّى الشّوكة تشوكُه، ويجوزُ أنْ تكون الشّوكة منصوبةً على تقدير: يجد الشّوكة[1].

"حتّى يظلّ الرّجل إنْ يدري كم صلّى"[2]

جاءتْ "إنْ" في سياقِ هذا الحديثِ بمعنى مفارقٍ لِما يكثر ورودُها عليه؛ إذْ إنّها ليستْ بشرطيّة ولا بمخففّة مِن الثّقيلة ولا بزائدة، وإنّما هي نافيةٌ تقوم مقامَ "ما"، والمعنى المكتنفُ هذا الحديثَ: ما يدري كمْ صلّى[3].

" فكلتُ ليس العجوةَ"[4]

معلومٌ أنّ "ليس" نافية مِن أخواتِ "كان"، وأنّ لها اسماً وخبراً، ولكنّها في سياقِها المتقدِّم "إلاّ" التي تفيدُ الاستثناء، والمعنى المتعيِّن: فكلتُ إلاّ العجوة، واسمُ ليس ههنا مضمَر، والعجوةُ خبرها[5]. والظّاهر مِن هذَين المثالَين أنّ فيهما غموضاً لا لبساً فاقعاً، وإنّما أوردتُهما لأنّني أتلمّس المحتكَمات التي صدر عنها المصنِّفون في غريبِ الحديثِ.

وممّا يتّصل بمطلبِ الحديثِ عن تعدّدِ معاني "حروف المعاني" **توهّم الأصالةِ والزّيادة:**

---

(١) انظر: العكبري – إعراب الحديثَ النبويّ، ٢٠٠ وقد أضاف أن الشوكة قد تكون معطوفة على الضمير في "يصيب".

(٢) المصدر نفسه، ٢٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ٢٥٣.

(٤) المصدر نفسه، ١٤٦.

(٥) انظر : المصدر نفسه، ١٤٦.

" **فانطلقا فإذا غلامٌ يلعب مع الغلمانِ فأخذ الخضر برأسِه مِن أعلاه فاقتلع رأسَه بيده**"[١].

موضعُ التّأمّل قولُه -صلّى الله عليه وسلّم-: "فأخذ الخضر برأسِه"؛ ذلك أنّ في الباء وجهَين: الزّيادةَ والأصالةَ، فإذا كانت زائدةً كان التّقدير: فأخذ رأسَه. وإذا كانت أصليّةً لم يكن المعنى أنّه تناولَ رأسَه ابتداءً، وإنّما جرّه إليه برأسِه ثمّ اقتلعه، ولعلّ هذا هو الأوجه؛ إذْ إنّها لو كانتْ زائدةً لم يكن لقولِه: "اقتلعه" معنى زائدٌ على "أخذه"[٢].

"**وإنْ خليلي عهد إلي أنْ أيّما ذهب وفضة أُوكي عليه فهو كَيّ على صاحبِه**"[٣].

وكما تُوهّم في القولِ على أصالةِ الباء وزيادتِها آنفاً، تُوهّم في القولِ على "أنّ" في هذا الحديثِ، ولكنّ اللّبس ههنا أخفُّ مِن سابقِه، فقدْ تكون "أن" زائدةً، ويعضدُ هذا أنّها اطُّرِحت في بعضِ رواياتِ الحديثِ[٤]، وقد تكون عنصراً بِنيويّاً أصيلاً، والوجهُ فيها أنّها مخفَّفة مِن الثّقيلة، والمعنى: عهد إليّ أنّه[٥].

جمع رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– قريشاً فقال: هل فيكم مِن غيرِكم[٦].

تباين وجهُ القولِ على "مِن"، فقيل إنّها زائدة، وقيل إنّها أصليّة، فإذا كانتْ زائدةً فالتّقدير، هل فيكم غيركم. أمّا إذا كانت عنصراً أصيلاً مِن السّياق البِنيويّ فإنّ ذلك يؤذنُ بالإشارةِ إلى محذوفٍ تقديرُه: هل فيكم أحدٌ مِن غيرِكم[٧].

---

(١) المصدر نفسه، ٩٧.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ٩٨.

(٣) المصدر نفسه ، ١٦٧.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ١٦٧، وقد أشار المحقق إلى الرواية تلك.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ١٦٧.

(٦) المصدر نفسه، ١٩٥.

(٧) انظر: المصدر نفسه، ١٩٥.

رابعاً: الإشكال المعجميّ:

١- الألفاظ الغريبة:

محتكَم صدر عنه المصنِّفون في غريبِ الحديثِ، والحقّ أنّه أجلى المحتكماتِ ظهوراً، والذي ينبغي تأكيدُه قبل تمثّلِ أنحاءِ هذا المحتكَمِ أنّ ما هو غريبٌ اليومَ قد يكون غيرَ غريبٍ أمسِ، فالغرابةُ شيء نسبيّ يفعلُ فيها عناصرُ متعدّدة كالزّمانِ والمكانِ والشّخوصِ، والحقّ أنّ مطلبَ الحديثِ عن الألفاظِ الغريبةِ ينتسبُ إلى الغموضِ لا إلى اللّبْس، فليس خفاءُ معنى كلمةٍ على ابنِ اللّغة لبساً البتّةَ، ولكنّني أثبتُها في هذا المقامِ لأنّها محتكَمٌ عريضٌ صدر عنه المصنِّفون في غريبِ الحديثِ، ولأنّ بعضَها يتّصلُ بظاهرةِ اللَّبْس من طرفٍ؛ وذلك نحو الألفاظِ التي كان يجترحُها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، أو تلك الألفاظِ التي تعوزها معرفةٌ ثقافيّةٌ واجتماعيّة لتمثّلِ المتعيّنِ منها، وقارئُ الحديثِ قد يرِد على ألفاظٍ مستغلقةٍ في معناها عن الإبانةِ، ولكنّها كانتْ في أيّامِها الأُولِ مفهومةً لا إشكالَ فيها، ولهذا الأمرِ أسبابٌ متعدّدة ليس المقامُ مقامَها، والقصدُ من هذا الذي تقدّم أنّ موضوعةَ المباحثةِ في هذا المطلبِ الجزئيِّ إنّما هي مقتصِرة على الغريبِ أمسِ، لا على ما يجدُه قارئ اليومِ غريباً. وقد عدّ الخطّابيّ وجودَ الكلام الغريبِ الوحشيِّ الذي يعيا به قومُه وأصحابُه -صلّى الله عليه وسلّم- ضرباً من فصاحتِه وسَعَةِ بيانِه[1]، والحقّ أنّني وردتُ على أحاديثَ أشكلتْ على مَن حولَه -صلّى الله عليه وسلّم- من صحابة، فساءلوه فيها طلباً لرفعِ اللَّبْس الآتي من هذه الجهةِ، ومن ذلك أنّ رجلاً قال: "يا رسولَ الله، مَن أهل النّار؟ قال: كلّ قَعْبَرِيّ، قال: وما القَعْبريّ؟ قال: الشّديد على الأهلِ، الشّديد على العشيرةِ، الشّديد على الصّاحب"[2]. وفي حديثٍ آخرَ قال -صلّى الله عليه وسلّم-: "ألا أنبّئكم بأهلِ النّار، قالوا بلى يا رسولَ الله ، قال: كلُّ جَظٍّ

---

(١) انظر: الخطابي – غريب الحديث ٦٦/١.

(٢) المصدر نفسه، ٦٦/١، وانظر الحديث في الزمخشريّ – الفائق ، ٢١٢/٣، وابن الأثير–النهاية، ٨٦/٤، وابن منظور–اللسان، مادة " قعبر" ، وقد رأى الزمخشريّ أنه قلب عبقري.

جَعْظ" ، فسُئل النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- عن الجَظّ والجَعْظ ما هما، فقال: الجظّ الضّخم، والجعظُ العظيمُ في نفسِه[1]، والملاحظُ مِن هذين الحديثَين المتقدِّمين أنّ المعنى قد استغلق على السّامعين، فلمْ يقفوا عليه إلاّ بالمساءلةِ والاسترشادِ، وقد وقع في مثلِ هذا الإشكالِ بعضُ المصنِّفين في غريبِ الحديثِ، فلم يقفوا على معاني ألفاظِ إلاّ بالتّوهّم ورميِ النّظرِ في تكهّنٍ وحَيْرة، ومِن أمثلةِ ذلك حديثُه في صفةِ الدّجّال أنّه "رجلٌ فَيْلَق"، وقد قال ابنُ قتيبةَ في هذا: "ولستُ أعرفُ الفَيلق إلاّ الكتيبةَ العظيمة،...، فإنْ كان جعله فيلقاً لعظمِه، فهو وجهٌ إنْ كان هذا محفوظاً، وإلاّ فإنّما هو الفَيْلم، والفَيْلم العظيمُ مِن الرّجال" [2].

ومِن مثلِ ما تقدّم حديثٌ ذكر فيه أنّه شُقّ عن قلبِه -صلّى الله عليه وسلّم-، "**وجيىء بطستٍ رَهْرَهة**"[3]، وقد قال فيه ابنُ قتيبةَ مبيّناً حَيْرته في هذا اللّفظِ: "قال أبو حاتمٍ: سألت الأصمعيّ عن ذلك فلم يعرفْه، ولستُ أعرفُه أنا أيضاً، وقد التمستُ لهذا الحرف مَخرجاً فلم أجدْه إلاّ مِن مخرجٍ واحدٍ، وهو أنْ تكون الهاءُ فيه مُبدَلَةً مِن "حاء"، وهي تُبدَل فيها لقربِ مخرجِها، تقول: مدحتُه، ومدهتُه، وهذا الأمرُ مهمٌّ لي ومحمٌّ لي، بمعنى واحدٍ، فكأنّه أراد جيىءَ بطستٍ رحرحةٍ، وهي الواسعة، فأبدل مِن الحاءِ هاء"[4]، وإخال أنّ الغرابةَ الواقعةَ فيما تقدّم باعثُها أنّ اللّغويّين لم يقعّدوا العربيّة مِن جميعِ لَهَجاتِها، بل تخيّروا قبائلَ مخصوصةً، واستثنَوْا أخرى، وإذا ما عرض شيءٌ ممّا استُثْنِي أو اطُّرِح خفي وانبهم، وعندَها عُدّ غريباً.

---

(١) الخطابي – المصدر نفسه، ٦٧/١، وانظر الحديث، الزمخشريّ–المصدر نفسه، ٣٤٠/٢، ابن الأثير– المصدر نفسه، ٢٧٦/١، ابن منظور– المصدر نفسه ، مادة " جظظ" وقد فسر صاحب اللسان الجظّ بأنه الطويل الأكول الشروب البطر الكفور.

(٢) ابن قتيبة – غريب الحديث ، ١٣٦/١

(٣) انظر – المصدر نفسه ١٤٠/١، الزمخشريّ– الفائق ١١٨/٤، – ابن الأثير – النهاية، ٢٨١/٢، ابن منظور – اللسان ، مادة " رهره" وقد أشار إلى أن ابن الأنباري استبعد إبدال الهاء من الحاء في هذا الوضع.

(٤) ابن قتيبة– المصدر نفسه، ١٤٠/١.

وفي حديثٍ آخرَ، قيل للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: "**هذا علّي وفاطمةُ قائمَين بالسُّدّة..**"، وقد اختُلف في معنى السُّدّة، فقيل هي ظُلّةٌ على البابِ لتقيَه مِن المطرِ، وقيل: هي البابُ نفسُه، وقيل هي السّاحة بين يديه[1]. والحقّ أنّ هذا يكثرُ إنْ تتبّعتَه، وقد أوردتُ أمثلة تنبّه على الغرضِ الذي قصدتُه، وقد تبيّن أنّ ثمّ ألفاظاً لم يقفوا على المتحصّل مِنها على التّعيين، بل ظلّ الأمرُ محتمِلاً قائماً على وجه مِن التّقريب، ولكنّهم، في مواضعَ أخرى كثيرةٍ، وقفوا عندَ ألفاظٍ غريبةٍ فجلّوها مبيّنين مقاصدَها، ويبقى السّؤال الذي ينقدحُ له زناد الخاطرِ في هذا المقامِ: ما مصادرُ الغَرابة في تلكم الألفاظِ؟

مصادرُها متعدّدة، فقدْ تكون الألفاظُ الغريبة أسماءَ أماكنَ، وليس كلّ امرئ يعرفُ تلك الأسماء، أو يتمثّلُ مواضعَها، ثمّ إنّ الاسم قد يشتبهُ بدلالةٍ ما تفضي إلى التّفاصل؛ وذلك نحو حديثِه-صلّى الله عليه وسلّم- أنّه احتجم بلَحْي جَمل[2]، وقد أذِن هذا الغموضُ الواقعُ في "لَحْي جمل" بأنّ صدّنى عن المعنى الكامنِ فيه، فأفضى إلى مَظنّةٍ مؤدّاها أنّ الباء للاستعانةِ، وأنّ هذه التّسمية إنّما هي شيءٌ احتجمَ به، ولا ريبَ أنّ اسم المكان "لحي جملٍ" ملبسٌ إلاّ على مَن وقف عليه، وهنا نهدَ المصنِّفون في غريبِ الحديثِ يجلّون هذه الغرابةَ الآتيةَ مِن ورودِ أسماءِ الأماكنِ في الحديث.

ومِن مثلِ ما تقدّم آنفاً، ولعلّه أقلّ إشكالاً وغموضاً مِن الأوّل:" **إنْ لقيتَها نعجةً تحمل شَفرة وزِناداً بخَبْت الجَميش فلا تهجْها**"[3]، وقد بيّن ابنُ قتيبةَ أنّ هذا الاسمَ قد خفي عليه واستعجم، فسأل الحجازيّين، فأخبروه أنّ بين مكّةَ والحجازِ صحراءَ تُعرَف بالخَبْت، والخبت الأرضُ الواسعةُ المستوية، والذي يُعلي مِن غرابةِ الحديثِ هو "ذكرُ هذا المكان دون غيرِه، وإنّما خفي الخبتُ لسَعتِه وبُعْده، وقلّة مَن يسكنه، فإذا هو سلكه أقوى فيه إلى مالِ غيرِه، وقدْ وسّع النّبيّ -صلّى الله عليه

---

(1) انظر : الزمخشريّ – الفائق ، ١٦٧/٢، ابن الأثير– النهاية، ٣٥٣/٢ـ ابن منظور – اللسان مادة" سد "

(2) انظر : المصدر نفسه ، ٣١٠/٣.

(3) ابن قتيبة– غريب الحديث، ١٨١/١، الزمخشريّ– المصدر نفسه،٢١٠/١- ابن الأثير– النهاية، ٤/٢.

وسلّم- في غيرِ هذا الحديثِ لابنِ السّبيل في اللّبن والتّمرِ إذا دعتْ الدّواعي، أمّا أصولُ المالِ فلا يُعلم برخصةٍ أتتْ فيه عنه"[1].

وقدْ تكونُ الغرابةُ متمثّلةً في أسماءِ الأطعمةِ أو صفاتِها، فقد ورد في الحديثِ شيء مِن هذا، ومِن ذلك أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- دخل على حمزةَ عمّه، فصُنِعتْ لهم سخينةٌ فأكلوا مِنها[2]، ولا ريب أنّ الخاطرَ لا يذهب إلاّ إلى أنّ المعنى المتعيّن مِن السَّخينة إنّما هو متعلّق بطعامٍ، ويدلّ على ذلك القُرينة اللّفظيّة "فأكلوا"، ولكنّه لا يقوى على تحديدِ ماهيّتِها وجوهرِها، وقد فسِّرتْ بأنّها "شيءٌ يعمل مِن دقيقٍ وسمنٍ أغلظ مِن الحساء، وقيل مِن دقيقٍ وتمرٍ"[3].

ومِن ذلك أنّه -صلّى الله عليه وسلّم- أُهديت له ضَغابيس فقبلها وأكلَ مِنها، وهي صغارُ القِثّاء في أصولِ الثُّمام، يُسْلَق بالخلّ والزّيتِ ويؤكَل[4]، ومثلُه أنّه عاد سعداً فوصف له الوَجيئةَ، وهي التّمر يُبلّ بلبنٍ أو سمنٍ حتّى يلزم بعضه ويُؤكَل[5].

وقدْ تتجلّى الغرابةُ في الألفاظِ مِن ذكرِ أسماءِ بعضِ النّباتِ؛ وذلك نحو حديثِه-صلّى الله عليه وسلّم-عن الدّجّالِ والمَسيح: "**...لا شجرَ ولا حجرَ ولا دابّة إلاّ فيقول: يا عبد الله المسلم هذا يهوديّ فاقتله إلاّ الغرقدة...**"[6]، والملاحظُ أنّ سياق الحديثِ يبيّن أنّ الغَرقد إنّما هو ضربٌ مِن الشّجر، ولكنّه لا يبيّن هيئتَه وماهيّته،

---

(1) انظر : ابن قتيبة- المصدر نفسه ، ١/١٨١، ومثل ذلك " الأثواب السحولية، وقيل إن من أسباب التسمية أنها مما يأتي به من موضع باليمن اسمه " سحول"

(2) انظر : الزمخشريّ – الفائق، ٢/١٦٥، ابن الأثير- النهاية، ٢/٣٥١، ابن منظور- اللسان، مادة سخن

(3) انظر : الزمخشريّ – المصدر نفسه، ٢/١٦٥، ابن الأثير- المصدر نفسه، ٢/٣٥١، ابن منظور- المصدر نفسه.

(4) انظر: الزمخشريّ- المصدر نفسه ٢/٣٤١.

(5) انظر: الزمخشريّ- المصدر نفسه ، ٣/٨٥، ابن الأثير- المصدر نفسه، ٥/١٥٢، ابن منظور – المصدر نفسه، مادة " وجأ".

(6) ابن قتيبة – غريب الحديث، ١/٧٣، الزمخشريّ- المصدر نفسه، ٣/٦٠، ابن الأثير- المصدر نفسه، ٣/٣٦٢.

ومِن هنا تتولّد الغرابةُ، وقد قيل إنّه شجرٌ مِن العضاه، والعضاه كلّ شجرٍ له شوكٌ مثل الطلح، والسَّلَم والسّمُر والسِّدْر، وقيل إنّه مِن كبارِ العَوْسَج"[1].

وقدْ تتجلّى الغرابةُ في أسماءِ الأدوات، ومِن ذلك أنّه نهى عن أوعيةٍ تُحدث في الشّراب التّغيّرَ ، كالحَنْتَم والمُزَفَّت والنّقير، فالحَنْتَم جرارٌ خُضر، والمُزَفَّت الوعاءُ المطليّ بالزّفت، والنَّقير أصلُ خشبةٍ تُنْقَر"[2].

وقدْ تتجلّى الغرابةُ في ذكرِ أعضاءِ الجسمِ؛ جسمِ الإنسان أو الحيوان، وهذا ممّا قدْ يدِقّ على أهلِ اللّغةِ نفسِها، ومِن ذلك أنّه بالَ قائماً لعلّةٍ بمَأْبِضيه، "والمَأْبِض باطنُ الرّكبة"[3]، ومثلُه حديثُه-صلّى الله عليه وسلّم- أنّ رجلاً كان معه في غزاةٍ فأتاه سهمُ غربٍ، فمكث معالجاً **"فجزع ممّا به ، فعدا على سَهْمٍ مِن كنانتِه فقطع رواهشَه"**[4] .

ولعلّ الجهلَ بدلالةِ الرّواهش يُفضي إلى الجهلِ بمرجعِ الضّمير المتّصلِ بها: أيعودُ على السّهمِ أم يعودُ على الرّجل؟ أمّا الرّواهشُ هنا، فهي عُروق باطنِ الذّراعِ، وقيل هي العصبُ الذي في ظاهرِ الذّراع[5].

وقد تتجلّى الغرابةُ في ألفاظِ الأوزانِ والمقاديرِ؛ ذلك أنّ مقدار بعضِها كان متبايناً بتباين المكانِ، أو لم يكنْ لبعضِها عموميّةٌ مذاعة مشتهرةٌ؛ ومِن ذلك حديثُه – صلّى الله عليه وسلّم-: " **... والبُرّ بالبرّ مُدْي بمدْي**"[6]، فالمُدي، كما فسّره الخطّابيّ، مكيالٌ لأهل الشّامِ يقال إنّه يسع خمسةَ عشرَ مكّوكاً، والمكّوك صاعٌ

---

(١) انظر : ابن قتيبة- المصدر نفسه ، ٧٣/١، ومثل ذلك الإذخر في حديث العباس ، وهو حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب، ابن منظور- اللسان، مادة (زفت).

(٢) انظر : الزمخشريّ – الفائق – ٤٠٧/١.

(٣) انظر : ابن الأثير – النهاية، ١٥/١، ابن منظور – المصدر نفسه، مادة " أبض"

(٤) الخطابي غريب الحديث ٢١٩/١.

(٥) انظر : الخطابي، المصدر نفسه، ٢٢٠/١، الزمخشريّ- الفائق ٦٢/٣، ابن الأثير- النهاية ٢٨٢/٢، ابن منظور – اللسان ، مادة (رهش)

(٦) الخطابي – المصدر نفسه، ٢٤٦/١.

ونصف، والصّاع خمسةُ أرطالٍ وثلث. وهو صاعُ أهل الحرمَين، أمّا الصّاع في قولِ أهلِ العراقِ فهو ثمانيةُ أرطالٍ، وهذا هو صاعُ الحجّاج صوّعَه - كما يقول الخطّابيّ- لمّا ولِي العراق، وسعَّر به على أهلِها، فصاعُ الحجّاج إذاً هو صاع التّسعير على أهلِ الأسواقِ، لا صاعُ التّوقيف الذي تقدَّر به الكفاءاتُ وتُخرَج الصّدقات[1]، وأمّا المُدّ فهو ربعُ الصّاع، ويُقال إنّه مقدَّر بأنْ يَمدَّ الرّجل يدَه فيملأ كفّيه طعاماً، ولذلك سمّي مُدّاً[2].

وقدْ تتجلّى الغرابةُ في إسباغِ صفاتٍ مخصوصةٍ؛ وذلك نحو نهيِه -صلّى الله عليه وسلّم- "**عن التّضحية بالشَّرْقاء أو الخَرقاء أو المُقابِلة أو المُدابِرة أو الجَدعاء**"[3]، ولا يخفى أنّ هذه الصّفاتِ تنتمي إلى حقلٍ دلاليٍّ واحد؛ فالشّرقاء في الغنمِ هي المشقوقةُ الأذن باثنَين، والخَرقاء التي يكون في الأذنِ ثقبٌ مستدير، والمقابِلةُ هي التي قُطِع مِن مُقدّم أذنِها شيء ثمّ تُرِك معلَّقاً، والمدابِرة هي التي فُعل بها ذلك بمؤخَّرِ الأذن، والجَدعاء المجدوعةُ الأذن[4]، ومِن الملاحظِ أنّ هذه الصّفاتِ المسبَغةَ لا يدركُها إلاّ مَن كان ذا عهدٍ أو اتّصالٍ بالحقلِ الذي تنتمي إليه في العالمِ البرانيِّ، وليس كلّ فردٍ كذلك.

وقد وقع في الحديثِ ألفاظٌ أعجميّة دخيلةٌ، وقد تنبّه المصنِّفون في هذا المضمارِ لهذه فعملوا على بيانِ مكامنِها، وشرحِ غريبِها؛ وذلك نحو الحديث: " **مَن استمع إلى حديثِ قومٍ وهم له كارهون صُبّ في أذنيه الآنُكُ يوم القيامةِ**"، والمشكلُ هنا في الآنكِ، فقيل هو الرّصاص الأبيضُ، وقيل هو الأسودُ، وقيل هو الخالصُ

---

(١) انظر : الخطابي- غريب الحديث، ٢٤٧/١، وانظر معنى المدي في الفائق ١٤٦/١، والنهاية ٣١٠/٤، واللسان، مادة " مدى".

(٢) انظر : الخطابي - المصدر نفسه، ٢٤٨/١، وفي حديث أبي هريرة: " منعت مصر إردبها، وهو مكيال لهم يسع أربعة وعشرين صاعا، انظر ابن الأثير - المصدر نفسه، ٣٧/١.

(٣) انظر الهروي - غريب الحديث، ٦٨/١.

(٤) انظر : المصدر نفسه، ٦٨/١ ، الزمخشريّ- الفائق ، ٢٣١/٢، ابن الأثير - النهاية ٢٦/٢، ٤٦٦/٢، ٩٨/٢، ٨/٤، ابن منظور - اللسان، مادة " خرق" مادة " دبر"

مِنه[1]، وهو فارسيٌّ كما بيّن الزّمخشريّ[2] ومثلُه "الكُرْكُم"، وواحدته "كُرْكُمة"، وقيل هو الزّعفران، وقيل هو العُصْفر، وقيل هو شيءٌ كالوَرْس، وعدّه ابن الأثيرِ فارسيّاً معرَّباً[3]، ومثلُه في حديثٍ آخرَ، أنّه أُهدي له -صلّى الله عليه وسلّم- طَيْلَسان مِن خزٍّ سِجِلاّطيّ، وهو الذي على لون السِجِلاّط وهو الياسَمين، والكلمةُ روميّة"[4].

والمُستخلَص ممّا تقدّم قبْلاً أنّ الغموضَ الآتي مِن "غريب اللّفظِ" قد تمثّل في كتبِ غريبِ الحديثِ في ثلاثةِ محاورَ **أوّلها:** أحاديثُ اشتملتْ على ألفاظٍ غريبةٍ وحشيّةٍ، وقد استوفقتْ السّامع في سياقِها الأولِ، ففسّرها القائلُ ليرفعَ الغموض الآتي مِن هذه الجهةِ.

وثانيها: أحاديثُ اشتملتْ على ألفاظٍ غريبةٍ وحشيّةٍ استوقفتْ المصنِّفين في غريبِ الحديثِ، فشرعوا ينقِّبون وينقّرون عن المعاني المتعيّنةِ مِنها مع تعذّرِ وقوفِهم عليها إلاّ بالتّوهّمِ والتّرجيحِ.

وثالثُها: أحاديثُ اشتملتْ على ألفاظٍ غريبةٍ فسّروها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وقدْ تباينتْ بواعثُ الغرابةِ؛ وذلك نحو كونِ كثيرٍ مِنها أسماءَ أمكنةٍ وأطعمةٍ وأشربةٍ وأدوات. والبلادُ متداحةٌ واسعة، فما هو معروفٌ عند جماعةٍ مِن ملبسٍ ومشربٍ ومأكلٍ قد يكونُ غيرَ معروفٍ عند جماعةٍ أخرى بعيدة، وأسماءُ الأماكن تشتبهُ وتتعدّد، وألفاظُ الأوزانِ والمقاديرِ متباينةٌ أيضاً بتباين الدّيارِ، ولعلّ بعضَها لم يكن معروفاً ذائعاً عند العامّةِ، والأوصافُ الدّقيقةُ كأوصافِ الخيلِ أو شاةِ التّضحيةِ

---

(١) انظر : ابن الأثير – المصدر نفسه، ٧٧/١. ، ابن منظور– المصدر نفسه ، مادة " أنك" .

(٢) انظر : الزمخشريّ– الفائق ٦٠/١،

(٣) انظر : المصدر نفسه ، ٢٥٤/٣،

انظر : ابن الاثير – النهاية، ١٦٦/١، ابن منظور – اللسان ، مادة " كركم" .

(٤) انظر : ابن الأثير – المصدر نفسه ، ١٥٧/٢. ولعله يحسن أن أجتزئ بما قدمت تمثيلا مكتفيا بالإشارة إلى أرقام صفحات وقعت فيها كلمات أعجمية:

الفائق : ٤٣/١ ، ١٠١٠/١ ، ٢٨٩/٢.

النهاية : ١٢٢/١، ٣٣١/٢، ٢٨٩/٤.

بحاجةٍ إلى مَن هو عارفٌ ومتّصلٌ بها اتّصالاً وثيقاً حتّى يُقيم الفروق الدِّلاليّةَ بين ألفاظِها؛ ذلك أنّها تنتسبُ إلى حقلٍ دلاليٍّ واحدٍ.

٢- وينضافُ إلى ما تقدّم في مجالِ الحديثِ عن اللّبس المعجميِّ مسألةُ **تباين اللّهَجات العربيّة**، فقد تبيّن قبْلاً أنّ العربيّة بناءٌ ائتلافيٌّ ينتظم لهجاتٍ متباينةً. وقد وقع في حديثِ الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– ظواهرُ لهْجيّة متعدّدة، وتعليلُ ذلك أنّه –صلّى الله عليه وسلّم– بُعث مبلّغاً ومعلّماً، يتحلّق حولَه أصحابُه يسائلونه في أمورِ الدّينِ والدنيا فيجيبُهم، ويرِدُ عليه النّاس فرادى وجماعاتٍ وقبائل، وقد كان يخاطبُهم في بعضِ الأحايينِ بما مرنتْ عليه ألسنتُهم مِن لَهَجات متباينةٍ في بعض ملاحظِها اللّغويّةِ عمّا هو شائع، وقدْ يحدثُ أحياناً أنْ يكون للرّواةِ أنفسِهم يدٌ في وقوعِ التّباين اللهْجيِّ في الحديثِ الشّريفِ، فقد كان–صلّى الله عليه وسلّم– يتكلّمُ وبحضرتِه أخلاطٌ من النّاس، ولمْ يكن كلٌّ مَن حضر مجلسَه الشّريف مستطيعاً أنْ يضبط لفظَه ويحصرَه، وإنّما كان بعضهم يستدركُ المرادَ من الحديثِ بالفحوى فيأتي على لسانِ قبيلتِه، وهذا يُؤذن باجتماعِ عدّةِ ألفاظٍ لهْجيّةٍ في الحديثِ الواحدِ يفضي بعضُها في معناه إلى بعضٍ[١]، والذي يعنينا في هذا المقامِ هو ذلك التّباين اللّهْجي الذي أفضى ببعضِ الحديثِ إلى إلحاقِه بركبِ المشكلِ والغريبِ، وهو محتكَم صدر عنه الذين صنّفوا في هذا المطلبِ لاعتقادِهم أنّه يؤذِن باللّبسِ، بل قد يترتّب عليه أحداثٌ متجافيةٌ بالكلّيّة عن القصدِ الأوّل، ومِن مثلِ ذلك أنّ النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– أُتِي بأسيرٍ يُرعد فقال: اذهبوا به فأدْفوه، فذهبوا به فقتلوه، فوَداه النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– وقد أراد الإدفاءَ من الدّفء، فظنّوا أنّ المقصدَ هو الإدفاءُ بمعنى القتلِ في لغةِ اليمن؛ إذْ إنّه يقال أدفأْتُ الجريح ودافأْتُه ودافَفتُه ودفوتُه ودافيتُه: أجهزتُ عليه، والأصلُ أن يُقالَ: أدفئوه، فخفّفه – صلّى الله عليه وسلّم– بحذفِ

---

(١) الخطابي – غريب الحديث ٦٩/١.

الهمزة[١]، فكان ما كان، وانبنى على هذا الحدثِ الكلاميِّ الشّريفِ استجابةٌ عمليّة أفضتْ إلى قتلِ الأسيرِ؛ كلّ ذلك باعثُه أنّ الكلمة التي نطق بها الرّسولُ –صلّى الله عليه وسلّم– مع عارضٍ صوتيٍّ (تسهيل الهمز) وافقتْ معنى آخرَ يُجمع عليه أهلُ اليمن "القتل"، وفارقتْ قصداً ابتغاه الرّسولُ –صلّى الله عليه وسلّم– وهو "الإدفاء"، ليتجلّى أمامَنا حدثٌ بيّنٌ لبسُه.

وفي حديثِه –صلّى الله عليه وسلّم–: " **أنّه قدِم عليه صاحبُ كِسرى فوهب له مِعْجَزَةً** " ، والظّاهر أنّ هذا الحديثَ لا يكتنفُه أيّ غموض تركيبيٍّ، ولكنّ المشكلَ فيه كلمة "المِعْجَزة" وينبني على هذا الإشكالِ غموضٌ يفضي إلى عدمِ الوقوفِ على المعنى المرادِ، ولذلك عُدّ هذا الحديثُ مِن الغريبِ، وقد فُسِّر بأنّ المعجزة هنا هي المِنْطَقة" بلغة أهلِ اليمنِ، سُمّيت بذلك لأنّها تلي عَجُزَ المُتَنطِّق بها[٢].

ومِن الأمثلةِ المُبينةِ الدّالّة على تباينِ اللّهَجات الواقعِ في الحديثِ الشّريف وأثرِه في التّفاصلِ أنّه كتب لأهلِ حضرموتَ " **بما كان لهم فيها مِن ملكٍ وعُمْران ومَزاهر وعُرْمان ومِلح ومَحْجِر، وما كان لهم مِن مالٍ بحضرموت أعلاها وأسفلها مِن الجوار والذمّة**"[٣]، وقد أشارَ الخطّابيُّ إلى أنّهم اختلفوا في تفسيرِ هذه الأسماءِ، وقد قال له رجلٌ مِن أهلِ اليمنِ إنّها بلاد مِن حضرموتَ أقطعها النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– إيّاهم، فالمحْجر قريةٌ معروفةٌ ثمّ، والمَحْجِر معناها الحديقة، والمحاجرُ جمعُها، ومحاجرُ النّخلِ حظائر تُتّخذ حولَها. وقال له حضرميٌّ آخرُ: بل هو المَحْجِن والاحتجان: الاحتظارُ للشّيء[٤]. أمّا العُرمان فإنّه أراد –صلّى الله عليه

---

(١) انظر : الخطابي- غريب الحديث، ٥٦/١، الزمخشريّ -الفائق ٤٢٨/١، ابن الأثير- النهاية، ١٢٣/٢ ، ابن منظور – اللسان ، مادة " دفأ".

(٢) انظر : الزمخشريّ -المصدر نفسه، ٣٩٧/٢، ابن الأثير- المصدر نفسه، ١٨٦/٣. ابن منظور – المصدر نفسه ، مادة " عجز"

(٣) الخطابي-غريب الحديث، ١٤٨/١، ابن الأثير-المصدر نفسه، ٣٤٤/١، ابن منظور- المصدر نفسه،مادة حجر"

(٤) الخطابي- المصدر نفسه، ١٤٩/١، المحجر ، بكسر الميم، وقيل هي بالنون، وانظر – ابن منظور – المصدر نفسه، مادة "حجن".

وسلّم- المزارع، ومفردُه العَريم، والعُرمة: الكَديس، وهو حصيدُ الزّرع إذا دُقّ قبل أنْ يُذرّى، ويقال نصب فلان عُرْمتَه، وهو أنْ يجمعها فيجلَعها هدفاً لوجهِ الرّيح، والمزاهر هي الرّياض، ذلك أنّها مجمَعٌ لأصنافِ الزّهرِ والنّباتِ[١].

ومِن ذلك أيضاً حديث زيدِ بنِ ثابتٍ: كنت مع رسول الله-صلّى الله عليه وسلّم- وهو يُملي عليّ كتاباً، وأنا أستفهمُه، فاستأذن رجلٌ عليه، **فقال لي : انط**[٢]. ولا ريبَ في الغرابةِ الواقعةِ في هذا الحديثِ مِن قِبَل تباينِ اللّهَجات؛ إذْ إنّ معنى المراد مِن أمرِه بتلك الكلمةِ: اسكتْ، وهذه لغة حميريّةٌ شرّفَها النّبيّ صلى الله عليه وسلّم[٣].

ومسألةُ تباينِ اللَّهَجات في كتبِ غريبِ الحديثِ ومشكلِه ليست مقصورةً على الوجهةِ الدّلاليّة؛ أي على مضمارِ الألفاظِ ومعانيها، بل إنّها تتعدّى هذا حتّى لتشمل ظواهرَ صوتيّةً مخصوصة، كالقلبِ، ومِن ذلك "جبذ" وهي لغة في الجذب، والإبدال؛ وذلك نحو حديث ابنِ عبّاسٍ: " **لا بأسَ بقتلِ الحِدَوْ والإفْعَوْ**"، وهذه لغةٌ في الوقفِ على ما آخره ألفٌ، كالأفعى، ثمّ قُلبت الألف واواً، ومِنهم مَن يقلبها ياءً، وقد تُخفّف وقد تُشدّد[٤]، والحِدَو هي الحِدَأ، جمعُ حِدَأة، وهو طائر، ولمّا سكّن الهمزَ للوقف صارت ألفاً، فقُلبت واواً في سَنَن مَن يتمثّل هذه اللّغةَ[٥]، وكذلك إبدال العينِ نوناً، كما في قولِه -صلّى الله عليه وسلّم-: "ما أغناك الله فلا تسأل النّاس شيئاً، فإنّ اليد العُليا هي المُنطِية، وإنّ اليد السُّفلى هي المُنطاة..." وقد بيّن الزّمخشريّ أنّ هذه لغة بني سعدٍ، فهم يقولون: أنْطِني، و المعنى: أعْطني[٦].

---

(١) انظر: المصدر نفسه ، ١٥٠/١

(٢) الزمخشريّ – الفائق، ٤٤٢/٣، ابن منظور ، المصدر نفسه، مادة " نطا".

(٣) ابن الأثير – النهاية ، ٢٣٤/١

(٤) انظر: المصدر نفسه ، ٣٥٥/١.

(٥) انظر: المصدر نفسه ، ٣٥٥/١.

(٦) انظر: الزمخشريّ – الفائق، ٤٤٢/٣، ابن الأثير – المصدر نفسه، ٧٦/٥.

ومِن اللَّهَجات أيضاً إبدال الميمِ مِن لام التّعريفِ في كتابِه –صلّى الله عليه وسلّم– لوائل بن حجر: "مَن زنى مِمْ بِكر، ومَن زنى مِمْ ثيّبٍ..." أي مِن بكر، ومِن ثيّب، فقلب النّونَ ميماً. أمّا مع "بِكر"، فلأنّ النّون إذا سكنّت قبلَ الباءِ فإنّها تُقلَب ميماً نطقاً؛ وذلك نحو عَنبر وشنباء، وأمّا مع غيرِ الباءِ فهي لغةٌ يمانية كما يبدلون الميمَ مِن لامِ التّعريف[1].

ويمتدُّ ملحظُ تباينِ اللَّهَجات في الحديثِ إلى الإعرابِ، وصفوة القولِ مِن تلكم المُثُلِ المتقدِّمةِ آنفاً أنّ تباين اللّهَجاتِ ملحظٌ قد تنبّه إليه المصنِّفون في غريبِ الحديثِ ومشكلِه، وقدْ عملوا على تجليةِ مكامنِه ومقاصدِه استشعاراً منهم بأنّه قدْ يكون باعثاً مِن بواعثِ اللّبْسِ والغموضِ، كما كان في بعضِ ما تقدّم.

٣- المُشترك اللّفظيّ:

تقدّم الحديثُ عن هذه الظّاهرةِ، والذي يخصّ المباحثةَ الجزئيّةَ هنا أنّ المشترَك اللّفظيَّ محتكَم آخرُ ينتمي إلى عنوانٍ عريضٍ هو "اللّبس المعجميُّ"، وقد استشعر المصنِّفون في غريبِ الحديثِ أثرَ هذه الظّاهرة في وقوعِ اللّبسِ، ومن ذلك قوله –صلّى الله عليه وسلّم–:

"إنّ منبري هذا على تُرعةٍ مِن تُرَع الجنّة".

يكتنفُ كلمة "التّرعة" معانيَ متعدّدة مِنها الرّوضة تكونُ على المكانِ المرتفعِ خاصّة، وقد يكونُ معناها الباب، وقد يكونُ المرقاة[2]، وكلّ هذه المعاني التي تتضمّنها كلمةُ التّرعةِ تصلح أنْ تتعاورَ في هذا السّياقِ، وكأنّه يقول: إنّ منبري على بابٍ مِن أبوابِ الجنّةِ، أو على مِرقاةٍ، أو على روضةٍ، والملاحظُ هنا أنّ

---

(١) انظر: ابن الأثير – المصدر نفسه، ٣٦٣/٤.

(٢) انظر: الهروي– غريب الحديث، ١٤/١، والحربيّ – غريب الحديث، تحقيق سليمان العايد، دار المدني، جدة، ١٩٨٥، ٢٠٣/١، والزمخشريّ– الفائق، ١٤٩/١، وابن الأثير – النهاية، ١٨٧/١، وابن منظور– اللسان، مادة " ترع" والمعنى المتعين من الحديث – كما يشير الزمخشريّ – أن من عمل بما أخطب به دخل الجنة ، وقد أشار صاحب النهاية إلى أن المعنى هو أن الصلاة والذكر في هذا الموضع يؤديان إلى الجنة، فكأنه قطعة منها.

الاتّفاقَ في المبنى والافتراقَ في المعنى(في كلمةِ التّرعةِ) قد أفضى إلى قائمةٍ مِن احتمالاتٍ صالحةٍ متقبّلةٍ في سياقٍ واحدٍ.

ومِن الأمثلةِ المُبينةِ عن وقعِ المشتركِ اللّفظيِّ في الفهمِ قولُ رجل للنّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم-: "**إنّي أريد أنْ أفنّدَ فَرسا**"، وقد اختُلِف في المعنى الذي قصده الرّجلُ اختلافاً باعثُه اندياحُ دلالةِ "التّفنيد" واشتمالُها على معنيين لا يُدافع أحدُهما الآخرَ في ذلك السّياقِ الجُمْليّ، ولذلك عُدّ هذا الحديثُ ممّا يلحق بركبِ الغريبِ لِما فيه مِن تفاصلٍ ومشقّةِ الوقوفِ على المتعيّنِ مِنه إلاّ بالتّوهّمِ دون التّحكّمِ، فلربّما كان مقصدُ المتكلّم أنْ يجعلَ فرسه فِنْداً، وهو الشّموخ مِن الجبلِ، وكأنّه يريد أنْ يكون مُعْتَصَما وحصْناً يلتجئ إليه كما يُلتَجأ إلى الجبلِ، وقدْ يكون المعنى أنّ المرادَ مِن التّفنيد أنْ يكون بمنزلةِ التّضميرِ مِن الفِنْد، وهو الغصنُ المائل، وكأنّه يريدُ أنْ يضمّر فرساً حتّى يصير في ضُمرِه كغصنِ الشّجرةِ، فيصلحَ للغزو والسّباقِ[1].

وممّا عُدّ غريباً في هذا المِضمارِ قوله -صلّى الله عليه وسلّم-: **لا صَرورةَ في الإسلام**[2]"، فكلمة صَرورة يقع تحتَها معنيان في سياقِها هذا، وكلاهما يَفيئ إلى ملمحٍ مشتركٍ جامعٍ؛ إذْ إنّ أصل الكلامِ مِن الصرّ،وهو الحبسُ والمنع، ومعنى الصّرورةِ، كما يفسّره أبو عُبيد الهرويّ، المتبتّلُ المتجافي عن النّكاحِ، والمعنى أنّه لا ينبغي لأحدٍ أنْ يتّخذَ الزّواجَ وراءَه ظِهريّا، يقول: لا أتزوّج، وقد قال النّابغةُ:

لو أنّها عرضتْ لأشمطَ راهبٍ عَبَدَ الإله صَرورة متعبّدِ

---

(١) انظر: الزمخشريّ – الفائق، ١٤٣/٣، ابن الأثير – النهاية، ٤٧٥/٣، وابن منظور – اللسان، مادة " فند".

(٢) انظر: الهروي – غريب الحديث، ٤٢١/١، والزمخشريّ – المصدر نفسه، ٢٩٣/٢، ابن الأثير – المصدر نفسه ، ٢٣/٣، ابن منظور – المصدر نفسه، مادة " صرر"

لرنا لبهجتِها وحسنِ حديثِها ولخاله رشداً وإنْ لم يرشَدِ[1]

ثمّ يعرّج الهرويّ على الشّقّ الثّاني من هذا المشترك اللّفظيّ، قائلاً: "والمعروفُ في كلامِ النّاسِ أنّ الرّجلَ الصَّرورة هو الذي لم يحجَّ قطّ، وقد علمنا أنّ ذلك يسمّى بهذا الاسمِ، إلاّ أنّه ليس واحدٌ منهما يدافعُ الآخر، والأوّلُ أحسنُهما وأعربُهما[2]". ولا يخفى على ذي نظرٍ أنّ ثمّ تفاصلاً باعثُه الاشتراكُ، وأنّ باعثَ الاشتراكِ هنا إنّما هو دلالةُ الأصلِ على معنى عامٍّ، فدلالةُ "الصّرّ"(الحبس والمنع) مفتوحةٌ تقع على أحداثٍ متعدّدةٍ في العالمِ البرانيّ، كأنْ يحبسَ المرءُ نفسَه مِن الزّواج، أو الحجِّ، وقد أضاف ابنُ الأثير معنى ثالثاً يلتقي على القطبِ الذي يدورُ عليه المعنيان الفائتان، جانحاً إلى نظرٍ تاريخيّ في تفسيرِه؛ ذلك أنّ المعنى المتعيّنَ مِن قوله – صلّى الله عليه وسلّم–هو: مَنْ قتل في الحرمِ قُتل، ولا يُقبَل منه أنْ يقول إنّي صَرورة، ما حججتُ ولا عرفتُ حُرمة الحرامِ، وقد كان الرّجل في الجاهليّة إذا أحدث أو سفكَ دماً فلجأ إلى الكعبةِ لم يُهجْ، وكان إذا لقيه وليّ الدّم – كما يبيّن ابنُ الأثير– في الحرمِ قيل له: هو صَرورة فلا تهجْه[3]، وكلّ ما تقدّم قبلاً: التبتُّل، وتنكُّب الحجّ، وقتلُ القاتل في الحرمِ متقبَّل في سياقه تقبّلاً صالحاً، وإخالُ أنّ الاستئناس بالسّياقِ التّاريخيّ الاجتماعيِّ ألقى مزيداً مِن الضّوء على المعنى المركوزِ في حديثِه الشّريفِ.

٤– التّطوّر الدّلاليّ:

تبيّن أنّ للتّطوّر الدّلاليّ أثراً جليّاً في نشوءِ اللّبسِ، والذي يخصّ هذه المباحثةَ الجزئيّةَ هو تنبيهُ بعضِ المصنفين في غريبِ الحديثِ على التّغيّرِ الحادثِ في دلالاتِ الألفاظِ، وقد عمل بعضُهم على تجليةِ ألفاظٍ انزاحتْ عن دِلالاتها الأُوَل،

---

(١) انظر الهرويّ– المصدر نفسه، ٤٢١/١.

(٢) المصدر نفسه، ٤٢١/١.

(٣) انظر: ابن الأثير – النهاية ، ٢٢/٣، وابن منظور – اللسان ، مادة " صرر".

وقدْ يكونُ هذا الانزياحُ مَدْعاةً إلى اللّبْس كما سنتبيّن بَعْداً. ومِن المواضعِ التي أشير فيها إلى تطوّرِ الدّلالة "المجالاتُ الدّلاليّة"؛ ذلك أنّها تُفْرز مواضعَ لبسٍ مُحتمِلة حتّى مع توافرِ سياقٍ جمليّ، والمتأمّلُ فيها يجدُها متردّدةً بين باعثَين،**أولّهما:** ما تقدّم ذكرُه، **وثانيهما:** التّطوّر الدّلاليّ؛ ذلك أنّ الإسلامَ الكريمَ نَقَلَ الدّلالاتِ مِن مجالٍ إلى مجالٍ، وقد عرّج على هذه الظّاهرةِ ابنُ قتيبةَ في غريبِ الحديث، مُستفتحاً به غريبَه، جانحاً إلى إقامةِ بونٍ بين المعنى اللّغويّ المتقادِمِ ، والمعنى الشّرعيّ الحادثِ؛ إذْ إنّ الإسلامَ الكريمَ بمصطلحاتِه الجديدةِ قد أثّر كثيراً في انزياحِ الألفاظِ عن دِلالاتِها إلى الحدّ الذي أصبح فيه الفَرع أصْلاً، والأصلُ فرعاً؛ وذلك نحو الصّلاة ، فأصلُها الدّعاءُ، ولكنّها أصبحتْ تدلّ على هيئةٍ مخصوصةٍ مِن العبادةِ يجبُ التزامُها، وإذا ما ذُكِرت بالمعنى الأوّل في سياقٍ ما، فإنّ المرءَ قد يقع في اللّبسِ؛ إذْ إنّ الخاطرَ لا يُسرَّح إلاّ إلى المعنى الشّرعيّ في الأعمِّ الغالب، ومثلُ الصّلاةِ الزّكاةُ والتّيمّم والوضوء والقنوت[1]، وغيرُ ذلك كثير، والذي تتوجّهُ إليه الأنظارُ في هذا المقام هو أنّ هذه الظاهرةَ كان لها سهمةٌ في عدّ بعضِ الحديثِ غريباً مُلبِساً، ومثال ذلك قولُه –صلّى الله عليه وسلم–: " **ألا لا تَرجِعوا بَعْدي كُفّاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ...**" ، وقد يكونُ المعنى المتعيِّن مِن الكفّارِ في هذا السّياقِ هو التّكفّرَ في السّلاحِ، والمعنى الكلّيّ: لا ترجِعوا بعدَ الولايةِ أعداءً يتكفّر بعضُكم لبعضٍ في الحربِ[2]، وباعثُ الولوجِ في عالم اللّبسِ في هذا المقامِ هو انتسابُ دِلالةِ الكفرِ إلى مجالَين دِلاليّين، كلّ واحدةٍ تكتسي بلَبوسٍ معنويّ مفارقٍ للآخرِ، مع وجود خيطٍ جامعٍ، فالكفرُ: " نقيضُ الإيمان...، وأصلُ الكفر تغطيةُ الشّيء تغطيةً تستهلكُه...، يقال إنّما سُمّي الكافر كافراً لأنّ الكفرَ غطّى قلبَه كلّه، والكافرُ ذو كفرٍ، أي ذو تغطيةٍ لقلبِه بكفرِه، كما يُقال للاّبسِ السّلاح كافر، وهو الذي

---

(١) انظر: ابن قتيبة، غريب الحديث ، ١/٨-٥٤

(٢) انظر: المصدر نفسه، ١/٥٨، وابن الأثير – النهاية ، ٤/١٨٥، وابن منظور – اللسان ، مادة " كفر".

غطّاه السّلاح"[١]، وقدْ حُمِل هذا الحديثُ على معنى آخرَ مؤدّاه: لا تعتقدوا تكفيرَ النّاسِ كما يفعلُه الخوارجُ إذا استعرضوا النّاس فيكفّرونهم[٢]، ومَن حمله على معنى التّكفّرِ بالسّلاحِ فقدْ تشبّث بدِلالةِ الكلمةِ في مجالِها اللّغويّ، ومَن حَمَله على معنى الكُفر فقدْ تشبّث بدِلالةِ الكلمةِ في مجالِها الشّرعيّ الدّينيّ، والحاصلُ ممّا تقدّم أنّ هذا التّباينَ في الفهمِ والحكمِ إنّما مردّه إلى "المَجالات الدّلاليّة" النّاشئةِ عن التّطوّرِ الدّلاليّ.

ومِن مثْلِ ما تقدّم أنّ الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- سمّى الفأرةَ فُوَيسِقة[٣]، وفي حديثٍ آخرَ : "**خمسُ فواسقَ يُقتلن في الحلّ والحرم**"[٤].

إنّ معنى الفِسق هو العصيانُ والتّركُ لأمرِ الله تباركَ وعزّ، والخروجُ عن طريقِ الحقّ، والأصلُ في ذلك أنّ العربَ تقولُ إذا خرجتْ الرّطبة مِن قشرِها فَسَقتْ، وهذا هو المَلْمَح الجامعُ بين دِلالة الفسقِ لغةً وشرعاً، ففي الحالين يحصلُ خروجٌ عن الدّين وحكمِ الله، ويظهرُ أنّ العَود على المعنى اللّغويّ يُؤذِن باللَّبس، ولعلّ مُبتغى المصنِّفين في غريبِ الحديثِ الذين أثبتوا مثلَ هذه الأحاديثِ هو التّنبيهُ على المجالِ الدّلاليّ الذي استُعْمِلتْ فيه الكلمةُ في سياقِها لِيُرْفَع اللّبس الواقع، أوْ لِما قد يحتمِل أنْ يكون.

إنّ الفأرة فُويسقة، وهي تصغيرُ فاسقةٍ ، وكأنّها إنّما سُمّيتْ فُويسقة لِخروجِها مِن جحرِها على النّاسِ وإفسادِها[٥]، كما تخرج الرّطبة مِن قشرِها فتغدو فاسقةً ، وما يجري على هذا الحديثِ ينسحبُ على قوله -صلّى الله عليه وسلّم-: "خمس فواسقَ"، وقد بيّن الزّمخشريّ أنّ هذه الحيواناتِ الخمسةَ إنّما سُمّيتْ فواسقَ

---

(١) ابن منظور – المصدر نفسه، مادة "كفر".

(٢) انظر: ابن الأثير – النهاية ، ١٨٥/٤، وابن منظور – المصدر نفسه، مادة " كفر".

(٣) انظر: ابن قتيبة– غريب الحديث ، ٥٨/١.

(٤) انظر: الزمخشريّ – الفائق، ١١٦/٣، والفواسق الفأرة ، والعقرب، والحِدأة، والغراب الأبقع، والكلب العقور.

(٥) انظر: ابن الأثير – النهاية، ٤٤٦/٣، ابن منظور – اللسان، مادة " فسق".

على وجهِ الاستعارةِ لا الحقيقةِ لخُبثهنّ، أوْ لخروجهنّ عن الحُرمة في الحلّ والحرمِ[١].

خامساً: الإشكال الأسلوبيّ:

هذا محتكَم آخرُ صدَر عنه المصنِّفون في غريبِ الحديثِ، فقد ألْفَوا أحاديثَ لا يُقتَنَص المرادُ مَنها بالنّظرِ إلى ظاهرِ اللّفظ؛ ذلك أنّ هذه الفِعلة -أعني أخذَ المعنى مِن ظاهرِ اللّفظ- تنأى بالمعنى إلى مكانٍ طَروحٍ، ومِن أمثلةِ ذلك الأحاديثُ التي تتجافى في أسلوبِها عن مِضمارِ اللّغةِ النّمطيّةِ المباشِرة، والأحاديثُ التي فيها ذكرٌ للجوارحِ والأبعاضِ في حضرةِ الذّاتِ الإلهيّة، وهي مَدخلٌ مِن مداخلِ القائلين بالتّشبيهِ والتّجسيمِ، والأحاديثُ التي يكتنفُها إجمالٌ يعوزُه بسطٌ وتطويلٌ لاقتناصِ المتعيّن مِنه، والأحاديثُ ذات الدّلالةِ العامّة المحتمِلةِ. ولعلّ في الأمثلةِ الآتيةِ فضلَ بيانٍ يجلّي ما تقدّم:

وردَ في حديثِه -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه قال لامرأةٍ خُطبت فأتتْ تستأذنُه، "**.... أمّا أبو جَهمٍ فأخاف عليك قَسقاسة العَصا...** "[٢] . وقد رُوي الحديثُ:" **إنّ أبا جَهمٍ لا يضعُ عصاه عن عاتقه**"[٣]. والمعنى المرادُ مِن هذا أنّه سيّىء الخُلُق، سريعٌ إلى التّأديبِ والضّربِ؛ ذلك أنّ هيئةَ الضّربِ بالعصا تقتضي ديمومةَ رفعِها إلى عاتقِه ما دامَ يضربُ، وقد يكونُ لهذا الأسلوبِ الكنائيّ وجهةٌ أخرى، وهي أنّه مِسْفارٌ يكثرُ الظّعن، ويُقلّ المقام، فلا حظَّ لها في صحبتِه، وبذلك يكون قد كنى بالعَصا عن السّفرِ[٤].

---

(١) انظر: الزمخشريّ – الفائق ، ١١٦/٣، وابن منظور – المصدر نفسه، مادة "فسق"

(٢) الخطابي – غريب الحديث، ٩٦/١، الزمخشريّ – المصدر نفسه، ٣٨/٣، ابن الأثير – النهاية، ٢٥٠/٣.

(٣) الزمخشريّ – المصدر نفسه، ٣٨/٣.

(٤) انظر: الخطابي – غريب الحديث، ٩٧/١، الزمخشريّ – المصدر نفسه، ٣٨/٣.

ومِن مثلِ ما تقدّم قولُه -صلّى الله عليه وسلّم-: "**اليدُ العُليا خيرٌ مِن اليدِ السُّفْلى**"[١]. قيل إنّ اليد العُليا المعطيةُ، والسّفلى هي السائلةُ، وقيل العليا هي المتعففة، لأنّها تعالتْ بتعففُّها، والسُّفْلى هي القابضة المانعةُ. وهذان تأويلان مُتقبَّلان. والظّاهرُ ممّا تقدّم أنّ مباشرةَ الأسلوبِ البلاغيّ، والتّجافي عن اللّغة النّمطيّةِ أفضيا إلى تعدّدِ المعاني التي تكتنفُ الحديثَ، ومِن ثَمّ تباينَ وجهُ القول فيه، فغدا ممّا يلحقُ بركبِ الغريبِ، وقد يصلُ هذا التّباينُ إلى حدّ التّناقضِ في الفهمِ، كأنْ يُفْهَمَ الحدثُ الكلاميّ فَهمَين متغايرَين لا يلتقيان، ومِن ذلك قولُه -صلّى الله عليه وسلّم : "**ذاك رجلٌ لا يتوسّد القُرآن**"[٢] ، وهو محتمِل معنَيين، أوّلُهما مدحٌ، وثانيهما ذمّ. أمّا المدحُ فهو أنْ يكونَ المراد أنّه لا ينام عن قراءةِ القرآنِ، بل يقطع ليلَه بالتهجُّدِ به، والتّصرّفِ في تلاوتِه، ويسندُه قولُه -صلّى الله عليه وسلّم-: "**يا أهلَ القرآنِ، لا تَوسَّدوا القرآنَ، واتلوه حقَّ تلاوته**"[٣]. وأمّا المعنى المحمولُ على وجه الذّمّ، فالمراد أنّه غيرُ حافظٍ للقرآنِ، "فليس بخازنٍ مِن خزنتِه، ولا وعاءٍ مِن أوعيتِه، فإذا نام لم يكنْ متوسّداً له كما يتوسّد مَن هو ظرفٌ مِن ظروفِه الحاويةِ له، والمشتمِلَة عليه"[٤].

والظّاهر أنّ دلالة الحديثِ الكلّيّةَ عائمةٌ تتّسع دائرتُها للمعنَيين المتغايرَين معاً، ولذلك لَحِقَ هذا الحديثُ بركبِ الغريبِ، وحُقّ له ذلك.

وفي مثالٍ آخرَ مُبينٍ عن أثر عموميّةِ الدّلالةِ الكلّيّةِ في الفهم قولُه -صلّى الله عليه وسلّم-: "**ابتغوا الرّزقَ في خَبايا الأرض**"، ويُتأوّل هذا الحديثُ على وجهَين اثنَين: أحدهما أنّ الرّزقَ مُلتمَس في الحرثِ والزّراعةِ، وثانيهما أنّ الرّزقَ

---

(١) الزمخشريّ- المصدر نفسه، ٧٨/٣، ابن الأثير - النهاية، ٢٩٣/٥.

(٢) الشريف الرضي - المجازات النبوية ، ٤١. الزمخشريّ - المصدر نفسه، ٥٩/٤، ابن الأثير - المصدر نفسه، ٢٩٣/٥.

(٣) الشريف الرضي- المصدر نفسه، ٤١.

(٤) المصدر نفسه، ٤١.

مُلتمَس فيما في الأرضِ مِن معادنَ وجواهرَ[1]. وممّا يَزيد في غموضِ المعنى وتعدّدِ وجوهِ القولِ فيه في هذا السّياقِ "الإجمال"؛ ذلك أنّ الحديثَ لم يُبسَط القولُ فيه، فلمْ نتبيّنْ المرادَ بالخبايا؛ أهو الحرثُ أم التّنقيب، أم الأمران معاً.

وفي حديثِه –صلّى الله عليه وسلّم–: "**إذا تَقاربَ الزّمانُ لم تكدْ رُؤيا المؤمنِ تكذب**"[2] تظهر مشكلةُ الإجمالِ وعموميّةِ الدّلالة. وقد تمثّل الإشكالُ في "تقاربِ الزّمان"؛ ذلك أنّها ذات نهايةٍ مفتوحةٍ عائمةٍ، فهل المعنى المتعيّنُ مِن تقاربِ الزّمان أنْ تكونَ السّنة كالشّهر، والشّهر كالجمعةِ، والجمعةُ كاليوم، ويُصدّق هذا قولُه–صلّى الله عليه وسلّم– "تقارب الزّمان حتّى تكون السّنة كالشّهرِ..."[3]، أم أنّ معناه مأخوذٌ مِن استلذاذِ العيشِ ووقوعِ الأمنِ في الأرضِ زمنَ المهديّ فتستقصر المدّة؟، والنّاسُ "يستقصرون مدّةَ أيّامِ الرّخاء، وإنْ طالتْ وامتدّتْ، ويستطيلون أيّامَ المكروهِ وإنْ قصُرتْ وقلّتْ، والعربُ تقولُ في مثل هذا: مرّ بنا يومٌ كعرقوبِ القَطا قصراً"[4]. أمْ أنّ معناه هو ما يَصْدُق على تلك الظّاهرةِ الطّبيعيّةِ من استواءِ اللّيل والنّهارِ واعتدالِهما، أم أنّ المعنى هو قربُ انتهاءِ الأمدِ، ويُصدّق هذا قولُه –صلّى الله عليه وسلّم–:" **في آخرِ الزّمان لا يكادُ رؤيا المؤمن تكذبُ...**"[5]. لعلّ هذه المعاياةَ في اقتناصِ المعنى باعثُها عموميّة الدّلالة، وما يعتري الحديثَ مِن إرسالٍ للقولِ بإطلاقٍ.

وقدْ يكونُ للأدوارِ النّفسيّةِ يدٌ في خروجِ الكلامِ على خلافِ ظاهرِه، وقد تنبّه المصنّفون في غريبِ الحديثِ إلى بعضِ الأمثلةِ التي تخصّ هذا المبحثَ، فأشاروا

---

(١) انظر: الخطابي – غريب الحديث ، ١/٢٠٢.

(٢) الخطابي – المصدر نفسه، ١/٩٣، الزمخشريّ – الفائق ، ٣/١٧٥، ابن الأثير – النهاية ، ٤/٣٣. ابن منظور – اللسان، مادة " قرب".

(٣) الخطابي – المصدر نفسه، ١/٩٤.

(٤) المصدر نفسه، ١/٩٥.

(٥) المصدر نفسه، ١/٩٤.

إلى ما فيها مِن أسلوبٍ مُوهِمٍ لاعتباراتٍ نفسيّةٍ واجتماعيّةٍ خالصة، ومِن ذلك قولُه-صلّى الله عليه وسلّم-: "**جاءني رَجلان فجلس أحدُهما عند رأسي، والآخرُ عند رِجلي فقال: ما وجع الرّجل؟ قال: مطبوبٌ، قال مَن طبّه؟** ... [(1)]". ومثلُه قوله -صلّى الله عليه وسلّم-في مريض: "**فلعلّ طبّاً أصابه**"[(2)]، **ومثله أنّه -صلّى الله عليه وسلّم- احتجم حين طُبّ**"[(3)].

والحاصلُ أنّ المعنى هو "المسحور"، وأنّه احتَجم حين سُحر، وقد خرجَ هذا الكلامُ بسمتِه الأسلوبيِّ المغايرِ للواقعِ على سبيلِ التّفاؤل، كما قيل للّديغِ سَليماً[(4)]. ولستُ أزعمُ أنّ ثَمّ تفاصلاً لا يُرفَع في هذا المثالِ المتقدّم آنفاً، ولكنّ السّمتَ الأسلوبيّ الذي جاءتْ عليه جَعَلَ المصنّفين في هذا المطلبِ يُلحقونها بالغريبِ عامّة، ولعلّ هذا يُؤْذِن بالحديثِ عن الأحاديثِ المشكلة التي ورد فيها ذكرٌ للجوارحِ والأبعاضِ في حقّ الله تَعالى، وقد عُدّ غريباً كثيرٌ مِنها إلى حدّ الانبراءِ إلى التّصنيفِ القائمِ برأسِه في هذه الجهةِ، ومِن ذلك "مشكِلُ الحديثِ وبيانُه" لابن فورك، وتأويلُ مشتبِه الأحاديث" للسّيوطيّ، والمقصدُ مِن هذا النّفيُ عن ذاتِه العليّةِ شبهةَ التّجسيمِ والتّشبيهِ الواقعةَ في لغةِ بعضِ الأحاديثِ لا في مضمونِها، ومِن ذلك قولُه -صلّى الله عليه وسلّم-:" **إنّ الله -تعالى- خَلَق آدمَ عليه السّلام مِن قبضةٍ قَبَضها..**"[(5)]، ومِن المقرَّرِ المستحكِمِ أنّ تأويلَ القبضةِ على معنى الجارحةِ والبعضِ مُغيَّب لا محالةَ، وليس ثمّ بدٌّ مِن تأويلٍ، وقد بيّن ابنُ فورك أنّه يحتملُ وجهَين، أحدهما أنْ يكونَ على معنى إظهارِ فعلٍ، وثانيهما أنْ يكون ذلك قبضَ جارحةٍ على الحقيقةِ، ولكنّها لبعضِ الملائكةِ، ولا يمتنعُ وصفُ الملائكةِ بالجارحةِ، ثمّ قيل

---

(1) الزمخشريّ – الفائق ، ٣٥٢/٢.

(2) الهروي – غريب الحديث، ٤٥٩/١، الزمخشريّ – المصدر نفسه، ٣٥٢/٢.

(3) ابن الأثير – النهاية، ١١٠/٣.

(4) انظر: الزمخشريّ – الفائق، ٣٥٢/٢، ابن الأثير – المصدر نفسه، ١١٠/٣.ابن منظور– اللسان ، مادة "طبب" .

(5) ابن فورك – مشكل الحديث وبيانه، ١٠٣.

"قَبَضَها الرّحمن" على معنى أنّ المَلَك قَبَض على ذلك بأمرِ الأوّل الرّحمن، ومثالُه في الكلام جارٍ بين النّاسِ، كأنْ نقولَ: ضَرَبَ الأمير اللّصَّ، وإنّما الحقّ أنّه أمر بضربِه، "والأصلُ في هذا كلّه إضافةُ الحوادث إلى المالكِ لها باللّفظِ الأعمّ"[1]. ولا يخفى أنّ هذا البحثَ ينتسبُ إلى خلافٍ عَقَديّ، واللّغةُ فيه بنواميسِها الدّاخليّةِ، وأساليبِها الخارجيّة، أداةُ إثباتٍ ودحضٍ.

ومِن مثل ما تقدّم قوله–صلّى الله عليه وسلّم–: **"لا تسبّوا الرّيح، فإنّها مِن نَفَسِ الرّحمن"**، وفي حديثٍ آخرَ : **"إنّي لأجدُ نَفَس ربّكم مِن قِبَلِ اليَمن"**[2]. والمعنى في هذين الحديثَين لا يُفهَم على ظاهرِ لفظِه، فقدْ تعالى اللهُ عن ذلك علوّاً كبيراً. ولعلّه أنّ الرّيحَ ممّا يفرّح الله بها المكروبَ المغمومَ، فالرّحمن جَعَلَ في مَهبِّ الرّيح نَفَساً، أي تنفيساً وتفريجاً، ويقال: اللهمّ نفّسْ عنّي الأذى[3]. وأمّا قولُه– صلّى الله عليه وسلّم–: "إنّي لأجد نَفَس ربّكم مِن قِبَل اليمن"، فهو جارٍ مَجرى الكناية، والمعنى أنّه يجدُ تفريج اللهِ وتنفيسَه عنه بنصرتِه إيّاه مِن قِبَل اليمن، "وذلك لمّا نصره المهاجرون مِن أهلِ اليمنِ والأنصارِ، وكان –صلى الله عليه وسلّم– كثيراً ما يمدح أهلَ اليمنِ"[4].

سادساً: الإشكال السّياقيّ:

هذا محتكَم عُني به المصنّفون في غريب الحديث فتمثّلوه بأنواعِه: السّياقِ البنيويّ وسياقِ الحال، والسّياقِ التّاريخيّ الاجتماعيِّ؛ ذلك أنّ الأحاديث التي عرضوا لها لم تكنْ منفصمةً عن قرائنَ وإشاراتِ خارجيّةٍ، فلا تُفهَم دلالةُ الملفوظ

---

(١) المصدر نفسه، ١٠٤.

(٢) ابن قتيبة – تأويل مختلف الحديث، ١٩٥، ابن فورك– مشكل الحديث، ٢١١، الزمخشريّ –الفائق، ٤/١٠، ابن الأثير – النهاية،٥/٩٣.

(٣) ابن قتيبة– المصدر نفسه، ١٩٥، ابن فورك –المصدر نفسه، ٢١٣.

(٤) ابن فورك– المصدر نفسه، ٢١٤.

إلاّ باستحضار ما هو غيرُ ملفوظٍ حتّى يتضافرَ المعنى المقاليّ مع المعنى المقاميّ فيُقتَنَصَ المراد، ولكنّه قد يحدث أحياناً أنْ تكون بعضُ الأحاديث قد اجتُزِئت مِن سياقها، وأصبح المعولُ عليه في فهمِ المتعيِّن منها ألفاظَها؛ ذلك أنّ الرّواية هي سبيلُ الحفظ والنَّقل، فلم تُنْقَل كثيرٌ مِن الأحاديثِ في سياقِها، وهيئاتِ ما أحاط بها، فوقع اللَّبس، ومِن ذلك قولُه- صلّى الله عليه وسلّم ": "**إنّ الله خلق آدمَ على صورتِه**"[١]، وقد تُوهِّم في مرجع الضّمير، فقيل إنّه عائدٌ على الله عزّ وجلّ، وقد رَكِب أصحاب هذا الرأي قبيحاً مِن الغلطِ والنّظر، وقيل إنّه أراد "خلق آدمَ على صورةِ آدم"، والمرادُ مِن هذا أنّ آدمَ – عليه السّلام- مع اقترافِه المعصيةَ في الجنّة لم يُشوِّهْ خلقَه، بل أبقى له حسنَ الصّورة، أو قدْ يكون المعنى أنّ آدمَ خُلِق على صورتِه التي كان عليها غيرَ متنقّلٍ في النّشأةِ أحوالاً مِن صغرٍ إلى كبرٍ[٢].

والحقّ أنّ هذا الحديثَ لا يُفهَم الفهمَ الدّقيق إلاّ إذا استُحْضِر سياقُه الأوّل الأصليّ الذي نشأ فيه؛ ذلك أنّ هذا الحديثَ نشأ في سياقٍ مضمونُه أنّ النّبيّ-صلّى الله عليه وسلّم-مرّ برجلٍ يضرب ابنَه أو عبدَه في وجهِه لطماً ويقول: قبّح الله وجهَك، ووجهَ مَن أشبهَ وجهَك، فقال –صلّى الله عليه وسلّم-: "إذا ضَرب أحدُكم عبدَه فليتّقِ الوجهَ، فإنّ الله خلقَ آدمَ على صورتِه"[٣]، ولعلّ بعضَ الرّواة قد نقلوا الخبرَ منسلِخاً مِن سياقِه، خِلْواً مِن حادثةِ اللّطْم على الوجهِ وما أعقبَها مِن حديثِ المنع، فخُيِّل أنّ هذا حديثٌ قائم برأسِه، فكَثُرَتْ تأويلاتُه، وتعدّدت وجوهُ القول في مرجعِ الضّمير، ولعلّه عائدٌ على صورةِ المدعوِّ عليه[٤].

---

(١)ابن فورك – مشكل الحديث ، ٤٦، ابن قتيبة – تأويل مختلف الحديث، ٢٠١، ابن السيد- الإنصاف، ٥٩.

(٢) انظر: ابن فورك- المصدر نفسه، ٤٦. وقد عرض المحقق لآراء العلماء فيه.

(٣) المصدر نفسه، ٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ٤٦. ويرى ابن قتيبة أن التأويل الذي لا يجانب الصواب هو أن الرسول " صلى الله عليه وسلم" أراد أن الله تعالى خلق آدم في الجنة على صورته في الأرض. والحق أنني أرى أن هذا التأويل بعيد إذا غيب السياق، سياق الحال الذي تقدم، ثم إنه يقول: " ولست أحتم بهذا التأويل على هذا الحديث، ولا أقضي بأنه مراد رسول الله فيه، لأني قرأت في التوراة: (إن الله جل وعز لما خلق السماء والأرض قال: نخلق بشرا بصورتنا،

ومِن مثل ما تقدّم قولُه –صلّى الله عليه وسلّم–: "**ليس منّا مَن لم يتغنَّ بالقرآن**"، فقيل إنّ معنى (تغنّى: تفعّل) في هذا السّياقِ هو: (استغنى: استفعلَ)، فنقول: تغنّى واستغنى، وتَغانى[1]، وذهب بعضُهم إلى أنّ المرادَ هو تطريبُ الصّوت والتّحزين له، وليس ذلكَ كذلك؛ إذْ ليس في وُسْعِ كلِّ أحدٍ أنْ يفعل هذا، ولعلّ مِن النّاس مَن إذا أراد التّزيينَ له أفضى به إلى التّهجين[2]، والمُحتكَم في معرفةِ المتعيِّن مِنه هو سياقُ الحالِ الذي نشأ فيه الحديثُ، وقد احْتَكَم إليه الهرويُّ في توجيه معنى الحديثِ، فذهب إلى أنّ المقصدَ مِنه: "لم يستغنِ، ولم يذهبْ به إلى الصّوتِ، وليس للحديثِ وجهٌ غيرُ هذا عندَه، لأنّ الرّسولَ–صلّى الله عليه وسلّم– دَخَل على سعدٍ وعندَه متاعٌ رثٌّ ومال رثٌّ، فقال رسولُ الله –صلّى الله عليه وسلّم– هذا الحديثَ، وذكرُه رثاثةَ المتاعِ والمال تُنْبِئ عن أنّ مرادَه الاستغناء بالمالِ القليل[3]. والحقّ أنّني أَمْيَلُ إلى هذا الرأيِ جانحاً إلى استشفافِ المعنى مِن سياقِه الذي قيلَ فيه، ولا ينفي هذا أنّ لترجيعِ الصّوت وتحزينِه فضلاً، ولربّما كان في سياقٍ آخرَ كقوله: "زيّنوا القرآنَ بأصواتِكم"[4]. وقدْ يُلتمَس له معنى قريبٌ مِن الأوّل؛ ذلك أنّ الاستئناسَ بالسّياقِ التّاريخيِّ والاجتماعيِّ يبيّن أنّ العربَ كانتْ تتغنّى بالرّكبانيّ، وهو النّشيد بالتّمطيطِ والمدِّ، إذا ركبتْ الإبلَ، وإذا تبطّحتْ على

فخلق آدم من أدمة الأرض، ونفخ في وجهه نسمة الحياة، وهذا لا يصلح له ذلك التأويل". انظر ابن قتيبة – تأويل مختلف الحديث، ٢٠٣.

(١) انظر: الهروي – غريب الحديث، ٢٩٨/١، الخطابي – غريب الحديث، ٣٥٨/١، الزمخشريّ– الفائق، ٣٦/٢، ابن الأثير – النهاية ، ٣٩١/٣، ابن منظور – اللسان، مادة " غني"

(٢) انظر: الهروي – المصدر نفسه، ٣٥٨/١.

(٣) انظر: الخطابي – غريب الحديث، ٣٥٥/١.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ٣٥٥/١.

الأرضِ، وعلى أكثرِ أحوالِها، فلمّا نَزَلَ القرآنُ أحبّ الرّسولُ –صلّى الله عليه وسلّم– أنْ يكون القرآنُ دأبَهم وشأنَهم مكانَ التّغنّي[1].

وقدْ يكونُ لغيابِ السّياق التّاريخيّ والاجتماعيِّ يدٌ في تجلّي اللّبْس؛ وذلك نحو قولِه –صلّى الله عليه وسلّم–: **"لا إسعادَ ولا عَقْرَ في الإسلامِ"**[2]. والحقّ أنّه لا يُوقَف على المقصدِ المرادِ إلاّ بفهمِ "الإسعادِ" و "العقرِ"، وهما دالّتان على فعلَين كان أهلُ الجاهليّةِ يقترفانهما، فنَهى الرّسولُ –صلّى الله عليه وسلّم– عن ذلك، والإسعادُ مأخوذٌ مِن إسعادِ النّساءِ في المَناحاتِ، وهو أنْ تقومَ المرأة في المأتمِ فتقومَ معها أخرى، فيُقال: أسْعَدَتْها، فهي مُسْعَدَة، الإسعادُ خاصٌّ في هذا المعنى، ومِنه قولُ الأحوص:

بكيتُ الهوى جهدي فَمَن شاءَ لامَني   ومَن شاءَ آسى في البكاءِ وأسْعَدا[3]

أمّا قولُه –صلّى الله عليه وسلّم–: لا عَقرَ، فهذا مرتبطٌ بإشارة تاريخيّةٍ إلى عقرِ الإبلِ على قبورِ الموتى؛ إذْ إنّهم كانوا إذا ماتَ الرّجل الشّريفُ الجوادُ عَقَروا عند قبرِه، وكانوا يقولون عن صاحبِ القبرِ: كانَ يعقرُها للأضيافِ يقْريهم أيّامَ حياته، فيُكافأ على تلك الفعلةِ بمثلِ صنيعِه، ويُقال إنّهم كانوا يعقرونها لِتَطْعَمَ السّباعُ والطّيرُ عند قبرِه، فيُدْعى مُطْعِما حيّاً وميّتا، ويُقال إنّ المُبْتغى مِن تلك الفعلةِ أنّ صدى الميّتِ يصيبُ مِن ذلك الطّعامَ[4]. والظّاهر ممّا تقدّم أنّ هذا الحديثَ يشتملُ على إشاراتٍ تاريخيّة، وملاحظَ سياقيّةٍ لا يُفهَم المعنى إلاّ مِن خلالها، ولذلك عُدّ

(١) انظر: المصدر نفسه، ٣٥٨/١، الزمخشريّ – الفائق، ٣٦/٣، ابن الأثير – النهاية ، ٣٩١/٣، ابن منظور – اللسان، مادة " غني"

(٢) الخطابي – غريب الحديث، ٣٦٩/١. الزمخشريّ– المصدر نفسه، ١٧٨/٢.

(٣) انظر : الخطابي – المصدر نفسه، ٣٦٩/١، والشعر للأحوص في ديوانه، ٩٨.

(٤) الخطابي – المصدر نفسه، ٣٦٩/١، وقد هممت بأن ألحق هذا المثال وما شاكله بمحتكم " الغموض المعجمي" ، والحق أنه يتردد بين هذا وذاك، ولكنني أميل إلى وضعه هذا الموضع، ذلك أنه كالمصطلح في السياق المشتمل على معرفة تاريخية واجتماعية مخصوصة.

هذا الحديثُ غريباً؛ ذلك أنّ كلمة الإسعادِ والعَقر صارتا كالمصطلحِ الذي يستغرقُ معرفةً اجتماعيّةً وتاريخيّةً، ومَن فاتتْه تلك المعرفةُ وإحالاتُها فاتَه المعنى المرادُ.

ومِن مثِل ما تقدّم حديثُه -صلّى الله عليه وسلّم- **أنّه كتبَ لِعُيَينةَ بنِ حصنٍ كتاباً ، فلمّا أخذ كتابَه قال: يا محمّدُ ، أتراني حاملاً إلى قومي كتاباً كصحيفةِ المتلمّس**[1]. وموضعُ النّظر في الحديثِ إشارتُه إلى صحيفةِ المتلمِّس، والحقّ أنّ المعنى الذي ينطوي عليه الحديثُ لا يُفْهَم إلاّ بتمثّلِ قصّةِ المتلمِّسِ والصّحيفةِ، أي تمثّل السّياق التّاريخيّ، وقصّتُه طويلةٌ عرّج عليها الخطّابيّ، ومُستخلَصُها أنّ عمْرو ابنَ هندٍ حَمَّل المتلمّسَ صحيفةً وَهَّمَه أنّه أَمَر له بجوائزَ، وكَتَب إلى عاملِه أن اقتلْه، وسارتْ صحيفتُه مثلاً في كلِّ كتابٍ يحملُه صاحبُه يرجو مِنه خيْراً، وفيه ما يَسوؤه، والمعنى الذي أراده ذلك الرّجلُ في حضرةِ الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه لا يحمل إلى قومِه كِتاباً لا عِلمَ له بِمُضمَّنِه[2].

---

(١) الخطابي – غريب الحديث، ٢٢٨/١.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ٢٢٨/١، الزمخشريّ – الفائق ، ٢٨٧/٢.

الفصل الثّاني

المَلاحِن

فُتيا فقيهِ العرب

الأحاجيّ والألغاز

تقديمٌ:

ويعرّج الباحث على هذا المطلبِ تمثّلاً لتجلّياتِ اللّبس في مظانَّ متنوّعةٍ، وأوّل ما يتوجّه إليه النّظرُ في هذا المقامِ ثلاثة أمورٍ، أوّلها: الوقوفُ عند مصطلحات هذا الفنّ المتداخلةِ، وثانيها: الإشارةُ إلى عالميّةِ هذه الظّاهرة وتقادمِها، وثالثها: التّقرير بامتيازِ هذا المطلبِ عن سابقَيه(مشكلِ القرآن والحديثِ وغريبهما).

أمّا التّقرير بالامتيازِ فهو آتٍ من قِبَل المُلغز؛ ذلك أنّه يتوسّل بإمكانات اللّغة في الإلباسِ والتّعميةِ توسّلَ المتكلّفِ القاصدِ ما استطاع إلى ذلك سَبيلاً، عامداً إلى مُعاياةٍ في ثوبِ أسلوبٍ شديد الالتواءِ لا يُهتدى لمسالكِه إلاّ بعد معاناةٍ وطول نظرٍ.

أمّا ثانيها– وهو عالميّة الألغاز وتقادمُها– فقد قيل إنّ النّاس "كانوا يلعبون بالكلماتِ منذ عصورِ الإغريق القديمة"[١]، وقد ذهب أرسطو إلى أنّ ماهيّة اللّغزِ قائمةٌ على تركيبِ ألفاظٍ لا يتّفق بعضها مع بعضٍ، ولكنّها تؤدّي معنى صحيحاً، وهذا لا يتأتّى بتأليفِ ألفاظٍ ذات مَعانٍ حقيقيّةٍ، بل يتأتّى باستعمال المجازات[٢]. والحقّ أنّ كلمة "الألغاز" ذاتُ دلالة رحبةٍ تتّسع لظواهرِ إبهامٍ لغويّة وغير لغويّةٍ، ومِن الألغازِ العالميّة المشترَكة "الأحاجيّ"Riddles"، و"شَرَك الكلماتWord Tricks، والمُشكلاتُ المنطقيّة "Logic Problems"، "والألغاز الحسابية Mathematical Puzzles "[٣].

---

(١) Eckler, A., Word Recreations, Dover pub., New York 1979, 1.
Danes, M., Puzzles and Games in Language Teaching Lincolon wood, Nation Text book, 1987,p. 11.

(٢) انظر: أرسطو – فن الشعر، ٦١.

(٣) انظر: Danesi, M., Puzzles, p. 33-40.

ويقام أيضاً فارق بين نوعين من الأحاجيّ وهما: الأحاجيّ الوصفية "Descriptive Riddles" وأسئلة الذكاء "Witty questions" ، أما الأولى فهي عالمية تتعامل مع المظاهر فتصفها كالإنسان أو الحيوان أو النبات أو الأشياء، لتحدث من هذا الوصف توجها نفسيا مفارقا للإجابة الصحيحة، ومن ذلك: ما الذي يقضي نهاره راكضاً، وليله نائماً تحت السرير؟ قد يتوهم المرء في عجالة بأنه الكلب، ولكنه الحذاء. أما أسئلة الذكاء ، فهي قديمة أيضاً ومن أمثلة ذلك عند الإغريق: ما هو أقوى شيء؟ يظن المرء أنه الحديد، ولكن الإجابة هي

أمّا مصطلحات هذا الفنّ عند العربِ فهي متعدّدة، ففي بابِ الإشارةِ وقف ابنُ رشيقٍ عند مطالبَ متعدّدةٍ تنتسب إلى هذا العنوانِ العريض، ومنها اللّحن واللّغز والتّعمية، أمّا اللّغزُ فهو مِن أخفى الإشاراتِ وأبعدِها[1]، واللّحن "يسمّيه النّاس في وقتنا هذا المحاجاةَ لدلالةِ الحجا عليه"[2]. أمّا ابن الأثيرِ فلم يقمْ فرقاً بين اللّغز والأحجيّة، فهما شيءٌ واحد[3]، ولكنّه يقْصُر الألغازَ والأحاجيّ على المعاني؛ ذلك أنّه يرى أنّ كلّ معنى يُستخرَج بالحَدسِ والحزرِ، لا بدلالةِ اللّفظ عليه حقيقة ومجازاً، هو لغز وأحجيّة، ولذلك ذهب ابن الأثيرِ إلى أنّ الحريريّ وهِم إذْ ظنّ أنّ فتياه في مقامتِه الثّانية والثلاثين مِن الأحاجيّ المُلغِزةِ[4]، بل هي في نظرِه مِن باب المغالطاتِ المعنويّة[5].

ولعلّ خير بيانٍ وقفتُ عليه في تجليةِ معاني هذه المصطلحاتِ والقولِ على تداخلِها هو ما جاء به الخطيبُ البغداديّ نقْلاً عن الورّاق الحظيريّ(٥٦٨هـ) في مصنَّفه: "الإعجاز في الأحاجيّ والألغاز"[6]، وقد افتتحه ببيانٍ عن اشتقاقِ المعمّى واللّغز والأحجيّةِ، أمّا الأحاجيّ، فهي مأخوذة مِن الحِجا: العقل، وهي لعبةٌ وأغلوطة يتعاطاها النّاس بينهم، وسمّيت بذلك لأنّها تُستخرَج بالعقل[7]، واللُّغْز: الميلُ بالشيءِ عن جهتِه، وأصلُ ذلك الحفرةُ يحفرها اليَربوع في جُحره تحت الأرضِ، وقيل هو جُحر الضّبّ والفأرِ واليَربوع؛ سمّي بذلك لأنّ هذه الدّوابّ تحفره مستقيماً إلى أسفل، ثمّ تَعْدِل عن يمينه وشمالِه تعميةً لتُخفي مكانَها بذلك الإلغازِ، فإذا ما طلبها

الحب، وقد تستعين أسئلة الذكاء باللغة نفسها كالرموز والكلمات والمختصرات، انظر فيما تقدم: Britannica, 15 TH Edition(1990) USA,p. 15/58.

(١) انظر: ابن رشيق – العمدة، ٣٠٧/١.

(٢) المصدر نفسه، ٣٠٨/١.

(٣) انظر ابن الأثير – المثل السائر، ٢١٢/٢، وقد أشار إلى أنهما قد يطلق عليهما المعمىّ.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ٢١٢/٢.

(٥) سيأتي مطلب القول على هذه المقامة الموسومة بالطيّبية"، انظر المصدر نفسه، ٢١٢/٢.

(٦) انظر: البغدادي – خزانة الأدب، ٤٥٦/٦.

(٧) انظر: المصدر نفسه ٤٥٨/٦.

البدويّ بعصاه مِن جانبٍ نَفَق مِن الجانبِ الآخر، فالألغازُ إذن طرقٌ تلتوي وتُشْكِل على سالكِها[1]. أمّا المعمَّى فهو المغطّى، والتّعمية أنْ يُعمّي المرءُ على الآخر فيلبسه عليه تلبيساً[2]، وثمّ بونٌ بين المعمّى واللّغز، ولكنّ التّداخل بينهما أظهرُ، فقيل إنّ الكلامَ إذا دلّ على اسمِ شيءٍ مِن الأشياء بذكر صفاتٍ له تميّزه عن غيرِه كان لغزاً، وإذا دلّ على اسم خاصٍّ بملاحظةِ كونه لفظاً بدلالةِ مرموزه سمّي ذلك معمّى، فالكلام الدّالّ على بعض الأسماءِ يكون معمّى مِن حيث إنّ مدلولَه اسمٌ مِن الأسماءِ بملاحظة الرّمزِ على حروفِه، ولغزًا مِن حيث إنّ مدلولَه ذاتٌ مِن الذّواتِ بملاحظة أوصافِها، وعلى هذا يغدو قول القائلِ في كمّون:

يـــا أيّهـــا العطّـــار أعـــربْ لـــنا   عـــن اسمِ شيءٍ قلّ في سومِكما

تـــنظرُه بالعيـــنِ فـــي يقظـــةٍ   كمـــا تَـــرى بالقلـــبِ في نومِكما

يغدو صالحاً لأنْ يكون لُغزاً بملاحظةِ دلالتِه على صفاتِ الكمّون، وصالحاً لأنْ يكون معمّى باعتبارِ دلالتِه على اسمٍ بطريق الرّمزِ[3]. والحقّ أنّ المصطلحاتِ الذّائعةَ في هذا المِضمارِ كثيرةٌ متعدّدة، وأنّ التّداخلَ بينها أظهرُ، وقد ذكر الورّاق الحظيريّ أسماءً لهذا الفنّ كثيرةً، ومنها: "المُعاياة، والعَويص، واللّغز، والرَّمْز، والمُحاجاة، وأبياتُ المعاني، والمَلاحن، والمَرموس، والتّأويل، والكناية، والتّعريض، والإشارة، والتّوجيه، والمعمّى، والمُمثَّل"[4].

وقد بيّن الورّاق أنّ المعنى في جميعِ تلكم المصطلحاتِ واحدٌ، وقد اختلفت أسماؤه باختلافِ وجوهِ الاعتبارِ، فإذا ما عُدّ مِن حيث هو مغطّى عن المرءِ سُمّي معمّى، وهو مأخوذٌ مِن لفظ العمى، وهو تغطية البصرِ عن إدراكِ المعقولِ. وإذا

---

(١) انظر: البغدادي- خزانة الأدب، ٤٥٧/٦- ٤٥٨، ابن منظور- اللسان، مادة لغز

(٢) انظر: المصدر نفسه، ٤٥/٦.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ٤٥٣/٦. وقد نقل هذا من كتاب عنوانه " كنز الأسماء في كشف المعمىّ.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ٤٥٩/٦.

عُدّ مِن جهة كونه سُتِر ورُمِس عن المرء فهو مرموس؛ وهو مأخوذ مِن الرَّمْسِ، وهو القبر، فكأنّه قُبِر ليخفى مكانه على ملتمسه، وإذا عُدّ مِن حيث إنّ معناه يؤوّل إلى المرءِ فهو مؤوّل، وسمّيت الفعلة تأويلاً، وأمّا مِن جهةِ صعوبتِه واعتياصِ استخراجِه فهو عَويص، وإذا عُدّ مِن حيث إنّ غيرك حاجاك بِه، أي استخرج مقدارَ حِجاك، أو مقدارَ رَيْثك في استخراجِه سمِّي محاجاة، ومسائلُه أحاجيّ، وهذا لا يختصّ بفنّ واحدٍ، وإذا ما عُدّ مِن جهة كونه له وجوهٌ وأبوابٌ مشتبِهة سمّي لغزاً، وإذا عُدّ مِن جهةِ أنّ واضعه كان يُعايي المرء ويتعبُه في اقتناصِ المتعيّن سُمّي معاياةً، وإذا عُدّ مِن جهةِ أنّ واضعه لم يُفصِح به قيل هو رمزٌ، والشّيء مرموزٌ، وإذا عُدّ مِن حيث استخراجُ كثرةِ معانيه في الشّعر سُمّي أبياتَ المعاني، وإذا عُدّ مِن حيث هو ذو وجوهٍ سمّي المُوجّه، وإذا عُدّ مِن جهة أنّ قائله لم يصرِّح بغرضه سُمّي تعريضاً وكناية، وإذا عُدّ مِن جهةِ أنّ قائله يوهِمُك شيئاً، ويريد غيرَه سُمّي لَحْناً، وسمّيتْ مسائله مَلاحنَ[1].

وليس القصدُ في هذا المقامِ أنْ أقف عند كلّ ما قيل إنّه لغزٌ؛ ذلك أنّ منها ما يخرجُ عن مضمارِ دائرةِ اللّبس، فهي كثيرة متنوِّعة، ومِنها الألغاز اللّفظيّة والنّحويّة والحسابيّة والفقهيّة والمجونيّة[2]، وممّا يخرجُ عن مطلبِ هذه المباحثةِ أحاجيّ الزّمخشريّ الموسومةُ "بالمُحاجاة بالمسائل النّحويّة"، والظّاهر أنّ هذا الكتابَ ما هو إلاّ مسائلُ نحويّة "مسوقة في مسالكِ المحاجاةِ، منسوقةٌ في سلوك المعاياة"[3]، ومِن ذلك قولُه: "أخبرْني عن واحدٍ وجمعٍ لا يَفْرق بينهما ناطق إلاّ أنّ الضّمير

---

(١) انظر : البغدادي – خزانة الأدب ، ٤٥٩/٦ ولمزيد بسط القول في الألغاز وضروبها انظر: طاشكبرى زاده – مفتاح السعادة ومصباح السيادة، في موضوعات العلوم، ط٢ ، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر أباد ، ١٩٧٧، ٢٥٠/١ . الرافعي – تاريخ آداب العرب، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩١١. ٤١٧/٣-٤٣٤

(٢) انظر: أحمد الشيخ – كتب الألغاز والأحاجي النحوية – ٥٠-٥٦.

(٣) الزمخشريّ – المحاجاة بالمسائل النحوية، تحقيق بهيجة الحسني، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٤م، ٧٠.

بينهما فارق"[1]. وتخرج منها أيضاً ألغازٌ كثيرة ساقَها السّيوطيّ في "الأشباه والنّظائر" في باب: "الطّراز في الألغازِ"[2]، فقد عرّج على بعضِ ألغازِ الحريريّ والزّمخشريّ والسّخاويّ وابنِ هشام والعزّ بنِ عبد السّلام وابنِ لُبّ النّحويّ، وللأخيرِ لغزٌ في منظومة مشروحة[3]، ويخرج عن مضمارِها أيضاً الألغازُ التي أثبتها ابن الأثيرِ في بابِ الأحاجيّ[4]، وممّا يخرجُ عن مضمارِ هذه المباحثة كثيرٌ مِن ألغازِ الفقهاءِ كألغازِ ابن فَرحون المالكيّ في كتابِه "درّة الغوّاص في محاضرة الخواصّ"، وألغازِ ابن الحلبيّ في كتابِه "النّظائر الأشرفيّة في ألغازِ الحنفيّة"؛ ذلك أنّ سبيل الإلغازِ في كلّ ما تقدّم غير قائمةٍ على التّعميةِ اللّغويّة.

وللسّيوطيّ تقسيمٌ معجِبٌ في هذا المطلبِ، فقد عرّج في النّوع التّاسعِ والثّلاثين مِن علوم اللّغةِ على الملاحنِ والألغازِ وفتيا فقيهِ العرب. أمّا فصل الألغازِ فقدْ رأى أنّ الألغازَ ثلاثةُ أضربٍ أوّلها: ما قصدته العرب قصْداً، وثانيها ما قصدته أئمّة اللّغةِ، وثالثُها أبيات لم تقصدِ العرب الألغازَ بها، وإنّما قالتْها فصادفتْ أنْ تكون ألغازاً[5]. أمّا الألغاز النّحويّة فهي تُقسَم قسمين أيضاً: قسماً يُطلَب به تفسير المعنى، وقسماً يُطلَب به وجهُ الإعراب[6]. أمّا ما يُطلَب به تفسير المعنى فهو كأحاجيّ الزّمخشريّ[7].

---

(١) الزمخشري – المحاجاة، ١٠٠ ومن ذلك فلك للواحد والجمع.

(٢) انظر: السيوطي – الأشباه واالنظائر ٣/٧-٦٧.

(٣) انظر المصدر نفسه – ٣/٤٧-٦٧

(٤) انظر: ابن الأثير – المثل السائر ٢/٢١١-٢٢٢.

(٥) انظر: السيوطي – المزهر ١/٥٧٨.

(٦) انظر: السيوطي – الأشباه والنظائر ، ٣/٧. وقد نسب هذه القسمة إلى ابن هشام في كتابه " موقظ الوسنان وموقد الأذهان".

(٧) وقد أورد السيوطي مثلا على ذلك، وهو : ما العامل الذي يتصل آخره بأوله ويعمل مثل عمله؟ تفسيره: " يا"، في النداء، فهي عامل النصب في المنادى وهي حرفان، فآخرها متصل بأولها، ومعكوسها " أي"، وهي حرف نداءً أيضاً وهذا من ألغاز الحريري. انظر:المصدر نفسه ، ٣/٧.

وبعد، فماذا عسى أنْ يُستصْفى ممّا تقدّم ابتغاءَ تمثّل ظاهرةِ اللّبسِ في الألغاز؟ تُستصْفى الملاحنُ، وفُتيا فقيهِ العرب، والألغازُ اللّغويّة التي يتّخذ صانعوها مِن اللّغة ذاتِها سبيلاً إلى إنشائِها وتشكيلِها تشكيلَ اليَربوع لأنفاقِه المتداخلةِ المضلِّلة.

أوّلاً: الملاحن:

للَّحنِ معانٍ متعدّدة، ومنها الميلُ عن جهةِ الاستقامةِ، فيقال: لَحَن فلانٌ في كلامِه، إذا مال عن صحيح المنطقِ، واللَّحَن بفتح الحاء الفطنة، واللَّحْن بسكونها الفطنة والخطأ، ورجل لَحِنٌ فطن، وقد لَحَن الرّجل يَلْحن لَحْناً فهو لاحِن إذا أخطأ، ولَحِنَ يَلْحَن لَحْناً فهو لَحِن إذا أصاب وفطِن[1]، وأصلُ اللّحْن أنْ تريد الشّيء فتورِّي عنه بقولٍ آخرَ، ومِن ذلك قول النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- لطلائعِ المشركين حين لاقَوْه في نفرٍ مِن أصحابه **فقالوا** : "**ممّن أنتم؟ قالوا : من ماء**" ، فأخذوا يفكّرون لينظروا أيّ بطونِ العربِ يقال له "ماء"، فسار النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- لوجهتِه وقد أسرّوا في أنفسِهم:﴿ **خُلِق من من دافق** ﴾ [2]

ومِن مثلِ ما تقدّم أنّ بعض العربِ أُدْخل على الواثقِ، وكان يقول بخلقِ القرآنِ ويعاقِب مَن يخالفُه في هذا، فقال له الواثق: ما تقول في خلقِ القرآنِ، فتصامم عليه، فأعاد السّؤال ثانيةً، فقال: مَن تعني يا أميرَ المؤمنين، فقال: **إيّاك أعني، فقال: مخلوقٌ. وهو يعني نفسَه ، فتخلّص منه**[3].

وقد تعذّر على رجلٍ لقاءُ المأمونِ في ظُلامة، فصاح على بابِه: **أنا أحمدُ النّبيّ المبعوث**، فأُدخِل إليه، وأُعلِم أنّه تنبّأ، فقال له: ما تقول: فذكر ظُلامتَه، فقال له: ما تقولُ فيما حُكِي عنك، فقال: وما هو، فقال: ذكروا أنّك نبيّ ، فقال: معاذَ الله،

---

(١) انظر: القالي – الأمالي، ١/٥، ابن منظور– اللسان، مادة " لحن".

(٢) انظر: الشريشي – شرح مقامات الحريري ، ٢/٤٥٠، ابن الأثير – المثل السائر، ٢/٢٠٦، والآية (الطارق،٦).

(٣) انظر: الشريشي– المصدر نفسه ٢/٤٥١.

إنّما قلت: أنا أحمدُ النّبيّ المبعوث، أفأنت يا أميرَ المؤمنين ممّن لا يحمدُه، فاستطرفه، وأمر بإنصافه[1].

ومِن مِثل ما تقدّم أنّ رجلاً مِن بني العَنْبر كان أسيراً في بكر بن وائلٍ، فسألهم رسولاً إلى قومِه، فطلبوا إليه ألاّ يرسل إلاّ بحضرتهم؛ ذلك أنّهم كانوا أزمعوا غزوَ قومِه، فخافوا أنْ يبلّغ قومَه بهذا، فجيىء له بعبدٍ أسودَ، فقال له الأسير: أتعقل؟ قال: نعمْ، إنّي لعاقلٌ، فقال له الأسير: ما أَراك عاقلاً، ثمّ قال: ما هذا ؟ وأشار بيدِه إلى اللّيلِ، فقال: هذا اللّيل، فقال: أراك عاقلاً، ثمّ ملأ كفّيه مِن الرّملِ، فقال: كم هذا؟ فقال: لا أدري، وإنّه لكثير، فقال: أيُّهما أكثرُ النّجوم أم النّيران ؟ فقال: كلٌّ كثير، فقال: أبلغْ قومي التّحيّة، وقل لهم: لِيُكرموا فلاناً- يعني أسيراً في أيديهم مِن بكرِ بن وائل- فإنّ قومَه لي مُكرِمون، **وقل لهم إنّ العَرْفَجَ قدْ أدبى، وقد شَكّتْ النّساء ، وأمرْهُم أنْ يُعْروا ناقتي الحمراءَ ، فقد أطالوا ركوبَها، وأنْ يركبوا جَمَلي الأصهبَ بآيةِ ما أكلتُ معَكم حَيْسًا، وأسالوا الحارثَ عن خبري**"، فلمّا أدّى العبد الرّسالةَ إليهم، قالوا: لقد جُنّ الأعور، والله ما نعرفُ له ناقةً حمراءَ ولا جملاً أصهب، ثمّ سرّحوا العبدَ، ودعوا الحارث، فقصّوا عليه القصّةَ فقال: قد أنذركم[2].

لقدْ حمّل هذا الأسيرُ- بقطعِ النّظرِ عن صحّةِ هذه الحادثةِ، فإنّها إنْ لم تكنْ صحيحةً فهي مُلمِحة دالّة- كلامَه دلالاتٍ مستورةً طلباً للتّعميةِ التي يستدعيها ذلك المقام، ولمّا جيىء بهذه الرّسالةِ إلى قومِه غدَوا في أمرٍ مريج، ولم يقفوا على المتعيّن مِن هذا اللّحْنِ المُعمّى إلاّ بسؤالِهم مَن أشار إلى سؤالِه.

---

(١) انظر: الشريشي -شرح مقامات الحريري، ٤٥١/٢.

(٢) القالي- الأمالي، ٦/١-٧، وانظر هذه الحادثة : ابن دريد - الملاحن، ١، السيوطي - المزهر ، ٥٦٨/١-٥٦٩.

أمّا قوله: "إنّ العَرْفج قد أدْبى"؛ فالعَرْفج نبت[1]، والدَّبى الجَراد قبل أنْ يطير، وقيل: هو أصغرُ ما يكونُ مِن الجرادِ والنّمل، واحدته: دباة[2]، والمعنى المعمّى في هذه الكنايةِ أنّ الرّجالَ قد استلأموا؛ أي لبسوا الدّروعَ. أمّا قوله: "وقد شَكّت النّساء" فمعناه أنّهن اتّخذن الشِّكاءَ للسّفرِ، والشِّكاء جمعٌ مفردُه شَكوة، وهو وعاء مِن أَدَم[3]، أمّا قولُه "ناقتي الحمراء" فالمعنى المستترِ تحته: ارتحلوا عن الدّهناءِ، واركبوا الصَّمَّان، وهو الجملُ الأصهب. وقوله: بآيةِ ما أكلتُ معكم حَيْساً: يريد أنّ أخلاطاً مِن النّاس قدْ غزوكم، لأنّ الحَيْس يجمع التّمرَ والسّمن والأَقِط[4].

يظهر ممّا تقدّم بجلاءٍ أنّ هذه الملاحنَ إنّما هي وقائعُ كلاميّة تقوم على الإفادةِ مِن وسائلِ اللّغة في الإلباسِ والتّعميةِ المقصودةِ لأغراضٍ نفسيّة واجتماعيّةٍ وسياسيّة، ولابن دريدٍ مصنَّفٌ قائمٌ برأسهِ في هذا المطلبِ، وقد ألّفه "ليفزَعَ إليه المُجبَر المُضطهَد على اليمينِ المُكرَهُ عليها، فيعارض بما رسمناه، ويُضمِر خلاف ما يُظهِر، لِيَسلَم مِن عاديةِ الظّالمِ، ويتخلّص مِن حيفِ الغاشمِ، وسمّيناه الملاحن"[5].

وبنظرٍ تحليليّ يمكن جدّاً أنْ تُلحَق هذه الملاحنُ بركبِ اللّبس الآتي مِن الأسلوبِ؛ ذلك أنّه واقع في هذه الجهةِ على التّعيينِ، أمّا النّظر في علّةِ العلّة فإنّه يُؤْذِن باستشرافِ مجموعةٍ مِن العواملِ المتضافرةِ التي تفضي إلي قيامِ الملاحنِ على المشتركِ اللّفظيّ:

" واللهِ مــــا كلّمـــت الحســـنَ ولا رأيـــته "[6]

" واللهِ مــــا كلّمــــت سَــــهلاً ولا سُــــهيلاً "[7]

---

(١) انظر: ابن منظور – اللسان، مادة " عرفج".

(٢) انظر: المصدر نفسه ، مادة "دبى".

(٣) انظر: المصدر نفسه ، مادة " شكي" .

(٤) انظر: الأمالي – القالي، ابن دريد – الملاحن، ١٧.

(٥) ابن دريد – المصدر نفسه ،١٥.

(٦) ابن دريد – المصدر نفسه ، ٤٣.

(٧) المصدر نفسه، ٤٣

" واللهِ مــا صحبــت أوْســــــاً ولا أُوَيـــــساً "[1]

" واللهِ مـــا رأيــت سَعْـــــداً ولا سَعـــــيداً "[2]

" واللهِ مــــا رأيـــت جعفـــراً ولا كلّمـــت ســـريّاً "[3]

في هذه الملاحنِ تظهر التّعميةُ المقصودة، فالمنشِئ مبتغاه التّحلّل مِن معنى معيّنٍ وهو مُكرَه على يمينٍ غليظةٍ، فيورّي في نفسِه مستعيناً باشتراكِ الكلمِ، فالحَسَن اسم شخصٍ على وجه التّعيين، وهو اسم كَثيبٍ أيضاً[4]، وبهذا يصبح في جَعبةِ المنشِئ معنيان: معنى قريبٌ يستعين به على التّعميةِ، وآخرُ بعيد يتعذّر انقداحُ خاطرِ المتلقّي له، فيكون للمنشِئ ما أراد مِن تعميةٍ وتغطية. والسّهل يتردّدُ بين معنيين؛ بين كونِه اسمَ علم، وكونِه نقيضاً للحَزْن. وكذلك سُهَيل؛ فهو يتردّد بين اسمِ شخص واسمِ النّجم المعروفِ، وأوسٌ وأويس هما اسمان للذّئبِ، وقد قال الشّاعر:

لمّــا لَقيــنا بـــالفَلاة أوســـاً   لــمْ أدعُ إلاّ أســـهماً وقوســـاً[5]

وقوله في أويسٍ:

يـــا ليــت شِــعري عــنكَ والأمرُ أَمَم   مــا فعــل الــيومَ أويــسٌ بالغَنَم[6]

---

(١) المصدر نفسه، ٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ٢٩

(٣) المصدر نفسه ٢٩.

(٤) ومنه أحسن الرجل، إذا جلس على الحسن، وهو الكثيب النقيّ العالي، انظر: ابن منظور – اللسان، مادة " حسن"

(٥) انظر: المصدر نفسه، مادة " أوس" ، ولم أعثر على قائله.

(٦) انظر: المصدر نفسه، مادة " أوس"، وهو منسوب في فهارس اللسان إلى عمرو ذي الكلب الهذلي.

وسعدٌ مِن سعود النّجومِ، والسّعيد النّهر الذي يَسقي الأرض منفرِداً بها[١]، وجَعْفَر: النّهر[٢]، وسَرِيّ: النّهر الصّغير[٣].

" واللهِ ما رأيت في البلد عَجَماً ولا عَرَباً"[٤]

" واللهِ ما أخذت بيدي قَضيباً قطّ ولا حملتُه"[٥]

" واللهِ ما أملك تيناً ولا لي أرضٌ فيها تين"[٦]

"واللهِ ما أملك عَبْداً ولا ملكتُه"[٧]

يتبيّن ممّا تقدّم ملحظُ الإلحاحِ على المشترَك اللّفظيّ الباعثِ للتّعميةِ، فالعَجَم في هذا السّياقِ يقابلها العَرب، وهذا هو مَكْمَن التّعميةِ، ولكنّ المعمّي أراد غيرَ ما يظهر مِن معنى قريبٍ إلى الخاطر؛ فالعَجَم الذي أوقع عليه يمينَه هو النّوى، والعَرَب مصدر مِن "عَرَبَت المَعِدة إذا فسدت"[٨]، والقَضيب الذي أقسم على نفيِ أخذِه وحملِه هو وادٍ يُقال إنّه بأرضِ قيس، والتّين الذي أوهم به الشّاعر اسمٌ لجبلٍ، وقد قال النّابغة:

صُهبَ الشّمال أتينَ التّين عن عُرَض يُزجِينَ غيْماً قليلاً ماؤه شَبِما[٩]

والعبدُ كمثلِ ما تقدّم، فهو جبلٌ مِن جبال طيّئ[١٠].

---

(١) انظر: ابن دريد – الملاحن، ٢٩، وقد أشار صاحب اللسان إلى أن السعيد قد يكون أيضاً النهر، أو النهر الصغير، وانظر: مادة " سعد" .

(٢) قيل هو النهر عامة، وقيل الملآن، وقيل: النهر الصغير، وقيل النهر الكبير الواسع انظر: ابن منظور – المصدر نفسه، مادة " جعفر".

(٣) قيل هو النهر أو الجدول، انظر: المصدر نفسه، مادة " سري" .

(٤) المصدر نفسه، ٤٣.

(٥) المصدر نفسه، ٤٨.

(٦) المصدر نفسه، ٤٨.

(٧) المصدر نفسه، ٥٣.

(٨) انظر: المصدر نفسه٤٣، ابن منظور – اللسان ، مادة " عرب"

(٩) انظر: المصدر نفسه، ٤٨، ابن منظور– المصدر نفسه، مادة " تين"، والشعر في ديوانه، ١٠٢.

(١٠) انظر : المصدر نفسه، ٥٣، وذهب صاحب اللسان إلى أنه واد في جبال طيىء.

وعلى صعيدٍ معجميٍّ آخرَ، قد يحدث أنْ يذكر المعمّي أسماء الحيوانِ، وهو يعني بها غيرَ ما يظهر للمتلقّي:

" واللهِ ما عندي صقرٌ ولا أملكه"[١]

" واللهِ ما أملك كلباً ولا فهْداً"[٢]

" واللهِ ما أملك حِماراً ، ولا أخذت من فلان حماراً قطّ"[٣]

" واللهِ ما عندي له أتانٌ قطّ ولا أخذتها"[٤]

" واللهِ ما عندي جحشة ولا أملكها"[٥]

الصقْر هو اللّبن الحامضُ[٦]، وقيل هو ما تحلّب مِن العنبِ والزّبيبِ والتّمر مِن غير أنْ يُعصرَ[٧]، والكلْبُ هو المِسمار في قائمِ السّيف[٨]، والفَهد مِسمارٌ يُسمر به في وسطِ الرَّحل[٩]. والحِماران حَجَران يُنصَب عليهما حجرٌ ويُجفَّف عليه الأَقِط، والحَجر الأعلى يُقال له "العَلاة"[١٠]. والأتان صخرةٌ في بطنِ الوادي، وتسمّى أتانَ الضّحل[١١]. والجَحْشة الصّوف الملفوفُ كالحلقة يجعلُها الرّجلُ في ذراعِه ليغزلَها[١٢].

---

(١) ابن دريد– الملاحن، ٢١.

(٢) المصدر نفسه، ٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ٢٥.

(٥) المصدر نفسه، ٢٥.

(٦) قيل إنه الحامض من اللبن الذي ضربته الشمس، انظر: ابن منظور – اللسان، مادة صقر.

(٧) انظر: ابن منظور – اللسان ، مادة " صقر" .

(٨) انظر: ابن دريد– الملاحن، ٢٠، وذكر ابن منظور معنى ثانياً، وهو الحلقة، تكون في قائم السيف، أو حديدة عقفاء تكون في طرف الرحل تعلق فيها الأداوى والمزاد. انظر اللسان، مادة " كلب".

(٩) انظر: ابن دريد– المصدر نفسه، ٢٠، وقد أشار ابن منظور إلى أن الفهد هو الكلب، انظر مادة "فهد".

(١٠) انظر: ابن دريد – المصدر نفسه، ٣٥، ابن منظور– المصدر نفسه، مادة " حمر" .

(١١) انظر: ابن دريد– المصدر نفسه ، ٢٥، وقيل هي الصخرة العظيمة تكون في الماء، وقيل هي الصخرة التي بين أسفل طيىء البئر، انظر: المصدر نفسه، مادة " أتن" .

(١٢) انظر: ابن دريد –المصدر نفسه ، ٢٥، ابن منظور – المصدر نفسه، مادة " جحش".

وفي أمثلةٍ أخرى مِن الملاحنِ يعمل الاشتقاقُ على خلقِ المشتركِ اللّفظيّ الموهِم، ليكونَ مَدخلا لمن أراد تعميةً أو مماحكةً:

" واللهِ ما رأيت فلاناً"[1]

" والله ما أعلمت فلانا[2]"

" واللهِ ما أشهدت فلانا ولا أشهدني"[3]

" واللهِ ما افتريت على فلان"[4]

" واللهِ ما أخبرت فلاناً بشيء"[5]

"رأيت" في سياقِها المتقدِّم لها معنيانِ: أحدُهما ما ران عليه الإلفُ، وثانيهما لا يُستحضَر إلاّ إذا كان السّامعُ صاحبَ عهدٍ به؛ ذلك أنّ التّعمية حادثةٌ في معنى "ضربِ الرّئةِ وإصابتها"، والواقعُ عليه الحدث "مرئيّ". وكذلك "أعْلم"، فالمعنى الذي يقصده المعمّي في مقامِ يمينِه ذاك أنّه لم يجعله أَعْلَم: أي لم يشققْ شفتَه العليا. أمّا "أشهد" فهي على وزنِ "أفْعَل"، ومِن معاني هذا القالَبِ التّصريفيّ "الوجدان"، فيكون المتعيّن مِن قولِه: ما أشهدتُ فلاناً: ما صادفت عنده شَهداً، ولا أشهدني، أي: ولا صادف عندي شَهداً، والافتراءُ قد تكون مادّته التي يفيىء إليها "فرو"، أو "فرْي"، فهنا مَكْمَن التّعميةِ والإلباسِ، فالمتعيِّن هو: ما لبست له فرواً. وكذلك "أخبرت"، فالخُبْرة الشّاة يشتريها قومٌ ثمّ يقتسمونها بينهم، فيسهم كلّ واحدٍ منهم على قدرِ ما نَقَد[6]، وبذا يكون المتلقّي أمامَ معنى قريبٍ، وآخرَ مُغيَّبٍ قد يتعذّر استشرافُه إلاّ على المنشِئ المعمّي.

---

(١) ابن دريد – الملاحن، ١٩.

(٢) المصدر نفسه، ٢٠

(٣) المصدر نفسه، ٦٣.

(٤) المصدر نفسه ، ٦٠.

(٥) المصدر نفسه، ٢٧.

(٦) انظر: ابن منظور – اللسان ، مادة " خبر" .

وعلى صعيدٍ معجميّ ثالثٍ قد يُتوسّل إلى التّعميةِ بإيراد الكلمةِ باعتبار المعنى المتقادِم لا الحادثِ:

" واللهِ ما رأيت مِن هؤلاء القوم كافراً ولا فاسقاً"(١)

" واللهِ ما ظلمت فلاناً"(٢)

والكافرُ في هذا السّياقِ هو الذي تغطّى بثيابِه أو سلاحِه، والفاسق هو الذي قد تجرّد مِن ثيابِه، ومعنى قوله: ما ظلمتُه: أي ما أسقيتُه ظَليماً، والظَّليم هو اللّبنُ قبل أنْ يَروب، والحاصل أنّ أصل الظّلمِ هو وضعُ الشّيء في غيرِ موضعِه.

وعلى صعيدٍ معجميّ آخرَ نجد أنّ العرب يُعنَون (على سبيل التّمثيل) بأسماءِ أعضاءِ الإنسانِ أو الفرس، فقد يستعيرون ألفاظاً للدّلالةِ على معنى معيّن، فيحدث اتّفاق في المَبنى، وافتراقٌ في المعنى، ولعلّ في قول ابن دريدٍ فضلَ بيان: "وكلّ ما كان مِن الفرس مِن أسماءٍ فَلَكَ أنْ تحلفَ عليه؛ نحو الحَمامة، والقطاة، وما أشبه ذلك؛ فالقطاة مَقْعَد الرّديف بين الوركين، والحَمامة الموضعُ الذي يصيبُ الأرض مِن صدر الفرسِ إذا ركض، والفَرْخ هو الدّماغ، والهامَة وسط الرّأسِ فيها الدّماغ، والصّلصل ناصيتُه البيضاء، والعَيْسوب غرّة دقيقة، والفَراشُ ما يحجب الدّماغ، والسُّماني بياض العينِ، والذّباب النّاظر في سواد العينِ، والصُّرد عِرق في السّاقِ، والخَطّاف موضع عَقِبِ الفارس"(٣).

ومِنها أيضا:

" واللهِ ما أعرف مِن فلان قبيحاً"(٤)

" واللهِ ما ضربت لفلان صبيّاً ولا مسستُ"(٥)

---

(١) ابن دريد – الملاحن، ٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ٢٤.

(٣) المصدر نفسه ٤٥-٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ٤٢.

(٥) المصدر نفسه، ٤٢.

" واللهِ ما رأيت لفلانٍ حصيراً "[1]

والقبيحُ مَغرزِ العضدِ مِن المِرفق[2]، والصّبيّ: مُلتقى طرفي الفكّين مِن الذّقَن[3]، والحَصير: اللّحمة المعترِضةُ في جنب الفرسِ[4]، ولا يخفى أنّ هذه الألفاظَ المتقدّم ذكرُها ممّا يلحق بركبِ الغريبِ؛ ذلك أنّ معانيَها البعيدةَ قد يضلّ عنها النّقّابُ المبرِّز مِن أهلِ اللّغة.

وعلى صعيدٍ معجميّ آخرَ قد تعملُ الدّلالة العائمة المفتوحةُ على بعثِ مشترَكٍ لفظيّ سياقيّ يفضي إلى نشوءِ المَلاحن:

" واللهِ ما طرقت فلاناً ليلاً "[5]

" واللهِ ما عندي نبيذ "

" واللهِ ما قتلتُ ولا طعنت[6] "

" واللهِ ما أخذت مِن فلان خفاً[7] "

أمّا "طرقته" فالأوجهُ أنّها تعني الزّيارة ليلاً، ولكنّها تحتمل معنى آخرَ لاندياحِ دلالتِها، وهو: ما ضربتُه بالمِطرقةِ، والمِطرقة العصا، وهذا هو المعنى المعجميّ المركوز في نفسِ المعمّي. و"النّبيذ" ذو دلالةٍ مفتوحةٍ عائمةٍ، فكلّ شيء ألقيتَه مِن يدك فقد نبذتَه، فالنّبيذ يقع على المُنكَرِ مِن المشروبِ، ويقع على الصّبيّ المنبوذِ أيضاً. والقتلُ بمعناه المجازيِّ هو قتلُ الخمرةِ، أي مزجُها، وليس هذا موضعَ التّمثّل في هذا المقامِ، بل هو"طعنتُ"، والمعنى الذي أقسم عليه المعمّي هو

---

(١) المصدر نفسه، ٢٧.

(٢) وقيل هو طرف عظم المرفق، انظر: ابن منظور، اللسان، مادة " قبح".

(٣) وقيل هو ناظر العين، والصبيان: ما دقّ من أسافل اللحيين، انظر المصدر نفسه. مادة " صبا".

(٤) وقيل هو ما بين العرق الذي يظهر في جنب البعير والفرس معترض فما فوقه إلى منقطع الجنب، أو هو لحم ما بين الكتف إلى الخاصرة؛: المصدر نفسه، مادة " حصر" .

(٥) المصدر نفسه ، ٤٤.

(٦) المصدر نفسه، ٣٧.

(٧) المصدر نفسه، ٢٠.

"ما طعنتُ في عِرض فلان"، والخُفّ ذو دلالةٍ مفتوحةٍ؛ فقد يتعلّق بالإنسانِ، وهو مُنكَر في هذا السّياقِ، وقد يتعلّق بالإبلِ، وهو الظّاهر مِن كلامِ المعمّي.

ثانياً: فُتيا فقيهِ العربِ:

لابنِ فارسٍ مصنَّف صغير الجرم يُعايي فيه الأذهانَ معاياةً لغويّة، وقد وسمه "بفُتيا فقيه العرب"، وللحريريّ مقامة سمّاها "الطّيْبيّة" يسيرُ فيها على مِنوال ابن فارسٍ في فتياه، وقد قصد فيها الحارثُ بن هُمام بيتَ الله الحرام، وكان قد استشرف في رحلتِه تلك الفقيهَ المنهودَ إليه ، و"أعيان الحيّ به مُحتَفون، وأخلاطهم عليه مُلتقون، وهو يقول: سَلوني عن المُعْضِلات، واستوضحوا منّي المشْكِلات، فوالذي فطر السّماء، وعلّم آدم الأسماء، إنّي لفقيهُ العربِ العَرْباء، وأعلمُ مَن تحتَ الجرباء، فَصَمَدَ له فتى فتيق اللّسانِ، جريءُ الجَنان، وقال: إنّي حاضرتُ فقهاءَ الدّنيا، حتّى انتحلتُ منهم مئة فتيا، فإنْ كنتَ ممّن يرغبُ عن بناتِ غَيْر، ويرغب منّا في مَيْرٍ، فاستمع وأجبْ، لتُقابَل بما يجب، فقال: الله أكبرُ: سيبين المَخْبَر، وينكشفُ المضمَر، فاصدع بِما تُؤمَر"(١).

وتمضي المقامةُ بعدَ هذه الحبكةِ على هيئةِ مناظرةٍ مؤتلفة مِن السّؤالِ والجواب، تُستعرَض فيها مسائلُ فقهيّة، بألفاظٍ مشتركة مضلِّلة، كما في ملاحنِ ابنِ دريد، تبعثُ في النّفسِ عنصر الدّهشةِ؛ ذلك أنّ مكمن اقتناصِ المتعيّنِ مِن الحكمِ الفقهيّ إنّما هو واقعٌ في فهمِ معاني الألفاظِ المُستترةِ لا الظّاهرة؛ فالفُتيا إذن قائمةٌ على استفزازِ إمكاناتِ العربيّة في الإلباسِ والتّعميةِ اعتماداً على ظاهرةِ المشتركِ والغَرابةِ اللّفظيّة التي قد يضلّ عنها أهل اللّغةِ الأقحاحُ، وإظهاراً لكفايةٍ لغويّة مُعْجِبة تعايي الأذهان، وتَمتحن الألمعيّة، وتتكئ في هذا كلّه على الشّقّ الثّاني مِن ثنائيّةٍ مؤدّاها "التّواصل والتّفاصل":

---

(١) الشريشي – شرح مقامات الحريري ، ٤٣٣/٢، السيوطي – المزهر ، ٦٢٤/١.

"أيجوزُ الوضوء ممّا يقذفه الثّعبان ؟ فقال: وهل ماءٌ أنظف منه للعُربان"(١).

هذه المساءلةُ لها معنيان: أحدهما ظاهر، والآخرُ خفيٌ مُستبهم. أمّا الأوّل فهو موضعُ الإشكالِ والتّفاصل، والثّاني مستتِر تحت المعنى البعيدِ الذي يكتنف "الثّعبان"؛ ذلك أنّها جمعُ "ثَعْب"، وهو مَسيل الوداي(٢)، والحاصل أنّ هذا العارضَ التّصريفيّ قد أفضى إلى اشتباهِ هذه البنية ببنيةٍ أخرى تفارقُها في المعنى، وتوافقها في المبنى، فكان ما كان مِن بعثِ عنصرِ الدّهشة في النّفس آنَ سماعِ جوابِ الفُتيا بالإيجاب.

" أيجبُ الوضوء على مَن أمنى؟ قال: لا ولو ثنّى"(٣).

وكما أفضى العارضُ التّصريفيّ إلى خلقِ المشترك، فقد أفضى الاشتقاقُ في هذه الفُتيا إليه أيضاً؛ ذلك أنّ "أمنى" تعني نزولَ المَنْي، وهو مِن موجِباتِ الغسل، وقد تعني أيضاً- وهو المعنى المُعمّى المراد- نزولَ مِنى.

"أيجوزُ أنْ يكون الشّاهد مُريباً ؟ قال: نعم ، إذا كان أريبا ، قال فإنْ وضح أنّه مائن ، قال : هو وصفٌ له زائن"(٤).

وكأنّ لسان الخاطرِ الأوّل يقول إنّ هذا لشيءٌ عُجاب؛ إذ كيف تُقبَل شهادة المريب؟، بلْ كيف يشهدُ مَن شُهِد عليه الكذب "المَيْن" ؟، لا ريب أنّ في ذلك مغالطةً مقصودةً، فالمائنُ مأخوذ مِن "مان يمون" ، وهو الذي يعول ويكفي المؤونة، لا من "مان يمين" إذا كذبَ:

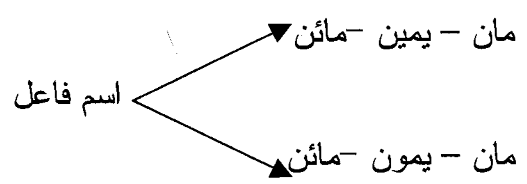
---

(١) انظر: الشريشي - شرح مقامات الحريري، ٤٣٨/٢، السيوطي - المزهر، ٦٢٥/١.

(٢) انظر: الشريشي - المصدر نفسه، ٤٣٨/٢، السيوطي - المصدر نفسه، ٦٢٥/١. وقد ذكر هذا المعنى ابن منظور - اللسان ، مادة " ثعب" .

(٣) الشريشي- المصدر نفسه- ٤٣٨/٢، السيوطي - المصدر نفسه، ٦٢٥/١.

(٤) الشريشي - المصدر نفسه ، ٤٤٨/٢، السيوطي - المصدر نفسه، ٦٣٤/١.



والأصلُ الاشتقاقيّ متباين، ولكنّ البِنيةَ السّطحيّة التي ظهرتْ فيها تلك الكلمةُ محتمِلة متردّدة بين معنيين، والمريبُ ههنا هو الذي يكثر عنده اللّبن الرّائبُ، لا ما ينقدح إلى زِنادِ الخاطرِ الأوّل.

" قال: أيسلّم القائمُ على القاعد ؟ قال : محظورٌ على الأباعد"(١)

صنع الحريريّ هذه المساءلةَ موهِماً بأنّ القائمَ ضدّ القاعد، وليس ذلك كذلك، فالقاعدُ في سياقِها ذاك المرأة التي قعدتْ عن الحيضِ، أو عن الأزواجِ، وقد حُذِفت تاء "قاعدة"؛ ذلك أنّها مِن الصّفاتِ المختصّةِ بالنّساءِ، وقد أذِن هذا العارض التّصريفيُّ باشتراكِ صيغةٍ في معنيين، وقد نفذ المُعمّي إلى هذا الإلباسِ والتّعميةِ مستعيناً بالنّواميس الفاعلةِ في تشكيل النّظامِ اللّغويّ.

"قال : ما تقول في ميتة الكافر ؟ قال : حلٌّ للمقيم والمسافر"(٢)

الكافرُ في سياقِها المتقدِّم البحر، وميتتُه السّمكُ الطّافي فوق مائه، وقد استعان المعمّي بالأصلِ الدّلاليّ، وهو التّغطيةُ والتّكفّر، وكذلك البحر، فهو يستوعبُ مخلوقاتٍ كثيرة، ويَكْفُرُها بمائه.

"قال: ما تقول فيمن صلّى وعانته بارزة ؟ قال : فصلاته جائزة"(٣).

معلومٌ أنّ مِن شرائط صحّةِ الصّلاةِ سترَ العورة، والعانةُ ممّا يُستَر، ولكنّ المعمّي أجازها في فتياه؛ ذلك أنّه يتشبّث بالمعنى الثّاني الذي يستترُ تحت "العانة"، وهو "الجماعةُ مِن حُمُر الوحشِ".

---

(١) الشريشي– شرح مقامات الحريري، ٤٤٤/٢، السيوطي – المزهر، ٦٣١/١.
(٢) الشريشي– المصدر نفسه، ٤٤٤/٢، السيوطي –المصدر نفسه، ٦٣٠/١.
(٣) الشريشي – المصدر نفسه ، ٤٣٩/٢، السيوطي – المصدر نفسه ٦٢٧/١.

قال: فإنْ صلّى وعليه صوم؟ قال يعيد ولو صلّى مئة يوم"[1].

المفارقةُ في هذه الفُتيا واقعة في دِلالةِ "الصّوم"[2]؛ ذلك أنّ المتعيِّن منها هو ذَرْق النّعامِ، وهو مِن النّجاسةِ المُبطِلة للصّلاةِ؛ ولا يخفى في كلّ هذه الفتاوي أنّ المعمّيَ يُلِحّ على بثّ ملحظِ المفارقةِ في النّفسِ، ولا تنزاح مِنها إلاّ حين معرفة مقصدِه، وسبيلُه إلى هذا اللّغةُ نفسُها.

"قال : فإنْ أمّهم مَن فخذُه بادية ؟ قال فصلاتُه وصلاتُهم ماضية"[3].

وهكذا تتوالى المفارقاتُ التي تثيرُ الخاطر في هذه الفتاوي، فكيف تكونُ صلاة مَن بدتْ عورته "فخذه" ماضيةً مقبولةً ؟، والفَخذ ممّا يلزم سترُه؟ إنّ الإجابة عن هذا اللّغزِ الفقهيّ حاصلةٌ في استشرافِ معانٍ أخرى تحت هذه الألفاظِ؛ فالفَخذ: العشيرة، والباديةُ هم الذين يسكنون البدو.

"وقال: فإنْ أكلَ الصّائم بعد ما أصبح ؟ قال: هو أحوطُ له وأصلح"[4].

والمعنى المعمَّى هنا هو: استصبح بالمِصباحِ، لا دخولُ الصّباحِ الذي يُمْسك فيه الصّائم عمّا أحلّه الله تبارك.

"قال : فإنْ عَمَد لأنْ أكل ليلاً ؟ قال : ليشمّر للقضاء ذيلاً "[5].

واللّيل لها معنيان؛ قريبٌ وبعيد، والمعمّي يستعين بالمعنى البعيدِ على خلقِ معمّاه ثقةً مِنه بأنّ كثيراً ممّن يَرِدون على هذه الفُتيا لا يحضرُهم إلاّ المعنى القريب، وهو ضدّ النّهار، وليس المعنى السّياقيّ كذلك، وإنّما هو فرخ الحُبارى، وقيل: هو ولد الكروان.

---

(١) الشريشي – شرح مقامت الحريري، ٢/٤٤٠، السيوطي – المزهر، ٦٢٧/١.

(٢) يقال: صام النعام صوماً: ألقى ما في بطنه ، انظر ابن منظور – اللسان ، مادة " صوم" .

(٣) الشريشي – شرح مقامات الحريري ، ٤٤٠/٢، السيوطي – المزهر، ٦٢٧/١.

(٤) الشريشي – المصدر نفسه، ٤٤١/٢، السيوطي – المصدر نفسه ٦٢٨/٢.

(٥) الشريشي – المصدر نفسه، ٤٤١/٢، السيوطي – المصدر نفسه، ٦٢٩/١.

"قال : فهل يجوزُ للحاجِّ أنْ يعتمر؟ قال : لا ولا أن يختمر"[١].

والاعتمارُ ههنا لُبْس العِمارة، وهي العِمامة، والاختمارُ لُبْس الخمار، والمفارقةُ ههنا أنّ الشّرع يبيح للحاجّ أنْ يقرنَ الحجّ بالعمرةِ، وهذا هو المعنى القريب الذي يبدو مِن ظاهرِ هذه المساءلة.

" قال : فهلْ له أنْ يقتل الشّجاع ؟ قال : نعم كما يقتلُ السّباع"[٢]

والشُّجاع ههنا هو الحيّة، والمرادُ: هل يجوز له قتلُ الشّجاع وهو مُحرِم.

" قال : ما تقول في صبرِ البليّة ؟ قال : أعظمْ بها مِن خَطيّة"[٣]

الصّبْر هو الحبْسُ، ولعلّ هذا هو الأصل الدّلاليّ العامّ، والبليّة: النّاقة تُحبَس عند قبرِ صاحبِها، فلا تُسقى ولا تُعلَف إلى أنْ تموت، وكان أهلُ الجاهليّة يزعمون أنّ صاحبَها يحشَر عليها، ويظهر أنّ أوّل ما يستحضرُه الخاطرُ هو صبرُ المرء على النّوائبِ، وهو محْمَدَة للمرءِ ومَجْلَبة للثواب.

" قال : أيجوز أنْ يكون الحاكم ظالماً ؟ قال : نعم إذا كان عالماً"[٤]

والظّالمُ المراد به في هذه الفُتيا هو الذي يشربُ اللّبن قبل أنْ يَروب ويَخرج زبدُه.

" قال : ما تقول فيمن نحتَ أثْلةَ أخيه ، قال : أثم ولو أذن له فيه"[٥]

وهذا أسلوب كنائيٌّ، فالأثْلةُ شجرةٌ تُجْعَل مِثالاً للعِرضِ، فيقال: فلان ينحت أثلةَ فلانٍ إذا قال في حسبِه قَبيحاً[٦]، والمعنى المتعيّن مِن تلكم الفُتيا أنّه لا يجوزُ للمرءِ اغتيابُ أخيه، والقدح في عِرضِه.

---

(١) الشريشي – شرح مقامات الحريري، ٤٤٢/٢، السيوطي – المزهر، ٦٢٩/١.

(٢) الشريشي – المصدر نفسه، ٤٤٢/٢، السيوطي – المصدر نفسه ٦٢٩/١.

(٣) الشريشي – المصدر نفسه، ٤٤٦/٢، السيوطي – المصدر نفسه ٦٣١/١.

(٤) الشريشي – المصدر نفسه، ٤٤٧/٢، السيوطي – المصدر نفسه ٦٣٣/١.

(٥) الشريشي– المصدر نفسه، ٤٤٧/٢، السيوطي – المصدر نفسه،٦٣٣/١.

(٦) انظر: ابن منظور – اللسان، مادة " أثل" .

" قال : أيجوز أنْ يضرب على يد اليتيم ؟ قال : نعم إلى أنْ يستقيم"[١]

وهذا الأسلوبُ كنائيّ يُراد مِنه الحَجْر، فيُقال: ضُرِب على يدِه: إذا حُجِر عليه، والمتأمّل يلحظ أنّ الحريريّ يعوّل على أنّ السّامع قد يفزعُ إلى اقتناصِ المتعيّن مِن الظّاهرِ، أي إلى فهمِ الكلامِ فهماً حرفيّاً لا يجاوز رسومَ الكلماتِ، وهو ليس كذلك.

" قال:ما تقولُ فيمن فقأ عين بُلبل عامداً ؟ قال: تُفْقَأ عينه قولاً واحداً"[٢]

والمعنى الذي يتّفق وسلامةَ هذه الفُتيا هو أنّ البلبلَ هو الرّجل الخفيف[٣].

" قال فإنْ جرَح قطاةَ امرأة فماتتْ ؟ قال: النَّفْس بالنَّفس إذا ماتت"[٤]

والمعنى الذي أراده المعمّي أنّ القَطاةَ اسم مِن أسماءِ أعضاء الإنسانِ لا الطّائر المعروف، فقيل إنّ القطاة هي العَجُز، أو ما بين الورِكين، أو مَقْعَد الرِّدف[٥]، والذي ينبني على هذه الدّلالةِ هو أنّ جزاء قاتلِ العمدِ القتلُ.

والحقّ أنّ المضيّ في عرضِ أمثلةٍ يكثرُ إنْ تتبّعتُه، وقد أوردت ما ينبّه على الغرض الذي قصدتُه، وصفوة المُستخلَص ممّا تقدّم أنّ الحريريّ قد أقام فُتياه على الأسلوبِ الموهِمِ المُضلِّل، مُعتمِداً على المشترَكِ اللّفظيّ، والمعاني الغريبةِ، ومجموعةٍ مِن العوامل التي تعملُ على نشوءِ المشترَك، كالعوارضِ التّصريفيّة، وتباينِ الأصل الاشتقاقيّ، والاشتقاقِ نفسِه، والأصل الدّلاليّ، والمعنى المجازيّ، وقد وُفِّق في وضعِ قارئِه في فضاءٍ سديميّ أفقُ التّواصلِ فيه مُغيَّب إلاّ قليلاً؛ ذلك أنّه توسّل في تعميتِه تلك ببعضِ إمكاناتِ العربيّة في الإلباسِ والتّفاصلِ، فكانتْ مقامة

---

(١) الشريشي – شرح مقامات الحريري، ٤٤٧/٢، السيوطي – المزهر ٦٣٣/١.

(٢) الشريشي – المصدر نفسه، ٤٤٨/٢، السيوطي – المصدر نفسه، ٦٣٤/١.

(٣) وقد ذكر هنا المعنى صاحب اللسان، وقيل: البلبل والبلابل هو الخفيف في السفر المعوان، وقيل هو الرجل الظريف الخفيف، انظر: اللسان، مادة " بلل" .

(٤) الشريشي – المصدر نفسه– ٤٤٨/٢، السيوطي –المصدر نفسه، ٦٣٤/١.

(٥) انظر: ابن منظور – المصدر نفسه، مادة " قطا" .

مُعجبة في صياغتِها رشيقة، تصلحُ مثالاً مُشرِقاً مِن أمثلةِ تجلّي هذه الظّاهرةِ، أو استفزازِ إمكانات اللّغةِ في الإلباسِ والتّعمية[1].

ثالثاً: الأبياتُ المُلغِزة:

وهذا مقامٌ ثالثٌ يقف فيه الباحث متمثِّلاً شواهدَ التّعميةِ المقصودة، وأوّل ما تنبني عليه هذه المباحثةُ الجزئيّة هو استشرافُ السّبل التي سلكها أهلُ هذا الفنّ حتّى غدا "المُنْتَج" لُغزاً قد استقطر مِن منتجِه مِداداً كثيراً وهو يصوغُه ويشذّبه ويُحْكِم تعميته، مُعايِياً الأذهانَ كما يعايي اليربوع البدويّ في لغزِه، فلا ينال منه شيئاً، فينقلب على عقبَيه حسرةً وندامة، وأجدُني أستحسنُ الخوضَ في عرضٍ بِدائيٍ خلوٍ مِن المُثُلِ، ليعقبَه فضلُ بيانٍ مُسنَد بالشّواهدِ والتّمثيل والتّفصيلِ؛ ذلك أنّ الملغز المعمّيَ قد يتوسّل بمجموعةٍ مِن العوامل لتتضافرَ معاً في بناء نسيجٍ لغويٍّ محكَمِ الإلغازِ في البيتِ الواحد، ومِن ذلك:

١- **اللَّبْس الصّوتيّ:** كتغييبِ بعض الظّواهرِ الصّوتيّة الفونيميّةِ، ومِنها التّنغيم والمفاصلُ الصّوتيّة، ومعلومٌ أنّ تنغيم الإخبارِ ليس كتنغيمِ الاستفهام، وأنّ تنغيم التعجّبِ ليس كسابقَيه، وأنّ هذه الظّاهرةَ الصّوتيّة يتعذّر تمثيلُها على المستوى الكتابيّ. وكذلك يتعذّرُ تمثيل المفاصلِ الصّوتيّة الفونيميّة التي يفضي تغييبُها إلى تداخلِ حدودِ الكلمات إلاّ بالتّرقيم ونواميسِ النّظام الكتابيّ.

وقد يستعين المُلغِزُ بعوارضَ صوتيّة مخصوصة يقتضيها مقامُ إلغازِه، ومِن ذلك تقصيرُ الحركة الطّويلةِ لتصبح حركةً قصيرةً بغيةَ الإلباس، وقد يكون الأمر بالضدّ، فيعمل المُلغِز على تطويلِ الحركةِ القصيرة، وقد يستعينُ بقصر الممدود ليُحدِث اشتباهاً في رسومِ الكلماتِ، أو بترخيم المنادى، أو بتسهيل الهمز.

---

(١) ومن أمثلة ابن فارس : هل على المصاب زكاة؟ قال: لا ، والمصاب : قصب السكر. وهل يجوز التيمم بالعجلة؟ قال: نعم إذا جفت، والعجلة الطينة. هل تجوز صلاة المفتري؟ قال: نعم إلا أن يكون غير ذكي ولا مدبوغ.
انظر: ابن فارس – فتيا فقيه العرب، تحقيق حسين محفوظ ، المجمع العلمي ، دمشق ١٩٥٨، ٢٦-٢٧-٢٨.

٢- **أمّا على الصّعيد الصّرفيّ**: فجلُّه واقع في العوارضِ التّصريفيّةِ التي تفضي إلى اشتراكٍ وهميّ في صُوَر الكلمات، أو تفضي إلى تداخلِ كلمتين في ثوبٍ ظاهريّ متماثِلٍ موهِم.

٣- وقد يستعين المُلغِز بما تبيحُه قواعدُ العربيّة مِن حيث النّظم، **كتمثّل مرونة الجملةِ العربيّة، وإنشاءِ علاقاتٍ بنيويّةٍ محتملةٍ لتداخل العوامل، أو للفصلِ بين العامل والمعمول**؛ كلّ ذلك مردّه إلى تشابكِ العلائقِ البنيويّة الوظيفيّةِ المقصودة، وقد يستعين بالاجتزاءِ مِن السّياق البنيويّ، كحذف حرف النّداء، أو حذفِ العائدِ أو غير ذلك.

٤- وقد يستعين المُلغِز بما يَرِد عليه مِن اللَّبسِ المعجميّ، وأخصّ **المشترَك اللّفظيّ الحقيقيّ**.

٥- وقد يستعين في بعضِ معاياته بالتّجافي **عن قواعدِ السّلامةِ اللّغويّة** وفاءً لما يصدرُ عنه مِن تعميةٍ، وتمثُّلاً لظاهرةِ الضّرورة الشّعريّةِ التي تُبيح ذلك في الشِّعرِ.

٦- وقد يستعينُ **بالتّعميةِ الكتابيّةِ الخارجةِ** عمّا تُعورف على صوابه؛ ذلك أنّ كثيراً مِن هذه الألغازِ إنّما تقوم على تداخلِ حدودِ الكلمات وتداخلِ رسومِها. ولمّا كان المستوى الصّوتيّ يُؤذِن بالتّعميةِ عند تغييبِ المفاصل الصّوتيّة، أو استحضارِ بعض الظّواهر الصّوتيّةِ، ولمّا كان المستوى الكتابيّ يفضحُ هذه التّعمية، فيقيم الفواصلَ بين حدود الكلماتِ- لمّا كان ذلك كذلك- جنح المُلغِز إلى إخفاءِ صنعتِه عند تمثيلِها كتابةً بالخروجِ على هذا المستوى الكتابيّ الفاضحِ لكثيرٍ مِن أمثلة صنعتِه.

٧- ولا يُنسى في مقامِ الحديثِ عن الأبياتِ الملغِزة "**السّياقُ**"؛ ذلك أنّها تَرِد على القارئِ في سياقٍ بنيويّ مجرَّدٍ مِن سياق الحالِ الذي يتحكّم بالمعنى ويوجّهه، ولا يخفى أنّ اطّراح هذا المَطْلَب العزيزِ المُبين مِن السّبُلِ التي يسلكها أهلُ الإلغازِ طلباً للتّعميةِ والإلباسِ.

ولعلّه يحسُن بعد هذا العرضِ الدّالّ بالاقتضابِ التّعريج على مجموعةٍ مِن الشّواهدِ تفصيلاً وبياناً لِما تقدّم:

١-يخوّفنـــي عَمـــراً وإنـــي لخائفـــاً عليه إذا ما استسمنتُه المواقِفا[1]

يقصد الملغِز إلى بثٍّ مفارقةٍ في الخاطرِ مؤدّاها أنّ هذا التّركيب غيرُ مستقيم، فيعقبُها توهّم يوقِع المرءَ في حَيْرة:

يخوّفنـــي عمـــروٌ وإنّـــي لخـــائفٌ علـــيه إذا مـــا اســـتمنتْه المواقِفُ؟

ولكنّ هذا التّوهّم يدافعه خاطرٌ آخرُ مودّاه أنّ الملغِز إنّما نصب هذا الشَّرَك ليقعَ في توهّمه ذاك، وعند ذلك ليس ثمّ بدٌّ مِن فكّ مغاليقِ هذا اللّغز على النّحوِ الذي رسمه الملغِز:

١-عَمْراً : مفعولٌ به ثانٍ للفعل "يخوّفني".

٢- وإنّي لخائفاً: رسمٌ كتابيٌ موهِمٌ يأتلف مِن : وإنْ نيلَ خائفاً، وقد أفضتْ مجموعة مِن العوامل إلى خلْقِ هذه التّعميةِ المقصودة، كغيابِ المفاصلِ الصّوتيّة؛ إذْ لا بدّ مِن سكتتَين خفيفتَين عند:

وإنْ ∆ نيلَ ∆ خائفاً

ولمّا كان ثمّ تنازعٌ بين التّعميةِ الصّوتيّة التي تُؤذِن بتداخلِ حدودِ الكلماتِ صوتيّاً، والإبانةِ الكتابيّة في إقامةِ حدودِ الكلماتِ المرسومةِ، لَجأ الملغِز إلى التّعميةِ الكتابيّةِ التي تقومُ مقام التّعميةِ الصّوتيّة في ذلكم المستوى المُجرّد.

يخوّفنـــي عمراً وإنّي لخائفاً علـــيه إذا مـــا استسمنته المواقِفا

والتّوهّم الثّالثُ في "المواقفا"؛ ذلك أنّ هذا التّركيب البِنيويّ محتمِل، فقد سبقها عاملٌ يجعل المرء يربطها به، ولكنّ العلامةَ الإعرابيّة تأبى هذا أنْ يكون،

---

(١) بيان ما قبل فيه: ابن عدلان – الانتخاب، ٦٥٢ والرواية في الإفصاح " عمرُو" انظر: ٣٠٢.

ولذلك تكونُ مفعولاً به لاسمِ الفاعل "خائفاً"، والمعنى: يخوّفني عَمْراً، وإنْ نيلَ عمْرو خائفاً على نفسِه المواقفَ إذا رفعته.

٢-وقــــد رحلـــوا واســـتحلّوا لـــنا بِعـــاداً بِـــلا ســـببٍ واطّـــراحُ[1]

الإلغاز واقعٌ في قوله "واطّراحُ"؛ ذلك أنّه يصحّ في الفهم أنْ يقال: "واستحلّوا بعاداً واطراحاً"، وتبقى المشكلةُ قائمةً ليقينِ المتلقّي بأنّ القائل لم يجانِب الصّوابَ، فالحلّ إذن في تفكيك "واطّراح"؛ ذلك أنّها تأتلف مِن :"وطّ Δ راحوا"، أمّا الأولى فهي: وΔ اطّراح ، ونلاحظُ أنّ الملغِز أراد الوجهَ التّفكيكيّ الأوّل، وهو مؤْتلف مِن فعل أمرٍ مِن "وطّى"، ومِن فعلٍ ماضٍ مسنَد إلى ضميرِ الجماعة "الواو"، والمعنى: وطِّ لي فوقَ ظهر البعيرِ لأركب، وعجّلْ في التّوطية لألحقهم فقد راحوا.

ويظهرُ أنّ البواعث على نشوءِ هذا المشترَك الوهميّ "واطّراحُ" متعدّدة كتغييبِ التّنغيم؛ ذاك أنّ الصّيغة إنّما هي صيغةُ أمرٍ لمخاطَب، وتنغيمُها مفارق لتنغيمِ الإخبار، ويزيدُ مِن هذا الإلغازِ تغييبُ المفصلِ الصّوتيّ في قولنا: "وطّ Δ راحوا"، وتغييبُ هاتين الظّاهرتَين أفضى إلى تداخلِ حدود الكلمتين، ممّا عمل على خلقِ مشترَك وهميّ لا يجلّيه إلاّ المستوى الكتابيّ، ولذلك عمد الملغِزُ إلى التّعميةِ الكتابيّة أيضاً.

٣- أقـــول لعـــبدَ اللهِ يـــا زيـــدُ إنّه ســـيأتيك عبدَ اللهِ يا زيدُ فاصبرا[2]

المُتوهَّم:

أقـــول لعـــبدِ اللهِ يـــا زيـــدُ أنـــه ســـيأتيك عـــبدُ الله يا زيد فاصبر

---

(١) انظر بيان ما قيل فيه:

الفارقي – الإفصاح ، ١٤٦، ابن عدلان – الانتخاب، ٦١٥.

(٢) انظر بيان ما قيل فيه:

الفارقي – المصدر نفسه، ١٨٨ ، ابن عدلان – المصدر نفسه، ٦٢٦.

الحلّ:

١- **لِعبدَ الله**": اللاّم فعل أمرٍ مِن "ولِيَ يلي"؛ ذلك أنّ مِن الأفعال المعتلّة أفعالاً "ينتهي بها الحالُ إلى أنْ تبقى على حرفٍ واحد، وهو عين الفعلِ منها، وتلك الأفعالُ نحو (وقى، و وفى، و وعى) [١]"، والمعنى:

أقول: لِ عبدَ الله يا زيدُ.

وقد اتّصل الفعل "لِ" بالمفعولِ به "عبدَ الله" طلباً للتّعمية الكتابيّةِ، والملاحَظ أيضاً أنّ المفصِل والتّنغيم مغيَّبان:

أقول لِ ∆ عبدَ الله

٢- أمّا عبد اللهِ الثّاني فيجوز فيه وجهان: الرّفع والجرّ. أمّا الرّفعُ فهو ظاهر، وأمّا النّصبُ الظّاهريّ فعلى إرادةِ التّثنية، فكأنّه قال: "عبدا الله"، فقصّر الصائتَ الطّويل "ألف التثنية"، وليس هذا نصباً، وإنّما هو رفع، ولكنّه مثنّى، وقد أوهم الشّاعرُ بأنّه منصوبٌ مستعيناً بذلك العارضِ الصّوتيّ. أمّا الجرّ فعلى جعلِ الكافِ في "يأتيك" كافَ تشبيه، وهنا يظهر دور المَفصِلِ ثانيةً:

سيأتي ∆ كعبدِ الله.

يبدو ممّا سبق أنّ مجموعةً مِن العواملِ متضافرة أفضتْ إلى الإلغازِ: ومنِها تغييب المفصِلِ والتّنغيمِ، والعارضُ الصّوتيّ، والتّصريف، وتداخلُ حدود الكلماتِ، والتّعمية الكتابيّة.

٤- يا خالقِ الحبةَ السوداءِ لا شيةٍ   على خوانك ملحٌ غيرُ مدقوق [٢]

للوهلة الأولى يحسّ القارئ أنّ التّركيبَ قد تصدّع، فخرج الكلام مُجافيا لقواعدِ السّلامة، وليس كذلك؛ إذ إنّ الحلّ:

---

(١) انظر: الفارقي – المصدر نفسه ، ٦٤.

(٢) انظر بيان ما قيل فيه :

المصدر نفسه، ٣٠٦، ابن عدلان – المصدر نفسه، ٢٣٠.

١- يا خالقِ الحبّةَ

خالق: كلمة تأتلف مِن "خالي" و "قِ". أمّا الأولى فهي منادى مضافٌ إلى ياءِ المتكلّم، وقد قُصّر الصّائت الطّويل "الياء"، فغدا صائتاً قصيراً "كسرة": يا خالِ، كما نقول: يا ربّ. أمّا "قِ" فأصله "وقى"، ولكنّ العوارضَ التّصريفيّة أذنتْ بصيرورتهِ على هيئةِ حرف واحدٍ، ثمّ وَصَل بينهما الملغِز على المستوى الكتابيّ حفاظاً على سرّ لغزِه: "يا خالق"، فأصبح لدينا رسمٌ كتابيّ موهِمٌ تستتر فيه كلمتان، ثمّ غيَّب التّنغيم، والمفصِل "يا خالِ Δ قِ "، فاكتملتْ حلقة الإلغازِ في صنعتِه.

٢- السودا | ءلا | شيةٍ

السودا إلى شيةٍ:

فالسودا: صفةٌ مقصورة ضرورة، والهمزةُ التي تليها ليستْ مِن أصل الكلمةِ، وإنّما هي مِن أصل حرف الجرّ "إلى"، و"شيةٍ" اسم مجرور به، وهنا يظهر أثرُ التّعمية الكتابيّةِ، والمفصِل الصّوتيّ ثانيةً.

٣- على خوانك ملح:

ثالثةً إلى الكتابة المضلِّلة؛ "فخوانك" مفعول به للفعل "علا"، والفاعل "ملحٌ"، والمعنى المتعيّنُ: يا خالي، قِ الحبّةَ السّوداءَ إلى شيَة، أي إلى أنْ يظهر نوّارها.

٥- ولي مِن سعيدٍ صاحباً أيّ صاحبٍ قليل الخلاف لا حَرونا ولا عَدْواً[١]

تقدّم في البيتِ السّابقِ مثالٌ على تقصير الصّائتِ الطّويل في: "خالي"، وفي هذا البيتِ مثال على الضّدّ؛ على تطويلِ الصّائت القصيرِ، فقولُه: "ولي مِن سعيد صاحباً" موضعُ الإلغاز؛ ذلك أنّ "لي" فعل أمرٍ مِن "ولي"، والأصلُ فيه: "لِ"، ولكنّه أشبع الكسرة، فنشأت الياء، وصار ثمّ اشتباهٌ برسم كتابيّ آخرَ، وهو "لي"، وهو

---

(١) انظر ما قيل فيه:

الفارقي – الإفصاح ، ٣٥٠، ابن عدلان – الانتخاب ٢٤٤، أما قوله : قليل الخلاف فهو خبر مبتدأ مرفوع تقديره: هو قليل الخلاف، ويجوز فيه النصب كما ذكر الفارقيّ.

مؤتلف مِن حرف جرٍّ ، وضميرِ المتكلّم:(لِ /ي)، وليس هذا المتعيّن، و"صاحباً" مفعولٌ به للفعل "لِ".

٦- مِنْ سعيدَ بنَ دَعْلَج يا ابنَ هندٍ تنجُ مِن كيده ومِنْ مسعوداً(١)

موضعُ الإلغاز "مِنْ"؛ ذلك أنّ العوارضَ التّصريفيّة أفضتْ إلى اشتباهِها بحرفِ الجرّ "مِنْ"، فهي فعل أمرٍ مِن "مان يمين"، وقد قصد إليها الملغز قصْداً حتّى يُحدِثَ مفارقةً بنيويّةً قائمةً على التّوهّم، وبذلك يصبح "سعيداً و "مسعوداً" مفعوليهما.

٧- بعيري مسرعٌ جَلْد جريء على الغَمرات يقتحم الفَراغِ(٢)

موضعُ التّأمّل قولُه "الفراغ"؛ ذلك أنّ موقعها البنيويّ الوظيفيّ يفرضُ أنْ تكون منصوبةً، ولكنّ تفكيك ظاهرِها واستشرافَ بعض العوارضِ يجعلُها مركَّبة مِن كلمتين:

الفَراغِ ⇐ ألفَ / راغٍ

فالألْف هو العدد، وقد وصل ابنُ عدلان همزتَه لضرورة الشّعر، و"راغٍ" اسم فاعلٍ مِن "رغا البعير يرغو"؛ إذا صاح، والمعنى المتعيِّن: يقتحم ألفَ بَعيرٍ راغٍ.

٨- جاء بي خالداً فأهلكَ زيداً ربّكَ اللهَ يا محمّدِ زيداً

ها نحن أولاءِ نعود ثانيةً وثالثة إلى توهّمِ اللّحن في النّفسِ، فكيف يكون هذا التّركيب سليما؟!.

الحلّ:

١- جا | عَبي | خالداً:

(١) انظر ما قيل فيه:

الفارقي – المصدر نفسه، ١٧١، ابن عدلان –المصدر نفسه، ٢٠٦، ابن هشام– ألغاز ابن هشام،٤٩.

(٢) انظر: ابن عدلان – المصدر نفسه، ٦٤٩، وقد أشار إلى أن هذا البيت من صنعه، ذلك أنه لم يقع إليه من باب الغين شيء يثبته، فانخرط في سلك من تكلف ممن تقدم، فكان هذا.

جا أَبي خالداً

ف فا مف

ولكنّ الملغِزَ المُغْرِق في التكلّفِ قصر الفعل "جاء" لضرورةِ الشّعر، وقد جاء بعد هذا الفعلِ اسمٌ في مُفتتَحه همزة "أبي"، فتداخلتْ حدود الكلمتين، فظُنَ أنّ المتعيّنَ: جاء ∆ بي، وليستْ هذه المَظِنّة في محلّها.

٢- ربَّك اللهَ:

منصوبٌ على التّحذيرِ، وليس كما يتوهّمه الخاطر متعلّقاً بما تقدّمه: "أهلكَ ربُّك اللهُ زيداً"، بل المعنى: اتّقِ ربَّك اللهَ، أو احذرْ، وهنا يأتي دور التّنغيمِ في الإبانةِ.

٣- يا محمّدِ زيداً:

محمَّ دِ زيداً

محمّ: منادى مرخَّم حُذِف آخره، و "دِ" فعل أمرٍ أدّت العوارضُ التّصريفيّة إلى ظهورهِ على هذه الهيئة، و"زيد" مفعول به، والمعنى: أعطِ يا محمّدُ زيداً ديتَه".

يظهرُ ممّا تقدّم أنّ الملغزَ توسّل بمجموعةٍ مِن العوامل؛ كالعارضِ الصّوتيّ وغيابِ التّنغيمِ، والمفاصلِ الصّوتيّة، وتداخلِ حدودِ الكلمات، والعوارضِ التّصريفيّة، والضّرورةِ الشّعريّة، والتّعميةِ الكتابيّةِ.

٩- هذا سليمانَ أبي جعفرٌ فقال بشراً حسنٌ هذا[(١)]

يسكن الخاطرَ الأوّل توهّمٌ مؤدّاه:

هذا سليمانُ أبو جعفرٍ قال بشر حسنٌ هذا؟

ولكنّ هذا التّوهّم لا ينفي صوابَ الصّورةِ التي جاء عليها اللّغز، ولذلك ليس ثمّ بدٌّ مِن نظرٍ بنيويّ تحليليٍّ:

---

(١) انظر ما قيل فيه:

الفارقي – الإفصاح ، ١٧٩، ابن عدلان – الانتخاب ، ٦٢٥.

١- هذا:

الهاء فيها للتنبيه، و"ذا" اسمُ إشارة، وقد يكون مِن الفعل "هَذَى يهذي"، وإذا تردّد الفعلُ بين اثنين دلّت الصّيغة على المشارَكة، فكانت "فاعَلَ: هاذى"، والحاصلُ أنّ الاشتقاقَ أدّى إلى تماثلٍ صوتيٍّ بين الفعلِ "هاذى" واسمِ الإشارة "هذا"، ولعلّ لقلّة شيوع هذا الفعلِ في الاستعمالِ "هاذى"، ولكثرةِ استعمالِ اسم الإشارةِ "هذا" يداً في نزوعِ الخاطرِ إلى كونِ المتعيّن منه "اسمَ إشارة"، ولا يخفى أنّ الكتابة وسيلةُ الإبانةِ لرفعِ هذا التّماثلِ الصّوتيّ.

٢- هذا (هاذى) سليمانَ أبي جعفرٌ

ف م . به فا بدل أو عطف بيان

والملاحظ أنّ الياء في "أبي" ليست علامةَ إعرابٍ، فليست كقولِنا: مررت بأبي جعفرٍ، وإنّما هي ضمير، والاشتباهُ واقع في التباسِ ياء الضّمير بياءِ الإعرابِ في كلمة "أبي"، وممّا يعلي مِن درجةِ الإلغاز في هذا المثالِ مرونة الجملة العربيّة؛ ذلك أنّ "أبي" فاعلٌ تقدّم المفعولَ به "سليمان".

٣- فقال بِشراً حسنٌ هذا:

"هذا" في سياقِها مِن المُهاذاة، ومرونة الجملةِ العربيّةِ تُبيح هذا التّقديمَ والتّأخير الحادث: "حسنٌ هذا بِشراً"، والمتأمّلُ يجد أنّ الملغِز قصد إلى التباسِ العلميّة "حسنٌ" بالوصفيّةِ، كقولنا: "شيء حسنٌ".

١٠- وفي الحيّ - لو يدرون قومٌ تنبّلوا- وكانوا قديماً يخدمون المخابزُ[١]

١- عَوداً على مرونة الجملةِ العربيّةِ، فالمخابز مرفوعةٌ بالابتداء، والخبر "في الحيّ"، وقد طال الفصلُ بين المبتدأ والخبرِ إلى حدٍّ أصبح فيه المُفتتَح في البيت "الخبرَ"، والمُختَتَمُ هو المبتدأ، وبينهما سياق بنيويّ عَريضٌ.

---

(١) انظر: بيان ما قبل فيه:

الفارقي - الإفصاح، ٢٢٦، ابن عدلان - الانتخاب، ٦٢٩.

٢- قوم: فاعل رُفِع بالفعل "يدرون"، وقد جاء الفعل على صيغةِ "أكلوني البراغيث"، والمعنى: "المخابزُ في الحيّ - لو يدري قوم تنبّلوا- ماتوا وقدْ كانون قديماً يخدمون.

١١- زيداً إذا خاننا بُعْداً لهمّته بالشرّ أكبرَهم مَن خاننا جازِ[١]

وهذا البيت قريبٌ ممّا تقدّمه؛ ذلك أنّ المفعول به "زيداً" قد جاء في مُفتتَحِه، والفعلَ في مُنتهاه، وفي البيت محذوفٌ، وهو حرف النّداءِ: يا أكبرَهم، وتظهر الإفادة مِن مرونةِ الجملة العربيّةِ في بعث اللّبسِ حين يُعلَم أنّ التّقدير:

يا أكبرَهم، جازِ زيداً بالشّرّ إذا خاننا، بُعْداً لهمّتِه. وهكذا يتلاعب الملغِزُ بالمواقعِ البنيويّةِ معتمِداً على التّوهيمِ.

١٢-إلى الله ربّي قد رجعت تنصّلا لتغفرَ ما قدّمت ربِّ المعارجُ[٢]

وهذا مثالٌ آخرُ مُبين عن دور مرونةِ الجملةِ العربيّة في الوقوع في اللّبسِ، فقد يُتوهّم أنّ المتعيّن:

إلى الله ربّي قد رجعتُ تنصّلاً لتغفرَ ما قدّمتُ ربَّ المعارجِ

وهذا النّصب على النّداءِ مُتقبَّل، ولكنّ الذي يدفعه هو مجيئ "ربّ" مجرورةً، ولذلك يبحث المرءُ عن مخرجٍ مِن هذا المُعتاص، فيكون في تحريكِ هذه المواقعِ البنيويّةِ الحرّة، فكأنّه يريد:

المعارجُ إلى اللهِ ربّي، ثمّ استأنف بعد هذا، فقال: قد رجعتُ تنصّلاً، لتغفرَ ما قدّمتُ يا ربّ، وقد حُذِفت ياء الضّميرِ من "ربّي"، وبقيت الكسرةُ دالّةً عليها.

---

(١) انظر ما قيل فيه:

الفارقي - المصدر نفسه ،٢٢٨، ابن عدلان - المصدر نفسه، ٦٣٠.

(٢) انظر ما قيل فيه:

الفارقي - المصدر نفسه، ١٣٦، ابن عدلان - المصدر نفسه، ٦١٣.

١٣ –وتثبّتْ إذا لقيت سُليمى فهي بدرٌ يسبيك منها الكلاما
وإذا قالت : السّلامُ عليه كلّ يومٍ فقل : عليك السّلاما[١]

موضعُ النّظرِ والتّأمّل قولُه في البيتِ الأوّل: "يسبيك منِها الكلاما"، ويظهر أنّه لا يستقيمُ ربط "الكلاما" بالفعلِ "يسبيك"؛ ذلك أنّ العلامةَ الإعرابيّة الظّاهرةَ على "الكلاما" تدفع هذا، ففي البيتِ، إذن، تقديمٌ وتأخيرٌ:

وتثبّتْ إذا لقيت سُليمى فهي بدرٌ يسبيك منها الكلاما

والمعنى: تثبّتْ الكلامَ إذا لقيتَ سُليمى منِها، فهي بدر يسبيك، أي: افهمْ ما تتحدّث به. وفي الفعل "يسبيك" ضميرٌ فاعل يعود على "بدر"، ولا يخفى أنّ هذه المرونةَ تُفضي إلى اشتباهٍ لدى القارئِ في ربط العواملِ بالمعمولاتِ، وهو مطلوب المُلغزِ.

أمّا البيتُ الثّاني، فـَ "السّلام" منصوبةٌ على الإغراءِ، فكأنّه يقول: واصلي السّلام، أو أديميه.

١٤ – إنّما الحبّ في اكتتامكِ ما لمْ يتبيّنْه منك طَرْفـ الرّقيبا[٢]

يقصد الملغزُ في هذا البيتِ إلى إثارةِ التباسِ العواملِ لدى القارئ، فقدْ يتساءل متوهّمٌ عن علّة نصبِ الرّقيب، وقد تقدّمه الفعل "يتبيّنه"،مع مَظنّة أنّه مضافٌ إلى "طرف"، ولكنّ الرّويّة والتّمحيصَ يُؤْذنان بردِّ "الرّقيبا" إلى عاملٍ آخرَ يتساوق في عملِه مع العلامةِ الإعرابيّة الظّاهرةِ على "الرّقيبا":

المتوهم
إنّما الحبّ في اكتتامك ما لمْ يتبيّنْه منكِ طرفِ الرّقيبا

(١) انظر بيان ما قيل فيه:
الفارقي – المصدر نفسه، ٣٣٤، ابن عدلان – المصدر نفسه، ٦٦٣.
(٢) انظر بيان ما قيل فيه:
الفارقي – المصدر نفسه – ١٠٣.

ويكون "الرّقيبا" منصوباً بالمصدرِ، و "طرفَ" منادى مُضافاً إلى ياءِ المتكلّم المحذوفةِ، فبقيتْ الكسرة تدلّ عليها، وبهذا يصبحُ المعنى: "إنّما الحبّ في اكتتامِك الرّقيبَ ما لم يتبيّنه مِنك يا طرفي".

١٥-قيل لي: انظرْ إلى السِّهام تجدْها طائراتٍ كما يطيرُ الفَراشا[١]

وجهُ الإلغازِ في هذا البيت قولُه: "كما يطيرُ الفراشا"، ولعلّ ظهور العلامةِ الإعرابيّةِ "الفراشا" يفضي إلى التّجافي عن جعلِ "يطير"عاملاً رافعاً لِما بعدَها، ولكنْ، أين موقعُ الفَراش في هذا التّركيبِ البنيويّ الموهِم؟

لقدْ كانتْ مرونة الجملةِ العربيّةِ وسيلةَ الملغِز في صنعتِه هذه؛ ذلك أنّ "طائرات" حالٌ مِن السّهام، والفعل "تجدها"متعدٍّ إلى مفعولَين: أحدهما الضّمير الذي اتّصل به، وثانيهما "الفراش" الذي جاء في مُختَتَم البيتِ، وقد سبقه عاملٌ يوهِم بأنّ في ظاهر التّركيبِ خللاً:

قيل لي انظرْ إلى السّهامِ تجدْها طائراتٍ كما يطير / الفَراشا

أما "ما" في قولِه: "كما يطير الفراشا" فقد تكون نكرةً موصوفةً بمعنى شيءٍ، والتّقدير كشيء يطير، وعلى هذا يكونُ ترتيب المواقعِ البنيويّة: قيل لي: انظرْ إلى السّهامِ تجدْها الفراشَ طائراتٍ كما يطير.

١٦-إذا ما جاء شهرَ الصّوم فافطرْ على مشويّةٍ وكُل النّهارُ[٢]

لعلّ متوهِّما يُنشد:

إذا ما جاء شهرُ الصوم فافطِرْ على مشويّةٍ وكلِ النّهارا

وهو وجه حسنٌ ، ولكنّه ليس مقصدَ الملغِز:

---

(١) انظر بيان ما قيل فيه:

المصدر نفسه، ٢٥٣، ابن عدلان ، الانتخاب، ٦٣٦.

(٢) انظر: الفارقي – المصدر نفسه، ٢٠٩.

١- " في البيت تقديمٌ وتأخير، وعليه يصحّ إعرابُه ومعناه"[1]؛ ذلك أنّ شهرَ الصّوم منصوب على أنّه ظرفٌ لا فاعل، والعاملُ فيه الفعل "جاء"، والمعنى المتعيّن: إذا جاء في شهرِ الصّوم.

٢- أمّا النّهار ففاعلٌ مرفوع، وعامله الفعلُ "جاء"، وقد قصد الملغز هذا الاسم قصداً، فهو ولدُ الحبارى، وتقدير الكلام: إذ ما جاء النّهارُ في شهرِ الصّوم فأفطرْ على مشويّةٍ وكُلْ.

يظهر ممّا تقدّم أنّ الملغزِ استعان على بناءِ لغزه بالمشتركِ اللّفظيّ، ومرونةِ الجملة العربيّةِ، وإنشاءِ العلاقاتِ البنيويّة المتداخلةِ.

١٧-قالَ زيدٍ سمعت صاحبَ بكرٍ   قائلٌ قد وقعت في اللّأواءُ[2]

كنتُ قد عرضتُ هذا البيت على ثلّةٍ مِن الأصدقاء مجرَّداً من الشّكل أطلب إليهم شكلَه فأجمعوا على الآتي:

قالَ زيدٌ سمعت صاحبَ بكرٍ   قائلا قد وقعت في اللّأواءِ

والحقّ أنّ هذا الضّبط هو الذي يسبقُ إلى النّفس؛ ذلك أنّه أشيعُ مِن سابقه، وأقربُ إلى الخاطرِ الأوّل، ولا شيءَ يدفعه إلاّ يقينُ القارئ بأنّ الملغز لم يجانب الصّواب، ولكنّه اتّخذ مِن اللّغة ونواميسها مَدخلاً للإلغاز مُعاياةً وتكلّفاً:

١- **قالَ زيدٍ**: جُرّ زيد، وحقّه الرّفع في الظّاهرِ على الفاعليّة، ولكنّه مِن وجهةِ مقصدِ الملغزِ مضافٌ إليه مجرور، و"قال" لفظ مشترك بين الاسميّة والفعليّة في حالة النّصبِ فقط "قالَ"، وهو في سياقِه مفعول به منصوب، والتّقدير: سمعتُ قالَ زيد: أي كلامَه، ومرونةُ الجملة العربيّة تبيح هذا التّقديم والتّأخير الذي قصده الملغزِ إنشاءً للإلغازِ وإحكاماً.

---

[1] المصدر نفسه، ٢٠٩، وقد ذكر الفارقي أن في البيت ضرورة، وهي وصل همزة القطع في " أفطر" ، ذلك أنه رباعي، وليس هذا موضع تعمية. وإنما هو ما تقدم ذكره.

[2] انظر ما قيل فيه: الفارقي – المصدر نفسه، ٧١، ابن عدلان– الانتخاب، ٦٠٠.

٢- صاحب بكرٍ

صاح ببكر: ثانيةً إلى تفكيكِ تداخلِ حدود الكلماتِ، "فصاحِ" منادى مرخَّم أصله: صاحب، وقد أُلصِقت باء الجرّ "ببكر" بهذا المنادى المرخَّم "صاحب" قصداً للإلغازِ، ويظهر أنّ غيابَ المفصلِ والعارضَ الصّوتيّ الذي أدّى إلى ترخيم المنادى قدْ أفضيا إلى هذا التّداخلِ الصّوتيّ:

صاحِ Δ ببكرِ

٣- قائل: خبر لمبتدأ محذوفٍ تقديره هو.

٤- في اللأواءُ: أمّا "في" فليست حرفَ جرّ كما هي على ظاهرِها، وإنّما فعلُ أمرٍ مِن "وفى"، وقد أضاف الملغِز رسمَ الياء حفاظاً على سترِ اللّغز. و"اللأواءُ" مبتدأ مرفوعٌ مؤخَّر خبرُه: "ببكرٍ"، وهنا يظهرُ مقصدِ الملغِز في التّلاعبِ بهذه المواقعِ البنيويّة، بلْ إنّه يلحّ إلحاحاً جليّاً على بثٍّ وهمٍ قائمٍ على خلخلةِ هذا السّياقِ البنيويّ ليوهِمَ بأنّ المرفوعَ منصوبٌ، والمجرورَ مرفوع، ويلحّ أيضاً على إذاعةِ المشترك الوهميّ، مستعيناً بتداخلِ حدودِ الكلمات، والعوارضِ الصّوتيّة وتغييبِ المفاصل الصّوتيّةِ والتّنغيم.

والمعنى في ذلك كلِّه:

سمعت قولَ زيد: يا صاحِ ببكر اللأواءُ (الشّدّة)، وهو قائل: قد وقعت.

١٨-إنّمــا زيــداً إليــنا ســاتِراً مِــن مكــانٍ ضــلّ فــيه السّاتِرُ

فهــو يأتيــنا ناعِشــا فــي سَحر مالَــه فــي يــدِه أو عامــرُ[1]

١- إنّما زيداً:

يقف المرءُ مستشرِفاً علّة نصبِ "زيداً"، علّ في ذلك مَدخلاً لرفعِ الإلغاز، فيكون رسمُ "إنّما" مؤتلفاً مِن كلمتين هما: "إنّما ← إنْ نمى"، وقد وفّق بينهما الملغِز

---

(١) انظر بيان ما قيل فيه: الفارقي – الإفصاح ، ١٩٥، ابن عدلان – الانتخاب، ٦٢٨.

لِما يُحْدثانه مِن تماثلٍ مع كلمتين أخريين، وهما "إنّ ما"، والسّبيلُ إلى رفعِ هذا الاشتباهِ هي المفصلُ لإقامةِ حدودِ كلّ كلمة: إنْ Δ نمى.

٢- **زيداً**: مفعولٌ به، و"سائرا" حال مِنه، والفعل هو "نمى"، والفاعلُ هو "السّائر"، وقد تلاعب الملغِز بمواقعِ هذه الكلماتِ، فقدّم وأخّر، والتّقدير: إنْ نَمى السّائر (الرّجل السّائر) زيداً سائراً إلينا مِن مكان ضلّ فيه، وفي الفعل "ضلّ" ضمير فاعلٌ عائد على "زيد"، والمعنى مِن "نمى السّائرُ زيداً": ردّه فألحقه بنا[1].

٣- فهو يأتيـ|نـــا عشا| في سحرٍ :

يأتي ناعِشاً في سحرٍ. وقد آثر الملغِزُ هذا الوصل الكتابيّ كما فعله في قوله "إنّما"، لأنّ المعوّل عليه في هذا الموضعِ هو التّداخل الصّوتيّ، والكتابةُ به واشية، فها نحن أولاءِ نعودُ إلى التّعمية الكتابيّةِ، وتداخلِ حدود الكلمات، وغيابِ المَفاصل الصّوتيّة، وفي "يأتي" فاعلٌ يعودُ على "زيد"، و"ناعشاً" منصوبةٌ على الحال.

٤-مالَه في يدِه أو عامر:

فهو يأتي ناعِشا في سَحر   مالَه في يدِه أو عامر

وبهذا يُفسَّر نصب "مالَه"، فهي مفعول به منصوب. أمّا "عامر" فهو اسمٌ مرفوع بالعطفِ على ضمير "زيد" في "يأتي"، أي: يأتي زيد ناعشاً مالَه، وعامرٌ كذلك[2].

١٩- لقدْ طاف عبدَ الله بالبيتِ سبعةً   فسلْ عَن عُبيدُ الله ثمّ أبا بكرُ [3]

لعلّ أوّل ما يفزعُ إليه الخاطر أنّ ضبط هذا البيتِ:

لقدْ طاف عبدُ الله بالبيتِ سبعةً   فسلْ عَن عُبيدِ الله ثمّ أبي بكرِ

---

(١) انظر: الفارقي – الإفصاح ، ١٩٥

(٢) اكتفى ابن عدلان بهذا الوجه، وأضاف الفارقيّ وجها ثانياً، وهو أن يكون معطوفاً على الضمير في الظرف، وهو قوله: " في يده" لأنه حال من ما له" انظر: الإفصاح، ١٩٦.

(٣) انظر بيان ما قيل فيه:

الفارقي – المصدر نفسه، ١٨٥، ابن عدلان –المصدر نفسه، ٦٢٧ ".

الحلّ:

١- **عبدَ الله**: الأصل فيها "عبدا الله"، وبهذا تكون فاعلاً مرفوعاً بالألف لأنّه مثنّى، وقد قَصّر الملغِزُ هذا الصّائت الطّويل "ألف التّثنية"، فجعله فتحةً قصيرة، فالتبس بالمُفرَد، ولكنّ الصّائتَ القصيرَ "الفتحة" يبقى دليلاً هادياً ومرجِعاً.

٢- **فَسلْ عنْ** عبيدُ الله:

فَسلْعَن: وكما عمد الملغز إلى إقحامِ حدودِ الكلمات لتتداخلَ في رسمٍ كتابيٍّ واحد، فقد عمل أيضاً على فصلٍ في الكلمةِ زيادةً في الإلغازِ، فقوله: "سلْعَن" ليس فعل أمرٍ يعقبُه حرف جرّ "عن"، وإنّما هو "سلعن": فعلُ ماضٍ على وزن "فعلل: دحرج"، ومعناه: أسرعَ في مشيِه، والوجهُ فتحُ آخرِه، ولكنّه أسكنه ضرورةً، و"عبيدُ الله" فاعلُه مرفوعٌ.

٣- **أبا بكرٌ**: ثانيةً إلى التّعميةِ الكتابيّة كما في "سَلْ عن"، فالأصلُ: أبى بكرٌ، فهو فعلٌ ماضٍ فاعلُه بكر.

لعلّ في هذا المثالِ فضلَ بيان يجلّي إلحاح الملغِز على بثّ مفارقاتٍ بنيويّة موهِمة: "سلْ عَن عبيدُ الله"، وعلى الاستعانةِ بالمشترَك اللّفظيّ: الحقيقيّ والوهميّ.

المتفرِّقاتُ المُجتمِعاتُ

تقابُل:

وفي مطلب الحديث عن المرشِّحات لتخلّقِ اللّبس بدا لي أنّ ثمّ تقابلاً جليّاً بين لَبس جوانيّ، وآخر برانيّ، والمُستخلَص ممّا تقدّم أنّ اللّبس قد يتخلّق مِن النّواميس الفاعلة في تشكيل النّظام اللّغويّ، فيكون واقعاً في جِبلّة اللّغة؛ كاللّبس الصّرفيّ والتّركيبيّ وتداخل حدود الكلم، وقد يأتي مِن خارج اللّغة، كاللّبس السّياقيّ وبعض مُثُل اللّبس الأسلوبيّ والمعجميّ. وثمّ تقابل آخرُ بين اللّبس والغموض، وأحسب أنّ الدّائرة الدّلاليّة التي تتربّع عليها كلمة الغموض أوسعُ مِن دائرة دلالة اللّبس، فاللَّبس يدور في فلك الاحتمال، وتعدّد المعاني، والافتراق عن مقصدِ الكلام، وقد تجلّى ذلك في الأنماط المتخلِّقة مِن التّصويت والتّصريف والتّركيب والمعجم والأسلوب والسّياق. أمّا الغموض فهو يلتقي مع اللَّبس؛ ذلك أنّ كلّ لبس هو غموض، وليس كلُّ غموض لبساً؛ فقد يكون الغموض آتياً مِن غرابة الكلمة المعجميّة، أو مِن بعض التّراكيب غير الملبِسة، ومِن ذلك قليلٌ ممّا ورد في غريب الحديث ممّا أوردته.

تعالُق :

ينبني على القول بتضافرِ المستويات اللّغويّة وتعالقِها تعالقاً عضويّاً لا تنفصم عراه نظرٌ مؤدّاه أنّ المواضع المرشِّحة لتخلّقِ اللّبس قد تتداخل، ولست أذهبُ إلى تعذّر إقامة بَون بين مُثُل اللّبس، ولكنّ المقصدِ مِن هذا المتقدِّم الإشارة إلى ظاهرة "اللَّبس المُركَّب"، وما باب القولِ على اللَّبس الآتي مِن تغييب التّنغيم إلاّ وجهٌ مِن وجوه القول على تعدّد المعاني النّحويّة في السّياق التّركيبيّ، وهنا يظهر بجلاءٍ تداخلٌ بين المستوى الصّوتيّ والنّحويّ، وليس يُنسى أنّ الحديث عن اللّبس الآتي مِن تداخلِ حدود أبنية الكلم هو لَبس صوتيٌّ صرفيّ معجميّ، وما الحديث عن

سُهْمة الصّيغة الصّرفيّةِ في اشتباه المعاني النّحويّة إلاّ بابٌ للقول على اللّبس الصّرفيّ النّحويّ، واللّبس السّياقيّ الثّقافيّ قد يتداخل مع اللّبس الآتي مِن التّطوّر الدّلاليّ، ومتطلّبات الثّقافة، ولْيُضَفْ إلى ما تقدّم أنّ اللّبس الأسلوبيّ يضرب في كلّ مستوى بسهمٍ؛ ذلك أنّ الذي يريد تعميةً وإلباساً يجنح إلى استفزاز إمكانات اللّغةِ في التّعمية والإلباس.

وعلى صعيد آخرَ، يظهر أنّ مواضع الباعثِ الواحد على تخلّق اللّبس تتداخل؛ فالحديث عن اللّبسِ الآتي مِن مرونة الجملة العربيّة يتداخلُ مع اللّبس الآتي مِن التّعلّق؛ ذلك أنّ تغيير المواقع البنيويّة الأصليّة قد يؤْذن باشتباهِ تعالق الكلم، وخفاء العلامة قد يتداخل في بعضِ مواضعه مع التعلّق، والمشترَك اللّفظيّ يشتمل على ظاهرةٍ محدودة أكثر تخصيصاً، وهي "الأضداد"، وأخرى مفتوحة، وهي الدّلالة العائمة التي تتّسع لمُدخَلات متنوّعة، وثالثة لها وسم خاصّ، وهي "المجالات الدّلاليّة". واللّبس الآتي مِن اللّهَجات يتداخل مع اللّبس الآتي مِن المشترَك اللّفظيّ، وانسلاخُ الحديث مِن سياقه يتداخل مع دخولِ الطارئ عليه مع وجود اثنين متواضعين.

تشاكُل:

لعلّ أخطر باعثٍ مِن بواعث اللّبس هو "الاشتراك"؛ والحقّ أنّه يتجلّى في مواضعَ متباينة، ومِن ذلك العلامة الإعرابيّة؛ فالمنصوبات كلّها تلتقي على علامة واحدة، والمرفوعات كذلك، والكلمة المشترَكة، ومنها الأضداد والمجالات الدّلاليّة، والدّلالة العائمةُ التي تتّسع لمُدخَلات، والقوالب الصّرفيّة التي تتردّد بين معنيين صرفيّين أو أكثر، والتّداخل الصّوتيّ الموهِم بتداخل حدود الكلم، وتداخل حدود الجمل؛ كلّ ذلك يفضي إلى اعتقادٍ مؤدّاه أنّ ظاهرة الاشتراك تتغلغل في مستويات اللّغة، لِتُؤْذن بوجود المشترَك الصّوتيّ، والمشترَك الصّرفيّ، والمشترَك النّحويّ، والمشترَك المعجميّ، والمشترك الأسلوبيّ. وينضاف إلى ما تقدّم المشترَك الكتابيّ

الآتي مِن التّجرّد مِن الضّبْط، ومِن ذلك "عرف"؛ فقد تكون: "عَرَفَ"، أو "عُرِفَ"، أو "عَرّف"، أو "عُرّف"، أو "عُرْف"، أو" عَرْف"، أو "عَرِّفْ".

احتراسٌ:

لعلّه يحسن أنْ أختتم هذا البحث باحتراسٍ يأخذ في غورين؛ أوّلُهما أنّ منتهى القول فيما تقدّم أنّه استشراف لأجلى المواضعِ المرشِّحة لتخلّق اللّبس، ولست أزعم أنّني أتيت على كلِّ أمثلة اللّبس حتّى تفرّستُها، فما دام ثمّ لغةٌ توسَم- كما يرى تشومسكي- بأنّها خلاّقة مبدعة، وما دام المرء ينتج جملاً لم يسمعْها مِن غيره صباحَ مساءَ، وما دام هناك كون-ما دام ذلك كذلك -فإنّ اللّبس سيظلّ موجوداً متخلِّقاً متجدِّداً، وليس المقصدِ مِن هذا كلِّه أنْ يُقال إنّ اللّغة ملبسةٌ تجنح إلى التّفاصل والإبهام دون التّواصل والإحكام، فالنّاس يتواصلون ويتفاهمون، وهذا مِن يُمْن الطّالع ورحمةِ الله بعباده. وثاني ذَيْنِك الغورين أنّ المرء منّا قد يقرأ الصّحيفة مِن ألفِها إلى يائها دون أنْ يَرِد على لَبس، أو يَرِدَ عليه لبسٌ في قراءته تلك، ولكنْ، مِن وجهة أخرى تنقيريّة، مَن ذا الذي يقنع اللّغويّ أنّ ذلك القارئ المتلقّيَ قد فهم المتعيّن مِن قراءته للصّحيفة كما هو متعيِّن؟ ألا يحتمل أنّه ورد على جمل فهمها فهمًا مغايراً لِما هو معنيّ ومتعيّن وهو لا يدري؟ ، وليته يدري...!

والحقّ أنّ تجليّات اللّبس المتقدِّم ذكرُها في هذه الأطروحة ليست دليلاً على قصور نظامِ العربيّة اللّغويّ؛ ذلك أنّ هذه الظّاهرة التي تقوم عليها الأطروحةُ ظاهرة لغويّة عامّة، تضرب في كلّ لغة بسهم، وليس يُنسى أنّ القول بالمفاضلةِ بين اللّغات مُطرَّح في النّظر اللّسانيّ الحديث؛ فليس ثمّ لغات "بدائيّة"، ولا لغاتٌ حضاريّة؛ ذلك أنّ القصدَ الأوّل هو التّواصل والإبانة، وكلّ اللّغات تُبين عن مقاصدِ أهلها، ولكنْ، قد يعتري النّظام اللّغويّ -أعني كلّ نظام- ما يعوّق هذا التّواصل في مواضعَ مخصوصة.

استحسانٌ:

بدا ليَ استحسان مضمونُه أنّ المبتدَأ في تمثُّل المواضع المرشِّحة لتخلّقِ اللّبس هو درس "الإبانة"؛ ذلك أنّ الضدّ بالضدّ يُعرَف، فالمضيّ مع مستويات اللّغة، وتمثّلِ إمكانات الإبانة والتّواصل مدخلٌ عريض للوقوف عند النّقطة المُشخَّصة المُحسَّة التي تتوارى فيها تلكم الإمكانات، ليظهر ما هو مُعتاصٌ مُتأبٍّ في الدّلالة عن معناه. والمفارقة اللّطيفة في هذا النّظر التفكيكيّ أنّ جمهرةً مِن إمكانات الإبانة هي إمكاناتُ إلباسٍ وتعمية في مواضعَ، ومِن ذلك المشترَك اللّفظيّ، فهي وسيلة إبانةٍ لغويّة، ولكنّها باعث لَبس، ومثلها الأضداد، والمجالات الدّلاليّة، ومثلها تناوبُ الصّيَغ الصّرفيّة، ولا يُنسى المطابقة في هذا المقام. إنّها قائمة على استرفاد بعض الفصائل النّحويّة للإبانة عن المعنى، ولكنّها تقصّر في مواضع، فلا تنفع شفاعتُها في تعيينه، بل تصبح مكمنَ اللّبس.

والضّمير وسيلة إبانة، بل وسيلةٌ لرفع اللّبس في مواضع، ووسيلة لتخلّقِ اللّبس في مواضعَ أخرى. ومرونة الجملة العربيّة كذلك شأنها، والعلامةُ الإعرابيّة وسيلة إبانة، ولكنْ، قدْ يتعطّل القول بفضلِها، فتغدو موضعاً مرشِّحاً لتخلّق اللّبس.

اختلافٌ:

معلومٌ أنّ النّاس يعبّرون عن اختلافاتِهم باللّغة، فإذا ما رأى اثنان شيئاً بعيداً فتوهّماه دون أنْ يقفا على كُنهه على وجه الإحكام، فإنّ استشرافَه والاقتراب منه يدحض حجّة أحدهما؛ ذلك أنّ أحدهما قد يقول: "ذاك كوخ"، فيُنغض الثّاني رأسَه مستنكِراً عليه قوله قائلاً: لا يا رجل؟ إنّه خشب متراكم، وليس يخفى أنّهما يعبِّران عن موضوعِ الاختلاف باللّغة، ولكنّ المشكلة الكبيرة أنْ تكون اللّغة– وهي أداة التّعبير عن الاختلاف– موضوعَ الاختلاف، وقد تبيّن أنّ كثيراً مِن الأحكام الفقهيّة مُتخلِّق مِن هذه الظّاهرة؛ ذلك أنّ التّباين في الفهم ينبني عليه تباين في الحكم؛

والمفارقةُ اللّطيفة ههنا أنّ أداة التّعبير عن الاختلافِ هي موضع الاختلاف. وقد صدق الله العظيم لمّا قال: "**ولا يزالون مختلفين**".

ومِن وجهة أخرى، قد يقف المرءُ عند أناسٍ تملّكوا القدرة الكلاميّة واللّددَ المُفحِم، وبذا يكون أحدُهم فصيحاً مُبيناً عن مقاصده، قادراً على إبطالِ حجّة مَن يقف وجاهَه، فيلبس عليه أمره، فينبري الثّاني وفي نفسه حاجة بل حاجاتٌ، ولكنْ، لا يقوى على مواجهة صاحبِ البيان المشرِق المُفحِم؛ لقد صدق الله العظيم في قولِه:

"وشددْنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصلَ الخِطاب"[ص ، ٢٠].

"فقال اكفلنيها وعزّني في الخِطاب"،[ص ، ٢٣]

فاتحـــــة:

يتّصل هذا المبحثُ بطائفة مِن الموضوعات المتباينة؛ فمِن **وجهةٍ تقابليّة** قد يعمد المرء إلى استجماعِ المواضعِ المرشّحة لتخلّقِ اللّبس في العربيّة، ومواضعِه في الإنجليزيّة، بغيةَ المقارنة القائمة على بيانِ المتّفِق والمفترِق، وما مِن ريب أنّ هذا النّظر التّقابليّ سيقف بالباحثين عند ملامحَ عريضةٍ مِن النّحو الكونيّ الذي هجس به "تشومسكي" وما زال، ولعلّ هذه الظّاهرة مدخلٌ مِن المداخل التي يُستكشَف بها هذا النّظر الكونيّ، فكونُها ظاهرةً عامّة، ومَلْمَحاً لغويّاً مشتركاً، ذو دِلالة مُبينة عن عِقْد جامع يتخلّل الأنظمة اللّغويّة المتباينة.

ومِن **وجهة حاسوبيّة**، يتّصل هذا المبحث بالدّراسات اللّغويّة الحاسوبيّة القائمةِ على استشراف سُبُل العقل الإنسانيّ في فهمِ المعنى واقتناصِه بغيةَ بثِّ هذا الفهم في تلكم الآلةِ الصّمّاء "الحاسوب". فكم وقفنا ونحن نعمل مع د. نهاد الموسى عند اشتباهٍ يقع فيه الحاسوب، ومِن ذلك عدّ النّون والياء في "مساكين" علامةً لجمع السّلامة، و"التّاء" في أواخر بعض الأفعال ضَميراً متّصلاً؛ وذلك نحو "أبِيتُ"،

وتوهّم القول على مرجعِ الضّمير، وفقدان الذّاكرة السّياقيّة؛ وغير ذلك كثير؛ كلّ هذا المتقدِّم قد يقعُ المرء في اشتباهِه، ولكنّ الحاسوب به أولى.

ومِن **وجهة تحويليّة** فالمبحث مِن المُستلزَمات الأساسيّة لإعادة النّظر في النّحو العربيّ؛ ذلك أنّ قولنا: "هذا تركيب ملبِس" يستلزم افتراضاً عقليّا مؤدّاه أنّنا نتحدّث عن معنيين ينتسبان إلى بنيتين عميقتين.

ومِن **وجهة أسلوبيّة**، قدْ يُوجَّه النّظر إلى صنعِ معجم أسلوبيٍّ غرضُه استجماع كثيرٍ مِن الجمل اللّغويّة المتجافية عن الإشكال واللَّبس، المُبينة عن دِلالتها بجلاء، وليس القصدُ أنْ يكون المعجم ممّا ينتسب إلى كتب التّصويب والتّخطئة القائمة على "قل ولا تقل"، ولعلّ أقرب وصف يلابسُه هو متابعة بعض القدماءِ الذين كانوا يشيرون إلى الخروجِ عن القياس درءاً للّبس، فالمعجم إذًا قائم على محاولةٍ لاستجماع الجملِ الملبِسة بالتّنبيه عليها؛ ذلك أنّ كثيراً مِنها ممّا يُفضي إلى الولوج في مَزالقِ الحرج.

ماذا عسى أنْ أقول بَعْداً؟ ليكنْ هذا البحث فاتحةً لأبحاث تعوزُها همّة تأبى أنْ تقنعَ إلاّ بالتّمام إنْ كان ثَمّ تمامٌ.

والحمدُ للهِ في بدءٍ وفي ختَم



المصادر والمراجع

العربيّة :

- إبراهيم أنيس – الأصوات اللّغويّة ، ط٣ ، دار النّهضة العربيّة،القاهرة، ١٩٦١م.
- إبراهيم أنيس – دلالة الألفاظ، ط١، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٦م.
- إبراهيم أنيس– من أسرار اللغة ، ط٣، مكتبة الأنجلو،القاهرة،١٩٦٦م٠
- إبراهيم رمّاني– الغموض في الشّعر العربيّ الحديث، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر،١٩٨٧م ٠
- إبراهيم السامرائي– الفعل زمانه وأبنيته، ط٣، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٨٣م.
- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات (٦٠٦) هـ– النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق أحمد الزاوي ومحمود الطناجي، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٣م.
- ابن الأثير، أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد (٦٣٧) هـ – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م.
- أحمد الحملاوي– شذا العرف في فن الصرف، مكتبة النهضة العربية، بغداد،١٩٥٣م.
- أحمد الشيخ– كتب الألغاز والأحاجي اللغوية وعلاقتها بأبواب النحو المختلفة، ط٢، الدار الجماهيرية، طرابلس،١٩٨٨م٠
- أحمد مختار عمر – دراسة الصوت اللغويّ، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩١م.
- أحمد مختار عمر– علم الدلالة ، ط٣، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٢م.
- أحمد ياقوت– ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم، دار المعرفة، الجامعة الإسكندرية، ١٩٩٠م.
- الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة (٢١٥)هـ – معاني القرآن، تحقيق هدى قراعة، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠م٠
- أرسطو – فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م.

- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (٣٧٠)هـ - تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مراجعة على النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤م.
- الأستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن (٦٨٦هـ) - شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد الحسن، محمد الزفزاف، محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.
- الأستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن (٦٨٦هـ)- شرح كافية ابن الحاجب، تحقيق إميل يعقوب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٩٨م.
- الأصفهاني، أبو بكر محمد بن أبي سليمان(٢٩٧ هـ)- الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٥م.
- الأعشى، (ميمون بن قيس)-ديوانه، شرح محمد محمد حسين، ط٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م٠
- الآمدي، سيف الدين علي (٦٣١)هـ- الإحكام في أصول الأحكام، دار الفكر العربي، القاهرة ، ١٩٦٨م.
- الآمدي، أبو الحسن علي بن أبي علي (٦٣٠هـ)-كتاب المُبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين، تحقيق عبدالأمير الأعسم، ط١، دار المناهل، بيروت، ١٩٨٧م.
- ابن الأنباري، أبو البركات عبدالرحمن بن محمد (٥٧٧هـ) -الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، القاهرة، (د.ت).
- ابن الأنباري، أبو البركات عبدالرحمن بن محمد (٥٧٧هـ) - البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق طه عبد الحميد طه،مراجعة مصطفى السقا، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٠م.
- ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم (٣٢٨هـ)- الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧م.
- ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم (٣٢٨هـ) -إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، تحقيق محيي الدين رمضان، ط١، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧١م.

- إن سوب لي– الحال والتمييز: نموذج في تأسيس الفرق ورفع اللبس بين المنصوبات، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٣م.
- الأنصاريّ، أبو يحيى زكريا بن محمد (٩٢٦هـ) –المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء، ط٢، دار المصحف، دمشق، ١٩٨٥م.
- البغدادي، عبدالقادر بن عمر(١٠٩٣هـ) –خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبدالسلام هارون، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٦م.
- البلخي، مقاتل بن سليمان (١٥٠هـ)– الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق عبدالله شحاتة ، ط٢، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ، ١٩٩٤م.
- تمام حسان– أمن اللبس ووسائل الوصول إليه في اللغة العربية، حولية كلية دار العلوم، (جامعة القاهرة)، ١٩٦٩م.
- تمام حسان– القرائن النحوية واطراح العامل والإعرابين: التقديريّ والمحليّ، اللسان العربي، المجلد ١١، مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي، الرباط، ١٩٧٤م.
- تمام حسان– اللغة العربية معناها ومبناها ،ط١، دار الثقافة ، الدار البيضاء، (د.ت).
- تمام حسان– مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.
- توفيق شاهين– المشترك اللغوي: نظرية و تطبيقاً، ط١، مطبعة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٠م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم(٧٢٨هـ) – تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير فيها القول الصواب، بل لا يوجد فيها إلا ما هو خطأ، تحقيق عبدالعزيز الخليفة، ط١، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٩٧م.
- الثعالبي، أبو منصورعبدالملك بن محمد(٤٢٩هـ)– الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيها وتنوعت معانيها، تحقيق محمد المصري، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م.
- الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد(٤٢٩هـ) –ثمار القلوب في معرفة المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

- الثعالبـــي، أبو منصور عبدالملك بن محمد (٤٣٠هــ)- فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط٣، دار الفكر،القاهرة، (د.ت).
- الثعالبـــي، أبـــو منصور عبدالملك بن محمد (٤٣٠هــ)- الكناية والتعريض، تصحيح محمد النعساني، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٨م.
- الجـــاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هــ)- البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٠م.
- الجرجانـــي، أبـــو العباس أحمد بن محمد (٤٨٢هــ) – المنتخَب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، تحقيق محمد النعساني، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٨م.
- الجرجانـــي، عـــبدالقاهر بن عبدالرحمن (٤٧١هــ)- دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٩م.
- الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز(٣٩٢هــ) -الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل وعلي البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٦م.
- الجرجاني، علي بن محمد (٨١٦هــ)- التعريفات ، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م.
- ابن الجزري ، شمس الدين محمد بن محمد(٨٣٣هــ) – النشر في القراءات العشر، أشرف على تصحيحه ومراجعته علي الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هــ)- الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٠م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هــ)- سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٩٣م.
- ابـــن جنـــي، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هــ)- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضـــاح عـــنها، تحقيق علي ناصف، وعبدالحليم النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هــ) – المنصف، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، ط١، إدارة إحياء التراث القديم، القاهرة، ١٩٦٠م٠

- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد(٣٩٣هـ) -الصحاح،(تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٦م.
- الحربيّ، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق(٢٨٥هـ)-غريب الحديث(المجلدة الخامسة)، تحقيق سليمان بن إبراهيم العايد، دار المدني، جدة، ١٩٨٥م.
- حسين نصّار، المعجم العربيّ: نشأته وتطوره، ط٤، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٨٨م.
- الحريري، القاسم بن علي(٥١٦ هـ)- درة الغواص في أوهام الخواص، مكتبة المثنى، بغداد، (د. ت.)،
- ابن حزم، علي بن أحمد(٤٥٦ هـ) -الإحكام في أصول الأحكام، ط٢، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢م.
- ابن الحلبي، عبد البرمحمد بن محمد(٩٢١ هـ)- النظائر الأشرفية في ألغاز الحنفية، تحقيق محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت ،١٩٩٨م٠
- حلمي خليل – العربية والغموض: دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٨م.
- حلمي خليل– الكلمة : دراسة لغوية معجمية، ط٢، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢م.
- أبو حيان الأندلسيّ، أثير الدين محمد بن يوسف (٧٤٥هـ) – تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبدالموجود وآخرين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
- أبوحيان، أثير الدين محمد بن يوسف (٧٤٥هـ)- تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، تحقيق أحمد مطلوب، خديجة الحديثي، وزارة الأوقاف، بغداد، ١٩٧٧م.
- الخطابي، أبو سليمان محمد بن محمد البُستي(٣٨٨هـ) – غريب الحديث، تحقيق عبد الكريم العزباوي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٢م.
- خليل عمايرة – رأي في بعض أنماط التركيب الجملي في اللغة العربية في ضوء علم اللغة المعاصر، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، المجلد ٢، العدد ٥، الكويت ١٩٨٢م.
- خليل عمايرة– في التحليل اللغويّ، ط١، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٧م.

- خليل عمايرة – في نحو اللغة وتراكيبها، ط١، عالم المعرفة، جدة، ١٩٨٤م.
- الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد(٤٤٤هـ)- المكتفى في الوقف والابتدا، ط١، تحقيق جابر زيدان مخلف، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ١٩٨٣م.
- داود عبده – أبحاث في اللغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٣م.
- داود عبده – البنية الداخلية للجملة الفعلية في العربية، الأبحاث، الجزء ٣١، كلية الآداب والعلوم، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٨٣م.
- داود عبده– دراسات في علم اللغة النفسيّ، ط١،جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٤م.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن(٣٢١هـ)- الملاحن، تصحيح إبراهيم الجزائري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
- الراغب، أبو القاسم حسين بن محمد (٥٠٢هـ)- المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد الكيلاني، مطبعة البابي الحلبي ،القاهرة ،١٩٦١م.
- ابن رشيق، أبو عليّ الحسن القيرواني (٤٥٦هـ) – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٣، مطبعة السعادة، القاهرة ، ١٩٦٣م.
- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى(٣٨٤هـ)- معاني الحروف، تحقيق عبدالفتاح شلبي، ط٢، مكتبة الطالب الجامعي، السعودية، ١٩٨٦م.
- رمضان عبدالتواب– فصول في فقه العربية، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤م.
- ابن الزبير، أحمد بن إبراهيم (٧٠٨هـ)- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تحقيق سعيد الفلاح، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م.
- الزجاجي، أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق(٣٣٧هـ) – الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، ط٦، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٦م.
- الزَّركَشي، بدر الدين محمد بن عبدالله(٧٩٤هـ) – البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧م.
- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر(٥٣٨هـ) – الفائق في غريب الحديث، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.

- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(٥٣٨هـ)-الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط١، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٧م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(٥٣٨هـ)-المحاجاة بالمسائل النحوية، تحقيق بهيجة باقر الحسني، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٤م.
- السجستاني، أبو بكر محمد بن عُزَيز (٣٣٠هـ)- نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، تحقيق يوسف المرعشلي، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٠م.
- ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل (٣١٦هـ) – الأصول في النحو، تحقيق عبدالحسين الفتلي، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٩٦م.
- ابن سلام، يحيى بن سلام البصري(٢٠٠هـ) – التصاريف: تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، تحقيق هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس، ١٩٨٠م.
- السلسيلي، أبو عبدالله محمد بن عيسى(٧٧٠هـ) – شفاء العليل في إيضاح التسهيل، تحقيق الشريف عبدالله البركاتي، ط١، المكتبة الفيصلية،مكة، ١٩٨٦م.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان(١٨٠هـ)-كتاب سيبويه، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م.
- ابن السِّيد، عبدالله بن محمد البطليوسي(٥٢١هـ) –إصلاح الخلل الواقع في الجمل، تحقيق حمزة النشرتي، دار المريخ، الرياض،١٩٧٩م.
- ابن السيد، عبدالله بن محمد البطليوسي(٥٢١هـ)- الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، تحقيق محمد الداية، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧م.
- ابن السيد، عبدالله بن محمد البطليوسي (٥٢١هـ) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق مصطفى السقا وحامد عبدالمجيد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م.
- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر(٩١١هـ) – الإتقان في علوم القرآن؛ تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، بإشراف عبدالمنعم إبراهيم، ط٢، مكتبة نزار الباز، الرياض، ١٩٩٨م.

- السـيوطي، جـلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ) – الأشباه والنظائر في النحو، مراجعة فايز ترحيني، ط٣، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٩٦م.
- السـيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(٩١١هـ) – جنى الجناس، تحقيق محمد الخفاجي، ط١، الدار الفنية، القاهرة، ١٩٨٦م.
- السـيوطي، جلال الدين عبدالرحمن(٩١١هـ)- لباب النقول في أسباب النزول، ط٣، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٠م.
- السـيوطي، جـلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(٩١١هـ)- مفحمات الأقران في مبهمات القرآن، تحقيق ذيب البغا، ط٢، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٩٨٣م.
- السـيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(٩١١هـ)- المزهر في علوم اللغة وأنواعهـا، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، (د.ت).
- السـيوطي، جـلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(٩١١هـ)-همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- الشريشي، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن- شرح مقامات الحريري، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- الشـريف الرضـي، أبـو الحسـن محمد بن الحسين(٤٠٦هـ)- تلخيص البيان في مجازات القرآن، ط١، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.
- الشـريف الرضـيّ، أبو الحسن محمد بن الحسين(٤٠٦)- المجازات النبوية، تحقيق محمود مصطفى، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧م.
- الصبان، محمد بن علي(١٢٠٦هـ)- حاشية الصبان على شرح الأشموني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- صبحي الصالح- دراسات في فقه اللغة، ط١٢، دار العلم، بيروت، ١٩٨٩م.
- طاشكبري زاده، عصام الدين أحمد بن مصطفى (٩٦٨هـ)- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ط٢،دائرة المعارف العثمانية ،حيدر أباد ،١٩٧٧م.
- طاهر سليمان حموده-أسس الإعراب ومشكلاته، الدار الجامعية،الإسكندرية،-١٩٨٠.

- ابـــن طباطبا، محمد بن أحمد (٣٢٢هــ)- عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة،١٩٥٦م.
- طنطاوي دراز – ظاهرة الاشتقاق في العربية، مطبعة عابدين، القاهرة، ١٩٨٦م.
- أبـــو الطيـــب اللغـــوي(٣٥١هــــ)- الأضـــداد في كلام العرب، تحقيق عزة حسن، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٦٨م.
- ابـــن عـــباس-غريب القرآن في شعر العرب: سؤالات نافع بن الأزرق، عبد الله بن عـــباس، تحقـــيق محمد عبد الرحيم، أحمد نصر الله، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٩٣م.
- ابن عباس، عبدالله بن عباس(٦٨هــ)- كتاب اللغات في القرآن، رواية ابن حسنون ، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٤٦م.
- عبدالفـــتاح الحموز- ظاهرة التعويض في العربية وما حمل عليهما من مسائل، ط١، دار عمار، عمان، ١٩٨٧م.
- عبد القادر السعدي- أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام من آيات القرآن التشريعية، ط١، مطبعة الخلود، بغداد، ١٩٨٦م.
- عبد القادر عبد الجليل- علم الصرف الصوتيّ، ط١، دار أزمنة، عمان، ١٩٩٨م.
- عبد القادر الفهري- البناء الموازي، نظرية في بناء الكلمة وبناء الجملة، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٨م.
- عـــبد الله أميـــن-الاشـــتقاق، ط١، مطـــبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م.
- عـــبد الوهـــاب طويلـــة-أثـــر اللغـــة فـــي اختلاف المجتهدين، دار السلام، القاهرة، ١٤١٤هــ.
- أبو عبيدة، مَعْمَر بن المثنى(٢١٠هــ)-مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، محمد الخانجي، القاهرة، ١٩٦٢م.

- ابـن عدلان، علي بن عدلان الموصلي(٦٦٦هـ)- الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعـراب، تحقـيق حـاتم الضـامن،(منشـور مـع مجموعـة نصوص في اللغة والنحو)،وزارة التعليم العالي ،بغداد ،١٩٩٠م.
- عدنـان بـن ذريل- اللغة والدلالة، آراء و نظريات، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨١م.
- عز الدين إسماعيل- الشعر العربي المعاصر، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م.
- عصـام نور الدين- علم وظائف الأصوات اللغوية، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٢م.
- عصام نور الدين- الفعل والزمن، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤.
- ابن عصفور، علي بن مؤمن(٦٦٩هـ)- المقرب، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري، عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد (د.ت).
- ابـن عصـفور، أبو الحسن علي بن مؤمن(٦٦٩هـ)- الممتع الكبير في التصريف، تحقيق فخر الدين قباوة، ط٨، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٦م.
- ابـن عقيل، بهاء الدين عبدالله(٧٦٩هـ)- شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، دار الخير، بيروت، ١٩٩٠م.
- العكـبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين(٦١٦هـ)- إعراب الحديث النبويّ، تحقيق حسن الشاعر، ط٢، دار المنارة، جدة، ١٩٨٧م.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (٦١٦هـ)- التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي البجاوي، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧م.
- العكـبري، أبو البقاء عبدالله بن الحسين(٦١٦هـ) – مسائل خلافية في النحو، تحقيق محمد خير الحلواني، (د.م). (د.ن) ، -١٩٦م.
- العمـري، محمد أمين بن خير الله (١٢٠٣هـ) – تيجان البيان في مشكلات القرآن، تحقيق حسن الرزو، ط١، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٥م.

- الغزالي، الإمام أبو حامد، محمد بن محمد (٥٠٥هـ)- المستصفى في علوم الأصول، تحقيق إبراهيم رمضان، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٤م.
- فؤاد ترزي- في أصول اللغة والنحو، مطبعة دار الكتب، بيروت، ١٩٦٩م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس(٣٩٥هـ)- الصاحبيّ في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق عمر الطباع، ط١، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٩٣م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (٣٩٥هـ)- فتيا فقيه العرب، تحقيق حسين محفوظ، المجمع العلمي، دمشق، ١٩٥٨.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس(٣٩٥هـ)- معجم مقاييس اللغة، ط١، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.
- الفارسيّ، أبو علي الحسن بن أحمد(٣٧٧هـ) – شرح الأبيات المشكلة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، ط١، دار القلم، دمشق، دائرة العلوم والثقافة، بيروت، ١٩٨٧م.
- الفارقي، أبو نصر الحسن بن أسد(٤٨٧هـ)- الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب، ط٣، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م.
- فاضل الساقي- الزمن الصرفي والزمن النحوي في اللغة العربية، الضاد، جزء ٣ ، كانون الثاني، بغداد، ١٩٨٩م.
- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد(٢٠٧هـ)- معاني القرآن، تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.
- ابن فُورَك، أبو بكر محمد بن الحسن(٤٠٦هـ)-مشكل الحديث وبيانه، تحقيق موسى علي، مطبعة حسان، القاهرة،(د٠ت)٠
- القاضي، عبدالجبار بن أحمد الهمذاني (٤١٥هـ)- متشابه القرآن، تحقيق عدنان زرزور، دار التراث، القاهرة، ١٩٦٩م.
- القالي، أبو عليّ إسماعيل بن القاسم(٣٥٦هـ)- الآمالي، تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.

- ابن قتيبة، أبومحمد عبد الله بن مسلم(٢٧٦هـ)-أدب الكاتب، شرح على فاعور،ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
- ابن قتيبة،عبد الله بن مسلم(٢٧٦هـ)-تأويل مختلف الحديث، تحقيق محمد عبدالرحيم، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- ابـن قتيـبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم(٢٧٦هـ)- تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٣م.
- ابـن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم(٢٧٦هـ) -تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.
- ابـن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم(٢٧٦هـ) -غريب الحديث، صنع فهارسه نعيم زرزور، ط١، دار الكتب العملية، بيروت ،١٩٨٨م.
- القرطاجني، أبو الحسن حازم(٦٨٤هـ)- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م.
- القزويني، الخطيب محمد بن عبدالرحمن(٧٣٩هـ)-الإيضاح في علوم البلاغة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
- القسطلاني،شهاب الدين أحمد بن محمد(٩٢٣هـ)-لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقـيق عامـر السـيد عثمان، وعبد الصبور شاهين، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٢م.
- ابـن كثـير، الحـافظ عمـاد الدين أبو الفداء(٧٧٤هـ)- تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣م.
- الكرمانـي، بـرهان الديـن محمـود بن حمزة(٥٠٥هـ)-البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م٠
- الكفـوي، أبـو البقاء أيوب بن موسى(١٠٩٤هـ) - الكليات، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، ط٢، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٩٣م.
- كمال بشر- دراسات في علم اللغة (القسم الثاني)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.

- لطــيفة النجار– دور البنية الصرفية في وصف الظاهرة النحوية وتقعيدها ،ط١، دار البشير، عمان، ١٩٩٤م.
- المالقــي، أحمــد بن عبدالنور(٧٠٢هــ) – رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق،١٩٧٥م٠
- ابــن مالك، جمال الدين الأندلسيّ (٦٧٢هــ)– شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجــامع الصــحيح، تحقــيق طــه محسن، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ١٩٨٥م.
- ابــن مالك، جمال الدين الأندلسي(٦٧٢هــ)– المباني المختلفة في المعاني المؤتلفة، تحقيق محمد عواد، ط١، دار الجيل، بيروت، دار عمار، عمان، ١٩٩١.
- مالك المطلبي– اللغة والزمن، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.
- المــبرد، أبــو العباس محمد بن يزيد(٢٨٥هــ) – الكامل، تحقيق محمد الدالي، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م.
- المــبرد، أبــو العباس محمد بن يزيد(٢٨٥هــ)– المقتضب، تحقيق محمد عضيمة، ط١، عالم الكتب، بيروت ،١٩٦٨م٠
- مجموعــة (التــبريزي، ٥٠٢هــ)، البطليوسي (٥٢١هــ)، الخوارزمي (٦١٧هــ)– شروح سقط الزند، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، الدار القومية، القاهرة،١٩٦٤م٠
- محمــد حماســة عبداللطــيف – بــناء الجملــة العربية، ط١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦م.
- محمــد حماسة عبداللطيف – العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٤م.
- محمد الخولي– الأصوات اللغوية، ط١، دار الفلاح، عمان، ١٩٩٠م٠
- محمد الخولي– مدخل إلى علم اللغة ، ط١، دار الفلاح، عمان، ١٩٩٣م.
- محمــد عــبادة – الجملة العربية: دراسة لغوية نحوية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٤م.

- محمــد المبارك- فقه اللغة وخصائص العربية، دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية، وعــرض لمــنهج العربــية الأصــيل في التجديد والتوليد، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٨م٠
- محمود حجازي – مدخل إلى علم اللغة ، ط٢، وزارة الثقافة، القاهرة ، ١٩٨٦م.
- محمود درويش – ديوانه ، العودة، بيروت، ١٩٩٤م.
- محمــود الســعران- علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت).
- محموديــاقوت – ظاهــرة الــتحويل في الصيغ الصرفية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٨٥م.
- المرادي، الحسن بن قاسم(٧٤٩هــ)- الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
- مصطفى صادق الرافعي- تاريخ آداب العرب، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩١١م٠
- المعري، أبو العلاء (٤٤٩هــ)- عبث الوليد، تحقيق ناديا الدولة، دمشق، ١٩٦٨م٠
- مكــي بــن أبــي طالــب(٤٣٧هــ)- العمدة في غريب القرآن، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.
- مكــي بن أبي طالب(٤٣٧هــ)- مشكل إعراب القرآن، تحقيق حاتم الضامن، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٥م.
- ابــن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم(٧١١هــ)- لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- منــيرة العلــولا- الإعراب وأثره في ضبط المعنى، دراسة نحوية قرآنية، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣م.
- مهــدي عرار- جدل اللفظ والمعنى: دراسة في علم الدلالة العربي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٥.
- الــنابغة الذبيانــي – ديوانه، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٣م.

- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد(٣٣٨هـ) -إعراب القرآن، تحقيق زهير زاهد، ط ٣، عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٨م.
- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد(٣٣٨هـ) – القطع والائتناف، تحقيق أحمد العمر، ط١، مطبعة العاني، بغداد ، ١٩٧٨م.
- نعمان العلي–غريب الحديث النبوي: لغته وتاريخه وتصنيفه ومعاييره، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، ١٩٨٧م.
- نهاد الموسى– أضواء على مسألة التعدد في وجوه العربية، أفكار، العدد ٢٨، عمان، ١٩٧٥م، (٣٨-٥٥).
- نهاد الموسى– الأعراف(أو نحو اللسانيات الاجتماعية في اللغة العربية)، المجلة العربية للدراسات اللغوية، المجلد ١، العدد١ ، معهد الخرطوم الدولي، ١٩٨٥م.
- نهاد الموسى–اللغة العربية وأبناؤها، أبحاث في قضية الخطأ وضعف الطلبة في اللغة العربية، ط٢، مكتبة وسام، عمان، ١٩٩٠م.
- نهاد الموسى– نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ط٢، دار البشير، عمان، ١٩٨٧م.
- نهاد الموسى– الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه، مجلة حضارة الإسلام، العدد ١، دمشق، ١٩٧٤م.
- أبو نواس، الحسن بن هانئ– ديوانه، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٢م.
- النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (٤٦٨هـ)- أسباب النزول ، ط١، دار هلال، بيروت ١٩٨٣م.
- ابن الهائم، أبو العباس أحمد بن محمد(٨١٥هـ)- التبيان في تفسير غريب القرآن، تحقيق فتحي أنور الدابولي، دار الصحابة، طنطا، ١٩٩٢م.
- الهروي، أبو عبيد القاسم بن سلام(٢٢٤هـ) – غريب الحديث ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
- الهروي، أبو عبيد القاسم بن سلام(٢٢٤هـ)- لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم، تحقيق عبدالحميد السيد طلب، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٥م.

- ابــن هشام، جمال الدين بن هشام(٧٦١هــ)- ألغاز ابن هشام في النحو، تحقيق أسعد خضير، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.
- ابــن هشـــام، جمال الدين بن هشام(٧٦١هــ) – أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٦م.
- ابــن هشام، جمال الدين بن هشام(٧٦١هــ) –شرح شذور الذهب، تحقيق عبد الغني الدقر، ط٢، الدار المتحدة، دمشق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن هشام، جمال الدين بن هشام(٧٦١هــ)- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك، ومحمد حمد الله، ط٢، مكتبة سيد الشهداء، (د.ن)، ١٩٧٢م.
- اليزيدي، أبو عبدالرحمن عبدالله بن يحيى(٢٣٧هــ)- غريب القرآن وتفسيره، تحقيق عبدالرزاق حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.
- ابن يعيش، موفق الدين (٦٤٣هــ)- شرح المفصل، عالم الكتب ، بيروت، (د.ت).

المراجع المترجمة:

- أولمــان، ســتيفن–دور الكلمــة في اللغة، ترجمة كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٦٢م.
- بــارت، رولان–الــنقد والحقــيقة، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥م٠
- بالمر،ف٠ ر–علم الدلالة: إطار جديد، ترجمة صبري السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢م٠
- بــاي ،ماريو–أسس علم اللغة،ترجمة أحمد مختار عمر، منشورات جامعة طرابلس، طرابلس، ١٩٧٣م.
- تشومســكي، نعــوم– البــنى النحوية، ترجمة يوئيل عزيز، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.
- تشومسكي، نعوم– محاضرات ودن:تأملات في اللغة،ترجمة مرتضى باقر وعبدالجبار علي، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م٠

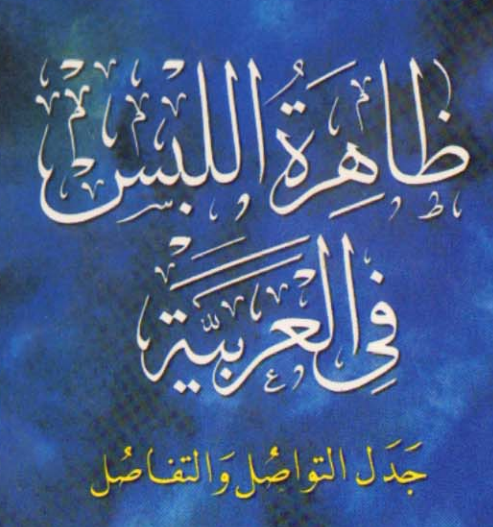
- موور،تيريــنس و كارلـــنغ، كريســـتين-فهــم اللغـــة: نحـــو علم لغة لما بعدمرحلة تشومسكي، ترجمة حامد الحجاج، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٨م.
- جرومان، كلود وريمون، لوبلان-علم الدلالة، ترجمة نور الهدى لوشن، دار الفاضل، دمشق، ١٩٩٤م.
- جريـــن، جوديث- علم اللغة النفسي: تشومسكي وعلم اللغة، ترجمة مصطفى التوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.
- جـــيرو، بيـــير-علـــم الدلالـــة، ترجمة منذر عياشي،ط١، دار طلاس للنشر، دمشق، ١٩٩٢م.
- دي سوسير، فردينان- فصول في علم اللغة العام،ترجمة أحمد الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٢م.
- ســـيرل، جـــون- تشومســـكي والثورة اللغوية، الفكر العربي(الألسنية أحدث العلوم الإنســـانية)،العـــددان ٨-٩، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، ١٩٧٩م.
- شيللر، هربرت. أ-المتلاعبون بالعقول،ترجمة عبدالسلام رضوان، ط٢،عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٩م.
- كريستل، دافيد- التعريف بعلم اللغة،ترجمة حلمي خليل، ط١، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م.
- فلـــيش، هنري- العربية الفصحى، نحو بناء جديد، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط٢، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٦م.
- فـــندريس، جوزيـــف- اللغة، ترجمة عبد الرحمن الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م.
- أ. كوند راتوف- أصوات وإشارات: دراسة في علم اللغة، ترجمة إدور يوحنا، وزارة الإعلام، بغداد، (د.ت).
- لـــيونز، جون- علم الدلالة(الفصلان التاسع و العاشر من كتاب مقدمة في علم اللغة النظري)، ترجمة مجيد الماشطة، وآخرين، ط١، جامعة البصرة، البصرة، ١٩٨٠م.

- لــيونز، جون – اللغة وعلم اللغة، ترجمة مصطفى التوني، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٧م.
- لــيونز، جــون– اللغــة واللغويات، ترجمة محمد العناني، ط١، مركز دانة، عمان، ١٩٩١م.
- ليونز، جون – اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس عبد الوهاب، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، ١٩٨٧م.
- لوينز، جون – نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م.
- مارتنــيه، أندريه– مبادئ ألسنية عامة، ترجمة ريمون رزق الله ، ط١، دار الحداثة، بيروت، ١٩٩١م.
- مالمــبرج، برتيل – الصوتيات، ترجمة محمد حلمي هليل ، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ١٩٩٤م.
- نيدا، يوجين– نحو علم الترجمة، ترجمة ماجد النجار، وزارة الإعلام، بغداد،١٩٧٦م.
- ياكوبســون، رومان– أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب، ترجمة فالح الأمارة وعبد الجبار محمد علي، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٠م.
- ياكوبسون، رومان– ست محاضرات في الصوت والمعنى، ترجمة حسن ناظم وعلي صالح، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤م.

المراجع الأجنبية

- Akmajian, Linguistics: An Introduction to Language and Communication, The MIT Press, Massachusetts, 1979.
- Amr, M., Ambiguity in English Newspaper Headlines, University of Jordan, 1994.
- Baland, R. , The Pleasure of the Text, translated by Miller, R., London, 1976.
- The New Encyclopaedia, Britannica, 15 TH Edition(1990) U.S.A, 10/58 (Riddle).
- Chomsky, N., Aspects of the Theory of Syntax, The M.I.T Press, 1965.
- Comrie, B., Language Universal and Linguistics Typology Syntax and Morphology, Oxford, Basil Blackwell, 1981.
- Crystal, D., A Dictionary of Linguistics and Phonetics, Blackwell Publishers, Massachusetts, U.S.A. 1991.
- Danesi, M., Puzzles and Games in Language Teaching, Lincoln wood, Nation Textbook, 1987.
- Eckler, A., Word Recreations: Games and Diversions From Word Ways, A. Ross Echler, Dover Pub, NewYork, 1979.
- Empson, W., Seven Types of Ambiguity, Chatto and Windus, London, 1963.
- Fant, G., Speech, Sound, and Features, MIT Press, Massauchusetts, 1973.
- Firth, J., Papers in Linguistics, Oxford University Press, London, 1964.
- Fodor, J., and Katz, Jerrold, The Structure of Language : Readings in the Philosophy of Language, Massachusetts, Prentice- Hall, New Jersey 1964.
- Jackson, H., Words and their Meaning, Longman, London, 1991.
- Jones, D., The Phoneme, its Nature and Use, Heffer and Sons, Cambridge 1962.
- Lehiste, I., Suprasegmental, The MIT Press, Massachusetts, 1977.
- Kats, J. Symantic Theory, Harper and Row, New York, 1974.

- Kooij, J., Ambiguity in Natural Language: An Investigation of Certain Problems in its Linguistics Description, North Holand, Publishing Company, Amsterdam, 1971.
- Kramsky, J., The Phoneme: An Introduction to the History and Theories of A Concept, Munchen, Will helm, Finkverlag, 1974.
- Katamba, F., An Introduction to Phonology, Longman, New York, 1989.
- Katamba, F., Morphology, The Macmillan Press, London, 1993.
- Leech, G. N., A linguistic Guide to English Peotry, Longman, London, 1969.
- Nida, A., Morphology: The Descriptive Analaysis of Words, The University of Michigan Press, 1965.
- Quirk, A Comprehensive Grammar of the English Language, Longman, New York, 1991.
- Robins, R.H., General Linguistics, Longman, New York, 1989.
- Schlesinger, Production and Comprehension of Utterances, Lawrence Erlbaum, N.j., 1977.
- Singh, S., Phonetics: Principles and Practise, University of Park Press, 1982.
- Soon, S., Lexical Ambiguity in Poetry, Longman Publishing, New York, 1994.
- Tiffany, W., and Carrell, J.Phonetics: Theory and Application, Mccraw Hill Boole Company, 1977.



جدل التواصل والتفاصل

ISBN 9957-11-379-8
9 789957 113797





الأردن - عمّان - شارع الجمعية العلمية الملكية - مقابل باب الجامعة الأردنية الشمالي
هاتف: 5837 533 6 962+ موبايل: 79 79 86 795 962+ فاكس: 1661 533 6 962+
تطلب منشوراتنا من دار الشروق للنشر والتوزيع - رام الله - نابلس - غزة
www.darwael.com E-mail:wael@darwael.com
ص.ب (1746) - الجبيهة - الأردن